

نصوص في علوم القرآن

تأليف

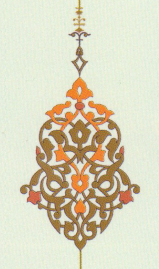
السيد علي الموسوي الدارابي

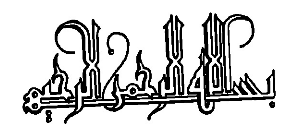
المجلد الثاني
(النزول)

بإشراف

مدير قسم القرآن

الأستاذ العلامة محمد واعظ زاده الخراساني




بسم الله الرحمن الرحيم

نصوص في علوم القرآن

تأليف

السيد علي الموسوي الدارابي

المجلد الثاني

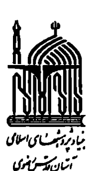
(النزول)

بإشراف

مدير قسم القرآن

الأستاذ العلامة محمد واعظ زاده الخراساني

موسوي دارابي، علي، ١٣٣٤ -
نصوص في علوم القرآن / تأليف علي الموسوي الدارابي: بإشراف محمد واعظزاده الخراساني. - مشهد: مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤٢٩ق. = ١٣٨٦ش.
ج.
ISBN set 978-964-444-380-0
ISBN 978-964-444-569-9 (ج٢)
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
عربي
كتابنامه
١.قرآن - - علوم قرآني. ٢. قرآن - - وحي. الف. واعظزاده خراساني، ١٣٠٤ - ،. ب. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ج. عنوان.
BP ٦٩ / ٥ / م ٨ ن ٦ ٢٩٧/١٥
كتابخانهٔ ملی ايران ٢٤١٢٩-٧٩م



نصوص في علوم القرآن

المجلّد الثاني
(النزول)

السيّد علي الموسوي الدارابي
بإشراف الأستاذ محمّد واعظزاده الخراساني

الطبعة الثالثة ١٤٣٢ق / ١٣٩٠ش
١٠٠٠ نسخة / الثمن: ١٤٠٠٠٠ ريال
الطباعة: دقت

مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٧٧٣٣٠٢٩

www.islamic-rf.ir: E-mail: info @islamic-rf.ir

الفهرس العام
(المجلّد الثّاني)

الباب الثّاني[1] من القسم الأوّل
كيفيّة نزول الوحي و أقسامه و فيه فصول:

١ ـ قد تقدّم الباب الأوّل في المجلّد الأوّل من الكتاب.

الباب الثّالث من القسم الأوّل

بدء الوحي، أوّل و آخر ما نزل و فيه فصول:

الباب الرّابع من القسم الأوّل

السّور المكّيّة و المدنيّة و ترتيب نزولها و فيه فصول:

تصدير

بقلم العلاّمة آية الله الشّيخ محمّد واعظ زاده الخراسانيّ
مدير قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلاميّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

نحمد الله تعالى و نصلّي و نسلّم على رسوله الأمين و آله الميامين و من و الاهم إلى يوم‌الدّين. ونشكر الله تعالى أن وفّقنا لإعداد الجزء الثّاني من الكتاب القيّم: «نصوص في علوم القرآن» الحاوي لثلاثة أبواب الباقية، فتمّت بذلك أربعة أبواب للقسم الأوّل من الكتاب و موضوعها (النّزول). و قد جمع الجزءان مستوعبين النّصوص المهمّة قديمها و حديثها في شأن نزول القرآن و سورها المكّيّة و المدنيّة حسب التّرتيب الزّمنيّ ما أمكن العثور عليها، تمهيداً و تسهيلاً لمن أراد التّحقيق في علوم القرآن، و الدّراسات القرآنيّة.

و جُلّ هذه النّصوص مقتبسة من كتب العلوم القرآنيّة، و كتب تاريخ القرآن، و من مقدّمات التّفاسير. و أُخذ بعضها من خلال تفاسير الآيات المشيرة النّزول. وقد غفل عنها بعض الدّارسين وفيها فوائد جمّة.

و سيتلوهما في الجزء الثّالث، القسم الثّاني من الكتاب بنفس الأُسلوب، و موضوعه (جمع القرآن و المصاحف)، نسأل الله تعالى دوام التّوفيق للمؤلّف السّيّد الموسويّ الدّارابيّ و لقسم القرآن و لمجمع البحوث الإسلاميّة و كلّ من أعان على إخراج هذا السّفر الجليل.

و في الختام يجب الالتفات إلى نكتة و هي: أنّ الاهتمام باستيعاب النّصوص القرآنيّة و جمعها من مؤلّفات جميع المسلمين و لاسيّما أحاديثهم، و فيها مواضيع مختلفة بين المذاهب الإسلاميّة فنحن لانكاد نوافق على كلّ ما في هذه النّصوص و لاسيّما ماخالف أُصول مذهب

أهل البيت عليهم السلام بما يمسّ عصمة النّبيّ صلى الله عليه وآله و نحوها: كبعض روايات البخاريّ و مسلم و الطّبريّ وابن كثير و السّيوطيّ و أقوالهم. و قد أشرنا إلى ذلك في مواضعها في الهامش، كما حكينا نصوصاً من علمائنا في الفصول المتأخّرة من هذا المجلّد و هي تُحَلِّل و تَنْقُد تلك الرّوايات و الأقوال فلتكن على علمٍ بذلك. وصلّى الله على نبيّنا محمّد و آله الطّاهرين و صحبه المنتجبين و من والاهم إلى يوم الدّين.

محمّد واعظ زاده الخراسانيّ

مدير قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلاميّة في الآستانة الرّضويّة

الثّاني من شهر شوّال المكرّم، عام: ١٤٢٣هـ. ق

الباب الثّاني من القسم الأوّل

كيفيّة نزول الوحي و أقسامه

و فيه فصول

الفصل الأوّل

نصّ البُخاريّ (م:٢٥٦) في «الجامع الصّحيح»

كيف نزول الوحي[١]

١ـ حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا مُعتَمِر، قال: سمعت أبي عن أبي عُثمان قال: أُنبِئت أنّ جبريل أتى النّبيّ ﷺ و عنده أُمّ سَلَمة فجعل يتحدّث، فقال النّبيّ ﷺ لأُمّ سَلَمة: مَن هذا؟ أو كما قال، قالت: هذا دِحيَة. فلمّا قام قالت: والله ما حَسِبْته إلاّ إيّاه حتّى سمِعتُ خطبة النّبيّ ﷺ يُخبِر خبر جبريل، أو كما قال أبي: قُلت لأبي عُثمان: ممّن سمعْتَ هذا؟ قال: من أُسامة بن زيد.

٢ـ حدّثنا عبدالله بن يوسف، حدّثنا اللَّيث، حدّثنا سعيد المَقبُريّ عَنْ أبيه عن أبي هُرَيرة قال: قال النّبيّ ﷺ: ما من الأنبياء نبيّ إلاّ أُعطِي ما مثله آمَنَ عليه البشر، و إنّما كان الّذي أُوتيت و حيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة.

٣ـ حدّثنا عمروبن محمّد، حدّثنا يعقوبُ بنُ إبراهيم، حدّثنا أبي عن صالح بن كَيْسان عن ابن شِهاب قال: أخبَرني أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ الله تعالى تابع على رسوله ﷺ قبل وفاته حتّى توفّاه أكثر ما كان الوحي، ثمّ تُوُفِّي رَسول الله ﷺ بَعْدُ.

٤ـ حدّثنا أبو نُعَيْم، حدّثنا سُفيان عن الأسود بن قَيس قال: سَمِعتُ جُندبًا يقول: اشتكى النّبيّ ﷺ فلم يقم ليْلة أو ليلتين، فأتَتْه امرأةٌ فقالت: يا محمّد ما أرىٰ شيطانك إلاّ قد تَرَكَك، فأنزل الله عزَّوَجَلَّ: ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيْلِ اِذَا سَجىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَاقَلىٰ﴾[٢].

٥ـ حدّثنا أبو نُعَيْم، حدّثنا هَمّام، حدّثنا عَطاء، وقال مُسَدّد: حدّثنا يحيىٰ عن ابن

---

١ ـ كذا في الأصل.

٢ ـ الضّحى /١ـ٣.

جُرَيج، قال أخبرني عَطاء، قال: أخبَرني صَفوان بن يَعْلَى بن أُميّة: أنّ يَعْلىٰ كان يقول: ليتني أرىٰ رسول‌الله ﷺ حين يُنْزَل عليه الوحي، فلمّا كان النّبيّ ﷺ بالجِعْرانة عليه ثوب قدِ أظَلّ عليه و معه ناس مِن أصحابه، إذْ جاءه رجلٌ مُتَضَمِّخٌ بطيب فقال يارسول‌الله: كيف ترى في رجلٍ أحرم في جُبّةٍ بعدما تضمَّخَ بطيب؟ فنظر النّبيّ ﷺ ساعة فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يَعْلىٰ أن تعال، فجاء يَعْلىٰ فأدخل رأسه، فإذا هو مُحْمَرُّ الْوجه يَغِطُّ كذلك ساعةً، ثمّ سُرِّي عنه، فقال: أيْن الّذي يسألني عنِ العُمْرة آنفًا؟ فالتُمِس الرّجل فجيء به إلى النّبيّ ﷺ فقال: أمّا الطّيب الّذي بك، فاغسله ثلاث مّرات، وَ أمّا الجُبّة فانزَعْها ثمّ اصْنَع في عُمر تك كما تصنع في حجّك.(٦: ٢٢٣ـ٢٢٥)

٦ـ حدّثنا عبدالله بن يوسف، قال: أخبرنا مالك عن هِشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة أُمّ المؤمنين، أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول الله ﷺ... [و ذكر كما سيأتي عن النَّسائيّ مع شرحِ الرّقم ٢]

﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ/٢٣.

[استراق السّمع قبل نزول الوحي]

٧ـ حدّثنا الحُمَيديّ، حدّثنا سُفيان، حدّثنا عمرو، قال: سمعت عِكرِمة يقول: سمعت أبا هُرَيْرة يقول: إنّ نبيّ الله ﷺ قال: إذا قضى‌الله الأمر في السّماء، ضَرَبت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنّه سِلْسِلةٌ على صَفْوان ﴿إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ـ لِلّذي قال ـ الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيسمعها مسترقّ السّمع، و مسترقّو السّمع هكذا بعضه فوق بعض، و وصف سُفيان بكفّه فحَرّفها. و بَدَّد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثمّ يلقيها الآخر إلى من تحته حتّى يلقيها على لسان السّاحر أوالكاهن، فربّما أدرك الشّهاب قبل أن يلقيها، و ربّما ألقاها قبل أن يدركه، فيَكذِبُ معها مائة كَذْبةٍ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا و كذا: كذاوكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة الّتي سُمِعت من السّماء.(٦: ١٥٢)

الفصل الثّاني

نصّ الصَّفّار (م: ٢٩٠) في «بصائر الدّرجات»[١]

[الفرق بين النّبيّ و الرّسول و الإمام «أوالمحدّث» في الوحي]

١ـ حدّثنا محمّد بن هارون عن أبي يحيى الواسِطيّ، عن هِشام بن سالم و دُرُسْت بن أبي منصور الواسطيّ عنهماعليهما السلام قال: الأنبياء و المرسلون على أربع طبقات: فنبيّ منبّأ في نفسه لا يعدو غيرها؛ و نبيّ يرى في النّوم و يسمع الصّوت ولا يعاين في اليقظة و لم يبعث إلى أحد، و عليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط؛ و نبيّ يرى في منامه و يسمع الصّوت و يعاين الملك و قد أُرسِل إلى طائفة قلّوا أوكثروا كما قال الله [ليونس]: ﴿وَ اَرْسَلْنَاهُ اِلىٰ مِائَةِ اَلْفٍ اَوْيَزِيدُونَ﴾[٢] قال: يزيدون ثلاثين ألفًا،[٣] و نبيّ يرى في نومه و يسمع الصّوت و يعاين في اليقظة و هو إمام مثل أُولي العزم، و قد كان إبراهيم نبيًّا و ليس بإمام حتّى قال الله: ﴿اِنّي جَاعِلُك لِلنَّاسِ اِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى ـ بأنّه يكون في ولده كلّهم ـ قَالَ لاَيَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾[٤] أي من عبد صنمًا أووثنًا.

٢ـ حدّثنا إبراهيم بن هاشم قال: أخبرنا إسماعيل بن مِهران قال: كتب الحسن بن العبّاس بن المعروف إلى الرّضاعليه السلام جُعلت فداك أخبرني ماالفرق بين الرّسول والنّبيّ و الإمام؟ قال: فكتب أوقال: الفرق بين الرّسول و النّبيّ و الإمام هو أنّ الرّسول الّذي ينزل عليه جبرئيل، فيراه و يسمع كلامه، و النّبيّ الّذي ينزل عليه جبرئيل و ربّما نُبّئَ في

---

١ ـ هذا الكتاب رفضه الشّيخ الصّدوق و آخرون ضعّفُوا رواياته. (م)

٢ ـ الصّافات / ١٤٧.

٣ ـ جاء في «الاختصاص» للشّيخ المفيد: ٢٣ بعده «و عليه إمام». (م)

٤ ـ البقرة / ١٢٤.

منامه نحو رؤيا إبراهيم؛ والنّبيّ رُبَّما يسمع الكلام و ربّما يرى الشّخص و لم يسمع الكلام، و الإمام هو الّذي يسمع و لا يرى الشّخص.

٣ـ حدّثنا محمّد بن يحيى العَطّار، عن محمّد بن الحسن بن فرّوخ الصّفار، عن العبّاس بن معروف، عن القاسم بن عُروَة، عن بُرَيد العِجْليّ قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الرّسول و النّبيّ و المحدّث، قال الرّسول الّذي تأتيه الملائكة و يعاينهم و تبلّغه عن الله تبارك و تعالى و النّبيّ الّذي يرى في منامه، فهو كما رأى، و المحدّث الّذي يسمع كلام الملائكة و ينقر في أُذُنه و ينكت في قلبه.

٤ـ حدّثنا أحمد بن محمّد، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن تَغْلَب، عن زُراة قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن قول الله عزَّوَجَلَّ ﴿وَ كَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[1] قلت: ما هو الرّسول و من النّبيّ؟ قال: النّبيّ هو الّذي يرى في منامه و يسمع الصّوت، ولا يعاين الملك، والرّسول يعاين الملك و يكلِّمه، فالإمام ما منزلته؟ قال: يسمع الصّوت و لايَرى و لا يُعاين، ثمّ تلا: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾[2] و لا مُحَدَّثٍ.[3]

٥ـ حدّثنا أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن ابن فَضّال، عن ابن بُكَير، عن زُرارة قال سألت أبا جعفرعليه السلام عن الرّسول و النّبيّ و المحدَّث، فقال: الرّسول الّذي يأتيه الملك، فيحدّثه و يكلّمه، كما يحدّث أحدكم صاحبه، والنّبيّ الّذي يؤتى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم، قال: قلت: و ما عُلِم أنّ الّذي رأىٰ في منامه أنّه حقّ: قال: يُبَيّنه الله حتّى يعلم أنّه حقّ؛ وينزل عليه، وقد كان رسول‌الله صلى الله عليه وآله نبيًّا، و المحدَّث يسمع الصّوت ولا يرى شيئًا.

٦ـ حدّثنا يعقوب بن يزيد، عن محمّد بن الحسين، عن حَمّاد بن عيسى عن حَريز،يعن زُرارة عن أبي جعفرعليه السلام قال: الأنبياء على خمسة[4] أنواع: منهم من يسمع الصّوت مثل صوت السِّلسِلة، فيعلم ما عُني به، ومنهم من ينبّأ في منامه كمثل يوسف و إبراهيم، و منهم من يعاين، ومنهم من ينكت في قلبه و يوقر في أُذنه.

١ ـ مريم / ٥١. ٢ ـ الحج / ٥٢.
٣ ـ كأنّها قراءة عند أهل البيت و لم تثبت بالتّواتر، و قد جاءت في هذا الكتاب روايات أُخرى بمعناها.(م)
٤ ـ هكذا في النّسخ و استظهر المصنّف و لكنّ الصّحيح «أربعة».(م)

٧ـ حدّثنا محمّد بن حسن، عن جعفر بن بَشير، عن ابن بُكر، عن زُرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال سألته عن الرّسول، فقال: الرّسول الّذي يعاين ملكًا يجيئه برسالة عن ربّه فيكلّمه كما يكلّم أحدكم صاحبه، و النّبيّ لايعاين ملكا إنّما ينزل عليه الوحي ويرى في منامه، قلت: ما علمه إذا رأىٰ في منامه أنّ هذا حقّ قال: يبيّنه الله حتّى يعلم أنّ ذلك حقّ، والمحدَّث يسمع الصّوت و لا يرى شيئًا.

٨ـ حدّثنا أحمد بن محمّد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحول قال: سمعت زُرارة يسأل أبا جعفر عليه السلام قال: أخبرني عن الرّسول و النّبيّ و المحدَّث، فقال أبو جعفر عليه السلام الرّسول الّذي يأتيه جبريل قُبُلاً[١]، فيراه و يكلّمه فهذا الرّسول، و أمّا النّبيّ فإنّه يرى في منامه على نحو ما رأىٰ إبراهيم، و نحوه ما كان رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله من أسباب النّبوّة قبل الوحي حتّى أتاه جبرئيل من عند الله بالرّسالة، كان محمّد صلى الله عليه وآله حين جمع له النّبوّة و جاءته الرّسالة من عندالله يجيئه بها جبرئيل و يكلّمه بها قُبُلا، و من الأنبياء من جمع له النّبوّة و يرى في منامه، يأتيه الرّوح فيكلّمه و يحدّثه من غير أن يكون رآه في اليقظة، و أمّا المحدَّث فهو الّذي يحدّث فيسمع ولا يعاين و لا يرى في منامه.

[مثله عن الكُلينيّ في باب الفرق بين الرّسول و النّبيّ والمحدَّث، بإسناده عن محمّد بن يحيى... عن الأحول قال: سألت أبا جعفر عليه السلام ...][٢].

٩ـ حدّثنا عليّ بن حَسّان، عن ابن بُكير، عن زُرارَة قال: سألت أباجعفر عليه السلام من الرّسول؟ من النّبيّ؟ من المحدّث؟ فقال: الرّسول الّذي جبرئيل فيكلّه قُبُلاً فيراه كما يرى أحدكم الّذي يكلّمه، فهذا الرّسول، والنّبيّ الّذي يؤتىٰ في النّوم، نحو رؤيا إبراهيم، و نحو ما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله من السّبات، إذ أتاه جبرئيل في النّوم، فهكذا النّبيّ و منهم من يجتمع له الرّسالة و النّبوّة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله رسولاً يأتيه جبرئيل قُبُلاً فيكلّمه و يراه و يأتيه في النّوم. و أمّا المحدَّث فهو الّذي يسمع كلام الملك فيحدّثه من غير أن يراه و من غير أن يأتيه في النّوم. **[و ذكر مثله أيضًا باختلاف يسير بطريق آخر: ٣٧٣، الرّقم ١٩]**

١ ـ بضمّتين أو بضمّةٍ و فتحةٍ (كأُذُنٍ و صُرَدٍ) أي عيانًا و مقابلةً.(م)

٢ ـ الكافي ١:١٧٦.

۱۰ـ حدّثنا أحمد بن الحسن بن عليّ بن فَضّال، عن أبيه، عن عبدالله بن بُكَير عن زُرارة قال: سألت أباعبداللهعليه‌السلام عن الرّسول و عن النّبيّ و عن المحدَّث، فقال: الرّسول الّذي يعاين الملك يأتيه بالرّسالة من ربّه يقول: يأمرك كذا و كذا، والرّسول يكون نبيًّا مع الرّسالة، و النّبيّ لايعاين الملك ينزل عليه النّبأ على قلبه، فيكون كالمُغمىٰ عليه فيرى في منامه قلت: فماعلمه أنّ الّذي يرى في منامه حقّ؟ قال: يبيّنه الله حتّى يعلم أنّ ذلك حقّ، ولا يعاين الملك، والمحدّث الّذي يسمع الصّوت و لايرى شاهدًا.

۱۱ـ حدّثنا محمّد بن أحمد، عن محمّد بن الحسين، عن الحسن بن مَحْبوب عن عبدالله بن سِنان، عن أبي عبداللهعليه‌السلام قال علم النّبوّة يدرج في جوارح الإمام. **(۳٦۸ـ۳۷۳)**

۱۲ـ حدّثنا العّباس بن معروف، عن حَمّادبن عيسى، عن رَبعيّ عن زُرَارة، عن أبي جعفرعليه‌السلام قال: كنت بالمدينة، فلمّا شدّوا على دوابّهم وقع في نفسي شيء من أمر المحدَّث، فأتيت أبا جعفرعليه‌السلام فاستأذنت فقال: من هذا؟ قلت: زُرَارة، قال: أدخل، ثمّ قال: كان رسول اللهعليه‌السلام يُملي على عليّعليه‌السلام فنام نومة و نعس نعسة، فلمّا رجع نظر إلى الكتاب، فمدّيده قال: من أملى هذا عليك؟ قال: أنت، قال: لا،بل جبرئيل. **(ص: ۳۲٤)**

الفصل الثّالث

نصّ النّسائيّ (م: ٣٠٣) في «سُننه» و السُّيوطيّ (م: ٩١١) في «شرحه لها»[١]

[كيفيّة نزول الوحي]

١ـ أخبَرَنا إسحاق بن إبراهيم، قال: أنبأنا سُفيان، عن هِشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سأل الحارث بن هِشام رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي[٢] قال: في مثْل

---

١ ـ و سمّاها «زَهَرالرُّبىٰ على المجتبىٰ».

٢ ـ قال السّيوطيّ: (كيف يأتيك الوحي) يحتمل أن يكون المسؤول عنه صفة للوحي نفسه، و يحتمل أن يكون صفة حامله أو ما هو أعمّ من ذلك. قال: أحيانًا نصب على الظّرف و عامله «يأتيني»: مؤخّر عنه. «في مثل صَلصَلَة الجَرَس»: بصادين مهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة، و هي في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ثمّ أطلق على كلّ صوت له طنين. و قيل: هو صوت متدارك لايدرك في أوّل و هلة، و الجَرَس: الجُلجُل الّذي يعلّق في رؤوس الدّوابّ.

فإن قيل: كيف شُبِّه المحمود بالمذموم؟ فإنّ صوت الجَرَس مذموم لصحّة النّهي عنه، و الإعلام بأنّ الملائكة لا تصحب رفقة فيها جرس.

فالجواب: أنّه لايلزم في التّشبيه تساوي المشبَّه بالمشبَّه به في كلّ صفاته، بَل يكفي اشترا كهما في صفة ما. والمقصود هنا بيان الحسّ فذكر مااْلِف السّامعون سماعه تقريبًا لأفهامهم، و أخذ من هذا جواز تشبيه الشّعراء ريق المحبوبة و نحوه بالخمر، و استدلّ عليه بقول كعب: كأنّه منهل بالرّاح معمول. و قد أنشده في حضرة النّبيّ ﷺ و أقرّ، و الصَّلصَلة المذكورة، صوت الملك بالوحي، قال الخَطّابيّ يريد أنّه صوت متدارك يسمعه و لا يثبته أوّل ما يسمعه حتّى يفهمه بعد. و قيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك. والحكمة في تقدّمه أن يفرغ سمعه للوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره (وَهُو أَشَدُّه عليّ): قال البُلقينيّ: سبب ذلك أنّ الكلام العظيم له مقدّمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به و قال بعضهم: إنّما كان شديدًا عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع، و قيل: إنّما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية و عيد أو تهديد، وفائدة هذه الشّدّة ما يترتّب على المشقّة من زيادة الزّلفى و الدّرجات. «فيفصم عنّي»: بفتح أوّله و سكون الفاء و كسر المهلة، أي يقطع و ينجلي ما يغشاني. و يروى بضمّ أوّله من الرّباعيّ و أصل الفصم القطع، و قيل: الفصم بالفاء القطع بلا إبانة. و بالقاف القطع بإبانة.

«و أحيانًا يتمثّل لي الملك رجلاً»: التّمثّل مشتقّ من المثل، أي يتصوّر، و اللاّم في الملك للعهد أي جبريل. و صرّح به

←

صَلْصَلة الجَرَس فَيَفصِم عنّي و قد و عَيْتُ عنه و هو أشَدُّهُ عليّ، و أحيانًا يأتيني في مثل صورة الفتى فيَنْبذُه إليّ.

٢ـأخبَرَنا محمّدُ بنُ سَلَمة و الحارثُ بنُ مِسكين قِراءةً عليه و أنا أسمع، و اللّفظ له عن ابن القاسم، قال: حدّثني مالك، عن هِشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة: أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول اللهﷺكيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول اللهﷺ: أحيانًا يأتيني في مثل صَلصَلَة الجَرَس و هو أشَدُّه عليّ، فَيفصِم عنّي و قد وَعَيْت ما قال، و أحيانا يتمثّل لي

← رواية ابن سعد، و (رجلاً) منصوب نصب المصدر، أي مثل رجل. أو الحال أي هيئة رجل أو التّمييز. قال المتكلّمون: الملائكة أجسام علويه لطيفة تتشكّل أيّ شِكل أرادوا. و قد سأل عبدالحقّ الصَّقَليّ إمام الحرمين حين اجتمع به بمكّة عن هذه و كيف كان جبريل يجيء مرّةً في صورة دِحية، و جاءه مرّةً في هيئة رجل شديد بياض الثّياب شديد سواد الشّعر و صورته الأصليّة، وله ستّمائة جناح و كلّ جناح منها يسدّ الأُفق، فقال من قائل إنّه سبحانه يفني الزّائد من خلقه ثمّ يعيده. ومن قائل: إنّ ذلك إنّما هو تمثيل في عين الرّائي لا في جسم جبريل و هوالّذي يعطيه قوله: (يتمثّل) قال: و تحقيقه أنّ جبريل عبارة عن الحقيقة الملكيّة الخاصّة و ملك لا يتغيّر بالصّور والقوالب، كما أنّ حقيقتنا لا تتغيّر بها، ألاترى أنّ الجسم يتغيّر و يفنى، مع أنّ الأرواح لا تتغيّر كما أنّها في الجنّة تركّب على أجسام لطيفة نو رانيّة ملكيّة تنعكس الأبدان الآدميّةالكثيفة هناك إلى عالم الكمال الجسمانيّ على نحو الأجسام الملكيّة الآن، فحقيقة جبريل كانت معلومة عند النّبيّﷺ مجعولة في أيّ قالب كان. قلت: و لهذا ورد في حديث مجيئه و سؤاله عن الإيمان «ما جاءني قطّ إلّا و أنا أعرفه إلّا أن يكون هذه المرّة» ثمّ قال: و مِن هذا فهم السّرّ المودَع في عصا موسى كيف كانت تارةً ثُعبانًا فاتحًا فاه، و أُخرىٰ شَمعةً، و مرّةً شجرةً صورتهامثمرة، و أُخرى سَميرًا يحادثه إذا استوحش، فتارةً عودٌ، و أُخرىٰ ذُو رُوح، وانحطّت مرّةً على فرعون و جعلت تقول يا موسى مرني بما شئت، و يقول فرعون: أسألك بالّذي أرسلك إلّا أخذتها فيأخذها فتعود عصا. وقال الشّيخ عزّ الدّين بن عبدالسّلام و الشّيخ سِراج الدّين البُلْقَينيّ: ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه، بل يجوز أن يكون الآتي هو جبريل بشكله الأصليّ إلّا أنّه انضمّ فصار على قدر هيئة الرّجل، و إذا ترك عاد إلى هيئة، و مثل ذلك القطن إذا جمع بعد أن كان منتفشاً، فإنّه بالنّفش يحصل له صورة كبيرة و ذاته لم تتغيّر، و هذا على سبيل التّقريب. والحقّ أنّ تمثُّل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً بل معناه أنّه ظهر بتلك الصّورة تأنيسًا لمن يخاطبه، والظّاهر أيضاً أنّ القدر لايزول و لا يفنى بل يخفى على الرّائي فقط «فيُكلّمني» قال الحافظ ابن حَجَر: وقع في رواية البَيْهقيّ من طريق القَعْنَبيّ عن مالك (فيعلّمني) بالعين بدل الكاف، والظّاهر أنّه تصحيف، فقد وقع في «الموطّأ» رواية القَعْنَبيّ بالكاف، و كذا للدّا رقطني في حديث مالك من طريق القَعْنَبيّ و غيره «فأعِيَ ما يقول»، زاد أبو عَوانة في صحيحه (و هو أهون عليّ). «و إنّ جبينه ليتفصّد عَرَقًا»: بالفاء و تشديد المهملة مأخوذ من الفصد و هو قطع العرق لإسالة الدّم. شبّه جبينه بالعرق المقصود مبالغة في كثرة العرق، و (عرقًا) تمييز. و حكى العسكريّ بالتّصحيف عن بعض شيوخه أنّه قرأه ليتقصّد بالقاف، قال العسكريّ: فإن ثبت فهو من قولهم تقصّد الشّيء، إذا تكسّر و تقطّع، و لا يخفى بعده. قال الحافظ ابن حَجَر: وقد وقع في هذا التّصحيف أبوالفضل بن طاهر، فردّه عليه المؤتمن السّاجي بالفاء، قال: فأصرّ على القاف.

الملك رجلاً فيكلّمني فأعِي ما يقول. قالت عائشة: و لقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشّديد البَرْد فيفصم عنه و إنّ جبينه ليتفصّد عَرَقًا.

٣ـأخبَرَنا قُتَيبة قال حدّثنا أبو عَوانة عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جُبَير عن ابن عبّاس في قوله عزّوجلّ: ﴿لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ [و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ في باب كيفيّة النّزول]. (٢: ١٤٦ـ ١٤٩)

الفصل الرّابع

نصّ الطَّبريّ (م: ٣١٠) في تفسيره: «جامع البيان»

[كيفيّة الوحي و استراق السّمع قبل نزوله]

﴿حتّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ / ٢٣

١ـ حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثِنا أبوعاصم، قال: ثنا عيسى؛ و حدَّثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا وَرْقاء، جميعًا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿حتّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كشف عنها الغطاء يوم القيامه.

٢ـ حدّثنا بِشْر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، قال: إذا جُلّي عن قلوبهم.

و اختلف أهل التّأويل في الموصوفين بهذه الصّفة مَن هم، و ما السّبب الّذي من أجله فُزِّع عن قلوبهم؟ فقال بعضهم: الّذي فُزِّع عن قلوبهم الملائكة، قالوا: و إنّما يُـفزِّع عـن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم الله بالوحي.

٣ـ حدّثني يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَّية عن داود، عن الشَّعبيّ، قال: قال ابن مسعود في هذه الآية: ﴿حتّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: إذا حدث أمر عند ذي العرش، سمع من دونه من الملائكة صوتًا كجرّ السِّلْسِلة على الصّفا، فيُغشىٰ عليهم، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم تنادَوا: مَاذَا قَال ربُّكُمْ؟ قال: فيقول من شاء قال: الحقّ، و هو العليّ الكبير.

٤ـ حدّثنا ابن عبد الأعلى، ثنا المُعْتَمِر، قال: سمعت داود عن عامر، عن مَسْروق؛ قال: إذا حَدَث عند ذي العرش أمر، سمعت الملائكة صوتًا، كجرّ السِّلسِة على الصَّفا، قال: فيُغشىٰ عليهم، فإذا فُزِّع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربّكم؟ قال: فيقول من شاء الله: الحقّ، و هو العليّ الكبير.

٥ـ حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثني عبدالأعلى، قال: ثنا داود، عن عامر، عن ابن مسعود، أنّه قال: إذا حدث أمر عند ذي العرش، ثُم ذكر نحو معناه، إلاّ أنّه قال: فيُغشىٰ عليهم من الفزع، حتّى إذا ذهب ذلك عنهم تنادوا: ماذا قال ربّكم؟

٦ـ حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبدالله بن مسعود، في قوله: ﴿حتّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: إنّ الوحي إذا أُلقى سمع أهل السّموات صَلصَلة كصَلصَلة السِّلسِلة على الصَّفوان، قال: فيتنادون في السّموات: ماذا قال ربّكم؟ قال فيتنادون الحقّ، و هو العليّ الكبير. و به عن منصور، عن أبي الضّحىٰ، عن مَسروق، عن عبدالله مثله.

٧ـ حدّثنا ابن حميد، قال ثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، قال: «يُنَزّل الأمر من عند ربّ العزّه إلى السّماء الدّنيا، يفْزَع أهل السّماء الدّنيا، حتّى يستبين لهم الأمر الّذي تنزل فيه، فيقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربّكم؟ فيقولون: قال: الحقّ، وهو العليّ الكبير، فذلك قوله: ﴿حتّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾.

٨ـ حدّثنا أحمد بن عَبدة الضَّبيّ، قال: ثنا سُفيان بن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عِكرِمة، قال: ثنا أبو هُريرة، عن النّبيﷺ قال: «إنَّ الله إذا قضىٰ أمرًا في السّماء ضربت الملائكة بأجْنحتها جميعًا، و لقوله صوت كصوت السِّلْسِة على الصَّفا الصَّفوان، فذلك قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُو العَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

٩ـ حدّثني يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيّة، قال: حدّثنا أيّوب، عن هِشام بن عُروَة،...
[وذكر كما تقدّم عن النّسائيّ، الرّقم ١ ثمّ قال].

١٠ـ حدّثني زكريّا بن أبان المصريّ، قال: ثنا نُعَيم، قال: ثنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرّحمان بن يزيد بن جابر، عن ابن أبي زكريّا، عن جابر بن حَيْوَة، عن النَّوّاس بن سَمْعان، قال: قال رسول اللهﷺ «إذا أراد الله أنْ يوحي بالأمر، تَكَلَّم بالوحي، أخَذَت السّموات منه رَجْفَةٌ، أو قال: رَعْدَةٌ شديدةٌ خَوْف أمر الله، فإذا سمع بذلك أهل السّموات صَعقوا، و خَرّوا لِلّٰه سُجّدًا، فيكون أوّل مَن يَرفَع رأسه جَبرائيل، فيُكلِّمه الله من وحيه بما أراد، ثُمّ يَمُرّ جَبرائيل: قال: الحقّ، و هو العليّ الكبير، قال: فيقولون كُلُّهمْ مِثل ما قال

جَبْرائيل، فيَنتهي جَبرائيل بالوحي حَيثُ أمَرَه الله».

١١ـ حُدِّثتُ عن الحسين، قال: سمعت أبا مُعاذ، قال: أخبرنا عُبَيد، قال: سمعت الضَّحّاك يقول في قوله: ﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... الآية، قال: كان ابن عبّاس يقول: «إنَّ الله لمّا أراد أن يُوحيَ إلى محمّد، دعا جبريل، فلمّا تكلّم ربّنا بالوحي، كان صوته كصوت الحديد على الصَّفا؛ فلمّا سمع أهل السّموات صوت الحديد، خَرّوا سُجَّدًا؛ فلمّا أتىٰ عليهم جبرائيل بالرّسالة، رفعوا رؤوسهم فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ و هذا قول الملائكة».

١٢ـ حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عبّاس، قوله: ﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ـ إلى ـ وَهُوَالْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ قال: لمّا أوحَى الله تعالى ذكره إلى محمّدﷺ دعا الرّسول من الملائكة، فبعث بالوحي، سمعت الملائكه صوت الجبّار يتكلّم بالوحي؛ فلمّا كُشِف عن قلوبهم، سألوا عمّا قال الله، فقالوا: الحقّ، و علموا أنّ الله لا يقول إلاّ حقًّا، أنّه مُنجز ما وعد، قال ابن عبّاس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصّفا؛ فلمّا سمعوه خرّوا سُجّدًا؛ فلمّا رفعوا رُؤسهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ثم أمر الله نبيّه أن يسأل النّاس ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ ـ إلى قوله ـ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ﴾.

١٣ـ حدّثنا ابن بَشار، قال: ثنا أبو عامر، قال: ثنا قُرّة، عن عبدالله بن القاسم، في قوله: ﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... الآية قال: الوحي ينزل من السّماء، فإذا قضاه ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١٤ـ حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا جَرير عن مُغيرة، عن إبراهيم، عن عبدالله، في قوله: ﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: إنّ الوحي إذا قَضىٰ في زوايا السّماء، قال: مثل وقع الفُولاد على الصّخرة، قال: فيُشفِقون لا يدرون ما حدث فيفزعون، فإذا مرّت الرّسل ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

و قال آخرون ممّن قال: الموصوفون بذلك الملائكة: إنّما يُفَزِّع عن قلوبهم فزعهم من قضاء الله الّذي يقضيه، حذرًا أن يكون ذلك قيام السّاعه.

١٥ـ حدّثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قَتادة، قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾... الآية، قال: يُوحي الله إلى جبرائيل، فَتَفرق الملائكة أو تفزع، مخافة أن يكون شيء من أمر السّاعة، فإذَا جُلِيَ عن قلوبهم، وعلموا أنّه ليس ذلك من أمر السّاعة ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَالْعِلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وقال آخرون: بل ذلك من فعل ملائكة السّموات إذا مرّت بها المعقَّبات، فـزّعا أن يكون حدث أمر السّاعة.

١٦ـ حُدِّثتُ عن الحسين، قال: سمعت أبا مُعاذ يقول: أخبرنا عُبَيْد، قـال: سـمعت الضَّحَّاك يقول في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... الآيه، زعم ابن مسعود: أنّ الملائكة المُعقبّات،الّذين يختلفون إلى الأرض، يكتبون أعمالهم، إذا أرسلهم الرّب فانحدروا، سمع لهم صوت شديد، فيحسب الّذين هم أسفل منهم من الملائكة أنّه من أمرالسّاعة، فخرّوا سُجَّدًا، وهكذا كلمّا مرّوا عليهم يفعلون ذلك من خوف ربّهم.

و قال آخرون: بل الموصوفون بذلك المشركون، قالوا: و إنّما يُفزِّع الشّـيطان عـن قلوبهم؛ قال: و إنمّا يقولون: ماذا قال ربّكم؟ عند نزول المنيّة بهم.

١٧ـ حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال فَزَّع الشّيطان عن قلوبهم و فارقهم و أمانيّهم، و ماكان يضلّهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ قال: و هذا في بني آدم، و هذا عندالموت، أقرّوا به حين لَم ينفعهم الإقرار.

و أولى الأقوال في ذلك بالصّواب: القول الّذي ذكره الشَّـعبيّ عـن ابـن مسـعود، لصحّةالخبر الّذي ذكرناه عن ابن عبّاس، عن رسول الله ﷺ بتأييده. (٢٢:٩٠ـ٩٢)

الفصل الخامس

نصّ الكُلينيّ (م:٣٢٨) في «الكافي»

﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَلَاالاِيمَانُ﴾ الشّورى /٥٢

١ـ محمّد بن يحيى، عن عمران بن موسى، عن موسى بن جعفر، عن عليّ بن أسباط، عن محمّد بن الفُضَيل، عن أبي حمزة قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلّمه العالم من أفواه الرّجال، أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلَمون منه؟ قال: الأمر أعظم من ذلك و أوجب، أما سمعت قول الله عَزَّوجلَّ: ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَلَاالْاِيمَانُ﴾ ثمّ قال: أيّ شيءٍ يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرّون أنّه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولاالإيمان؟ فقلت: لا أدري ـ جعلت فداك ـ ما يقولون، فقال: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب و لاالإيمان حتّى بعث الله تعالى الرّوح الّتي ذكر فيالكتاب، فلمّا أوحاها إليه علم بها العلم و الفهم، وهي الرّوح الّتي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبدًا علّمه الفهم.

٢ـ محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن عليّ بن أسباظ، عن الحسين بن أبي العلاء، عن سعد الإسكاف قال: أتى رجلٌ أميرالمؤمنين عليه السلام يسأله عن الرُّوح أليس هو جبرئيل؟ فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: جبرئيل عليه السلام من الملائكه، و الرّوح غير جبرئيل، فكرّر ذلك على الرّجل، فقال له: لقد قلت عظيمًا من القول، ما أحد يزعم أنّ الرُّوح غير جبرئيل، فقال له: أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّك ضالٌّ تروي عن أهل الضّلال، يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله

﴿اَتىٰ اَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلٰئِكَةَ بالرُّوحِ﴾[1] والرّوح غير الملائكة صلوات الله عليهم.

٣ـ عدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن النّصر بن سُوَيد، عن يحيى الحلبيّ، عن أبي الصّباح الكِنانيّ عن أبي بصير قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله تبارك و تعالى: ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَ لاَالاِيمَانُ﴾، قال: خلق من خلق الله عَزَّوَجَلَّ أعظم من جبرئيل و ميكائيل، كان مع رسول‌الله صلى الله عليه وآله يخبره يسدّده و هو مع الأئمّة من بعده.

٤ـ محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن عليّ بن أسباط، عن أسباط بن سالم قال: سأله رجلٌ من أهل هيت[2] ـ و أنا حاضر ـ عن قول الله عَزَّوجَلَّ: ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا﴾ فقال منذ أنزل الله عَزَّو جَلّ ذلك الروّح على محمّد صلى الله عليه وآله ما سعد إلى السّماء و أنّه لفينا.

٥ـ عليّ بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسى، عن يونس، عن ابن مسكان، عن أبي بصير قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عَزَّوجَلَّ: ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبّى﴾[3] قال: خلق أعظم من جبرئيل و ميكائيل، كان مع رسول‌الله صلى الله عليه وآله و هو مع الأئمّة، و هو من الملكوت.

٦ـ عليّ، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَيْر، عن أبي أيّوب الخَرّاز، عن أبي بَصير قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبّى﴾ قال: خلق أعظم من جبرئيل و ميكائيل، لم يكن مع أحد ممّن مضى، غير محمّد صلى الله عليه وآله و هو مع الأئمّة يسدّدهم، و ليس كلّ ما طلب وُجِد.(١:٢٧٣ـ٢٧٤)

---

١ ـ النَّحل / ١ و ٢.
٢ ـ بلد بالعراق.
٣ ـ الإسراء / ٨٧.

[موضع نزول جَبرئيل في مكّة]

٧ـ عليّ بن ابراهيم، عن أبيه؛ و محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن صَفوان بن يحيى، و ابن أبي عُمَيْر، عن معاوية بن عَمَّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذا أشرفت المرأة على مناسكها و هي حائض فلتغتسل وَلْتَحْتَشْ باالكُرْسُف، و لتقف هي و نسوة خلفها فيؤمّنَّ على دعائها و تقول: «اللّهمّ إنّي أسألك بكلّ اسم هو لك أو تسمّيت به لأحد من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، و أسألك باسمك الأعظم الأعظم و بكلّ حرف أنزلته على موسى و بكلّ حرف أنزلته على عيسى و بكلّ حرف أنزلته على محمّد صلى الله عليه و آله إلّا أذهبت عنّي هذا الدّم، و إذا أرادت أن تدخل المسجدالحرام أو مسجدالرّسول صلى الله عليه و آله فعلت مثل ذلك، قال: و تأتي مقام جبرئيل عليه السلام و هو تحت الميزاب فأنّه كان مكانه إذا استأذن على نبيّ الله صلى الله عليه و آله قال: فذلك مقام لا تدعو الله فيه حائض تستقبل القبلة و تدعو بدعاء الدّم إلّا رأت الطّهر إن شاءالله.

٨ـ محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عمّن ذكره، عن ابن بُكَير، عن عمر بن يزيد قال: حاضت صاحبتي و أنا بالمدينة و كان ميعاد جمّالنا و إبّان مقامنا و خروجنا قبل أن تطهر، ولم تقرب المسجد و لا القبر و لا المنبر، فذكرت ذلك لأبي عبدالله عليه السلام فقال: مُرها فلتغتسل و لتأت مقام جبرئيل عليه السلام فإنّ جبرئيل كان يجيء فيستأذن على رسول الله صلى الله عليه و آله وإن كان على حال لاينبغي أن يأذن له في مكانه حتّى يخرج إليه، و إن أُذن له دخل عليه، فقلت: و أين المكان؟ فقال: حيال الميزاب الّذي إذا خرجت من الباب الّذي يقال له: باب فاطمة بحذاء القبر إذا رفعت رأسك بحذاء الميزاب، و الميزاب فوق رأسك و الباب من وراء ظهرك، و تجلس في ذلك الموضع و تجلس معها نساء، ولتدع ربّها و يؤمّنَّ على دعائها، قال: فقلت: و أيّ شيءٍ تقول؟ قال: تقول: «اللّهم إنّي أسألك بأنّك أنت الله ليس كمثلك شيء أن تفعل لي كذا و كذا». قال: فصنعت صاحبتي الّذي أمرني فطهرت. دخلت المسجد، قال: و كان لنا خادم أيضًا فحاضت، فقالت: يا سيّدي ألا أذهب أنازادة[1] فأصنع كما صنعت سيّدتي، فقلت: بلى، فذهبت فصنعت مثل ما صنعت مولاتها فطهرت و دخلت المسجد. (٤: ٤٥٢ ـ ٤٥٣)

---

١ ـ هذه الكلمة تستعمل بمعنى أيضاً، وهي متعارفة في كلامهم و شائعة بين العرب.

[طبقات الأنبياء]

٩ـ محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن أبي يحيى الواسطيّ، عن هِشام بن سالم؛ دُرُسْت بن أبي منصور، عنه قال: قال أبوعبدالله عليه السلام الأنبياء و المرسلون على أربع طبقات: فنبيٌّ منبّأ في نفسه لا يعدو غيرها، و نبيٌّ يرى في النّوم و يسمع الصّوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد و عليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط عليهما السلام، و نبيٌّ يرى في منامه و يسمع الصّوت و يعاين الملك، و قد أُرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا، كيونس قال الله ليونس: ﴿وَ اَرْسَلْنَاهُ اِلىٰ مِائَةِ اَلْفٍ اَوْ يَزِيدُونَ﴾[1] قال: يزيدون ثلاثين ألفا، و عليه إمامٌ، والّذي في نومه و يسمع الصّوت و يعاين في اليقظة و هو إمام مِثل أُولي العزم، و قد كان إبراهيم عليه السلام نبيًّا و ليس بإمام حتّى قال الله: ﴿اِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى﴾ فقال الله: ﴿لاَ يَنَالُ عَهدِى الظَّالِمينَ﴾ من عبد صنمًا أو وَثَنًا لا يكون إمامًا.

١٠ـ محمّد بن الحسن عمّن ذكره، عن محمّد بن خالد، عن محمّد بن سِنان، عن زيد الشَّحَّام قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: إنَّ الله تبارك و تعالى اتّخذ إبراهيم عبدًا قبل أن يتّخذه نبيًّا، و إنّ الله اتّخذه نبيًّا قبل أن يتّخذه رسولاً، و إنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، و إنَّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إمامًا، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿اِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاس اِمَامًا﴾ قال: فلمّا عظَّمها في عين إبراهيم قال: ﴿وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾[2] قال: لا يكون السّفيه إمام التّقيّ.

١١ـ عدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن محمّد بن يحيى الخَثْعَميّ، عن هِشام عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: سادة النّبيّين و المرسلين خمسة وهم أُولوا العزم من الرّسول و عليهم دارت الرّحىٰ[3]: نوح إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلّى الله عليه و آله و على جميع الأنبياء.

١٢ـ عليٌّ بن محمّد، عن سَهل بن زياد، عن محمّد بن الحسين، عن إسحاق بن

١ ـ الصّافات / ١٤٧. ٢ ـ البقره / ١٢٤.

٣ ـ أي و حي النّبوّة و الرّسالة و الشّريعة، و سائر الأنبياء تابعون لهم.

عبدالعزيز أبي السّفاتج[1] ، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ الله اتّخذ إبراهيم عبدًا قبل أن يتّخذه نبيًّا، واتّخذه نبيًّا قبل يتّخذه رسولاً واتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً واتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إمامًا، فلمّا جمع له هذه الأشياء ـ وقبض يده ـ[2] قال له: يا إبراهيم ﴿إنّى جَاعِلُك لِلنّاس اِمَامًا﴾ فَلمّا عظّمها في عين إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ ـ يارب ـ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنالُ عَهدِى الظّالِمِينَ﴾.

الفرق بين الرّسول و النّبيّ و المحدّث

۱۳ـ عدّةٌ من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن أحمد بن أبي نَصر، عن ثَعْلَبة بن مَيْمُون عن زُرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّوجَلَّ: ﴿وَ كَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[3]... [و ذكر كما تقدّم عن الصّفّار، الرّقم ٤].

١٤ـ عليُّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسماعيل بن مهران قال: كتب الحسن بن العبّاس المعروفيّ إلى الرّضا عليه السلام: جعلت فداك أخبرني ماالفرق بين الرّسول والنّبيّ و الإمام؟ قال: فكتب أو قال: الفرق بين الرّسول والنّبيّ و الإمام، أنّ الرّسول الّذي ينزل عليه جبرئيل فيراه و يسمع كلامه و ينزل عليه الوحي، و ربّما رأى في منامه نحو رُؤيا إبراهيم عليه السلام، و النّبيّ ربّما سمع الكلام و ربّما رأى الشّخص ولم يسمع، والإمام هو الّذي يسمع الكلام و لا يرى الشّخص.

١٥ـ محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محّمد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحول قال سألت أباجعفر عليه السلام عن الرَّسول والنّبيّ والمحدَّث... [و ذكر كما تقدّم عن الصَّفّارالرّقم٢]

١٦ـ أحمد بن محمّد و محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن عليّ بن حَسّان عن ابن فَضّال، عن عليّ بن يعقوب الهاشميّ، عن مروان بن مسلم، عن بريد، عن أبي

---

١ ـ بالسّين المهملة والفاء والألف و التّاء المُثَنّاة من فوق و الجيم.

٢ ـ إمّا من كلام الرّاويّ أي قبض الباقر عليه السلام أصابعه الخمس حكاية عن اجتماع تلك المقامات الخمسة في إبراهيم عليه السلام، و إمّا من كلام الإمام عليه السلام أي قبض الله يد إبراهيم عليه السلام و هو كناية عن كمال لطفه تعالى بإبراهيم حين خاطبه كما قد يخاطب الإنسان خليله، و قد قبض يده و جعل كفّه في كفّه.(الغَفّاريّ في تعليقاته على الكافي)

٣ ـ مريم / ٥٤.

جعفر و أبي عبدالله عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ[١] ـ وَلاَمُحَدَّث ـ﴾[٢] قلت: جعلت فداك ليست هذه قراءتنا، فماالرّسول و النّبيّ و المحدَّث؟ قال: الرَّسول الّذي يظهر له الملك فيكلّمه، والنّبيّ هو الّذي يرى في منامه، و ربّما اجتمعت النّبوّة والرّسالة لواحد، و المحدَّث الّذي يسمع الصّوت و لايرى الصّورة، قال: قلت: أصلحك الله كيف يعلم أنّ الّذي رأى في النّوم حقٌّ، و أنّه من الملك؟ قال: يوفّق لذلك حتّى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب و ختم بنبيّكم الأنبياء. (١: ١٧٤ ـ ١٧٧)

---

١ ـ الحجّ / ٥٢.

٢ ـ قوله: «ولا مُحدَّث» إنّما هو منسوب إلى قراءة أهل البيت عليهم السلام و لم تُثبت بالتّواتُر.(م)

الفصل السّادس

نصّ القمّيّ (م: ٣٢٨) في «تفسيره»

[كيفيّة نزول الوحي]

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرسِلَ رَسُولاً ...﴾
الشّورى / ٥١ ـ ٥٢

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا﴾ قال: وحي مشافهة، و وحي إلهام، و هو الّذي يقع في القلب. ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾: كما كلّم الله نبيّه عليه السلام و كما كلّم الله موسى عليه السلام من النّار. ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: وحي مشافهة، يعني إلى النّاس، ثمّ قال نبيّه عليه السلام ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَاالْاِيمَانُ﴾ قال: روح القُدُس، هي الّتي قال الصّادق عليه السلام في قوله: ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبّى﴾[1] قال: هو ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله و هو مع الأئمّة. **(٢: ٢٧٩)**

قال علي بن إبراهيم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرانٌ مَجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[2] قال: اللّوح المحفوظ له طرفان: طرف على يمين العرش و طرف على جبهة إسرافيل، فإذا تكلّم الرّبّ جلّ ذكره بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل، فينظر في اللّوح إلى جبرئيل عليه السلام.

(٢: ٤١٤ و ٤١٥)

في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿حَتّٰى اِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[3]: «و ذلك أنّ أهل السّماوات لم يسمعوا وحيًا فيما

---

١ ـ الإسراء / ٨٥.
٢ ـ البروج / ٢١ و ٢٢.
٣ ـ سبأ / ٢٣.

بين أن بعث عيسى بن مريم عليه السلام إلى أن بعث محمّد صلى الله عليه وآله فلمّا بعث الله جرئيل إلى محمّد صلى الله عليه وآله سمع أهل السّماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصّفا، فصعق أهل السّماوات، فلمّا فرغ من الوحي انحدر جبرئيل، كلمّا مرّ بأهل السّماء فُزِّع عن قلوبهم، يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. (٢:٢٠٢)

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾ الإسراء/٩٥

حدّثني أبي عن أحمد بن النَّضر، عن عمروبن شَمِر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس و عنده جبرئيل، إذ حانت من جبرئيل عليه السلام نظرة قِبَل السّماء، فامتقع لونه حتّى صار كأنّه كُرْكُمة.[1]

ثمّ لا ذبرسول الله صلى الله عليه وآله، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حيث نظر جبرئيل فإذا شيء قد ملأ ما بين الخافقين مُقبلاً حتّى كان كقاب من الأرض، ثمّ قال: يا محمّد! إنّي رسول الله صلى الله عليه وآله إليك أُخبرك أن تكون ملكًا رسولاً أحبّ إليك، أوتكون عبدًا رسولاً؟ فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جبرئيل و قد رجع إليه لونه، فقال جبرئيل: بل كن عبدًا رسولاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بل أكون عبدًا رسولاً فرفع الملك رِجله اليُمنى فوضعها في كبد السّماء الدّنيا، ثمّ رفع الأُخرى فوضعها في الثّانية، ثمّ رفع اليُمنى فوضعها في الثّالثة، ثمّ هكذا حتّىٰ انتهى إلى السّماء السّابعة، كلّ سماء خُطوةً، و كلّما ارتفع صغر حتّى صار آخر ذلك مثل الذّرّ[2] فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جبرئيل فقال: لقد رأيتك ذَعِرًا، و ما رأيت شيئًا كان أذعَر لي من تغيّر لونك، فقال: يا نبيّ الله! لا تلُمني، أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا إسرافيل حاجب الرّبّ، و لم ينزل من مكانه منذ خلق السّماوات و الأرض، فلمّا رأيته منحطًّا ظننتُ أنّه جاء بقيام السّاعة، فكان الّذي رأيت من تغيّر لوني لذلك، فلمّا رأيت ما اصطفاك

---

١ ـ الكُركُم [أو الكُرْكُمة]: نبات طبّيّ عسقوليّ هنديّ مَن الفصيلة الزّنجباريّه... (المعجم الوسيط ٢:٧٨٤). قال اللّيث: هو الزّعفران، قال: الكُرْكُمانيّ: دواءٌ منسوبٌ إلى الكُرْكُم، و هو نبت شبيه بالكَمُّون يخلط بالأدويّة. (لسان العرب ٢:٥١٦).

٢ ـ و في خبر آخر «الصّر».

الله به رجع إليّ لوني و نفسي، أما رأيته كلمّا ارتفع صغر، أنّه ليس شيء يدنوُ من الرّب إلّا صغر لعظمته؟! إنّ هذا حاجب الرّب و أقرب خلق الله منه و اللّوح بين عينيه من ياقوتة حمراء، فإذا تكلّم الرّبّ تبارك و تعالى بالوحي ضرب اللَّوح جبينه فنظر فيه، ثمّ يلقيه إلينا فنسعى به في السّماوات و الأرض، إنّه لأدنى[1] خلق الرّحمان منه، و بينه و بينه[2] سبعون حجابًا من نور تقطع دونها الأبصار ما لا يُعَدّ و لا يوصف، و إنّي لأقرب الخلق منه، و بيني و بينه مسيرة ألف عام. (٢: ٢٧ و ٢٨)

---

١ ـ المراد بالدّنوّ: القرب المعنويّ لا المكانيّ.

٢ ـ قال العلّامة المجلسيّ: قوله: «و بينه و بينه» أي و بين الموضع الّذي جعله محلّ صدور الوحي من العرش، أوالمراد بالحُجُب: الحُجُب المعنويّة. (بحارالأنوار ١٨: ٢٥٨).

الفصل السّابع

نصّ الشّيخ الصّدوق (م: ٣٨١) في «الاعتقادات»

في كيفيّة نزول الوحي

قال أبو جعفر (الشّيخ الصّدوق): اعتقادنا في ذلك [أي في نزول الوحي] أنّ بين عيني إسرافيل لوحًا، فإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يتكلّم بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل، فينظر فيه فيقرأ ما فيه، فيلقيه ألى ميكائيل، و يلقيه ميكائيل إلى جبرئيل و يلقيه جبرئيل إلى الأنبياء، و أمّا الغَشوَة الّتي كانت تأخذ النّبيّ صلى الله عليه وآله فإنّها كانت تكون عند مخاطبة الله تعالى إيّاه حتّى يثقل و يعرق. فأمّا جبرئيل فإنّه كان لا يدخل على النّبيّ صلى الله عليه وآله، حتّى يستأذنه إكرامًا له، و كان يقعد بين يديه قعدة العبد. (الاعتقادات ضمن شرح الباب الحادي عشر): ٩٢

و نصّه في «التّوحيد»

[كيفيّة نزول الوحي]

١ـ [فيما أجاب به أميرالمؤمنين عليه السلام عن أسئلة الزّنديق المدّعي للتّناقض في القرآن]

فقال عليه السلام: و أمّا قوله: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [1] فإنّه ما ينبغي لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحيًا و ليس بكائن إلّا من وراء حجاب ﴿اَوْ يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [2] كذلك قال الله تبارك و تعالى علوًّا كبيرًا، قد كان الرّسول يوحى إليه من رسل السّماء، فيبلّغ رسل السّماء رسل الأرض، و قد كان الكلام بين رسل أهل الأرض و بينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السّماء. و قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا

---

١ ـ الشّورى / ٥٢.

٢ ـ الشّورى / ٥٢.

جبرئيل هل رأيت ربّك؟ فقال جبرئيل: إنّ ربّي لايُرىٰ، فقال رسول‌الله ﷺ: من أين تأخذ الوحي؟ فقال: آخُذه من إسرافيل، فقال: و من أين يأخذه إسرافيل؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الرّوحانيّين، قال: فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ قال: يَقذف في قلبه قذفًا، فهذا وحي، و هو كلام الله عَزَّوجَلّ، و كلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلّم الله به الرّسل، منه ما قذفه في قلوبهم، و منه رؤيا يرُيها الرّسل و منه وحي و تنزيل يُتلى و يُقرأ فهو كلام الله، فاكتَف بما وَصَفْتُ لك من كلام الله فإنّ معنى كلام الله ليس بنحو واحد، فإنّ منه ما يُبَلّغ به رسل السّماء رسل الأرض. قال: فرّجت عنّي فرّج الله عنك، و حللت عنّي عقدة، فعظّم الله أجرك يا أميرالمؤمنين. (ص: ٢٦٤)

٢ـ أبي رحمه الله قال: حدّثنا سَعد بن عبدالله، عن إبراهيم بن هاشم، عن ابن أبي نَجْران، عن محمّد بن سِنان، عن إبراهيم والفضل ابني محمّد الأشعريَّين، عن عُبيد بن زُرارَة، عن أبيه، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام جعلت فداك، الغَشية الّتي كانت تصيب رسول‌الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي؟ فقال: «ذاك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له». قال: ثمّ قال: «تلك النّبوّة يا زُرارة» واقْبَل بتخشّعٍ. (ص: ١١٥).

ونصّه في «كمال الدّين و تمام النّعمة»

٣ـ إنّ النّبيّ ﷺ كان يكون بين أصحابه فيُغمى عليه و هو يتصابّ عرقًا، فإذا أفاق قال: قال الله عَزَّوجَلّ: كذا كذا، و أمركم بكذا، و نهاكم عن كذا. و أكثر مخالفينا يقولون: إنّ ذلك كان يكون عند نزول جبرئيل عليه السلام عليه، فسئل الصّادق عليه السلام عن الغشية الّتي كانت تأخذ النّبيّ ﷺ أكانت تكون عند هبوط جبرئيل؟ فقال: لا، إنّ جبرئيل عليه السلام إذا أتى النّبيّ ﷺ لم يدخل عليه حتّى يستأذنه، فإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، و إنّما ذلك عند مخاطبة الله عَزَّوجَلّ إيّاه بغير ترجمان و واسطة.

حدّثنا بذلك ابن إدريس، عن أبيه، عن جعفر بن محمّد بن مالك، عن محمّد بن الحسين بن زيد، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن ثابت، عن الصّادق عليه السلام. (ص: ٨٥)

و نصّه في «علل الشّرايع»

٤ـ حدّثنا عليّ بن أحمد بن عبدالله البَرقيّ، قال: حدّثني أبي عن جدّه، عن ابن أبي عُمَيْر، عن عمرو بن جُمَيْع، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان جبرئيل إذا أتى النّبيّ صلى الله عليه وآله قعد بين يديه قعده العبد، و كان لا يدخل حتّى يستأذنه».(ص: ٧)

٥ـ حدّثنا محمّد بن إبراهيم بن إسحاق الطّالقانيّ قال: حدّثنا أبوالعبّاس أحمد بن إسحاق الماذرانيّ بالبَصْرة قال: حدّثنا أبو قِلاَبة عبدالملك بن محمّد قال: حدّثنا غانم بن الحسن السّعديّ، قال حدّثنا مُسلم بن خالد المكّيّ، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام قال: «ما أنزل الله تبارك و تعالى كتابًا و لا وحيًا إلّا بالعربيّة، فكان يقع في مسامع الأنبياء بألسنة قومهم، و كان يقع في مسامع نبيّنا صلى الله عليه وآله بالعربيّة، فإذا كلّم قومه كلّمهم بالعربيّة، فيقع فى مسامعهم بلسانهم، و كان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأيّ لسان خاطبه إلّا وقع في مسامعه بالعربيّة، كلّ ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام له و عنه تشريفًا من الله عزّوجلّ له صلى الله عليه وآله».

(ص: ٥٣)

ونصّه في «الأماليّ»

٦ـ الحسين بن إبراهيم القَزوينيّ، عن محمّد بن وَهْبان، عن أحمد بن أبراهيم بن أحمد، عن الحسن بن عليّ الزّعفرانيّ، عن البَرقيّ، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَيْر، عن هِشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال بعض أصحابنا: أصلحك الله أكان رسول‌الله صلى الله عليه وآله يقول: قال جبرئيل، و هذا جبرئيل يأمرني، ثم يكون في حال أُخرىٰ يُغمى عليه؟ قال: فقال أبو عبدالله عليه السلام: أنّه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال: قال لي جبرئيل، و هذا جبرئيل.(ص: ٦٦٣)

الفصل الثّامن

نصّ الشّيخ المفيد (م: ٤١٣) في «تصحيح الإعتقاد»

[بعد ذكر قول الصّدوق كما تقدّم عنه آنفًا في أوّل الفصل السّابق قال:]

هذا أخذه أبو جعفر رحمه الله من شواذّ الحديث، و فيه خلاف؛ لما قدّمه من أنّ اللّوح ملك من ملائكة الله تعالى. و أصل الوحي هو الكلام الخفيّ، ثمّ قد يطلق على كلّ شيءٍ قصد به إفهام المخاطب على السّرّله عن غيره، و التّخصيص له به دون من سواه. و إذا أُضيف إلى الله تعالى كان فيما يخصّ به الرّسل صلّى الله عليهم خاصّة، دون من سواهم على عُرف الإسلام و شريعة النّبيّ صلى الله عليه وآله.

قال الله تعالى: ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلٰى اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعِيهِ﴾[1]. فاتّفق أهل الإسلام على أنّ الوحي كان رُؤيا مناماً أو كلامًا سمعته أُمّ موسى في منامها على الاختصاص. قال الله تعالى: ﴿وَاَوْحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ﴾[2] يريد به الإلهام الخفيّ؛ إذ كان خاصًّا لمن أفرده به دون من سواه، فكان علمه حاصلاً للنّحل بغير كلام جهر به المتكلّم فأسمعه غيره.

و قال تعالى: ﴿وَ اِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ اِلىٰ اَوْلِيَائِهِمْ﴾[3]، بمعنى ليُوَسْوِسُون إلى أوليائهم بما يُلقونه من الكلام في أقصى أسماعهم، فيخصّون بعلمهم دون من سواهم. وقال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَاَوْحىٰ اِلَيْهِمْ﴾[4] يريد به أشار إليهم من غير إفصاح الكلام، شبّه ذلك بالوحي لخفائه عمّن سوى المخاطبين، و لسرّه عمّن سواهم.

و قد يُرِي الله سبحانه و تعالى في المنام خلقًا كثيرًا ما يصحّ تأويله و يثبت حقّه لكنّه لا يطلق بعد استقرار الشّريعة عليه اسم الوحي، و لا يقال في هذا الوقت لمن اطّلعه الله

---

١ ـ القصص / ٧.
٢ ـ النّحل / ٦٧.
٣ ـ الأنعام / ١٢١.
٤ ـ مريم / ١١.

على علم شيء: أنّه يُوحىٰ إليه و عندنا أنّ الله تعالى يسمع الحجج بعد نبيّه صلى الله عليه و آله كلامًا يلقيه إليهم في علم ما يكون، لكنّه لا يطلق عليه اسم الوحي؛ لما قدّمناه من إجماع المسلمين على أنّه لا وحي إلى أحد بعد نبيّنا صلى الله عليه و آله، و أنّه لا يقال في شيءٍ ممّا ذكرناه: أنّه وحي إلى أحدٍ، ولله تعالى أن يبيح إطلاق الكلام أحيانًا و يحظره أحيانًا، و يمنع السّماع بشيءٍ حينًا، و يطلقها حينًا، فأمّا المعاني فإنّها لا تتغيّر عن حقائقها على ما قدّمناه.

فأمّا الوحي من الله تعالى إلى نبيّه صلى الله عليه و آله فقد كان تارةً بإسماعه الكلام من غير واسطة، و تارةً بإسماعه الكلام على ألسن الملائكة. والّذي ذكره أبو جعفر؛ من الّلوح والقلم و ما ثبت فيه فقد جاء به حديث، إلّا أنّا لا نعزم على القول به ولا نقطع على الله بصحّته، و لا نشهد منه إلّا بما علمناه، و ليس الخبر به متواترًا يقطع العذر، ولا عليه إجماع، و لا نطق به القرآن، و لا ثبت عن حجّة الله تعالى فينقاد له، و الوجه أن نقف فيه و نجوّزه، و لا نقطع به و لانجزم له و نجعله في حيّز الممكن.

فأمّا قطع أبي جعفر به و علمه على اعتقاده فهو يستند إلى ضرب من التّقليد، و لسنا من التّقليد في شيءٍ.(**تصحيح الاعتقاد: ٩٩**)

و نصّه في «أوائل المقالات»

إنّ العقل لا يمنع من نزول الوحي إليهم عليهم السلام و إن كانوا أئمّة غير أنبياء فقد أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى أُمّ موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [1] الآية، فعرفت صحّة ذلك بالوحي و علمت عليه و لم تكن نبيًّا و لا رسولاً و لا إمامًا و لكنّها كانت من عباده الصّالحين، و إنّما منعت نزول [2] الوحي إليهم و الإيحاء بالأشياء إليهم للإجماع على المنع من ذلك و الاتّفاق على أنّه من زعم أنّ أحدًا بعد نبيًّا صلى الله عليه و آله يوحى إليه فقد أخطأ و كفر.

ولحصول العلم بذلك من دين النّبيّ صلى الله عليه و آله كما أنّ العقل لم يمنع من بعثة نبيّ بعد نبيّنا صلى الله عليه و آله و نسخ شرعنا كما نسخ ما قبله من شرائع الأنبياء عليهم السلام و إنّما منع ذلك الإجماع و

١ ـ القصص: ٧.

٢ ـ أي إنّما منعت القول بنزول الوحي.

العلم بأنّه خلاف دين النّبيّ صلى الله عليه وآله من جهة اليقين و ما يقارب الاضطرار، والإماميّه جميعًا على ما ذكرت ليس بينها فيه على ما وصفت خلاف....

ثمّ قال رحمه الله: القول في سماع الأئمّة كلام الملائكة الكرام و إن كانوا لايرون منهم الأشخاص، و أقول بجواز هذا من جهة العقل و إنّه ليس بممتنع في الصّدّيقين من الشّيعة المعصومين من الضّلال و قد جاءت بصحّته و كونه للأئمّة عليهم السلام و من أُسميت من شيعتهم الصّالحين الأبرار الأخيار واضحة الحجّة و البرهان، و هو مذهب فقهاء الإماميّة و أصحاب الآثار منهم، و قد أباه «بَنو نَو بخت» و جماعة من الإماميّة لا معرفة لهم بالأخبار و لا يمعنوا[1] النّظر و لا سلكوا طريق الصّواب.

ثمّ قال رحمه الله: و أقول: إنّ منامات الرّسل و الأنبياء و الأئمّة عليهم السلام صادقة لا تكذب، و إنّ الله تعالى عصمهم عن الأحلام، و بذلك جاءت الأخبار عنهم عليهم السلام و على هذا القول جماعة فقهاء الإماميّة و أصحاب النّقل منهم، و أمّا متكلّموهم فلا أعرف منهم نفيًا و لا إثباتًا و لا مسألة فيه و لا جوابًا، و المعتزلة بأسرها تخالفنا فيه انتهى.(ص:۳۹ـ۴۲)

و نصّه في« الاختصاص»[2]

أحمد بن محمّد بن أبي نَصر، عن ثَعْلَبَة بن ميمون، عن زُرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام، عن قول الله عَزَّوجَلَّ: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾: علمنا الرّسول و مَن النّبيّ؟... [و ذكر كما تقدّم عن الصّفار، الرّقم ٤] (ص: ٣٢٨).

قرن إسرافيل برسول‌الله صلى الله عليه وآله ثلاث سنين يسمع الصّوت و لا يرى شيئًا، ثمّ قرن به جبرئيل عليه السلام، عشرين سنة، و ذلك حيث أُوحي إليه فأقام بمكّة عشر سنين، ثمّ هاجر إلى المدينة فأقام بها عشر سنين، و قبض صلى الله عليه وآله و هو ابن ثلاث و ستّين سنة. (ص: ١٣٠)

أبو محمّد بن الحسن بن حمزة الحسينيّ، عن محمّد بن يعقوب، عن عدّة من

---

١ ـ في نسخة: [ولم يمعنوا].

٢ ـ في كون هذا الكتاب للشّيخ المفيد كلام. (م)

أصحابه، عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن أبي يحيى الواسطيّ، عن هِشام بن سالم، و دُرُسْت بن أبي منصور عنهم عليهم السلام، قال: إنّ الأنبياء المرسلين على أربع طبقات... [..و ذكر **كما تقدّم عن الصَّفّار، الرّقم ١**]. **(ص:٢٢)**

الفصل التّاسع

نصّ الشّريف المرتضى (م: ٤٣٦) في «الأمالي»

تأويل آيةٍ

إن سأل سائل عن تأويل قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. الشّورى / ٥١

فقال: أوليس ظاهر هذا الكلام يقتضي جواز الحجاب عليه أنتم تمنعون من ذلك؟

الجواب قلنا: ليس في الآية أكثر من ذكر الحجاب، و ليس فيها أنّه حجاب له تعالى أو لمحلّ كلامه أو لمن يكلّمه و إذا لم يكن في الظّاهر شئ من ذلك جاز صَرْف الحجاب إلى غيره عَزَّوجَلَّ؛ ممّا يجوز أن يكون محجوبًا. و قد يجوز أن يريد تعالى بقوله: ﴿اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أنّه يفعل كلامًا في جسم يحتَجب على المكـلَّم، غـير مـعلوم له عـلى سـبيل التّفصيل، فيسمع المخاطب الكلام و لا يعرف محلّه على طريق التّفصيل، فيقال على هذا: هو مكلَّم من وراء حجاب.

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا﴾ قال: هو داود أُوحي في صَدْره فزبرالزَّبور، ﴿اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ و هو موسى ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ وهو جبريل إلى محمّد ﷺ.

فأمّا الجُبّائيّ فإنّه ذكر أنّ المراد بالآية: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾ إلّا مثل ما يكلّم به عباده من الأمر بطاعته، و النّهي لهم عن معاصيه، و تنبيهه إيّاهم على ذلك من جـهة الخاطر أوالمنام، و ما أشبه ذلك على سبيل الوحي.

قال: و إنّما سَميّ الله تعالى ذلك وحيًا لأنّه خاطر و تنبيه، و ليس هو كلامًا لهم على سبيل الإفصاح، كما يفصح الرّجل منّا لصاحبه إذا خاطبه، والوحيُ في اللّـغة إنّـما هـو

ماجَرى مجرى الإيماء و التّنبيه على شيء من غير أن يُفْصح به؛ فهذا هو معنى ما ذكره الله تعالى في الآية.

قال: و عَنىٰ بقوله: ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أن يحجُب ذلك الكلام عن جميع خلقه، إلّا مَنْ يُريد أن يكلِّمه به؛ نحو كلامه تعالى لموسى عليه السلام، لأنّه حَجَب ذلك عن جميع الخلق إلاّ موسى عليه السلام وحده في كلامه إيّاه أوّلاً. فأمّا كلامه إيّاه في المّرة الثّانية فإنّه إنّما أسمع ذلك موسى والسّبعين الّذين كانوا معه، و حُجِب عن جميع الخلق سواهم. فهذا معنى قوله عَزَّوجلَّ: ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ لأنّ الكلام هو الّذي كان محجوبًا عن النّاس.

وقد يقال: إنّه تعالى حُجِب عنهم موضع الكلام الّذي أقام الكلام فيه؛ فلم يكونوا يدرون مِن أين يسمعونه؛ لأنّ الكلام عَرَضٌ لا يقوم إلّا في جسم.

و لايجوز أن يكون أراد بقوله: ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أنّ الله تعالى كان ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ يكلّم عباده؛ لأنّ الحجاب لا يجوز إلّا على الأجسام المحدودة.

قال: و عنىٰ بقوله: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ إرساله ملائكته بكتبه و بكلامه إلى أنبيائه عليهم السلام، ليبلِّغوا عنه ذلك على سبيل إنزاله القرآن على محمّد صلى الله عليه وآله و إنزاله سائر الكتب على أنبيائه.

فهذا أيضًا ضَربٌ من الكلام الّذي يكلِّم الله تعالى عباده و يأمرهم فيه بطاعته، و نهاهم عن معاصيه؛ من غير أن يكلِّمهم على سبيل ما كلّم به موسى، و هذا الكلام هو خلاف الوحي الّذي ذكره الله تعالى في أوّل الآية لأنّه قد أفصح لهم في هذاالكلام بما أمرهم به و نهاهم عنه. و الوحي الّذي ذكره تعالى في أوّل الآية إنّما هو تنبيهٌ و خاطرٌ، و ليس فيه إفصاح و هذا الّذي ذكره أبو عليّ أيضًا سديد، والكلام محتمل لما ذكره.

و يمكن في الآية وجه آخر، و هو أن يكون المراد بالحجاب البُعد و الخفاء، ونفْيَ الظّهور. و قد تستعمل العرب لفظة «الحجاب» فيما ذكرناه؛ يقول أحدهم لغيره إذا استبعد فهمه، و استبطأ فِطْنَته: بيني و بينك حجاب، و تقول للأمر الّذي تستبعده و تستصعب طريقه: بيني و بين هذا الأمر حُجُبٌ و موانعُ و سواترٌ؛ و ما جرى مَجرى ذلك؛ فيكون معنى الآية: أنّه تعالى لا يكلِّم البشر إلاّ وحيًا؛ بأنْ يُخْطر في قلوبهم، أو بأن ينصِب لهم أدلّةً

تَدُلّهم على ما يريده أو يكرهه منهم؛ فيكون من حيث نصبها للدّلالة على ذلك والإرشاد إليه مخاطبًا و مكلِّمًا للعباد بما يدلُّ عليه. و جعل هذا الخطاب من وراء حجاب من حيث لم يكن مسموعًا ـ كما يُسمع الخاطر و قول الرّسُول ـ ولا ظاهرًا معلومًا لكلّ من أدركه؛ كما أنّ أقوال الرّسل المؤدّين عنه تعالى من الملائكة بهذه الصّفة. فصار الحجاب هاهنا كناية عن الخفاء و عبارة عمّا تدلّ عليه الدّلالة. و ليس لأحد أن يقول إنّ الّذي تدلّ عليه الأجسام من صفاته تعالى و أحواله و مراده و لا يقال: إنّه تعالى مكلّم لنا به؛ و ذلك أنّه غير ممتنع على سبيل التّجوّز أن يقال فيما يدلّ عليه الدّليل الّذي نصّه الله تعالى ليدلّ على مراده، و يرشد إليه: إنّه مكلِّم لنا و مخاطب به؛ و لا يمتنع المسلمون أن يقولوا: إنّه تعالى خاطبنا بما دلّت عليه الأدلّة العقليّة، و أمَرَنا بعبادته و اجتناب ما كرهه منّا، و فِعل ما أراده، و هكذا يقولون فيمن فعل فعلاً يدلّ على أمر من الأُمور: قد خاطبنا فلان بما فعل من كذا وكذا، وقال لنا، و أمَرَنا و زَجَرنا، و ما أشبه ذلك من الألفاظ الّتي يُجرونها على الكلام الحقيقيّ. و هذا الاستعمال أكثر و أظهر من أن يورد أمثلته و نظائره. (٢: ٢٠٥ ـ ٢٠٧)

سئل المرتضى: نزول جبرئيل بالوحي في صورة دِحية الكلبيّ كيف كان يتصوّر بغير صورته؟ هو القادر عليها، أوالقديم تعالى يشكّل صورة و ليست صورة جبرئيل؟ فإن كان الّذي يسمع من القرآن من صورة غير جبرئيل ففيه ما فيه، و إن كان من جبرئيل فكيف يتصوّر بصورة للبشر؟ و هذه القدرة قد رويت أنّ إبليس يتصوّر و كذلك الجنّ، أُريد أن توضّح أمر ذلك. و ما كان يسمعه جبرئيل من الوحي من الباري تعالى أو من حجاب و كيف كان يبلغه؟ و هل جبرئيل يعلم من صفات الباري أكثر ممّا نعلمه أو مثله؟ و أين محلّه من السّماء؟ و هل القديم إذا خطر ببال جبرئيل يكون متحيّرًا فيه مثلنا، و يكون سبحانه لاتدركه الأوهام أو ميّزه علينا و جميع الملائكة أيضًا؟.

فأجاب رحمه الله بأنّ نزول جبرئيل بصورة دِحْية كان بمسألة من النّبيّ ﷺ لله تعالى في ذلك، فأمّا تصوّره فليس بقدرته، بل الله يصوّره كذلك صورة حقيقة لا تشكيل، والّذي كان يسمعه النّبيّ ﷺ من القرآن كان من جبرئيل في الحقيقة، و أمّا إبليس و الجنّ فليس يقدرون على التّصوّر، و كلّ قادر بقدرة فحكمهم سواء في أنّهم لا يصحّ أن يصوّروا

نفوسهم، بل إن اقتضت المصلحة أن يتصوّر بعضهم بصورة صوّره الله للمصلحة، فأمّا جبرئيل عليه السلام و سماعه الوحي فيجوز أن يكلّمه الله بكلام يسمعه فيتعلّمه، و يجوز أن يقرأه من اللّوح المحفوظ، فأمّا ما يعلم جبرئيل من صفات الله فطريقه الدّليل، و هو و العلماء فيه واحد. فأمّا محلّه من السّماء فقد روي أنّه في السّماء الرّابعة. فأمّا ما يخطر بباله فلا يجوز أن يتحيّر فيه، لأنّ جبرئيل معصوم لا يصحّ أن يفعل قبيحًا (اه). و في بعض ما أفاده نظر لا يخفى على المتأمّل. (**عنه: المجلِسِيّ في البحار ٥٩: ٢٠٩ ـ ٢١٠**)

الفصل العاشر

نصّ البَيْهَقيّ (م: ٤٥٨) في «الأسماء و الصّفات»

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾ الشّورى /٥١.

قال بعض أهل التّفسير: فالوحي الأوّل ما أرى الله سبحانه و تعالى الأنبياء عليهم السلام في منامهم، كما أمر إبراهيم عليه السلام في منامه بذبح ابنه، فقال فيما أخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿اِنّى اَرىٰ فِى الْمَنَامِ اَنّى اَذبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذاَ تَرىٰ قَالَ يَا اَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ﴾[1] قال الإمام المطّلبيّ الشّافعيّ رضي الله عنه: قال غير واحد من أهل التّفسير: رؤيا الأنبياء وحيٌ، لقول ابن إبراهيمَ الّذي أُمر بذبحه: «افْعَل مَاتُؤْمَر». .

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، أخبرني أحمد بن محمّد بن عَبْدوس ثنا عثمان بن سعيد الدّارميّ، ثنا عليّ بن المدينيّ، ثنا سُفيان، قال: قال عمرو ـ هو ابن دينار ـ سمعت عُبَيْد بن عُمَيْر يقول: رؤيا الأنبياء وحيٌ، و قرأ: ﴿اِنّى اَرىٰ فِى الْمَنَامِ اَنّى اَذْبَحُكَ...﴾ رواه البُخاريّ في الصّحيح عن عليّ بن المدينيّ، و رويناه في ذلك عن ابن عبّاس رضي‌الله عنهما. و أمّا الكلام من وراء حجاب فهو كما كلّم موسى عليه السلام من وراء حجاب، والحجاب المذكور في هذا الموضع و غيره يرجع إلى الخلق دون الخالق.

أخبرنا أبوعليّ الحسين بن محمّد الرّوذباريّ أنا أبوبكر بن داسَه، ثنا أبو داود، ثنا أحمد بن صالح، ثنا ابن أوهَب، قال: أخبرني هِشام بن سعد عن يزيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إنّ موسى عليه السلام قال: «يارب أرنا الّذي أخرجنا و نفسه من الجنّة، فأراه الله عزّوجَلَّ آدم عليه السلام، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال له آدم:

---

١ ـ الصّافات / ١٠٢.

نعم، قال أنت الّذي نفخ الله فيك من روحه؟ و علّمك الأسماء كلّها و أمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حَمَلك على أن أخرجتنا و نفسك من الجنّة؟ قال له آدم: و من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت موسى بني إسرائيل الّذي كلّمك الله من وراء حجاب[1] لم يجعل الله بينك و بينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: فما و جدت أنّ ذلك كان في كتاب الله عزَّوجَلَّ قبل أن أخلق؟ قال: نعم، قال: فبم تلومُني في شيءٍ سبق من الله عَزَّوجَلَّ فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: فحَجَّ آدم موسى، فحَجَّ آدم موسى».

و أمّا الكلام بالرّسالة فهو إرساله الرّوح الأمين بالرّسالة إلى من شاء من عباده، قال الله عزَّوجَلّ: ﴿وَ اِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[2].

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ و أبوسعيد بن أبي عمرو، قالا: ثنا أبوالعبّاس محمّد بن يعقوب، ثنا هلال بن العلاء الرّقيّ، ثنا عبدالله بن جعفر، ثنا المُعْتَمِر بن سليمان، ثنا سعيد بن عُبَيد الله الثّقفيّ، أنا بكر بن عبدالله المُزَنيّ و زياد بن جُبَيْر عن جُبَيْر بن حيّة، فذكر الحديث

---

١ ـ و في شرح المقاصد: موسى عليه السلام بأنّه كليم الله تعالى فيه أوجه؛

أحدها ـ و هو اختيار الغزاليّ أنّه سمع كلامه الأزليّ بلا صوت و لا حرف، كما ترى في الآخرة ذاته بلاكمٍّ و لا كيفٍ، و هذا على مذهب من يجوز تعلّق الرُّؤية و السّماع بكلّ موجود حتّى الذّات و الصّفات، و لكن سماع غير الصّوت و الحرف لا يكون إلّا بطريق خرق العادة.

و ثانيها ـ أنّه سمعه بصوت من جميع الجهات على خلاف ما هو العادة.

و ثالثها ـ أنّه سمع من جهة لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعنا. و حاصله أنّه أكرم موسى عليه السلام فأفهمه كلامه بصوت تولّى بخلقه من غير كسب لأحدٍ من خلقه، و إلى هذا ذهب أبو منصور الماتُريديّ و أبو إسحاق الإسفراينيّ.

و قال الإسفراينيّ: اتّفقوا على أنّه لا يمكن سماع غير الصّوت، إلّا أنّ منهم من بتّ القول بذلك، و منهم من قال: لمّا كان المعنى القائم بالنّفس معلوماً بواسطة سماع الصّوت كان مسوعاً فالاختلاف لفظيّ لا معنويّ. اهـ والصّوت سواء كان من جهة أوالجهات كلّها حادث مخلوق لا يقوم بالله سبحانه. و في طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يَعلىٰ عند ترجمة أبي العبّاس الإصطَخريّ في صدد ذكر عقيدة أحمد: «... و كلّم الله موسى تكليماً من فيه، و ناوله التّوراة من يده إلى يده»، و من هذا يعلم مبلغ ضلال هؤلاء المجسّمة المتستّرين بالانتساب إليه زوراً و حاش لله أن يكون الإمام أحمد يثبت لله فَماً، و ما إلى ذلك من وجوه الضّلال في العقيدة المعزُوّة إليه هناك.

٢ ـ الشّعراء / ١٩٢ ـ ١٩٤.

الطّويل في بعث النُّعمان بن مُقْرِن إلى أهل الأهواز، و أنّهم سألوا أن يخرج إليهم رجلاً، فأخرج المُغِيرة بن شُعْبَةَ، فقال ترجمان القوم: ما أنتم؟ فقال المُغِيره: نحن ناس من العرب، كنّافي شقاءٍ شديد، و بلاءٍ طويل، نَمُصّ الجلد والنّوىٰ من الجوع، و نلبَس الوَبَر و الشَّعر، و نعبد الشَّجَر و الحَجَر، فبينا نحن كذلك إذ بعث ربّ السّموات و ربّ الأرض إلينا نبيًّا من أنفسنا نعرف أباه و أُمّه، فأمرنا نبيّنا رسول ربّناﷺ أن نقاتلكم حتّى تعبدواالله وحده، أو تُؤدّوا الجزية.

وأخبرنا نبيّنا رسول اللهﷺعن رسالة ربّنا أنّه من قُتِل منّا صار إلى جنّةٍ و نعيم لم ير مثله قطّ، و من بقي منّا مَلَك رِقابكم، رواه البخاريّ في الصّحيح عن فضل بن يعقوب، عن عبدالله بن جعفر. أخبرنا أبو نصر عمر بن عبدالعزيز بن قَتادة، أنا أبوالحسن محمّد بن أحمد ابن زكريّا الأديب، ثنا الحسين بن محمّد بن زياد القَبّانيّ ثنا إسحاق بن إبراهيم، أنا وَهْب ابن جَرير، ثنا أبي، ثنا محمّد بن إسحاق، حدّثني الزُّهْريّ عن أبي بكر بن عبدالرّحمان بن الحارث بن هِشام، و عن عُبَيدالله بن عُتْبة و عن عُروة بن الزُّبَيْر، و صُوِّب الحديث عن أبيبكر بن عبد الرّحمان، عن أُمّ سَلَمَة زوج النّبيّﷺ «أنّ رسول اللهﷺ لمّا فتن أصحابه بمكّة أشار عليهم أن يلحقوا بأرض الحبشة»، فذكر الحديث و قال فيه: فقال جعفر بن أبي طالبؓ للنّجاشيّ: «بعث الله عزَّوَجلَّ إلينا رسولاًنعرف نسبه و صِدْقه و عَفافه، فدعا[نا] إلى أن نعبدالله وحده لا نشرك به شيئًا، و نخلع من يعبد قومه و غيرهم من دونه، و أمرنا بالمعروف، و نهانا عن المنكر، و أمرنا بإقام الصّلاة و الصّيام و صلة الرّحم، و كلّ مانعرف من الأخلاق الحسنة، و تلا علينا تنزيلاً لا يُشبهه شيء غيره، فصدّقناه و آمنّا به، و عرفنا أنّ ما جاء به هو الحقّ من عندالله».

قلت: و قد كان لنبيّناﷺ جميع هذه الأنواع، أمّا الرّسالة فقد كان جبريل عليه الصّلاة و السّلام يأتيه بها من عند الله عَزَّوجَلَّ.

و أمّا الرُّؤيا في المنام فقد قال الله عَزَّوجَلَّ: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَالْحَرَامَ اِنْ شَاءَ اللهُ اٰمِنِينَ﴾**[١] و ذلك أنّ رسول اللهﷺ أُرِي و هو بالحُدَيبيّة أنّه يدخل

١ ـ الفتح / ٢٧.

مكّة هو و أصحابه آمنين مُحلِّقين رؤوسهم و مقصّرين، فقال له أصحابه حين نحر بالحُدَيبيّة: أين رؤياك يا رسول الله ﷺ؟ فأنزل الله تبارك و تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ـ إلى قوله ـ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، يعني النّحر بالحُدَيبيّة، ثمّ رجعوا ففتحوا خيْبَر، ثمّ اعتمر بعد ذلك، فكان تصديق رؤياه ﷺ في السّنة المُقبِلة.

أخبرنا بذلك أبو عبدالله الحافظ، أنا عبدالرّحمان بن الحسن القاضي، ثنا إبراهيم بن الحسين، ثنا آدم، ثنا وَرقاء عن ابن أبي نَجيح، عن مُجاهد فذكره.

و رُوَينا عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: «أوّل ما بُدِئ به رسول الله من الوحي الرُّؤيا الصّالحة في النّوم، و كان ﷺ لا يرى رُؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصّبح»، تريد ضياء الصّبح إذا انفلق.

و أمّا التّكليم فقد قال الله عَزَّوجَلَّ: ﴿فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحىٰ﴾[1] ثمّ كان فيما إليه ليلة المعراج خمسين صلاة، فلم يزل يسأل ربّه التّخفيف لأُمّته حتّى صار إلى خمس صلوات، وقال له ربّه تبارك و تعالى: إنّي لا يبدّل القول لديّ، هي كما كُتبت عليك في أُمّ الكتاب، و لك بكلّ حسنة عشر أمثالها، هي خمسون في أُمّ الكتاب و هي خمس عليك. و قد مضى الحديث فيه.

واختلف الصّحابة رضي الله عنهم في رؤيته ربّه عَزَّوجَلَّ، فذهبت عائشة رضي الله عنها إلى أنّه ﷺ لم يره ليلة المعراج، و ذهب ابن عبّاس رضي الله عنه إلى أنّه ﷺ رآه ليلة المعراج.

و قد ذهب الزُّهْريّ رحمه الله في تقسيم الوحي إلى زيادة بيان، و ذلك فيما أخبرنا أبوعبدالرّحمان السُّلَميّ، أنا أبوالحسن المحموديّ، ثنا أبو عبدالله محمّد بن عليّ الحافظ، ثنا أبو موسى محمّد بن المثنّى، ثنا حَجّاج بن مِنْهال، ثنا عبد الله بن عمر، عن يونس بن يزيد: سمعت الزُّهْريّ حين سئل عن قول الله عَزَّوجَلَّ: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْمِنْ وَ رَائِ حِجَابٍ...﴾ قال: نزلت هذه الآية تعمّ من أوحى الله إليه من النّبيّين، قال: فالكلام كلام الله تعالى الّذي كلّم به موسى من وراء حجاب، و الوحي ما يوحي الله به إلى

١ ـ النّجم / ١٠

النّبيّ من أنبيائه فيثبّت الله تعالى ما أراد من و حيه في قلب النّبيّ، فيتكلّم به النّبيّ عليه الصّلاة و السّلام و يبيّنه، و هو كلام الله و وحيه. ومنه مايكون بين الله و رسله لا يكلّم به أحد من الأنبياء أحدًا من النّاس، و لكنّه سرٌّ غُيِّب بين الله و رسله.

و منه ما يتكلّم به الأنبياء و لا يكتبونه لأحد و لا يأمرون بكتابته، و لكنّهم يحدّثون به النّاس حديثًا، و يبيّنون لهم أنّ الله تعالى أمرهم أن يبيّنوه للنّاس و يبلّغوهم.

و من الوحي ما يرسل الله به من يشاء فيوحون به وحيًا في قلوب من يشاء من رسله، و قد بيّن الله عَزَّوجلَّ لنا في كتابه أنّه يرسل جبرئيل عليه السلام إلى محمّد صلى الله عليه وآله قال الله عَزَّوجَلَّ في كتابه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] و ذكر أنّه الرّوح الأمين فقال: ﴿وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ﴾[2] الآية. فذهب في الوحي الأوّل إلى أنّهما يوحي الله به إلى النّبيّ فيثبّت ما أراد من وحيه في قلبه، فيتكلّم به النّبيّ، و هذا يجمع حال اليقظة و النّوم. و ذهب فيما يوحي الله تعالى إلى النّبيّ بإرسال الملك إليه إلى أنّه يكون على نوعين:

أحدهما ـ أن يأتيه الملك فيكلّمه بأمر الله تكليمًا.

و **الآخر** ـ أن يأتيه فيلقي في روعه ما أمره الله عَزَّوجَلَّ، و كلّ ذلك بُيّن في الأخبار.

أخبرنا أبوبكر أحمدبن محمّدبن غالب الخوارزميّ الحافظ ببغداد، ثنا أبوالعبّاس محمّد بن أحمد النّيسابوريّ، ثنا منجاب ابن الحارث، ثنا عليّ بن مسهّر، عن هِشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت:... **[و ذكر كما تقدّم عن النّسائيّ الرّقم ٢، ثمّ قال:]**

أخبرنا أبوسعيد بن أبي عمرو في آخرين قالوا: ثنا أبوالعبّاس محمّد بن يعقوب، أنا الرّبيع بن سليمان، أنا الشّافعيّ، أنا عبدالعزيز بن محمّد عن عمر و بن أبي عمرو مولى المطّلب، عن المطّلب بن حَنْطَب رضي الله عنه قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما تركت شيئًا ممّا أمركم الله به إلّا و قد أمرتكم به، و لاتركت شيئًا ممّا نهاكم الله عنه إلّا و قد نهيتكم عنه، و إنّ الرّوح الأمين قد ألقى في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطّلب». و قال بعضهم عن أبي العبّاس: «قد نفث في روعي» و قد رَوَيناه في كتاب

---

١ ـ البقرة / ٩٧.

٢ ـ الشّعراء / ١٩٢ ـ ١٩٤.

المدخل و غيره من حديث ابن مسعود مرسلاً و متّصلاً.

ثمّ ذهب الزُّهْريّ في الوحى إلى أنّ منه ما كان سرًّا فلم يحدِّث به النّبيّ أحدًا، و منه مالم يكن سرًّا فحدَّث به النّاس، غير أنّه لم يكن مأمورًا بكَتْبه قرآنًا، فلم يُكتَبْ فيما كُتِب من القرآن، قلت: و منه ما كان مأمورًا بكَتْبه قرآنًا، فكُتِب فيما كُتِب من القرآن.

أخبرنا أبو عمرو محمّد بن عبدالله الأديب، أنا أبوبكر الإسماعيليّ، أخبرني الحسن بن سُفيان، ثنا قُتَيبة بن سعيد، ثنا أبو عَوَانة عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس ﷺ في قوله عَزَّوجَلَّ: ﴿لاَتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَك لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾[1]. [و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ فى باب كيفيّة النّزول]... (١٩٢ـ١٩٨).

١ ـ القيامه / ١٦

الفصل الحادي العشر

نصّ الطّوسيّ (م: ٤٦٠) في «تفسير التّبيان»

[كيفيّة الوحي و أقسامه في القرآن]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾ الشّورى/٥١

يقول الله تعالى: إنّه ليس لبشر من الخلق أن يكلّمه الله إلّا أن يوحي إليه وحيًا، ﴿اَوْ مِن وَرَائِ حِجَابٍ﴾، معناه أو بكلام بمنزلة مايسمع من وراء حجاب، لأنّه تعالى لايجوز عليه ما لايجوز إلّا على الأجسام من ظهور الصّوره للأبصار، ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ فإن جعلناه عطفًا على إرسال الرّسول، كان أحد أقسام الكلام كما قلناه في قولهم: عتابك السّيف، كأنّه قال: إلّا وحيًا أو إرسالاً، و إن لم تجعله عطفًا لم يكن أحد أقسامه، و يكون كقولهم: لألزمنّك أو تعطيني حقّي، فلا يكون الإرسال في هذا الوجه كلامًا، فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة أقسام:

أوّلها ـ أن يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب، كما خاطب الله به موسى عليه السلام.

الثّاني ـ بوحي يأتي به الملك إلى النّبيّ من البشر كسائر الأنبياء.

الثّالث ـ بتأدية الرّسول إلى المكلّفين من النّاس.

و قيل في الحجاب ثلاثة أقوال:

أحدها ـ حجاب عن إدراك الكلام لا المُتكلّم وحده.

الثّاني ـ حجاب لموضع الكلام.

الثّالث ـ أنّه بمنزلة مايسمع من وراء حجاب.

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ معناه أنّ ذلك الرّسول الّذي هو الملك يوحي إلى النّبيّ من البشر بأمر الله ما شاءه الله.

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ معناه أنّ كلامه المسموع منه لايكون مخاطبة يظهر فيها المتكلّم بالرُّؤية، لأنّه العليّ عن الإدراك بالأبصار، و هو الحكيم في جميع أفعاله و في كيفيّة خطابه لخلقه.

و قال السُّدّيّ: معنى الآية أنّه لم يكن لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحيًا بمعنى إلّا إلهامًا بخاطر أو في منام أو نحوه من معنى الكلام إليه في خفاء، ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ يحجبه عن إدراك جميع الخلق إلّا عن المتكلّم الّذي يسمعه كما سمع موسى كلام الله. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ يعني به جبرائيل. (٩: ١٧٥)

[كان الشّياطين يسترقون السّمع قبل بعثة النّبيّ ﷺ]

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ...﴾
الحِجر /١٦ ـ ١٨

أخبر الله تعالى أنّه جعل في السّماء بروجًا، والجعل قد يكون تصيير الشّيء عن صفة لم يكن عليها، و قد يكون بالإيجادله. و الله تعالى قادر أن يجعل فِي السّماء بروجًا من الوجهين، والبُرْج: ظهور منزل ممتنع بارتفاعه، فمن ذلك برج الِحصْن، و برج من بروج السّماء الاثني عشر، و هي منازل الشّمس و القمر. وأصله الظّهور، يقال: تبرّجت المرأة، إذا أظهرت زينتها. و قال الحسن و مجاهد و قَتادة: المراد بالبروج النّجوم.

و قوله ﴿وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يحتمل أن تكون الكناية راجعة إلى السّماء و إلى البُروج. و حفظ الشّيء جعله على ما ينفي عنه الضّياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه و مراعاته، حتّى لا ينسى، و منه حفظ المال بإحرازه بحيث لا يضيع بتخطّف الأيدي له، و حفظ السّماء من كلّ شيطان بالمنع بما أعدّ له من الشّهاب. والرّجم بمعنى المرجوم، والرّجم الرّمي بالشّيء بالاعتماد من غير آلة مهيّأة للإصابة، فإنّ النّفوس يُرمى عنها و لاتُرجم.

و قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ معنى ﴿إِلَّا﴾ (لكن) فكأنّه قال: لكن من استرق السّمع من الشّيطان يتبعه شِهابٌ مُبين. قال الفرّاء: أي لا يخطىء، و قال المفسّرون؛ قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ مثل قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾[1] و معناه معناه، و الاستراق: أخذ الشّيء، خفيًّا، و ليس طلبهم استراق السّمع مع علمهم بالشُّهُب خروج عن العادة في صفة العقلاء، لأنّهم قد يطمعون في السّلامة من بعض الجهات، و الشّهاب: عمود من نور يمدّ لشدّة ضيائه كالنّار، و جمعه شُهُب. قال ابن عبّاس: بالشِّهاب يخبل و يحرق، ولا يقتل. وقالالحسن: يقتل، قال ذو الرّمّة:

كأنّه كوكب في إثر عفريةٍ مسوَّم في سواد اللّيل منقضب

و قال الفرّاء: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ استثناء صحيح؛ لأنّ الله تعالى لم يحفظ السّماء ممّن يصعد إليها ليسترق السّمع، و لكن إذا سمعه و ألقاه إلى الكَهَنَة أتبعه شِهابٌ مبينٌ، فأمّا استراقهم السّمع، فقال المفسّرون: إنّ فيهم من كان يصعد السّماء فيسمع الوحي من الملائكة، فإذا نزل إلى الأرض أغوى به شياطينه أو ألقاه إلى الكُهّان، فيغوون به الخلق، فلمّا بعث الله تعالى نبيّه ﷺ منعهم من ذلك، و كان قبل البعثة لم يمنعهم من ذلك تغليظًا في التّكليف. قال الزَّجّاج: والدّليل على أنّه لم يكن ذلك قبل النّبيّ أنّ أحدًا من الشّعراء لم يذكره قبل بعثة النّبيّ ﷺ مع كثرة ذكرهم الشُّهُب بعد ذلك. (٦: ٣٢٤ ـ ٣٢٥)

﴿وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا...﴾ الجن / ٨ ـ ١٠

ثمّ حكى أنّ الجنّ قالت: ﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، أي مسسناها بأيدينا. و قال الجُبّائيّ: معناه إنّا طلبنا الصّعود إلى السّماء، فعبّر عن ذلك باللّمس مجازًا، و إنّما جاز من الجنّ تطلّب الصّعود مع علمهم بأنّهم يرمون بالشُّهُب لتجويزهم أن يصادفوا موضعًا يصعدون منه ليس فيه ملك يرميهم بالشُّهب، أو اعتقدوا أنّ ذلك غير صحيح، و لم يصدّقوا من أخبرهم بأنّهم رمو حين أرادوا الصّعود.

﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا﴾: نصب ﴿حَرَسًا﴾ على التّمييز، و ﴿شَدِيدًا﴾

---

١ ـ الصّافات / ١٠.

نعته، و ﴿شُهُبًا﴾: عطف على ﴿حَرَسًا﴾، فهو نصب أيضًا على التّمييز، و تقديره مُلئت من الحرس. و الشُّهُب:جمع شِهاب، و هو نور يمتدّ من السّماء من النّجم كالنّار، قال الله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينَ﴾[١]. والحَرَس: جمع حارس، و قيل: إنّ السّماء لم تحرس قطّ إلّا لنبوّة أو عقوبة عاجلة عامّة.

ثمّ حكى أنّهم قالوا أيضًا: ﴿وَ اَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْاٰنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أي لم يكن فيما مضى منع من الصّعود في المواضع الّتي يسمع منها صوت الملائكة و كلامهم، و نسمع ذلك، فالآن من يستمع منّا ذلك يجد له شِهابًا يُرمىٰ به و يُرصَد، ﴿شِهَابًا﴾ نصب على أنّه مفعول به، و ﴿رَصَدًا﴾ نعته.

ثمّ حكى أنّهم قالوا: ﴿وَ اَنَّا لَانَدْرِى﴾ بما ظهر من هذه الآية العجيبة ﴿اَشَرٌّ اُرِيدَ بِمَنْ فِى الْاَرْضِ﴾ من الخلق، أي إهلاكًا لهم بكفرهم و عقوبة على معاصيهم ﴿اَمْ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ و هداية إلى الحقّ بأن بعث نبيًّا، فإنّ ذلك خافٍ عنّا. و قال قوم: إنّ الشُّهُب لم تكن قبل النّبيّ ﷺ و إنّما رموا به عند بَعثه ﷺ و قال آخرون: الشُّهُب معلوم أنّها كانت فيما مضى من الزّمان، و لكن كثرت في زمن النّبيّ ﷺ و عمّت لا أنّها لم تكن أصلاً. قال البَلخيّ: الشُّهُب كانت لا محالة، غير أنّه لم تكن تمتنع بها الجنّ عن صعود السّماء، فلمّا بعث النّبيّ ﷺ منع الجنّ من الصّعود. (١٠:١٤٩ــ١٥٠)

و نصّه أيضًا في «الأمالي»

[رُؤية عليّ عليه السلام جبريل بصورة دِحْيَة]

و عنه[٢] قال: أخبرنا جماعة عن أبي المفضّل، قال: حدّثنا عبدالله بن سُليمان بن الأشعث السِّجستانيّ، قال: حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد النَّهْشَليّ شاذان قال: حدّثنا زكريّا بن يحيى الخَزّاز قال: حدّثنا مَنْدَل بن عليّ العَنْزي عن الأعْمَش، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول الله ﷺ في بيته، فغدا إليه عليّ عليه السلام في الغَداة، و

١ ـ الملك / ٥.

٢ ـ أي الشّيخ أبو جعفر محمّد بن الحسن بن عليّ الطّوسيّ.

كان يحبّ أن لايسبقه إليه أحد، فدخل فإذا النّبيّ ﷺ في صحن الدّار، و إذا رأسه فـي حِجْر دِحْيَة بن خليفة الكَلْبيّ، فقال: السّلام عليك، كيف أصبح رسول الله ﷺ قال: بخير، يا أخا رسول الله. فقال عليّ ﷺ جزاك الله عنّا أهل البيت خيرًا. قال له دِحْيَة: إنّي أُحبّك، و إنّ لك عندي مديحة أُهديها إليك: أنت أميرالمؤمنين، و قائد الغرّ المحجّلين، و سيّد وُلد آدم ما خلا النّبيّين و المرسلين، لواء الحمد بيدك يوم القيامة، تُزَفّ أنت و شـيعتك مـع محمّد ﷺ و حزبه إلى الجنان، قد أفلح من والاك، و خاب و خسر من خلّاك، محبّو محمّد ﷺ محبّوك، و مبغضوه مبغضوك، لا تنالهم شفاعة محمّد ﷺ اُدنُ من صفوة الله. فأخذ رأس النّبيّ ﷺ فوضعه في حِجره، فانتبه النّبيّ ﷺ فـقال: مـا هـذه الهـمهمة؟ فأخـبره الحديث، فقال: لم يكن دِحْيَة، كان جبرئيل ﷺ، سمّاك باسم سمّاك الله تعالى به، و هو الّذي ألقى محبّتك في قلوب المؤمنين، و رهبتك في صدور الكافرين. (ص: ٦٠٤)

الفصل الثاني عشر

نصّ الشّيخ الطَّبْرِسيّ (م: ٥٤٨) في «مجمع البيان»

﴿وَ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ اِلاّ لِمَنْ اَذِنَ لَهُ حَتّى اِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذاَ قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. سبأ / ٢٣

في قوله تعالى: ﴿حتّى اِذاَ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي كشف الفزع عن قلوبهم، و اختلف في الضّمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ فقيل: يعود إلى المشركين الّذين تقدّم ذكرهم، فيكون المعنى حتّى إذا أُخرج عن قلوبهم الفزع وقت الفزع، ليسمعوا كلام الملائكة. ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الملائكة لهم: ﴿مَاذاَ قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ أي قال هؤلاء المشركون مجيبين لهم:﴿الْحَقَّ﴾ أي قال: الحقّ، فيعترفون أنّ ما جاء به الرّسل كان حقًّا، عن ابن عبّاس و غيره. و قيل: يعود إلى الملائكة، ثمّ اختلف فيه على وجوه:

أحدها ـ أنّ الملائكة إذا صعدوا بأعمال العباد و لهم زجل و صوت عظيم، فتحسب الملائكة أنّها السّاعة فيخرّون سُجّدًا و يفزعون، فإذا علموا أنّه ليس ذلك قالُوا: ﴿مَا ذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ فصعقوا لذلك، فجعل جبرئيل يمرّ بكلّ سماء و يكشف عنهم الفزع، فرفعوا رؤُوسهم وقال بعضهم لبعض: ﴿مَاذاَ قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني الوحي، عن مُقاتل والكَلبيّ.

و **ثانيها** ـ أنّ الفَترة لمّا كان بين عيسى عليه السلام و محمّد صلى الله عليه و آله و بعث الله محمّدًا أنزل الله سبحانه جبرئيل بالوحي، فلمّا نزلت ظنّت الملائكة أنّه نزل بشيءٍ من أمر السّاعة.

و **ثالثها** ـ أنّ الله إذا أوحى إلى بعض ملائكة لحق الملائكة غشي عند سماع الوحي،

و يصعقون و يخرّون سُجّدًا للآية العظيمة، ﴿فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ سألت الملائكة ذلك الملك الّذي أُوحي إليه: ماذا قال ربّك؟ أو يسأل بعضهم بعضًا، فيعلمون أنّ الأمر في غيرهم، عن ابن مسعود، واختاره الجُبّائيّ. (٤: ٣٨٩)

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْمِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾. الشّورى /٥١ـ٥٢

ثمّ ذكر سبحانه أجلّ النّعم و هي النّبوّة، فقال ﴿وَ مَا كَانَ لَبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾ أي ليس لأحد من البشر أن يكلّمه الله ﴿اِلَّا﴾ أن يوحي إليه ﴿وَحْيًا﴾ و هو داود أُوحي في صدره فزبرالزّبور ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أي أو يكلّمه من وراء حجاب، و هو موسى عليه السلام، ﴿اَوْيُرْسِلَ رَسُولاً﴾ و هو جبرائيل أرسل إلى محمّد صلى الله عليه و آله، عن مجاهد....

[ثمّ ذكركلام الجُبّائيّ والشّريف المرتضى في تفسير الآية المذكورة، كما تقدّم عنه، فقال:].

وقال الزَّجّاج: معناه أنّ كلام الله للبشر إمّا أن يكون بإلهام يلهمهم، أو بكلام من وراء حجاب كما كلّم موسى، أو برسالة ملك إليهم، فيوحي ذلك الرّسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء الله ﴿اِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ عن الإدراك بالأبصار ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله.

﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ﴾ مثل ما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك، ﴿رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا﴾ يعني الوحي بأمرنا، و معناه: القرآن لأنّه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر، عن قَتادة و الجُبّائيّ و غيرهما. و قيل: هو روح القُدُس، عن السُّدّيّ، و قيل: هو ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه و آله، عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام قالا: و لم يصعد إلى السّماء و أنّه لفينا. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى﴾ يا محمّد قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابُ وَ لَاالْاِيمَانُ﴾ أي ما القرآن و لا الشّرائع و معالم الإيمان... (٥: ٣٧)

[كيفيّة رُؤيته صلى الله عليه و آله جبرئيل بصورته الأصليّة]

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ...﴾[١] يعني جبرئيل عليه السلام، أي القويّ في نفسه و خلقته،

١ ـ النّجم / ٥ ـ ٩.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي ذو قوّة و شدّة في خلقه، و من قوّته أنّه اقتلع قُرىٰ قوم لوط، و من شدّته صيحته لقوم ثمود حتّى هلكوا. و قيل: ذو صحّة و خلق حسن عن ابن عبّاس وقَتادة، و قيل: ﴿شَدِيدُ الْقُوىٰ﴾ في ذات الله، ﴿ذُومِرَّةٍ﴾، أي صحّة في الجسم، سليم من الآفات والعيوب، و قيل: ﴿ذُومِرَّةٍ﴾ أي ذو مرور في الهواء ذاهبًا و جائيًا و نازلاً و صاعدًا. عن الجُبّائيّ. ﴿فَاسْتَوىٰ﴾ أي جبرئيل على صورته الّتي خلق عليها بعد انحداره إلى محمّد ﷺ ﴿وَ هُوَ بِالْاُفُقِ الْاَعْلٰى﴾ يعني اُفق المشرق، و المراد من الأعلى، جانب المشرق و هو فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء، قالوا: إنّ جبرئيل عليه السلام كان يأتي النّبيّ ﷺ في صورة الآدميّين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته الّتي خلق عليها، فأراه نفسه مرّتين: مرّةً في الأرض، و مرّة في السّماء، أمّا في الأرض ففي الأُفق الأعلى، و ذلك أنّ محمّدًا ﷺ كان بحِراء فطلع له جبرئيل عليه السلام من المشرق، فسدّ الأُفق إلى المغرب،

فخرّ النّبيّ ﷺ مَغشيًّا عليه، فنزل جبرئيل عليه السلام في صورة الآدميّين، فضمّه إلى نفسه، و هو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّىٰ﴾ و تقديره ثمّ تدلّى، أي قَرُب بعد بُعده و علّوه في الأُفق الأعلى فدنا من محمّد ﷺ.

قال الحسن و قَتادة: ثمّ دنا جبرئيل بعد استوائه بالأُفق الأعلىَ من الأرض فنزل إلى محمّد ﷺ، و قال الزَّجّاج: معنى دنا و تدلّى واحد، أي قرب فزاد في القرب، و قيل: ﴿فَاسْتوىٰ﴾، أي ارتفع و علا إلى السّماء بعد أن علّم محمّدًا، و قيل: اعتدل واقفًا في الهواء بعد أن كان ينزل بسرعة ليراه النّبيّ ﷺ، و قيل: معناه استوى جبرئيل و محمّد ﷺ بالأُفُق الأعلى، يعني السّماء الدّنيا ليلة المعراج، عن الفرّاء. ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنىٰ﴾ أي كان ما بين جبرئيل و بين رسول الله ﷺ قاب قوسين... قال عبدالله بن مسعود: إنّ رسول الله ﷺ رأىٰ جبرئيل و له ستّمائة جناح، أورده البخاريّ و مسلم في الصّحيح. (٥: ١٧٣)

[منع صعود الشّياطين إلى كلّ السّماء حين نزول القرآن]

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * اِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾. الحِجر /١٧ ـ ١٨

قوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي و حفظنا السّماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾، أي مرجوم مرميّ بالشُّهُب، عن أبي عليّ الجُبّائيّ و أبي مسلم. و قيل: رجيم ملعون مشئوم، عن ابن عبّاس.

و حفظ الشّيْ جعله على ما ينفي عنه الضّياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه حتّى لا ينسى، وحفظ المال بإحرازه حتّى لا يضيع، و حفظ السّماء من الشّيطان بالمنع حتّى لا يدخلها، و لا يبلغ إلى موضع يتمكّن فيه من استراق السّمع بما أعدّ له من الشّهاب. ﴿اِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾، و السّرقة عند العرب أن يأتي الإنسان إلى حِرْز خُفْية فيأخذ ما ليس له، و المراد بالسّمع هناالمسموع، والمعنى: إلاّ من حاول أخذ المسموع من السّماء في خُفْية. ﴿فَاَتْبَعَهُ﴾، أي لحقه. ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾، أي شعلة نار، ظاهر لأهل الأرض بيّن لمن رآه، و نحن في رأي العين نرى كأنّهم يرمون بالنّجوم، و الشّهاب عمود من نور يضيء ضياء النّار لشدّة ضيائه.

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان في الجاهليّة كَهَنَة، و مع كلّ واحد شيطان، فكان يقعد من السّماء مقاعد للسّمع، فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض، فينزل و يخبر به الكاهن فيفشيه الكاهن إلى النّاس، فلمّا بعث الله عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، و لمّا بعث محمّد صلى الله عليه وآله منعوا من السّموات كلّها، و حرست السّماء بالنّجوم، فالشّهاب من معجزات نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله لأنّه لم يُرَ قبل زمانه. و قيل: إنّ الشّهاب يحرق الشّياطين و يقتلهم، عن الحسن. و قيل: إنّه يُخبِل و يَحرق و لا يَقتل، عن ابن عبّاس. (٣: ٣٣١ ـ ٣٣٢)

﴿وَ اَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا﴾ الجنّ/٨ـ ١٠

ثمّ حكى عن الجنّ قولهم: ﴿وَ اَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، أي مسسناها... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن الطّوسيّ ثمّ قال:]**.

﴿وَ اَنَّا لَانَدْرِى اَشَرٌّ اُرِيدُ بِمَنْ فِي الْاَرْضِ﴾ أي بحدوث الرّجم بالشُّهُب، و حراسة السّماء، جوّزوا هجوم انقطاع التّكليف، أو تغيير الأمر بتصديق نبيّ من الأنبياء، و ذلك قوله: ﴿اَمْ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، أي صلاحًا. و قيل معناه: إنّ هذاالمنع لايُدرى، العذاب سينزل بأهل الأرض، أم لنبيّ يبعث و يهدي إلى الرّشد؟ فإنّ مثل هذا لا يكون إلاّ لأحد هذين الأمرين، و سُمّي العذاب شرًّا لأنّه مضرّة، و سُمّي بعثة الرّسول رَشَدًا لأنّه منفعة.

(٥: ٣٦٩)

الفصل الثّالث عشر

نصّ الفخر الرّازيّ (م: ٦٠٦) في «التّفسير الكبير»

[كيفيّة نزول الوحي]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾.
الشّورى/٥١

و في الآية مسائل:

المسألةالأُولى ـ ﴿وَ مَاكَانَ لِبَشَرٍ﴾ و ما صحّ لأحد من البشر ﴿اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾ إلاّ على أحد ثلاثه أوجه: إمّا على الوحي و هو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى الله إلى أُمّ موسى و إبراهيمعليه السلام في ذبح ولده، و عن مجاهد أوحى الله تعالى الزّبور إلى داودعليه السلام في صدره، و إمّا على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلّغ، و هذا أيضًا وحي بدليل أنّه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنّه سمّاه وحيًا، قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحىٰ﴾ و إمّا على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلّغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرّسول البشريّ. فطريق الحصر أن يقال: وصول من الله إلى البشر، إمّا أن يكون من غير واسطة مبلّغ، أو يكون بواسطة مبلّغ، و إذا كان الأوّل و هو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر، فها هنا إمّا أن يقال: إنّه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه، **أمّا الأوّل:** و هو أنّه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر و ما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله: ﴿اِلاَّ وَحْيًا﴾ و **أمّا الثّاني:** و هو أنّه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنّه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله: ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ و **أمّا الثّالث:** و هو أنّه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

واعلم أنّ كلّ واحدٍ من هذه الأقسام الثّلاثة و حي، إلاّ أنّه تعالى خصّص القسم الأوّل باسم الوحي، لأنّ ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعةً، فكان تخصيص لفظ الوحي بهأولى، فهذا هوالكلام في تمييز هذهالأقسام بعضها عن بعض... **[إلى أن قال:]**

المسألة السّادسة ـ ثبت أنّ الوحي من الله تعالى إمّا أن لا يكون بواسطة شخص آخر، و يمتنع أن يكون كلّ وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر، و إلاّ لزم إمّا التّسلسل و إمّا الدّور، و هما محالان، فلا بدّ من الاعتراف بحصول وحي يحصل بواسطة شخص آخر، ثمّ هاهنا أبحاث:

البحث الأوّل ـ أنّ الشّخص الأوّل الّذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر كيف يعرف أنّ الكلام الّذي سمعه كلام الله؟ فإن قلنا: إنّه سمع تلك الصّفة القديمه المنزّهة عن كونها حرفًا و صوتًا، لم يبعد أنّه إذا سمعها علم بالضّرورة كونها كلام الله تعالى، ولم يبعد أن يقال: إنّه [لا] يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد، أمّا إن قلنا: إنّ المسموع هو الحرف و الصّوت امتنع أن يقطع بكونه كلامًا لله تعالى، إلاّ إذا ظهرت دلالة على أنّ ذلك المسموع هو كلام الله تعالى.

البحث الثّاني ـ أنّ الرّسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أنّ ذلك المبلّغ ملك معصوم لا شيطان مضلّ؟ و الحقّ أنّه لا يمكنه القطع بذلك إلاّ بناءً على معجزة تدلّ على أنّ ذلك المبلّغ ملك معصوم لا شيطان خبيث، و على هذا التّقدير، فالوحي من الله تعالى لا يتمّ إلاّ بثلاث مراتب في ظهور المعجزات:

المرتبه الأُولى ـ أنّ الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى، فلا بدّله من معجزة تدلّ على أنّ ذلك الكلام كلام الله تعالى.

والمرتبة الثّانية ـ أنّ ذلك الملك إذا وصل إلى الرّسول، لابدّله أيضًا من معجزة.

والمرتبة الثّالثة ـ أنّ ذلك الرّسول إذا أوصله إلى الأُمّة، فلا بدّله أيضًا من معجزة، فثبت أنّ التّكليف لا يتوجّه على الخلق إلاّ بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات.

البحث الثّالث ـ أنّه لا شكّ أنّ ملكًا من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداء، فذلك الملك هو جبريل، و يقال: لعلّ جبريل سمعه من ملك آخر، فالكلّ محتمل و

لو بألف واسطة، و لم يوجد ما يدلّ على القطع بواحد من هذه الوجوه.

البحث الرّابع – هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة؟ المشهور أنّ موسىعليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحىٰ﴾ [1] و قيل: إنّ محمّدًاصلى الله عليه وآله سمعه أيضًا لقوله تعالى: ﴿فاَوْحىٰ اِلىٰ عَبْدِهِ مَا اَوْحىٰ﴾. [2]

البحث الخامس ـ أنّ الملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة فبتقدير أن يراه الرّسولصلى الله عليه وآله في كلّ مرّة وجب أن يحتاج إلى المعجزة، ليعرف أنّ هذا الّذي رآه في هذه المرّة عين ما رآه في المرّة الأُولى، و إن كان لا يرى شخصه، كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى، لاحتمال أنّه حصل الاشتباه في الصّوت، إلاّ أنّ الإشكال في أنّ الحاجة إلى إظهار المعجزة في كلّ مرّة لم يقل به أحد.

المسألة السّابعة ـ دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى و بين إبليس، على أنّه تعالى كان يتكلّم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمّى وحيًا من الله تعالى إلى إبليس أم لا؟ الأظهر منعه، ولا بدّ في هذا الموضع من بحث غامض كامل.

المسألة الثّامنة ـ قرأ نافع: ﴿اَوْ يُرْسِلُ رَسُولاً﴾ برفع اللّام، فيوحي بسكون اليـاء، و محلّه رفع على تقدير أو هو يُرسِل فيُوحِي، و الباقون بالنّصب على تأويل المصدر، كأنّه قيل: ما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحيًا أو إسماعًا لكلامه من وراء حجاب أو يرسل، لكن فيه إشكال لأنّ قوله: وحيًا أو إسماعًا اسم، و قوله: ﴿اَوْ يُرسِلَ﴾ فعل، و عطف الفعل على الاسم قبيح.

فأُجيب عنه: بأنّ التّقدير و ما كان لبشرٍ أن يكلّمه إلاّ أن يوحي إليه وحيًا أو يُسمعَ إسماعًا من وراء حجاب أو يرسل رسولاً.

المسألة التّاسعة ـ الصّحيح عند أهل الحق أنّ عندما يبلّغ الملك الوحي إلى الرّسول، لا يقدر الشّيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي، و قال بعضهم: يجوز ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَ لاَ نَبِيٍّ اِلاَّ اِذَا تَمَنّٰى اَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى اُمْنِيَّتِهِ﴾. [3] و

---

١ ـ طه / ١٣.
٢ ـ النّجم / ١٠.
٣ ـ الحج / ٥٢.

قالوا: الشّيطان ألقى في أثناء سورة النّجم «تلك الغرانيق العُلى منها الشّفاعة ترتجى» و كان صَديقنا الملك سام بن محمّد رحمه الله، و كان أفضل من لقيته من أرباب السّلطنة يقول هذا، والكلام، بعد الدّلائل القويّة القاهرة باطل من وجهين آخرين:

الأوّل ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بصورتي»، فإذا لم يقدر الشّيطان على أن يتمثّل في المنام بصورة الرّسول، فكيف قدر على التّشبّه بجبريل حال اشتغال تبليغ و حي الله تعالى؟.

و **الثّاني** ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «ما سَلَك عمر فَجًّا إلاّ و سلك الشّيطان فجًّا آخر»، فإذا لم يقدر الشّيطان أن يحضر مع عمر في فجّ واحد، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ و حي الله تعالى؟... **[إلى أن قال:]**

ثمّ قال تعالى في آخر الآية: ﴿**إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ يعني أنّه عليٌّ عن صفات المخلوقين ﴿**حَكِيمٌ**﴾: يُجري أفعاله على موجب الحكمة، فيتكلّم تارةً بغير واسطة على سبيل الإلهام، و أُخرى بإسماع الكلام، و ثالثًا بتوسيط الملائكة الكرام، و لمّا بيّن الله تعالى كيفيّة أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، قال: ﴿**وَ كَذٰلِك اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمرِنَا**﴾ والمراد به القرآن، و سمّاه روحًا، لأنّه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر.

ثمّ قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابَ وَ لاَ الْاِيمَانَ﴾ و اختلف العلماء في هذه الآية مع الإجماع على أنّه لا يجوز أن يقال: الرّسل كانوا قبل الوحي على الكفر، و ذكروا في الجواب وجوهًا:

الأوّل ـ ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿وَ لاَالْاِيـمَانَ﴾ أي الصّلاة، لقوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ الله لِيُضيعَ إيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم.

الثّاني ـ أن يحمل هذا على حذف المضاف، أي ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابَ﴾ و من أهل الإيمان، يعني من الّذي يؤمن، و من الّذي لا يؤمن.

الثّالث ـ ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابَ وَ لاَ الْاِيمَانَ﴾ حين كنت طفلاً في المهد.

الرّابع ـ ﴿الْاِيمَانَ﴾ عبارة عن الإقرار بجميع ما كلّف الله تعالى به، و أنّه قبل النّبوّة ما كان عارفًا بجميع تكاليف الله تعالى، بل أنّه عارفًا بالله تعالى، و ذلك لا ينافي ما ذكرناه.

الخامس ـ صفات الله تعالى على قسمين؛ منها ـ ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، و منها ـ مالا يمكن معرفته إلاّ بالدّلائل السّمعيّة، فهذا القسم الثّاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النّبوّة. (٢٧: ١٨٦ ـ ١٩١)

الفصل الرّابع عشر

نصّ ابن كثير (م: ٧٧٤) في «البداية و النّهاية»

في كيفيّة إتيان الوحي إلى رسول اللهﷺ

و قد تقدّم كيفيّة ما جاءه جبريل في أوّل مرّة و ثاني مرّة أيضًا، وقال مالك عن هِشام، عن عُرْوَة، عن عائشه: إنّ الحارث بن هِشام سأل رسول اللهﷺ قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟... **[و ذكر كما تقدّم عن النّسائيّ الرّقم ٢، ثمّ قال:]** و رواه الإمام أحمد عن عامربن ضالح، عن هِشام بن عُرْوَة، به نحوه. و كذا رواه عَبْدَة بن سُليمان و أنس بن عَيّاض، عن هِشام بن عُرْوَة. **و قد رواه أيوّب السَّخْتِيانيّ عن هِشام، عن أبيه، عن الحارث ابن هِشام، أنّه** قال: سألت رسول اللهﷺ فقلت: كيف يأتيك الوحي؟ فذكره. ولم يذكر عائشة.

و في حديث الإفك قالت عائشة: فو الله ما رام رسول اللهﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتّى أُنزل عليه. فأخذه ماكان يأخذه من البُرَحاء، حتّى أنّه كان يتحدّر منه مثل الجُمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ من ثقل الوحي الّذي نزل عليه.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرَّزّاق، أخبرني يونس بن سُلَيم قال: أملى علَيَّ يونس بن يزيد، عن ابن شِهاب، عن عُروَة بن عبدالرّحمان بن عبدالقاري، سمعت عمر بن الخَطّاب يقول: كان إذا نزل على رسول اللهﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدَوِيّ النّحل، و ذكر تمام الحديث في نزول: ﴿قَدْ اَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] و كذا رواه التِّرمِذيّ و النّسائيّ من حديث عبدالرَّزّاق، ثمّ قال النّسائيّ منكرًا: لانعرف أحدًا رواه غيريونس بن سُلَيم، ولانعرفه.

---

١ ـ المؤمنون / ١.

و في صحيح مسلم و غيره من حديث الحسن، عن حِطّان بن عبدالله الرّقاشيّ، عن عُبَادة بن الصّامت، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كَرَبَهُ ذلك و تربَّدَ وجهه و في رواية و غمض عينيه ـ و كنّا نعرف ذلك منه. و في الصّحيحين حديث زيد بن ثابت حين نزلت ﴿لاَ يَسْتَوِى الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فلمّا شكىٰ ابن أُمّ مكتوم ضرارته نزلت: ﴿غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ﴾. قال: و كانت فخِذ رسول‌الله ﷺ على فخِذي و أنا أكتب، فلمّا نزل الوحي كادت فَخِذه تَرُضُّ فخِذي.

و في صحيح من حديث هَمّام بن يحيى عن عَطاء، عن يعلي بن أُميّة. قال: قال لي عمر: أيَسُرُّك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ و هو يوحىٰ إليه؟ فرفع طرف الثّوب عن وجهه و هو يوحىٰ إليه بالجَعرانة، فإذا هو مُحمَّر الوجه، و هو يغطّ كما يغطّ البِكر.

و ثبت في الصّحيحين من حديث عائشه لمّا نزل الحجاب، و أنّ سودة خرجت بعد ذلك إلى المناصع ليلاً، فقال عمر: قد عرفناك يا سودة. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فسألته و هو جالس يتعشّى و العرق في يده، فأوحى الله إليه و العرق في يده، ثمّ رفع رأسه فقال: «أنّه قد أذن لَكُنّ أن تخرجنّ لحاجتكُنَّ». فدلّ هذا على أنّه لم يكن الوحي يغيب عنه إحساسه بالكلّيّة ـ بدليل أنّه جالس و لم يسقط العرق أيضًا من يده ﷺ دائمًا عليه.

و قال أبو داود الطَّيالِسيّ: حدّثنا عَبَّاد بن منصور، حدّثنا عِكرِمة، عن ابن عبّاس قال كان رسول الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي تربّد لذلك جسده و وجهه و أمسك عن أصحابه و لم يكلّمه أحد منهم.

و في مسند أحمد و غيره من حديث ابن لَهيعَة، حدّثني يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبدالله بن عمر، قلت: يا رسول الله هل تحسّ بالوحي؟ قال: «نعم أسمع صلاصل، ثمّ أثبت عند ذلك، و ما من مرّة يوحىٰ إليّ إلاّ ظننت أنّ نفسي تفيظ منه».

و قال أبو يَعْلَى الموصِليّ: حدّثنا إبراهيم بن الحَجّاج، حدّثنا عبدالواحد بن زياد، حدّثنا عاصِم بن كُلَيب، حدّثنا أبي عن خاله العَليان بن عاصِم، قال كنّا عند رسول‌الله ﷺ وأُنزل عليه، و كان إذا أُنزل عليه دام بصره و عيناه مفتوحة، و فرغ سمعه و قلبه لما يأتيه

---

١ ـ النّساء / ٩٥.

من الله عَزَّوجَلَّ.

وروىٰ أبو نُعَيم من حديث قُتَيْبة، حدّثنا عليّ بن غُراب، عن الأحوص بن حكيم، عن أبي عَوانة، عن سعيد بن المُسيَّب، عن أبي هُرَيرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي صدع، و غلّف رأسه بالحناء هذا حديث غريب جدًّا.

و قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النّضر، حدّثنا أبو معاوية سِنان، عن لَيْث، عن شَهْر بن حُوشَبْ، عن أسماء بنت يزيد، قالت: إنّي لآخذة بزمام الغضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلّها، و كادت من ثقلها تدُقُّ عضد النّاقة. و قد رواه أبو نُعَيم من حديث الثّوريّ عن لَيْث بن أبي سُلَيم به.

و قال الإمام أحمد أيضًا: حدّثنا حسن، حدّثنا ابن لَهيعَة، حدّثني جَبْر بن عبدالله، عن أبي عبدالرّحمان الحَبليّ، عن عبدالله بن عمرو، قال: أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة و هو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها.

وروى ابن مَردُوَيه من حديث صباح بن سَهْل، عن عاصم الأحوَل، حدّثتني أُمّ عمرو عن عمّها: أنّه كان في مسير مع رسول الله ﷺ فنزلت عليه سورة المائدة، فاندقّ عنق الرّاحلة من ثقلها و هذا غريب من هذا الوجه.

ثمّ قد ثبت في الصّحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ مرجعه من الحُدَيبيّة، و هو على راحلته، فكان يكون تارةً و تارةً بحسب الحال، والله أعلم. و قد ذكرنا أنواع الوحي إليه ﷺ في أوّل شرح البُخاريّ، و ما ذكره الحليميّ و غيره من الأئمة ﷺ.(٣: ٢١)

الفصل الخامس عشر

نصّ ابن حَجَر (م: ٨٥٢) في «فتح الباري»

قوله: «و قول الله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ...﴾» قيل: قدّم ذكر نوح فيها، لأنّه أوّل نبيّ أُرسِل، أو أوّل نبيّ عوقب قومه، فلا يردكون آدم أوّل الأنبياء مطلقًا... و مناسبة الآية للتّرجمة واضح من جهة أنّ صفة الوحي إلى نبيّناﷺ توافق صفة الوحي إلى مَن تقدّمه من النّبيّين، و من جهة أنّ أوّل أحوال النّبيّين فِي الوحي بالرُّؤيا، كما رواه أبونُعَيْم «في الدّلائل» بإسناد حسن عن عَلْقَمَة بن قَيْس صاحب بن مسعود قال: «إنّ أوّل مايُؤتى به الأنبياء فيالمنام حتّى تهدأ قلوبهم، ثمّ ينزل الوحي بعد في اليقظة». (١:٦)

قوله: «كيف يأتيك الوحي» يحتمل أن يكون المسؤول عنه صفة الوحي نفسه؛ ويحتمل أن يكون صفة حامله، أوما هو أعمّ من ذلك، و على كلّ تقدير فإسناد الإتيان إلى الوحي مجاز، لأنّ الاتيان حقيقة من وصف حامله.

و اعترض الإسماعيليّ فقال: هذا الحديث لا يصلح لهذه التّرجمة، و إنّما المناسب لكيفيّة بدءالوحي، الحديث الّذي بعده، و أمّا هذا فهو لكيفيّة إتيان الوحي لالبدء الوحي.

و قال الكَرْمانيّ: لعلّ المراد منه السّؤال عن كيفيّة ابتداء الوحي أوعن كيفيّة ظهور الوحي، فيوافق ترجمة الباب.

قلت: سياقه يشعر بخلاف ذلك، لإتيانه بصيغة المستقبل دون الماضي، لكن يمكن أن يقال: إنّ المناسبة تظهر من الجواب، لأنّ فيه إشارة إلى اختصار صفة الوحي أو صفة حامله في الأمرين فيشمل حالة الابتداء، و أيضًا فلا أثر للتّقديم و التّأخير هنا و لو لم تظهر المناسبة، فضلاً عن أنّا قدّمنا أنّه أراد البداءة بالتّحديث عن إمامي الحجاز، فبدأ بمكّة ثمّ

ثَنّى بالمدينة، و أيضًا فلا يلزم أن تتعلّق جميع أحاديث الباب ببدء الوحي، بل يكفي أن يتعلّق بذلك و بما يتعلّق به و بما يتعلّق بالآية أيضًا، و ذلك أنّ أحاديث الباب تتعلّق بلفظ التّرجمة و بما اشتملت عليه؛ و لمّا كان في الآية أنّ الوحي إليه نظير الوحي إلى الأنبياء قبله، ناسب تقديم ما يتعلّق بها و هو صفة الوحي و صفة حامله، إشارة إلى أنّ الوحي إلى الأنبياء لا تباين فيه، فحسن إيراد هذا الحديث عقب حديث الأعمال الّذي تقدّم التّقدير بأنّ تعلّقه بالآية الكريمة أقوى تعلّق، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

قوله: «أحيانًا» جمع «حين» يطلق على كثير الوقت و قليله، و المراد به هنا مجرّد الوقت، فكأنّه قال: أوقاتًا يأتيني، وانتصب على الظّرفيّة، و عامله «يأتيني» مؤخّر عنه، وللمصنّف من وجه آخر عن هِشام في بدء الخلق قال: كلّ ذلك يأتي الملك، أي كلّ ذلك حالتان فذكرهما وروى ابن سعد من طريق أبي سَلَمَة الماجشون أنّه بلغه أنّ النّبيّ ﷺ كان يقول: كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني به جبريل فيلقيه عليّ كما يلقي الرّجُل على الرّجُل، فذاك ينفلت منّي، و يأتيني في بيتي مثل صوت الجرس حتّى يخالط قلبي، فذاك الّذي لا ينفلت منّي»[1]. و هذا مرسل مع ثقة رجاله، فإن صحّ فهو محمول على ما كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾[2] كما سيأتي، فإنّ الملك قد تمثّل رجلاً في صور كثيرة و لم ينفلت منه ما أتاه به كما في قصّة مجيئه في صورة دِحْيَة و في صورة أعرابيّ و غير ذلك و كلّها في الصّحيح.

و **أورد** على ما اقتضاه الحديث و هو أنّ الوحي منحصر في الحالتين حالات أُخرى، إمّا من صفة الوحي كمجيئه كدويّ النّحل، و النّفث في الرّوع، و الإلهام، و الرُّؤيا الصّالحة، و التّكليم ليلة الإسراء بلا واسطة، و إمّا من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته الّتي خلق عليها له ستّمائة جناح، و رؤيته على كرسيّ بين السّماء و الأرض و قد سدّ الأُفق.

والجواب: منع الحصر في الحالتين المقدّم ذكرهما، و حملهما على الغالب أو حمل ما يغايرها على أنّه وقع بعد السّؤال أولم يتعرّض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما، و قد ثبت عن عائشة أنّه لم يره كذلك إلاّ مرّتين، أولم يأته في تلك الحالة بوحي، أو أتاه به

---

١ ـ طبقات ابن سعد ١: ١٣١ (باب شدّة نزول الوحي). ٢ ـ القيامة / ١٦.

فكان على مثل صَلصَلة الجرس، فإنّه بيّن بها صفة الوحي لا صفة حامله. و أمّافنون الوحي فدويّ النّحل لا يعارض صَلصَلَة الجَرس، لأنّ سماع الدّويّ بالنّسبة إلى الحاضرين كما في حديث عُمر: يسمع عنده كدويّ النّحل و الصَّلصَلة بالنّسبة إلى النّبيّ ﷺ فشبّهه عمر بدويّ النّحل بالنّسبة إلى السّامعين، و شبّهه هو ﷺ بصَلصَلة الجرس بالنّسبة إلى مقامه. و أمّا النّفث في الرّوع فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين، فإذا أتاه الملك في مثل صَلصَلة الجرس نفث حينئذ في روعه، و أمّا الإلهام فلم يقع السّؤال عنه، لأنّ السّؤال وقع عن صفة الوحي الّذي يأتي بحامل، و كذا التّكليم ليلة الإسراء.

و أمّا الرُّؤيا الصّالحة، فقال ابن بَطّال: لا ترد، لأنّ السّؤال وقع عمّا ينفرد به عن النّاس، لأنّ الرُّؤيا قد يُشركه فيها غيره، والرُّؤيا الصّادقة و إن كانت جزأً من النّبوّة فهي باعتبار صدقها لاغير، و إلاّ لساغ لصاحبها أن يسمّى نبيًّا و ليس كذلك، و يحتمل أن يكون السّؤال وقع عمّا في اليقظة، أولكون حال النّيام لا يخفى على السّائل فاقتصر على ما يخفي عليه، أوكان ظهور ذلك له ﷺ في المنام أيضًا على الوجهين المذكورين لا غير، قاله الكَرْمانيّ.

و فيه نظر، و قد ذكر الحليميّ: أنّ الوحي كان يأتيه على ستّة و أربعين نوعًا فذكرها، و غالبها من صفات حامل الوحي و مجموعها يدخل فيما ذكر و حديث «أنّ روح القدس نفث في روعي» أخرجه ابن أبي الدّنيا في القناعة و صحّحه الحاكم من طريق ابن مسعود.

قوله: «مثل صَلصَلة الجرس» في رواية مُسلم «في مثل صَلصَلة الجرس»، الصَّلصَلة ـ بمهملتين مفتوحين بينهما لام ساكنة ـ في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ثمّ أُطلق على كلّ صوت له طنين. و قيل: هو صوت متدارك لا يدرك في أوّل وهلة، و الجرس: الجُلجُل الّذي يعلّق في رؤوس الدّواب، و اشتقاقه من الجَرْس ـ بإسكان الرّاء ـ و هو الحسّ، و قال الكَرْمانيّ: الجرس: ناقوس صغير، أوسَطل في داخله قطعة نحاس يعلّق منكوسًا على البعير، فإذا تحرّك تحركت النّحاسة فأصابت السّطل، فحصلت الصَّلصَلة اه. و هو تطويل للتّعريف بما لا طائل تحته، و قوله: «قطعة نحاس» معترض لا يختصّ به، و كذا البعير، و كذا قوله: «منكوسًا»، لأنّ تعليقه على تلك الصّورة هو وضعه المستقيم له.

فإن قيل: المحمود لا يشبّه بالمذموم، إذ حقيقة التّشبيه إلحاق ناقص بكامل، والمشبّه الوحي و هو محمود، و المشّبه به صوت الجرس و هو مذموم، لصحّة النّهي عنه و التّنفير من مرافقة ما هو معلّق فيه، والإعلام بأنّه لا تصحبهم الملائكة، كما أخرجه مسلم و أبو داود و غير هما، فكيف يشبه ما فَعَله الملك بأمر ينفّر منه الملائكة؟

و الجواب: أنّه لا يلزم في التّشبيه تساوي المشبّه بالمشبّه به في الصّفات كلّها، بل و لا في أخصّ وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس لذكر ما أَلِف السّامعون سماعه تقريبًا لإفهامهم، والحاصل أنّ الصّوت له جهتان: جهة قوّة وجهة طنين، فمن حيث القوّة وقع التّشبيه به، و من حيث الطَّرَب وقع التّنفير عنه، و عُلّل بكونه مزمار الشّيطان، و يحتمل أن يكون النّهي عنه وقع بعد السّؤال المذكور.

و فيه نظر، قيل: و الصّلصَلة المذكورة صوت الملك بالوحي. قال الخَطّابيّ: يريد أنّه صوت متدارَك يسمعه و لا يتبيّنه أوّل ما يسمعه حتّى يفهمه بعد، و قيل: بل هو صوت حفيف أجنحةالملك، والحكمة في تقدّمه أن يقرع سَمْعه الوحي فلايبقى مكان لغيره، و لمّا كان الجَرَس لا يحصل صَلصَلة إلاّ متداركة، وقع التّشبيه به دون غيره من الآلات....

قوله: (وهو أشَدُّه عليّ) يفهم منه أنّ الوحي كلّه شديد ولكن هذه الصّفة أشدّها و هو واضح، لأنّ الفهم من كلام مثل الصّلصَلة أشكل من الفهم من كلام الرّجل بالتّخاطب المعهود. و الحكمة فيه أنّ العادة جرت بالمناسبة بين القائل و السّامع، و هي هنا إمّا باتّصاف السّامع بوصف القائل بغلبة الرّوحانيّة و هو النّوع الأوّل، و إمّا باتّصاف القائل بوصف السّامع و هو البشريّة و هو النّوع الثّاني، و الأوّل أشدّ بلاشكّ... (۱: ۱٥ ـ ۱٦)

قوله: (حتّى جاءه الحقّ) أي الأمر الحقّ، و في التّفسير (حتّى فَجِئه الحقّ) بكسر الجيم، أي بغتة، و إن ثبت من مُرسل عُبَيْد بن عُمَيْر: أنّه أوحي إليه بذلك في المنام أوّلاً قبل اليقظة، أمكن أن يكون مجيء الملك في اليقظة عقب ما تقدّم في المنام، و سمّي حقًّا لأنّه وحي من الله تعالى. و قد وقع في رواية أبي الأسود عن عُروَة، عن عائشة قالت: إنّ النّبيّ كان أوّل ﷺ شأنه يرى في المنام، و كان أوّل ما رأى جبريل بأجياد، صرخ جبريل، يا محمّد، فنظر يمينًا و شمالاً فلم ير شيئًا، فرفع بصره فإذا هو على أُفُق السّماء، فقال يا

محمّد، جبريل جبريل، فهرب فدخل في النّاس فلم ير شيئًا، ثمّ خرج عنهم فناداه فهرب، ثمّ استعلن جبريل من قِبَل حِراء فذكر قصّة ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر. و هذا من رواية ابن لَهيعة عن أبي الأسود، و ابن لَهيعة ضعيف. و قد ثبت في صحيح مُسلم من وجه آخر عن عائشة مرفوعًا «لم أره» يعني جبريل على صورته الّتي خُلِق عليها إلاّ مرّتين، و بيّن أحمد في حديث ابن مسعود: أنّ الأُولى كانت عند سؤاله إيّاه أن يُرِيَه صورته الّتي خلق عليها، و الثّانية عندالمعراج. و لِلتِّرمِذيّ من طريق مسروق عن عائشة و لم ير محمّد جبريل في صورته إلاّ مرّتين، مرّةً عند سدرة المنتهى، و مَرةً في أجياد، و هذا يُقوّي رواية ابن لَهيعة، و تكون هذه المرّة غير المرّتين المذكورتين، و إنّما لم يضمّها إليهما لاحتمال أن لايكون رآه فيها على تمامٍ صورته، و العلم عند الله تعالى و وقع في السّيرة الّتي جمعها سُليمان التّيميّ، فرواها محمّد بن عبدالأعلى عن ولده مُعتَمِر بن سُليمان عن أبيه: أنّ جبريل أتي النّبيّ ﷺ في حِراء و أقرأه: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثمّ انصرف فَبقي متردّدًا، فأتاه من أمامه في صورته فرأى أمرًا عظيمًا.

قوله: «فجاءه» هذه الفاء تسمّى التّفسيريّة و ليست التّعقيبيّة، لأنّ مجيء الملك ليس بعد مجيء الوحي حتّى تعقّب به، بل هو نفسه، و لا يلزم من هذا التّقرير أن يكون من باب تفسير الشّيء بنفسه. بل التّفسير عين المفسّر به من جهة الإجمال، و غيره من جهة التّفصيل.

قوله: «ما أنا بقارىء» ثلاثًا، «ما» نافية، إذ لو كانت استفهاميّة لم يصلح دخول الباء و إن حُكي عن الأخفش جوازه، فهو شاذّ، والباء زائدة لتأكيدالنّفي، أي ما أُحسن القراءة، فلمّا قال ذلك ثلاثًا قيل له: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ أي لا تقرؤه بقوّتك و لا بمعرفتك، لكن بحول ربّك و إعانته فهو يعلّمك كما خلقك، و كما نزع عنك علق الدّم و مضمر الشّيطان في الصّغر، و عَلَّم أُمّتك حتّى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أُمّيّة، ذكره السُّهَيْليّ. و قال غيره: إنّ مثل هذا التّركيب و هو قوله: «ما أنا بقارىء» يفيد الاختصاص، و ردّه الطّيبيّ بأنّه إنّما يفيد التّقوية و التّأكيد، و التّقدير لست بقارىء البتّة.

فإن قيل: لم كررّ ذلك ثلاثًا؟ **أجاب أبوشامَة** بأن يحمل قوله أوّلاً:«ما أنا بقارىء» على الامتناع، و ثانيًا: على الإخبار بالنّفي المحض. و ثالثًا: على الاستفهام. و يؤيّده أنّ في رواية أبي‌الأسود في مغازيه عن عُروة أنّه قال: «كيف أقرأ» و في رواية عُبَيْد بن عُمَيْر عن ابن إسحاق: «ماذا أقرأ»و في مرسل الزُّهْريّ في دلائل البَيْهَقيّ «كيف أقرأ» و كلّ ذلك يؤيّد أنّها استفهاميّة، و الله أعلم. (١: ١٨ـ ١٩)

قوله: (وفَـتَر الوحي) ليست للتّرتيب، فلعلّ الرّوايّ لم يحفظ وَرَقَة ذكرًا بعد ذلك في أمر من الأُمور، فجعل هذه القصّة انتهاء أمره بالنّسبه إلى علمه لا إلى ما هو الواقع، و فتور الوحي عبارة عن تأخّره مدّة من الزّمان، و كان ذلك ليذهب ماكان ﷺ وجده من الرّوع، و **ليحصل له التّشوّق إلى العود. فقد روى المؤلّف في «التّعبير» من طريق مَعْمَر ما يدلّ على ذلك.**

فائدة: وقع في تاريخ أحمد بن حَنْبَل عن الشَّعْبيّ أنّ مدّة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، و به جزم ابن إسحاق؛ و حكى البَيْهَقيّ أنّ مدّة الرُّؤيا كانت ستّة أشهر و على هذا فابتداء النّبوّة بالرّؤيا وقع من شهر مولده و هو ربيع الأوّل بعد إكماله أربعين سنة، و ابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان، و ليس المراد بفترة الوحي ـ المقدّرة بثلاث سنين و هي ما بين نزول (اقرأ) و (ياءيّها المدّثّر) ـ عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخّر نزول القرآن فقط.

ثمّ راجَعْت المنقول عن الشَّعْبيّ من تاريخ الإمام أحمد و لفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشَّعبيّ: أُنزلت عليه النّبوّه و هو ابن أربعين سنة. فقرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشّيء، و لم ينزل عليه القرآن على لسانه عشرين سـنة، و أخرجه ابن أبي خَيثَمة من وجه آخر مختصرًا عن داود بلفظ: بعث لأربعين و وُكِّل بـه إسرافيل ثلاث سنين، ثمّ وُكِّل به جبريل؛ فعلى هذا فيحسن بهذا المرسل إن ثبت الجمع بين القولين في قدر إقامته بمكّة بعد البعثة، فقد قيل: ثلاث عشرة و قيل: عشرة و لا يتعلّق ذلك بقدر مدّة الفترة و الله أعلم. و قد حكى ابن التّين هذه القصّة، لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرافيل و أنكر الواقِديّ هذه الرّواية المرسلة، و قال: لم يقرن به مـن المـلائكة إلاّ جبريل، انتهى، و لا يخفي ما فيه، فإنّ المثبت مقدّم على النّافي، إلاّ أن صحب النّافي دليل

نفيه فيقدّم والله أعلم. و أخذ السُّهَيْليّ هذه الرّواية، فجمع بها المختلف في مكثه ﷺ بمكّة، فإنّه قال: جاء في بعض الرّوايات المسندة، أنّ مدّة الفترة سنتين و نصفًا. و في رواية أُخري أنّ مدّة الرُّؤيا ستّة أشهر، فمن قال: مكث عشر سنين، حذف مدّة الرُّؤيا و الفترة، و من قال: ثلاث عشرة أضافهما، و هذا الّذي اعتمده السُّهَيْليّ من الاحتجاج بمرسل الشّعبيّ لايثبت، و قد عارضه ما جاء عن ابن عبّاس أنّ مدّة الفترة المذكورة كانت أيّامًا.

قوله: (الملك الّذي جاءنی بحِراء) على تأخّر نزول سورة المدّثّر عن اقرأ، و لمّا خلت و رواية يحيى بن أبي كثير الآتية فيالتّفسير عن أبي سَلَمة عن جابر عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأنّ (ياءَيّها المدّثّر) أوّل ما نزل، و رواية الزُّهْريّ هذه الصّحيحة ترفع هذا الإشكال... **(١: ٢٢ ـ ٢٣)**

الفصل السّادس عشر

نصّ السّيوطيّ (م: ٩١١) في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»

[للوحي كيّفيّات]

و قد ذكر العلماء للوحي كيفيّات:

إحداها ـ أن يأتيه الملك في مثل صَلصَلة الجرس كما في الصّحيح. و في مسند أحمد عن عبدالله بن عمر: سألت النّبيّ ﷺ هل تحسّ بالوحي؟ فقال: «أسمع صَلاصِل ثمّ أسكت عند ذلك، فما من مرّة يوحٰى إليّ إلاّ ظننتُ أنّ نفسي تقبض». قال الخَطّابيّ: و المراد أنّه صوت متدارك يسمعه و لايبيّن له أوّل ما يسمعه حتّى يفهمه بعد. و قيل: هو صوت خَفْق أجنحة الملك، و الحكمة في تقدّمه أن يقرع سمعه الوحي[١]، فلا يُبقي فيه مكانًا لغيره. و في الصّحيح أنّ هذه الحالة أشدّ حالات الوحي عليه. و قيل: إنّه إنّما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية و عيد و تهديد.

الثّانية ـ أن ينفث في رُوعه الكلام نفثًا، كما قال ﷺ: «إنّ رُوح القُدُس نفث في رُوعي»، أخرجه الحاكم. و هذا قد يرجع إلى الحالة الأُولى أو الّتي بعدها، بأن يأتيَه في إحدى الكيفيّتين و ينفث في رَوعه.

الثّالثة ـ أن يأتيَه في صورة الرّجل فيكلِّمه، كما في الصّحيح: «و أحيانًا يتمثّل لي الملك رجُلاً فيكلِّمني فأعِي ما يقول» زاد أبو عَوانة في صحيحه: «وهو أهونه عليّ».

الرّابعة ـ أن يأتيَه الملك في النّوم، و عدّ من هذا قوم سورة الكوثر، و قد تقدّم مافيه.

الخامسة ـ أنْ يكلِّمه الله إمّا في اليقظة كما في ليلة الإسراء، أو في النّوم، كما في

---

١ ـ ظ: أن يفرغ سمعه للوحي.

حديث مُعاذ: «أتاني ربّي فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى...» الحديث.

و ليس في القرآن من هذا النّوع شيء فيما أعلم؛ نعم يمكن أن يُعدّ منه آخر سورة البقرة لما تقدّم، و بعض سورة الضُّحى، و ألم نَشرح ؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث عديّ بن ثابت، قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربّي مسألة؛ وددت أنّي لم أكن سألته، قلت: أي ربّ، اتّخذتَ إبراهيم خليلاً، و كلّمتَ موسى تكليمًا، فقال: يا محمّد، ألم أجدْك يتيمًا فآويتُ، و ضالاًّ فهديت، و عائلاً فأغنيتُ، و شرحتُ لك صدْرك، و حططتُ عنك وِزْرَك، و رفعتُ لك ذكرك، فلا أُذكَر، إلاّ ذُكرت معي!».

فائدة: [بعد ذكر رواية أحمد عن الشّعبيّ كما تقدّم عن ابن حَجر، قال:]

قال ابن عَسْكَر: والحكمة في توكيل إسرافيل أنّه الموكَّل بالصُّور الّذي فيه هلاك الخلق و قيام السّاعة، و نبوّته ﷺ مُؤذنة بقرب السّاعة و انقطاع الوحي، كما وُكِّل بذي القَرْنَين رَيا فيل الّذي يُطوي الأرض، و بخالد بن سِنان مالك خازن النّار.

و أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن سابط، قال: «في أُمّ الكتاب كلّ شيءٍ هو كائن إلى يوم القيامه، فوَكّل ثلاثة بحفظه من الملائكة، فوَكَّل جبريل بالكتب و الوحي إلى الأنبياء و بالنّصر عند الحروب و بالمهلكات إذا أراد الله أن يهلك قومًا، و وَكَّل ميكائيل بالقطر و النّبات، ووَكَّل ملك الموت بقبض الأنفس ؛ فإذاكان يوم القيامه عارضوا بين حفظهم و بين ما كان في أُمِّ الكتاب فيجدونه سواءً».

و أخرج أيضًا عن عَطاء بن السّائب، قال: أوّل ما يُحاسَب جبريل لأنّه كان أمين الله على رسله.

فائدة أُخرى:

أخرج ابن سعد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغطّ في رأسه، و يتربّد وجهه، أي يتغيّر لونه بالجريذة، و يجد بَردًا في ثناياه، و يعرق حتّى يتحدّر منه مثل الجُمان. (١: ١٦٠ ـ ١٦٣)

ونصّه في تفسيره: «الدّرّ المنثور»

[كيفيّة نزول الوحي و استراق السّمع]

﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ /۲۳

۱ـ و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مَرْدُوَيه عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: لمّا أوحى الجبّار إلى محمّد صلى الله عليه وآله دعا الرّسول... [و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ الرّقم ۱۲، ثمّ قال:]

و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: كان إذا نزل الوحي كان صوته كوقع الحديد على الصَّفوان، فيصعق أهل السّماء ﴿حَتّٰى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالت الرّسل عليهم السلام: ﴿الحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

۲ـ و أخرج عبد بن حميد و ابن المُنذِر و ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: ينزل الأمر إلى السّماء الدّنيا، له وقع كوقعة السِّلسِلة على الصّخرة، فيفزع له جميع أهل السّموات فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ثمّ يرجعون إلى أنفسهم فيقولون: ﴿الحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

۳ـ و أخرج عبدالرّزّاق و عبد بن حميد و مُسلم و التِّرمِذيّ و النَّسائيّ و ابن المُنذِر و ابن أبي حاتم و ابن مَرْدُوَيه و أبو نُعيم و البَيْهَقيّ في «الدّلائل» من طريق مُعَمَّر عن الزُّهْريّ، عن عليّ بن الحسين، عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالسًا في نَفَرٍ من أصحابه فرمي بنجم فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان هذا في الجاهليّة»؟ قالوا: كنّا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم، قال: «فإنّها لا تُرمىٰ بهالموت أحد ولالحياته، ولكن ربّنا إذا قضى أمرًا سبَّح حملة العرش، ثمّ سبَّح أهل السّماء الّذين يلون حملة العرش، فيقول الّذين يلون حملة العرش: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فيُخبرونهم و يخبر أهل كلّ سماء سماء حتّى ينتهي الخبر إلى هذه السّماء، و تخطف الجنّ السّمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حقّ، و لكنّهم يحرّفونه و يزيدون فيه». قال مُعَمَّر: قلت للزُّهْريّ: أكان يُرمى بها في الجاهليّة؟ قال: نعم، قال: أرأيت ﴿وَ اَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْاٰنَ يَجِدْ

﴿لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [١] قال: غُلّظت و شُدّد أمرها حين بعث رسول‌الله ﷺ.

٤ـ و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و البُخاريّ و أبو داود و التِّرمذِيّ و ابن ماجَه و ابن جَرير و ابن المُنذِر و ابن أبي حاتِم و ابن مَرْدُوَيه والبَـيْهَقيّ فـي«الأسـماء والصّفات» عن أبي هُرَيرة، أنّ النّبيّ ﷺ قال: « إذا قضى الله الأمر فـي‌السّـماء ضـربت الملائكة...». [و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ٧]

٥ـ و أخرج ابن جَرير و ابن خُزَيمة و ابن أبي حاتِم و الطَّبَرانيّ و أبـوالشّـيخ فـي «العظمة» و ابن مَرْدُوَيْه و البَيْهقيّ في «الأسماء و الصّفات» عن النُّواس بن سَمْعان قال: قال رسول الله ﷺ... [و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ الرّقم ١٠]

٦ـ و أخرج البَيْهَقيّ و ابن أبي شَيْبة و ابن مَرْدُوَيه و أبو نُعَيمْ في «الدّلائل» عن ابن عبّاس في قوله عزّوجلّ: ﴿حتّى اِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [٢]. قال: كان لكلّ قبيلٍ من الجنّ مقعد في السّماء يستمعون منه الوحي، و كان إذا نزل الوحي سمع له صوت كإمرار السِّـلسِلة على الصّفوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلاّ صعقوا ﴿حتّى اِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، و إن كان ممّا يكون في الأرض من أمر الغيب، أوموت، أوشيء ممّا يكون في الأرض تكلّموا به، فقالو: يكون كذا و كذا، فسمعته الشّياطين، فنزلوا به على أوليائهم يقولون: يكون العام كذا، و يكون كذا، فيسمعه الجنّ، فيخبرون الكَهَنَة به، و الكَهَنَة تخبر به النّاس، يقولون: يكون كذا و كذا، فيجدونه كذلك، فلمّا بعث الله محمّدًا ﷺ دحروا بالنّجوم، فقالت العرب حين لم يخبرهم الجنّ بذلك: هلك من في السّماء، فجعل صاحب الإبل يَنْحَر كلّ يوم بعيرًا، و صاحب البقر يَنْحَر كلّ يومٍ بقرةً، و صاحب الغنم شاة، حتّى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثقيف: ـ و كانت أعقل العرب ـ أيّها النّـاس! أمسكـوا عليكم أموالكم، فإنّه لم يمت من في السّماء، و إنّ هذا ليس بانتشار، ألستم ترون معالمكم من النّجوم كما هي و الشّمس و القمر و النّجوم واللّيل و النّهار؟ قال: فقال إبليس: لقـد حدث اليوم في الأرض حدث، فأتوني من تربة كلّ أرض، فأتوه بها، فجعل يشمّها، فلمّا شمّ تربة مكّة قال: من‌ها هنا جاء‌الحديث منتشرًا، فنقّبوا فإذا رسول‌الله ﷺ قد بُعِث.

١ ـ الجنّ / ٩.
٢ ـ سبأ / ٢٣.

٧ـ و أخرج أبو داود والبَيْهَقيّ في «الأسماء و الصّفات» عن رسول الله ﷺ: «إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السّماء الدّنيا صَلصَلة كجرّ السِّلسِلة على الصّفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتّى يأتيهم جبريل ﷺ، فإذا جاءهم جبريل ﷺ ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربّنا؟ فيقول: الحقّ، فيقولون: الحقّ الحقّ».

٨ـ و أخرج ابن مَردُوَيْه، عن بهزبن حكيم، عن أبيه، عن جدّه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لمّا نزل جبريل بالوحي على رسول الله فزّع أهل السّماوات لا نحطاطه، و سمعوا صوت الوحي كأشدّ ما يكون من صوت الحديد على الصّفا، فكلّما مرّ بأهل سماء ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ فيقولون: يا جبريل! بماذا أُمِرت؟ فيقول: نور العزّة العظيم كلام الله بلسان عربيّ».

٩ـ و أخرج عبد بن حميد عن قَتادة ﷺ في الآية قال: يوحي الله إلى جبريل ﷺ، فتفزع الملائكة ﷺ من مخافة أن يكون شيءٌ من أمر السّاعة، فإذا خلّي عن قلوبهم وعلموا أنّ ذلك ليس من أمر السّاعة ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾.

١٠ـ و أخرج أبو نصر السَّنجَريّ في «الإبانة» عن عائشه قالت: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل ﷺ، وزعم أنّ إسرافيل ﷺ يحمل العرش و أنّ قدمه في الأرض السّابعة، والألواح بين عينيه، فإذا أراد ذوالعرش أمرًا سمعت الملائكة كَجرّ السِّلسِلة على الصّفا فيُغشىٰ عليهم، فإذا قاموا ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، قال من شاءالله: ﴿الْحقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١١ـ و أخرج عبد الرَّزّاق و ابن المُنذِر و ابن أبي حاتِم عن قَتادة و الكَلْبيّ في قوله: ﴿حَتّٰى اِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قالا: لمّا كانت الفترة بين عيسى و محمّد ﷺ، فنزل الوحي مثل صوت الحديد فأفزع الملائكة ﷺ، ذلك ﴿حَتّٰى اِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قالوا إذا جُلّي عن قلوبهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١٢ـ و أخرج ابن جَرير و ابن أبي حاتِم في الآية، قال: زعم ابن مسعود أنّ الملائكة المعقّبات... [و ذكر كما تقدّم عن الطَّبريّ الرّقم ١٦] (٥: ٢٣٥ـ٢٣٧)

الفصل السّابع عشر

نصّ صدر المتألّهين (م: ١٠٥٠) في «تفسير القرآن الكريم»

في كيفيّة إنزال الوحي على الأنبياءعليهم‌السلام

كما يحب علينا الإيمان بالكتب الإلهيّة المُنزَلة على الأنبياءعليهم‌السلام فكذلك يجب على المؤمن إيمانًا حقيقيًّا بما أُنزل إليهم من حيث كونه مُنزَلاً إليهم أن يعلم كيفيّة الإنزال والإيحاء و كيفيّة إرسال الأنبياءعليهم‌السلام و في ذمّة العالم بتأويل القرآن أن يحاول هذاالعلم و يتعاطاه، فمن الدّائر على ألسنة جماعة من المفسّرين و غيرهم من المتكلّمين، أنّ المراد من إنزال الوحي أنّ جبرئيلعليه‌السلام سمع في السّماء كلام‌الله تعالى فنزل به على الرّسولصلى‌الله‌عليه‌وآله، و هذا كما يقال: نزلت رسالة الأمير من القصر، والرّسالة لا تنزل، ولكنّ المستمع سمع الرّسالةَ في علوّ فينزل بها و يؤدّيها في سفل، وقول الأمير لا يفارق ذاته ولكنّ السّامع يسمعه و يؤدّي بلفظ نفسه.

[طريقة سماع جبرئيل كلام الله تعالى]

و ربّما استشكل بعضهم هذا أي سماع جبرئيل كلام‌الله، سيّما القائل بأنّ كلامه ليس من جنس الأصوات والحروف، فأجابوا عنه:

أمّا المعتزلة فبأنّه يخلق‌الله أصواتًا و حروفًا على لسان جبرئيل، و هذا معنى‌الكلام عندهم.

و أمّا الأشاعرة فتارةً بأنّه يحتمل أن يخلق الله له سماعًا لكلامه ثمّ أقدرَه على عبارة يعبّربها عن ذلك الكلام، و تارةً بأنّه يجوز أن يخلق الله في اللّوح المحفوظ كتابة بهذا النّظم‌المخصوص فقرأه جبرئيلعليه‌السلام فحَفِظه، و تارةً بتجويز أن يخلق أصواتًا مقطّعةً

بهذا النّظم المخصوص في جسم مخصوص فتلقّفه جبرئيل، و يخلق له علمًا ضروريًّا بأنّه هو العبارة المؤدّية لمعنى ذلك الكلام القديم، هذا خلاصة ما ذكروه في هذا المقام.[١]

وطائفةاستدلّوا على كون الملائكه أجسامًا متحيّزة بأنّ وصف القرآن بالنّزول الّذي لا يتّصف به إلاّ المتحيّز بالذّات دون الأعراض و سيّما غير القارّ منها كالأصوات، إنّما هو بتبعيّة محلّه سواء أخذ حروفًا ملفوظة أومعاني محفوظة، و هو الملك الّذي يتلقّف الكلام من جانب الملك العلاّم تلقّفًا سماعيًّا، أو يتلقّى القرآن تلقّيًا قلبيًّا، أو يتحفّظه من اللّوح المحفوظ ثمّ ينزل به على الرّسول، ولا يتمشّىٰ ذلك إلاّ بالقول بتجسّم الملائكة. و هذا هو مسلك أرباب الجدَل و التّخييل دون أصحاب البصيرة و التّحصيل.

و أمّا على مسلك هؤلاء و ممشاهم من القول بما هو صريح الحقّ و ما عليه كافّة الحكماء الإلهيّين و الرّبّانيّون من الإسلاميّين، و هو أنّ الملائكة ـ كمامرّ ـ تطلق على قبائل علويّات و سفليّات سماويّات و أرضيّات قدسيّات و جسمانيّات، و في القبائل شعوب بطبقات كالقُوى المنطبعة و الطّبائع الجوهريّة و النّفوس المفارقة و أرباب الأنواع و الصُّوَر المفارقة، و العقول القادسة بطبقات أنواعها. و منها روح القدس النّازل بالوحي النّافث في أرواع أُولى القوّة القدسيّة بإذن الله، و غير ذلك ممّا لا يعلم أعدادها و لا أنواعها إلاّ الله كما قال: ﴿وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ اِلاَّ هُوَ﴾.[٢]

و قال ﷺ:[٣] «أطّت السّماء و حقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضعُ قدمٍ إلاّ و فيه ملك ساجد أوراكع».

فالأمر غير مشتبه على النّاهج منهجم والماشي ممشاهم، و قد مرّمنّا القول بأنّ كلام الله ليس مقصورًا على ما هو من قبيل الأصوات أوالحروف، و لا على ما هو من قبيل الأعراض مطلقًا ألفاظًا كانت أومعاني، بل كلامه و متكلّميّته يرجع إلى ضرب من قدرته و قادريّته، وله في كلّ عالَم من العوالم العلويّة و السّفليه صورةٌ مخصوصةٌ.

و طائفة أُخرىٰ اقتصروا على القول بالتّلاقي الرّوحانيّ و الظّهور العقلانيّ بين

---

١ ـ التّفسير الكبير: ١/٢٥٤.
٢ ـ المدّثّر / ٣١.
٣ ـ الدّرّ المنثور ٥: ٢٩٣، المسند ٥: ١٧٣.

النّبيّ ﷺ والملك الحامل للوحي، فسمّوا ظهوره العقلانيّ لنفوس الأنبياء عليهم السلام نزولاً، تشبيهًا للهبوط العقليّ بالنّزول الحسّيّ و للاعتلاق الرّوحانيّ بالاتّصال المكانيّ، فيكون، قولنا: نزل الملك استعارة تبعيّة، و قولنا: نزل الفرقان مجازًا بتبعيّة تلك الاستعارة التبّعيّة. و هذا ممّا فيه إسراف في فحولة التّنزيه، كما في القول الأوّل في أُنوثة التّشبيه. و إنّ في كلاالقولين زيغًا عن طريق الصّواب، و حيدًا عمّا فيه هدىً لأُولى البصائر و الألباب، و شقًّا لعصا الأُمّة لِفرقها المتفرّقة و أحاديثها النّبويّة المتواترة، و خرقا للقوانين العقليّة المنضبطة، فالأُمّة مطبقة على أنّ النّبيّ ﷺ كان يرى جبرئيل و ملائكة الله المقرّبين عليهم السلام ببصره الجسمانيّ، و يسمع كلام الله الكريم على لسانهم القدسيّ بسمعه الجَسَدانيّ الشّخصيّ.

والبرهان العقليّ قائم بالقسط، على أنّ مناط الرُّؤية و السّماع الحسّيّين في الإنسان وجودُ الصّورة البصريّة كالألوان و الأشكال و غير هما، و الصّورة المسموعة كالأصوات والحروف و الكلمات عند النّفس بقوّتها الباطنة المدركة للجزئيّات الصّوريّه، و مُثُولها بين يدي الحسّ الباطن لها الّذي هو مجمع الحواسّ الظّاهرة، وإنّما المُبْصَر بالحقيقة والمسموع بالحقيقة من الشّيء الماثل بين يدي الحسّ الظّاهر هو صورة الحاضر في ساحة النّفس النّاطقة و صُقع ملكوتها.

و أمّا وجود ذي الصّورة بهويّته الخارجيّة و مادّته الوضعيّة، فهو مُدرَك بالعَرَض و بالقصد الثّاني، و ليس المثول الخارجيّ للمبصر المادّيّ بنسبته الوضعيّة المادّيّة بالقياس إلى الآلة الجسمانيّة الدّاثِرة و جليدَتاها اللّتان هما مسلكا التّأدية، و ليستا لَوحي الانطباع من الشّرائط الضّروريّة للإبصار الّذي هو قيام الصّورة المُبْصَرَة في حضرة النّفس، بل ذلك طريقٌ واحد من طرق الحصول للصّورة و المُثُول الانكشافيّ النّوريّ لها عند النّفس، مادام كونها في هذه النّشأة الدّاثرة و عظيمة التّعلّق بها و تمكّن حصولها بطريق آخر للنّفس كما فيالنّوم، حيث لا يكون وجود الصّورة في مادّتها المخصوصة شرطًا لانكشافها و حضورها للنّفس، و على هذا القياس شاكلةُ السّمع أيضًا.

و مبدأ حضور الصّورة مطلقًا هو واهب الصُّوَر والإفاضة من تلقائه. و للنّفس في ذاتها سمعًا و بصرًا و شمًّا و ذوقًا و لمسًا و إن انسلخت عنها هذه الآلات العنصريّة الدّائرة

البائدة، و إنّما الحاجة لها إلى هذه الدّاثرات مادام كونها النّاقص الدّنيويّ و عدم خروج قواها و حواسّها الباطنيّة من القوّة إلى الفعل.

فعند خروجها من ظلمات هذه الحواسّ و غبار هذا العالَم الدّاثر، و بروزهاالله من زيارة هذه المقابر، تشاهد المحسوسات بقوّتها المتخيّلة.

و نحن قدأقمناالبرهان العرشيّ على جوهريّة القوّة الخياليّة و تجرّدها عن المادّة البدنيّة في الشّواهد الرّبوبيّة[1] عند البحث عن تحقيق المعاد الجسمانيّ، فمَن كانت نفسه واغلة الهمّة في الجنبة السّافلة، طفيفة الانجذاب إلى الجنبة العالية، قليلة التّوجّه إلى يمين الحقّ و عالَم القُدس، لم يكن لجوهر قلبه سبيلٌ إلى مطالعة الصُّوَر الغيبيّة إلاّ من مسلك الحاسّة الظّاهرة و الاتّصال بالآلة البدنيّة و حضور المادّة الخارجيّة.

فأمّا إذا كانت نفسه قويّة العزيمة، مجموعة الهمّة، قدسيّة الفطرة، نقيّة الجوهر بحسب جبلّتها المفطورة أوبحسب ملكتها المكسوبة، و بالجملة شديدة الاستحقار لعالَم الحسّ، قاهرة القوّة على تسخير القُوى و ضبطها، ذات سلطنة على خلعالبدن و رَفْض الحواسّ الظّاهرة والانصراف عنها إلى صقع المكوت بإذن ربّها، فهو مستغنٍ ـ بقوّةٍ نفسها المتخيّلة اللاّمنغمسة في قُوى البدن ـ عن استعمال الحواسّ الظّاهرة.

فله أن يتلقّى الصّورة الجزئيّة من معادنها الأصليّة من غير استعانة بهذه الآلات، و يقتدر على تصوير المعاني بصوَرها المقداريّة في عالَم الصّور الخالصة عن هذه الموادّ متىٰ شاء و حيث شاء.

فمهما و جدت نفسه فرصةً عن هذه الشّواغل العارضة في اليقظة تخلص بقوّتها المتخيّلة عن جانب الطّبيعة، راجعة إلى عالَمها، متّصلة بأبيها المقدّس و هو روح القُدُس و بمَن شاء الله تعالى من الأرواح المقدّسة، و يستفيد من هناك العلم و الحكمة بالانتقاش على سبيل الرّشْح أوالعكس كمرآة مجلوّة حودي بها شطر الشّمس.

ولكن حيث أنّ النّفس تكون بعد في دار غربتها بالطّبع، ولم تنسلخ و لم ترتفع أذيالها بالكلّيّة عن علاقتها التّدبيريّة لقواها البدنيّة و جنودها الحسّية، أو أنّها لم تتجرّد عن عالم

١ ـ راجع الشّاهد الثّاني من المشهد الثّالث.

المتمثّل بالكليّة و إن تجرّدت عن عالم المادّة بالكلّيّة، فيكون منالها فيما تناله بحسب ذلك الشّأن و تلك الدّرجة، تحوّل الملك الحامل للوحي على صورة متمثّلة في شبح شخص بشريّ ناطق بكلمات إلهيّة منظومة مسموعة، كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1] يعني بذلك ارتسام الصّورة عنده لا في لوح «بنطاسياه» ـ كما زعمه الظّاهريّون من الحكماء ممّن لا تحقيق له في علم النُّبوّات ـ و لا من سبيل الظّاهر و الأخذ عن مادّة خارجيّة، بل بالانحدار إليه من العالم الأعلى و النّزول إليه من جانب اليمين و صقع الإفاضة.

فإنّ الشّأن في السّماع و الأبصار المشهورتين أنّه يرتفع صورةالمسموع والمُبْصَر من الموادّ الخارجيّة إلى لوح الانطباع، ثمّ منه إلى عالم الخيال و المتخيّلة. ثمّ يصعد الأمر إلى النّفس النّاطقة كما هوالمعروف عند الجمهور و المثبت منهم في الكتب.

وعندنا: النّفس ترتفع من المحسوس إلى المتخيّل، و منه إلى المعقول، والصّور ثابتة في أحيازها و عوالمها.

و في إبصار الملك و سماع الوحي ـ و هما الإبصار و السّماع الصّريحان ـ ينعكس الشّأن، فينزل الفيض من عالم الأمر إلى النّفس، فهي تطالع شيئًا من الملكوت مجرّدة غير مستصحبة لقوّة حسّيّة أوخياليّة أو وهميّة. ثمّ يفيض من النّفس إلى القوّة الخياليّة فتمثّل لها الصّورة بما انضمّ إليها من الكلام في الخيال من معدن الإفاضة و صُقْع الرّحمة، ثمّ تنحدر الصّورة المتمثّلة و العبارة المنظومه من الخيال و المتخيّلة إلى الحسّ الشّاهد، بل النّفس تنزل من العالم الأعلى إلى الأوسط ثمّ إلى الأدنى، فتضاهد في كلّ عالم ما يتعارف لها و يناسبها على عكس الحالة الأُولى، لأنّ تلك الحركة عروجيّة و هذه نزوليّة، فتسمع الكلام و تبصر الصّورة في كلّ عالم من العوالم الثّلاثة.

و هٰذا أفضل ضروب الوحي و الإيحاء، ولٰه أنحاءٌ مختلفةٌ مراتب متفاضلةٌ بحسب درجات النّفس.

و قد يكون في بعض الدّرجات لا يتخصّص المسموع و المُبْصَر بجهة من جهات

---

١ ـ مريم / ١٧.

العالم بخصوصها، بل الأمر يعمّ الجهات بأسرها في حالة واحدة، و قد يكون بخلاف ذلك.

[ثمّ ذكر رواية الحارث بن هِشام، كما تقدّم عن النّسائيّ الرّقم ٢ فقال:]

و ربّما يكون صقالة النّفس النّبويّة أتمّ، و تجرّدها في بعض الأحايين أقوىٰ، و سلطانها على قهر الصّوارف الجسدانيّة و الشّواغل الهيولانيّة أعظم، يكون عند الانصراف عن عالم الحسّ و الاتّصال بروح القُدُس استيناسها بجوهر ذاته المجرّدة أشدّمنه بالشّبح المتمثّل، فتشاهد ببصر ذاتها العاقلة الصّائرة عقلاً بالفعل معلّمَها القُدسيّ و مخرجَها من حدّالقوّة النّفسانيّةِ الهَيولانيّة إلى حدّ الكمال العلميّ والعقل الصّوريّ، و تستفيد منه و هو في صورته القُدسيّة العلوم و الأحوال، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوٰى * ذُومِرَّةٍ فَاسْتَوٰى * وَ هُوَ بِالْاُفُقِ الْاَعْلٰى﴾.[١]

و ربّما وصل النّبيُّ ﷺ إلى مقام أعلى من أن يتوسّط بينه و بين المبدء الأوّل و المُفيض على الكلّ واسطةٌ، فسمع كلام الله بلاواسطة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْاَدْنٰى * فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهِ مَااَوْحٰى﴾[٢].

وقد ذُكر أنّ النّبيّ ﷺ إنّما رأى جبرئيل عليه السّلام بصورته الحقيقيّة مرّتين،[٣] و كان بحيث طبق الخافقَين. و إلى مثل هذه الرّؤية له ﷺ أشار تعالى بقوله: ﴿وَ لَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً اُخْرٰى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى﴾[٤].

ثمّ دُون هذا الضّرب بسائر درجاته ممّا يتّفق لمن له من القوّة القدسيّة نصيبٌ أن يرى ملائكة الله و يسمع كلام الله و لكن في النّوم لا في اليقظة. و سبيل القول أيضًا أنّ الأمر هاهنا ينتهي إلى القوّة المتخيّلة، و يقف عندها بمحاكاتها و تفصيلها و ترتيبها، لماقد طالعتْه النّفس من عالم الملكوت من دون أن تتمثّل الصّورة بألفاظها المعبّرة بين يدي الحسّ، و ذلك لضعْف القوّة الخياليّة أولقوّة العائق و كثافة المادّة، فإنّ القوّة الخياليّة عندنا تفعَل فِعلَ الحواسّ الظّاهرة كلّها عندما كانت قويّة والعائقُ البدنيّ ضعيفًا، فلها أن تعزل الحواسّ عن أفاعيلها. وبهذا يتحقّق الفرق بين مطالعة الأنبياء عليهم السلام للصّور الباطنة و بين

---

١ ـ النّجم / ٥ ـ ٧.

٢ ـ النّجم / ٨ ـ ١٠.

٣ ـ دلائل النّبوّة للبَيْهَقيّ: ١١٧.

٤ ـ النّجم / ١٣ و ١٤.

مطالعة غيرهم إيّاها كالأولياء و الحكماء.

فالرُّؤيا الصّالحة لنفوس العرفاء والصّالحين إنّما هي واقعة في هـذا الطّـريق غـير واصلة إلى درجة النّبوّةو بلوغ الغاية و لهذا ورَد في الحديث[١] أنّها جزءٌ من ستّة و أربعين جزءًا، أو من خمسة و أربعين، أومن سبعين جزءًا، على اختلاف الرّوايات.

و قُصارى مرتبة الرُّؤيا و أقصاها كمالاً ما وقع للمحدَّثين ـ بفتح الدّال المشدّدة ـ و هم الّذين يرفضون عالَمَ الشّهادة و يصعدون إلى عالَم الغيب، فربّما يسمعون الصّوت في اليـقظة مـن سـبيل البـاطن، ولكـنّهم لا يـعاينون شـخصًا مـتشبّحًا كـما مـرّ ذكـره في المفاتيح الغيبيّة.

و في كتاب الحجّة من كتب الكُلينيّ رحمه الله باب في الفرق بين الرّسول والنّبيّ والمحدَّث والأئمّة عليهم السلام كلّهم محدَّثون مفهَّمون. (١:٢٩٥ـ٣٠٢)

ونصّه في «شرح أُصول الكافي»

باب الفرق بين الرّسول و النّبيّ و المحدَّث، و فيه أربعة أحاديث

الحديث الأوّل

«عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن ثَعْلَبة ابن مَيْمون، عن زُرارَة قال... **[و ذكر كما تقدّم عن الصَّفّار الرّقم ٤ ثمّ قال:]**

الشّرح:

اعلم أنّ الدّنيا عالم الشَّهادة، و المُلك و الآخرة عالم الغيب و الملكوت و الإنسان مركّب من جزئين: **أحدهما** من هذا العالم و هو بدنه العنصريّ المستحيل الكائن الفاسد، و كذلك حال الدّنيا و كلّ ما فيها فإنّها مستحيلة كائنة فاسدة كلّ حين. و ثانيهما من عالم

---

١ ـ راجع جامع الأُصول: الكتاب الخامس من حرف التّاء، الفصل الأوّل: ٣:٧١ إلى ٨١

الآخرة و هو روحه الثّابت الباقي، و كذلك كلّ ما فيهاباقي دائم لايزول أبدًا و للآخـرة درجات كثيرة متفاضلة لقوله تعالى: ﴿وَ لَلْاٰخِرَةُ اَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ اَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾.[١]

و أوّل درجات الآخرة حالة المنام ثمّ حالة الموت و تمامه بالبعث، فـالنّوم بـعض حركة الرّجوع إلى الآخرة و النّبيّ بما هو نبيّ كالمبعوث يوم القيامة فيرى مـن الصّـور والحقائق والأحوال مالايراه النّاس، كما قال النّبيّ صلّى الله عليه و آله: «إنّي أرى مالاترون» فيعبّر عمّا يراه و يسمعه في ذلك العالم فيحكيه لأهل هذا العالم الّذين هـم بـالحقيقة كـالنّائمين، لقوله صلّى الله عليه و آله: «النّاس نيام» بكسوة الألفاظ و ضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَ تِلْكَ الْاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا اِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.[٢]

و إن أردت توضيح ذلك و بيان معنى النّبوّة و الرّسالة و التّحديث فاعلم أوّلاً أنّ سبب الرُّؤيا انعكاس الرّوح الحيوانيّ الّذي هو مستوى الرّوح العِلويّ من الظّاهر إلى الباطن، و هذه الرّوح عبارة عن جرم لطيف متكوّن من بخار الأخلاط في تجويف القلب، و مُركّبه الدّم الصّافي و هو مُركّب للقوى النّفسانيّة و الحيوانيّة، و بها تنتشر الحياة في كلّ البدن و يوصل القُوى المدركة و المحركّة إلى آلاتها و أعضاء الحسّ و الحركة، و لذلك إذا وقعت سَدَّة في مجاريها من الأعصاب المؤدّية للحسّ بطل الحسّ و حصل الصّرع و السّكتة، و كذلك إذا سُدَّ يد الإنسان سدًّا محكمًا أحسّ بخدر في رأس اليد، فيبطل في الحال حسّه إلىٰ أن يخلى فيعود بعد زمان. **[إلى أن قال:]**

و أمّا سبب معرفة الغيب و رُؤية مالا وجود له في الخارج في اليقظة فهو ما أقول: من أنّ سبب الحاجة إلى النّوم و وقوعه ممّا يكون غالبًا من ضعف النّفس و كـون الحـواسّ شاغلة لها حتّى إذا ركدت الحوّاس اتّصلت بالجواهر العقليّة و استعدّت بالقبول منها و يمكن أن يكون ذلك لبعض النّفوس في اليقظة من و جهين:

أحدهما ـ أنّ تقوى النّفس قوّة لا يشغلها بالحواسّ بحيث يستغرقها و يمنعها، بـل تسع قوّتها بضبط الجانبين و النّظر إلى الجهتين: جهة العلوّ وجهة السُّفل جميعًا، فلا يشغلها شأن عن شأن كما تقوى بعض النّفوس، فيجمع في حالة واحدة بين أن يكتب و يتكلّم و

---

١ ـ الإسراء / ٢١.

٢ ـ العنكبوت / ٤٣

يسمع و يرى، فمثل هذه النّفوس يجوز أن يفتر عنها في بعض الأحوال شغل الحواسّ، و يطّلع على عالم الغيب فيظهر لها منه بعض الأُمور و هذا نوع من النّبوّة، ثمّ إن ضعفت المتخيّلة و قوي عين الحسّ الباطن بقي ما انكشف له من الغيب في حفظه و كان وحيًا صريحًا، و إن قويت المتخيّلة و اشتغلت بطبيعة المحاكاة فيكون هذا الوحي مفتقر إلى التّأويل[١] كما يفتقر الرُّؤيا إلى التّعبير.

ثانيهما ـ أن يغلب على المزاج اليبوسة و الحرارة حتّى يصرفه لغلبة السّوداء عن موارد الحواسّ، فيكون مع فتح العين كالمبهوت الغافل الغائب عن ما يرى و يسمع، و ذلك لضعف خروج الرّوح إلى الظّاهر، فهذا أيضًا لا يستحيل أن ينكشف لنفسه شيءٌ من الغيب ممّا يناسبه فيحدّث به و يجري على لسانه، فكأنّه أيضًا غافل عمّا يحدّث به، و هذا يوجد في المجانين و المصرُوعين و بعض الكَهَنة من الهند و العرب فيحدّثون بما يكون موافقًا لما سيكون، وهذا نوع نقصان و الّذي يراه من الغيب[٢] الجزئيّ الّذي في بعض البرازخ السّفلية، و السّبب الأوّل نوع كمال و الّذي يراه ربّما كان من صور الملكوت الأعلى.

و أمّا السّبب في رؤية الإنسان في اليقظة أُمورًا لا وجود لها حقيقة فهو بأن تعلم أوّلاً أنّ الإبصار و كذا كلّ إحساس و إدراك في الحقيقة ليس عبارة عن شهود نفس الصّورة الّتي في المادّة الخارجيّة، فإنّ تلك الصّورة ليست محسوسة و لا حاصلة للنّفس الدّرّاكة، بل المحسوس بالذّات هي الصّور الّتي تراها النّفس بعين الحسّ المشترك، و أمّا الّتي في الخارج فهي سبب لظهوره صورة يماثلها للحسّ المشترك. فالمحسوس بالحقيقة هو ذلك المتمثّل المتصوّر و الخارج يسمّي محسوسًا بمعنى الآخر. ثمّ لا فرق في وقوع الصّورة المتمثّلة بين يدي الحسّ المشترك بين أن يقع من جهة الخارج و يرتقى إليه باستعمال آلات الحواسّ لإدراك الخارجات و بين أن يقع من جهة الباطن و ينزل إليه

١ ـ الرُّؤية الّتي يحوج إلى التّأويل هو المتشابه، فالقسم الأوّل محكم و الثّاني متشابه، و على السّرّ المتشابه تصرّف المتخيّلة و تبديلها، فتدبّر فيه «نوريّ».

٢ ـ والسّرّ فيه عدم كون المكاشف ذا فضيلة علميّة و حكمة بالغة و سيرة عادلة، لعدم كونه مقيّدًا بالدّين القويم وسالكًا للصّراط المستقيم، فيصير من جنس الشّيطان الرّجيم ومتعلّمًا منه ومحلاً لتصرّفه وعكسه على العكس كما لا يخفى «نوريّ».

باستعمال المتخيّلة لا ستحضار ما في الخزانة من المدركات العقليّة أو غيرها، بل كلّما وقع عند الحسّ المشترك يكون مشاهدًا.

إذا تقرّر هذا فنقول: إنّ النّفس قد يدرك إدراكًا من الغيب، فيبقى عين ما أدركته في الحفظ و قد يقبله قبولاً ضعيفًا يستولي عليه المتخيّلة فيحاكيه بصورة محسوسة، فإذا قويت تلك الصّورة في المتخيّلة استثبته عين الحسّ المشترك و تمثّلت عنده فرأتها النّفس بعين الحسّ مشاهدة و إن كانت الأجفان مغمضة و كان في ظلمة شديدة أيضًا.

والّذي يتخيّله الإنسان في اليقظة إنّما لايرى بعين الحسّ المشترك حتّىٰ يصير مبصرًا، لأنّ الحسّ المشترك مشغول بما يؤدّي إليه الحواس الظّاهرة و هو أغلب، و لأنّ العقل يكسر من المتخيّلة اختراعها و يكذبها و لا تقوى تصوّرها في اليقظة، فمهما ضعف العقل عن الرّدّ والتّكذيب بسبب مرض من الأمراض أو خوف شديد لم يمنع أن ينطبع في الحسّ المشترك كما عليه الجمهور أو يحضره عنده كما نحن عليه، فيرى المريض صُوَرًا لاوجود لها.

وكذا إذا غلب الخوف و اشتدّ الوهم و ضعف العقل المكذّب تمثّل صورة المخوف للحسّ حتّى يشاهدها و يبصرما يخافه، و لهذا قديَرى الجبان الخائف صورًا هائلة لا وجود لها، والغول الّذي يبصر في الصّحاري و يسمع كلامه هذا سببه، و قد يشتدّ شهوة هذا العليل لضعف ما، فيشاهد ما يشتهيه و يمدّيده إليه و يرجع كأنّه يأكل، و يرى أشخاصًا و أشياءً لاوجود لها.

فإذا تمهّدت هذه المعلومات فنقول: أُصول المعجزات و الكرامات ثلاثة أُمور: لأنّ الإنسان الكامل ذو أجزاء ثلاثة: طبيعة، و نفس، و عقل، و يقال له: الرّوح أيضًا، وكلّ منها من عالم آخر و لكلّ منها كمال و نقص، و قَلَّ من الإنسان ما يكون كاملاً في الجميع.

فكمال الرّوح ـ و هو العقل النّظريّ ـ بالعلم بالحقائق و الأُمور الإلهيّة.

و كمال النّفس ـ و هي القوّة الخياليّة ـ باستثبات الصّور الجزئيّة.

و كمال الطّبيعة ـ و هو التّصرّف في المواد ـ بالإحاطة و القلب و التّحريك.

و النّبيّ هو الشّخص الكامل في الجزء النّظريّ من جهة الإلهام من الله فإذا حصلت له

الرّسالة أيضًا فقد كمل في القوّة النّفسانيّة أيضًا، و إذا كان صاحب شريعة و عزم فقد صار جامعًا للكمالات كلّها، فكأنّه ربّ إنسانيّ تجب طاعته بعد طاعة[١] الله، فـفي الإنسـان الكامل الجامع للكمالات الإنسيّة ثلاث معجزات:

الأُولى ـ خاصّية في قوّة النّفس العمليّة، و هي أن يؤثّر في هيولى العالم بإزالة صورة و إيجاد صورة، و بأن يؤثّر في استحالة الهواء إلى الغَيْم و يحدث مطرًا مثل الطّوفان أو بقدر حاجة الاستسقاء، أو بأن يؤثّر في استحالة النّار بردًا و سلامًا أو ما يجري مجرى هذين الأمرين و هذا أمر ممكن.

إذ قد ثبت في العلوم الإلهيّة أنّ الموادّ خاضعة للنّفوس، و الطّبائع متأثّرة بها، و أنّ هذه الصّور المتعاقبة على الهيولى من آثار النّفوس الكلّيّة الفلكيّة و أنّ النّفوس الإنسانيّة من جوهر تلك النّفوس [٢] و شديدة الشّبه بها، لأنّ نسبتها إليها نسبة السّراج إلى الشّمس، و ذلك لا يمنع في كون السّراج مؤثّرًا في التّسخين و الإضاءة كالشّمس.

و كذلك نفس الإنسان تؤثّر في هيولى العالم، و لكنّ الغائب أن لا يتعدّى تأثيرها عن عالمه الخاصّ و هو بدنه فيقتصر تأثيرها عليه، و لذلك إذا حصلت في النّـفس صـورة مكروهة استحال مزاج البدن و حدثت رطوبة العرق، و إذا حصلت فيها صـورة الغـلبة بالغضب حمى مزاج البدن و احمرّ الوجه، و إذا وقعت فيها صورة مشتهاة حصلت فـي أوعية المنيّ حرارة مسخنة منفخة حتّى يمتلىء به عروق آلة الوقاع، فـهذه الحـرارة و الرّطوبة و البرودة حصلت في البدن عن مجرّد التصوّر و التّوهّم.

و قد يتعدّى أثر بعض النّفوس إلى بدن آخر، و ذلك لقوّة فيها و إن كانت خبيثة حتّى يفسد الرّوح بالتّوهّم و تقتل الإنسان و يعبّر عن ذلك بإصابة العين، و لذلك قال: العين حقّ[٣] وقال: العين تدخل الرّجل القبر والجمل القِدْر، و إذا كان هذا ممكنًا ـ سيّما في النّفوس الخبيثة ـ فلِم لا يكون لبعض النّفوس العالية الشّريفة تأثير أقوى و أكثر

---

١ ـ الطّاعة طاعتان: تشريعيّة و تكوينيّة، و التّشريعيّة يجب وجوبًا بالنّسبة إلى صاحب الشّريعة، و التّكوينيّة يجب وجوبًا بالنّسبة إلى صاحب الإمامة الّتي هي فوق الخُلّة كما مضى «نوريّ».

٢ ـ الولد سرّ أبيه «نوريّ».

٣ ـ ﴿وَ إِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ (القلم / ٥١) ولكن ليس لهم سلطان على الّذين آمنوا، فافهم «نوريّ».

من هذا في النّدور؟ و مثل ذلك يعبّر عنه بالمعجزة و الكرامة.

الثّانية ـ ما بحسب القوّة الخياليّة و هو: أن تقوّي النّفس الخياليّة للإنسان قوّة تتّصل في اليقظه بعالم الغيب الصّوريّ، فإن كان ذا فضيلة علميّة يرى معلوماته في كسوة ألفاظ مسموعة أو مكتوبة، و يرى مبدأها الملقى إيّاها له ـ أعني الملك ـ في صورة شخص إنسانيّ، فربّما كانت الصّورة المحاكية للجوهر الشّريف العقليّ الإلهيّ في غاية الحسن و البهاء على أكمل هيئة و أجملها فيناجيه بالغيب، أو يرتسم صورة الأمر الغيبيّ مشاهدة، أو يسطّر على سبيل كتابة، أو على طريق نداء هاتف غيبيّ يسمع ندائه و لا يعاين شخصه أو على سبيل غلبة ظنّ بالأمر الغيبيّ فيطّلع.

فما بقي من الكلام محفوظًا فإن كان في النّوم فهو رؤيا صادقة غير محتاج إلى التّعبير كمامرّ، و إن كان في اليقظه فهو وحي صريح غير محتاج إلى التّأويل و ما بطل هو، و بقيت محاكياته فهو وحي محتاج إلى تأويل أو حلم مفتقر إلى تعبير، و أمّا إذا قويت القوّة الخياليّة و لم يكن الشّخص ذا فضيلة علميّة أو سيرة عادلة فربّما يرى ما يلقي الشّيطان فتنة له و لغيره في اليقظه أو في النّوم، وهذا حال أكثر الكَهَنة و المُوَسْوِسين و ضرب من المتصوّفة و أهل الخَلوة من البطّالين.

الثّالثة ـ و هي أعلى الخواصّ النّبويّة و أشرفها، و هو كمال القوّة النّظريّة و العقل النّظريّ بأن يصفو الجوهر العقليّ صفاء يكون شديد الاتّصال بالعقل الفعّال المسمّى بالقلم الأعلى و المعلّم الشّديد القوى، و هو المفيض للعلوم بإذن الله على ألواح النّفوس العقليّة، فيستفيض منه العلوم و المعارف بلاواسطة معلّم بشريّ في زمان يسير، و هذا ممكن أيضًا، فإنّ النّفوس البشريّة منقسمة إلى ما يحتاج إلى التّعلّم وإلى المستغني عنه.

والمحتاج إلى التّعلّم له مراتب متفاوتة: فمنهم قد لا يؤثّر فيه التّعليم و إن طال طلبه وكثر جدّه و تعبه، و منهم من يتعلّم على قرب، و كم من شخص يستنبط الشّيء من نفسه من غير تعليم! بل العلوم كلّها إذا تأمّلت فيها فهي من مستنبط النّفوس، فإنّ كلّ معلّم لو تعلّم من غيره لذهب الأمر إلى مالانهاية و هو محال، بل يرتقي إلى من عرف من نفسه بحدس أو فكر بأن يحضر بباله النّتيجة فيتنبّه للحدّ الأوسط، كأنّه أُلقي في نفسه من حيث

لايدري أو يتنبّه للحدّ الأوسط فيختر النّتيجة.

و يتفاضل النّفوس في قوّة الحدس و شدّة الذّكاء و سرعة الفهم إلى حدّ، و تبلغ إلى حدّ ينتقل ذهنه من معلوم إلى معلوم، و هكذا إلى آخر المعلومات في زمان قصير من غير تعلّم بشريّ، فيقال له: إنّه نبيّ أو وليّ، و إنّ ذلك معجزة أو كرامة و هو أفضل أجزاء النّبوّة و الرّسالة و هذا ممكن ليس بمحال، لأنّه إذا جازأن ينزل القصور إلى حدّ من البلادة يمنع عن الفهم من المتعلّم يجوز أن يترقّى الكمال إلى حدّ يغني عن التّعلّم، كيف لايمكن هذا و نحن رأيناكم من متعلّمين مدّة واحدة سبق أحدهما الآخر بحقائق العلوم الّتي خرجت عن حدّاًكثر الإفهام؟ مع أنّ اجتهاد الآخر أشدّ، و سعيه أكثر، و لكن لشدّة الحدس و قوّة الذّكاء فيه و الزّيادة على هذا كمًّا و كيفًا من الممكنات.

فهذه الأحوال الثّلاثة من المجزات و الكرامات الّتي توجد لطبقات الأنبياء عليهم السلام، وقد يوجد بعضها لغير النّبيّ و قد لا يوجد بعضها للنّبيّ، إلاّ أنّ النّبيّ بما هو نبيٌّ أو وليٌّ لاينفكّ عن الخاصّية الأخيرة، أعني العلم بالله و آياته وكلماته و باليوم الآخر بطريق الإلهام من الله بتوسّط الملك، و هذا بالحقيقة تكليم من قبل الله له بالعلوم و الآيات و استماع له منه إيّاها و إن لم يرالمتكلّم معاينة.

وهذا معنى ما رُوي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: إنّ في أُمّتي مكلّمين محدَّثين، و لكن هذا التّكليم و التّحديث على ضربين: ضرب لا يتعدّى من نشأة العلم و العقل، و لاينزل إلى معدن التّخيّل و التّمثّل الحسّيّ و هو الأكثر، و ضرب يكون معه سماع حسّيّ باطنيّ، أو في الخارج بأن يتعدّى صورة الكلام من الحسّ المشترك إلى الصّماخ ثمّ إلى الهواء الرّاكد فيه فيزعم أنّه سمع من الخارج.

و لنرجع إلى المتن، فقوله عليه السلام: «النّبيّ الّذي يرى في المنام و يسمع الصّوت و لا يعاين الملك»، أراد بالرُّؤية الرّؤية العقليّة العلميّة، و بالسّماع أيضًا السّمع العقليّ، و بالمنام النّشأة الباطنة، و بالصّوت الكلام العقليّ، و ذلك لأجل التّفهيم و التّعليم، فإنّ أكثر النّاس يعجزون عن إدراك الأُمور العقليّة إلاّ بصفة الأُمور الحسّيّة، و يحتمل أن يكون مراده ما هو الظّاهر من كلامه، فيكون النّبيّ يرى في منامه صورة ما ألهمه الله تعالى من العلوم و المعاني

في كسوة الألفاظ و الأصوات و الحروف و يسمعها، فحينئذ لا يكون هذه الخاصّية من الخواصّ الشّاملة للجميع، و قوله: «لا يعاين الملك» أي في اليقظه.

و قوله: «وَ الرَّسُول الّذي يَسْمَع الصَّوت و يَرىٰ فيالمَنام و َ يُعَايِنُ الْمَلَك» أي في اليقظة، و إذا عاين الملك في اليقظة فكان سماع الصّوت و الكلام منه أيضًا في اليقظة، و وقوع ذلك ليس من جهة أسباب خارجيّة طبيعيّة بل هو بروز من مكامن الغيب إلى عالم الشّهادة، فإنّ الّذي يرى بعين الخيال إذا قوى واشتدّ تمثّله انفعل منه الحسّ الظّاهر و تعدّى إلى الخارج من غير أن يكون في مادّة طبيعيّة، و كذا ما يسمع بسمع الباطن إذا قوى ينفعل منه الأُذن و يتعدّى صورته إلى الكلام الظّاهر كمامرّ.

و هاهنا مرتبة أُخرى و هي أن يسمع الكلام في اليقظه و لا يعاين المتكلّم، و هذه كلّها منشؤها قوّة التّخيّل و الحسّ الباطن، و هي من خواصّ الرّسل عليهم السلام بشرط أن يكون من قبل الله، و يكون وحيًا بالعلوم الحقّة و بما فيه مصالح العباد في المعاش و المعاد، و إلاّ فالكهنة والرّهابين و بعض كفرة الهند قد تلقى إليهم بالمغيّبات و يسمعون الكلام يوحي إليهم الشّياطين زخرف القول غرورًا.

و قوله عليه السلام في باب الإمام: «يَسْمَع الصَّوت وَلاَيَرىٰ وَ لاَيُعايِن المَلَك»، أراد بسماع الصّوت قبول الإلهامات والتّعليمات من الله بسمع عقليّ من غير رؤية شيءٍ في المنام و لامعاينة ملك في اليقظة، و ليس كلام الله و حديثه بالحقيقة إلاّ إعلام الحقائق و إلهام الحقّ والصّدق، لتنزّهه عن الألفاظ المسموعة و الأصوات المحسوسة، ثمّ تلا الآية و كان في مصحفهم عليهم السلام هكذا بزيادة «ولا محدَّث».

الحديث الثّاني

عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن إسماعيل بن مرار قال: كتب الحسن بن العبّاس المعروفيّ... [و ذكر كما تقدّم عن الكُلينيّ الرّقم ١٤، ثمّ قال:]

الشّرح

قوله: «الرّسول الّذي ينزل عليه جبرئيل» و هو المسمّى بروح القُدُس، و المعلّم

شديد القُوى، و المؤيّد بإلقاء الوحي إلى الأنبياء و إلهام الحقّ للأولياء و الرُّؤيا الصّادقة للأتقياء، و هو الرّوح الأمين، و الرّسول الكريم، المعدود خصاله، العميم نواله في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ اَمِينٍ﴾ [1] و هو جبرئيل على لغة السُّريانيّين، معناه عبدالله، لأنّ «إيل» أو «إل» بلغتهم الاله، و هو جوهر روحانيّ عقليّ كما دلّ عليه بعض هذه النّعوت ككونه عند ذي‌العرش مكين، فإنّ ذي‌العرش هوالباري جلّ ذكره، وهو منزّه عن المكان و الجسميّة فكذا من عنده، و ككونه مطاعًا في عالم الملكوت.

و أيضًا البرهان قائم على أنّ معلّم العلوم ـ و هي صورة العقليّة ـ لابدّ أن يكون عقلاً بالفعل، لكونه مُخرج النّفوس من القوّة إلى الفعل في باب العقل و المعقول، و مفيد العقل أولى بأن يكون عقلاً بالفعل و معقولاً و عاقلاً بالفعل، و معنى نزوله على الرّسول تمثّله بصورة البشر كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [2]. أي في أكمل صورة و أجملها، و كذا معنى نزول الوحي عليه كما في قوله عليه السلام: «و ينزل عليه الوحي، بمثل العلوم المُلقاة عليه بصورة الحروف و الألفاظ المسموعة وهي كلام الله».

واعلم أنّ كثيرًا من أهل العلوم والمنتسبين إلى الحكمة من الحكماء الإسلاميّين زعموا أنّ هذه الصّور المرئيّة والمُثُل المسموعة أُمور مرتسمة في لوح الحسّ المشترك ـ الّذي هو أيضًا عندهم قوّة قائمة في‌الجزء المقدّم للدّماغ أو في الرّوح البخاريّ المصبوب في ذلك الجزء ـ ارتساماً كارتسام الأعراض في موضوعاتها، أويكون المرتسم من صورة الجوهر عندهم عرضًا خارجيًّا جوهرًا ذهنيًّا.

وهذا كلّه لقصور المعرفة بعالم الملكوت و ضعف الإيمان بالملائكة و صورة الوحي والكتاب، فإنّ هذه الأُمور موجودات عينيّة قائمة بذواتها لا في محلّ و هي‌أقوى في‌الموجوديّة من هذه الأكوان الخارجيّة، إلاّ أن نشأة وجوداتها نشأة أُخرىٰ و عالمها عالم آخر و لا يمكن إدراكها بهذه الحواسّ الدّاثرة.

وقوّة الخيال منّا أيضًا بحسّها المشترك، فهي قوّة قائمة بذاتها و بذات مبدئها العقليّ،

١ ـ التّكوير ١٩/ ـ ٢١.
٢ ـ مريم / ١٧.

و ليست متعلّقة بالدّماغ تعلّق الحلول و لا الصّور الخياليّة، بل الحسّيّة مرتسمة في لوح الرّوح الدّماغي، بل ذلك كالمرآة مظهر من مظاهرها، و نحن قدبيّنّا جميع ذلك بالبراهين والشّواهد.

وقوله عليه السلام: «**و ربّما رأى في منامه نحو رُؤيا إبراهيم عليه السلام**» أي لا ينافي الرّسالة الرُّؤية في المنام كما وقع لإبراهيم عليه السلام، و كان رسولاً و كلّ رسول نبيّ دون العكس.

وقوله: «**والنّبيّ ربّما سمع الكلام**» أي سماعًا عقليًّا[١] دون أن يرى الشّخص المتكلّم رُؤية حسّيّة كما هو حال الإمام، و ربّما رأى الشّخص رؤية حسّيّة باطنيّة و لم يسمع أي الكلام منه، فيكون الرُّؤية الحسّيّة من جهة كونه رسولاً أيضًا، إذ النّبيّ أعمّ و أكثر أفرادًا من الرّسول.

وقوله: «**والإمام هُو الّذي يَسْمَعُ الْكَلامَ و لا يَرىٰ الشَّخْص**» أي يسمع كلام الله بواسطة الرّوح القدسيّ سماعًا في اليقظة لكن لا بصورة الألفاظ، و لا يرى الواسطة متمثّلاً شخصيًّا لا في اليقظة و لا في النّوم أيضًا كمادلّ عليه الحديث الآتي.

الحديث الثّالث

محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحْوَل قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرّسول والنّبيّ والمحدَّث... **[و ذكر كما تقدّم مثله عن الصّفّار الرّقم ١٠ ثمّ قال:]**

الشّرح:

قد علمت أنّ الرّسول بما هو رسول هو الّذي قويت قوّته النّفسانيّة الخياليّة فتمثّل له الصّور العقليّة و مبدؤها المفيض عليه بصور حسّيّة، فيسمع كلامًا و يرى متكلّمًا بسمعه و بصره الحسّيّين الباطنيّين، فالكلام كلام الله والمتكلّم هو ملك مقرّب رسول واسطة بين الله و عبده، فالملك رسول من الله إلى الرّسول، والرّسول رسول منه إلى الخلق.

---

١ ـ يعني أنّ الرُّؤية الحسّيّة غير معتبرة في النّبوّة بما هي نبوّة و هكذا في الإمامة، و ليس المراد أنّ الرُّؤية الحسّيّة منافية للنّبوّة أو الإمامة، فافهم «نوريّ».

لأنّا قد ذكرنا فيما سبق أنّ القلب المعنويّ من الإنسان ـ و هو نفسه ـ له و جهان: وجه إلى عالم الغيب و هو مدخل الإلهام و الوحي، و وجه إلى عالم الحسّ و الشّهادة، و الّذي يظهر منه في الوجه الّذي يلي جانب الشّهادة و من أبوابها الحسّيّة لا يكون إلاّصور متخيّلة، لأنّ عالم الشّهادة كلّها متخيّلات و همّيات، لأنّ الخيال كمامرّ تارةً يحصل من النّظر إلى ظاهر عالم الشّهادة بالإحساس، فيجوز أن لا يكون الصّورة على وفق المعنى، حتّى يرى شخص جميل الصّورة خبيث الباطن قبيح السّرّ، لأنّ عالم الشّهادة كثيرالتّلبيس.

أمّا الصّورة الّتي تحصل في الخيال من النّظر إلى عالم الغيب و من إشراق عالم الملكوت العِلويّ على باطن سرّ القلب فلا يكون إلاّ محاكيًا للأُمور الإلهيّة و ما ينبعث من جهة القدس و يكون الصّورة موافقه للمعنى، لأنّ الصّورة في عالم الملكوت تابعة للمعنى والصّفة، فلاجرم يرى المعنى الحسن كالمَلَك في صورة جميلة حسنة و يرى المعنى القبيح كالشّيطان في صورة قبيحة كالحيّة و الكلب و الخنزير، ويكون تلك الصّور عنوان المعاني، و لذلك يدلّ القرد و الخنزير فيالمنام على إنسان خبيث الباطن، و يدلّ الشّاة على إنسان سليم الجانب و هكذا جميع أبواب التّعبير و التّأويل، و هاهنا أسرار عجيبة تضيق المقام عن كشفها و الإفهام عن وصفها: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ * اَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.[1]

فقوله: «يأتيه جبرئيل قُبُلاً» أي معاينة مشاهدة، فيراه و يكلّمه و هو عليه السلام يسمع كلامه بسمعه الحسّيّ، فإنّ المعرفة العقليّة إذا قويت أو اشتدّت تصوّرت بصورة مطابقة لها، و ربّما تعدّت من معدن الخيال إلى مظهر خارجيّ كالهواء الصّافي فيكون الهواء كالمرآة.

وقوله: «و أمّا النّبيّ فهو الّذي يرى في منامه» هذا ممّا يقع النّبيّ ولكن ليس من الخواصّ الشّاملة الّتي لايتحقّق النّبوّة إلاّ به، حتّى لوفرض أنّ أحدًا كان عالمًا بالعلوم الإلهيّة و الأسرار الرّبانيّة بحيث لم يكن أحد مثله و كان أعلم الخلائق ولكن لم يتّفق أن يرى في المنام فمثله لا يكون نبيًّا و يكون تابعًا، سيّما و قد يجيء في بعض أحاديث هذا الكتاب: أنّ النّاس فيما قدم من الزّمان لم يكن لهم رُؤيا في مناماتهم.

---

١ ـ ص ٦٧ و ٦٨.

وقوله: **«وكان محمّد ﷺ حين جمع له النّبوّة»** إلى قوله: «قُبُلاً»، خبر، كذلك قوله: «يجيؤه بها جبرئيل عليه السلام» إلى آخره، يعني أنّه ﷺ اتّصفت ذاته بصفة النّبوّة، و جاءته الرّسالة من عند الله باطنًا و سرًّا[١] قبل أن يتّصف بصفةالرّسالة و ينزل عليه جبرئيل معاينًا محسوسًا بالكلام المنزل المسموع من عندالله عزّوجَلّ، و إنّما جاءه جبرئيل منه تعالى بالرّسالة حين جمع له من أسباب النّبوّة ما جمع للأنبياء الكاملين كإبراهيم عليه السلام من الرُّؤيا الصّادقه و الإعلامات المتتالية بحقائق العلوم و الإيحاءات بالمغيّبات.

والحاصل أنّه ﷺ استكمل باطنه و سرّه قبل أن يتعدّى صفة الباطن منه إلى الظّاهر، و اتّصف القالب بصفة القلب محاكيًا له، والأوّل نهاية السّفر إلى الله و الثّاني نهاية السّفر من الحقّ بالحقّ إلى الخلق.

و قوله: **«و من الأنبياء من جمع له النّبوّة و يرى في منامه و يأتيه الرّوح و يكلّمه و يحدّثه من غير أن يرى في اليقظة»** هذا الجارّ الأخير متعلّق بمجموع «ويأتيه الرّوح و يكلّمه و يحدّثه من غير أن يرى»، و المراد بهذا التّكليم و التّحديث ما يكون في باطن السّرّ و العقل كلامًا عقليًّا و حديثًا روحانيًّا، و لهذا عبّر عن جبرئيل بالرّوح و هو روح القُدُس، لأنّه في ذاته جوهر قدسيّ مالم ينزل عن سماء تجرّده و قربه، فإذا نزل عن مقام قربه تمثّل و تصوّر بصورة تناسب المنزل عليه، و أيضًا لم يعبّر عن إتيانه بالنّزول بل قال: «و يأتية الرّوح».

فعلم أنّ التّكليم و التّحديث ليسا إلاّ مجرّد إعلام الحقّ و إلهام الصّدق، و هذا بعينه حال المحدّثين أيضًا كما في قوله ﷺ «إنّ في أُمّتي مكلّمين محدّثين»، والأوّل ـ و هو قوله: «جمع له النّبوّة فيرى في منامه» ـ حال الأنبياء، و كذا قوله: «و أمّا المحدَّث فهو الّذي يحدّث فيسمع و لا يعاين و لا يرى في منامه»، أراد بالتّحديث التّعليم الباطنيّ، و بالسّماع السّماع العقليّ.

---

١ ـ حاصله: أنّ رسولنا ﷺ كان رسولاً في الأزمنة السّالفة سرًّا، و كان سائر الأنبياء كلٌ في زمانه رسولاً جهرًا، و محصّله: أنّهم عليهم السلام كانوا حقيقة مظاهر رسالته و هو الرّسل المطلق وله الرّسالة المطلقة؛ و هو من الغوامض المستغرقة في الغموض و الدّقّة «نوريّ».

فاعلم أنّ هذه الأحوال السّنيّة ـ ما خلا الرّسالة و رؤية جبرئيل عيانًا و سماع الكلام منه صريحًا ـ ممّا يقع فيه الاشتراك بين الأنبياء و الرّسل و المحدّثين من هذه الأُمّة، بل ما خلا الأرض عن النّبوّة الباطنيّة إلاّ نبوّة التّشريع و إطلاق الاسم، و ما انقطعت الرّسالة و الوحي إلاّ من وجه خاصّ و بقيت الإنذارات والمبشّرات.

قال بعض العرفاء ممّن لا يجازف في الكلام في الباب الخامس و الخمسين والمائة من كتابه: إنّ النّبوّة و الرّسالة قد انقطعت كما قاله رسول الله ﷺ، و ما انقطعت إلاّ من وجه خاصّ انقطع منها مسمّي النّبيّ والرّسول، فهذا قال: «فلارسول بعدي ولانبيّ» ثمّ أبقى منها المبشّرات و أبقى منها حُكم المجتهدين و أزال عنهم الاسم و بقي الحُكم، و أمر من لاعلم له بالحُكم الالهيّ أن يسأل أهل الذّكر، فيفتونه بما أدّى إليه اجتهادهم، و إن اختلفوا كما اختلف الشّرايع قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجًا﴾ [١].

وكذلك كلّ مجتهد جعل له شِرْعة من دليله و منهاجًا، و هو ماعيّن دليله فيإثبات الحكم و يحرم عليه العدول عنه، وقرّراالشّرع الإلهيّ ذلك كلّه.

وقال: فالنّبوّة و الرّسالة من حيث عينها و حكمها و ما نسخت، و إنّما انقطع الوحي الخاصّ بالرّسول و النّبيّ من نزول الملك على أُذنه و قلبه و تحجير اسم النّبيّ و الرّسول، فلايقال في المجتهد: إنّه نبيّ و لا رسول، كما حجّر الاجتهاد الأنبياء فيما تشرّعه، و هذا اللّفظ خاصّ بالأنبياء و الرّسل.

ثمّ قال: و أمّا الأولياء فلهم في هذه النّبوّة مشرب عظيم كما ذكرنا، و لا سيّما و النّبيّ قد قال فيمن حفظ القرآن: «إنّ النّبوّة قد أدرجت بين جنبيه»، فإنّها له غيب و هي للنّبيّ شهادة، فهذا هو الفرقان بين النّبيّ و الوليّ في النّبوّة، فيقال فيه: نبيّ، و يقال في الوليّ: وارث، و الوارثة نعت إلهيّ فإنّه قال عن نفسه إنّه: ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [٢].

فالوليّ لا يأخذ النّبوّة من النّبيّ إلاّ بعد أن يرثها الحقّ منهم ثمّ يلقيها إلى الوليّ إلى آخر هذا الكلام، و قد نقلنا الشّمّة فيما سبق من كلامنا في شرح الكتاب الاوّل.

---

١ ـ المائدة /٤٨.
٢ ـ الأنبياء / ٨٩.

الحديث الرّابع

عليّ بن محمّد [١] و محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن عليّ بن حَسّان، عن ابن فَضّال، عن عليّ بن يعقوب الهاشميّ... **[و ذكر كما تقدّم عن الكُلينيّ الرّقم ١٦ ثمّ قال:]**

الشّرح:

أمّا شرح معنى «النّبيّ و الرّسول والمحدَّث» فقد مضى بما يسمع الوقت كشفه، و هذه علوم كشفيّة و ذوقيّه ظفر بها علماء الآخرة، و حرّم ذلك على علماء الدّنيا الرّاغبين في جاهها و مالها، ولايكاد نظر من لاذوق له وإن كان معدودًا من أهل الذّكاء و الفطنة أن يصل إليها،إذالعلم بها كالعلم بكيفيّة حلاوةالسّكّر لايحصل بالوصف ممّن ذاقة لمن لم يذقه.

وممّا ينبئك عن شرف علوم أهل المعرفة و علما الآخرة أنّ العلوم كلّها لا يتعذّر تحصيلها مع محبّة الدّنيا و الإخلال بحقائق الإخلاص و التّقوى، بل ربّما كان محبّة الدّنيا عونًا على تحصيلها و اكتسابها، لاطّلاع الجمهور على نتائجها و ثمراتها الّتي بها مصالح الخلق ونظام معيشتها الدّنيويّة، فيتحمّلون المشاقّ وسهر اللّيل والصّبر على الغربة و الأسفار لطلب‌الحديث والأسنادالعالية، لاستشعار هم‌حصول‌الجاه والرّفعة بحصول‌العلم.

وأمّا علوم هؤلاء القوم فلايحصل مع محبّة الدّنيا و لا ينكشف إلاّ بمجانبة الهوى و التّوحّش عن صحبة أبناء الزّمان و عاداتهم الرّديئة و أخلاقهم السّيئة و ملازمة التّقوى، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [٢] جعل العلم ميراث التّقوى، و غير علوم هؤلاء ميسّر من غير ذلك بلاشكّ، فعلم من ذلك فضل علوم علماء الآخرة على علوم غيرهم.

و أمّا قول القائل: كيف يعلم أنّ الّذي رأى في النّوم حقّ و أنّه من الملك؟ فهذا ممّا ذكره الصّوفية في كتبهم و بحثوا عن التّميّز بين الخواطر و المنامات، و الفرق بين ماهو من قبل الله و الملك و بين ما هو من قبل الشّيطان و النّفس. و ما أجاب عليه‌السلام بقوله: «يوفّق لذلك حتّى يعرفه» إشارة إلى أنّ من له أهليّة أن يرى الملك في المنام كان له من التّوفيق الإلهيّ والهداية الرّبّانيّة أن يعرف به التّميّز بين إلهام الملك و وسوسة الشّيطان لأنّه كان على بيّنة من ربّه، هذا الّذي ذكره عليه‌السلام أصل الكلام في هذا المقام.

---

١ ـ أحمد بن محمّد (الكافي).

٢ ـ البقرة / ٢٨٢.

لكنّ العرفاء و أصحاب الرّياضات و المكاشفات بعد ما بيّنو أقسام المكاشفة و المشاهدة قد قرّروا للفرق بين الخواطر علامات و شواهد يعرفون بها صحّة مناماتهم و مكاشفاتهم.

قالوا أوّلاً في مراتب الكشف و أنواعها على الإجمال: إنّ الكشف منه معنويّ و منه صوريّ، و عيّنوا بالصّوريّ ما يحصل في عالم المثال من طريق الحواسّ الخمس، و ذلك إمّا على طريق المشاهدة ـ كرُؤية المكاشف صور الأرواح المتجسّدة و الأنوار الرّوحانيّة ـ و إمّا على طريق السّماع، كسماع النّبيّ صلّى الله عليه و آله الوحي النّازل عليه كلامًا منظومًا أومثل صَلصَلة الجرس و دَوِيّ النّحل كما جاء في الرّواية، فإنّه صلّى الله عليه و آله كان يسمع ذلك و يفهم المراد منه، أو على سبيل الاستنشاق و هو التّنسّم بالنّفحات الإلهيّة و التّنشّق بالرّوائح الرّبوبيّة، حيث روي أنّه قال: «إنّ لله في أيّام دهركم نفحات، ألافتعرّضوالها»، و قال: «إنّي لأجد نفس الرّحمان من قبل اليمن».

أو على سبيل الملامسة، و هي بالاتّصال بين النّورين و أو بين الجسدين المثالين[1]، كما روى ابن عبّاس[2] أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و آله: «رأيت ربّي في أحسن صورة فقال: فيم يختصم الملأالأعلى يا محمّد؟ قلت: أنت أعلم أي ربّي مرّتين، قال: فوضع الله كفّه[3] بين كتفي فوجدت بردهابين ثَديي فعلمت ما في السّموات و الأرض، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَ كَذٰلِكَ نُرِیَ اِبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَ الْاَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.[4]

أو على طريق الذّوق، كمن يشاهد أنواعًا من الأطعمة فإذا ذاق منها و أكل اطّلع على معان غيبيّة، قال النّبيّ صلّى الله عليه و آله «رأيت أنّي أشرب اللّبن حتّى خرج الرِّيّ[5] من أظفاري، فأوّلت

---

١ ـ المثاليّين «شرح الفصوص». ٢ ـ عبدالرّحمان بن عايش «الشّرح».

٣ ـ لعلّ موضع الكفّ في هذا المقام هو الإشارة إلى أنّ اختصام الملأالأعلى إنّما هو فيه إذا الملأالأعلى منهم جماليّ ومنهم جلاليّ، و أمّا الجماليّون فهو الموكّلون القائمون بالأمر التّشبيهيّ، و أمّا الجلاليّون فهو الموكّلون القائمون بالأمر التّنزيهيّ، فوضع الكفّ بين الكتفين هو الإشارة إلى كون الكمال في باب المعرفة و تمامها هو القيام بالأمر بين الأمرين بأن يحصل التّنزيه في عين التّشبيه و التّشبيه في عين التّنزيه كما هو مقتضى المشرب الجامع، أعني مشرب جامع الجوامع كما قال صلّى الله عليه و آله: «أُوتيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ» «نوريّ».

٤ ـ الأنعام / ٧٥.

٥ ـ الرِّيّ: الخصب، و أصله رَوْيٌ فقلبوا الياء و اوًا، الرَّوىٰ: الماء الغزير، الرِّيّ: اسم من ارتوىٰ الشّجر.

ذلك بالعلم».

و أنواع الكشف الصّوريّ إمّا أن يتعلّق بالحوادث الدّنيويّة أم لا، فإن كانت متعلّقة بها تسمّى رهبانيّة، و أهل السّلوك ـ لعدم وقوف هممهم العالية في الأُمور الدّنيويّة ـ يلتفتون إلى هذه القسم من الكشف لصرفها في الأُمور الأُخرويّة و أحوالها، و يعدّونه من قبيل الاستدراج [1] و المكر بالعبد، بل كثير منهم لا يلتفتون إلى القسم الأُخرويّ أيضًا، وهم الّذين **جعلوا غايه مقصدهم الفناء في الله والبقاء بالله وإن لم يكن متعلّقة بها فهي مطلوبة معتبرة.**

وهذه المكاشفات قلّ ما تقع مجرّدة عن الاطّلاع بالمعاني الغيبيّة، بل أكثرها يتضمّن المكاشفات المعنويّة و يكون أعلى مرتبة و أكثر يقينًا لجمعها بين الصّورة و المعنى، و منبع هذه المكاشفات هو القلب الإنسانيّ [2] بذاته و عقله المنوّر العمليّ المستعمل لحواسّه الرّوحانيّة، فإنّ للقلب عينًا و سمعًا و غير ذلك من الحواسّ؛ و في الأحاديث المشهورة ما يؤيّد ذلك كثيرة وتلك الحواسّ الرّوحانيّة أصل هذه [3] الحواسّ الجسمانيّة، فإذا ارتفع الحجاب بينها و بين الخارجيّة يتّحد الأصل مع الفرع و يشاهد بهذه الحواسّ ما يشاهد بها، و الرّوح يشاهد جميع ذلك بذاته، لأنّ الحقائق تتّحد في مرتبته، كمامرّ أنّ الحقائق كلّها في العقل الأوّل متّحدة.

و أمّا الكشف المعنويّ المجرّد من صور الحقائق الحاصل من تجلّيات اسم العليم و الحكيم ـ و هو ظهور المعاني العقليّة و الحقائق الغيبيّة ـ فله أيضًا مراتب: ظهور [4] المعاني في القوّة المفكّرة من غير استعمال المقدّمات و تركيب القياسات بل بأن ينتقل الذّهن من المطالب إلى مباديها و يسمّى بالحدس.

ثمّ في القوّة العاقلة المستعملة للمفكّرة و يسمىّ بالنّور القدسيّ، و الحدس من لوامع أنواره فهى أدنى مراتب الكشف المعنويّ، ثمّ في مرتبة القلب و يسمىّ بالإلهام إن كان

---

١ ـ الاستدراج: هو إظهار الآيات و خوارق العادات على يدالسّالك مع سوء الأدب و مخالفة آداب الطّريقة، و لعلّه أدخلها في المعجزة و نحوها مجازًا «نوريّ».

٢ ـ والمراد من العقلها هنا هو القلب الّذي هو ملهم بالمعاني و يكشف له الحقائق و الأرواح، كما سنشير إليه بعيد هذا «نوريّ».

٣ ـ اتّصل بهذه «الشّرح».

٤ ـ أوّلها ظهور «الشّرح».

المكشوف معنى من المعاني[١] و إن كان حقيقة من الحقائق أو روحًا من الأرواح يسمّى مشاهدة قلبيّة [٢] ثمّ في مرتبة الرّوح فيسمّى بالشّهود الرّوحيّ، فهو بذاته أخذ من الله العليم و يفيض على ماتحته من القلب و قوّة الرّوحانيّة و الجسمانيّة، ثمّ في مرتبة السّرّ ثمّ في مرتبة الخفيّ بحسب[٣] مقاميهما[٤] و لا يمكن إليه الإشارة و لا يقدر على إعرابهما[٥] العبارة.

فهذا خلاصة ما ذكره بعض الشّارحين لكتبهم مثل فصوص الحكم و غيره.

و قالوا أيضًا في الفرق بين الإلهام و الوحي: إنّ الإلهام قد يحصل من الحقّ تعالى من غير واسطة الملك، والوحي يحصل بواسطته، و لذلك لا يسمّى الأحاديث القدسيّة بالوحي و القرآن و إن كانت كلامًا[٦] و أيضًا قد مرّ أنّ الوحي قد يحصل بشهود الملك و سماع كلامه فهو من كشف الصّوريّ المتضمّن للكشف المعنويّ، و الإلهام من المعنويّ فقط، و أيضًا الوحي من خواصّ الرّسالة و متعلّق بالظّواهر[٧] والإلهام من خواصّ الولاية، و أيضًا هو مشروط بالتّبليغ كما قال: ﴿يَاءَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ اِلَيْكَ...﴾[٨]، دون الإلهام.

و أمّا معرفة الخواطر و تفصيلها و التّميز بين أقسامها فقد تعرّضوالها و بسطوا القول فيها في كتبهم، ورووا عن رسول الله ﷺ أنّه قال: للشّيطان لَمَّة بابن آدم و للملك لَمَّة، و أمّالَمَّة الشّيطان فإيعاد بالشّرّ و تكذيب بالحقّ، و أمّالَمَّة الملك فإيعاد بالخير و تصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله و ليحمدالله، [٩] و من وجد الأُخرى فليتعوّذ بالله

---

١ ـ والفرق بين المعنى و الحقيقة كالفرق بين العرض و الجوهر، و بعباره أُخرى: كالفرق بين الماهيّة والوجود، والفرق بين القلب و الرّوح كالفرق بين الفرقان و القرآن و كالكتاب والحكمة، و محصّله و مرجعه هوالتّفصيل و الإجمال، والرّوح مظهر الاسم، و الاسم مظهر الذّات كما يوميء إليه السّرّ الخفيّ بوجه خفيّ «نوريّ»

٢ ـ إن كان الظّاهر معنى من المعاني الغيبيّة لا حقيقة من الحقائق و لا روحًامن الأرواح و إن كان روحًا من الأرواح المجرّدة أوعينًا من الأعيان الثّابتة فيسمّي مشاهدة قلبيّة «الشّرح».

٣ ـ قال الشّيخ العارف المحقّق كمال الدّين عبدالرّزّاق القاسانيّ في كتاب الاصطلاحات في المقامات الثّلاثة: أي السّرّ و الخفيّ و الأخفى: هي مقام قاب قوسين و مقام أو أدنى و مقام البقاء بعد الفناء، قال: المقام الأوّل هو التّرقّي إلى عين الجمع و الحضرة الأحديّة، و هو مقام قاب قوسين ما بقيت الإثنينيّة، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى و نهاية الولاية، و الثّالث السّير بالله عن الله للتّكميل و هو مقام البقاء بعد الفناء و هو الفرق بعد الجمع.

٤ ـ مقاميه «النّسخة البدل في الشّرح».

٥ ـ إعرابها «الشّرح».

٦ ـ كلام الله تعالى «الشّرح».

٧ ـ من خواصّ النّبوّة لتعلّقه بالظّاهر «الشّرح».

٨ ـ المائدة / ٦٧.

٩ ـ فليحمدالله «الإحياء».

من الشّيطان الرّجيم ثمّ قرأ: ﴿اَلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَاْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾.[١]

قالوا: و من الخواطر ما هو رسل الله إلى العبد كما قال بعضهم: إنّ لي قلبًا[٢] إن عصيته عصيت الله، و هذا حال عبد استقام قلبه.

وقد ورد في الخبر: «أنّ الشّيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس[٣] وإذا غفل التقم فحدّثه ومنّاه»، و قد قال سبحانه: ﴿وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٤] فالذّكر للّه من إحدى العلامات الّتي يعرف بها أنّ الخاطر شيطانيّ أم روحانيّ.

و قالوا أيضًا: الفرق بين الواردات يتعلّق بميزان السّالك المكاشف ؛ و هذا قريب ممّا ذكره عليه السلام، و مع ذلك نومىء بشيء يسير ممّا ذكره في التّميز و هو:

أنّ كلّ ما يكون سببًا للخير بحيث يكون مأمون الغائلة في العاقبة و لا يكون سريع الانتقال إلى غيره و يحصل بعد توجّه تامّ إلى الحقّ ولذّة مُرغِّبةً في الطّاعة و العبادة فهو ملكيّ أو روحانيّ، و الّذي بالعكس شيطانيّ أو نفسانيّ، و ما يقال من أنّ[٥] ما يظهر من اليمين أو القدّام أكثره ملكيّ، و ما يظهر من اليسار و الخلف أكثره شيطانيّ ليس من الضّوابط، إذ الشّيطان يأتي من الجهات كلّها كما نطق به القرآن الكريم: ﴿ثُمّ لَا تِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ اَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ اَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لاَ تَجِدُ اَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٦].

و أيضًا كلّ ما يتعلّق بالأُمور الدّنيويّة و الحظوظ النّفسانيّة من الكشوف و المشاهدات الجزئيّة، مثل إحضار الأشياء الغائبة عن المكاشف في الحال، كإحضار الفواكه الصّيفيّة في الشّتاء مثلاً، و الإخبار عن قدوم زيد غدًا و أمثال ذلك ممّا يعدّه العامّة كرامة فهو من الجنّ، و طيّ الزّمان و المكان، و النّفوذ من الجُدران من غير الانثلام و الانشقاق أيضًا من خواصّهم و خواصّ الملائكة الّتي فوقهم، و إن لم يتعلّق بها و تعلّق

---

١ ـ البقرة / ٢٦٨.
٢ ـ قال لي قلب «الإحياء».
٣ ـ تولّى و خنس «الإحياء». الخنّاس: الشّيطان لأنّه يخنس إذا ذكر الله، أي يذهب و يستتر، و في التّفسير له رأس كرأس الحيّة... الحديث، فيقال: خنس يخنس، إذا تأخّر.
٤ ـ الزّخرُف / ٣٦.
٥ ـ و ما يقال: إنّ «الشّرح».
٦ ـ الأعراف / ١٧ هذه العبارات مذكورة في الفصل السّابع في مقدّمة شرح القيصريّ على الفصوص مع أدنى تغيير و توضيح و إسقاط بعض العبارات، و نبذة منها من إحياء العلوم للغزاليّ الّتي استطرد فيها.

بالآخرة، أو كان من قبيل الاطّلاع على الضّمائر و كشف القلوب و الخواطر، أو كشف القبور و مايقع فيها ملكيّ، **و كذا ما يتعلّق بانكشاف العلوم الحقيقيّة، لأنّ الجنّ و الشّياطين لا يقدرون على ذلك.**

و الحقّ أنّ المكاشفات الصّوريّة إن وقعت من غير الكاملين في العلم و اليقين فهي من باب الاستدراج و المكر، و من أسباب الشّقاوة والبعد و الطّرد عن باب الله إلى باب الشّيطان و أمّا ما يكون للمتصرّفين في الوجود[1] و أصحاب المقامات كالإحياء و الإماتة و إخراج المحبوسين في البرازخ من الحبس و قلب الحقائق العنصرية كقلب الماء هواء و بالعكس فذلك رحمانيّ من قبل الله، لأنّ أمثال هذه التّصرّفات من خواصّ المرتبة الإلهيّة القائم بها الكلّ من الرّسل و الأقطاب كخاتم الأنبياء و الرّسل و المهديّ عليهما السلام في آخر الزّمان.

و أمّا قوله عليه السلام: «لقد ختم الله بكتابكم الكتب و ختم بنبيّكم الأنبياء» فوجه ذلك مع مادلّ عليه من الشّواهد السّمعيّة والآيات القرآنيّة: أنّ النّفوس و الغرائز من زمن نزول آدم وابتداء خلق العالم في التّرقّي دائمًا بحسب قابليّاتها و استعداداتها، و الارتقاء من حضيض النّقص إلى ذَروة الكمال، و الارتفاع من مهوى البعد و أرض السّفالة إلى بقاع الرّفعة و سماء القرب من المبدأ المتعال.

و ذلك ببعثة الأنبياء و نزول الملائكة بالكتب و الصُّحُف المنزلة عليهم من ملكوت السّماء لتعليم الأُمم و هدايتهم و تخليصهم عن القيود و التّعلّقات و تكميل نفوسهم بأنوار العلوم و المعارف و الآيات، و كلّما زادوا في الاستعداد و صفت أذهانهم بالتّلطيف و التّأديب استعدّوا و استحقّو لشريعة جديدة و أحكام أُخرى ناسخة لما سبق من الأحكام، و هكذا إلى أن انتهت الشّرائع و الأديان إلى شريعة لاأكمل منها و دين لا أتمّ منه و هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] و بلغت الكتب المنزلة إلى كتاب هو كلام

---

١ ـ السّرّفيه هو أنّ النّفس بما هي نفس، متعلّق با لبدن لا يؤثّر إيجابًا بل يؤثّر إعدادًا، فإنّها تفعل و تؤثّر في البدن و بوصفه، فهي إنّما يكون مبدأ للحركة لا مبدأ للوجود، و التّصرّف بالإيجاد شأن العقل الكلّيّ لا النّفس بما هي نفس، فافهم «نوريّ».

٢ ـ المائدة / ٣.

الله النّازل بالحقّ على قلب عبده كما قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [١] و قال: ﴿نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [٢] أي نزل حقائق القرآن و أنوار الكتاب على قلبك بالحقيقة متجلّية بسرّك و روحك، لاصورة ألفاظ مكتوبة على ألواح أحجار مقروءة كلّ قارىء سُريانيّة أو عِبرانيّة، و كما قال: ﴿وَ بِالْحَقِّ اَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [٣] يعني نزل بالحقيقة لا بالصّورة فقط.

ثمّ أخبر عن حقيقة الكتاب الّذي هو كلام الحقّ بقوله: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٤] إشارة إلى أنّ تعليم القرآن بأن يتجلّى نور الكلام [٥] الّذي هو حقيقة القرآن على قلب من يشاء من عباده.

و من علّمه الرّحمن القرآن [٦] بهذا التّعليم يكون عليه من الله فضلاً عظيمًا، كما قال بعد امتنانه على عباده ببعثة الرّسول و تعليمه إيّاهم الكتاب و الحكمة: ﴿وَ اِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ... * ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٧]

كما قال لحبيبه بعد تعليمه: ﴿وَ عَلَّمك مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. [٨]

فمن ذلك الفضل العظيم في حقّه أن نزّل على قلبه حقيقة القرآن قبل أن نزّل صورةالكتاب و الكلام على سمعه، و صورة المتكلّم و هو الملك على بصره و قال: ﴿وَاَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَ الْاِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [٩] يعني لاتُظنَّنّ يا محمّد أنّ إنزال الكتب الأُخرى على الأنبياء كان كتنزيل القرآن بالحقّ و الحقيقة على قبلك، فيكاشف عند تجلّي أنواره و حقائق أسراره الّتي بيني و بينك في مقام أو أدنى، حيث لا يطّلع عليه ملك مقرّب و لا نبيٌّ مرسلٌ.

---

١ ـ آل عمران / ٣.
٢ ـ البقرة / ٩٧.
٣ ـ الإسراء /١٠٥.
٤ ـ الشّورى / ٥٢.
٥ ـ مرتبة الكلام مرتبة الصّنع والصّنع صفة الصّانع، و مرتبة الكتاب مرتبة المصنوع و المصنوع لا يكون صفة للصّانع، إنّ الله لا يوصف بخلقه فافهم «نوريّ».
٦ ـ فيه قال تعالى: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْاٰنَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فإنّ الإنسان الكامل الختميّ صلّى الله عليه وآله خلق و يخلق بالقرآن و القرآن هو البيان لأنّه بيان كلّ شيء، و في الآيه النّشر على ترتيب اللّفّ فيه سرّ عظيم فتلطّف لئلاّ يفوت عنك سرّ سيرة كريمة ﴿وَ مَا تَرىٰ في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ «نوريّ».
٧ ـ الجُمُعة / ٢ و ٤.
٨ ـ النّساء / ١١٣.
٩ ـ آل عمران / ٣ و ٤.

و إنّما أُنزلت الكتب على الأنبياءﷺ بالصّورة على ظواهرهم مكتوبة في صحائف و ألواح يقرأها كلّ قارىء و يستوي. في هداها الأنبياء و الأُمم لقوله: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ﴾، عمّهم فيه، لأنّ معظم ما في التّوارة الأحكام الظّاهرة، و كنت مخصوصًا بالهداية و أهل بيت نبوّتك عند تجلّي أنوار القرآن على قلبك، فينعكس منه على قلوبهم للقرابة و المناسبة المعنويّة و الصّوريّة دون الصّوريّة فقط كما قال: ﴿وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.[1]

ثمّ قال مؤكّدًا لمعناه و مؤيّدًا لفحواه: ﴿وَ اَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[2] سمّاه الفرقان كما سمّاه القرآن كلّ منهما من جهة أُخرى، فالقرآن للمقام الجمعيّ و العلم الإجماليّ، و هو المسمّى عند الحكماء الإلهيّين بالعقل البسيط، و الفرقان لمقام الفرق و العلم التّفصيليّ المسمّى عندهم بالعقل النّفساني المنبعث من العقل البسيط انبعاث القدر من القضاء و القضاء من العناية، لأنّ العقل القرآنيّ كلّ الأشياء كما مرّت الإشارة إليه.

و أيضًا سُمّي القرآن فرقانًا لحصول الفرق بين تنزيله على قلب الرّسول الأُمّيّ و بين إنزال الكتب على ظاهر الأنبياء أونفوسهم، و كذا الفرق متحقّق بين تعلّمه القرآن و بين تعلّمهم الكتب، فإنّهم كانوا يتدارسون الكتب و النّبيّ ﷺ كان يتخلّق بالقرآن، فإن أفادلهم الحكمة فقد أفادله أن أُوتي جوامع الكلم، و به فُضِّل على سائر الأنبياء و بخمس خصال أُخرى لقوله: «فُضّلتُ على الأنبياء بستّ» وعدّمن جملتها بقوله: «أُوتيت جَوامع الكَلِم»[3] فإن كانت الكتب يتصرّف فيهم، بأن يكون الكتاب مع أحدهم نُورًا من الله يجيء به إلى قومه ليكون هدىً لهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ اَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسىٰ نورًا مِنَ اللهِ وَهُدًى﴾.[4]

فإنّ تصرّف نورالقرآن على قلبه جعله نورًا من الله يجيء به إلى الأُمّة و معه القرآن

---

١ ـ الشّورى / ٥٢.
٢ ـ آل عمران / ٤.
٣ ـ و هو تحليل الغنائم و طهارة الأرض و اتّخاذها مسجداً، و النّصر المعروف و هو الرّعب، و أُوتي جوامع الكلم و أُوتي مفاتيح خزائن الأرض و ختم النّبوّة ـ هذا حاصل ما قال الشّيخ الأكبر الشّيخ محي الدّين فيالباب الثّاني عشر من الفتوحات: «إنّ هذه السّتّ ممّا أوحىٰ به السّموات من قوله تعالى: ﴿وَاَوْحىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ اَمرَهَا﴾، و عيّن أيّاً من هذه هذه من أيّ سماءٍ «نوريّ».
٤ ـ الأنعام / ٩١.

كما قال: قد جائكم من الله نور، و هو محمّد ﷺ و كتاب مبين، و هو القرآن، فشتّان بين نبيّين رسولين: نبيّ يجيء و يكون هو بذاته نورًا[١] و معه كتاب، و نبيّ يجيء و معه نور من الكتاب، و فرق أيضًا بين ما شرف به من إكرام الحقّ و بين ما شرفوا به، فقال تشريفًا لموسى عليه السلام كليمه: ﴿وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾[٢] و قال تشريفًا لحبيبه: ﴿فَاَوْحىٰ اِلىٰ عَبْدِهِ مَا اَوْحىٰ﴾[٣] و قال تشريفًا لأُمّته: ﴿اُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ اَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[٤] فشتّان بين نبيّ تشرّف بكتابة الموعظة له في الألواح و بين نبيّ تشرّف أُمّته بكتابة الإيمان لهم في قلوبهم.

والإيمان عبارة عن العلم بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر، فما أعظم و أشرف قدرهم فضلاً عن قدر نبيّهم! و له الخلافة الكُبرى و مظهريّة الاسم الجامع الإلهيّ و هو اسم الله الجامع لجميع الأسماء الّذي منه الفيض و الاستمداد عليها، و كذاحال مربوبه و مظهره و هو حقيقة المحمّديّة الّتي تَرَب صور العالم و معانيها، فبصورتها الّتي هي مظهر الاسم الظّاهر يَرِب صور العالم و بباطنها يَرِب باطن العالم، لأنّه صاحب الاسم الأعظم و له الرّبوبيّة المطلقة على الأسماء كلّها، و لهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى اَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٥].

و رُوي أنّه قال ﷺ: «خُصِّصت بفاتحة الكتاب»، و هي مصدّرة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فجمع عوالم الأجسام و الأرواح كلّها، و هذه الرّبوبيّة من جهة حقيقته لا من جهة بشريّته، فإنّها من تلك الجهة فهي عبد مربوب محتاج، كمانبّه عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ اَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ اِلَيَّ﴾[٦]، و نبّه بالجهة الأُخرى[٧] بقوله: ﴿وَ مَا رَمَيْتَ اِذْ

١ ـ فالنّور الحقيقيّ القرآنيّ صار في حقّه ﷺ جوهريًّا، و النّور الكتابيّ صار في حقّهم عرضًا و عرضيًّا، و هذا كالفرق بين النّيّرين الشّمس و القمر، و الأنوار التّفصيليّة يقوم بقلبه قيام صدور و بقلبهم قيام عروض «نوريّ».

٢ ـ الأعراف / ١٤٥.

٣ ـ النّجم ـ ١٠، مرتبة أوحى ما أوحى درجة الحكمة الّتي هي نور ينكشف به حقائق الأشياء كما هي، و أثر المواعظ كما قرّر في محلّه إنّما هو عقد القلب على العمل بدين الحقّ و لا يوجب نورالإيمان و لا يلزم منه اليقين بخلاف الحكمة، قال الله تعالى: ﴿اُدْعُ اِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ «نوريّ».

٤ ـ المجادلة / ٢٢.

٥ ـ التّوبة / ٣٣.

٦ ـ الكهف / ١١٠.

رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ رَمىٰ﴾[8]، فأسند رميه إلى الله، و هذا المعنى لا يمكن إلاّ بالقدرة التّامّة و الصّفات الإلهيّة، فله كلّ الأسماء يتصرّف بها في العالم حسب استعدادهم.

و لمّا كانت هذه الحقيقة مشتملة على الجهتين الإلهيّة و العبوديّة لا يصحّ لها ذلك بالإصالة بل بالتّبعية و هي الخلافة، فلها الإحياء و الإمامة و اللّطف و القهر و الرّضا و السّخط وجميع الصّفات، ليتصرّف في العالم و في نفسها و بشريّتها أيضًا لأنّها من العالم، و بكاؤه و ضجره و ضيق صدره لاينافي ما ذكرناه فإنّه بعض مقتضيات ذاته و صفاته.

والحاصل أنّ ربوبيّته و تصرّفه فيالعالم بالصّفات الإلهيّة الّتي له من حيث مرتبته و قربه، و عجزه و مسكنته و جميع مايلزمه من النّقائص الإمكانيّة من حيث بشريّته الحاصلة من التّقيّد و التّنزّل إلى العالم السّفليّ، ليحيط بظاهره خواصّ العالم الجسمانيّ و بباطنه خواصّ العالم الرّوحانيّ فيصير مجمع البحرين[9] و مظهر العالمين، فنزوله أيضًا كماله كما أنّ عروجه إلى مقامه الأصليّ كماله، يعرف ذلك من تنوّر قلبه بالنّور العرفانيّ فهذا ما قصدنا إيراده في هذا المرام و الله وليّ الفضل و الإنعام. **(٤٣٤ ـ ٤٦٢)**.

---

٧ ـ الأُولى في الاستشهاد للجهة الأُخرى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فإنّه صريح في الخلافة الكلّيّة في الرّبوبيّة المطلقة، فتلطّف فافهم إن شاء الله «نوريّ».

٨ ـ الأنفال / ١٧.

٩ ـ **أقول:** و من هنا ينكشف حقيقة حال ما في أسئلة رأس الجالوت لعليّ بن موسى الرّضاعليهما السلام و روحي لهما الفداء، حيث قال: ماالواحد المتكثّر و المتكثّر المتوحّد و الموحّد الموجد و الجاري المنجمد والنّاقص الزّائد؟ و قد صدر عن معدن العصمة و مصدر الحكمةعليه السلام ما صدر في مقام الجواب عن تلك الأسئلة المغامضة، و ساق الكلام عليه السلام في مقام إلى أن قال: «ونصّ به القرآن حيث قال:﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَيَبْغيانِ ※ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، و تعلم قولنا: من كان في سنخ الإنسان... إلى آخره، و هو البرزخ، هو الحضرة الختميّة صلّى الله عليه وآله، فافهم إن شاءالله «نوريّ».

الفصل الثّامن عشر

نصّ العلاّمة المَجلِسيّ (م: ١١١١)[١] في «بحار الأنوار»

[في كيفيّة صدور الوحي و نزول جبرئيل عليه السلام]

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ...﴾ الشّورى/٥١

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي لا يصحّ له. ﴿اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا﴾ أي إلهامًا و قذفًا في القلوب، أو إلقاءً في المنام. ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾، أي يكلّمه من وراء حجاب كما كلّم موسى عليه السلام بخلق الصّوت في الطّور، و كما كلّم نبيّنا صلّى الله عليه و آله في المعراج. و هذا إمّا على سبيل الاستعارة و التّشبيه، فإنّ من يسمع الكلام و لايرى المتكلّم يشبه حاله بحال من يكلّم من وراء حجاب. أو المراد بالحجاب الحجاب المعنويّ من كماله تعالى، و نقص الممكنات، و نوريّته تعالى، و ظلمانيّة غيره،... ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ أي ملكًا ﴿فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فظهر أنّ وحيه تعالى منحصر في أقسام ثلاثه: إمّا بالالهام و الإلقاء في المنام، أو بخلق الصّوت بحيث يسمعه الموحىٰ إليه، أو بإرسال ملك، وعلم الملك أيضًا يكون على هذه الوجوه[٢] والمَلَك الأوّل[٣] لا يكون علمه إلاّ بوجهين منها، و قد يكون بأن يطالع في اللّوح... ﴿اِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ عن أن يدرك بالأبصار، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع الأفعال. ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا﴾، قيل: المراد القرآن، و قيل: جبرئيل، و سيأتي في الأخبار أنّ المراد به روح القدس. فعلى الأخيرين المراد بـ﴿اَوْحَيْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِنْ اَمْرِنَا﴾ أي بأمرنا، أو أنّه من عالم

---

١ ـ و قيل: ١١١٠ هـ.

٢ ـ أي بالإلهام، أو بخلق الصّوت، أو بتوسيط ملك، و إمّا الإلقاء في المنام.

٣ ـ أي الملك الّذي يأخذ عن الله بلاواسطةٍ لايكون عليه إلاّ بالإلهام أو بخلق الصّوت.

الأمر، و قد مرّ تحقيقه و سيأتي. ﴿مَاكُنْتَ تَدْرِى﴾ أي قبل الوحي ﴿مَاالْكِتَابُ وَ لاَ الْاِيمَانُ﴾ قيل: الكتاب: القرآن، والإيمان: الصّلاة، و قيل: المراد أهل الإيمان على حذف المضاف. و قيل: المراد به الشّرائع و معالم الإيمان، و هو عليه السلام لم يكن في حال من الأحوال على غير الإيمان. و استدلّ بهذه الآية على أنّه صلى الله عليه وآله لم يكن قبل النّبوّة متعبّدًا بشـرع، و سـيأتي تحقيقه. ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن أو الرّوح أوالإيمان. **[ثمّ ذكر قول الطَّبرسيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ...﴾[1] كما تقدّم عنه، ثمّ ذكر أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾ كما تقدّم عن القُمّيّ، فقال:] (١٨:٢٤٦ ـ ٢٤٨)**

١ـ أقول: سيأتي في تفسير النُّعمانيّ عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «و أمّا تفسير وحي النّبوّة و الرّسالة فهو قوله تعالى: ﴿اِنَّا اَوْحَيْنَا اِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اِبرَاهِيمَ وَاِسمٰعِيلَ﴾[2] إلى آخر الآية. و أمّا وحي الإلهام فهو قوله عَزَّوجَلَّ: ﴿وَ اَوْحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[3] و مثله ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعيهِ فَاِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ﴾[4]. و أمّا وحي الإشارة فقوله عَزَّوجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ عَلٰى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَاَوْحىٰ اِلَيْهِم اَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا﴾[5] أي أشار إليهم، كقوله تعالى: ﴿اَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ اَيَّامٍ اِلاَّ رَمْزًا﴾[6] و أمّا وحي التّقدير فقوله تعالى: ﴿وَ اَوْحىٰ فِى كُلِّ سَـمَاءٍ اَمْرَهَا﴾[7] و أمّا وحي الأمر فقوله سبحانه: ﴿وَ اِذْ اَوْحَيْتُ اِلَـى الْـحَوَارِيِّـينَ اَنْ اٰمِـنُوا بِـى وَ بِرَسُولِى﴾[8] و أمّا وحي الكذب فقوله عَزَّوجَلَّ: ﴿شَيَاطِينَ الْاِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَـعْضُهُمْ اِلىٰ بَعْضٍ﴾[9] إلى آخر الآية. و أمّا وحي[10] الخبر فقوله سبحانه: ﴿وَ جَعَلْنَاهُمْ اَئِمَّةً يَهْدُونَ بِاَمْرِنَا وَاَوْحَينَا اِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ اِقَامَ الصَّلٰوةِ وَ اِيتَاءَ الزَّكٰوةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[11].

٢ـ اليَقطينيّ عن القَدّاح، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام قـال: «احـتبس الوحـي عـلى

١ ـ النّجم / ٥.
٢ ـ النّساء / ١٦٣.
٣ ـ النّحل / ٦٨.
٤ ـ القصص / ٧.
٥ ـ مريم / ١١.
٦ ـ آل عمران / ٤١.
٧ ـ فصّلت / ١٢.
٨ ـ المائدة / ١١١
٩ ـ الأنعام / ١١٢.
١٠ ـ أي الإخبار بوساطة الأنبيا عليهم السلام.
١١ ـ الانبياء / ٧٣، المحكم و المتشابه: ٢١ و ٢٢.

النّبيّ ﷺ فقيل: احتبس عنك الوحي يا رسول الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: و كيف لا يحتبس عنّي الوحي و أنتم لا تقلّمون أظفاركم و لا تنقّون روائحكم»[1].

بيان: قوله: «روائحكم»، أي الكريهة، و في الكافي[2] و بعض نسخ المنقول منه «رواجبكم» و هو أظهر، و هي مفاصل أُصول الأصابع، أوبواطن مفاصلها، أو هي قصب الأصابع أومفاصلها، أو ظهور السّلاميات[3]، أو ما بين البراجم من السّلاميات، أو المفاصل الّتي تلي الأنامل، ذكرها الفيروزاباديّ. **[ثمّ ذكر رواية عُبَيْد بن زُرارة عن أبيه، و أسئلة الزّنديق المدّعي لتناقض القرآن، كما تقدّم عن الصَّدُوق الرّقم ١ فقال:]**

بيان: لعلّ سؤاله ﷺ عن رؤية الرّبّ تعالى بعد ما علم بالعقل أنّه يمتنع عليه الرُّؤية؛ ليعلم بالوحي أيضًا كما علم بالعقل، و ليخبر النّاس بما أوحي إليه من ذلك.

[ثمّ ذكر قول عليّ بن إبراهيم في تفسير «لوح محفوظ» و روايته نقلاً عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام. و ذكر أيضًا قول ابن شهر اشوب في كيفيّة نزول الوحي، كماتقدّم عنهما، فقال:]

بيان: قال في النّهاية في صفة الوحي: كأنّه صَلصَلة على صَفوان، الصَّلصَلة: صوت الحديد إذا حرّك، و قال: فيفصم عنّى، أي يقلع، و أفصم المطر، إذا أقلع و انكشف، و قال فيه: «كان إذا نزل عليه الوحي تفصّد عرقًا» أي سال عرقه، تشبيهًا في كثرته بالفصاد، و «عرقًا» منصوب على التّمييز، و قال فيه: «إذا أصابه الوحي كرب له» أي أصابه الكرب، «واربَدَّ وجهه»، أي تغيّر إلى الغُبْرة. و قال: البَرْح: الشّدّة، و منه الحديث «فأخذه البُرَحاء» أي شدّةالكرب من ثقل الوحي.

٣ـعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله: **﴿حَتّى اِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا اَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾**[4]، مخفّفة، قال: «ظنّت الرّسل أنّ الشّياطين تمثّل لهم على صورة الملائكة».

٤ـ و عن أبي شُعَيب، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «وَ كّلهم الله إلى أنفسهم أقلّ من طرفة عين».

---

١ ـ قرب الإسناد: ١٣. ٢ ـ فروع الكافي، ٢: ٢١٧.

٣ ـ السّلاميات: جمع السّلامي، كلّ مجوّف من صفار العظام الأصابع، و البراجم: جمع البرحمة، مفاصل الأصابع أو العظام الصّغار في اليد و الرّجل. ٤ ـ يوسف / ١١٠

بيان: لعلّ المراد أنّ الله و كّلهم إلى أنفسهم ليزيد يقينهم بأنّهم معصومون بعصمة الله، فخطر ببالهم أنّ ما وعدوا من عذاب الأُمم لعلّه يكون من الشّياطين، فصرف الله عنهم ذلك و عصمهم و ثبّتهم على اليقين بأنّ ما أُوحي إليهم ليس للشّيطان فيه سبيل....

قال الطَّبرِسيّ: قرأ أهل الكوفة و أبو جعفر: ﴿كُذِبُوا﴾ بالتّخفيف، و هي قراءة عليّ و زين العابدين و محمّد بن عليّ و جعفر بن محمّد و زيد بن عليّ عليهم السلام و ابن عبّاس و ابن مسعود و ابن جُبَير و غيرهم. و قرأالباقون بالتّشديد. قال أبو عليّ: الضّمير في ﴿ظَنُّوا﴾ على قول من شدّد للرّسل، أي تيقّنوا أوحسبو أنّ القوم كذّبوهم. و أمّا من خفّف فالضّمير للمرسل إليهم، أي ظنّ المرسل إليهم أنّ الرّسل كذبوهم فيما أخبروهم به من أنّهم إن لم يؤمنوا أنزل بهم العذاب، و أمّا من زعم أنّ الضّمير راجع إلى الرّسل، أي ظنّ الرّسل أنّ الّذي وعدالله سبحانه أُممهم على لسانهم قد كذّبوا به فقد أتى عظيمًا، لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء ولا إلى صالحي عبادالله، و كذلك من زعم أنّ ابن عبّاس ذهب إلى أنّ الرّسل قد ضعفوا و ظنّوا أنّهم قد أُخلفوا؛ لأنّ الله لا يخلف الميعاد.[1]

٥ـ عن زُرارة، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه و آله فيما يأتيه من قبل الله أيكون ممّا ينزع به الشّيطان؟ قال: فقال: «إنّ الله إذا اتّخذ عبدًا رسولاً أنـزل عليه السّكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عَزَّوجَلَّ مثل الّذي يراه بعينه».[2]

[ثمّ ذكر الرّوايتين عن الكُلينيّ، إحداهما: عن معاوية بن عَمّار عن أبـي عـبدالله عليه السلام، و ثانيتهما: عن ابن بُكَير، عن عمر بن يزيد، عن أبي عبدالله عليه السلام، كما تقدّم عنه، الرّقم ٦ و٧ ثمّ ذكر أيضًا رواية الطّالقانيّ عن أحمد بن إسحاق المادرائيّ... عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام، كما تقدّم عن الصّدوق، الرّقم ٦، فقال:]

أقول: قال في المنتقى: كان النّبيّ صلى الله عليه و آله إذا غشيه الوحي ثقل على جسمه ما غشيه أمرالله.

٦ـ و في الحديث المقبول أنّه صلى الله عليه و آله أوحي إليه و هو على ناقته، فبركت و وضـعت جِرانها[3] بالأرض، فما تستطيع أن تتحرّك ، و إنّ عُثمان كان يكتب للنّبيّ صلى الله عليه و آله ﴿لاَيَسْتَوِى

---

١ ـ مجمع البيان: ٥: ٢٦٩، ٢٧٠.
٢ ـ تفسير العيّاشى (مخطوط).
٣ ـ الجِران من البعير: مقدّم عنقه ،ـ يقال: ألقى البعير جرانه، أي برك.

﴿الْقَاعِدُونَ﴾ الآية، و فَخِذ النّبيّ ﷺ على فَخِذِ عُثمان، فجاء ابن أُمّ مكتوم فقال: يا رسول الله إنّ بي من العُذر ما ترىٰ، فغشيه الوحي، فثقلت فَخِذه، فَخِذ عثمان حتّى قال: خشيت أنّ ترضّها، فأنزل الله سبحانه: ﴿غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ﴾ [1].

٧ـ ورُوِي عن أبي أرْوَى الدَّوسيّ قال: رأيتُ الوحي ينزل على رسول الله ﷺ و أنّه ﷺ على راحلته فترغُو [2]، و تنقّل يديها حتّى أظنّ أنّ ذراعها ينفصم، فربّما بركت، و ربّما قامت مُؤتَدَة [3] يديها حتّى تسري عنه من ثقل الوحي، و إنّه لينحدر منه مثل الجُمان. [4]

(١٨: ٢٥٤ـ٢٦٣)

٨ـ عن ابن أبي عُمير، عن هِشام بن سالم قال: قال أبو عبدالله عليه السلام «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي من الله و بينهما جبرئيل عليه السلام يقول: هو ذا جبرئيل، و قال لي جبرئيل، و إذا أتاه الوحي و ليس بينهما جبرئيل تصيبه تلك السّبتة و يغشاه منه ما يغشاه لثقل الوحي عليه من الله عزّوجَلّ» [5] (١٨: ٢٧١).

[بأيّ صورة كان يأتي جبرئيل النّبيّ ﷺ ؟]

[كان جبرئيل ينزل على رسول الله ﷺ بصورتين: مرّةً لايراه، إذا كان ينزل على قلبه، و مرّةً يراه، إمّا في صورته الأصليّة، و قد حصل هذا مرّتين... و إمّا في صورة «دِحْية بن خليفة الكلبيّ» و كثيرًا ما كان ينزل بهذه الصّورة، و قد رآه بعض الصّحابة ولا سيّما أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ودليل ذلك مانقله العلاّمة المَجلِسيّ في الرّواية التّالية:]

٩ـ لمّا استخلف عثمان بن عفّان آوىٰ إليه عَمَّه الحكم بن العاص و ولده مروان و الحارث بن الحكم، و وجّه عمّاله في الأمصار، و كان فيمن وجّه عمر بن سُفيان بن المغيرة

---

١ ـ النّساء/ ٩٥.

٢ ـ رغا العبيد: صوّت و ضجّ، قوله: تنقل يديها، في المصدر: تفتل يديها أي تلويهما.

٣ ـ من وَتَدرِجله في الأرض أي ثبّتها، قوله: حتّى تَسري في المصدر: حتّى يسري من سرى عنه، أي زال عنه، ما كان يجده من الغضب أوالهمّ. و الجُمان بالضّم: اللّؤلؤ.

٤ ـ المنتقى في مولود المصطفى: الباب الثّاني فيما كان في السّنة الأُولى من نبوّته ﷺ.

٥ ـ المحاسن ـ في العلل ـ ٣٣٨.

بن أبي العاص ابن أُمَيّة إلى مُشكان، و الحارث بن الحكم إلى المدائن، فأقام فيها مـدّة يتعسّف أهلها و يسيء معاملتهم، فوَفَد منهم إلى عثمان وفدٌ شكوا إليه، و أعلموه بسوء ما يعاملهم به، و أغلظوا عليه في القول، فولّىٰ حُذَيْفَة بن اليَمان عليهم و ذلك في آخر أيّامه، فلم ينصرف حُذيفة بن اليَمان من المدائن إلى أن قُتِل عثمان، و استخلف عليّ بن أبـي طالب عليه السلام فأقام حُذَيفة عليها و كتب إليه: «بسم اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ من عـبدالله عـليّ أميرالمؤمنين عليه السلام إلى حُذَيْفة بن اليَمان...».

[فلمّا أخذ حُذَيْفَة البيعة لأميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام من أهل المدائن، قام فتى و سأله عن إمرته عليه السلام، و الّذين كانوا قبله]

فقال حُذَيْفة: أيُّها الرّجل أمّا إذا سألت و فَحَصت هكذا فاسمع وافهم ما أُخبرك به، أمّا من تقدّم من الخلفاء قبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ممّن تسمّى أميرالمؤمنين فإنّهم تسمّوا بذلك فسمّاهم النّاس بذلك، و أمّا عليُّ بن أبي طالب عليه السلام فإنّ جبرئيل عليه السلام سمّاه بهذا الاسم عن الله تعالى، و شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله عن سلام جبرئيل عليه السلام له بإمرة المؤمنين، و كان أصحاب رسول صلى الله عليه وآله يدعونه في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بإمرة المؤمنين. قال الفتى: خَـبِّرنا كيف كان ذلك يرحمك الله؟

قال حُذَيفة: إنّ النّاس كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الحجاب إذا شـاؤا، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدخل أحد إليه و عنده دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ، و كان رسول الله صلى الله عليه وآله يراسل قيصرًا ملك الرّوم و بني حنيفة و ملوك بـني غَسَّـان عـلى يـده، وكـان جبرئيل عليه السلام يهبط على صورته، و لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدخل المسلمون عليه إذا كان عنده دِحْيَة.

قال حُذَيْفه و إنّي أقبلت يومًا لبعض أُموري إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مهجرًا رجاء أن ألقاه خاليًا، فلمّا صرت بالباب، فإذا أنا بالشَّملة قد سُدِلت على البـاب، فـرفعتها و هـممت بالدّخول، و كذلك كنّا نصنع، فإذا أنا بدِحْيَة قاعد عند رسول الله و النّبيّ نائم و رأسه في حِجر دِحْية، فلمّا رأيته انصرفتُ، فلقِيَني عليُّ بن أبي طالب عليه السلام في بعض الطّريق فقال: «يابن اليَمان من أين أقبلت»؟ قلت: من عند رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «و ماذا صنعت عنده»؟

قلت: أردت الدّخول عليه في كذا و كذا، فذكرت الأمر الّذي جئت له فلم يتهيّأ لي ذلك، قال: «ولِمَ؟» قلت: كان عنده دِحْيَة الكلبيّ، و سألت عليًّا عليه السلام معونتي على رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك، قال: «فارجع معي» فرجعت معه.

فلمّا صِرْنا إلى باب الدّار جلست بالباب و رفع عليّ الشّملة و دخله و سلّم، فسمعت دِحْيَة يقول: و عليك السّلام يا أميرالمؤمنين و رحمة الله و بركاته، ثمّ قال: اجلس فخُذ رأس أخيك و ابن عمّك من حِجري فأنت أولى النّاس به، فجلس عليٌّ عليه السلام و أخذ رأس رسول‌الله صلى الله عليه وآله فجعله في حِجره و خرج دِحْيَة من البيت، فقال عليٌّ: «ادخل يا حُذَيْفَة» فدخلت و جلست، فما كان بأسرع أن انتبه رسول الله صلى الله عليه وآله فضحك في وجه عليّ عليه السلام ثم قال: «يا أباالحسن مِن حجر مَن أخذت رأسي»؟ فقال: «من حِجر دِحْيَة الكلبيّ» فقال: «ذلك جبرئيل عليه السلام، فما قلت له حين دخلت؟ و ما قال لك؟» قال: «دخلت فسلّمت فقال لي: و عليك السّلام يا أميرالمؤمنين و رحمة الله و بركاته»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي سَلّمت عليك ملائكة الله و سكّان سماواته بإمرة المؤمنين من قبل أن يسلّم عليك أهل الأرض، يا عليّ إنّ جبرئيل عليه السلام فعل ذلك من أمر الله تعالى، و قد أوحى إليّ عن ربّي عَزّوجَلَّ من قبل دخولك أن أفرض ذلك على النّاس، وأنا فاعل ذلك إنشاء الله تعالى».

فلمّا كان من الغد بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ناحية فدك في حاجة فلبثت أيّامًا، فقدمت فوجدت النّاس يتحدَّثون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر النّاس أن يسلّموا على عليّ عليه السلام بإمرة المؤمنين، و أنّ جبرئيل عليه السلام يسلّم على عليّ عليه السلام بإمرة المؤمنين، و حدَّثتهم الحديث، فسمعني عمر بن الخطّاب و أنا أُحدّث النّاس في‌المسجد، فقال لي: أنت رأيت جبرئيل و سمعته؟ اتّق القول، فقد قلت قولاً عظيمًا أو قد خولط بك، فقلت: نعم، أنا سمعت ذلك و رأيته، فأرغم الله أنف من رغم، فقال يا أبا عبدالله لقد رأيت و سمعت عجبًا... (٢٨:٨٦ ـ ٩١).

١٠ـ من كتاب إسماعيل بن أحمد البُسْتيّ من علماء المخالفين، قال: من أسمائه ما سمّاه جبرئيل بها على ما رواه الخلق عن عليّ عليه السلام قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته و رأسه في حِجر دِحْيَة الكلبيّ، و قائد الغُرّ المحجّلين، و قاتل النّاكثين و

المارقين و القاسطين ـ و قال: إمام المتّقين في بعض الرّوايات ـ ثمّ قال له: تعال فخُذ رأس نبيّك في حِجرك فأنت أحقّ بذلك، فلمّا دنوت من رسول الله ووضعت رأسه في حِجْري لم أرَدِحْيَة، و فتح رسول الله عينه و قال: يا عليّ مَن كنت تكلّم؟ قلت: دِحْـيَة الكـلبيّ، و قصصت عليه القصّة، فقال لي: لم يكن دِحْيَة و إنّما كان ذلك جبرئيل، أتاك ليعرّفك أنّ الله تعالى سمّاك بهذه الأسماء».[1] **(٣٢٢:٣٧)**.

١١ـ محمّد بن أحمد بن الحسن بن شاذان، عن سهل بن عبدالله، عن عليّ بن عبدالله، عن إسحاق بن إبراهيم الدَّيْريّ، عن عبد الرّزّاق بن هِشام، عن مَعْمَر، عن عبدالله بن طاووس، عن أبيه، عن ابن عبّاس قال: كنّا جلوسًا مع النّبيّ ﷺ إذ دخل عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: السّلام عليك يا رسول الله و قال: عليك السّلام يا أميرالمؤمنين و رحمة الله و بركاته، فقال عليّ عليه السلام: و أنت حيٌّ يا رسول الله قال: نعم و أنا حيٌّ يا عليّ، مررت بنا أمس يومنا و أنا و جبرئيل في حديث و لم تسلّم، فقال جبرئيل عليه السلام: ما بال أميرالمؤمنين مرّ بنا و لم يسلّم؟ أما و الله لو سلّم لسررنا ورددنا عليه، فقال عليٌّ عليه السلام: يارسول الله رأيتك و دِحْيَة استخليتما في حديث فكرهت أن أقطع عليكما، فقال له النّبيّ ﷺ: إنّه لم يكن دِحْيَة و إنّما كان جبرئيل عليه السلام، فقلت: يا جبرئيل كيف سمّيته أميرالمؤمنين؟ فقال: كان الله أوحى إليّ في غَزوة بدر أن أهبط على محمّد فآمره أن يأمر أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب أن يجُول بين الصَفَّين، فسمّاه بأميرالمؤمنين في السّماء، فأنت يا عليُّ أميرالمؤمنين في السّماء فأنت يا عليّ أميرالمؤمنين في الأرض...»[2] **(٣٠٧:٣٧)**.

١٢ـ من الكتاب المسمّى «حجّة التّفصيل» تأليف ابن الأثير، عن محمّد بن الحسين الواسطيّ، عن إبراهيم بن سعيد، عن الحسن بن زياد الأنماطيّ، عن محمّد بن عُبَيد الأنصاريّ، عن أبي هارون العبديّ، عن ربيعة السّعديّ قال: كان حُذَيفة واليًا لعثمان على المدائن، فلمّا صار عليّ أميرالمؤمنين كتب لحُذَيفة عهدًا يخبره بما كان من أمره و بيعة النّاس إيّاه، فاستوى حُذَيفة جالسًا و كان عليلاً فقال: قد و الله و لأكم أميرالمؤمنين حقًّا ـ قالها: ثلاثًا ـ فقام إليه شابٌّ من الفُرس متقلّدًا سيفًا فقال: أيُّها الأمير أتأذن في الكلام؟

---

١ ـ كشف اليقين: ٩٦ (ابن المطهّر الحلّيّ).

٢ ـ كشف اليقين ٥٨ ـ ٥٩ (ابن المطهّر الحلّيّ).

قال: نعم، قال: اليوم صار أميرالمؤمنين، أولم يزل أميرالمؤمنين؟ فقال حُذَيْفة: بل لم يزل والله أميرالمؤمنين، قال: و كيف لنا بما تقول؟ قال: بيني و بينكم كتاب الله عَزَّوجَلّ، و إن شئت حدّثتك ذلك لعهد عليّ بينى و بينك، فقال الشّابّ: حدّثنا يا أبا عبدالرّحمان، فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: إذا رأيتم دِحْية الكلبيّ عندي فلا يدخلنّ عليّ أحد و إنّي أتيت رسول الله ﷺ يومًا في‌حاجة فرأيت شَمْلةً مِرخاة[1] على الباب، فرفعت الشَّملة فإذا أنا بدِحْية الكلبيّ، فغمضت عيني فرجعت، قال: فلقيت عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال لي: ياأباعبدالرّحمان من أين أقبلت؟ قلت: أتيت رسول الله ﷺ في حاجة، فلمّا أتيت منزله رأيت شَمْلةً مِرخاة على الباب، فرفعت الشّملة فإذا أنا بدحية الكلبيّ فرجعت، قال لي عليّ عليه السلام: ارجع يا حُذَيفة، فإنّي أرجعو أن يكون هذا اليوم حجّة على هذا الخلق، قال: فرجعت مع عليّ عليه السلام فوقفت على الباب و دخل عليٌّ عليه السلام فقال: السّلام عليكم و رحمةالله و بركاته، و ردّ دِحْيَة فقال: و عليكم السّلام و رحمة الله و بركاته يا أميرالمؤمنين من أنا؟ **قال:** أظنّك دِحْية الكلبيّ قال: أجل خُذ رأس ابن عمّك فأنت أحقّ به منيّ، فما كان بأسرع من أن رفع النّبيّ ﷺ رأسه فقال: يا عليّ مِن حِجْر مَن أخذت رأسي؟ ـ و غاب دِحْيَة ـ **فقال:** أظنّه من حِجر دِحْيَة الكلبيّ، قال: أجل، فأيّ شيءٍ قلت و أيّ شيء قيل لك؟ قال: **قلت:** السّلام عليكم و رحمة الله و بركاته، فردّ عليّ: و عليكم السّلام و رحمة الله و بركاته يا أميرالمؤمنين، فقال النّبيّ ﷺ: طوبى لك يا عليّ سلّمت عليك الملائكة بإمرة المؤمنين من عند ربّ العالمين قال فخرج عليّ عليه السلام فقال: يا حُذَيفة أسمعت قلت: نعم، قال: فكيف سمعت؟ قال: قلت: كالّذي سمعت؛ قال الفارسيّ: فأين كانت أسيافكم ذلك اليوم؟ ـ يعني يوم بيعة أبي بكر ـ قال: ويحك تلك قلوب ضرب عليها بالغفلة، لها ما كسبت و لكم ما كسبتم و لا تسألون عمّا كانوايعملون.[2] **(٣٧: ٣٢٥ ـ ٣٢٦)**

[بعدنقل روايات في‌الفرق بين‌الرّسول والنّبيّ والمحدَّث كماتقدّم عن‌الصّفار والكُلَينيّ،قال:].

بيان: استنباط الفرق بين النّبيّ و الإمام من تلك الأخبار لا يخلومن إشكال و كذا

---

١ ـ الشَّمْلة: كساء واسع يشتمل به، أرخى السّتر: أسْدَلَه. ٢ ـ كشف اليقين: ١٣٧ ـ (ابن المطهّر الحلّيّ).

الجمع بينها مشكل جدًّا، والّذي يظهر من أكثرها هو أنّ الإمام لا يرى الحكم الشّرعيّ في المنام و النّبيّ قديراه فيه، و أمّا الفرق بين الإمام والنّبيّ و بين الرّسول أنّ الرّسول يرى الملك عند إلقاء الحكم، و النّبيّ غير الرّسول و الإمام لا يريانه في تلك الحال و إن رَأياه في سائر الأحوال، و يمكن أن يخصّ الملك الّذي لا يريانه بجبرئيل عليه السلام و يعمّ الأحوال، لكنّ فيه أيضًا منافاة لبعض الأخبار.

و مع قطع النّظر عن الأخبار لعلّ الفرق بين الأئمّة عليهم السلام و غير أُولي العزم من الأنبياء أنّ الأئمّة عليهم السلام نوّاب للرّسول صلى الله عليه وآله لا يبلّغون إلاّ بالنّيابة، و أمّا الأنبياء و إن كانوا تابعين لشريعة غيرهم لكنّهم مبعوثون بالأصالة و إن كانت تلك النّيابة أشرف من تلك الأصالة.

و بالجملة لابدّ لنا من الإذعان بعدم كونهم عليهم السلام أنبياء و بأنّهم أشرف و أفضل من غير نبيّنا صلى الله عليه وآله من الأنبياء و الأوصياء، ولا نعرف جهة لعدم اتّصافهم بالنّبوّة إلاّ رعاية جلالة خاتم الأنبياء. و لا يصل عقولنا إلى فرق بين النّبوّة و الإمامة، و ما دلّت عليه الأخبار فقد عرفته، و الله تعالى يعلم حقائق أحوالهم صلوات الله عليهم أجمعين.

عليّ، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَير، عن الحسين بن أبي العلا قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إنّما الوقوف علينا في الحلال و الحرام فأمّا النّبوّة فلا.

بيان: أي إنّما يجب عليكم أن تقوموا عندنا و تعكفوا على أبوابنا و الكون معنا لاستعلام الحلال لا أن تقولوا بنبوّتنا، و إنّما لكم أن تقفوا علينا في إثبات علم الحلال و الحرام، و أنّا نوّاب الرّسول صلى الله عليه وآله في بيان ذلك لكم، و لا تتجاوزوابنا إلى إثبات النّبوّة. **(٢٦: ٨١ ـ ٨٣).**

أحمد بن محمّد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحول قال: سمعت زُرارَة يسأل أباجعفر عليه السلام... **[و ذكر كما تقدّم عن الصّفّار الرّقم ١٠، ثمّ قال:]**.

بيان: اعلم أنّ العلماء اختلفوا في الفرق بين الرّسول و النّبيّ، فمنهم من قال: لافرق بينهما، و أمّا من قال بالفرق، فمنهم من قال: إنّ الرّسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنّبيّ غير الرّسول من لم ينزل عليه كتابٌ و إنّما يدعوا إلى كتاب من قبله؛ و منهم من قال: إنّ من كان صاحب المعجز و صاحب الكتاب و نسخ شرع من قبله فهو الرّسول، و من لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النّبيّ غير الرّسول، و منهم من قال: إنّ من جاءه الملك ظاهرًا و أمره بدعوة الخلق فهو الرّسول، و من لم يكن كذلك بل رأى

فيالنّوم فهو النّبيّ؛ كذا ذكره الرّازيّ و غيره، و قد ظهرلك من الأخبار فساد ماسوى القول الأخير لما قدورد من عدد المرسلين و الكتب، و كون من نسخ شرعه ليس إلاّ خمسة، فالمعوّل على هذا الخبر المؤيّد بأخبار كثيرة مذكورة فيالكافي. (١١: ٥٤)

الفصل التّاسع عشر

نصّ البُروسَويّ (م: ١١٣٧) في تفسيره: «روح البيان»

[معنى الوحي و كيفيّته و أقسامه]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْمِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَويُرْسِلَ رَسُولاً ...﴾
الشّورى /٥١

أصل الوحي الإشارة السّريعة، و إنّما سمّي الوحي وحيًا لسرعته، فإنّ الوحي عين الفهم عين الإفهام عين المفهوم منه كما يذوقه أهل الإلهام من الأولياء، و قد عرّف بعضهم الوحي بأنّه ما تقع به الإشارة القائمة مقام العبارة في غير عبارة. وقال الرّاغب: يقال للكلمة الإلهيّة الّتي تُلْقى إلى أنبيائه و أوليائه وحي.

يقول الفقير: يعلم منه أنّ الوحي و الإلهام واحد في الحقيقة، و إنّما قيل: الوحي في الأنبياء و الإلهام في الأولياء تأدّبًا، كما قيل: دعوة الأنبياء و إرشاد الأولياء، فاستعملوا الدّعوة في الأنبياء و الإرشاد في الأولياء مع أنّهما أمر واحد، فالوحي إمّا بإلقاء في الرّوع كما ذكر عليه السلام: «إنّ روح القُدُس نفث في روعي»، و إمّا بإلهام نحو قوله: ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعِيهِ﴾ [1]، و إمّا بتسخير نحو قوله تعالى: ﴿وَ اَوْحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحلِ﴾ [2] أو بنومٍ كقوله عليه السلام: «انقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن». فهذه الأنواع دلّ عليها قول: ﴿اِلاَّ وَحْيًا﴾ فمعناه إلاّ بأنّه يوحي إليه و يلهمه و يقذف في قلبه كما أوحى إلى أُمّ موسى و إلى إبراهيم في ذبح ولده و إلى داود الزّبور في صدره، قاله مجاهد.

---

١ ـ القصص / ٧.

٢ ـ النّحل / ٦٨.

﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمعه كلامه الّذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السّامع من يكلّمه، فهو تمثيل له بحال الملك المحتجب الّذي يكلّم بعض خواصّه من وراء الحجاب يسمع صوته و لايرى شخصه، و إلاّ فالله تعالى منزّه عن الاستتار بالحجاب الّذي هو من خواصّ الأجسام، فالحجاب يرجع إلى المستمع لا إلى الله تعالى المتكلّم، و ذلك كما كلّم الله تعالى موسى في طُوىً و الطّور، و لذا سمّي كليم الله لأنّه سمع صوتًا دالاًّ على كلام الله من غير أن يكون ذلك الصّوت مكتسبًا لأحد من الخلق، بل تولّى الله تخليقه إكرامًا له، و غيره يسمعون صوتًا مكتسبًا للعباد فيفهمون به كلام الله، هذا مذهب إمامنا أبي‌منصور ذكره في كتاب التّأويلات، و ذهب أبوالحسن الأشعريّ إلى أنّ موسى سمع كلام الله من غير واسطة صوت أو قراءة، و إلى هذا ذهب ابن فُورْك من الأشعريّة قال في «كشف الأسرار» كلّمه و بينهما حجاب من نار.

قال الكاشفيّ: «كلّم الله تعالى موسى و كان وراء النّور، و كلّم الله تعالى النّبيّ عليه‌السلام من وراء حجابين، يعني أنّ الرّسول عليه‌السلام سمع كلام الله من وراء حجاب من ياقوته حَمراء، و من وراء حجاب من دُرّة بَيضاء، وكان المسير بين الحجابين مسافةً سبعين عامًا».[1]

يقول الفقير: هذا من غوامض العلوم، فإنّ نبيّنا عليه‌السلام أعلى كعبًا من موسى عليه‌السلام، فما معنى أنّ الله تعالى كلّم موسى من وراء حجاب وكلّم نبيّنا من وراء حجابين و إن حصل فرق بين حجاب و حجاب؟ و لعلّ المراد بالحجابين حجاب الياقوتة الحَمراء الّذي يلي جانب الخلق و حجاب الدُّرّة البيضاء الّذي يلي عالم الأمر، و كلاهما عبارة عن الرّوح المحمّديّ و الحقيقة الأحمديّة، و إشارة كون مسافة ما بين الحجابين مسيرة سبعين ألف حجاب بين الرّبّ و العبد، فمعنى أنّ النّبيّ عليه‌السلام سمع كلام الله من وراء هذين الحجابين أنّ الله تعالى كلّمه و بينهما الحقيقة الجامعة البرزخيّة و ليس ذلك بحجاب في الحقيقة، كما أنّ المِرآة ليست بحجاب للنّاظر و كذا القناع بالنّسبة إلى العروس، فافهم جيّدًا.

﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾، أي ملكًا من الملائكة إمّا جبريل أو غيره، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما لم ير جبرائيل إلاّ أربعة من الأنبياء: موسى و عيسى و زكريّا و محمّد عليهم‌السلام، قال

١ ـ قد ترجمنا قول الكاشفيّ من الفارسيّة.

في عين المعاني: عسى أنّه أراد برُؤيته كما هو و إلاّ فهو سفير الوحي.

﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرّسول إلى المرسل إليه هو الرّسول البَشَريّ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره تعالى و تيسيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحيه إليه، و هذا هو الّذي جرى بينه تعالى و بين الأنبياء عليهم السلام في عامّة الأوقات من الكلام فيكون إشارة إلى التّكلُّم بواسطة الملك. رُوي أنّ النّبيّ عليه السلام قال: «من الأنبياء من يسمع الصّوت فيكون بذلك نبيًّا، و منهم من ينفث في أُذنه و قلبه فيكون بذلك نبيًّا، و أنّ جبرائيل يأتيني فيكلّمني كما يكلّم أحدكم صاحبه» و عن عائشة أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول الله صلّى الله عليه و آله... [و ذكر كما تقدّم عن النّسائيّ].

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يأتي جريان المفاوضه بينه تعالى و بينهم إلاّ بأحد الوجوه المذكورة. ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة و أُخرى بدونها، إمّا إلهامًا أوخطابًا و في التّأويلات النّجميّة: يشير إلى أنّ البشر مهما كان محجوبًا بصفات البشريّة، موصوفًا بأوصاف الخلقيّة الظُّلمانيّة الإنسانيّة، لايكون مستعدًّا أن يكلّمه الله إلاّ بالوحي، أو بالإلهام في النّوم و اليقظة، أو من وراء حجاب بالكلام الصّريح، أو يرسل رسولاً من الملائكة فيوحي بإذنه ما يشاء إنّه ﴿عليٌّ﴾ بعلوّ القدم لا يجانسه مُحْدَث ﴿حكيم﴾ فيما يساعد البشر بإفناء أنا نيّته بهويّته، فإذا أفنيت البشريّة و ارتفعت الحجب و تبدّلت كينونته بكينونة الحقّ حتّى به يسمع و به يبصر و به ينطق، فيكلّمه الله تعالى شفاهًا و به يسمع العبد كلامه كفاحًا كما كان حال النّبيّ صلّى الله عليه و آله في سرّ. ﴿فَاَوْحىٰ اِلىٰ عَبدِهِ مَا اَوْحىٰ...﴾ يعني سمع المصطفى صلّى الله عليه و آله ليلةالمعراج كلام الحقّ بدون واسطة.

و كان آمن الرّسول ممّا شافهه به الحقّ تعالى من غير حجاب، كذا قوله: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ملٰئِكَتُهُ﴾[1] إلخ، و كذا بعض سورة (الضّحى) و بعض سورة (اَلَم نشرح)، ولزم من سماع كلامه مشافهة رؤيته بلاحجاب، و كذا حال المؤمنين يوم القيامة فإنّهم يرون ربّهم كما يرون القمر ليلة البدر و يسمعون كلامه بلا حجاب.

فالوحي إذاً قسمان: مشافهة و غير مشافهة، و عليه يحمل ماروي أنّ اليهود قالت

١ ـ الأحزاب / ٤٣.

للنّبيّ ﷺ ألا تكلّم الله و تنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلّمه موسى و نظر إليه؟ فإنّا لن نؤمن حتّى تفعل ذلك، فقال ﷺ:«لم ينظر موسى إلى الله فنزلت فأشار إلى أنّ الكلام حصل لموسى ولكن من وراء حجاب دون النّظر، و كذا للنّبيّ ﷺ مادام على حال البشريّة، و كذا ماروي عن عائشة رضي‌الله عنها أنّها قالت: من زعم أنّ محمّدًا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفرية، ثمّ قالت: أولم تسمعوا ربّكم يقول و تلت هذه الآية: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلخ: فأشارت إلى مرتبة الحجاب، و سرّه أنّ الله تعالى قال: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، فعبّر بعنوان البشريّة و ليس من حدّ البشر أن يرى ربّه عيانًا و هو في حدّ الدّنيا باق على بشريّته أو يكلّمه الله كفاحًا.

قال حضرة الشّيخ الأكبر ﷺ في «تلقيح الأذهان»: تكليم الله البشر في ثلاث مراتب كما قال سبحانه: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلخ، فالكلّ وحي ولكن بعضه بلا واسطة عند خروجه عن حدّ البشريّة، إلاّ أنّك إن كنت أنت السّامع لم تحصل على هذه المشاهدة الذّاتيّة حتّى تكون أنت المسمع، فمشاهدة الذّات لاتتمّ مع المناجاة وبعضه بواسطة عند الرّجوع إلى البشريّة و لا تزال هكذا حتّى تفنى عن نفس السّماع و تبقى مشاهدًا للحقّ لتسمع نفسه بنفسه، فإنّه من تحقّق بالانفاق حتّى سمع ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] سمع قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[2] انتهى.

قال الشّيخ روزبهان البَقْليّ في «عرائس البيان» كانت لي واقعة في ابتداء الأمر و ذلك أنّي شاهدت الحقّ بالحقّ، و كاشف لي مشاهدة جماله، و خاطبني من حيث الأرواح لا من حيث الأشباح، فغلب عليّ سكر ذلك، و أفشيت حالي بلسان السّكر، فتعرّض لي واحد من أهل العلم و سألني: كيف تقول ذلك و أنّ الله سبحانه و تعالى أخبرنا بأنّه لم يخاطب أحدًا من الأنبياء و الرّسل إلاّ من وراء حجاب كما قال: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلخ؟ فقلت: صدق الله، هذا إذا كانوا في حجاب البشريّة، فإذا خرجوا بشرط الأرواح إلى عالم الغيب و رأوا الملكوت، ألبسهم الله أنوار قربه و كَحّل عيونهم بنور ذاته، و ألبس أسماعهم قوّة من قوى الرّبوبيّة و كشف لهم سرّ الغيرة و حجاب المملكة، و خاطبهم كفاحًا و عيانًا،

---

١ ـ الحديد / ٧.
٢ ـ المزمّل / ٩.

و لنبيّناﷺ أخصّ خاصيّة، إذ هو مصطفى في الأزل بالمعارج و المشاهدة، فـإذا صـار جسمه روحه و كان واحدًا من كـلّ الوجـوه صـعد إلى المـلكوت، ورأى الحـق بـنور الجبروت، وسمع خطابه بلا واسطة ورأى الحق بلاالحجاب، إذ الحجاب وصف المخلوقين والحقّ منزّه عن أن يحجبه شيءٌ.

و حُكِي أنّ الإمام جعفر الصّادق عليه السلام قال له شخص: أرني ربّي! فقال: «أولم تسمع أنّ الله يقول لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ مع أنّه نبيّ عظيم»؟ قال: إنّ من هذه الملّة الأحمديّة مـن يقول: رأى قلبي ربّي، و منهم من يقول: لا أعبد ربًّا لم أره، فلمّا لم يمسك عن مسألته أمر جعفر بأن يُلقى ذلك الشّخص فـي الدِّجـلة فـفعلوا، فـقال: يـابن رسـول الله الغـياث! قال الصّادق: «يا ماء اغْمِسه» حتّى فعل ذلك مرارًا، يعني استغاث بالصّادق، فلمّا انقطع رجاؤه عن الخلق قال: إلهي الغياث...

فقد علمت من هذا التّقرير أنّ الآية تدلّ على جواز الرّؤية لا على امتناعها، و إنّما تدلّ على الامتناع حال البشريّة و بقائها.

﴿وَ كَذٰلِكَ﴾، أي مثل ذلك الإيحاء البديع أوكما أوْحينا إلى سائر رسلنا ﴿اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا﴾ هو القرآن الّذي هو للقلوب بمنزلة الرّوح للأبدان حيث يحييها حياة طيّبة، أي يحصل لها به ما هو مثل الحياة، و هو العلم النّافع المزيل للجهل الّذي هو كالموت. و قال الرّاغب: سمّي القرآن روحًا لكونه سببًا للحياة الأُخرويّة الموصوفة في قوله:﴿وَ اِنَّ الدَّارَ الْاٰخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[١]. و معنى ﴿مِنْ اَمْرِنَا﴾ بالفارسيّة: (بِفَرمَانِ مَا اُو) ﴿رُوحًا﴾ ناشئًا و مبتدأ من أمرنا، وقد سبق في «حم المؤمن» و قيل: هو جبرائيل، و معنى إيحائه إليه عليه السلام إرساله إليه بالوحي.

فإن قلت: كيف علم الرّسول عليه السلام في أوّل الأمر أن الّذي تجلّى له جبرائيل و أنّ الّذي سمعه كلام الله تعالى؟.

قلت: خلق الله تعالى له علمًا ضروريًّا علم به ذلك، والعلم الضّروريّ يوجب الإيمان الحقيقيّ و يتولّد من ذلك اليقين و الخشية فإنّ الخشية على قدر المعرفة...

---

١ ـ العنكبوت / ٦٤.

﴿مَاكُنْتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي في أربعين سنة، و المراد و حي النّبوّة. ﴿مَاالْكِتَابُ﴾، أي أيّ شيء هو؟ يعني أي أنّك ماكنت تدري أنّ القرآن منزل، و النّفي معلّق للفعل عن العمل، و ما بعده سادّ مسدّ المفعولين و محلّ (ماكنت) إلخ.

﴿وَلاَالْإِيمَانُ﴾، أي الإيمان بتفاصيل ما في تضاعيف الكتاب من الأُمور الّتي لا تهتدي إليها العقول لا الإيمان بما يستقلّ به العقل و النّظر، فإنّ درايته عليه السلام له ممّا لاريب فيه قطعًا، فإنّ أهل الوصول اجتمعوا على أنّالرّسل عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي معصومين من الكبائر و من الصّغائرالموجبة لنفرة النّاس عنه قبل البعثة و بعدها فضلاً عن الكفر، و هو مراد من قال لا يعرف القرآن قبل الوحي ولاشرائع الإيمان و معالمه و هي إيمان، كما قال تعالى: ﴿وَ مَاكَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[١] أي صلاتكم، سمّاها إيمانًا لأنّها من شُعَب الإيمان، و يدلّ عليه أنّه عليه السلام قيل له: هل عبدت و ثنًا قطّ؟ قال: لا، قيل: هل شربت خمرًا قطّ؟ قال: لا، و مازلت أعرف أنّ الّذين هم عليه كفرو ماكنت أدري ماالكتاب و لا الإيمان، أي الإيمان الشّرعيّ المتعلّق بتفاصيل الأحكام؛ و لذلك أُنزل في الكتاب ﴿مَاكُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَلاَالْإِيمَانُ﴾.

قال ابن قُتَيْبَة: لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل من الحجّ و الختان و النّكاح و إيقاع الطّلاق و الغسل من الجنابة و تحريم ذوات المحارم بالقرابة و المصاهرة، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله على ماكانوا عليه في مثل هذه الشّرائع، وكان يوحّد و يبغض اللاّت و العزّى و يحجّ و يعتمر، و يتّبع شريعة إبراهيم عليه السلام و يتعبّد بها حتّى جاءه الوحي و جاءته الرّسالة. فقول البيضاويّ: وهو دليل على أنّه لم يكن متعبّدًا قبل النّبوّه بشرع ممنوع فإنّ عدم الدّراية لا يلزمه عدم التّعبّد، بل يلزمه سقوط الإثم إن لم يكن تقصير، فالحقّ أنّ المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلاّالسّمع. و قال بعضهم: هذا تخصيص بالوقت، يعني

---

١ ـ البقرة / ١٤٣.

كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً و في المهد ما كان يعرف الإيمان، و هو ضعيف، لأنّه عليه السلام أفضل من يحيى و عيسى عليهما السلام و قد أُوتي كلّ الحكم و العلم صبيًّا. و قال بعضهم: هو من باب حذف المضاف، أي و لا أهل الإيمان، يعني من الّذي يؤمن و من الّذي لا يؤمن قبل أن ظهر إيمان من آمن و كفر من كفر، كما قال ابن الفضل: أهله، لأنّه ظنّ أنّ أباطالب يؤمن، كما قال عليه السلام: «أردنا إسلام أبي طالب و أراد الله إسلام العبّاس، فكان ما أراد الله دون ماأردناه»، و هو ضعيف أيضًا، لأنّه عليه السلام لايدري بعد الوحي أيضًا جميع من يؤمن ومن يَصِر إلى آخر العمر... (٨: ٣٤٤ ـ ٣٤٨)

الفصل العشرون

نصّ الآلوسيّ (م: ١٢٧٠) في تفسيره: «روح المعاني»

[أقسام الوحي و رُؤية الله]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾
الشّورى ٥١

ظاهره حصر التّكليم في ثلاثة أقسام

الأوّل ـ الوحي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿اِلاَّ وَحْيًا﴾ و فسّره بعضهم بالإلقاء في القلب سواءً كان في اليقظة أم في المنام، و الإلقاء أعمّ من الإلهام، فإنّ إيحاء أُمّ موسى إلهام، و إيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاء في المنام و ليس إلهامًا، و إيحاء الزّبور إلقاء في اليقظة ـ كما رُوي عن مجاهد ـ و ليس بإلهام؛ والفرق أنّ الإلهام لا يستدعي صورة كلام نفسانيّ فقد و قَدّ، وأمّا اللّفظيّ فلا، و أمّا نحو إيحاء الزّبور فيستدعيه، و قد جاء إطلاق الوحي على الإلقاء في القلب في قول عُبَيْد بن الأبرص:

و أوحــىٰ إليّ الله أن قــد تأمَّــرُوا   بابن أبي أو في فقمت على رِجلي

فإنّه أراد قذف في قلبي.

والثّاني ـ إسماع الكلام من غير أن يبصر السّامع من يكلّمه كما كان لموسى، و كذا الملائكة الّذين كلّمهم الله تعالى في قضيّة خلق آدم عليه السلام و نحو هم، و هو المراد بقوله سبحانه ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾، فإنّه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجّب الّذي يكلّم بعض خواصّه من وراء حجاب يسمع صوته و لا يرى شخصه.

والثّالث ـ إرسال الملك كالغالب من حال نبيّنا صلى الله عليه و آله و هو حال كثير من الأنبياء عليهم السلام،

وزعم أنّه من خصوصيّات أُولي العزم من المرسلين غير صحيح، وهو المراد بقوله عَزَّوجَلَّ: ﴿اَوْيُرْسِلَ رَسُولاً﴾ أي مَلَكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرّسول إلى المرسل إليه ـ الّذي هو الرّسول البَشَريّ ـ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره تعالى و تيسيره سبحانه ﴿مَايَشَاءُ﴾ أن يوحيه.

و هذا يدلّ على أنّ المراد من الأوّل الوحي من الله تعالى بلاواسطة، لأنّ إرسال الرّسول جعل فيه إيحاء ذلك الرّسول، و بَنىَ المعتزليّ على هذا الحصر أنّ الرُّؤية غير جائز، لأنّها لو صحّت لصحّ التّكليم مشافهةً فلم يصحّ الحصر. و قال بعض: المراد حصر التّكليم فيالوحي بالمعنى المشهور و التّكليم من وراء حجاب، و تكليم الرّسل البشريّين مع أُممهم، و استعبد بأنّ العرف لم يطّرد فيتسمية ذلك إيحاء، و قال القاضي: إنّ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ وَحْيًا﴾ معناه إلاّ كلامًا خفيًّا يدرك بسرعة، و ليس في ذاته مركّبًا من حروفٍ مقطّعةٍ، و هو ما يعمّ المشافهة كما روي في حديث المعراج، و ما وعد به في حديث الرُّؤية،.و المهتفّ به كما اتّفق لموسىعليه السلام في الطّور، لكن عطف قوله تعالى: ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ عليه يخصّه بالأوّل، فالآية دليل على جواز الرُّؤية لا على امتناعها، و إلى الأوّل ذهب الزّمخشريّ و انتصر له صاحب «الكشف» عفا الله تعالى عنه، فقال: «و أمّا نحن فنقول والله تعالى أعلم: إنّ قوله تعالى: ﴿وَ مَاكَانَ لِبَشَرٍ﴾ على التّعميم يقتضي الحصر بوجه لا يخصّ التّكلّم بالأنبياءعليهم السلام، و يدخل فيه خطاب مريم و ما كان لأُمّ موسى و مايقع للمحدَّثين من هذع الأُمَّة و غيرهم، فحمل الوحي على ماذهب إليه الزّمخشريّ أولى.

ثمّ إنّه يلزم القاضي أن يكون ما وقع من وراء حجاب وحيًا لا أنّه يخصّصه، لأنّه نظير قولك: «ماكان أن تنعم إلاّ على المساكين وزيد»، نعم يحتمل أن يكون زيد داخلاً فيهم على نحو: ﴿وَمَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ﴾[1] و هذا يضرّ القاضي، لا قتضائه أن يكون هذا القسم ـ **أعني ما وقع من وراء حجاب ـ أعلا المراتب فلا يكون الثّاني هو المشافهة، وتقدير** ﴿إِلاَّ وَحْيًا﴾ من غير حجاب أو من وارء حجاب خلاف الظّاهر، و فيه فكّ للنّظم لقوله سبحانه: ﴿اَوْ يُرْسِلَ﴾، و هو عطف على قوله تعالى: ﴿إِلاَّ وَحْيًا﴾ مع كونه خلاف الظّاهر.

و على هذا يفسد ما بني عليه من حديث التّنزّل من القسم الأعلى إلى مادونه، و مع

١ ـ البقرة /٩٨.

ذلك لايدلّ على عدم وقوع الرُّؤية فضلاً عن جوازه، بل دلّ على أنّها لو وقعت لم يكن معها المكالمة و ذلك هو الصّحيح، لأنّ الرّؤية تستدعي الفناء و البقاء به عَزَّوجَلَّ، وهو يقتضي رفع حجاب المخاطب المستدعي كونًا وجوديًّا، ثمّ الكامل لتوفيته حقّ المقامات الكبرىٰ يكون المحتظى منه بالشّهود في مقام البقاء المذكور، ومع ذلك لا يمنعه عن حظّه من سماع الخطاب لأنّه حظّ القلب المحجوب عن مقام الشّهود، والمقصود أنّ الّذي يصحّ ذوقًاو نقلاً و عقلاً كون الخطاب من وراء حجاب البتّة و هو صحيح، لكن لا ينفع منكر الرُّؤية ولا مثبتها، و أمّا سؤال التّرقّي في الأقسام، فالجواب عنه أنّ التّرقّي حاصل بين الأوّل و الثّاني الّذي له سمّي الكليم كليمًا، و أمّا الثّالث فلمّا كان مجازيًّا أخّر عن القسمين و لم ينظر إلى أنّه أشرف من القسم الأوّل، فإنّ ذلك الأمر غير راجع إلى التّكليم بل لأنّه مخصوص بالأنبياء عليهم السلام انتهى.

و تعقّب ما اعتُرِض به على القاضي بأنّه لا يرد، لأنّ الوحي بذلك المعنى بالتّخصيص المذكور و التّقييد المأخوذ من التّقابل صار مغايرًا لما بعده، و ليس من شيءٍ من القبيلين حتّى يذهب إلى التّرقّي أو التّدلّي، لأنّه لا يعطف بأو، بل بالواو كمالا يخفى، و لزوم أن لايكون الواقع من وراء حجاب وحيًا غير مسلّم، لأنّه إن أراد أن لا يكون وحيًا مطلقًا فغير صحيح، لأنّ قوله تعالى بعده: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾ قرينة على أنّ المراد بالوحي السّابق وحي مخصوص كالّذي بعده، و إن أراد أنّه لا يكون من الوحي المخصوص السّابق فلا يضرّه لأنّه عين ما عناه، نعم الحصر على ما ذهب إليه القاضي غير ظاهر إلاّ بعد ملاحظة أنّه مخصوص بما كان باالكلام فتدبّر.

والظّاهر أنّ عائشة رضي الله تعالى عنها حملت الآية على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخاريّ و مسلم و التّرمِذيّ عنها أنّها قالت: من زعم أنّ محمّدًا رأىٰ ربّه فقد كذِب ثمّ قرأت: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الْاَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْاَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ و أنت تعلم أنّ أكثر العلماء على أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله رأىٰ ربّه سبحانه ليلة الإسراء لكثرة الرّوايات المصرّحة بالرُّؤية، نعم ليس فيها التّصريح بأنّها

---

١ ـ الأنعام / ١٠٣.

بالعين لكنّ الظّاهر من الرُّؤية كونها بها، والمرويّ عن الأشعريّ و جمع من المتكلّمين أنّه جلّ شأنه كلّمه عليه الصّلاة و السّلام تلك اللّيلة بغير واسطة، و يُعزى ذلك إلى جعفر بن محمّد الباقر و ابن عبّاس و ابن مسعود رضي الله تعالى عنهم و هو الظّاهر، للأحاديث الصّحاح في مرادة الصّلاة و استقرار الخمسين على الخمس و غير ذلك، و عائشة رضي الله تعالى عنها لم تنف الرُّؤية إلاّ اعتماداً على الاستنباط من الآيات، و لو كان معها خبر لذكرته، و احتجاجها بما ذكر من الآيات غير تامّ، أمّا عدم تماميّة احتجاجها بآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [1] فمشهور، و أمّا عدم تماميّة الاحتجاج بالآية الثّانية فَلِما سمعت عن صاحب «الكشف» ﷺ.

و قال الخَفاجيّ بعد تقرير الاحتجاج: بأنّه تعالى حصر تكليمه سبحانه للبشر في الثّلاثة: فإذا لم يره جلّ و علا من يكلّمه سبحانه في وقت الكلام لم يره عَزَّوجَلَّ في غيره بالطّريق الأولى، و إذا لم يره تعالى هو أصلاً لم يره سبحانه غيره إذ لا قائل بالفصل.

و قد أُجيب عنه في الأُصول بأنّه يحتمل أن يكون المراد حصر التّكليم في الدّنيا في هذه الثّلاثة، أو نقول: يجوز أن تقع الرُّؤية حال التّكليم وحيًا، إذ الوحي كلام بسرعة و هو لاينافي الرُّؤية انتهى.

ولايخفى عليك أنّ الجواب الأوّل لاينفع فيما نحن بصدده، إلاّ بالتزام أنّ ما وقع لنبيّنا عليه الصّلاة و السّلام تلك اللّيلة لا يعدّ تكليمًا في الدّنيا على ما ذكره الشُّرُنْبُلاليّ في إكرام أُولى الألباب لأنّه كان في الملكوت الأعلى، و أنّه يستفاد من كلام صاحب «الكشف» **منع ظاهر للشّرطيّة في وجه الاستدلال الّذي قرّره، و بعضهم أجاب بأنّ العام مخصّص بغير ما دليل.**

و في البحر قيل: «قالت قُريش: ألاتكلّم الله تعالى و تنظر إليه إن كنت نبيًّا صادقًا كما كلّم جلّ و علا موسى و نظرَ إليه تعالى، فقال لهم الرّسول ﷺ: «لم ينظر موسى عليه السلام إلى الله عَزَّوجَلَّ فنزلت: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية و هذا ظاهر في أنّ الآية لم تتضمّن التّكليم الشّفاهي مع الرّؤية، وكذا ما فيه أيضًا كان من الكفّار خوض في تكليم الله تعالى

[1] ـ الأنعام / ١٠٣.

موسى عليه السلام، فذهبت قُريش و اليهود في ذلك إلى التّجسيم فنزلت، فإنّ عدم تضمّنها ذلك أدفع لتوهّم التّجسيم.

و بالجملة الّذي يترجّح عندي ما قاله صاحب «الكشف» قدّس سرّه: إنّ الآية لا تنفع منكر الرُّؤية و لا مثبتها، و ما ذُكر من سبب النّزول ليس بمتيقّن الثّبوت، و يفهم من كلام بعضهم أنّ الوحي كما يكون بالإلقاء في الرّوع يكون بالخطّ، فقد قال النّخعيّ: كان في الأنبياء عليهم السلام من يخطّ له في الأرض، ومعناه اللّغويّ يشمل ذلك، فقد قال الإمام أبو عبدالله التّيميّ الأصبهانّي: الوحي أصله التّفهيم، و كلّ ما فُهم به شيء من الإلهام و الإشارة و الكتب فهو وحي، و قال الرّاغب: أصل الوحي الإشارة السّريعة... **[و ذكر كما سيجيء تفصيله عن المصطفويّ...]**.

﴿اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يجري سُبحانه أفعاله على سنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة وأُخرى بدونها، إمّا إلهامًا و إمّا خطابًا أو إمّا عيانًا و إمّا خطابًا من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السّابق في تفسير الآية.

﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا﴾ و هو ما أوحي إليه عليه السلام أو القرآن الّذي هو للقلوب بمنزلة الرّوح للأبدان حيث يحييها حياة أبديّة، و قيل: أي و مثل الإيحاء المشهور لغيرك أوحينا إليك، و قيل: أي و مثل ذلك الإيحاء المفصّل أوحينا إليك، إذا كان عليه الصّلاة و السّلام اجتمعت له الطّرق الثّلاث، سواء فسرّ الوحي بالإلقاء أم فُسّر بالكلام الشّفاهيّ، و قد ذُكر أنّه عليه الصّلاة و السّلام قد أُلقي إليه في المنام كما أُلقي إلى إبراهيم عليه السلام، و أُلقي عليه السلام في اليقظة على نحو إلقاء الزّبور إلى داود عليه السلام.

ففي «الكبريت الأحمر» للشّعرانيّ نقلاً عن الباب الثّاني من الفتوحات المكّيّة أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أُعطي القرآن مجملاً قبل جبرئيل عليه السلام من غير تفصيل الآيات و السّور، و عن ابن عبّاس تفسير الرّوح بالنّبوّة. و قال الرّبيع: هو جبرئيل عليه السلام، و عليه ﴿اَوْحَيْنَا﴾ مضمّن معنى أرسلنا، والمعنى أرسلناه بالوحي إليك، لأنّه لا يقال: أوحي الملك بل أرسله.

و نقل الطّبرسِيّ عن أبي‌جعفر و أبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنّ المراد بهذا الرّوح ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و لم يصعد إلى السّماء، و

هذا القول في غاية الغرابة و لعلّه لا يصحّ عن هذين الإمامين، و تنوين ﴿رُوحًا﴾ للتّعظيم، أي روحًا عظيمًا.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ﴾ الظّاهر أنّ «مَا» الأُولى نافية، و الثّانية استفهاميّة في محل الرّفع على الابتداء، و ﴿الْكِتَابُ﴾ خبر، و الجملة في موضع نصب بـ﴿تَدْرِى﴾، و جملة ﴿مَاكُنْتَ﴾ إلخ حاليّة من ضمير ﴿اَوْحَيْنَا﴾، أوهي مستأنفة، و المضيّ بالنّسبة إلى زمان الوحي.

واستشكلت الآية بأنّ ظاهرها يستدعي عدم الاتّصاف بالإيمان قبل الوحي و لايصحّ ذلك، لأنّ الأنبياء عليهم السلام جميعًا قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر بإجماع من يعتدّبه، و أُجيب بعدّة أجوبة؛

الأوّل ـ أنّ الإيمان هنا ليس المراد به التّصديق المجرّد بل مجموع التّصديق و الإقرار و الأعمال، فإنّه كما يطلق على ذلك يطلق على هذا شرعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمَانَكُمْ﴾ والأعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركّب والمركّب ينتفي بانتفاء بعض أجزائه، فلا يلزم من انتفاء الإيمان المركّب بانتفاء الأعمال انتفاء الإيمان بالمعنى الآخر أعني التّصديق، و هو الّذي أجمع العلماء على اتّصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة، و لذا عبّر بـ﴿تَدْرِى﴾ دون أن يقال: لم تكن مؤمنًا، وهو جواب حسن و لا يلزمه نفي الإيمان عمّن لا يعمل الطّاعات ليكون القول به اعتزالاً كما لا يخفى.

الثّاني ـ الإيمان إنّما يعني به التّصديق بالله تعالى و برسوله عليه الصّلاة و السّلام دون التّصديق بالله عَزَّوجلّ و دون ما يدخل فيه الأعمال، و النّبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطب بالإيمان برسالة نفسه كما أنّ أُمّته صلى الله عليه وسلم مخاطبون بذلك، ولاشكّ أنّه قبل الوحي لم يكن عليه الصّلاة و السّلام يعلم أنّه رسول الله و ما علم ذلك إلاّ بالوحي، إذا كان الإيمان هوالتّصديق بالله تعالى و رسوله صلى الله عليه وسلم و لم يكن هذا المجموع ثابتًا قبل الوحي ـ بل كان الثّابت هو التّصديق بالله تعالى خاصّة المُجمَع على اتّصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة ـ استقام نفي الإيمان قبل الوحي، و إلى هذا ذهب ابن المنير.

الثّالث ـ أنّ المراد شرائع الإيمان و معالمه ممّا لا طريق إليه للسّمع، و إليه ذهب

محيى السّنّة البغويّ و قال: إنّ النّبيّ صلى الله عليه و آله كان قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام و لم تتبيّن له عليه الصّلاة والسّلام شرائع دينه، و لا يخفى أنّه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاق الإيمان على الأعمال وحدها و هو خلاف المعروف.

الرّابع ـ أنّ الكلام على تقدير مضاف، فقيل: التّقدير دعوة الإيمان، أي ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، و إليه يشير كلام أبي العالية.

و قال الحسين بن الفضل: أي أهل الإيمان، أي لا تدري من الّذي يؤمن، و أنت تدري أنّه لاَ يَرتضي هذا إلّا من لا يدري.

الخامس ـ المراد نفي دراية المجموع، أي ما كنت تدري قبل الوحي مجموع الكتاب و الإيمان، فلا ينافي كونه صلى الله عليه و آله كان يدري الإيمان وحده، و يأباه إعادة «لا».

السّادس ـ أنّ المراد ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى﴾ ذلك إذ كنت في المهد، و إليه ذهب عليّ بن عيسى و هو خلاف الظّاهر، والظّاهر، أنّ المراد استمرار النّفي إلى زمن الوحي، و ظاهر كلام «الكشف» يميل إلى اعتبار نحو ذلك القيد، قال: لعلّ الأشبه أنّ الإيمان على ظاهره و الآية واردة في معرض الامتنان، والإيحاء يشمل الإلقاء في الرّوع و إرسال الرّسول، فالإيمان عرفه بالأوّل و الكتاب بالثّاني. على أنّ الآية تدلّ على أنّه صلى الله عليه و آله عَرَفهما بعد أن لم يكن عارفًا و هو كذلك، أمّا أنّه عليه الصّلاة و السّلام عرفهما بعد الوحي فلا، فجاز أن يعرفهما به و جاز أن يعرف واحدًا منهما معيّنًا به و قد دلّ الدّليل على أنّ المعرّف به هو الكتاب و الإيمان بعد العقل و قبل الوحي و التّمسّك به على أنّه صلى الله عليه و آله لم يكن متعبّدًا بشرع من قبله ضعيف، لأنّ عدم الدّراية لا يلزمه عدم التّعبّد بل يلزمه سقوط الإثم إن لم يكن تقصيرًا، انتهى.

و أنت تعلم أنّ المتبادر أنّه عليه الصّلاة و السّلام عرفها بعد الوحي، و أمّا قوله قدّس سرّه في تضعيف التّمسّك بذلك: على أنّه صلى الله عليه و آله لم يكن متعبداً بشرع مَن قبله لأنّ عدم الدّراية لا يلزمه عدم التّعبّد، فقد قيل عليه: إنّه ساقط لأنّه عليه الصّلاة و السّلام إذا لم يدر شرعًا فكيف يتعبّد به، وقد يجاب بأنّ مراد المدقّق أنّ الدّراية المنفيّة الدّراية بمعنى العلم الجازم الثّابت المطابق للواقع، و عدمها لا يلزمه عدم التّعبّد، إذا يَكفي في التّعبّد بشرع مَن قبله عليه الصّلاة و السّلام الظّنّ الرّاجح ثبوته، فلعلّه كان حاصلاً له صلى الله عليه و آله.

و مثل هذا الظّنّ يكفي المتعبّدين اليوم بشرع نبيّنا عليه الصّلاة و السّلام فإنّ أكثر الفروع ظنّيّة، و من يتتبّع الأخبار يعلم أنّ العرب لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحجّ و الختان و إيقاع الطّلاق و الغسل من الجنابة و تحريم ذوات المحارم بالقرابة و الصّهر و غير ذلك، و أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله كان أحرص النّاس على اتّباع دين إبراهيم عليه السلام.

و في الصّحيح أنّه صلى الله عليه وآله كان ـ أي قبل البعثة ـ يتحنّث بغار حِراء، و فُسِّر التّحنُّث بالتّحنُّف أي اتّباع الحنيفيّة و هي دين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام و الفاء تُبدّل ثاء في كثير من كلامهم، و في رواية ابن هِشام في السّيرة يتحنّف بالفاء بدل الثّاء، نعم فُسِّر أيضًا بالتّعبّد كما في صحيح البخاريّ و باتّقاء الحنث، أي الإثم كاالتّحرُّج و التّأثّم، و كلّ ذلك ممّا ذكره الحافظ القَسْطَلانيّ في شرح الصّحيح.

ثمّ إنّ الظّاهر أنّ من قال: إنّه صلى الله عليه وآله كان متعبّدًا بشرع من قبله، ليس مراده أنّه عليه الصّلاة و السّلام كان متعبّدًا بجميع شرع من قبله، بل بما تَرَجَّح عنده صلى الله عليه وآله ثبوته. والّذي ينبغي أن يرجّح كون ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنّه من ذرّيّته عليهما الصّلاة و السّلام وقد كُلّفت العربُ بدينه و قال بعضهم: إنّ عبادته صلى الله عليه وآله التّفكّر والاعتبار، و لعلّه أيضًا ممّا ترجّح عنده عليه الصّلاة و السّلام كونه من شريعته عليه السلام، و ربّما يقال بما علمه صلى الله عليه وآله لا على ذلك الوجه من شرع مَن قبله أنّه صلى الله عليه وآله لم يزل موحى إليه و أنّه عليه الصّلاة و السّلام متعبّد بما يوحى إليه، إلاّ أنّ الوحي السّابق على البعثة كان إلقاء و نَفْثًا في الرّوع، و ما عمل من شرائع أبيه عليه السلام قد أُوتي الحكم صبيًّا ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصّلاة و السّلام أولى بأن يوحى إليه ذلك النّوع من الإيحاء صبيًّا أيضًا.

و من علم مقامه صلى الله عليه وآله و صدّق بأنّه الحبيب الّذي كان نبيًّا و آدم بين الماء و الطّين لم يستعبد ذلك فتأمّل... **[إلى أن قال:]**

قال الشّيخ عبدالوهّاب الشّعرانيّ في تفسيره الآية المذكورة: اعلم أنّ المانع من سماع كلام الحقّ إنّما هوالبشريّة، فإذا ارتفع العبد عنها كلّمه الله تعالى من حيث كلّم سبحانه الأرواح المجرّدة عن الموادّ، والبشر ما سمّي بشرًا إلاّ لمباشرته الأُمور الّتي تُعوِّقه عن اللّحوق بدرجة الرّوح، فلمّا لم يلحق كلّمه الله تعالى في الأشياء و تجلّى سبحانه له فيها، بخلاف من لحق كاالأنبياء عليهم السلام فلا يتجلّى الحقّ سبحانه لغيرهم إلاّ في حجاب الصّور،

و لولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنّه سبحانه ربّه، واعلم أنّ الحقيقة تأبى أن يكلّم الله تعالى غير نفسه أو نفسه أو يَسمع غير نفسه، فلا بدّ إذا خاطر عبدًا على قصد إسماعه أن يكون جميع قواه، لأنّه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحقّ سبحانه قواه عند النّجوى، و لذلك خرّ موسى عليه السلام صعقًا إذا لم يكن له استعداد يقبل به التّجلّيّ اللاّئق بمقامه و ثبت نبيّنا صلى الله عليه و آله و لمّا لم يكن للجبل درجة المحبّة الّتي يكون بها الحقّ سمع عبده و بصره و جميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب، فدُكّ... [إلى أن قال:]

و أمّا قوله تعالى ﴿اَوْمِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ فهو خطاب إلهيّ يلقيه على السّمع لا على القلب، فيدركه من أُلقي إليه فيفهم منه ما قصده من يسمعه ذلك و قد يحصل له ذلك في صورة التّجليّ فتخاطبه تلك الصّورة و هي عين الحجاب، فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدلّ عليه و يعلم أنّ ذلك حجاب، و أنّ المتكلّم من وراء ذلك الحجاب و كلّ مَن أدرك صورة التّجليّ الإلهيّ يعلم أنّ ذلك هوالله تعالى، فما يزيد صاحب هذا الحال على غيره إلاّ بمعرفته أنّ المخاطب له من وراء الحجاب.

و أمّا قوله تعالى:﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرّسول البشريّ إلينا إذا نَقَلا كلام الله تعالى خاصّة كالتّالين، فإنّ نَقَلا علمًا وجداه في أنفسهما و أفصحا عنه فذلك ليس بكلام إلهيّ، و من الأولياء من يُعطي التّرجمة عن لله سبحانه في حال الإلقاء و الوحي الخاصّ بكلّ إنسان، فيكون المترجم موجدًا لصور الحروف اللّفظيّة أو المرقومة، و يكون روح تلك الصّور كلام الله عَزَّوجَلَّ لا غير، وقد يقول الوليّ: حدّثني قلبي عن ربيّ، يعني به من الوجه الخاصّ، فاعلم ذلك و تأمّل ما قرّرته لك فإنّه نفيس والله تعالى يتولّى هداك. و له عليه السلام كلام كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة، و لعلّ فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام. ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا﴾ وهو مابه الحياة الطّيّبة الأبديّة. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَاالْاِيمَانُ﴾ قبل الإيحاء.

قيل: أُشير بهذا الإيحاء إلى الإيحاء في هذه النّشأة، و كان له صلى الله عليه و آله في كلّ حال من أحواله فيها نوع من الوحي والدّراية المنفيّة إذ كان عليه الصّلاة و السّلام في كينونته قبل إخراجه منها بتجلّي كينونته عَزَّوجَلَّ و إلاّ فهو صلى الله عليه و آله نبيّ و لا آدم و لا ماء و لا طين و لا يعقل نبيّ بدون إيحاء. (٢٥: ٥٤ ـ ٦٣)

الفصل الحادی والعشرون

نصّ الشَّعرانيّ (م: ١٣٩٣) في مقدّمة «تفسير منهج الصّادقين»

كيفيّة الوحي

نقل السّيوطيّ في «الإتقان» حول الوحي ثلاثة أقوال؛

الأوّل ـ أُنزل القرآن على النّبيّ باللّفظ.

الثّاني ـ أنزله جبريل بالمعنى على قلب النّبيّ، ثمّ عبّر عنه بألفاظ عربيّة، واحتجّ لهذا بقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾.[1]

الثّالث ـ أُنزل عليه مرّتين ؛ مرّةً بالمعنى و مرّةً باللّفظ.

أقول: إنّ القول الثّاني لا يناسب عقائد المسلمين، و من قال به مجانب للصّواب؛ لأنّ المسلمين يعتقدون منذ عصر النّبيّ وإلى الآن بأنّ ألفاظ القرآن هي عين كلام الله، و أنّ ما أُلقي في قلب النّبيّ، و من ثمّ عبّربه بألفاظ مختلفة، هو السّنّة؛ لأنّ جميع أقواله ﷺ من الله و إن صرّح النّبيّ بلفظ «قال الله» فهو حديث قُدسيّ.

أمّا قوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾، فهو سماع الألفاظ و الكلام ؛ لأنّ الوحي لم ينقل بالموجات الهوائيّة و ذبذباته، و إن كان كذلك لسمع الحاضرون صوت جبرئيل عند ما كان يوحي إلى النّبيّ. إنّ الإنسان يحصل على صورة الألفاظ من الحسّ المشترك، و تعتبر الأُذن آلته، و يأتي أحيانًا من الباطل بحسّ مشترك.

وقد عبّر تعالى عن الحسّ الباطنيّ بالقلب أو الفؤاد في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأىٰ﴾[2]. وكان الأنبياء لا يسمعون الوحي بالأُذُن البشريّة، بل كانوا يسمعونه بأُذُن النّبوّة، و عبّر عنها بالقلب.

---

١ ـ النّحل / ١٠٢.　　٢ ـ النّجم / ١١.

وقد أورد السّيوطيّ في «الإتقان» أيضًا أقسامًا للوحي تناسب من يأخذ بظاهر القول، و نحن نأخذ بقوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[1] أي أنّ الوحي يقسّم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: التّصرّف الغيبيّ في القلب فقط، وهو الوحي.

الثّاني: التّصرّف الغيبيّ في القلب والأُذُن معًا، والسّامعة تدرك عالم الغيب، فيدرك المعنى و يسمع الصّوت أيضًا، و هذا ما عناه بقوله: ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾.

الثّالث: التّصرّف الغيبيّ في العينين، فتدخل الباصرة عالم الغيب، فيرى الملك ويسمـ[illegible]ـلامه أيضًا. (١: ٤٠)

دور جبريل في الوحي

يعتقد أولياء الله العظام بأن النّبيّ إنسان كامل و يتبوّأ أعلى منزلة في الكائنات، لا يعلوها إلاّ الله، و ليس هناك إنسان من بين المخلوقات يحوي جميع الكمالات؛ قال الشّاعر:

قَرِيع البَرايا من إنس و من مَلَك رُبّان[2] سِرّ سُويدا القلب و الفَلَك

ويعتقد المسلمون قاطبةً بأنّ النّبيّ أفضل من جميع الملائكة، إلاّ فريق من المعتزلة. منهم الزّمَخشري؛ إذ هم يرون أنّ الملائكة المقرّبين أفضل من النّبيّ، و هذا طعن للدّين. فقد جاء في حديث المعراج أنّ النّبيّ وصل إلى مكان لايجرأ جبريل على اجتيازه، فقال: «لَوْ دَنَوْت أنمُلةً لاَحْتَرَقْتُ» و قال الشّاعر حاكيًا قول جبريل:

هاب الأمين بُدنُوِهِ من العليّ نارَ سعيرِ نُورهِ الجَلِيّ

و لكن لا يدلّ هذا على أفضليّة جبريل ألبتّة؛ إذ أنّ ذاالمقام العالي يتزوّد بالأخبار ممّن هو دونه، كما أتى الهُدهُد سليمان بالأخبار، و العيون أميرالمؤمنين عليه السلام بأنباء العدوّ، وذلك قوله: «كتب إليّ عيني باليمن».

ولا يكمل عقل الإنسان إلاّ بالسّمع والبصر، و كان جبرئيل عين النّبيّ في عالم

---

١ ـ الشّورىٰ / ٥١.

٢ ـ جمع رَبَابِنَة و رَبابين: رئيس المَلاّحين. (المنجد ١: ٣٤٣).

الملكوت، إلاّ أنّ النّبيّ كان يتزوّد الأخبار من الله بدون واسطة.

وقاس المعتزلة قياسًا ناقصًا؛ إذ شبّهو تعليم جبريل و التّعليم الدّنيويّ، كما يأخذ المتعلّم الجاهل العلم من أُستاذ حاذق.

ولكن لِمَ لَمْ يشبّهوا بالفقيه الكامل الّذي ينقل رواية من محدّث جاهل ثقة؟ و قد قال النّبيّ صلى الله عليه وآله «رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، و نسب الله العلم إلى نفسه فقال: ﴿عَلَّمَك مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[1]، و نسبه إلى جبريل فقال: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوْحُ الْاَمِيْنُ﴾[2].

إنّ النّبيّ ـ و هو ممكن الوجود ـ ناقص أمام الله الواجب الوجود، إلاّ أن يتعلّم منه؛ لأنّ كلّ ما عنده الممكن مأخوذ من الواجب، و إنّ احتياجه الذّاتي مقدّم على استغنائه المكتسب. وإنّ تقدّم ﴿لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ﴾ تقدّم لا يحدّ بزمانٍ كتقدّم ﴿هَمَّ بِهَا﴾ على ﴿بُرهَانَ رَبِّهِ﴾ بل هو تقدّم ذاتّي، و ليس لهذا البحث نهاية.

قال الإمام العَسْكَريّ عليه السلام: «سبّحنا، فسبّحت الملائكة بتسبيحنا، و كان روح القدس في الجنان الصّاقورة قد ذاق من حدائقنا الباكورة».[3] (١:٤٣)

---

١ ـ النّساء / ١١٣.

٢ ـ الشّعراء / ١٩٣.

٣ ـ مناقب ابن شهراشوب.

الفصل الثّاني و العشرون

نصّ العلاّمة الطّباطبائيّ (م: ١٤٠٢) في «تفسير الميزان»

[معنى الوحي و أقسامه]

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْمِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾
الشوّرى ٥١

تتضمّن الآيات آخر ما يفيده سبحانه في تعريف الوحي في هذه السّورة و هو تقسيمه إلى ثلاثه أقسام: [١] وحيًا [٢] أومن و راءٍ حجاب [٣] أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء، ثمّ يذكر أنّه يوحى إليه ﷺ ما يوحى على هذه الوتيرة، و أنّ ما أُوحي إليه منه تعالى لم يكن النّبيّ ﷺ يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده و يهدي به النّبيّ ﷺ بإذنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا...﴾ قد تقدّم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثّاني من الكتاب، و إطلاق الكلام على كلامه تعالى و التّكليم على فعله الخاصّ سواء كان إطلاقًا حقيقيًّا أو مجازيًّا واقع في كلامه تعالى، قال: ﴿يَا مُوسىٰ اِنّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاٰتى وَ بِكَلاٰمى﴾[1] وقال: ﴿وَ كلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيمًا﴾[2]، و من مصاديق كلامه ما يتلقّاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي.

و على هذا لا موجب لعدّالاستثناء في قوله: ﴿اِلاَّ وَحْيًا﴾ منقطعًا بل الوحي و القسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواءً كان إطلاق التّكليم عليها إطلاقًا حقيقيًّا أو

---

١ ـ الأعراف /١٤٤.

٢ ـ النّساء /١٦٤.

مجازيًّا، فكلّ واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقوله: ﴿وَحْيًا﴾ ـ و الوحي الإشارة السّريعة على ما ذكره الرّاغب ـ مفعول مطلق نوعيّ و كذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النّوعيّ، والمعنى: ما كان لبشر أن يكلّمه الله نوعًا من أنواع التّكليم إلاّ هذه الأنواع الثّلاثة أن يوحى وحيًا، أو يكون من وراءِ حجاب، أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

ثمّ إنّ ظاهر التّرديد في الآية بـ(اَوْ) هو التّقسيم على مغايرة بين الأقسام و قد قيدّ القسمان الأخيران بقيدٍ كالحجاب، والرّسول الّذي يوحي إلى النّبيّ و لم يقيّد القسم الأوّل بشيء فظاهر المقابلة يفيد أنّ المراد به التّكليم الخفيّ من دون أن يتوسّط واسطة بينه تعالى و بين النّبيّ أصلاً، و أمّا القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرّسول الموحي و كلّ منهما واسطة، غير أنّ الفارق أنّ الواسطة الّذي هو الرّسول يوحي إلى النّبيّ بنفسه و الحجاب واسطة ليس بموحٍ و إنّما الوحي من ورائه.

فتحصّل أنّ القسم الثّالث: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وحي بتوسّط الرّسول الّذي هو ملك الوحي، فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾[1]، و قال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَاِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِاِذْنِ اللهِ﴾[2]، و الموحي مع ذلك هوالله سبحانه كما قال: ﴿بِمَا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْاٰنَ﴾[3].

و أمّا قول بعضهم: إنّ المراد بالرّسول في قوله: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ هو النّبيّ يبلّغ النّاس الوحي، فلا يلائمه قوله: ﴿يُوحِىَ﴾ إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النّبيّ.

و إنّ القسم الثّاني ﴿اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وحي مع واسطة هو الحجاب، غير أنّ الواسطة لا يوحي كما في القسم الثّالث، و إنّما يبتدىء الوحي ممّا وراءه لمكان (مِنْ) وليس وراء بمعنى خلف و إنّما هو الخارج عن الشّيء المحيط به، قال تعالى: ﴿وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[4]، وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطّور، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اَتٰهَا نُودِىَ مِنْ

١ ـ الشّعراء /١٩٤. ٢ ـ البقره /٩٧.
٣ ـ يوسف /٣. ٤ ـ البروج /٢٠.

شَاطِيءِ الْوَادِ الْاَيْمَنِ في الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[١] و من هذا الباب ما أُوحي إلى الأنبياء في مناماتهم.

وإنّ القسم الأوّل تكليم إلهيّ للنّبيّ من غير واسطة بينه وبين ربّه من رسول أو أيّ حجاب مفروض.

و لمّا كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأيّ قسم من الأقسام تحقّق و بهذه العناية أُسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال: ﴿اِنَّا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ كَمَا اَوْحَيْنَا اِلٰى نُوحٍ وَالنَّبِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[٢]، و قال: ﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ اِلاَّ رِجَالاً نُوحِى اِلَيْهِمْ﴾[٣].

هذا ما يعطيه التّدبّر في الآية الكريمة، و للمفسّرين فيها أبحاث طويلة الذّيل ومشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصّلات.

و قوله: ﴿اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ تعليل لمضمون الآية، فهو تعالى لعلوّه عن الخلق و النّظام الحاكم فيهم يجلّ أن يكلّمهم كما يكلّم بعضهم بعضًا، و لعلّوه و حكمته يكلّمهم بما اختار من الوحي، و ذلك أنّ هداية كلّ نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال: ﴿الَّذِى اَعْطىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾[٤] و قال: ﴿وَ عَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[٥]، و سعادة الإنسان الّذي يسلك سبيل سعادته بالشّعور و العلم في إعلام سعادته و الدّلالة إلى سنّة الحياة الّتي تنتهي إليها، ولا يكفي في ذلك العقل الّذي من شأنه الإخطاء و الإصابة، فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الّذي لا يخطيء البتّة...

قوله تعالى: ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَاكُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْاِ يمَانُ﴾ إلخ، ظاهر السّياق كون ﴿كَذٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في الآية السّابقة من الوحي بأقسامه الثّلاثة، و يؤيّده الرّوايات الكثيرة الدّالّة على أنّه ﷺ كما كان يوحى إليه بتوسّط جبريل ـ و هو القسم الثّالث ـ كان يوحى إليه في المنام، و هو من القسم الثّاني، و يوحى إليه

١ ـ القصص /٣٠.
٢ ـ النّساء /١٦٣.
٣ ـ النّحل /٤٣.
٤ ـ طه /٥٠.
٥ ـ النّحل /٩.

من دون توسّط واسطة و هو القسم الأوّل.

و **قيل**: الإشارة إلى مطلق الوحي النّازل على الأنبياء، و هذا متعيّن على تقدير كون المراد بالرّوح هو جبريل أو الرّوح الأمريّ كما سيأتي.

و المراد بإيحاء الرّوح ـ على ما قيل ـ إيحاء القرآن، و أيّد بقوله: **﴿وَ لٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾** إلخ، و من هنا قيل: إنّ المراد بالرّوح القرآن، لكن يبقى عليه؛

أوّلاً ـ أنّه لا ريب أنّ الكلام مسوق لبيان أنّ ما عندك من المعارف و الشّرائع الّتي تتلبّس بها و تدعوا النّاس ليس ممّا أدركته بنفسك و أبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزّل إليك بوحينا، و على هذا فلو كان المراد بالرّوح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله: **﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ﴾**، لأنّ المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائدًا مستغنى عنه.

و **ثانيًا** ـ أنّ القرآن و إن أمكن أن يسمّى روحًا ـ باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى: **﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [١] و قال: **﴿اَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَاَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ﴾** [٢] ـ لكن لا وجه لتقيّده حينئذ بقوله: **﴿مِنْ اَمْرِنَا﴾** و الظّاهر من كلامه تعالى أنّ الرّوح من أمره خلق من العالم العِلويّ يصاحب الملائكة في نزولهم، قال تعالى **﴿تَنَزَّلُ الْمَلٰئِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ اَمْرٍ﴾** [٣]، و قال: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلٰئِكَةُ صَفًّا﴾** [٤] و قال: **﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّى﴾** [٥] و قال: **﴿وَ اَيَّدْنَاهُ بِرُحِ الْقُدُسِ﴾** [٦]، و قد سمّي جبريل الرّوح الأمين و روح القُدُس، حيث قال: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ﴾** [٧] و قال: **﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾** [٨].

و يمكن أن يجاب عن الأوّل بأنّ مقتضى المقام و إن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط، لكن لمّا كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف و الشّرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكّة عنه و آثاره الحسنة صحّ أن يذكر مع الكتاب، فالمعنى:

١ ـ الأنفال /٢٤.
٢ ـ الأنعام /١٢٢.
٣ ـ القدر /٤.
٤ ـ النّبأ /٣٨.
٥ ـ الإسراء /٨٥.
٦ ـ البقرة /٨٧.
٧ ـ الشّعراء /١٩٣.
٨ ـ النّحل /١٠٢.

وكذلك أوحينا إليك كتابًا ما كنت تدري ماالكتاب و لا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل و هو إيمانك به.

و عن الثّاني أنّ المعهود من كلامه في معنى الرّوح و إن كان ذلك لكن حمل الرّوح فى الآية على ذلك المعنى و إرادة الرّوح الأمريّ أو جبريل منه يوجب أخذ ﴿اَوْحَيْنَا﴾ بمعنى أرسلنا، إذ لا يقال: أوحينا الرّوح الأمريّ أو الملك، فلا مفرّ من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى، فأخذ الرّوح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال، والجوابان لا يخلوان عن شيءٍ.

و قيل: المراد بالرّوح جبريل، فإنّ الله سمّاه في كتابه روحًا قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِين عَلىٰ قَلْبِكَ﴾[1]. و قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾.[2]

و قيل: المراد بالرّوح، الرّوح الأمريّ الّذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ اَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ اَنْ اَنْذِرُوا﴾[3]، فالمراد بإيحائه إليه إنزاله عليه.

و يمكن أن يوجّه التّعبير عن الإنزال بالإيحاء بأنّ أمره تعالى على ما يعرّفه في قوله: ﴿اِنَّمَا اَمْرُهُ اِذَا اَرَادَ شَيْئًا اَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾[4]، هو كلمته، و الرّوح من أمره كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّى﴾[5]، فهو كلمته، و هو يصدّق ذلك قوله في عيسى بن مريمعليه السلام ﴿اِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ اَلْقٰيهَا اِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ﴾[6]، و إنزال الكلمة تكليم، فلا ضير في التّعبير عن إنزال الرّوح بإيحائه، و الأنبياء مؤيّدون بالرّوح في أعمالهم كما أنّهم يوحى إليهم الشّرائع به، قال تعالى:﴿وَ اَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[7] و قد تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَ اَوْحَينَا اِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ اِقَامَ الصَّلٰوةِ وَ اِيتَاءَ الزَّكٰوةِ﴾[8].

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال و الإرسال بالقول بكون قوله: ﴿رُوحًا﴾ منصوبًا بنزع الخافض، و رجوع ضمير: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ إلى القرآن المعلوم من السّياق

---

١ ـ الشّعراء /١٩٣.
٢ ـ النحّل ١٠٢.
٣ ـ النّحل /١٠٢.
٤ ـ يٰس /٨٢.
٥ ـ الإسراء /٨٥.
٦ ـ النّساء /١٧١.
٧ ـ البقرة /٨٧.
٨ ـ الأنبياء /٧٣.

أو الكتاب، و المعنى: و كذلك أوحينا إليك القرآن بروح منّا ما كنت تدري ماالكتاب و ما الإيمان ولكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورًا إلخ، هذا و ما أذكر أحدًا من المفسّرين قال به.

و قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَ لَاالْاِ يمانُ﴾ قد تقدّم أنّ الآية مسوقة لبيان أنّ ما عنده صلّی الله علیه و آله الّذي يدعو إليه إنّما هو من عند الله سبحانه لا من قِبَل نفسه و إنّما أُوتي ما أُوتي من ذلك بالوحي بعد النّبوّة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديّه و الشّرائع العمليّة، فإنّ ذلك هو الّذي أُوتي العلم به بعد النّبوّة و الوحي، و بعدم درايته بالإيمان عدم تلبّسه بالالتزام التّفصيليّ بالعقائد الحقّة و الأعمال الصّالحة، و قد سمّي العمل إيمانًا في قوله: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[1]، فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الرّوح الكتاب بما فيه من المعارف و الشّرائع، ولا كنت متلبّسًا بما أنت متلبّس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقاديّ والعمليّ بمضامينه، و هذا لا ينافي كونه علیه السّلام مؤمنًا بالله، موحّدًا قبل البعثة، صالحًا في عمله، فإنّ الّذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب و الالتزام بها اعتقادًا و عملاً و نفي العلم و الالتزام التّفصيليّين لايلازم نفي العلم و الالتزام الإجماليّين بالإيمان بالله و الخضوع للحقّ.

و بذلك يندفع ما استدلّ بعضهم بالآية على أنّه علیه السّلام كان غير متلبّس بالإيمان قبل بعثته، و يندفع أيضًا ما عن بعضهم أنّه صلّی الله علیه و آله لم يزل كاملاً في نفسه علمًا و عملاً و هو ينافي ظاهر الآية أنّه ما كان يدري ماالكتاب و لا الإيمان.

و وجه الاندفاع أنّ من الضّروريّ وجود فرق في حاله صلّی الله علیه و آله قبل النّبوّة و بعدها، والآية تشير إلى هذا الفرق، و أنّ ما حصل له بعد النّبوّة لا صنع له فيه و إنّما هو من الله من طريق الوحي... **[إلى أن قال:]**

و قوله: ﴿اَلاَ اِلَى اللهِ تَصِيرُ الْاُمُورُ﴾ تنبيه على لازم مُلكه لما في السّماوات و ما في الأرض، فإنّ لازمه رجوع أُمورهم إليه، و لازمه كون السّبيل الّذي يسلكونه ـ و هو من جملة أُمورهم ـ راجعًا إليه فالصّراط المستقيم هو صراطه، فالمضارع أعني قوله: ﴿تَصِيرُ﴾ للاستمرار.

---

١ ـ البقرة /١٤٣.

وفيه إشعار بكلام الوحي و التّكليم الإلهيّ، إذ لمّا كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكلّ نوع إليه تعالى سبيل يسلكه، و كان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال: ﴿وَ عَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[١]، و هو تكليم كلّ نوع بما يناسب ذاته، و هو في الإنسان التّكليم المسمّى بالوحي و الإرسال.

و قيل: المضارع للاستقبال و المراد مصيرها جميعًا إليه يوم القيامة، و قد سيقت الجملة لوعد المهتدين إلى الصّراط المستقيم و وعيد الضّالين عنه، و أوّل الوجهين أظهر.

بحث روائيّ

في «الدّرّ المنثور»: أخرج البخاريّ و مسلم و البَيْهَقيّ عن عائشة أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك... **[و ذكر كما تقدّم عن النّسائيّ الرّقم ١، ثمّ ذكر روايات ثلاثًا عن الصَّدوق بإسناده عن زُرارة، و عن ابن أبي عُمَيْر و عمر و بن جَميع، و أيضًا عن ابن أبي عُمَيْر و هِشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام... كما تقدّم عنه، الرّقم ٢ و ٥ و ٧. ثمّ ذكر أيضًا رواية الصَّفّار عن ابن بُكَيْر، عن زُرارة كما تقدّم عنه، الرّقم ١١، فقال:]** أقول: و في معناه روايات أُخر.

و في «التّوحيد» بإسناده عن محمّد بن مسلم و محمّد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما علم رسول الله ﷺ أنّ جبرئيل من قبل الله إلاّ بالتّوفيق».

و في تفسير «العيّاشيّ» عن زُرارة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشّيطان؟ قال: فقال: «إنّ الله إذا اتّخذ عبدًا رسولاً أنزل عليه السَّكينة و الوقار، فكان يأتيه من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه»... **[ثمّ ذكر رواية الكُلَينيّ بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام، كما تقدّم عنه الرّقم ٣ فقال:]**

أقول: و في معناها عدّة روايات و في بعضها أنّه من الملكوت، قال في «روح المعاني» و نقل الطَّبرِسيّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله أنّ المراد من هذا الرّوح ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ و لَمْ يصعد إلى السّماء، و هذا القول في

---

١ ـ النّحل /٩.

غاية الغرابة و لعلّه لا يصحّ عن هذين الإمامين، انتهى. والّذي في «مجمع البيان»: عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام قالا: «ولم يصعد إلى السّماء و إنّه لفينا»، انتهى. و استغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب، على أنّه يسلّم تسديد هذا الرّوح لبعض الأُمّة غير النّبيّ، كما هو ظاهر لمن راجع قسم الإشارات من تفسيره.

و في «النّهج»: «و لقد قرن الله به صلّى الله عليه و آله سن لدن كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».

و في «الدّرّ المنثور» أخرج أبو نُعَيم في «الدّلائل» و ابن عَساكِر عن عليّ قال: قيل للنّبيّ صلّى الله عليه و آله: هل عبدت و ثنًا قطّ؟ قال: «لا» قالوا: فهل شربت خمرًا قطّ؟ قال: «لا، و ما زلت أعرف أنّ الّذي هم عليه كفر، و ما كنت أدري ماالكتاب و ما الإيمان، و بذلك نزل القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ﴾. (١٨: ٧٢ ـ ٨١)

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ...﴾ الشّعرا /١٩٣

المراد بالرّوح الأمين هو جبريل ملك الوحي، بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[١]، وقد سمّاه في موضع آخر بروح القُدُس: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[٢]، و قد تقدّم في تفسير سورتي النّحل و الإسراء ما يتعلّق بمعنى الرّوح من الكلام.

وقد وصف الرّوح بالأمين للدّلالة على أنّه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيّه صلّى الله عليه و آله لا يغيّر شيئًا من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان، كما أنّ توصيفه في آية أُخرى بالقُدُس يشير إلى ذلك.

و قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾ الباء للتّعدية، أي نزّله الرّوح الأمين، و أمّا قول من قال: إنّ الباء للمصاحبة، و المعنى نزل معه الرّوح فلا يلتفت إليه، لأنّ العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الرّوح مع القرآن.

والضّمير في ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ القرآن بما أنّه كلام مؤلّف من ألفاظ لها معانيها الحقّة، فإنّ

---

١ ـ البقرة /٩٧.

٢ ـ النّحل /١٠٢.

ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى، كما أنّ معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[١]، و قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[٢].

فلا يعبأ بقول من قال: إنّ الّذي نزل به الرّوح الأمين إنّما هو معاني القرآن الكريم، ثمّ النّبيّ صلى الله عليه وآله كان يعبّر عنها بما يطابقها و يحكيها من الألفاظ بلسان عربيّ.

و أسخف منه قول من قال: إنّ القرآن بلفظه و معناه من منشآت النّبيّ صلى الله عليه وآله ألقته مرتبة من نفسه الشّريفة تسمّى الرّوح الأمين إلى مرتبة منها تسمّى القلب.

و المراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك و الشّعور في كلامه تعالى هو النّفس الإنسانيّة الّتي لها الإدراك، و إليها تنتهي أنواع الشّعور والإرادة، دون اللّحم الصّنوبريّ المعلّق عن يسار الصّدر الّذي هو أحد الأعضاء الرّئيسة، كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى كقوله: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[٣]، أي الأرواح، و قوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[٤] أي نفسه؛ إذ لامعنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاصّ.

و لعلّ الوجه في قوله ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ دون أن يقول: عليك، هو الإشارة إلى كيفيّة تلقّيه صلى الله عليه وآله القرآن النّازل عليه، و أنّ الّذي كان يتلقّاه من الرّوح هو نفسه الشّريفة، من غير مشاركة الحواسّ الظّاهرة الّتي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأُمور الجزئيّة. فكان صلى الله عليه وآله يرى و يسمع حينما كان يوحى إليه، من غير أن يستعمل حاسّتي البصر والسّمع، كما روي أنّه كان يأخذه شبه إغماء يسمّى بُرَحاء الوحي.

فكان صلى الله عليه وآله يرى الشّخص و يسمع الصّوت مثل مانرى الشّخص و نسمع الصّوت، غير أنّه ماكان يستخدم حاسّتي بصره و سمعه المادّيّين في ذلك كما نستخدمهما. ولوكان رؤيته و سمعه بالبصر و السّمع المادّيّين لكان ما يجده مشتركًا بينه و بين غيره، فكان سائر النّاس يرون ما يراه و يسمعون ما يسمعه، والنّقل القطعيّ يكذّب ذلك، فكثيرًا ماكان يأخذه بُرَحاء الوحي و هو بين النّاس، فيوحى إليه و مَن حوله لايشعرون بشيء، و لايشاهدون شخصًا يكلّمه و لا كلامًا يلقى إليه.

---

١ ـ القيامة /١٨.
٢ ـ آل عمران /١٠٨، الجاثيه /٦.
٣ ـ الأحزاب /١٠.
٤ ـ البقرة /٢٨٣.

والقول بأنّ من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره ﷺ من النّاس عن بعض ما كانت تناله حواسّه و هي الأُمور الغيبيّة المستورة عنّا، هدم لبنيان التّصديق العلميّ؛ إذلو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواسّ و هي مفتاح العلوم الضّروريّة والتّصديقات البديهيّة و غيرها لم يبق وثوق على شيءٍ من العلوم و التّصديقات.

على أنّ هذا الكلام مبنيّ على أصالة الحسّ، و أن لاوجود إلاّ لمحسوس، و هو من أفحش الخطأ، و قد تقدّم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثّل الملك، نافع في المقام.

و ربّما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال: إنّه لكونه هو المدرك المكلّف دون الجسد وإن كان يتلّقى الوحي بتوسيط الأدوات البدنيّة من السّمع والبصر وقد عرفت مافيه.

وربّما قيل: لمّا كان للنّبيّ ﷺ جهتان: جهة مَلَكيّة يستفيض بها، وجهة بشريّة يفيض بها، جعل الإنزال على روحه لأنّها المتّصفة بالصّفات الملكيّة الّتي يستفيض بها من الرّوح الأمين، و للإشارة إلى ذلك قيل: ﴿عَلىٰ قَلْبِكَ﴾ و لم يقل: عليك مع كونه أخصر، انتهى. وهذا أيضًا مبنيّ على مشاركة الحواسّ والقوى البدنيّة في تلقّي الوحي، فيرد عليه ما قدّمناه.

و ذكر جمع من المفسّرين: أنّ المراد بالقلب هو العضو الخاصّ البدنيّ، و أنّ الإدراك كيفما كان من خواصّه.

فمنهم من قال: إنّ جعل القلب متعلّق الإنزال مبنيّ على التّوسّع؛ لأنّ الله تعالى يُسمع القرآن جبريل بخلق الصّوت، فيحفظه و ينزل به على الرّسول ﷺ و يقرئه عليه فيَعِيه و يحفظه بقلبه، فكأنّه نزل به على قلبه.

و منهم من قال: إنّ تخصيص القلب بالإنزال لأنّ المعاني الرّوحانيّة تنزل أوّلاً على الرّوح، ثمّ تنتقل منها إلى القلب؛ لما بينهما من التّعلّق، ثمّ تنتقل منه إلى الدّماغ فينتقش بها لوح المتخيّلة.

و منهم من قال: إنّ تخصيصه به للإشاره إلى كمال تعقّله ﷺ؛ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع و بصر و غير هما.

و منهم من قال: إنّ ذلك للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ و تقدّسه، حيث كان منزلاً لكلامه تعالى به صلاح سائر أجزائه و أعضائه، فإنّ القلب رئيس سائر الأعضاء و مَلِكها و

إذا صلح المَلِك، صلحت رعيّته.

و منهم من قال: إنّ ذلك لأنّ الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعًا و بصرًا مخصوصين يسمع و يبصربهما تمييزًا لشأنه من غيره، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَارَأٰى﴾.[1]

و هذه الوجوه مضافًا على اشتمال أكثرها على المجازفة مبنيّة على قياس هذه الأُمور الغيبيّة على ما عندنا من الحوادث المادّية و إجراء حكمهما فيها، و قد بلغ من تعسفّ بعضهم أن قال: إنّ معنى إنزال الملك القرآن أنّ الله ألهمه كلامه و هو في السّماء و علّمه قراءته، ثمّ الملك أدّاه في الأرض و هو يهبط في المكان، و في ذلك طريقتان؛ **إحداهما:** أنّ النّبيّ ﷺ انخلع من صورة البشريّة إلى صورة الملكيّة فأخذه من الملك، و **ثانيتهما:** أنّ الملك انخلع إلى صورة البشريّة حتّى يأخذه النّبيّ والأُولى أصعب الحالين. وليت شعري ما الّذي تصوّرة من انخلاع الإنسان من صورة إلى صورة الملكيّة و صيرورته ملكًا، ثمّ عودةإنسانًا، و من انخلاع الملك إلى صورة الإنسانيّة، وقد فرض لكلّ منهما هويّة مغايرة للآخر لارابطة بين أحدهما و الآخر ذاتًا و أثرًا، و في كلامه مواضع أُخرى للنّظر غير خفيّة على من تأمّل فيه. **(١٥: ٣١٦ ـ ٣٢٠)**

---

١ ـ النّجم /١١.

الفصل الثّالث و العشرون

نصّ المصطفويّ (معاصرٌ) في «التّحقيق في كلمات القرآن»

[معنى الوحي و أقسامه في القرآن]

[معنى الوحي]

(وحي): أصل يدلّ على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوَحي: الإشارة، والوحي الكتاب و الرّسالة، و كلّ ما ألقيته إلى غيرك حتّى علمه فهو وحي كيف كان، و أوحى الله تعالى و وحىٰ و كلّ ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الّذي ذكرناه. و الوحِيّ: السّريع، و الوَحىٰ: الصّوت.[1]

الوحي: الإشارة و الرّسالة و الكتابة، وهو مصدر وَحىٰ إليه يَحِي، من باب وَعَدَ و أوحىٰ إليه مثله، و جمعه وُحيّ على فُعول. وبعض العرب يقول: وَحَيت إليه و وَحَيت له و أوحيت إليه و له، ثمّ غلب استعمال الوحى:فيما يُلقى إلى الأنبياء من عندالله تعالى و لغة القرآن الفاشية: أوحى والوحىٰ: السّرعة يُمَدّ و يُقْصَر، و موت وَحِيٌّ: سريعٌ وزناً و معنىً، و زكاة وحيّة أي سريعة و يقال: وَحَيت الذّبيحة أحِيها، من باب وَعَد: ذبحتها ذبحًا وَحِيًّا. و وحَّى الدّواءُ الموت توحيةً: عجّله، و أوحاه مثله، واستوحيت فلانًا: استصرخته.[2]

وَحَى يَحي وَحْيًا: كتب، و أوحى إليه: بعثه و ألهـمَه، و أوحـىٰ إلى قـومه: أشـار، والوحى: السّرعة[3].

أصل الوحي الإشاره السّريعة، و لتضمّن السّرعة قيل: أمـرٌ وَحِـيٌ، و ذلك يكـون

---

١ ـ معجم مقاييس اللُّغة ٦: ٩٣.
٢ ـ المصباح المنير: ٦٥١ ـ ٦٥٢.
٣ ـ العين ٣: ٣٢.

بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض، و قد يكون بصوت مجرّد عن التّركيب، و بإشارة بعض الجوارح و باالكتابة. وقوله: ﴿وَ اِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُحُونَ اِلَى اَوْلِيَائِهِمْ﴾[١] فذلك بالوسواس المشار إليه بقوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[٢].

و **الوحي** أضرُبٌ: إمّا برسول مشاهَد تُرى ذاته و يُسمَع كلامه، كتبليغ جبرئيل عليه السلام للنّبيّ في صورة معيّنة، و إمّا بسَماع كلام من غير معاينة كسَماع موسى عليه السلام و إمّا بالقاء في الرّوع كما ذَكر صلى الله عليه وآله: «إنَّ رُوحَ القُدُس نفَثَ في رَوعي»، و إمّا بإلهام نحو: ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرضِعِيهِ﴾[٣]، و إمّا بتسخير نحو: ﴿وَ اَوحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ﴾[٤] أو بمَنام. فالوَحي عامّ في جميع أنواعه، ﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ اِلاَّ نُوحِى اِلَيْهِ﴾.[٥] [٦]

[أقسام الوحي في القرآن]

إنّ الأصل الواحد في المادّة هو إلقاء أمر في باطن غيره، سواء كان الإلقاء بالتّكوين أو بإيراد في القلب، و سواء كان الأمر علمًا أو إيمانًا أو نورًا أو وسوسة أو غيرها، وسواء كان إنسانًا أو ملَكًا أو غيرهما، وسواء كان بواسطة أو بغير واسطة، و يفيد العلم و اليقين.

و سبق فى الإلهام (لهم) أنّه عبارة عن إلقاء من جانب الله في باطن و من دون وساطة، و أكثر استعماله في المعنويّات، و هو مطلق و أعمّ.

١ـ فالوحي في التّكوين، كما في ﴿يَومئِذٍ تُحَدِّثُ اَخْبَارَهَا * بِاَنَّ رَبَّكَ اَوْحىٰ لَهَا﴾[٧]، ﴿فَقَضٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَ اَوْحىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ اَمْرَهَا﴾[٨]. هذا في رابطة أُمورها داخليّة وخارجيّة.

٢ـ و بالنّسبة إلى الحيوان، كما في: ﴿وَ اَوْحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[٩].

---

١ ـ الأنعام / ١٢١.
٢ ـ النّاس / ٤.
٣ ـ القصص / ٧.
٤ ـ النّحل / ٦٨.
٥ ـ الأنبياء / ٢٥.
٦ ـ المفردات: ٥١٥.
٧ ـ الزّلزال / ٥.
٨ ـ فصّلت / ١٢.
٩ ـ النّحل / ٦٨.

و هذا النّحو من الوحي أيضًا تكوينيّ.

٣ـ و في الملائكة، كما في: ﴿اِذْ يُوحِى رَبُّكَ اِلَى الْمَلٰئِكَةِ اَنّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ اٰمَنُوا سَاُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.[1] فالوحي إلى الملائكة إلقاء علم و معرفة في ذواتهم الصّافية الطّاهرة.

و التّعبير في الملائكة بالإيحاء و في الكفّار بالإلقاء، فإنّ في الوحي خصوصيّةً زائدة، وهو إلقاء إلى باطن و قلب شخص، و أيضًا فيه إيراد أمر روحانيّ في القلب. و أمّا الإلقاء فهو مطلق مقابلة مع ارتباط، و هذا المعنى يناسب التّعبير به في مورد الكفّار.

٤ـ و في وحي الشّياطين، كما في: ﴿وَ اِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ اِلٰى اَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[2]. يراد الوساوس الباطلة الّتي من شياطين الإنس و الجنّ إلى أوليائهم الّذين اتّبعوهم و أحبّوهم. و قال تعالى: ﴿وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْاِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ اِلٰى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3].

الزُّخرُف: الباطل و ما يكون خارجًا عن الحقّ الأصيل، و يراد إلقاء القول الباطل الّذي يبرز من قلوبهم كلامًا أو اعتقادًا في قلوب أوليائهم.

٥ـ و في إدّعاء الوحي افتراءً و كِذبًا، كما في: ﴿وَ مَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اللهِ كَذِبًا اَوْ قَالَ اُوحِىَ اِلَىَّ وَ لَمْ يُوحَ اِلَيهِ شَىْءٌ﴾[4].

أي فينسب قوله الكذب الباطل إلى الوحي من الله العزيز، افتراءً على الله المتعال في وحيه إليه، سواء كان هذه النّسبة بعنوان النّبوّة و ادّعاء الولاية أو بعنوان مطلق مقام الارتباطات الغيبيّة.

ـ ولا يخفى أنّ ادّعاء الوحي من أعظم مصاديق الظّلم:﴿وَ مَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى﴾، فإنّه يدّعي مقامًا إلهيًّا و ارتباطًا روحانيًّا، ثمّ ينسب إلى الله العزيز المتعال أكاذيب من عنده، ويُضلّ بهاعباده.

قال تعالى في مورد رسوله خاتم النّبيّين ﷺ: ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْاَقَاوِيلِ *

---

١ ـ الأنفال / ١٢.
٢ ـ الأنعام / ١٢١.
٣ ـ الأنعام / ١١٢.
٤ ـ الأنعام / ٩٣.

لَاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[١]

بل نهى رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن قبل إتمام الوحي و تكميل المأموريّة بقوله تعالى: ﴿وَ لاَتَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.[٢]

بل و نهى نهيًا شديدًا عن التّمايل إلى المخالفين في كيفيّة الرّسالة و تحريف خصوصيّة من الوحي الّذي يوحىٰ إليه، فقال تعالى: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ اِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَ لَوْلاَ اَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ اِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * اِذًا لَاَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيٰوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[٣].

فهذا حال سيّد المرسلين في مورد تمايل ضعيف في إجراء الوحي و حفظه و ضبطه التّامّ، فكيف مَن يدعيه كذبًا و يفتري تعمّدًا فيه نعوذ بالله من الغرور و اتّباع الهوى و الشّيطان.

٦ـ الوحي فيه إلزام و تكليف يجب اتّباعه، قال تعالى: ﴿اِنْ اَتَّبِعُ اِلاَّ مَا يُوحىٰ اِلَيَّ اِنِّى اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٤]، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ اِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ اللهُ﴾[٥]، (فَاسْتَمسِكَ بِالَّذِى اُوحِىَ اِلَيْكَ اِنَّكَ عَلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٦]، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٧].

ولايخفى أنّ الوحي يوجب شهودًا بالقلب، و هو أقوى من مشاهدة البصر و من استماع الصّوت. و شهودُ القلب يدركه الإنسان بالبصيرة اليقينيّة، و يؤثّر في باطن الإنسان أثرًا عميقًا قاطعًا لايدخله شكّ.

و **قلنا في (شهد)**: إنّ الشّهود عبارة عن العلم بالحضور عند المعلوم، راجعه.

٧ـ و في العمل بالوظيفة و العبوديّة، كما في: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ اَئِمَّةً... وَ اَوْحَيْنَا اِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ اِقَامَ الصَّلٰوةِ وَ اِيتَاءَ الزَّكٰوةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٨]، ﴿ثُمَّ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ اَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ اِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٩]، ﴿قُلْ لاَ اَجِدُ فِى مَا اُوحِىَ اِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ اِلاَّ اَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾[١٠].

---

١ ـ الحاقّة: / ٤٤ ـ ٤٦.
٢ ـ طٰه / ١١٤.
٣ ـ الإسراء / ٧٣ ـ ٧٥.
٤ ـ يونس / ١٥.
٥ ـ يونس / ١٠٩.
٦ ـ الزُّخرُف / ٤٣.
٧ ـ الأحزاب / ٢.
٨ ـ الأنبياء / ٧٣.
٩ ـ النّحل / ١٢٣.
١٠ ـ الأنعام / ١٤٥.

فهذه الوظائف التّكليفيّة و الاعتقاديّة إنّما تتعيّن و تتشخّص بالوحي على الأنبياء، وقلنا: إنّ الوحي أقوى وسيلةٍ لحصول العلم واليقين.

٨ـ و في المعرفة و الحكمة، كما في: **﴿ذٰلِكَ مِمَّا اَوْحىٰ اِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لاَتَجْعَلْ مَعَ اللهِ اِلٰهًا اٰخَرَ﴾**[١]، **﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَاكُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَلاَالْاِيمَانُ﴾**[٢]

و لا يخفى أنّ المعارف الإلهيّة لا سبيل إلى معرفتها حقّ المعرفة إلاّ الوحي من الله عزّوجلّ و تعليمه بالشهود اليقينيّ القلبيّ، و أمّا العلوم الرّسميّة فلا تزيد إلاّ تردّدًا أوظنًّا لصاحبها، و لاتُغني من الحقّ شيئًا.

٩ـ و في الحقائق الإلهيّة المتعالية، كما في: **﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنىٰ * فَاَوْحىٰ اِلىٰ عَبْدِهِ مَا اَوْحىٰ * مَاكَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاٰى﴾**.[٣]

قلنا: إنّ الوحي هو شهود القلب، و يدلّ عليه التّفسير برؤية الفؤاد، و سبق أنّ الفؤاد هو البالغ حال الطّيب و الخلوص و النّقاء، وهو الّذي يستعدّ لرُؤية الحقائق اللّاهوتيّة بالوحي الإلهيّ.

١٠ـ والوحي للأنبياء والمرسلين، كما في: **﴿اِنَّا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ كَمَا اَوْحَيْنَا اِلىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اِبْرٰهِيمَ وَ اِسْمٰعِيلَ وَ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ وَالْاَسْبَاطِ وَ عِيسىٰ وَ اَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هٰرُونَ وَ سُلَيْمٰنَ و اٰتَيْنَا داوُدَ زَبُورًا * وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيمًا﴾**[٤]، **﴿وَ مَايَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى * اِنْ هُوَ اِلاَّ وَحْىٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ * ذُومِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ﴾**[٥]، **﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلٰى مُوسىٰ وَ اَخِيهِ اَنْ تَبَوَّاٰ لِقَومِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾**.[٦]

فإنّ أقوى وسيلة و أتقنها في تبيين وظائف الرّسالة و تعليم الحقائق و تفهيم المعارف الإلهيّة و الإرشاد إلى الأحكام و الآداب الدّينيّة هو الوحي من جانب الله المتعال من غير واسطة أمر آخر.

---

١ ـ الإسراء / ٣٩.
٢ ـ الشّورى / ٥٢.
٣ ـ النّجم / ٩ ـ ١١.
٤ ـ النّساء / ١٦٣ و ١٦٤.
٥ ـ النّجم / ٣ ـ ٦.
٦ ـ يونس / ٨٧.

و قد يكون البيان بإيجاد كلام، أو بمخاطبة ملك، أو برؤيا مَنام، إذا انتهى كلّ منها إلى تأثير و نفوذ قاطع في القلب كالوحي، حتّى يكون ذلك البيان حجّةً تامّةً من الله تعالى. والحجّة من الله المتعال إنّما يتحقّق إذا أوجب شهودًا في القلب. و أمّا مطلق السّماع و المخاطبة و الرُّؤيا و الإلقاء فلا يكون حجّة فيما بين‌الله و بين رُسله ما لم ينفذ في القلب ولم يوجب شهودًا.

١١ـ الوحي للأنبياء في الأُمور المتفرّقة، كما في: ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ مُوسىٰ اَنْ اَلْقِ عَصَاكَ﴾[١] ﴿اَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[٢] ﴿اَنْ اَسْرِ بِعِبَادِى﴾[٣]، ﴿فَاَوْحَيْنَا اِلَيْهِ اَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِاَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا﴾[٤]، ﴿ذٰلِكَ مِنْ اَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ اِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾.[٥]

و من هذا القبيل الوحي في ما يرتبط بالمعجزات و ما تقدّم من الأُمور و ما يأتي و ما يتعلّق بأُمور النّاس و حالاتهم.

١٢ـ الوحي لنبيّنا صلوات الله عليه في القرآن، كما في: ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ﴾[٦]، ﴿وَ اُوحِىَ اِلَىَّ هٰذَا الْقُرْاٰنُ لِاُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾[٧]، ﴿وَالَّذِى اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٨]، ﴿اُتْلُ مَا اُوحِىَ اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[٩]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ اَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْاٰنَ﴾[١٠].

فالقرآن الكريم ممّا أُوحِي إلى نبيّنا صلوات الله عليه، وهو النّازل من الله العزيز المتعال بألفاظ و مفاهيمه، و سبق أنّه معجز لفظًا و معنىً.

ولمّا كان القرآن الكريم و ما هو من آثار الرّسالة و لوازمه ممّا يجب أن يكون قطعيًّا ومتيقّنًا للرّسول حتّى يعتمد عليها و يُبلّغها في النّاس، و إن قلنا: إنّ من أتقن ما يوجب اليقين هو الوحي الملازم بالشّهود عند القلب النّافذ في الفؤاد، و هو النّازل من الله تعالى بلاواسطة. و أمّا إذ اتحقّق النّزول بواسطة صوت أو ملك أو رؤيا في منام أوفي مكاشفة

---

١ ـ الأعراف / ١١٧.
٢ ـ الأعراف / ١٦٠.
٣ ـ طه / ٧٧.
٤ ـ المؤمنون / ٢٧.
٥ ـ يوسف / ١٠٢.
٦ ـ الشّورىٰ / ٧.
٧ ـ الأنعام / ١٩.
٨ ـ فاطر / ٣١.
٩ ـ العنكبوت / ٤٥.
١٠ ـ يوسف / ٣.

فلابدّ من أن تنتهي إلى حصول شهود في القلب، حتّى يتحقّق الإطمئنان التّام و اليقين الكامل.

١٣ـ الوحي في التّوحيد، كما في: ﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ اِلاَّ نُوحِى اِلَيْهِ اَنَّهُ لآاِلٰهَ اِلاَّ اَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[١]، ﴿قُلْ اِنَّمَا اَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ اِلَيَّ اَنَّمَا اِلٰهُكُمْ اِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَ لاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ اَحَدًا﴾[٢]، ﴿قُلْ اِنَّمَا اَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ اِلَيَّ اَنَّمَا اِلٰهُكُمْ اِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا اِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ﴾[٣].

والتّوحيد أوّل ما يجب للبشر عرفانُه و تعلّقه به، و هو أهمّ الوظائف العقليّة و أعلى المعارف الإنسانيّة، و به يرتبط الإنسان بمبدء العوالم و باريء الموجودات، و به يحصل السّعاده الأبدّية و الكمال الذّاتي.

و لايخفى أنّ التّوحيد في العقيدة يلازمه العبوديّة و خلوص العمل له، و الاستقامة التّامّة في طاعته، حتّى يطابق الظّاهر الباطن.

١٤ـ الوحي للأفراد المختلفة غير الأولياء، كما في: ﴿وَ اِذْ اَوْحَيْتُ اِلَى الْحَوارِيّينَ اَنْ اٰمِنُوا بِى وَ بِرَسُولِى قَالُوا اٰمَنَّا﴾[٤]، ﴿اِذْ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّكَ مَا يُوحىٰ * اَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ﴾[٥]، ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعِيهِ﴾[٦].

الوحي إن كان في مورد إبلاغ الأحكام والحقائق الإلهيّة فلابدّ أن يتحقّق بوسيلة رسول أمين طاهر، لاينطق عن الهوى ولايتمايل إلى جانب خلاف‌الحقّ، ليكون حجّة تامّة من الله تعالى.

و أمّا في موارد شخصيّة أو عرفيّة اجتماعيّة فلا إشكال في تحققّه بوسائط مختلفة، إذا أُريد منه هدايتهم إلى ما فيه صلاحهم، و هذا لطف منه تعالى في مورد عباده المتوجّهين إليه المتوقّعين منه.

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٧].

---

١ ـ الأنبياء / ٢٥.
٢ ـ الكهف / ١١٠.
٣ ـ فصّلت / ٦.
٤ ـ المائدة / ١١١.
٥ ـ طه / ٣٨ و ٣٩.
٦ ـ القصص / ٧.
٧ ـ الشّورى / ٥١.

الكلام: هو ما يُبرِز عن الباطن و يُبيِّن النّيّة القلبيّة بأيّ نحو كان، فيشمل الكلام بالحروف والصّوت، والكلام بإيجاد تكوينيّ، والكلام المعنويّ، أو الظّاهر بواسطة ملك أو إنسان و غيرهما.

فيستحيل أن يكلّم الله بشرًا إلاّ بالصّور الثّلاث المذكورة في الآية الكريمة، فإنّ الكلام المادّيّ الظّاهريّ يحتاج إلى تحقّق الجهاز الباطنيّ القلبيّ، والجهاز الظّاهريّ للتّكلّم، ووجود أسباب خارجيّة من المكان والهواء. وهذه الأُمور توجب محدوديّة و فقرًا و حاجة في المتكلّم، و لا ينسَب إلى الله المتعال.

و أمّا الوحي فقلنا: إنّه عبارة عن إلقاء أمر منظور في قلب شخص يوجب يقينًا و شهودًا له، و هذا الإلقاء أمر روحانيّ و يُلقى في الباطن و القلب الرّوحانيّ لا القلب الجسمانيّ، وهو ممكن أن يُنسب إلى الله المتعال.

فالوحي تكليم الله عبدَه بلاواسطة و بلا حجاب، و هو من المصاديق الكاملة التّامّة للكلام من الله المتعال.

و أمّا الكلام من وراء الحجاب فهو إذا لم يكن الخطاب بلاواسطة شيء بل يوجَد و يُبرَز في الخارج بواسطة مَلَك أو ألفاظ و كلمات أو وسيلة أُخرى، فالكلام حينئذ يظهر في الخارج بأحد منها.

و في هذه الصّورة يجب أن تكون الواسطة مَظهرًا و مُجليً و مرآةً للكلام الإلهيّ من دون أن تكون لها موضوعيّة و خصوصيّة، فهي لا تُري إلاّ الكلام، و هذا كالقرآن المجيد الظّاهر بوسيلة النّبيّ أو مَلَك.

فالقرآن الكريم باعتبار أنّه أُوحِيَ إلى النّبييّ ﷺ وحيٌ، و باعتبار ظهوره في الخارج و نسبته إلى النّاس كلام لِلّه تعالى.

و أمّا إرسال الرّسول أعمّ من أن يكون الرّسول إنسانًا أو ملَكًا، و هو مأمور بإبلاغ الكلام و إبرازه إلى النّاس، فهذا الرّسول إذا كان أمينًا في بيانه و مأمورًا به فهو يروي كلام‌الله المتعال، سواءً كان إلقاؤه إليه وحيًا أو روايةً.

ففي هذه الصّورة يلاحظ الرّسول على نحو الاستقلال و الموضوعيّة، و في الصّورة

الثّانيّة كونُه فانيًا و مرآةً و غير ملحوظ بذاته.

و لا يخفى أنّ هذه الصّور الثّلاث في الآية الكريمة إنّما هي لبيان أقسام كلمات الله المتعال، والوحي إنّما يتصوّر في واحد منها.

وقد اضطربت كلمات المفسّرين في تفسير الآية، و كذلك في تفسير معنى الوحي و حقيقته، و في ما بيّنّاه كفاية للمتدبّر. (١٣: ٦٣ ـ ٧٤)

الفصل الرّابع و العشرون

نصّ الشّيخ معرفة (معاصر) في «التّمهيد في علوم القرآن»

الوحي في اللّغة

الوحي إعلام سريع خفيّ، سواءً كان بإيماءةٍ أو همسة أو كتابة في سرٍّ، و كلّ ما ألقيته إلى غيرك في سرعة خاطفة حتّى فهمه فهو وحي، قال الشّاعر:

نَظَرْتُ إليها نَظْرة فتحيّرت   دَقائقَ فكري في بَديع صفاتِها
فأوحى إليها الطَّرْف أنّي أُحبّها   فأثّر ذاك الوحي في و جَناتِها

و قال تعالى عن زكريّا عليه السلام ﴿فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَاَوْحىٰ اِلَيْهِمْ اَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا﴾[1] أي أشار إليهم على سبيل الرّمز و الإيماء... **[ثمّ ذكر قول الرّاغب و ابن فارِس، كما تقدّم عن المصطفويّ فقال:]**

و لعلّ هذا التّعميم في مفهوم الوحي ـ عند ابن فارِس ـ كان في أصل وضعه، غير أنّ الاستعمال جاء فيما كان خفيًّا. قال أبو إسحاق: أصل الوحي في اللّغة كلّها إعلام في خفاء، ولذلك سُمّي الإلهام وحيًا.

وقال ابن بَرّي: وَحَيَ إليه و أوحى: كلّمه بكلام يخفيه من غيره، و وَحَيَ و أوحى: أومأ، قال الشّاعر: فأوحت إلينا و الأنامل رسلها؛[2] أي أشارت بأناملها و لعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السّرعة فيه، فالإيماءة السّريعة تخفى ـ طبعًا ـ على غير المومأ إليه، يقال: موت وَحِيّ، أي سريع، و منه: «الوحا الوحا» أي البدار البدار، يقال ذلك

---

١ ـ مريم /١١.

٢ ـ لسان العرب: ابن منظور.

عند الاستعجال، ومنه الحديث: «و إن كانت خيرًا فَتوَحَّه» أي أسرع إليه، قال ابن الأثير: والهاء للسّكت[١].

قال الزَّمَخشريّ: أوحى إليه و أومأ بمعنى، و وَحَيت إليه و أوحيت، إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره، و تَوَحَّى، أي أسرع، قال الأعشى:

مثل ريح المِسْك ذاك رِيحها صَبَّها السّاقي إذا قيل تَوَحَّ[٢]

الوحي في القرآن

واستعمله القرآن في معانٍ ثلاثة ما عدا الوحي الرّساليّ الآتي:

١ـ نفس المعنى اللّغويّ

الإيماءة الخفيّة، و قد مرّ في آية مريم.

٢ـ تَر كيز غريزيّ فِطّريّ

و هو تكوين طبيعيّ مجعول في جبلّة الأشياء، استعارة من إعلام قوليّ لإعلام ذاتيّ، بجامع الخفاء في كيفيّة الإلقاء والتّلقّي، فبما أنّ الوحي إعلام سرِّيّ ناسب استعارته لكلّ شعور باطنيّ فطريّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَ اَوْحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعرِشُونَ ثُمَّ كُلى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكى سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلاً﴾[٣] فهي تنتهج وفق فطرتها، و تستوحي من باطن غريزتها، مذلّلة لما أودع فيها من غريزة العمل المنتظم، و من ثمّ فهي لا تحيد عن تلك السّبيل.

و من ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَ اَوْحىٰ فى كُلِّ سَمَاءٍ اَمْرَهَا﴾،[٤] أي قدّر و قد استوحى العَجّاج هذا المعنى من القرآن في قوله:

أوحى لها القرار فاستقرّت و شَدَّها بالرّاسِيات الثّبّت[٥]

---

١ ـ النّهاية ٥: ١٦٣.

٢ ـ أساس البلاغة ٢: ٤٩٦.

٣ ـ النّحل /٦٨.

٤ ـ فصّلت /١٢.

٥ ـ لسان العرب.

٣ـ إلهام نفسيّ

و هو شعور في الباطن يحسّ به الإنسان إحساسًا يخفى عليه مصدره أحيانًا، و أحيانًا يلهم أنّه من الله، وقد يكون من غيره تعالى.

و هذا المعنى هو المعروف عند الرّوحيّين بظاهرة التِّلَباتي «التّخاطر من بعيد» و هو خطور باطنيّ آنيّ لا يعرف مصدره، قالوا: إنّها فكرة تنتقل من ذهن إنسان إلى آخر و المسافة بينهما شاسعة. أوإلقاء روحيّ من قبل أرواح عالية أوسافلة[١].

و قيل إنّها فكرة رحمانيّة تُوجِيها الملائكة، تنفثها في روع إنسان يريد الله هدايته، أو وسوسة شيطانيّة تلقيها أبالسة الجنّ لغرض غوايته.

و من الإلهام الرّحمانيّ قوله تعالى: **﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعِيهِ فَاِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَ لاَتَخَافِى وَ لاَ تَحْزَنِى اِنَّا رَادُّوهُ اِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**[٢]، قال الأزهريّ: الوحي هنا إلقاء الله في قلبها، قال: و ما بعد هذا يدلّ ـ و الله أعلم ـ على أنّه وحي من الله على جهة الإعلام، للضّمان لها **﴿اِنَّا رَادُّوهُ اِلَيْكِ﴾** و قيل: إنّ معنى الوحي هنا الإلهام، قال: و جائز أن يلقي الله في قلبها، أنّه مردود إليها و أنّه يكون مرسلاً، و لكنّ الإعلام أبين في معنى الوحي هنا[٣].

و الشّيخ المفيد ﵀ أخذ الوحي هنا بمعنى الإعلام الخفيّ في كتابه: «أوائل المقالات» لكنّه في كتابه: «تصحيح الاعتقاد» جعله بمعنى رؤيا أو كلام سمعته أُمّ موسى في المنام. و قال ـ بصدد إيضاح معنى الوحي ـ أصل الوحي هو الكلام الخفيّ، ثمّ قد يطلق على كلّ شيءٍ قصد به إفهام المخاطب على السّرّله عن غيره.[٤]

و أمّا التّعبير بالوحي عن وسواس الشّيطان وتسويله خواطر الشّرّ والفساد، فجاء في قوله تعالى: **﴿وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْاِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ اِلٰى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾**[٥] و قال: **﴿وَ اِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ اِلٰى اَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾**[٦] و يفسّره

---

١ ـ راجع: رؤوف عبيد، فصل: الإنسان روح لا جسد، ١: ٥٤٢.

٢ ـ القصص /٧.

٣ ـ لسان العرب: ابن منظور.

٤ ـ راجع أوائل المقالات: ٣٩ و تصحيح الاعتقاد: ٥٦.

٥ ـ الأنعام /١١٢.

٦ ـ الأنعام /١٢١.

قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * اَلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.[١]

كما جاء التّعبير عمّا يلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم بالوحي أيضًا في قوله تعالى: ﴿اِذْ يُوحِى رَبُّكَ اِلَى الْمَلٰئِكَةِ اِنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾.[٢]

و أمّا التّعبير بالوحي عمّا يلقيه الله إلى نبيّ من أنبيائه بواسطة ملك أو بغير واسطة لأجل تبليغ رسالة الله، فهو معنى رابع استعمله القرآن.

٤ـ الوحي الرّساليّ

الوحي الرّساليّ؛ معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعًا، معبّرًا عن القرآن أيضًا بأنّه وحي أُلقي على النّبيّ ﷺ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ اَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ هَذَا الْقُرْاٰنَ﴾[٣]، ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ اُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا﴾[٤]، ﴿وَاتْلُ مَا اُوحِىَ اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[٥].

وظاهرة الوحي بشأن رسالة الله هي أولى سمات الأنبياء، امتازوا بها على سائر الزُّعماء و المصلحين أصحاب العبقريّات الملهمين. و لم يكن النّبيّ محمّدﷺ بدعًا من الرّسل في هذا الاختصاص النّبويّ، ولا أوّل من خاطب النّاس باسم الوحي السّماويّ، و من ثمّ فلا عجب في هذا الاصطفاء مادام رَكْب البشريّة منذ بداية سيرها لم تزل يرافقها رجال إصلاحيّون يهتفون بهذا النّداء الرّوحيّ، و يدعون إلى الله باسم الوحي و تبليغ رسالة الله: ﴿اَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلٰى رَجُلٍ مِنْهُمْ اَنْ اَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ اٰمَنُوا اَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِم قَالَ الْكَافِرُونَ اِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾.[٦]

و دفعًا لهذا الاستنكار الغريب قال: ﴿اِنَّا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ كَمَا اَوْحَيْنَا اِلٰى نُوحٍ وَالنَّبِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ اَوْحَيْنَا اِلٰى اِبْرٰهِيمَ وَ اِسْمٰعِيلَ و اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْاَسْبَاطِ وَ عِيسىٰ وَ اَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هٰرُونَ وَ سُلَيْمٰنَ وَ اٰتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ـ إلى أن قال ـ قَد ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.[٧]

---

١ ـ النّاس /٤ـ٦.
٢ ـ الأنفال /١٢.
٣ ـ يوسف /٣.
٤ ـ الشّورى /٧.
٥ ـ العنكبوت /٤٥.
٦ ـ يونس / ٢.
٧ ـ النّساء /١٦٣ ـ ١٦٧.

والوحي الرّساليّ لايعد و مفهومه اللّغوي بكثير بعد أن كان إعلامًا خفيًّا، و هو اتّصال غيبيّ بين الله و رسوله، يتحقّق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَاىءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾[1].

فالصّورة الأُولى إلقاء في القلب ونفث في الرّوع، والثّانية: تكليم من وراء حجاب، بخلق الصّوت في الهواء بما يقرع مسامع النّبيّ ﷺ ولا يرى شخص المتكلّم، و الثّالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه إلى النّبيّ، إمّا عيانًا يراه أولا يراه و لكن يستمع إلى رسالته.

إذن فالفارق بين الوحي الرّساليّ و سائر الإيحاءات المعروفة هو جانب مصدره الغيبيّ اتّصالاً بماوراء المادّة فهو إيحاء من عالم فوق، الأمر الّذي دعا بأُولئك الّذين لايروقهم الاعتراف بماسوى هذا الإحساس المادّي أن يجعلوا من الوحي الرّسالي سبيله إلى الإنكار، أو تأويله إلى وجدان باطنيّ ينتشي من عبقريّة واجده.

أنحاء الوحي الرّساليّ

قال تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا﴾ أي إلهامًا و قذفًا في روعه، و هو إلقاء في الباطن، يحسّ به الموحى إليه كأنّما كتب في ضميره صفحة لامعة، أورؤيًا في منام، ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾، أي يكلّمه تكليمًا يسمع صوته و لا يرى شخصه، كما كلّم موسى عليه السلام بخلق الصّوت في الهواء يخرق مسامعه، و يأتيه من كلّ مكان، و كما كلّم نبيّنا ﷺ ليلة المعراج.

والتّكليم من وراء حجاب كناية أو تشبيه بمن يتكلّم محتجبًا، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنويّ لبعد الفاصلة بين كمال الواجب و نقص الممكن.

﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ ملكًا من الملائكة، ﴿فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾: إمّا إلقاء على السّمع أو نقرًا في القلب.

﴿وَ كَذٰلِكَ﴾، أي على هذه الأنحاء الثّلاثة: إلهامًا و تكليمًا و إرسال ملك،[2] ﴿اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا﴾ هي الشّريعة أو القرآن ﴿مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرى مَاالْكِتَابُ وَ لاَالْاِيمَانُ وَلٰكِـنْ

---

١ ـ الشّورى /٥١.

٢ ـ راجع: بحار الأنوار ١٨: ٢٤٦.

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ اِنَّكَ لَتَهْدِي اِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١] هذه أنحاءالوحي بوجه عامّ و بصورة إجماليّة، أمّا بالنّسبة إلى نبيّنا محمّدﷺ فكان يأتيه الوحي تارةً في المنام،و هذا ـ أكثر ـ كان في بدء نبوّته، و أُخرى وحيًا مباشريًّا من جانب الله بلا توسيط ملك، و ثالثة مع توسيط جبرئيل﵇. غير أنّ الوحي القرآنيّ كان يخصّ الأخيرين إمّا مباشرةً أو على يد ملك، وإليك بعض التّفصيل:

١ـ الرُّؤيا الصّادقة

كان أوّل ما بدىء به من الوحي الرُّؤيا الصّادقة، كانﷺ لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح ـ و هو كناية عن تشعشع نورانيّ كان ينكشف لروحه المقدّسة تمهيدًا لإفاضة روح القدس عليه ـ صلوات الله عليه و آله، ثمّ حبّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حِراء يتحنّث فيه[٢] اللّيالي أُولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، و يتزوّد لذلك، ثمّ يرجع خديجة فتزوّده لمثلها[٣] حتّى فجأه الحقّ وهو في غار حِراء جاءه الملك فقال: (اِقرأ...).[٤]

قال عليّ بن إبراهيم القُمّيّ ﷺ لمّا أتى له سبع و ثلاثون سنة... **[و ذكر كما تقدّم عنه في بدءالوحي، ثمّ ذكر رواية الإمام الباقر﵇ كما تقدّم عن الصّفّار الرّقم ٢، فقال:]**

قوله «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرّساليّ المأمور بتبليغه، لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النّبيّ» قبل أن يكون رسولاً، و هو إنسان أُوحي إليه من غير أن يكون مأمورًا بتبليغه، فهو يتّصل بالملأ الأعلى اتّصالاً روحيًّا، و ينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّناﷺ قُبَيل بعثته المباركة.

قال صدر الدّين الشّيرازيّ: «يعني أنّهﷺ اتّصفت ذاته المقدّسة بصفة النّبوّة، و جاءته الرّسالة من عندالله باطنًا و سرًّا، قبل أن يتّصف بصفة الرّسالة أو ينزل عليه جبرائيل

---

١ ـ الشّورى /٥١ ـ ٥٢.

٢ ـ التُّحنّث: التّحنّف، و هو الميل إلى الحنيفيّة، كناية عن التّعبّد الّذي هو مطهّرة للعبد، قال ابن هِشام: تقول العرب: التّحنّث و التّحنّف، فيبدلون الفا من الثّاء، كما في جدث و جدف، أي القبر، قال: وحدّثني أبو عُبَيدة أنّ العرب تقول: فمّ في موضع ثمّ.

٣ ـ التزوّد: استصحاب الزّاد.

٤ ـ البخاريّ ١:٣. مسلم ٩٧:١٨. تاريخ الطّبريّ ٢: ٢٩٨.

معاينًا محسوسًا بالكلام المنزل المسموع، و إنّما جاءه جبرئيل معاينًا حين جمع له من أسباب النّبوّة ما جمع للأنبياء الكاملين، كإبراهيم من الرُّؤيا الصّادقة و الإعلامات المتتالية بحقائق العلوم و الإيحاءات بالمغيّبات. و الحاصل أنّ النّبيّ ﷺ استكمل باطنه و سرّه قبل أن يتعدّى صفة الباطن منه إلى الظّاهر، فاتّصف القالب بصفة القلب محاكيًا له، و الأوّل نهاية السّفر من الخلق إلى الحقّ، و الثّاني نهاية السّفر من الحقّ بالحقّ إلى الخلق».[١]

نعم ربّما كانت الرُّؤيا الصّادقة سبيل الوحي إليه ﷺ فيلقى إليه العلم أحيانًا في المنام، قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحي»[٢]، و لكن لم يكن شيء من ذلك قرآنًا، إذلم يعهد نزول قرآن عليه في المنام. نعم و إن كانت بعض رُؤاه أسبابًا لنزول القرآن، كما في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ اِنْ شَاءَ اللهُ...﴾**[٣] فقد رأى النّبيّ ﷺ ذلك عام الحُدَيْبيّة[٤] و صدقت عام الفتح[٥].

و كما في قوله: **﴿وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى اَرَيْنَاكَ اِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْاٰنِ﴾**[٦]، فقد أخرج ابن أبي حاتم و ابن مَرْدُوَيْه و البَيْهَقيّ و ابن عَساكِر، عن سعيدبن‌المسيّب، قال: رأى رسول الله ﷺ بني أُميّة على المنابر، فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنّما هي دنيا أعطوها، و هي قوله تعالى: **﴿وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا...﴾**، يعني بلاء للنّاس.[٧]

هذا... و قد ذكر بعضهم أنّ سورة الكوثر نزلت على رسول الله ﷺ في المنام، لرواية أنس بن مالك، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً، ثمّ رفع رأسه متبسّمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ﷺ فقال: أُنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...﴾** إلخ.[٨]

قال الرّافعيّ: إنّهم فهموا ذلك أنّ السّورة نزلت في تلك الإغفاءة، لكن الأشبه أنّه خطر له في النّوم سورة الكوثر المنزّلة عليه قبل ذلك، فقرأها عليهم و فسّرها لهم. قال: و قد يحمل ذلك على الحالة التّي كانت تعتريه عند نزول الوحي، و يقال لها: بُرَحاء الوحي، و

---

١ ـ شرح أُصول الكافي الحديث ٣:٤٥٤.
٢ ـ أمالي الشّيخ الطّوسيّ: ٢١٥ و البحار ١١: ٦٤.
٣ ـ الفتح /٢٧.
٤ ـ و هي سنة ستّ من الهجرة.
٥ ـ و هي سنة ثمانٍ.
٦ ـ الإسراء /٦٠.
٧ ـ الدرّ المنثور ٤:١٩١، تفسيرالطّبَريّ: ١٥: ٧٧.
٨ ـ الدرّ المنثور ٦:٤٠١.

هي سبتة شبه النّعاس كانت تعترضه من ثقل الوحي.

قال جلال الدّين: الّذي قاله الرّافعيّ في غاية الاتّجاه، و التّأويل الأخير أصحّ من الأوّل، لأنّ قوله: «آنفًا» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نزلت في تلك الحالة، و لم يكن الإغفاء إغفاء نوم بل الحالة الّتي كانت تعتريه عند الوحي[١] و آنف بمعنى قُبَيل هذا الوقت.

أقول: لاشكّ أنّ سورة الكوثر مكّيّة، و هذا هو المشهور بين المفسّرين شهرة تكاد تبلغ التّواتر، قالوا: نزلت بمكّة عندما عابه المشركون بأنّه أبتر لا عقب له، أو أنّه مبتور من قومه منبوذ.

و هكذا الّمامات ابنه إبراهيم مَشَت قُريش بعضهم إلى بعض متباشرين، فقالوا: إنّ هذا الصّابىء قد بتر اللّيلة. قال ابن عبّاس: دخل رسول الله ﷺ من باب الصّفا و خرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السّهميّ، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفًا؟ قال ذلك الأبتر ـ يريد به النّبيّ ﷺ ـ فأنزل الله جلّ جلاله سورة الكوثر تسلية لنفس نبيّه الزّكيّة.[٢]

هذا و أنس عند وفاة النّبيّ ﷺ لم يبلغ العشرين، إذ كان عند مقدمه ﷺ المدينة طفلاً لم يتجاوز التّسع و قيل: ثماني سنوات[٣]، فكيف نثق بحديث منه يخالف إطباق الأُمّة على خلافه، و أنّها نزلت بمكّة في قصّة جازت حدّ التّواتر؟!.

الأمر الّذي يرجّح الوجه الأوّل من اختيار الإمام الرّافعيّ، أو نجعل من رواية أنس حبلها على غاربها!.

نعم أخرج مسلم و البَيْهقيّ هذه الرّواية من وجه آخر، ليس فيه «أُنزلت عليّ»، قال أغفى النّبيّ ﷺ إغفاءةً ثمّ رفع رأسه فقرأ: ﴿بِسْمِ الله الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر...﴾ ثمّ فسّرها بنهر في الجنّة. قال البَيْهَقيّ: و هذا اللّفظ أولى، حيث لا يتنافى و ما عليه أهل التّفاسير و المغازي من نزول سورة الكوثر بمكّة...[٤]

---

١ ـ الإتقان ١: ٢٣.
٢ ـ أسباب النّزول ٢: ١٤٢، الدرّالمنثور ٦: ٤٠١.
٣ ـ أُسد الغابة ١: ١٢٧.
٤ ـ الدّرّالمنثور ٦: ٤٠١.

٢ـ نزول جبرائيل

كان الملك الّذي ينزل النّبيّ ﷺ بالوحي هو جبرائيل عليه السلام، فكان يلقيه على مسامعه الشّريفة، فتارةً يراه إمّا في صورته الأصليّة ـ و هذا حصل مرّتين ـ أو في صورة دِحْيَة بن خليفة، و أُخرى لا يراه، و إنّما ينزل بالوحي على قلبه ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾.[١]

قال تعالى: ﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى* اِنْ هُوَ اِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ﴾: جبرائيل، مثال قدرته تعالى، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو عقليّة جبّارة، ﴿فَاسْتَوىٰ﴾: استقام على صورته الأصليّة، و هذا هو المرّة الأُولى في بدء الوحي، ﴿وَ هُوَ بِالْاُفُقِ الْاَعْلىٰ﴾ سدّ ما بين الشرق و الغرب، ﴿ثُمَّ دَنىٰ فَتَدَلّىٰ﴾.

فجعل يقترب من النّبيّ ﷺ ﴿فَكٰانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنىٰ * فَاَوْحىٰ﴾ الله بواسطة جبرائيل ﴿اِلىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّد ﷺ ﴿مَا اَوْحىٰ مَا كَذَبَ الفُؤَادَ﴾: فؤاد محمّد ﷺ ﴿مَارَاٰى﴾ فكان قلبه ﷺ يصدّق بصره فيما يرى أنّه حقّ، ﴿اَفَتُمَارُونَهُ عَلىٰ مَا يَرىٰ * وَ لَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً اُخْرىٰ﴾: مرّةً ثانية في مرتبة أنزل من الأُولى ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَاْوىٰ * اِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشىٰ * مَازَاغَ الْبَصَرُ وَ مَاطَغىٰ﴾[٢]، فكان الّذي يراه حقيقة واقعة، ليس وهماً و لا خيالاً.

و قال: ﴿اِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: جبرئيل ﴿ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ اَمِينٍ * وَ مَا صَاحِبُكُمْ﴾: محمّد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ * وَ لَقَدْ رَاٰهُ﴾: رأىٰ جبرئيل في صورته الأصليّة ﴿بِالْاُفُقِ الْمُبِينِ﴾[٣]، إشارة إلى المرّة الأُولى أيضًا.

قال ابن مسعود: إنّ رسول الله ﷺ لم ير جبرئيل في صورته إلاّ مرّتين؛

إحداهما: أنّه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسدّ الأُفق، و أمّا الثّانية فحيث صعد به ليلة المعراج، فذلك قوله: ﴿و هُوَ بِالْاُفُقِ الأَعْلىٰ﴾.[٤]

والصّحيح أنّ المَرّتين كانت إحداهما في بدء الوحي بحِراء، ظهر له جبرئيل في

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٣.

٢ ـ النّجم / ٣ ـ ١٧.

٣ ـ التّكوير / ١٩ ـ ٢٣.

٤ ـ الدّرّ المنثور ٦: ١٢٣.

صورته الّتي خلقه الله عليها، مالئًا أُفق السّماء من المشرق و المغرب، فتهيّبه النّبيّ صلى الله عليه وآله تُهيّبًا بالغًا، فنزل عليه جبرئيل في صورة الآدميّين فضمّه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلاّ في صورة بشر جميل.

والثّانية: كانت باستدعائه صلى الله عليه وآله الّذي جاءت به الرّوايات، كان لا يزال يأتيه جبرئيل في صورة الآدميّين، فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله أن يريه نفسه مرّةً أُخرىٰ على صورته الّتي خلقه الله، فأراه صورته فسدّ الأُفق. فقوله تعالى: ﴿وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلىٰ﴾ كانت المرّة الأُولى، و قوله: ﴿نَزْلَةً أُخرىٰ﴾ كانت المرّة الثّانية.[١] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «و أحيانًا يتمثّل لي الملك رجلاً، فيكلّمني فأعي ما يقول».[٢]

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ جبرائيل كان إذا أتى النّبيّ صلى الله عليه وآله لم يدخل حتّى يستأذنه، و إذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد».[٣]

هذا و كان جبرئيل عندما يتمثّل لرسول الله صلى الله عليه وآله يبدو في صورة دِحية بن خليفة الكلبيّ، و بتعبير أصح يبدو في صورة شبيهة بدِحْيَة، كما جاء في تعبير ابن شِهَاب: كان رسول‌الله صلى الله عليه وآله يشبّه دِحْيَة الكلبيّ بجبرائيل حينما يتصّور بصورة بشر.[٤] و ذلك لأنّ دِحْيَة كان أجمل إنسان في المدينة، كان إذا قدم البلد خرجت الفتيات ينظرن إليه.[٥]

و السّبب في ذلك أنّ جبرائيل كان حينما يتمثّل بشرًا يتمثّل صورة إنسان خلقه الله على الفطرة الأُولى، و الإنسان في أصل خلقته جميل، فكان يتمثّل جبرئيل في أجمل صورة إنسانيّة. وبما أنّ دِحْيَة كان أجمل إنسان في مدينة، كان النّاس يزعمون جبرئيل ـ وهو يتمثّل بشرًا ـ أنّه دِحْيَة الكَلبيّ، و من ثمّ كان العكس هو الصّحيح. قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: «كان جبرائيل يأتيني على صورة دِحْيَة الكلبيّ»، و كان دحية رجلاً جميلاً. و الظّاهر أنّ الجملة الأخيرة هي من كلام أنس راوي الحديث،[٦] أي على صورة تشبهها صورة دِحْيَة. و كان الصّحابة يزعمونه دِحْيَة حقيقة، و من ثمّ نهاهم رسول الله صلى الله عليه وآله

---

١ ـ مجمع البيان ٩:١٧٣ و ١٠: ٤٤٦، الصّافي ٢:٦١٨.
٢ ـ البخاريّ ١:٣.
٣ ـ كمال الدّين: الصّدوق: ٨٥.
٤ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ١:٤٧٤.
٥ ـ الإصابة ١:٤٧٣.
٦ ـ الإصابة ١:٤٧٣، أُسد الغابة ٢:١٣٠.

أن يدخلو عليه إذا وجدوا دِحْيَة عنده، قال: «إذا رأيت دِحْيَة الكلبيّ عندي فلايدخلنّ عليّ أحد».[١]

و كان جبرئيل قد يتمثّل للصّحابة أيضًا بصورة دِحْيَة، كما في غزوة بني قُرَيْظَة سنة خمس من الهجرة، شاهده الصّحابة على بغلة بيضاء.[٢]

و شاهده أيضًا عليّ عليه السلام دفعات بمحضر النّبيّ صلى الله عليه و آله و تكلّم معه و النّبيّ صلى الله عليه و آله راقد.[٣]

و أمّا نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضًا، إمّا إلقاءً على مسامعه و هو يُصغي إليه، أو إلهامًا في قلبه فيعيه بقوّة، قال تعالى: ﴿وَ اِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٤]

كان صلى الله عليه و آله في أوائل نزول الملك عليه بالوحي يخشى أن يفوته اللّفظ، و من ثمّ كان يحرّك لسانه و شفتيه ليستذكره و لا ينساه، فكان يتابع جبرائيل في كلّ حرف يلقيه عليه فنهاه تعالى عن ذلك و وعده بالحفظ و الرّعاية من جانبه تعالى، قال: ﴿لاَتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْاٰنَهُ * فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ * ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٥] وربّما كان صلى الله عليه و آله يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرئيل عليه، و قبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النّازلة، حرصًا على ضبطه و ثبته، فنهاه تعالى أيضًا و قال: ﴿وَ لاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٦]. فَطَمْأنَه تعالى بالحفظ و الرّعاية الكاملة. فكان رسول الله صلى الله عليه و آله بعد ذلك إذا أتاه جبرئيل استمع له فإذا انطلق قرأه كما أقرأه[٧]، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾.[٨]

و إشارة إلى هذا النّحو من الوحي الّذي هو نكت في القلب قال صلى الله عليه و آله: «إنّ روح القُدُس نفث في روعي»[٩] و هو سواد القلب، كناية عن السّرّ الباطن، و المقصود روحه الكريمة.

---

١ ـ بحار الأنوار ٣٧:٣٢٦.

٢ ـ سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٥.

٣ ـ بحار ٢: ٢١: و ٢: ٣٣٢، المجمع ٨: ٣٥١.

٤ ـ الشّعرا /١٩٢ ـ ١٩٥.

٥ ـ القيامة /١٦ ـ ١٩.

٦ ـ طه/ ١١٤.

٧ ـ طبقات ابن سعد ١:١٣٢.

٨ ـ الأعلى /٦.

٩ ـ الإتقان ١:٤٤.

٣ـ الوحي المباشر

ولعلّ أكثريّة الوحي، كان مباشر لا يتوسّطه ملك، على ما جاء في وصف الصّحابة حالته ﷺ ساعة نزول الوحي عليه، كان ذا وطء شديد على نفسه الكريمة، يجهد من قواه و تعتريه غشوة منهكة، فكان ينكس رأسه و يتربّد وجهه و يتصبّب عرقًا، و تسطو على الحضور هيبة رهيبة، ينكسون رؤوسهم صمودًا من روعة المنظر الرّهيب، قال تعالى: **﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾**.[١] قال الإمام الصّادق عليه السلام: «كان ذلك إذا جاءه الوحي و ليس بينه و بين الله ملك، فكانت تصيبه تلك السّبتة[٢] و يغشاه ما يغشاه لثقل الوحي عليه، أمّا إذا أتاه جبرائيل بالوحي فكان يقول: هو ذا جبرئيل، أو قال لي جبرائيل...».[٣]

قال الشّيخ أبو جعفر الصّدوق: «إنّ النّبيّ ﷺ كان يكون بين أصحابه فيغمى عليه و هو يتصابّ عرقًا...[٤] **[و ذكر كما تقدّم عنه الرّقم ٤، ثمّ قال:]**

و فيما يلي أوصاف جرت على ألسنة الصّحابة، يذكرون مشهوداتهم عن الحالة الّتي كانت تعتري رسول الله ﷺ ساعة نزول الوحي عليه:

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «نزلت على النّبيّ ﷺ سورة المائدة و هو على بغلته الشّهباء، فثقل عليه الوحي حتّى وقفت و تدلّى بطنها، حتّى رأيت سُرَّتها تكاد تمسّ الأرض، و أُغمي على رسول الله ﷺ حتّى وضع يده على ذؤابة شَيْبَة بن وَهْب الجُمَحيّ...»[٥]

و قال عُبادة بن الصّامت: «و كان إذا نزل الوحي على النّبيّ ﷺ كُرِب له و تربّد وجهه»[٦] و في رواية: «نكس رأسه و نكس أصحابه رؤوسهم، فلمّا سَرى عنه رفع رأسه»[٧]

و قال عِكرِمة: «كان إذا أُوحي إلى رسول الله ﷺ وُقِذ لذلك ساعة كهيئة السّكران».[٨]

و قال ابن أرْوَى الدَّوسيّ: رأيت الوحي ينزل على النّبيّ ﷺ و أنّه على راحلته

---

١ ـ المزّمّل /٥.
٢ ـ هي إغماءة تشبه النّعسة.
٣ ـ محاسن البَرْقيّ: ٣٣٨. أمالي الشّيخ: ٣١. بحار الأنوار ١٨: ١٧١ و ٢٦٨.
٤ ـ كما الدّين: ٨٥. البحار ١٨: ٢٦٠.
٥ ـ تفسير العيّاشي ٢٨٨. و الذّؤابة: شعر مقدّم الرّأس.
٦ ـ طبقات ابن سعد ١: ١٣١. «كُرِب» أي انقبضت نفسه و تغيّرت حالته، «تربّد» أي تغيّر لون وجهه إلى الغبرة.
٧ ـ دائرة معارف القرن العشرين ١٠: ٧١٢.
٨ ـ الطّبقات ١: ١٣١. «وُقِذ» ـ بالبناء المجهول ـ أي غشي عليه، و الموقوذ: منغلبه النّعاس فصار كهيئة السّكران.

فترغو، و تفتل يديها حتّى أظنّ أنّ ذراعها ينقصم، فربّما بركت و ربّما قامت مؤتدّة يديها حتّى يسري عنه من ثقل الوحي، و أنّه ليتحدّر منه مثل الجُمان».[١]

و قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشّديد البرد، فيفصم عنه: و أنّ جبينه ليتفصّد عرقًا»[٢]، و قالت أيضًا: «إنّه كان ليوحى على رسول الله ﷺ و هو على راحلته فيضرب بجرانها»[٣]

و قال ابن عبّاس: «كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدّة و ألمًا شديدًا و ثقلاً، و يتصدّع رأسه».[٤]

و قال ابن شهر آشوب: وروي أنّه كان إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، و منه يقال: بُرحاء الوحي.[٥]

وروى ابن قيّم: «أنّه ﷺ جاءه الوحي مرّةً و فَخِذه على فَخِذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتّى كادت ترضُّها».[٦]

[ثم ذكر حديث المقبول، عن صاحب المتّقي كما تقدّم عن البخاريّ، فقال:] و أخيراً فقد وصف هو ﷺ نزول الوحي عليه بما يدهش:

[ثمّ ذكر رواية أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمر و رواية الحارث بن هِشام و سؤاله عن رسول الله، كما تقدّم عن السّيوطيّ و النّسائيّ، فقال] و تذييلاً على هذه الرّوايه ـ و هي متواترة إلى حدّ ما ـ يجب أن ننبّه القارىء على نقاط هامّة:

أوّلاً ـ صَلْصَلَة الجرس في هذه الرّواية كناية عن صوت متعاقب كصوت النّاقوس

---

١ ـ الطّبقات ١: ١٣١. «ترغو» أي تضجّ و تكابد من شدّة الثّقل، «تفتل يديها» أي تباعد بينهما، «ينقصم» أي ينكسر. «قامت مُؤتَدّة» أي وقفت جامدة لا حَراك لها، و ثبتت قوائمها كالمسمار المثبت في الأرض، «التّحدّر»: الانصباب السّريع، «الجُمان» اللّؤلؤ، و الواحدة جُمانة، شبّه بذلك قطرات عرق جبينه الطّيّب.

٢ ـ صحيح البخاريّ ١:٣. «التّصفدّ»: قطع العرق الّذي ينصب منه الدّم بتدفّق، استعارة لكثرة انصباب عرقه الطّيّب حين نزول الوحي.

٣ ـ مجمع البيان ١٠: ٣٧٨. والبحار ١٨: ٢٦٣. «الجران» من البعير: مقدّم عنقه، يقال: ألقى البعير جرانه، أي برك.

٤ ـ بحار الأنوار ١٨:٢٦١ عن المناقب ١:٤١.

٥ ـ بحار الأنوار ١٨: ٢٦١. عن المناقب ١: ٣١. والبُرَحاء: شدّة الكرب والألم.

٦ ـ زاد المعاد لا بن قيّم ١: ١٨.

المصلصل المجلجل، كانﷺ يسمع صوتًا متداركًا كجَلْجَلْة النّاقوس، هو صوت الوحي المباشر، فكانﷺ ينصت له بكلّ وجوده حتّى يتلقّاه كملاً و كان ذا وقع شديد على نفسه الكريمة. وهذا التّعبير «صَلْصَلَة الجَرَس» يشي بشدّة الوقع، حيث تتابع الصّوت المتدارك يؤثّر في حاسة السّمع تأثيراً نافذًا في الأعماق، فكأنّما يأخذ بلُبّ القلب أخذًا متواصلاً قويًّا، و من ثمّ قالﷺ «ظننت أنّ نفسي تقبض».

والظّاهر أنّ هذه الصَّلصَلة كانت تمهيدًا لنزول الوحي عليهﷺ كي يستعدّ لذلك الاتّصال الرّوحيّ الشّديد، ومن ثمّ قال: ثمّ أسكت عند ذلك» أي أنصت حيث الإشعار بنزول الوحي.

نعم كان للوحي ذاته دويّ شديد بالغ الشّدّة، لم يكن يتحمّله أهل السّماوات العُلا. **[ثمّ ذكر رواية أبي الجارود عن الباقرعليه السلام، كما تقدّم عن القمّي الرّقم ١ فقال:]**

و في حديث ابن مسعود: «إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السّماوات صلصلة كصَلْصَلة السِّلسِلة على الصَّفوان ـ الحجر الأملس ـ فيفزعون»[١].

[ثمّ ذكر رواية ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس، و رواية النَّوَاس عن رسول الله كما تقدّم عن السّيوطيّ الرّقم ٢، و الطّبريّ الرّقم ١٠ فقال:]

و بعد... فلا نكاد نستغرب من غشية تعتري رسول اللهﷺ ساعة نزول الوحي عليه إذا كان أهل السّماوات لا تتحمّل وقع صوته المُدهَش.

ثانيًا ـ هذا النّمط من الوحي الشّديد الوقع على نفسه الكريمة كان يخصّ الوحي المباشر، كما تقدّم حديثه، كما أنّ الرّواية ذاتها تشي بهذا التّفصيل، حيث جعلت من النّوع الأوّل مثل صَلصَلة الجرس، فكان صوت الوحي النّازل عليه مباشرة و من ثمّ قالﷺ: «وكان أشدّه عليّ» و جعلت من النّوع الثّاني ما يكلّمه الملك مشافهة فيعي ما يوحي إليه في حينه، لأنّهﷺ كان حيئذ في حالته العادية.

وزعم جلال الدّين أنّ النّوعين اللّذين أشارت إليهما الرّواية: أحدهما ماكان الملك النّازل بالوحي مختفيًّا، و الآخر ما كان متمثّلاً.[٢] و هذا مخالف لما يفهم من الرّواية ذاتها،

١ ـ الإتقان ١: ٤٤.

٢ ـ الإتقان ١: ٤٤.

كما نبّه بذلك شيخنا الصّدوق،[١] ومرّ في حديث الإمام الصّادقعليه‌السلام.[٢]

ثالثًا ـ أنّ الجذبة الرّوحيّة القويّة في الصّوره الأُولى ربّما كانت توهم انفلات شيء من الوحي حينما يفقدصلى‌الله‌عليه‌وآله و عيه الظّاهر، لكنّهصلى‌الله‌عليه‌وآله تدارك هذا الوهم بأنّه كان بعد ما يتقشّع غشوته يجد كلّ ما أُوحي إليه حاضرة ذهنه الشّريف، كأنّما كتب في كتاب، و لم ينفلت منه شيء، و هذا معنى قولهصلى‌الله‌عليه‌وآله: «فيفصم عنّي و قد و عيت».

والسّبب في ذلك أنّ الوحي في صورة المباشرة كان يخالط لبّه، و يتسرّب إلى أعماق وجودهصلى‌الله‌عليه‌وآله بما أنفذه الله في قلبه الكريم ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾.[٣]

وبهذا يتّضح معنى الحديث الّذي رواه ابن أبي سَلَمَة عن عمّه، أنّه بلغه أنّ رسول‌اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني بجرئيل فيلقيه عليّ كما يلقي الرّجل على الرّجل[٤] فذلك الّذي يتفلّت منّي و، يأتيني في شيء[٥] مثل صوت الجرس، حتّى يخالط قلبي، فذاك الّذي لا يتفلّت منّي».[٦]

قولهصلى‌الله‌عليه‌وآله: «فذلك الّذي يتفلّت منّي»، أي الّذي كان يكاد يتفلّت منه، لأنّه كان سماعًا مباشرًا من ملك الوحي، و سُرعان ما ينسى الإنسان ما يسمعه من غيره إذا لم يعه وعيًا. فهذا النّمط من الوحي كان بمعرض النّسيان و خوف التّفلّت ـ كما هو شأن السّماع المجرّد إذالم يتقيّد بالكتابة في و قته ـ لا أنّه كان يتفلّت منه بالفعل. أمّا في صورة الوحي المباشر فحيث كان يخالط لُبُّه و ينفذ في أعماق قلبه الكريم، فلم يكن يخشى عليه التّفلّت أصلاً.

هذا و قد وقع بعض الباحثين في خلط من هذا الحديث و رفضه آخرون، لكن المعنى على ما ذكرنا صحيح، توافقه سائر الأحاديث... **[إلى أن قال:]**

١ ـ كمال الدّين: ٨٥ و البحار ١٨: ٢٦٠.

٢ ـ محاسن البرقيّ: ٣٣٨ و البحار ١٨: ٢٧١.

٣ ـ الأعلى /٦.

٤ ـ أي كما يلقي الرّجل بكلامه على صاحبه، و هذا هو الصّورة الثّانيّة ممّا تقدّم.

٥ ـ أي الوحي ذاته يأتيني بلاتوسيط ملك، و هي الصّورة الأُولى ممّا تقدّم.

٦ ـ طبقات ابن سعد ١: ١٣١.

موقف النّبيّ ﷺ من الوحي

هنا موضوعان لهما أهميّة كبيرة بشأن رسالة الأنبياء و صِدق دعوتهم إلى الله، لا بدّ من معالجتهما بصورة علميّة مقبوله، و قد تكلّم فيهما عامّة أهل السّنّة بطريقة غير مألوفة، و ربّما لا يستسيغها العقل الفطريّ في شيء، أمّا علماؤنا الإماميّة فتكلّموا فيهما بطريقة عقليّة على أساس الاستدلال البرهانيّ مدعمًا بالنّقل المأثور عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

الأوّل ـ كيف عرف النّبيّ ﷺ أنّه مبعوث؟ و لِمَ لم يشك في أنّ الّذي أتاه شيطان، و اطمأنّ أنّه جبرائيل؟.

الثّاني ـ هل يجوز على النّبيّ ﷺ أن يخطأ فيما يوحي إليه، فيلتبس عليه تخيّلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحى، أو يُلقي عليه إبليس ما يظنّه وحيًا من الله؟

والأكثر في الموضوع الأوّل جعلوا من النّبيّ ﷺ مُرْتاعًا في أوّل أمره، خائفًا على نفسه من مسّ جنون، عائذًا إلى أحضان زوجه الوفيّة، لتستنجد هي بدورها بابن عمّها وَرَقَة بن نَوْفَل، فيطمئنّه هذا بأنّه نبيّ، و يؤكّد له ذلك حتّى يطمأنّ و يستريح باله.

أمّا الموضوع الثّاني فقد أجازوا لإبليس أن يتلاعب بوحي السّماء فيلقي على النّبيّ ما يظنّه وحيًا ـ كما في حديث الغرانيق ـ لو لا أن يتداركه جبرائيل فيذهب بكيد الشّيطان.

وقد ذهب أئمّة أهل البيت عليهم السلام في كلاالموضوعين مذهبًا نزيهًا، و جعلوا من النّبيّ ﷺ أكرم على الله من أن يتركه إلى إنسان غيره، و لا ينير له الدّلائل الواضحة على نبوّته الكريمة في تلك السّاعة الحرجة، كما لا يدع للشّيطان أن يستحوذ على مشاعر نبيّه الكريم: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.[1]

هذا و يجدر بنا ـ و نحن نحاول تنزيه جانب رسول الله ﷺ ممّا ألصقوه بكرامته ـ أن نتكلّم في كلاالمجالين بصورة مستوفاة، كلاًّ على حدة:

١ ـ الطّور /٤٨.

النّبوّة مقرونة بدلائل نيّرة

يجب على الله ـ وجوبًا منبعثًا من مقام لطفه و رأفته بعباده ـ أن يقرن تنبيئه إنسانًا بدلائل نيرّة لا تدع لمسارب الشّكّ مجالاً في نفسه، كما أرىٰ إبراهيم ملكوت السّماوات و الأرض، ليكون من الموقنين.[١] ﴿نُودِىَ يَا مُوسىٰ * إِنّى اَنَا﴾[٢] الله، ﴿يَا مُوسىٰ اِنَّهُ اَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ إلى أن قال ـ يَا مُوسىٰ لاَتَخَفْ اِنّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرسَلُونَ﴾.[٣]

هذا هو مقتضى قاعدة اللّطف، وقد بحث عنها علماء الكلام[٤]، و تتلخّص في تمهيد سبيل الطّاعة. فواجب عليه تعالى أن يمهّد لعباده جميع ما يقرّبهم إلى الطّاعة و يبعّدهم عن المعصية. و هذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد، و إلاّ كان نقضًا لغرضه من التّكليف. و من ثمّ وجب عليه تعالى أن يبعث الأنبياء و ينزل الشّرائع و يجعل في الأُمم ما ينير لهم دروب الحياة، إمّا إلى سعادة فباختيارهم، أو إلى شقاء فباختيارهم أيضًا.[٥]

و طبقًا لهذه القاعدة لا يدع ـ تعالى ـ مجالاً لتدليس أهل الزّيغ و الباطل، إلاّ و يفضحهم من فورهم ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْاَقَاوِيلِ * لَاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.[٦] فالحقّ دائمًا يعلو و لا يعلى عليه، و الحقّ و الباطل دائمًا على وضح الجلاء، لا يكدّر وجه الحقّ غبار الباطل أبدًا، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾،[٧] ﴿اِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ اٰمَنُوا فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾.[٨] و هذا إنّما هو نصر و اعتلاء مبدئيّ، فالحقّ دائمًا ظاهر منصور، و إنّ رسالة الأنبياء دائمًا تكون هي الغالبة الظّافرة ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرسَلِينَ * اِنَّهُم لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَ اِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾،[٩] نعم ﴿اِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.[١٠]

---

١ ـ مقتبس من الآية: ٧٥ الأنعام.
٢ ـ طه / ١١.
٣ ـ النّمل / ٩ ـ ١٠.
٤ ـ علم منشعب عن الفلسفة الحكميّة، يبحث عن أُحوال المبدء و المعاد في ضوء العقل و إرشاد الشّريعة.
٥ ـ شرح تجريد الاعتقاد: ١٨١.
٦ ـ الحاقّة: ٤٤ ـ ٤٦.
٧ ـ الأنبياء: ١٨.
٨ ـ المؤمن: ٥١.
٩ ـ الصّافّات / ١٧١ ـ ١٧٣.
١٠ ـ النّساء / ٧٦.

قال الإمام الصّادقعليه السلام: «أبى الله أن يعرف باطلاً حقًّا، أبى الله أن يجعل الحقّ في قلب المؤمن باطلاً لاشكّ فيه، و أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقًّا لاشكّ فيه، ولولم يجعل هذا هكذا ما عرف حقّ من باطل».

و قال «ليس من باطل يقوم بإزاءالحقّ إلاّ غلب الحقّ الباطل، و ذلك قوله تعالى: ﴿بل نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [١]، [٢]

هذا و قد سأل زُرارة بن أعْيَن الإمام أبا عبدالله الصّادقعليه السلام عن نفس الموضوع، قال: قلت لأبي عبدالله: كيف لم يخف رسول اللهصلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشّيطان؟ فقال عليه السلام: إنّ الله إذا اتّخذ عَبْدًا رسولاً أنزل عليه السّكينة و الوقار ـ أي الطّمأنينة و الإتّزان الفكريّ ـ فكان الّذي يأتيه من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه» [٣] أي يجعله في وضح الحقّ لاغبار عليه أبدًا، فيرى الواقع ناصعًا جليًّا لا يشكّ و لا يضطرب في رأيه ولا في عقله. و قد أوضح الإمامعليه السلام ذلك في حديث آخر، سئلعليه السلام: كيف علمت الرّسل أنّها رسل؟ قال: «كشف عنهم الغطاء». [٤]

قال العلاّمة الطَّبرسيّ: إنّ الله لا يوحي إلى رسوله إلاّ بالبراهين النّيّرة و الآيات البيّنة، الدّالة على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفزع و لا يفزّع و لا يفرق» [٥].

و قال القاضي عيّاض: «لا يصحّ ـ أي في حكمته تعالى، و هو إشارة إلى قاعدة اللّطف ـ أن يتصوّر له الشّيطان في صورة الملك، و يلبس عليه الأمر، لافي أوّل الرّسالة ولا بعدها، والاعتماد ـ أي اطمئنان النّبيّ ـ في ذلك دليل المعجزة، بل لا يشكّ النّبيّصلى الله عليه وآله أنّ ما يأتيه من الله هو الملك و رسوله الحقيقيّ، إمّا بعلم ضروريّ يخلقه الله له، أو ببرهان جليّ يظهره الله لديه، لتتمّ كلمة ربّك صِدْقًا و عَدلاً لامبدّل لكلمات الله». [٦]

إذن فلابدّ أن يكون النّبيّصلى الله عليه وآله حين انبعاثه نبيًّا على علم يقين، بل عين يقين من

---

١ ـ الأنبياء: ١٨.

٢ ـ محاسن البرقيّ، رقم ٣٩٤ و ٣٩٥: ٢٢٢.

٣ ـ العيّاشيّ ٢: ٢٠١ والبحار ١٨: ٢٦٢.

٤ ـ بحار الأنوار ١١: ٥٦.

٥ ـ مجمع البيان ١٠: ٣٨٤.

٦ ـ رسالة الشّفاء: ١١٢.

أمره، لايشكّ و لا يضطرب، مستقيمًا مطمئنًّا باله، مرعيًّا بعناية الله تعالى و لطفه الخاصّ، منصورًا مؤيّدًا، و لا سيّما في بدء البعثة، فيأتيه النّاموس الأكبر و هو الحقّ الصّراح معاينًا مشهودًا، وهي موقعيّة حاسمة لا ينبغي لنبيّ أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب: ﴿إِنّى لاَيَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.[1]

و أيضًا فإنّ النّبيّ صلى الله عليه و آله لم يختره الله لنبوّته إلاّ بعد أن أكمل عقله و أدّبه فأحسن تأديبه، و عرّفه من أسرار ملكوت السّماوات و الأرض ما يستأهله للقيام بمهمّة السّفارة و تبليغ رسالة الله إلى العالمين، كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد قرن الله به صلى الله عليه و آله من لدن أن كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره...».[2]

قال الإمام العسكريّ عليه السلام: «إنّ الله وجد قلب محمّد صلى الله عليه و آله أفضل القلوب و أوعاها فاختاره لنبوّته...».[3]

قال العلاّمة المَجْلِسيّ: «منذ أنّ أكمل الله عقله لم يزل مؤيدًّا بروح القدس يكلّمه يسمع صوته و يرى الرُّؤيا الصّادقة، حتّى بعثه الله نبيًّا رسولاً».[4]

و الدّلائل على أنّه صلى الله عليه و آله منذ بدايته كان مورد لطفه تعالى و عنايته الخاصّة كثيرة، وقد عرف قومه فيه النّبوغ و الجدارة الذّاتيّة، و لمسوا فيه الصّدق و الأمانة و الذّكاء و الفطنة، فوجدوه مزيجًا من الاستقامة و حصافة العقل، حتّى حبّب إلى النّاس جميعًا و لقّبوه بالصّادق الأمين، أمينًا في رأيه، و أمينًا في سلوكه.

و كان قُبَيل بعثته تظهر له علائم النّبوّة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته و هو في سنّ السّابع و الثّلاثين ـ كما في رواية عليّ بن إبراهيم القُمّيّ [5] ـ فكان يرى الرُّؤيا الصّادقة، و كان يختلي بنفسه في غار حِراء، متفكّرًا في أسرار الملكوت، متعمّقًا في ذات الله متطلّعًا سرّ الخليقة، حتّى فجأه الحقّ و قد بلغ سنّ الأربعين، فقد كان ممهّدًا نفسه

---

١ ـ النّمل / ١٠.

٢ ـ نهج البلاغة ١: ٣٩٢ القاصعة.

٣ ـ بحار الأنوار ١٨: ٢٠٦.

٤ ـ المصدر السابق ١٨: ٢٧٧.

٥ ـ راجع المصدر السّابق ١٨: ٣١.

لذلك، عارفًا بسمات أمر قد أشرفت طلائعه منذحين.

و هكذا إنسان لا يفزع و لا يفرق و لا يظنّ بنفسه الجِنّة أو عارضة سوء، ليلتجأ إلى امرأة لا عهد لها بأسرار النّبوّات، أو رجل[١] كان حظّه من العلم أن قرأ كتبًا محرّفة و آثارًا بائدة، لم يثبت آنذاك أنّه لمس حقائق و معارف من المُلك و المَلكوت كانت موجودة فيها لحدّ ذاك، غير ممسوخة عن فطرتها الأُولى.

على أنّ النّبيّ محمّدًا صلى الله عليه وآله كان أشرف الأنبياء و أفضل المرسلين و خاتم سفراء ربّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه ونفسه يتلوّىٰ في أحضان القلق والاضطراب، خائفًا على نفسه مسّ جنون أو الاستحواذ على عقله الكريم، على ما جاءت في روايات آتية لا قيمة لها عندنا.

إذن فقد كان موقف النّبيّ صلى الله عليه وآله تجاه نزول الحقّ عليه ـ في بدء البعثه ـ موقف إنسان واعٍ بجليّ الأمر، عارفٍ بحقيقة الحقّ النّازل عليه، في اطمئنان بالغ و سكون نفس و انشراح صدر، لم يتردّد ولم يشكّ و لم يضطرب، كمالم يفزع و لم يفرق. و سنذكر قصّة بدء البعثة على ما جاءت في رواياتٰ أهلٰ البيت عليهم السلام و هي تشرح جوانب من موقف النّبيّ صلى الله عليه وآله ـ آنذاك ملؤها عظمة و إكبار و أُبهّة جلال.

قصّة وَرَقَة بن نَوْفَل

تلك كانت قصّة البعثة وفق ما جاءت في أحاديث أهل البيت، وهم أدرى بما في البيت، وإليك الآن حديثًا آخر عن بعثة النّبيّ محمّد صلى الله عليه وآله على ماجاءت في روايات غيرهم:

روى البُخاريّ و مُسلم و ابن هِشام و الطَّبريّ و أضرابهم: «بينما كان النّبيّ صلى الله عليه وآله مختليًا بنفسه في غار حِراء إذ سمع هاتفًا يدعوه، فأخذه الرّوع و رفع رأسه و إذا صورة رهيبة هي الّتي تناديه... [**و ذكر كما تقدّم نحوه عن البخاريّ و ابن كثير و غيره في باب بدء الوحي، ثمّ قال:**].

ثمّ قامت بتجربة ناجحة، قالت: يا بن عمّ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الّذي

---

١ ـ قال ابن الأثير: أي أصابني مسّ من الجنّ.

يأتيك؟ قال: نعم، قالت:... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٣٥]**.

ثمّ توكيدًا لما استَنتجَتْه من تجربتها انطلقت إلى ابن عمّها وَرَقَة بن نَـوْفَل و كـان متنصّرًا قارئًا للكتب، فقصّت عليه خبر ابن عمّها محمّدﷺ فقال وَرَقَة:

قُدُّوس، لئن كنت صدقتني يا خديجة فقد جاءه النّاموس الأكبر الّذي كان يأتـي موسى، فقولي له فليثبت، و إنّه لنبيّ هذه الأُمّة، ولَوَدَدْت أن أدرك أيّامه فأُؤمن به و أنصره.

فعادت خديجة إلى رسول الله ﷺ و أخبرته بما قال، فعند ذلك اطـمأنّ بـاله، و ذهـبت روعته، و أيقن أنّه نبيّ.[١]

قلت: لاشكّ أنّ قصّة ارتياع النّبيّﷺ بتلك الصّورة الفـضيعة أُسـطورة خـرافـة، حاكتها عقول ساذجة، جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام، و من ثمّ فهي إزراء بشأنهم الرّفيع، وحطّ من منزلتهم الشّامخة، إن لم تكن ضعضعة بأقوى دعامة رسالة الله!.

أوّلاً ـ النّبيّﷺ أكرم على الله من أن يروّعه في ساعة حرجة هي نقطة حاسمة في حياة رسوله الكريم، هي نقطة تحوّل عظيم، من إنسان كامل كان مسؤول نفسه إلى إنسان رسول هو مسئول أُمّة بأجمعها، كان قبل أن يصل إلى موقفه هذا العصيب يسير قدمًا إلى قمّة الاكتمال الإنسانيّ الأعلى، في سفرة خطرة كان مبدؤها الخلق و منتهاها الحقّ تعالى، فكان يسير من الخلق إلى الحقّ، والآن و قد وصل القمّة، فعاد من الحقّ حاملاً للـحقّ إلى الخلق[٢].

فساعة البعثة هي الفترة الحاسمة، و هي الحلقة الواصلة بـين السّـفرتين الذّاهـبة والرّاجعة، وهي موقف حرج، حاشاالله أن يترك حبيبه يكابد الأمرين حينما بلغ قمّة الّلقاء، والآن يريد أن يختاره رسولاً إلى النّاس، فيتركه يتلوّى في هوا جس خطرة، **ويروّعه بتلك الصّورة الفضيعة الّتي تكاد تذهب بنفسه الكريمة أو تستحوذ على عقله روعة المنظر الرّهيب!!.**

أليس محمّدﷺ أكرم على الله من إبراهيم الخليل وموسى الكليم وغيرهما من أنبياء

---

١ ـ راجع: سيرة ابن هشام: ٢٥٢ ـ ٢٥٥. صحيح البخاريّ ١: ٣ ـ ٤. صحيح مسلم ١:٩٧ـ٩٩ تاريخ الطّبريّ ٢:٢٩٨ـ٣٠٣. تفسيره ٣٠: ١٦١. حياة محمّد: ٩٥ ـ ٩٦.

٢ ـ على ما جاء في تعبير الفيلسوف الإلهيّ الحكيم صدر الدّين الشّيرازيّ، تقدّم كلامه.

عظام، لم يتركهم في ساعة العسرة ليلتجأوا إلى إنسان غيره، حاشاه من ربّ رؤوف رحيم!!.

ثانيًا ـ أنّا لنربأ بعلماء ـ هم أهل تحقيق و تمحيص ـ أن يفضّلوا عقليّة امرأة لا شأن لها و أسرار النّبوّات على عقليّة إنسان كامل كان قد بلغ القمّة الّتي استأهلته لحمل رسالة الله. ثمّ تقوم هي بتجربة حاسمة يجهلها رسول ربّ العالمين، ليطمئنّ إلى قولتها أو قولة رجل كان شأنه أن كان قارئًا للكتب، وليس لذلك العهد كتب فيها حقائق ومعارف غير محرّفة قطعيًّا. ولم نعرف ما الّذي وجده رسول الله صلى الله عليه و آله في قولتهما فكان منشأ اطمئنانه، لم يجده في الحقّ النّازل عليه من عند الله العزيز الحكيم.

ألم تكن الرُّؤى الصّادقة الّتي سبقت البعثه، ولم يكن تسليم الملك النّازل عليه حينها: السّلام عليك يا رسول الله، و تسليم الشّجر و الحجر كلّما مرّ بهما في طريقه راجعًا إلى بيت خديجة، و لم يكن عرفانه الذّاتيّ الّذي كان يتعمّقه مدّة اختلائه بِحراء كلّ ذلك لم يستوجب استيقانه بالأمر، ليستيقن من طمأنة امرأة أو رجل متنصّر!! إن هذا إلاّ إزراء فضيع بمقام رسالة الله، إن لم يكن مسًّا شنيعًا بكرامة رسول الله صلى الله عليه و آله المنيعة.

ثالثًا ـ اختلاف سرد القصّة بما لا يلتئم مع بعضها البعض لدليل على كذبها رأسًا، ففي رواية: انطلقت خديجة لوحدها إلى وَرَقَة، فأخبرته بما جرى. و في أُخرى: انطلقت بي إلى وَرَقَة و قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته، فقال: هذا النّاموس الّذي أُنزل على موسى. و في ثالثة: لقيه وَرَقَة بن نَوْفَل و هو يطوف بالبيت فقال: يا بن أخي، أخبرني بما رأيت و سمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه و آله، فقال له ورقة: و الّذي نفسي بيدي إنّك لنبيّ هذه الأُمّة، و لئن أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصرًا يعلمه. وفي رابعة: عن ابن عبّاس عن وَرَقَة بن نَوْفَل، قال: قلت: يا محمّد أخبرني عن هذا الّذي يأتيك، يعني جبرئيل عليه السلام فقال: يأتيني من السّماء جناحاه لؤلؤ و باطن قدميه أخضر[1]. و هذا ليس في روايات خديجة مع وَرَقة، على ماجاءت في الصّحاح المتقدّمة. و في خامسة: أنّ أبابكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمّد إلى وَرَقَة، فانطلقا فقصّا عليه...[2].

---

١ ـ أُسدالغابة: ابن الأثير ٥:٨٨ و الرّواية ضعيفة بروح بن مسافر، و لم يدرك ابن عبّاس وَرَقَة.

٢ ـ الإتقان ١:٢٤.

ثمّ لو صحّت القصّة فلما ذالم يؤمن به وَرَقَة حينذاك و قد علم أنّه نبيّ مبعوث؟! فقد صحّ أنّه مات كافرًا لم يؤمن به. و قضيّة رُؤيا النّبيّ ﷺ كان وَرَقَة في ثياب بيض أيضًا مكذوبة و سندها مقطوع، و إلاّ لسجّل اسمه فيمن آمن به قال ابن عَساكِر: لاأعرف أحدًا قال: إنّه أسلم[١]، هذا و قد عاش وَرَقَة إلى زمن بعد البعثة، فقد روي أنّه مرّ ببلال و هو يعذّب[٢]. قال ابن حَجَر: و هذا يدلّ على أنّه عاش حتّى ظهرت دعوته ﷺ و دعا بلالاً فأسلم. إذن فلِم بقي على كفره و لم يُسلم كما أسلم الآخرون؟ و لِمَ لَم ينصره كما نصره آخرون؟ و قد خالف عهده كما جاء في الأُسطورة.

الوحي لايحتمل التباسًا

هذا هو الموضوع الثّاني ـ فيما أشرنا سابقًا ـ النّبيّ ﷺ لا يخطأ فيما يوحى إليه، و لا يلتبس عليه الأمر قطّ. النّبيّ كان عند ما يوحى إليه يكشف عن عينه الغطاء، فيرى الواقعيّة فيما يتّصل بجانب روحه الملكوتيّ، منقطعًا عن صوارف المادّة إنّه ﷺ حينذاك يلمس تجلّيات و إشراقات نوريّة تغشاه من عالم الملكوت، لينصرف بكلّيته إلى لقاء روح الله و تلّقي كلماته، فيرى حقيقة الحقّ النّازل عليه بشعور واع و بصيرة نافذة، كمن يرى الشّمس في وضح النّهار، لا يحتمل خطأ في إبصاره و لا التباسًا فيما يعيه.

و هكذا الوحي، إذ لم يكن فكرة نابعة من داخل الضّمير، ليحتمل الخطأ في ترتيب مقدّمات استنتاجها، أو إبصارًا من بعيد ليحتمل التباسًا في الانطباق،[٣] بل هي مشاهدة

---

١ ـ الإصابة ٣: ٦٣٣. ٢ ـ نفس المصدر.

٣ ـ الخطأ إنّما يحتمل في مجالين: إمّا في مجال التّفكير، أو في مجال الإبصار الخارجيّ مثلاً و ذلك لأنّ للاستنتاج شرائط و أحكامًا، إذا ما أهملها المتفكّر فسوف يقع في خطأ التّفكير، و كذلك إبصار العين الخارجيّة إذا كان من بعيد، فربّما يقع الخطأ فيه من ناحية تطبيق ما عند النّفس من مرتكزات و معلومات على خصوصيّات يراها موجودة في العين الخارجيّة، فالخطأ إنّما هو في هذا التّطبيق النّفسيّ لا في العين المشاهدة، لأنّ الإبصار عبارة عن انطباع صورة الخارج ـ و هي واقعيّة لا تتغيّر ـ في الشّبكيّة العصبيّة خَلْف بُورة العين، و هذه ظاهرة طبيعيّة تتحقّق ذاتيًّا إذا ما تحقّقت شرائطها. نعم كانت النّفس هي التّي تحكم على ما شاهدته العين بأنّه كذا و كذا، و الخطأ إنّما هو في هذا الحكم لا في ذاك الإبصار الطّبيعيّ. إذن فبما أنّ الوحي خارج عن الإمرين، لاتفكير و لاإبصار من بعيد ـ مثلاً ـ و إنّما هو لمس حقيقة حاضرة فلا موقع للخطأ فيه أصلاً.

حقيقة حاضرة بعين نافذة، فاحتمال الخطأ فيه مستحيل.

تلك طريقة علميّة فلسفيّة[١] تهدينا إلى الاعتراف بعدم احتمال الوحي الخطأ أبدًا، و من ثمّ فإنّ شريعة الله النّازلة على أيدي رسله الأُمناء مصونة عن احتمال الخطأ رأسًا.

و هناك طريقة أُخرى عقليّة تحتمّ لزوم عصمة الأنبياء فيما يبلّغون من شرائع الله، يفصّلها علماء الكلام، و تتلخّص في أنّ النّبيّ المبلّغ عن الله يجب ـ في ضوء قاعدة اللّطف ـ أن ينعم بصحّة كاملة فيأجهزة إحساسه، و سلامة تامّة في قوى مشاعره و في مقدرته العقليّة، فيكون مستقيمًا في آرائه و نظريّاته، معتدلاً في خُلقه و سيرته، مستويًا في خِلقته و صُورته. و بكلمة جامعة يجب أن يختار الله لرسالته إنسانًا كاملاً في خَلقه وخُلقه، كي لا يتنفّر النّاس من معاشرته، و يطمئنّوا إلى ما يبلّغه عن الله، و إلاّ كان نقضًا لغرض التّشريع.

فالنّبيّ ﷺ معصوم من الخطأ و النّسيان، ولا سيّما فيما يخصّ تبليغ أحكام الشّريعة، و هذا إجماع من المسلمين و من غيرهم من عقلاء أذعنوا برسالة الأنبياء، و لولاه لكان الالتزام بشرائع الدّين سفهًا يأباه العقل.[٢]

هذا مضافًا إلى ما عهد الله لنبيّه بالرّعاية و الحفظ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾،[٣] كان ﷺ في بدء نزول القرآن يخشى أن يفوته شيء، فكان يساوق جبرئيل فيما يُلقي عليه كلمة بكلمة فنهي عن ذلك: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْاٰنَهُ * فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ * ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٤]، ﴿وَ لاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٥] قال ابن عبّاس: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرئيل استمع له، فإذا انطلق قرأ كما أقرأه[٦]، و أخيرًا فإنّ قوله تعالى: ﴿اِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ اِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٧]، يقطع أيّ احتمال الدّسّ و التّزوير في نصوص القرآن الكريم.

---

١ ـ راجع ما كتبه الأُستاذ العلاّمة الطّباطبائيّ بهذا الصّدد في رسالة الوحي «وحي يا شعور مرموز»: ١٠٤.

٢ ـ راجع مباحث العصمة من شرح تجريد الاعتقاد: المسألة الثّالثة من المقصد الرّابع: ١٩٥.

٣ ـ الأعلى / ٦.

٤ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٩.

٥ ـ طه / ١١٤.

٦ ـ طبقات ابن سعد ١: ١٣٢.

٧ ـ الحِجر / ٩.

و أمّا احتمال تلبيس إبليس ليتدخّل فيما يوحى إلى النّبيّ ﷺ و يجعل من تسويلاته الشّيطانيّة في صورة وحي و يلبسه على النّبيّ ﷺ ليزعمه وحيًا من الله، فهو أمر مستحيل، لأنّ الشّيطان لا يستطيع الاستحواذ على عقليّة رسل الله و عباده المكرمين: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[١]، و متنافٍ مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْاَقَاوِيل * لَاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[٢]، و قوله تعالى: ﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * اِنْ هُوَ اِلاَّ وَحْىٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ﴾[٣]. و قد قال الشّيطان: ﴿وَ مَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ اِلاَّ اَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُم لِى﴾[٤]. و متنافٍ مع قاعدة اللّطف الآنفة، و متناقض مع حكمته تعالى في بعث الأنبياء عليهم السلام في شرح سبق تفصيله.

نعم ذهب أصحاب الحديث من العامّة إلى إمكان استحواذ الشّيطان على عقليّة الرّسول كما جاءت روايتهم لقصّة الغرانيق، الأمر الّذي نراه مستحيلاً إطلاقًا، و من ثمّ فهي أُسطورة وضعها من يريد الامتهان بمقام الرّسالة، ليعبّر بها على عقول البسطاء، فكانت غنيمة بأيدي أعداء الإسلام. و إليك نصّ الأُسطورة و نقدها تباعًا.

أُسطورة الغرانيق

روى ابن جَرير الطَّبريّ بأسناد زعمها صحيحة، عن محمّد بن كعب، و محمّد بن قيس، و سعيد بن جُبَير، و ابن عبّاس، و غيرهم: أنّ النّبيّ ﷺ كان في حَشْد من مشركي قُريش بفناء الكعبة، أو في نادٍ من أنْدِيَتهم، و كانت تساوره نفسه لو يأتيه شيء من القرآن يقارب بينه و بين قومه الألدّاء، إذ كان يتألّم من مباعدتهم، و كان يرجو الائتلاف معهم مهما كلّف الأمر، و إذ نزلت عليه سورة النّجم، فجعل يتلوها حتّى إذا بلغ: ﴿اَفَرَاَيْتُمْ اللاَّتَ وَ الْعُزّىٰ * وَ مَنٰوةَ الثَّالِثَةَ الْاُخْرىٰ﴾[٥] ألقى عليه الشّيطان: «تِلك الغَرانيق العُلىٰ. و إنّ شفاعتهنّ لتُرتجىٰ»[٦]، فحسبها وحيًا فقرأها على ملأمن قريش، ثمّ مضى و قرأ بقيّة السّورة، حتّى إذا

---

١ ـ الإسراء /٦٥.
٢ ـ الحاقّة /٤٤، ٤٥.
٣ ـ النّجم /٣ ـ ٥.
٤ ـ إبراهيم/ ٢٢.
٥ ـ النّجم: ١٩، ٢٠.
٦ ـ الغرانيق: جمع الغَرنُوق، و هو الشّابّ النّاعم الأبيض، و في الأصل اسم لطير الماء (مالك الحزين)، و هو تشبيه آلهة

أكملها سجد و سجد المسلمون، و سجد المشركون أيضًا، تقديرًا بما وافقهم محمّد ﷺ في تعظيم آلهتهم و رجاء شفاعتهم. و طار هذا النّبأ حتّى بلغ مهاجري الحبشة، فجعلوا يرجعون إلى بلدهم مكّة فرحين بهذا التّوافق المفاجىء كما فرح النّبيّ ﷺ أيضًا بتحقيق أُمنيّته القديمة على ائتلاف قومه.

ويقال:إنّ شيطانًا أبيض هوالّذى تمثّل للنّبيّ في صورة جبرئيل و ألقى عليه تينك الكلمتين.

ويقال: كان النّبيّ ﷺ يصلّي عند المقام، إذا نعس نعسةً فجرت على لسانه هاتان الكلمتان من غير شعور بهما.

ويقال: النّبيّ ﷺ هو الّذي تكلّم بهما من تلقاء نفسه حرصًا على ائتلاف قلوب المشركين، ثمّ ندم من فعله هذا الّذي كان افتراء على الله!.

ويقال إنّ الشّيطان أجبره على النّطق بهذا الكلام... إلخ

ثمّ لمّا أمسى الّليل أتاه جبرائيل، فقال له: أعرض عليّ السّورة، فجعل النّبيّ ﷺ يقرأها عليه حتّى إذا بلغ الكلمتين قال جبرائيل: مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين؟ فتندّم رسول الله ﷺ و قال: لقد افتريت على الله، و قلت على الله مالم يقل فحزن حزنًا شديدًا، و خاف من الله خوفًا كبيرًا.

و يقال: إنّ النّبيّ ﷺ قال لجبرائيل: إنّه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني، فقال جبرائيل: معاذالله أن أكون أقرأتك هذا. فاشتدّ ذلك على رسول‌الله، فنزلت: **﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى اَوْحَيْنَااِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ اِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَ لَوْلاَ اَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْكِدْتَ تَرْكَنُ اِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * اِذاً لاَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَتَجِدُلَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾**[1].

فاشتدّ حزن رسول الله ﷺ على هذه البادرة المباغتة، و لم يزل مغمومًا مهمومًا حتّى نزلت عليه: **﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَنَبِيٍّ اِلاَّ اِذَا تَمَنّٰى اَلْقَى الشَّيْطَانُ فى اُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ اٰيَاتِهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[2]، و كانت تسليةً لقلبه

← المشركين بطيور بيض متحلّقة في أجواء السّماء، كناية عن قربهم من الله.

١ ـ الإسراء ٧٣ ـ ٧٥.

٢ ـ الحجّ / ٥٢.

الحزين، فعند ذلك سرى عنه الهمّ و طابت نفسه[١]

نقد الحديث سندًا

تلك أُسطورة الغرانيق مفتراة على النّبيّ الكريم ﷺ، و قد أولع المستشرقون و الطّاعنون في الدّين الإسلاميّ الحنيف بهذه الأُسطورة المصطنعة، و أذا عوها و أثاروا حولها عَجاجة من القول البذيء[٢]، في حين أنّها أُكذوبة مفتعلة صنعتها قرائح القصّاصين، و نسبوها إلى بعض التّابعين، ومن الصّحابة إلى ابن عبّاس، و دلائل الكذب و الافتراء بادية على محياها القذر.

أوّلاً ـ لم يتّصل تسلسل سند الحديث إلى صحابيّ إطلاقًا، و إنّما أُسند إلى جماعة من التّابعين و من لم يدرك حياة رسول الله ﷺ، و عليه فالحديث مرسل غير موصول السّند إلى من شاهد القضيّة فرضًا و أمّا النّسبة إلى ابن عبّاس فلا تقلّ عن غيرها بعد أن كانت ولادة ابن عبّاس في السّنة الثّالثة قبل الهجرة، فلم يشهد القصّة بتاتًا، و إنّما نقلت إليه.فالرّواية من جميع وجوهها غير موصولة الأسناد إلى شهود القصّة لو صحّت الواقعة. و قواعد فنّ التّمحيص في إسناد الرّوايات تأبى جوازالاحتجاج بمثل هذا الحديث المرسل.

هذا وقد شذّ ابن حَجَر في قوله: فيها ثلاث مراسيل، رجالها ثقاة على شرط الصّحة. ثمّ أخذ يتهجّم على من زعمها مختلقة قائلاً إذاكثرت الطّرق و تباينت مخارجها، دلّ ذلك على أنّ لها أصلاً، قال: وتلك المراسيل يحتجّ بها و لو عند من لايحتجّ بالمراسيل، لاعتضاد بعضها ببعض[٣] أقول: و هل الكذبة إذا راجت صدقت؟!.

ثانيًا ـ شهادة جلّ أئمّة الحديث بكذب هذا الخبر، و أنّ الطّرق إليه ضعاف واهية، فهو فيما يشتمل عليه من السّند أيضًا ساقط في نظر الفنّ.

قال ابن حَجَر نفسه: و جميع الطّرق إلى هذه القصّة ـ سوى طريق ابن جُبَير ـ إمّا ضعيف ـ يكون الرّاوي غير موثوق به أو مرميًّا بالوضع و الكذب ـ أو منقطع، (أي كانت

---

١ ـ تفسير الطّبريّ ١٧: ١٣١ ـ ١٣٤. الدّرّ المنثور ٢: ١٩٤ و ٣٦٦ ـ ٣٦٨ فتح الباري بشرح البخاريّ ٨: ٣٣٣.

٢ ـ أنظر تاريخ الشّعوب الإسلاميّة لكارل بروكلمان: ٣٢. ٣ ـ فتح الباري بشرح البخاريّ ٨:٣٣٣

حلقة الوصل بين الرّاويّ الأوّل والرّاويّ الأخير مفقودة)[١] و سنذكر أنّ بلاء طريق ابـن جُبَير هو الإرسال و الضّعف أيضًا.

و قال أحمد بن الحسين البَيْهَقيّ: ـ أكبر أئـمّة الشّـافعيّة، مشـهورًا بـدقّة النّـقد و التّمحيص ـ «هذا الحديث من جهة النّقل غير ثابت ورواته مطعون فيهم»[٢].

و قال أبوبكر ابن العربيّ: «كلّ ما يرويه الطّبريّ في ذلك باطل لاأصل له»[٣].

وصنّف محمّد بن إسحاق بن خُزَيمة رسالة فنّد فيها هذا الحديث المفتعل، و نسبه إلى الزّنادقة[٤].

و قال القاضي عيّاض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصّحّة، و لارواه ثقة بسند سليم متّصل، و إنّما أولع به وبمثله المفسّرون و المؤرّخون المولعون بكلّ غريب، المتلقّفون من الصّحف كلّ صحيح و سقيم. قال: و صدق القاضي بكر بن العلاء المالكيّ حيث قال: لقد بلي المسلمون ببعض أهل الأهواء و التّفسير، و تعلّق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، و اضطراب رواياته، و انقطاع أسناده، و اختلاف كلماته»[٥].

و أمّا طريق ابن جُبَير فذكر أبوبكر البزّاز: أنّ هذا الحديث لم يسنده عن شُعبة إلاّ أُميّة بن خالد و غيره، يرسله عن سعيد بن جُبَير، و إنّما يعرف عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس. ثمّ يذكر شكّه في صحّة الإسناد إلى ابن عبّاس أيضًا فيما أُسند إلى ابن جُبَير[٦].

و أمّا طريق الكَلبيّ إلى ابن عبّاس عن طريق أبي صالح فموهون بالاتّفاق، قال جـلال الدّين السّيوطي: هي أوهى الطّرق.[٧]

ثالثًا ـ اتّفاق كلمة المحقّقين من علماء الإسلام قديمًا و حديثًا على أنّه حـديث مفترى، و حكموا عليه بالكذب الفاضح غير آبهين بجانب السّند، متّصل أم منقطع، صحيح أم سقيم، لأنّه قبل كلّ شيءٍ متناقض مع صريح القرآن الّذى **﴿لاَيَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[٨]، و هادم لأقوى أُسُس الشّريعة و أقوم دعامته الرّصينة.

---

١ ـ نفس المصدر.

٢ ـ تفسير الرّازيّ ٢٣: ٥٠.

٣ ـ فتح الباري ٨: ٣٣٣.

٤ ـ تفسير الرّازيّ ٢٣: ٥٠.

٥ ـ الشّفاء القاضي عَيّاض: ١١٧.

٦ ـ نفس المصدر: ١١٨.

٧ ـ الإتقان ٢: ١٨٩.

٨ ـ فصّلت / ٤٢.

قال الشّريف المرتضى: فأمّا الأحاديث المرويّة في هذاالباب فلايلتفت إليها، من حيث أنّها تضمّنت ما قد نزّهت العقول الرّسلﷺ عنه، هذا لولم يكن في أنفسها مطعونة ضعيفة عند أصحاب الحديث. و كيف يجيز ذلك على النّبيّﷺ من يسمع قول الله تعالى:﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ و قوله: ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾، و قوله:﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾؟ ثمّ أخذ في توضيح الاستدلال[1].

و قال الإمام الفخر: هذه رواية عامّة المفسّرين الظّاهريّين، و أمّا أهل التّحقيق فيرونها باطلة موضوعة، و احتجّوا عليها بوجوه من العقل و النّقل[2]

و قال السّيد الطّباطبائيّ: الأدلّة القطعيّة على عصمة النّبيّ ﷺ تكذّب متن الحديث، و إن فرضت صحّة أسناده، فمن الواجب تنزيه جانب قدسيّة النّبيّﷺ عن أمثال هذه الرّذائل الّتي تَمسُّ كرامة الأنبياء[3].

وَ تَكَلَّم القاضي عَيّاض في تفنيد هذا الحديث بوجوه عديده اقتبسنا منها فصولاً في هذا العرض. و أخيرًا أخذ الدّكتور حسين هيكل في تفنيد القصّة بأُسلوب حديث، لَخّصناه في نهاية المقال.

نقد الحديث مدلولاً

هذا الحديث فضلاً عن سنده الموهون فإنّ مضمونه باطل على كلّ تقدير:

أوّلاً ـ مناقضته الصّريحة مع كثير من نصوص القرآن الكريم في شتّى الجهات.

ثانيًا ـ منافاته الظّاهرة مع مقام عصمة الأنبياء الثّابتة بدليل العقل و النّقل المتواتر و الإجماع.

ثالثًا ـ عدم إمكان التئامه مع سائر آيات السّورة نفسها لحنًا و أُسلوبًا، بحيث لا يمكن التباس هذا الجانب على من يعرف أساليب الكلام الفصيح، و بالأحرى أن لا يلتبس الأمر على أفصح من نطق بالضّاد، و على أُولئك الحضور و هم صناديد قريش و أفلاذ العرب. و توضيحًا لهذه الجوانب الثّلاثه الخطيره نستعرض مايلي:

١ ـ تنزيه الأنبياء: ١٠٧ ـ ١٠٩.
٢ ـ التّفسير الكبير ٢٣: ٥٠.
٣ ـ تفسير الميزان ١٤: ٤٣٥.

١ـ مناقضته مع القرآن

إنّا لنربأ بمسلم نابه ـ فضلاً عن ناقد خبير كابن حَجَر ـ أن يتسلّم صدق هذا الحديث المفتعل، نظرًا لما زعمه من صحّة إسناده المراسيل، ثمّ لا يتدّبر في متنه الفاسد الظّاهر التّنافي مع كثير من نصوص الكتاب العزيز، و إليك طرفًا من ذلك:

أ ـ تبدأ السّورة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ اِذَا هَوىٰ * مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوىٰ * وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * اِنْ هُوَ اِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ﴾.[1]

و هي شهادة صريحة من الله بأنّ محمّدًا ﷺ لايضلّ و لا يغوى و لا ينطق إلاّ عن وحي من الله، يعلّمه الرّوح الأمين.

فلو صحّ ما ذكروه في رأس الآية العشرين لكان تكذيبًا فاضحًا لهذه الشّهادة، و تغليبًا لجانب الشّيطان على جانب الرّحمان، و هو القائل تعالى: ﴿اِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2]، والقائل: ﴿كَتَبَ اللهُ لَاَغْلِبَنَّ اَنَا وَ رُسُلِى اِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.[3]

فكيف ـ يا ترى ـ يتغلّب إبليس على ضمان يضمنه الله تعالى، فيبطله صريحًا قبل أن يفرغ من كلامه عزّ شأنه؟! وهل يتغلّب ضعيف في كيده على قويّ في إرادته؟! و هل هذا إلاّ تهافت باهت و كلام فارغ، لا يستطيع عاقل تصديقه!.

ب ـ و أيضًا فإنّه تعالى يقول: ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْض الْاَقَاوِيلِ * لَاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[4]، كناية أنّ أحدًا لا يستطيع التّقوّل على الله تلبيسًا للحقيقة إلاّ ويهلكه الله من فوره، الأمر الّذي تقتضيه حكمته تعالى، جريًا مع قاعدة اللّطف، و قد سبقت الإشارة إليها.

أفهل ترى ـ بعد هذا التّأكيد ـ يستطيع إبليس، و هو صاحب الكيد الضّعيف أن يتقوّل على الله، و يلبس الأمر على رسول الله ﷺ بما يحسبه وحيًا آتيًا به جبرائيل الأمين؟! إذن فأين الضّمان الّذي ضمنه الله تعالى الغالب على أمره، و تعهّده على نفسه في الآية المذكورة؟!.

---

١ ـ النّجم /١ ـ ٥.
٢ ـ النّساء/٧٦.
٣ ـ المجادلة /٢١.
٤ ـ الحاقّة: ٤٤ ـ ٤٦.

ج ـ و قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]، فقد ضمن تعالى سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين، و حفظه عن دسائس المعاندين، أفهل يعقل ـ بعد ذلك ـ أن يترك إبليس و شأنه في سبيل التّلاعب بالذّكر الحكيم فور نزوله على رسوله الكريم؟! و هل هذا إلاّ تهافت في الرّأي، و إبطال لضمان الله؟! و معه لاتبقى ثقة بما وعدالله المؤمنين من النّصر و الغلبة، و تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا!!.

د ـ و قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢]، و قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[٣]. فكيف نجوّز ـ بعد هذا الضّمان الصّريح المؤكّد ـ أن يتسلّط إبليس على أخلص عبادالله المكرمين، فيلبس عليه ناموس الكبرياء، و في أمسّ شؤون رسالته المضمونة؟!.

على أنّ القرآن يصرّح أنّ لا سلطة لإبليس على أحد إطلاقًا، سوى وسوسته الخدّاعة و دعوته إلى شرور، أمّا التّدخّل عمليًّا في شؤون الخلق أوالخالق، فهذا لا سبيل لإبليس إليه إطلاقًا، و قد حكى الله سبحانه عن لسان إبليس: ﴿وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.[٤]

٢ـ منافاته لمقام العصمة

قال القاضي عيّاض: «وقد قامت الحجّة و أجمعت الأُمّة على عصمته ﷺ و نزاهته عن مثله هذه الرّذيلة، أمّا تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا، من مدح آلهة غير الله و هو كفر، أو أن يتسوّر عليه الشّيطان و يشبّه عليه القرآن، حتّى يجعل فيه ماليس منه، و يعتقد النّبيّ ﷺ أنّ من القرآن ما ليس منه، حتّى ينبّهه جبرائيل عليه السلام، و ذلك كلّه ممتنع في حقّه.

أو يقول النّبيّ ﷺ ذلك من قبل نفسه عمدًا، و ذلك كفر، أو سهوًا، و هو معصوم من هذاكلّه. وقد قرّرنا بالبراهين و الإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أولسانه، لا عمدًا و لا سهوًا.

---

١ ـ الحِجر / ٩.
٢ ـ النّحل / ٩٩.
٣ ـ الإسراء / ٦٥.
٤ ـ إبراهيم / ٢٢.

أو أن يتشبّه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشّيطان، أو يكون للشّيطان عليه سبيل، أو يتقوّل على الله مالم ينزل عليه، وقد قال تعالى: ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْاَقَاوِيل...﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِذاً لَاَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيٰوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ...﴾.[٣][٢]

وأيضًا فلولا العصمة الملحوظة في أداء رسالة الله، لزالت الثّقة بالدّين، و لأخذت الشّكوك مواضعها من أحكام و تكاليف و شرائع يبلّغها النّبيّ ﷺ عن الله تعالى!.

و امتدادًا لجانب عصمته ﷺ و أن لاسبيل لإبليس إلى شأن من شؤونه المعتصمة بعصمة الله تعالى، قال: «من رآني فقد رآني فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بي»[٤] و قد فهم العلماء من هذا الحديث قاعدة كلّية: لا يستطيع إبليس التّمثّل بأيّ وليّ من أولياء الله العباد المُخلصين، و بالأحرى عدم استطاعته التّمثّل بجبرائيل، ملك الوحي المقرّب الأمين!.

إذن فأنّى لإبليس التّلاعب بوحي السّماء، أو أن ينتحل صورة رسول من رسل الله الأكرمين؟! كلاّ، ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْاَعْلىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾.[چ]

٣ـ تهافته مع آي السّورة

قال القاضي عيّاض أيضًا: «ووجه ثانٍ، و هو استحالة هذه القصّة نظرًا و عرفًا، وذلك أنّ هذا الكلام لو كان ـ كما روي ـ لكان بعيد الالتئام، متناقض الأسقام، ممتزج المدح بالذّم، متخاذل التّأليف و النّظم، و لما كان النّبيّ ﷺ و لا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممّن يخفى عليه ذلك. و هذا لا يخفى على أدنى متأمّل، فكيف بمن رجح حلمه، و اتّسع في باب البيان و معرفة فصيح الكلام علمه»[٥].

أفهل يتصوّر بشأن النّبيّ محمّد ﷺ و هو العارف بمواقع الكلام، النّاقد لأفصح أقوال العرب الفُصحاء، أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط، لا يتناسب و سائر جمل و آيات كانت تنزل عليه حينذاك؟! أم كيف ينسجم ماذكروه مع قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ اِلاَّ اَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا

---

١ ـ الحاقّة / ٤٤.
٢ ـ الشّفاء ٢: ١١٨ ـ ١١٩.
٣ ـ الإسراء /٧٥.
٤ ـ صحيح مسلم ٧: ٥٧.
چ ـ الصّافات / ٨.
٥ ـ الشّفاء ٢: ١١٩.

أَنْتُمْ وَ اٰبَاؤُكُمْ مَا اَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ[١]﴾؟ أم كيف يقتنع المشركون ـ و هم أهل نـقد و فصاحة ـ بتلك المجاملة المفضوحة: يقترن مدح مشكوك، بذلك القدح الصّارم، ليأخذوه تقاربًا مبدئيًا بين إشراكهم والدّعوة الّتي قام بها محمّد ﷺ و الّتي قامت على محق الشّرك و إخلاص الدّين الحنيف، و لا سيّما مع تعقيبها بقوله أيضًا: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لَاتُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا[٢]﴾ أفهل يلتئم هذا الكلام التّوحيديّ الخالص مع تـلك الأُكـذوبة: «وإنّ شفاعتهنّ لترتجى»!؟.

و أخيرًا فلو صحّت الحكاية لشاعت و ذاعت، و لأخذها المشركون مستمسكًا في وجه المسلمين طول الدّعوة، و لم يصدّقوا النّبيّ ﷺ في دعواه النّسخ مهما كلّف الأمر. هذا في حين أنّ التّاريخ لم يضبط من تلك الأُقصوصة المفتعلة سوى حكايتها عـن أُنـاس تأخرّوا عن ظرفها بزمان بعيد، ولم يسجّل التّاريخ من يقول: حضرتها! الأمر الّذي يجعلنا قاطعين بكذبها. و لعلّها من الإسرائيليّات المفضوحة الّتي نَسجتها أيدي النّكاة بالإسلام، في عهد سطوّ المظالم على أرجاء البلاد الإسلاميّة، في ظلّ حكومة بني أُميّة أعداء الدّين و القرآن، وهذا هو الأرجح في نظرنا. وفي فصول هذا الكتاب الآتية يتّضح موقف هذه الفئة الباغية على الإسلام أكثر.

قال الأُستاذ هيكل: حديث الغرانيق حديث ظـاهر التّـهافت، يـنقضه قـليل مـن التّمحيص، و هو بعد حديث ينقض ما لكلّ نبيّ من العصمة في تبليغ رسالات ربّه. فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السّيرة و بعض المفسّرين المسلمين، و لذلك لم يتردّد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنّه من وضع الزّنادقة. لكن بعض الّذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فاستندوا إلى قوله تعالى: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾[٣]، و إلى قوله: ﴿اِلاَّ اِذَا تَمَنّٰى اَلقَى الشَّيْطَانَ﴾ و يضيف (سير وِليَم مُويِر) إنّ مرجع المسلمين الّذين هاجروا إلى الحبشة بعد ثلاثة أشهر من إقامتهم هناك لدليل قاطع على صحّة هذه القصّة.

وهذه الحجج الّتي يسوقها القائل بصحّة حديث الغرانيق حجج واهية لا تقوم أمام

---

١ ـ النّجم / ٢٣.
٢ ـ النّجم / ٢٦.
٣ ـ الإسراء / ٧٣.

التّمحيص، أمّا رجوع المسلمين فكان سببه اضطراب سياسيّ، عمّ أرجاء الحبشة على أثر ثورة جديدة قامت فيها.

أمّا الاحتجاج بالآيات فاحتجاج مقلوب، لأنّ الآية الأُولى لاتشي بوقوع الأمر: ﴿وَلَوْلاَ اَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ اِلَيْهِمْ﴾.[1]

فالآية تقول: إنّ الله ثبّته فلم يفعل، و أمّا آية التّمنّي فلاصلة لها بحديث الغرانيق، و قد تقدّم شأنها.

و دليل آخر أقوى و أقطع: سياق السّورة و عدم احتماله لمسألة الغرانيق، فإنّها ذمّ صريح، و لهجة تقريع لا ينسجم و إدراج هكذا جملة، الأمر الّذي لايكاد يخفى على العرب آنذاك.

و أيضًا فإنّ وصف آلهة قريش بالغرانيق لم يأتي في نظمهم ولا في خطبهم و لا شيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الإلهة الّتي وصفها العرب، كما قاله الشّيخ محمّد عبده.

و بقيت حجّة قاطعة نسوقها للدّلالة على استحالة قصّة الغرانيق هذه من حياة محمّد نفسه، فهو منذ طفولته و صباه و شبابه لم يجرّب عليه الكذب قطّ، حتّى سُمِّي الأمين. و كان صدقه أمرًا مسلّمًا به من النّاس جميعًا، فكيف يصدّق إنسان أنّه يقول على ربّه مالم يقل، و يخشى النّاس و الله أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل، يدرك استحالته الّذين درسوا هذه النّفوس القويّة الممتازة الّتي تعرف الصّلابة في الحقّ و لا تداجي فيه لأيّ اعتبار».[2] (١: ٢ ـ ٧٠)

١ ـ الإسراء / ٧٤.

٢ ـ حياة محمّد: ١٢٤ ـ ١٢٩.

الفصل الخامس و العشرون

نصّ الدّكتور أبي شهبه (معاصرٌ) في «المدخل لدراسة القرآن»

[كيفيّة نزول الوحي]

كيف كان جبريل يتلقّى الوحي؟

هذا البحث من أنباء الغيب، فلا يطمئنّ الإنسان إلى رأي فيه إلّا أن ورد عن معصوم، ولم نطّلع في هذا على نقل من المعصوم ﷺ، وإنّما نقول عن بعض العلماء:

١ـ منها ما قاله الطّيّبيّ: لعلّ نزول القرآن على الملك أن يتلقّفه تلقّفاً روحانيّاً، أو يحفظه من اللّوح المحفوظ، فينزل به على النّبيّ ﷺ فيلقيه إليه. وكلمة «لعلّ» لا تفيد القطع، وإنّما تفيد التّجويز والاحتمال، وقد ردّد الإمام الطّيّبيّ الأمر بين هذين الاحتمالين، ولم يقطع برأي.

٢ـ ماذكره البَيْهقيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] قال: يريد ـ والله أعلم ـ إنّا أسمعنا الملك و أفهمناه إيّاه، وأنزلناه بما سمع، وهذا الرّأي أمثل الآراء وأولاها بالقبول، ويشهد له ما رواه الطَّبَرانيّ من حديث النَّوّاس بن سَمعان مرفوعاً إلى النّبيّ ﷺ: قال: «إذا تكلّم الله بالوحي أخذت السّماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السّماء صعقوا، وخرّوا سجّداً، فيكون أوّلهم يرفع رأسه جبريل، فيكلّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلّما مرّ بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربّنا؟ قال: الحقّ، فينتهي به حيث أمر» والحديث وإن لم يكن نصّاً في القرآن إلّا أنّ الوحي يشمل وحي القرآن وغيره، بل يدخل فيه الوحي بالقرآن دخولاً أوّليّاً.

---

١ ـ القدر / ١.

وهذا الرّأي هو أحد الاحتمالين اللّذين جوّزهما الطّيّبي، وهو مراده بقوله: أن يتلقّفه تلقّفًا روحانيّاً.

والاحتمال الثّاني، وهو حفظه من اللّوح المحفوظ وإن كان غير مستبعد،إلّا أنّ ما دلّ عليه النّصّ أولى، وينبغي أن يصار إليه، وهو الأليق بالقرآن الكريم. وفي تلقّي جبريل عليه السلام القرآن من ربّه دون وساطة إعظام للقرآن وتفخيم لشأنه، وتلبية إلى غاية العناية به، والحرص والمحافظة عليه، ومبالغة في صيانته عن التّحريف والتّبديل.

ألاترى أنّ أحد الملوك أو الرُّؤساء أو الأُمراء إذا أرسل رسالة مهمّة في أمر مهمّ لرجل ذي شأن، فإنّه يتخيّر لها الرّسول، ويأبى إلّا أن يختمها بختمه، وأن يناولها إليه بيده، فما بالك بالقرآن الّذي هو كلام اللّه ورسالة الرّسالات؟ وأحقّ الكتب بالتّحوّط والصّيانة والحفاظ عليه.

كيف كان يتلقّى النّبيّ القرآن

كان النّبيّ صلى الله عليه وآله يتلقّى القرآن عن جبريل عليه السلام على حالتين:

١ـ أن ينسلخ النّبيّ صلى الله عليه وآله من حالته البشريّة العاديّة إلى حالة أُخرى، بها يحصل له استعداد لتلقّي الوحي من جبريل عليه السلام، وهو على حالته الملكيّة. وفي هذه الحالة قد يسمع عند مجيىء الوحي صوتٌ شديدَ كصَلصَلة الجرس و أحيانًا يسمع الحاضرون صوتاً عند مجيء الوحي كدويّ النّحل، وتأخذ النّبيّ صلى الله عليه وآله حالة شديدة روحانيّة، يغيب فيها عمّا حوله، ويثقل جسمه، حتّى لتكاد النّاقة الّتي يركبها تَبرُك، وإذا جاءت فَخِذُهُ على فَخَذِ انسان تكاد تُرضُّها، ويتصبّب عرقه، وربّما يسمع له غطيط كغطيط النّائم، فإذا ما سرى عنه وجد نفسه واعياً لكلّ ماسمع من الوحي فيبلّغه كما سمعه. وهذه الحالة أشدّ حالات الوحي على النّبيّ صلى الله عليه وآله،ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1]، وعلى هذه الحالة تلقّى القرآن.

٢ـ أن يتحوّل جبريل عليه السلام من الملكيّة إلى الصّورة البشريّة، فيأتي في صورة رجل،

---

١ ـ المزّمّل / ٥.

فيأخذ عنه الرّسول ويسمع منه. وكثيرًا ما كان جبريل عليه السلام يأتي في هذه الحالة في صورة دِحية الكَلبيّ، أو صورة أعرابيّ لا يعرف [١]، وهذه الحالة أهون الحالين على الرّسول.

يدلّ على هاتين الحالين ما رواه البخاريّ في صحيحه بسنده عن عائشة: أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول اللّه صلى الله عليه وآله: كيف يأتيك الوحي؟... [وذكر كما تقدّم عن النّسائيّ الرّقم ٢ فقال:]

وإنّما اكتفى النّبيّ في الجواب بهاتين الكيفيّتين دون غيرهما من الكيفيّات والأنواع؛ لأنّ الظّاهر أنّ السّؤال كان على الوحي الّذي يأتي عن طريق جبريل.

والقرآن الكريم لم ينزل منه شيء إلّا عن طريق جبريل عليه السلام، ولم يأت شيء منه عن تكليم أو إلهام أومنام، بل كلّه أُوحي به في اليقظة وحياً جليّاً، ولا يخالف هذا ماورد في صحيح مسلم عن أنس قال: بينا رسول اللّه صلى الله عليه وآله بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة [٢].. ثمّ رفع رأسه مُبتَسِماً، فقلنا، ما أضحكك يارسول اللّه؟ فقال: «إنّه نزل عليّ آنفاً سورة»، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * اِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْاَبْتَرُ﴾.

إذ ليس المقصود بـ«الإغفاءة» في الحديث النّوم، وإنّما المقصود الحالة الّتي كانت تعتريه عند نزول الوحي، وهي الغيبوبة عمّا حوله. وقد ذكر العلماء أنّه كان يؤخذ عن الدّنيا، وبهذا يفسّر أيضًا ماورد في بعض روايات هذا الحديث أنّه أُغمي عليه. [ثمّ ذكر قول السّيوطيّ في كيفيّات الوحي كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]...

تلقّي النّبيّ القرآن عن جبريل وهو على ملكيّته

والّذي نقطع به - واللّه أعلم - أنّ القرآن الكريم كلّه نزل في الحالة الأُولى، وهي الحالة الّتي يكون فيها جبريل على ملكيّته، وتحوّل النّبيّ صلى الله عليه وآله من البشريّة إلى الملائكيّة، و هذا هوالّذي يليق بالقرآنالكريم، ونَفْي أيّ احتمال أو تلبيس في تلقّيه. ولم أقف قطّ على رواية تفيد نزول شيء منالقرآن عنطريق جبريل وهو في صورة رجل، وكلّ ما جاء

---

١ ـ وذلك كما في حديث جبريل المشهور الّذي رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما، ففي رواية لمسلم: بينما نحن عند رسول اللّه إذ طلع علينا رجل.. ولا يعرفه منّا أحد، وفي الصّحيحين: أنّ النّبيّ قال لأصحابه: «ردّوا عليّ الرّجل»، فذهبوا فلم يجدوه، فقال: «هذا جبريل جاء ليعلّم النّاس دينهم». ٢ ـ يقال: أغفى إغفاءة، أي نام نومة خفيفة.

من ذلك في الأحاديث الصّحاح كحديث جبريل المشهور، وسؤاله النّبيّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والسّاعة وأشراطها، فإنّما هو في وحي السّنّة لا في وحي القرآن.

نعم هناك قرائن لا تَصِل إلى حدّ الدّلالة تدلّ على نزول القرآن بالطّريق الأوّل، فمن ذلك قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1]، أي ثقيلاً تلقيه، وثقيلاً عليه، وذلك إنّما يكون في الحالة الّتي تسود فيها الملائكة عند تلقّي الوحي، وقيل: ثقيلاً العمل به، والقيام بفرائضه وحدوده، وقيل: ثقيل من الوجهين معاً.

وفي الحديث الصّحيح الّذي رواه البُخاريّ عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[2]، قال: كان رسول اللّه ﷺ يعالج من التّنزيل شدّة، وكان ممّا يحرّك شفتيه...، وهذه الشّدّة لن تكون إلّا في الحالة الأُولى.

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد اللّه بن عمرو قال: سألت النّبيّ ﷺ فقلت: هل تحسّ بالوحي؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «أسمع صلاصل، ثمّ أسكت عند ذلك، فما من مرّة يوحى إليّ إلّا ظننت أن نفسي تقبض» رواه أحمد.

وروى ابن جَرير أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها[3]، فما تستطيع أن تحرّك حتّى يسري عنه. وعن زيد بن ثابت: أُنزل على رسول اللّه ﷺ وفَخِذُه على فَخِذي، فكادت تَرُضّ[4] فَخِذي[5].

وأيضًا فلو أُنزل شيء من القرآن في الحالة وهي مجيء جبريل ﵇ في صورة رجل لكان هذا مثارًا للشّكّ والتّلبيس على ضُعفاء الإيمان، ولكان فيه مستند للمشركين في قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[6].

وقد أشار اللّه تبارك وتعالى إلى هذا في قوله حكاية لمقالة المشركين ورادًّا عليهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[7]، [8]، فكان من الرّحمة بالعباد، وعدم التّلبيس

---

١ ـ المزّمّل / ٥.
٢ ـ القيامة / ١٦.
٣ ـ الجِران: باطن العنق.
٤ ـ تكسر عظامها.
٥ ـ تفسير ابن كثير ٩: ٢٧ ـ ٢٨.
٦ ـ النّحل / ١٠٣.
٧ ـ الأنعام / ٨ ـ ٩.

عليهم أن لا ينزل القرآن إلّا في هذا الجوّ الملائكيّ الرّوحانيّ.

ما الّذي نزل به جبريل على النّبيّ؟

الّذي نقطع به أنّ القرآن الكريم كلام اللّه سبحانه، وهو الّذي يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[٩]. وأنّ القرآن لفظه ومعناه من عند اللّه سبحانه قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١٠]، ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١١]، وقال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[١٢].

وأنّ الّذي نزل به هو أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وأنّ الّذي نزل به جبريل هو هذا اللّفظ العربيّ من غير أن يكون له فيه شيء ما، ومن غير أن يزيد فيه حرفاً أو ينقص منه حرفاً. وكذلك ليس للنّبيّ ﷺ في القرآن شيء إلّا التّبليغ، وهذا هو الحقّ الّذي يجب على كلّ مسلم أن يعتقده ويؤمن به، ولا تلتفت إلى ما زعمه بعض ما يهرف بما لا يعرف، أو من يفتري ويختلق، من أنّ جبريل أوحى إليه المعنى، وأنّه عبّر بهذه الألفاظ الدّالّة على المعاني بلغة العرب، ثمّ نزل على النّبيّ كذلك. أو أنّ جبريل أوحى إلى النّبيّ ﷺ المعنى، وأنّ النّبيّ عبّر عن هذه المعاني بلفظ من عنده[١٣]، متمسّكاً بظاهر قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[١٤]،فإنّه زعم وحرص لم تقم عليه أثارة من علم، وما تمسّك به هذا الزّاعم من الآية لا يشهد له، فإنّ القلب كما ينزل عليه المعنى ينزل عليه اللّفظ، وإنّما آثر الحقّ تبارك و تعالى، هذا التّعبير للدّلالة على أنّ القرآن كما وعته الأُذنان، وعاه القلب اليقظان.

وهذا القول خلاف ما تواتر عليه القرآن والسّنّة، وانعقد عليه إجماع الأئمّة من أنّ

---

٨ ـ لقضي الأمر بإهلاكهم، فقد جرت سنّة اللّه مع الكافرين أنّهم إذا سألوا أسئلة تعنّتية، ثمّ أجيبوا أن يهلكهم.

٩ ـ التّوبة / ٥.

١٠ ـ الزّمر / ١.

١١ ـ غافر / ١ ـ ٣.

١٢ ـ الإسراء / ١٠٥.

١٣ ـ الإتقان ١: ٤٣ وقد ذكر السّيوطيّ ذلك ناقلاً، وفاته أن يعقّب عليه بالبطلان.

١٤ ـ الشّعراء / ١٩٣ ـ ١٩٥.

القرآن – لفظه ومعناه – كلام اللّه، ومن عند اللّه، ولو جاز هذا الزّعم لما كان القرآن معجزًا، ولما كان متعبّدًا بتلاوته.

وهذا الزّعم لا يقول به إلّا جاهل استوت عليه الغفلة، أو زنديق يدسّ في الدّين والعلم ماليس منه، ولا تغترّ بوجوده في بعض الكتب الإسلاميّة، فأغلب الظّنّ أنّه مدسوس على الإسلام والمسلمين. وإنّا لنبرأ إلى اللّه أن يقول هذا عالم مسلم متثبّت.

وقد بلّغ النّبيّ ﷺ القرآن كما نزل إلى الأُمّة من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، ولا كتمان لشيء منه، ولو كان النّبيّ ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم الآيات الّتي فيها عتاب له، وتنبيه بلطف إلى ترك الأُولى في باب الاجتهاد، وبحسبك أن تقرأ معي قول اللّه عزّوجلّ: ﴿يَاءَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَاِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[١]، وقول اللّه سبحانه: ﴿وَاِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْاٰنٍ غَيْرِ هٰذَا اَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُوْنُ لِى اَنْ اُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى اِنْ اَتَّبِعُ اِلَّا مَايُوْحىٰ اِلَيَّ اِنِّى اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْاَقَاوِيلِ * لَاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَامِنْكُمْ مِنْ اَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٣]

نزول جبريل بالسُّنّة[٤]

وما ذكرنا من محافظة جبريل عليه السلام على تبليغ اللّفظ كما سمعه من غير تغيير، حتّى ولو كان اللّفظان بمعنى واحد، إنّما هو فيما يتعلّق بتبليغ القرآن. أمّا وحي السّنّة فلا يلتزم فيه جبريل عليه السلام اللّفظ الّذي سمعهُ لأنّ التّبليغ السّنّة مبناه المعنى لا اللّفظ، إذ ليس لفظها معجزًا، ولا متعبّدًا بتلاوتها كالقرآن.

[ثمّ ذكر كلام الجُوينيّ وتعليق السّيوطيّ عليه، وذكر أيضًا رواية أبي حاتم نقلاً عن الزُّهْريّ كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]

وحي السّنّة: أمّا وحي السّنّة، فمنه ما يكون عن طريق أمين الوحي جبريل، وفي

---

١ ـ المائدة / ٦٧. ٢ ـ يونس / ١٥.

٣ ـ الحاقّة / ٤٤ – ٤٧. ومعنى (بِالْيَمِينِ) أي لانتقمنا منه بالقوّة، و (الْوَتِيْنَ): عِرْق متّصل بالقلب، إذا قطع مات الإنسان.

٤ ـ السّنّة النّبويّة بعضها بالوحي وبعضها بالاجتهاد على ماهو التّحقيق، وكلامنا هنا فيما كان منها بوحي.

إطار الحالة الأُولى، وهي الحالة الملائكيّة، وذلك كما في قصّة يَعْلَى بن أُميّة؛ روى الْبُخاريّ في صحيحه بسنده عن يعلىٰ، قال لعمر: أرني رسول اللّه ﷺ حين يوحى إليه؛ قال: فبينما النّبيّ في الجِعرانة جاءه رجل، فقال: يا رسول اللّه، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمّخ بطيب؟ فسكت النّبيّ ساعة، فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يعلىٰ، و علىٰ رسول الله ﷺ ثوب قد أظلّ به، فأدخل رأسه، فإذا رسول اللّه ﷺ محمرّ الوجه وهو يغطّ، ثمّ سرى عنه، فقال: «أين السّائل عن العمرة»؟ فأُتي برجل، فقال: «اغسل الطّيب الّذي بك ثلاث مرّات، وانزع عنك الجبّة، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجّتك».

وبعضه في إطار الحالة الثّانية كما في حديث جبريل، وبعضه بالمكالمة كما حدث ليلة الإسراء والمعراج، وبعضه بالإلهام والمنام، وبعضه بالقذف في القلب. وسواء أكانت السّنّة بوحي جليّ أو خفيّ، فلفظها من عند النّبيّ ﷺ. (٥٩ ـ ٦٩)

الفصل السّادس والعشرون

نصّ القَطّان (معاصر) في: «مباحث في علوم القرآن»

معنى الوحي

يقال: وَحَيت إليه و أوحيت، إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره، والوحي: الإشارة السّريعة، و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض، وقد يكون بصوت مجرّد، و بإشارة ببعض الجوارح.

والوحي مصدر، و مادّة الكلمة تدلّ على معنيين أصليّين، هما: الخفاء والسّرعة، و **لذا قيل في معناه: الإعلام الخفيّ السّريع الخاصّ بمن يوجّه إليه بحيث يخفى على غيره، و هذا معنى المصدر، ويطلق و يراد به الموحى، أي بمعنى اسم المفعول، و الوحي بمعناه اللّغوي يتناول:**

١ـ الإلهام الفطريّ للإنسان، كالوحي إلى أُمّ موسى: ﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ﴾.

٢ـ و الإلهام الغريزيّ للحيوان، كالوحي إلى النّحل...

٣ـ و الإشارة السّريعة على سبيل الرّمز و الإيحاء، كإيحاء زكريّا فيما حكاه القرآن عنه...

٤ـ و وسوسة الشّيطان و تزيينه الشّرّ في نفس الإنسان...

٥ـ و ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه...

[ثمّ استَشهد لكلّ قسمٍ بآياتٍ، كما تقدّم عن المصطفويّ، فقال:]

و وحي الله إلى أنبيائه قد عرّفوه شرعًا بأنّه كلام الله تعالى المنزل على نبيّ من أنبيائه، وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول، أي الموحى.

و عرّفه الأُستاذ محمّد عبده في رسالة التّوحيد بأنّه: «عرفان يجده الشّخص من نفسه مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأوّل بصوت يتمثّل لسمعه أو بغير صوت. و يفرّق بينه و بين الإلهام بأنّ الإلهام وجدان تستيقنه النّفس فتنساق إلى ما يطلب

على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع و العطش و الحزن و السّرور».

وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدريّ، و بدايته و إن كانت توهم شبهة بحديث النّفس أو الكشف إلاّ أنّ الفرق بينه و بين الإلهام الّذي جاء في عجز التّعريف ينفي هذا.

كيفيّة وحي الله إلى ملائكته

١ـ جاء في القرآن الكريم ما ينصّ على كلام الله لملائكته: ﴿وَ اِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ اِنِّى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا اَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا...﴾.[1]

و على إيحائه إليهم: ﴿اِذْ يُوحِى رَبُّكَ اِلَى الْمَلٰئِكَةِ اَنِّى مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ اٰمَنُوا...﴾[2]

و على قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ اَمْرًا﴾[3]، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ اَمْرًا﴾[4]. وهذه النّصوص متآزرة تدلّ على أنّ الله يكلّم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه. و يؤيّد هذا ما جاء في الحديث عن النّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ١٠، ثمّ قال:]**

فهذا الحديث يبيّن أنّ كيفيّة الوحي تكلّم من الله، و سماع من الملائكة، وهول شديد لأثره، و إذا كان ظاهره ـ في مرور جبريل و انتهائه بالوحي ـ يدلّ على أنّ ذلك خاصّ بالقرآن فإنّ صدره يبيّن كيفيّة عامّة، و أصله في الصّحيح «إذا قضى الله الأمر في الأمر في السّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله كأنّه سِلسِلة على صَفوان».

٢ـ و ثبت أنّ القرآن الكريم كتب في اللّوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْاٰنٌ مَجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[5] كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا في ليلة القدر من شهر رمضان ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[6]، ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[7] ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[8].

و في السّنّة ما يوضح هذا النّزول، و يدلّ على أنّه غير النّزول الّذي كان على قلب

---

١ ـ البقرة / ٣٠.
٢ ـ الأنفال / ١٢.
٣ ـ الذّاريات / ٤.
٤ ـ النّازعات / ٥.
٥ ـ البروج / ٢١ و ٢٢.
٦ ـ القدر / ١.
٧ ـ الدّخان / ٣.
٨ ـ البقرة / ١٨٥.

رسول‌الله ﷺ فعن ابن عبّاس موقوفًا: «أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر، ثُمّ أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثمّ قرأ ﴿وَ لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ تَفْسِيرًا﴾[1]، ﴿وَ قُرْاٰنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[2][3] و في رواية «فصل القرآن من الذّكر فوَضَع في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، فجعل جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ».[4]

و لذلك ذهب العلماء في كيفيّة وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية:

الف ـ أنّ جبريل تلقّفه سماعًا من الله بلفظه المخصوص.

ب ـ أنّ جبريل حفظه من اللّوح المحفوظ.

ج ـ أنّ جبريل أُلقي إليه المعنى، و الألفاظ لجبريل أو لمحمّد ﷺ.

والرّأي الأوّل: هوالصّواب، وهو ماعليه أهل‌السّنّة والجماعة، ويؤيّده حديث‌النُّواس بن سَمعَان السّابق. و نسبة القرآن إلى الله في أكثر من آية: ﴿وَ اِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْاٰنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[5]، ﴿وَ اِنْ اَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَاَجِرْهُ حَتّىٰ يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ﴾[6]، ﴿وَ اِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَيَرْجُون لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْاٰنٍ غَيْرِ هٰذَا اَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي اَنْ اُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي اِنْ اَتَّبِعُ اِلاَّ مَايُوحىٰ اِلَيَّ﴾.[7] فالقرآن‌الكريم كلام‌الله بألفاظه لاكلام جبريل أومحمّد.

و **الرّأي الثّاني:** فلا اعتبار له، إذ أنّ ثبوت القرآن في اللّوح المحفوظ كثبوت سائر المغيّبات الّتي لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

والرّأي الثّالث: أنسب بالسّنّة لأنّها وحي من الله أوحي إلى جبرئيل ثمّ إلى محمّد ﷺ بالمعنى، فعبّر عنه رسول الله بعبارته: ﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ اِنْ هُوَ اِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ﴾[8] و لذا جازت روايه السّنّة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعاني دون القرآن...

---

۱ ـ الفرقان / ۳۳.

۲ ـ الإسراء / ۱۰٦.

۳ ـ أخرجه الحاكم و البيهقيّ و النّسائيّ.

٤ ـ أخرجه الحاكم و ابن أبي شيبة.

٥ ـ النّحل / ٦.

٦ ـ التّوبه / ٦.

۷ ـ يونس / ۱٥.

۸ ـ النّجم / ٤۹۳.

[كيفيّة وحي الله إلى رسله]

يوحي الله إلى رسله بواسطة و بغير واسطة، فالأوّل: بواسطة جبريل ملك‌الوحي و سيأتي بيانه. و الثّاني: و هو الّذي لا واسطة فيه.

أ ـ منه الرُّؤيا الصّالحة في المنام، فعن عائشه رضي‌الله‌عنها قالت: «أوّل ما بدىء به ﷺ الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح»[١]. و كان **ذلك تهيئة لرسول‌الله حتّى ينزل عليه الوحي يقظة، وليس في القرآن شيء من هذا النّوع لأنّه نزل جميعه يقظة، خلافًا لمن ادّعى نزول سورة «الكوثر» منامًا للحديث الوارد فيها، ففي صحيح مسلم عن أنس «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم... [و ذكر كما تقدّم عن أبي شهبة، فقال:]**

و ممّا يدلّ على أنّ الرُّؤية الصّالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتّباعه ما جاء في قصّة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل[٢] **﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ اِنِّى اَرىٰ فِى الْمَنَامِ ـ** إلى أن قَال: **ـ وَبَشَّرْنَاهُ بِاِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**[٣] ولو لم تكن هذه الرُّؤيا وحيًا يجب اتّباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن منّ الله عليه بالفداء.

والرُّؤيا الصّالحة ليست خاصّة بالرّسول، فهي باقية للمؤمنين و إن لم تكن وحيًا كما قال عليه الصّلاة و السّلام «انقطع الوحي و بقيت المبشّرات، رؤيا المؤمن».

و الرُّؤيا الصّالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأوّل من أقسام التّكليم الإلهيّ المذكور في قوله تعالى: **﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ اِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾**.[٤]

ب ـ و منه الكلام الإلهيّ من وراء حجاب بدون واسطة يقظة: و هو ثابت لموسى عليه السلام **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسىٰ لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ اَرِنِى اَنْظُرْ اِلَيْكَ﴾**[٥]، **﴿وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيمًا﴾**[٦].

كما ثبت التّكلّم على الأصحّ لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء و المعراج. و هذا النّوع هو

---

١ ـ متّفق عليه.

٢ ـ هذا هو الصّواب، خلافًا لمن ذهب إلى أنّه إسحاق، فإنّ البشارة كانت أوّلاً بإسماعيل قبل إسحاق، و إسماعيل هو الّذي نشأ في الجزيرة العربيّة حيث كانت قصّة الذّبح، وهو الحريّ بأن يوصف بالحلم.

٣ ـ الصّافات / ١٠١ ـ ١١٢.

٤ ـ الشّورى / ٥١.

٥ ـ الأعراف / ١٤٣.

٦ ـ النّساء / ١٦٤.

القسم الثّاني المذكور في الآية: ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ و ليس في القرآن شيء منه كذلك.

كيفيّة وحي المَلَك إلى الرّسول

وحي الله إلى أنبيائه إمّا أن يكون بغير واسطة، و هو ما ذكرناه آنفًا ـ و كان منه الرُّؤيا الصّالحة في المنام، والكلام الإلهيّ من وراء حجاب يقظة ـ و إمّا أن يكون بواسطة ملك الوحي، و هو الّذي يُعيننا في هذا الموضوع لأنّ القرآن الكريم نزل به. ولا تخلو كيفيّة وحي الملك إلى الرّسول من إحدى حالتين:

الحالة الأُولى ـ و هي أشدّ على الرّسول ـ أن يأتيه مثل صَلْصَلَة الجرس، و الصّوت القويّ يثير عوامل الانتباه فتهيّأ النّفس بكلّ قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحي بهذه الصّورة على الرسولﷺ نزل عليه و هو مستجمع القُوى الإدراكيّة لتلّقيه و حفظه و فهمه، و قد يكون هذا الصّوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث «إذا قضى الله ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله كالسِّلسِلة على صفوان»[1]، و قد يكون صوت الملك نفسه في أوّل سماع الرّسول له.

والحالة الثّانية ـ أن يتمثّل له الملك رجلاً و يأتيه في صورة بشر، و هذه الحالة أخفّ من سابقتها، حيث يكون التّناسب بين المتكلّم والسّامع، و يأنس رسول النّبوّة عند سماعه من رسول الوحي، و يطمئنّ إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

و الهيئة الّتي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتّم فيها أن يتجرّد من روحانيّته، ولا يعني أنّ ذاته انقلبت رجلاً، بل المراد أنّه يظهر بتلك الصّورة البشريّة أُنسًا للرّسول البشريّ، و لا شكّ أنّ الحالة الأُولى ـ حالة الصَّلصَلة ـ لا يوجد فيها هذا الإيناس، وهي تحتاج إلى سموّ روحيّ من رسول الله يتناسب مع روحانيّة الملك فكانت أشدّ الحالتين عليه، لأنّها كما قال ابن خَلدون: «انسلاخ من البشريّة الجسمانيّة و اتّصال بالملكيّة الرّوحانيّة، و الحالة الأُخرىٰ عكسها لأنّها انتقال الملك من الرّوحانيّة المحضة إلى البشرّية الجسمانيّة». و كلتا الحالتين مذكور فيما روي عن عائشة... **[ثمّ ذكر روايتين عنها**

---

١ ـ رواه البخاريّ.

كما تقدّم عن النّسائيّ، الرّقم ١ و ٢، فقال:]

والحالتان هما القسم الثّالث من أقسام التّكليم الإلهيّ المشار إليه في الآية: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾[1].

أمّا النّفث في الرّوع ـ أي القلب ـ فقد ذكر في قول الرّسول ﷺ: «إنّ روح القُدُس نفث في رَوعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها: و أجلها، فاتّقوا الله و أجملوا في الطّلب»[2]. و الحديث لا يدلّ على أنّه حالة مستقلّة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملك في مثل الصّلصَلة و ينفث في روعه، أو يتمثّل له رجلاً و ينفث في روعه، و ربّما كانت حالة النّفث فيما سوى القرآن الكريم.

(٢٩ـ٣٧)

[ثمّ ذكر شُبه الجاحدين على الوحي الّذي لا يحتاج ذكره هنا و إن شئت فراجع].

---

١ ـ الشّورى / ٥١.

٢ ـ رواه أبو نُعيم في الحلية بسند صحيح.

الفصل السّابع والعشرون

نصّ الشّيخ السُّبحانيّ (مُعاصر) في مجلّة «رسالة القرآن»

[معنى الوحي و أقسامه]

الوحي لغةً و اصطلاحًا

الوحي في اللّغة هو الإلقاء في خفاء، نصّ على ذلك ابن فارس في المقاييس، ثمّ إنّ أئمّة اللّغة و إن ذكروا للوحي معاني مختلفة، لكنّ الجميع يرجع إلى أصل واحد و هو تعليم الغير بخفاء. قال ابن منظور: الوحي: الإشارة، و الكتابة، والرّسالة، والإلهام و الكلام الخفيّ و كلّ ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وحيت إليه الكلام.

المستفاد من كلماتهم أنّ الوحي هو الإعلام بخفاء بطريق من الطّرق، و العنصر المقوّم لمعنى الوحي هو الخفاء، و أمّا غيره ـ كالسّرعة على ما في مفردات الرّاغب ـ فليس بمقوّم لمعنى الوحي، كما أنّ الإشارة و الكتابة و الإلهام إلى القلب كلّها من طرق الوحي و وسائله.

و قد أستُعمِل الوحي في القرآن الكريم في موارد مختلفة كلّها مصاديق و موارد لهذا المعنى الجامع، و إن شِئت قُلتَ: من قبيل تطبيق المعنى الكلّي على مصاديقه المختلفه المتنوّعة، و إليك البيان:

١ـ تقدير الخلقة بالسّنن و القوانين: قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا و لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا قَالَتَا اَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَاَوْحىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ اَمْرَهَا...﴾.[١] فقوله: ﴿وَ اَوْحىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ اَمْرَهَا﴾ يحتمل وجهين:

---

١ ـ فُصِّلَت / ١١ و ١٢.

الأوّل ـ أودع في كلّ سماء السّنن و الأنظِمة الكونيّة و قدّر عليها دوامها إلى أجل معيّن. و بما أنّ السّماوات تلقّت هذه السّنن و النّظم بالإشارة في خلقتها استعير في التّعبير لفظ الوحي.

الثّاني ـ أنّ الشّعور و الإدراك ساريان في جميع مراتب الوجود من أعلاه كواجبه إلى أدنا كالهَيُولىٰ في عالم التّكوين، و لكنّ كلّ حسب درجته و مرتبته، فالسّماوات تلقّت ما أوحى إليها سبحانه بخفاء فقامت بامتثال ما أوحى إليها من الوظائف.

و من هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْاَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَ اَخْرَجَتِ الْاَرْضُ اَثْقَالَهَا * وَ قَالَ الْاِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ اَخْبَارَهَا * بِاَنَّ رَبَّكَ اَوْحىٰ لَهَا**﴾.[1]

٢ـ الإدراك و الغريزة: قال سبحانه: ﴿**وَ اَوْحىٰ رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلاً...**﴾.[2]

فالأعمال المُدهِشة الخلاّبة للعقول الّتي تقوم بها النّحل في صنع بيوتها و القيام بشؤون وظائفها، ثمّ التّجوُّل بين البساتين، و مصّ رحيق الأزهار، ثمّ إيداعه في صفائح الشَّهد، شيء تتعلّمه بإيحاء من الله سبحانه و ذلك بإيداع الغرائز الكفيلة بذلك، و بما أنّ تأثّر النّحل بها بخفاء و بلا التفات من الشّعور و الإدراك أُطلق عليه لفظ الوحي. ويحتمل أيضًا أنّ هناك معنى آخر ذكرناه في الوحي الى السّماء.

٣ـ الإلهام و الإلقاء في القلب: و قد استعمل الوحي في الإلقاء إلى القلب في موارد في الذّكر الحكيم، منها قول سبحانه: ﴿**وَاَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعِيهِ...**﴾.[3] ومنها: قوله: ﴿**وَ اِذْ اَوْحَيْتُ اِلَى الْحَوَارِيِّينَ اَنْ اٰمِنُوا بِى وَ بِرَسُولِى...**﴾.[4] و منها: قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام عندما جعلوه في غيابة الجُبّ قال سبحانه: ﴿**وَ اَوْحَيْنَا اِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِاَمْرِهِمْ هٰذَا وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ**﴾[5] إلى غير ذلك من الموارد.

٤ـ الإشارة: قال سبحانه: ﴿**فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَاَوْحىٰ اِلَيْهِمْ اَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ**

١ ـ الزّلزال / ١ـ٥.
٢ ـ النّحل / ٦٨ و ٦٩.
٣ ـ القَصَص / ٧.
٤ ـ المائدة/١١١.
٥ ـ يوسف/١٥.

عَشِيًّا﴾[١] و بما أنّه استخدم الإشارة في تفهيم مراده فأشبه فعله إلقاء الكلام بخفاء فصار ذلك مصحّحًا لا ستعمال لفظ الوحي.

٥ـ الإلقاءات الشّيطانيّة: قال سبحانه: ﴿وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...﴾[٢] ويعلم وجه استعمال الوحي هنا ممّا ذكرنا فيما سبق.

٦ـ كلام الله المنزل على نبيّ من أنبيائه: قال سبحانه: ﴿كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣]. وقد عرّف هذا النّوع من الوحي بأنّه تعليمه تعالى من اصطفاه من عباده كلّما أراد إطّلاعه على ألوان الهداية و أشكال العلم و لكن بطريقة خفيّة غير معتادة للبشر.

و حصيلة البحث أنّ للوحي معنى واحدًا، و له مصاديق متنوّعة، وليست هي بمعانٍ متكثّرة، و أنّ حقيقة الوحي تعليم غيبيّ لمن اصطفاه سبحانه من عباده، لا يشابه الطّرق المألوفة بين العباد، و إن أردت المزيد من الاطّلاع فإليك البيان التّالي:

قنوات المعرفة الثّلاث

إنّ أمام الإنسان طرقًا ثلاثة للوصول إلى مقاصده:

١ـ الطّريق الحسّيّ والتّجربيّ: والمقصود منه الإدراكات والمعلومات الواردة إلى الذّهن عن طريق الحواسّ الظّاهريّة، أو بفضل التّجربة الّتي أُسّست الحضارةالمعاصر عليها.

٢ـ الطّريق التّعقّليّ النّظريّ: إنّ المفكّرين يتوصّلون إلى كشف الأُمور الخارجة عن إطار الحسّ و التّجربة عن طريق الاستدلال، وإعمال النّظر و إنهاء المجهولات إلى البديهيّات، و قد توصل البشر بهذا الطّريق إلى المسائل الفلسفيّة الكلّيّة و ما يضاهيها.

٣ـ طريق الإلهام: وهذا هو الطّريق الثّالث و هو فوق نطاق الحسّ و التّعقّل: إنّه نوع جديد من المعرفة،ونمط متميّز من إدراك الحقائق ليس محالاً من وجهة نظر العلم، وإن كان يصعب

---

١ ـ مريم / ١١.
٢ ـ الأنعام / ١١٢.
٣ ـ الشّورى / ٣.

على أصحاب الاتّجاهالمادّيّ قبوله، لكونه طريقًا خارجًا عن إطار الحسّ والتّعقّل.

إنّ طريق التّعرّف على حقائق الكون ـ في منهج المادّيّين و أصحاب النّزعة المادّيّة ـ ينحصر في قناتين لا غير، و هما اللّذان سبق ذكر هما في حين أنّ هناك حسب نظر الالهيّين قناة ثالثة أيضًا.

إنّ هذا الطّريق الثّالث أقوى أُسسًا و أوسع آفاقًا عند من يدّعون الرّسالة و النّبوّة من جانب الله سبحانه، و أنّ نفوس أُولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاءً و طراوةً وز هوًا.

كلّما حصل ارتباط بين الله سبحانه و فرد من أفراد النّوع الإنسانيّ على نحو تلقّي الحقائق من دون توسيط الحواسّ و إعمال الفكر يسمّى بالإلهام تارةً و الإشراق أُخرى، و كلّما نتجت من هذا الارتباط سلسلة تعاليم عامّة يطلق عليه اسم الوحي و يسمىّ المتلقّي نبيًّا، و من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطّريقة المطمئنّة الوحيدة إلى المعرفة العامّة.

أنواع الوحي و أقسامه

إنّ النّبيّ تارةً يتلقّى الوحي على نحو الإلهام في القلب، وأُخرى يسمع عبارات وكلمات من وراء حجاب، كسماع موسى عليه السلام كلام‌الله سبحانه في الطّور، وثالثةً تنكشف الحقائق له في عالم الرُّؤيا انكشاف النّهار، كرُؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ذبح ولده إسماعيل، **وقد ينزل عليه ملك من جانب الله تعالى معه كلامه سبحانه، وهو الّذي يسمّى بالرّوح الأمين.**

و إلى الطّرق الثّلاثة ـ سوى الرُّؤيا ـ أُشير بقوله سبحانه: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ...﴾[1].

و إلى نزول الملك بقوله: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾. و أمّا الرُّؤيا الصّادقة فيكفي في ذلك قوله سبحانه حاكيًا عن الخليل عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ اِنِّي اَرَى فِي الْمَنَامِ اَنِّي اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا اَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي اِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

فلو لم تكن رُؤيا الخليل إدراكًا قطعيًّا و اتّضح بها وجه الحقيقة كفلق الصّبح لما أخبر ولده بها، و لما أجابه الولد بالامتثال طائعًا. نعم أُشير إلى الملك الحامل لكلام الله سبحانه بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[3].

(العدد: ٤: ١٣٥ـ١٣٨ عام ١٤١١).

---

١ ـ الشّورى / ٥١.
٢ ـ الصّافات / ١٠٢.
٣ ـ الشّعراء / ١٩٣ و ١٩٤.

الفصل الثّامن والعشرون

نصّ ميرمحمّديّ (معاصر) في: «بحوث في تاريخ القرآن و علومه»

كيف كان لقاء جبرائيل للنّبيّ صلّى الله عليه و آله

١ـ كان يستأذن على النّبيّ صلّى الله عليه و آله.

٢ـ كان يقعد بين يديه كما يقعد العبد.

٣ـ كان يأتي إليه في صورة الآدميّين إلاّ مرّتين.

٤ـ كان يأتي إليه على صورة دِحْيَة الكلبيّ.

٥ـ في مسجد النّبيّ صلّى الله عليه و آله مقام اسمه مقام جبرئيل عليه السّلام يستحبّ الدّعاء فيه.

و قبل أن نتكلّم حول هذه النّقاط لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه أُمور توقيفيّة، فلابدّ من الرّجوع فيها إلى الرّوايات الواردة في بيانها، فنقول:

أدب جبرئيل

روى المحدّث الحرّ العامليّ بسند صحيح عن معاوية بن عَمّار أنّه قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: «ائت مقام جبرئيل عليه السّلام و هو تحت الميزاب؛ فإنّه كان مقامه إذا استأذن على رسول‌الله، فقل: إلخ...».[1]

و روي أيضًا عن عمر بن يزيد قال: حاضت صاحبتي و أنا بالمدينة... إلى أن قال: فذكرت ذلك لأبي عبدالله عليه السّلام، فقال: «مُرْها فلتغتسل، و لتأت مقام جبرئيل عليه السّلام، فإنّ جبرائيل كان يجيء فيستأذن على رسول الله صلّى الله عليه و آله؛ فإن كان على حالٍ لاينبغي له أن يأذن له، قام في مكانه، حتّى يخرج إليه، و إن أذن له دخل عليه إلخ...».[2]

---

١ ـ الوسائل ١٠ باب ٨ من أبواب المزار.

٢ ـ الوسائل ج ٩ باب ٩٣ من أبواب الطّواف.

[ثمّ ذكر قول الصّدوق و رواية عليّ بن أحمد بن عبدالله البَرقيّ بإسناده عن الصّادقعليه السلام، والرّواية الأُخرى الّتي سُئِل الإمامعليه السلام فيها عن غشية النّبيّصلى الله عليه وآله، كما تقدّم عنه، الرّقم: ٤و٥، ثمّ ذكر رواية ابن عبّاس نقلاً عن أمالي الشّيخ الطّوسيّ، كما تقدّم عنه، فقال:]

و هذا الحديث يدلّ دلالة واضحة على أنّ جبرئيل كان يعظّم النّبيّ و يكرمه غاية الإكرام، حتّى أنّه ليضع رأسه في حِجره لينام...

الوحي على نوعين

هذا و قد نطقت الأخبار الكثيرة بأنّه إذا كان الوحي للنّبيصلى الله عليه وآله بواسطة جبرئيل فلا يثقل الوحي على النّبيّصلى الله عليه وآله، و لا تصيبه السّبتة...

روى الشّيخ أبو جعفر البَرقيّ في «العلل» عن أبيه، عن ابن أبي عُمَير، عن هِشام بن سالم... **[و ذكر كما تقدّم عن المَجلِسي، الرّقم ٨، ثمّ ذكر رواية الصّدوق بإسناده عن زُرارة، و رواية النّسائيّ عن هِشام بن عُروَة، عن عائشة، كما تقدّم عنهما، فنقل رواية عن ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون كما تقدّم عن ابن حَجَر، ثمّ قال:]**

و يستفاد من هذه الأحاديث أنّ الغشية إنّما كانت تصيبه لو لم يكن جبرئيل بينه وبين الله عَزَّوجَلَّ، أمّا إذا كان جبرئيل، فلا يصيبه شيء من ذلك، و هذه النّقطة ـ و هي حصول السّبتة و الغشية لهصلى الله عليه وآله لو لم يكن جبرئيل ـ لا بدّ من بحثها و تمحيصها، و لسنا الآن في صدد ذلك، و إنّما ذلك له محلّ آخر...

فما روي في طبقات ابن سعد ـ مطلقًا ـ من أنّهصلى الله عليه وآله «إذا أُوحي إليه وُقِذَ لذلك كهيئة السَّكران»، و لا يخفى ما في هذا التّعبير من الإساءة إلى قُدس رسول اللهصلى الله عليه وآله ـ أو «فما من مرّة يوحى إليّ إلاّ ظننت أنّ نفسي تقبض»، «و لا يتثبّته أوّل ما يسمعه، حتّى يفهمه بعد»، كما عن مسند أحمد، هذا الّذي رُوي على إطلاقه غير مقبول، و لا بدّ من حمله على صورة ما لو لم يكن جبرئيل هو الواسطة بين الله و بينهصلى الله عليه وآله.

و ما عن أبي عَوانة في صحيحه بعد قولهصلى الله عليه وآله: «و أحيانًا يتمثّل لي الملك رجلاً،

فيكلّمني فأعي ما يقول، و هو أهونه عليّ...».[١] ليشهد و يدلّ على أنّ تكليم جبرئيل كان أهون الوحي و أسهله على النّبيّ صلّى الله عليه و آله.

لماذا السَّبتة؟

ولعّل حصول السَّبتة و عروض الغشية له صلّى الله عليه و آله إذا كان الوحي بلا واسطة ـ إن صحّت ـ لعلّها من جهة رؤيته صلّى الله عليه و آله عظمة الله و جلاله، و قد قدّمنا رواية الشّيخ الصّدوق عن أبي عبدالله و الّتي فيها أنّ تلك الغشية إنّما هي إذا تجلّى الله تعالى للنّبيّ صلّى الله عليه و آله، أي ظهر أمره و جلاله و عظمته لا أنّه ظهر بنفسه، فإنّ رؤيته محال على ما حقّق في محلّه، و ليس هذا إلاّ على حدّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلّیٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسی صَعِقًا فَلَمَّا اَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ اِلَيْكَ وَ اَنَا اَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، أي تجلّي بنوره ـ كما عن ابن عبّاس ـ على ما في مجمع البيان، وقال في تفسير الجلالين: أي ظهر من نوره قدر نصف أُنمُلة الخنصر، كما في حديث صحّحه الحاكم.

على أيّ صورة كان يأتي جبرئيل؟

بقي الكلام في أنّه هل كان جبرئيل يأتي النّبيّ على صورته الأصليّة أم أنّه كان تارةً يأتيه على صورة الآدميّ، و أُخرى على صورته الأصليّة؟ و أيضًا إذا كان يأتيه على صورة الآدميّ، فهل كان يأتيه على هيئة شخص معيّن، أم أنّه أتاه على صور أشخاص متعدّدين؟ و إذا فرضنا أنّه كان يأتيه على هيئة رجل خاصّ فمن هو ذلك الرّجل الّذي كان يأتيه جبرئيل على هيئته؟ فلابدّ لنا من الإشارة باختصار إلى حقيقة الأمر في هذه النّاحية، فنقول: إنّ المستفاد من الرّوايات و الأقوال أنّه عليه السلام جاء على صورة دِحْـيَة بن خليفة الكلبيّ إلاّ مرّتين، جاء فيهما على صورته الأصليّة على ما في «تفسير الصّافي» للفيض (ره)، قال فيه: و رُوي ما رآه ـ أي جبرئيل ـ أحد من الأنبياء في صورته غير محمّد، مرّةً في السّماء، و مرّةً في الأرض...[٣].

---

١ ـ الإتقان ١: ١٦١.
٢ ـ الأعراف / ١٤٣.
٣ ـ النّجم عند تفسير ﴿فَاسْتَوٰى﴾.

وقد تعرّض الشّيخ الطَّبرسيّ في «مجمع البيان» لهما عند تعرّضه لتفسير الآية المباركة: ﴿اَفَتُمَارُونَهُ عَلٰى مَا يَرٰى * وَلَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً اُخْرٰى﴾[1]

قال (ره): أي رأى جبرئيل في صورته الّتي خلق عليها، قال عند تفسيره: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوٰى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى﴾.

وقال السّيوطيّ عند تفسيره لهذه الآيات: «و قد رآه النّبيّ ﷺ على صورته الّتي خلق عليها، فرآه النّبيّ ﷺ و كان بحِراء، و قد سدّ الأُفق إلى المغرب، فخرّ مغشيًّا عليه و كان قد سأله أن يريه نفسه على صورته الّتي خلق عليها، فواعَده بحِراء، فنزل جبرئيل على صورة الآدميّين إلخ...»[2].

وأمّا أنّه على هيئة أيّ رجل كان يأتيه جبرئيل؟

فإنّني ما رأيت موردًا يدلّ دلالةً واضحة على أنّه كان دائمًا ينزل على صورة شخص بعينه، إلاّ أنّه قد ورد في الرّوايات و التّواريخ ذكر موارد خاصّة، نزل فيها جبرئيل على صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ، منها: ما سبق عن أمالي الشّيخ عن ابن عبّاس... [و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ نقل رواية البخاريّ بسنده عن أبي عثمان، كما تقدّم عنه الرّقم ١، فقال:].

و منها: ما ورد في «البحار» في غَزوة بني قُرَيظة، وفيه: فخرج فاستقبله حارثة بن نُعمان، فقال له: ما الخبر يا حارثه؟ فقال: بأبي و أُمّي يا رسول الله ﷺ هذا دِحْية الكلبيّ ينادي في النّاس: ألا لا يصلّينّ العصر أحد إلاّ في بني قُرَيظة، فقال: «ذلك جبرئيل» إلخ... إلى آخر ما هنالك من القضايا المشابهة لما ذكرنا....

و هي كما ترى لا تدلّ على أنّه كان ينزل دائمًا على صورة دِحْيَة الكَلْبيّ، لكنّه قد رُوي عن حُذَيْفة بن اليَمان حديث لا يبعد أن يستفاد منه العموم، و هو أنّه قال: إنّ النّاس كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ قبل الحجاب إذا شاءوا، فنها هم رسول الله ﷺ أن يدخل إليه و عنده دِحْيَة بن خليفة الكوفيّ[3]

و في ذيله على ما نقله في «البحار» في مورد آخر، قال حُذَيفة: و إنّي أتيت

---

١ ـ النّجم / ١٢ و ١٣.

٢ ـ تفسير الجلالين: سورة النّجم.

٣ ـ بحار الأنوار: ٣٧: ٣٢٦.

رسول‌الله يومًا، فرأيت شَمْلةً مِرْخاة... [وذكر كما تقدّم عن المَجلِسيّ الرّقم ١٢، ثمّ قال:]

فالمستفاد منه أنّه صلی الله علیه و آله قد منع النّاس من الدّخول عليه إذا كان دِحْيَة عنده، من جهة أنّه لعلّه جبرئيل، فلا يليق ولا ينبغي الدّخول عليه و هو عنده فإذا فرض أنّ جبرئيل كان يتمثّل أيضًا بصورة شخص غير دِحْيَة، فلا بدّ من النّهي أيضًا عن الدّخول على النّبيّ إذا كان ذلك الشّخص ـ الّذي يحتمل أنّه جبرئيل ـ عنده.

و إذا أضفنا إلى ذلك كلّه ما ورد في ترجمة دِحْيَة، فإنّنا يحصل لنا الاطمئنان بأنّه كان دائمًا يأتي على صورة دِحْيَة إلاّ مرّتين.

قال في الإصابة: و كان أي دِحْيَة يُضرب به المثل في حسن الصّورة و كان جبرئيل ينزل على صورته، جاء ذلك في حديث أُمّ سَلَمَة و من حديث عائشة، و عن الطّبَرانيّ من حديث عُفَيْر بن مَعدان، عن قَتادة، عن النّبيّ صلی الله علیه و آله قال: «كان جبرئيل يأتيني على صورة دِحْيَة الكلبيّ...».[1]

و في الاستيعاب قال: و ذكر موسى بن عُقْبة عن ابن شِهاب، قال: كان رسول الله صلی الله علیه و آله يشبّه دِحْيَة الكلبيّ بجبرئيل علیه السلام و مثل ذلك جاء في الطّبقات ٤: ١٨٤ في عدّة روايات، و فيه قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزُّهْريّ، عن أبيه، عن ابن شِهاب قال: قال رسول‌الله صلی الله علیه و آله: «أشبه من رأيت بجبرائيل دِحْيَة الكلبيّ».[2]

و في الطّبقات أيضًا قال: أخبرنا عَفّان بن مُسلِم، قال: حدّثنا حَمّاد بن سَلَمة عن إسحاق بن سُوَيد، عن يحيى بن يَعمُر، عن ابن أبي عُمَير، عن النّبيّ صلی الله علیه و آله قال: «كان جبرئيل يأتي في صورة دِحْيَة الكلبيّ».[3]

و قال في «قاموس الرّجال»: دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ عدّه أبو عمرو و غيره في ـ ل ـ شهد أُحُدًا و ما بعدها، و في أخبار الفريقين: أنّ جبرئيل كان يأتي النّبيّ صلی الله علیه و آله في صورته، وذلك دليل ثقته.

---

١ ـ الإصابة ١: ٤٧٣.

٢ ـ طبقات ابن سعد ١: ١٨٤.

٣ ـ طبقات ابن سعد ١: ١٨٤.

الجمع بين الأقوال

هذا و يمكن الجمع بين هذه الأقوال و بين الأقوال الدّالّة على أنّ جبرئيل عليه السلام كان يأتي على صورة دِحْيَة كثيرًا، كما في البداية و النّهاية، أو أنّه كان يأتي على صورته أحيانًا، كما في أُسد الغابة و رجال المامقانيّ، بأن يقال: إنّ جبرائيل عليه السلام كان إذا تمثّل رجلاً فإنّه يتمثّل بصورة دِحْـية دائمًا، وهذا لا ينافي أن يكون هذا التّمثُّل قليلاً بالنّسبة إلى الموارد الّتي لا يتمثّل فيها على صورة الآدميّين، و هي كثيرة، قال في المناقب: وسمعت مذاكرة أنّه نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله ستّين ألف مرّة، و سواءً كان ذلك مبالغة أولم يكن فإنّ النّتيجة تكون أنّه إذا تمثّل بصورة الآدميّ تمثّل بصورة دِحْيَة، و أنّ ذلك كان أحيانًا، وأمّامجيئه على غير صورة الآدميّ وكونه على صورةالملك، فقد كان أكثر.(:٣٠ ـ ٣٩)

الفصل التّاسع والعشرون

نصّ الدّكتور خليفة(معاصر) في «مع نزول القرآن»

طريقا التّنزيل و صور الوحي

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً...﴾
الشّورى /٥١

فكلام الله للرّسول إمّا أن يكون وحيًا يلقيه في نفوسهم، أوامر، أو نواهي، أو تعليمات فتتدفّق كلماته الّتي تحمل كلّ ذلك في القلوب، و إمّا أن يكون كلامه للرّسل من وراء حجاب، بحيث يسمع الرّسول ما يلقى إليه ككلامه لموسى، أو للرّسول ليلة الإسراء والمعراج، و إمّا أن يكون عن طريق رسول يحمل إليه من ربّه كلامه كجبريل. وهذا الرّسول له صورته الملكيّة و خصائصه الّتي لا تقوى على مواجهتها بشريّة، مهما سمت قدرتها وطاقت احتمالها، و من ثمّ كان لابدّ لهذا اللّقاء من أحد طريقين؛

الأوّل ـ أن ينخلع النّبيّ ﷺ من بشريّته إلى صورة ملائكيّة يأخذ عن طريقها ما يوحيه إليه جبريل.

الثّاني ـ أن ينخلع الملك من صورته الملائكيّة إلى صورة بشريّة تيسّر للرّسول الأخذ عنها.

أمّا الطّريق الأوّل و هو تغيّر صورة النّبيّ من البشريّة إلى الملائكيّة فهذا لم يقع و لم يحدّثنا به الرّسول ﷺ و لا أحد من صحابته الّذين شاهدوا مرّات الصّور الّتي كان يوحى بها إلى الرّسول.

والطّريق الثّاني و هو انخلاع جبريل من صورته الملائكيّة إلى الصّورة البشريّة كان

يحدث أحيانًا، و إليكم الصّور الّتي كان يأتي فيها الوحي؛

١ـ أن يأتي الملك إلى النّبيّ ﷺ مثل صَلصَلة الجرس، وقد سأل عبدالله بن عمر رسول‌الله ﷺ: هل تحسّ بالوحي فقال: «أسمع صلاصل، ثمّ أسكت، فما من مرّة يوحى إليّ إلاّ ظننت أنّ نفسي تُقبض» و ذلك الصّليل يهيّئ قلب النّبيّ لتلّقي الوحي، فيفرغ سمعه من كلّ شيء إلاّ صوت الوحي، و هذه الحالة أشدّ حالات الوحي على الرّسول، و يوضّح حالة الرّسول أمام هذه الصّورة ما روته عائشة، حيث قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغطّ و يتربّد وجهه ـ أي يتغيّر لونه ـ و يجد بردًا في ثناياه، و يعرق حتّى يتحدّر منه مثل الجمان و حالة الرّسول في هذا الموقف تشبه أن تكون غيبوبة، و لكنّه حين ينفصل عنه الوحي يعي و يدرك كلّ ما قيل له.

٢ـ أن ينفث في قلبه الكلام نفثًا، و قد قال ﷺ «إنّ روح القُدُس ـ جبريل ـ ينفث في روعي» قلبي.

٣ـ و كان يتمثّل جبريل أحيانًا في صورة رجل فيكلّمه، و قد قال ﷺ في هذا: «وأحيانًا يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني، فأعي ما يقول، و ذلك أهونه عليّ».

٤ـ و أحيانًا يأتيه في دويّ كدويّ النّحل، قال عمر بن خطّاب: إذا نزل الوحي على الرّسول سُمع عند وجهه دويّ كدويّ النّحل.

٥ـ أن يكلّمه الله: إمّا في اليقظة، كما في ليلة الإسراء و المعراج ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾. أو في المنام، وهذه الصّورة حدّث بها أنس، فقال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفىٰ إغفاءةً، و رفع رأسه متبسّمًا فقال: «أُنزلت عليّ سورة، و قرأ: ﴿إِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إلخ السّورة و على هذه الصّورة نزلت سورة (الضُّحىٰ) و (اَلَمْ نَشْرَحْ). (٢٥ ـ ٢٧)

الفصل الثّلاثون

نصّ الدّكتور الصّغير (معاصرٌ) في «دراسات قرآنية»

[كيفيّة الوحي و اقسامه]

لاشكّ أنّ النّبيّ صلى الله عليه و آله آمن منذ الّلحظة الأُولىٰ ـ بقناعة شخصيّة متوازنة ـ بأنّ ما يوحى إليه ليس من جنس الأحلام و أضغاثها، و لا من سنخ الرّياضيّات و مسالكها، ولا من باب الأحاسيس القائمة على أساس من الذّكاء و الفطنة، و لا من قبيل التّخيّلات المستنبطة من الحدس و الفراسة، و إنّما كان بإيمان نفسيّ محض بأنّه نبيّ يوحى إليه من قبل الله تعالى، و ما الرّوايات و الإسرائيليّات القائلة بشكّه في الظّاهرة إلاّ ضرب من الأخيلة الّتي لا يدعمها دليل.

«والحقّ أنّ وحي النّبوّة و الرّسالة يلازم اليقين من النّبيّ و الرّسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام»[1].

ويوحي الله عَزَّوجَلَّ لملك الوحي ما يوحيه الملك إلى النّبيّ عن الله، و يتسلّم النّبيّ الوحي، فالوحي واحد هنا مع تقاسم المسؤوليّة، و هو عامّ بالنّسبة إلى كلّ الأنبياء، و خاصّ بالنّسبة إلى وحي القرآن أيضًا، فالملك يؤدّي عن الله لمحمّد، و محمّد يتلقّى ذلك الوحي من الملك، و يؤدّي ما يوحى به إليه إلى النّاس، و كان ذلك طريق الوحي القرآنيّ فحسب، و قد صرّح به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَ اِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[2].

والرّوح الأمين هو جبرئيل بإجماع الأُمّة و الرّوايات؛ قال الطَّبرِسيّ (ت: ٥٤٨ ﻫ)

---

١ ـ الميزان ٢٠: ٣٢٨.

٢ ـ الشّعرا / ١٩٢ ـ ١٩٤.

«يعني جبرائيل عليه السلام، وهو أمين الله لايغيّره، ولايبدّله، لأنّ الله تعالى يُسمِعَهُ جبرائيل عليه السلام فيحفظه، وينزل به على الرّسول ويقرأه عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه، فكأنّه نزل به على قلبه»[١].

وهذا صريح بكيفيّة تلقّي النّبيّ صلى الله عليه وآله للقرآن من جبرئيل على قلبه تثبيتًا و حفظًا و رعايةً، و القلب أشرف الأعضاء للتّدبّر و التّفكّر إن أُريد به هذا الجهاز العَضُليّ، و إلاّ فهو الإدراكات النّفسيّة الخاصّة لدى النّبيّ المستعدّة للتّلقّي والصّيانة والاستيعاب دون ريب.

وكان ما نزل به جبرئيل بإيحاء من الله تعالى هو النّصّ الصّريح من الوحي القرآنيّ دون زيادة أو نقصان، بألفاظه المدوّنة في المصحف من ألفه إلى يائه. و لمّا كان الأمر كذلك فقد تحدّث هذا النّصّ المحفوظ بين الدّفّتين عن ظاهرة الوحي بوحي القرآن و سواه و طرقها و كيفيّتها و أقسامها. و من الضّروري حقًّا استعراض مختلف أنشطة الموضوع من القرآن نفسه، مع الاستعانة باللّغة حينًا، و بالتّبادر العربيّ العامّ حينًا آخر، لأنّ القرآن عربيّ، و التّبادر علامة الحقيقة.

صرّحت الآية التّالية: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢] بطرق الوحي الإلهيّ، و حدّدت كيفيّة هذا الوحي و مراتب إيصاله عالى النّحو التّالي:

١ـ الوحي و أصل الوحي هو الإشارة السّريعة على سبيل الرّمز و التّعريض، و ما جرى مجرى الإيماء والتّنبيه على الشّيء من غير أن يفصح به.[٣]

و قد يكون أصل الوحي في اللّغة كلّها الإعلام في خفاء.[٤]

و مؤدّى التّعريفات واحد فيما يبدو، إذ الإشارة السّريعة إعلام عن طريق الرّمز، والرّمز إيماء يستفيد منه المتلقّي أمرًا إعلاميًّا قد يخفىٰ على الآخرين.

ومن ثمّ قيل «للكلمة الإلهيّة الّتي تلقى إلى أنبيائه: وحي»[٥]، باعتبار إسرارها إليهم من قبل ملك الوحي، و اختصاصها بهم، دون سائر النّاس.

---

١ ـ مجمع البيان ٤ / ٢٠٤.
٢ ـ الشّورى / ٥١.
٣ ـ قارن في ذلك بين الرّاغب، المفردات ٥١٥، مجمع البيان: ٣٧.
٤ ـ لسان العرب ٢٠: ٢٥٨.
٥ ـ المفردات: ٥١٥.

قال ابن الأنباريّ: سمّي الوحي وحيًا لأنّ الملك أسرّه على الخلق، و خصّ به النّبيّ ﷺ.[١]

و من هنا يبدو أنّ التّعريف الشّرعي متحدّر عن الأصل اللّغويّ في خصوصيّة **الإسرار و الإعلام السّريع، وما يصاحب ذلك من الإشارة و الرّمز اللّذين يخفيان على الآخرين.**

وقد عبّر الأُستاذ محمّد عبده عن ذلك بما يقارب هذا المؤدّى فقال: «بأنّه عرفان يجده الشّخص في نفسه مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة، أو بغير واسطة، و الأوّل بصوت يتمثّل لسمعه، أو بغير صوت».[٢]

و لعلّ المراد بما يتلقّاه النّبيّ ﷺ من العرفان اليقينيّ بغير صوت هو الإلقاء في الرّوع، ذلك بأنّ ينفث الله في روع النّبيّ ﷺ ما يشاء من أمر، أو ينفث روح القُدُس ما أُوحي إليه بتبليغه إيّاه، فيكون ذلك من الوحي بوجه من الوجوه.

و قد يؤيّد هذا الملحظ ما نسب إلى النّبيّ أنّه قال: «إنّ روح القُدُس نفث في روعي».[٣]

٢ـ سماع كلام الله تعالى مباشرة من وراء حجاب دون معاينة أو رؤية، لامتناع ذلك عقلاً و شرعًا، كما كلّم الله موسى بن عمران عليه السلام: ﴿وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيمًا﴾[٤] وكان ذلك من وراء حجاب، «و هو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلاّ من يريد أن يكلّمه به نحو كلامه لموسى عليه السلام لأنّه حجب ذلك عن جميع الخلق إلاّ عن موسىٰ عليه السلام وحده، لأنّ الحجاب لا يجوز إلاّ على الأجسام المحدودة».[٥]

٣ـ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، كما في تبليغ جبرئيل لرسول الله ـ في صورة معيّنة، أو صور متعدّدة ـ وحي القرآن الكريم عن الله، من غير أن يكلّم الله نبيّه على النّحو الّذي كلّم به موسى عليه السلام.

هذه الأصناف و المراتب في الإيحاء حدّدتها الآية الكريمة السّابقة فيما يتعلّق

---

١ ـ لسان العرب ٢٠: ٢٥٨.
٢ ـ الوحي المحمّديّ: ٢٨.
٣ ـ الإتقان ١: ١٢٩ + المفردات: ٥١٥.
٤ ـ النّساء / ١٦٤.
٥ ـ مجمع البيان ٥: ٣٧.

بوحي الأنبياء كما يبدو، إلاّ أنّنا من متابعة هذه الظّاهرة في القرآن الكريم لا حظنا بعض الدّلالات الإيحائيّة لهذا التّعبير قد تختلف عمّا تقدّم، و يمكن الإشارة إلى أهمّها بما يلي:

أ ـ الإلهام، و هو أن يلقي الله تعالى في النّفس أمرًا يبعث على الفصل أو التّرك، و هو نوع من الوحي، يخصّ به الله من يشاء من عباده، غير قابل للتّفكير به أو التّخطيط له مسبقًا، ليفرق بينه و بين الحالات اللاّشعوريّة من جهة، و السّلوك الكسبيّ من جهة أُخرى، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: **﴿وَ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّ مُوسىٰ اَنْ اَرْضِعيهِ﴾**[1]، و قوله تعالى: **﴿اِذْ اَوْحَيْنَا اِلىٰ اُمِّكَ مَا يُوحىٰ﴾**[2]

ب ـ التّسخير، و هو أن يسخّر الله تعالى بعض مخلوقاته إلى عمل ما بهديه و إشاءته و تسخيره، بشكل من الأشكال الّتي لا تستوعبها بعض مداركنا أحيانًا، و يستيقنها الّذين آمنوا دون أدنى شبهة، كما يدلّ على هذا النّوع قوله تعالى: **﴿وَاَوْحٰى رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾**.[3]

ج ـ الرُّؤيا الصّادقة، وهي وحي إلهيّ بالنّسبة إلى الأنبياء خاصّةً يتلقّون فيها الأوامر، و يتسلّمون التّعليمات من السّماء، كما دلّ على ذلك قوله تعالى ـ فيما اقتصّ الله من خبر إبراهيم مع ولده ـ: **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ اِنّى اَرىٰ فِى الْمَنَامِ اَنّى اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرىٰ قَالَ يَا اَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنى اِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا اَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبينِ * وَنَادَيْنَاهُ اَنْ يَا اِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيَا اِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾**[4].

فأشارت الآيات إلى الرُّؤيا الصّادقة في المنام، و إلى استفادة إبراهيم و ولده عليهما السلام الأمر الإلهيّ فيها، للدّلالة على أنّها وحي يستلزم العمل به، بدليل تعقيب ذلك من قبل الله في خطاب إبراهيم بتصديق الرُّؤيا و جزاء المحسنين.

وقد تكون الرُّؤيا في جزء من هذا المَلحَظ تمهيدًا للوحي المباشر، و قد يعبّر عنها بالصّادقة أو الصّالحة، كما حصل هذا المعنى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أوّل بدء الوحي كما في رواية أُمّ المؤمنين عائشة: «أوّل ما بدىء به رسول الله من الوحي الرّؤيا الصّادقة

١ ـ القَصَص / ٧.
٢ ـ طه / ٣٨.
٣ ـ النّحل / ٦٨.
٤ ـ الصّافّات / ١٠٢ ـ ١٠٥.

(الصّالحة) في النّوم، فكان لا يرى رُؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح»[١].

و قد تكون الرُّؤيا نوعًا من الوعد الحقّ الّذي يقطعه الله لنبيّه ﷺ كما هو الحال في شأن فتح مكّة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ اِنْ شَاءَ اللهُ اٰمِنِينَ﴾[٢].

و قد دلّ على جميع ما تقدّم مضافًا إلى الدّلالات القرآنيّة ما يروى عنه ﷺ: «انقطع الوحي و بقيت المبشّرات: رؤيا المؤمن، فالإلهام، و التّسخير و المنام».[٣]

و فيه ـ إذا صحّ ـ تفريق بين الوحي المباشر ـ و هو جبرئيل ـ و بين ما أشار إليه من المبشّرات الّتي يبدو أنّها غير الوحي الّذي يريده الرّسول الأعظم ﷺ في الحديث.

و قد يكون الوحي بمَلحَظ آخر عامًّا بين جميع الأنبياء و الرّسل، و قد يكون خاصًّا بالنّبيّ ﷺ، فما كان عامًّا يكون مشتركًا بينه و بين الأنبياء و المرسلين لأنّه أحدهم بل سيّدهم، و ما كان خاصًّا ينفرد به وحده.

فالأوّل ـ كقوله تعالى: ﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ اِلَّا نُوحِىَ اِلَيْهِ اَنَّهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٤]. و يبدو أنّ هذا الوحي يشتمل على جميع أقسام الوحي و كيفيّاته، و لا يختصّ بالإيحاء بمعناه الدّقيق، لأنّ الإيمان بالوحدانيّة فِطرةٌ إنسانيّة تُحتّمها طبيعة العقل السَّويّ، و الأنبياء بعامّة يتمتّعون بهذه الفطرة نفسيًّا و عقليًّا.

قال الرّاغب الأصبهانيّ (م: ٥٠٢ هـ): فهذا الوحي هو عامّ في جميع أنواعه، و ذلك أنّ معرفة و حدانيّة الله تعالى و معرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختصّ بأُولي العزم من الرّسل، بل يعرف ذلك بالعقل و الإلهام كما يعرف بالسّمع، فإذن المقصود من الآية تنبيه أنّه من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانيّة الله و وجوب عبادته»[٥].

و الثّاني ـ ما هو مختصّ بالنّبيّ ﷺ وحده، كالأمر له في قوله تعالى: ﴿اِتَّبِعْ مَا اُوحِىَ اِلَيْكَ مِن رَبِّكَ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ...﴾[٦] و كإخباره عن نفسه محكيًّا بقوله تعالى: ﴿اِنْ اَتَّبِعُ اِلَّا مَا يُوحٰى

١ ـ الجامع الصّحيح ١:٧.
٢ ـ الفتح /٢٧.
٣ ـ الرّاغب، المفردات: ٥١٦.
٤ ـ الأنبياء / ٢٥.
٥ ـ المفردات: ٥١٦.
٦ ـ الأنعام / ١٠٦.

اِلَيَّ وَ مَا اَنَا اِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[١]، و كالطّلب إليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ اِنَّمَا اَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ اِلَيَّ اَنَّمَا اِلٰهُكُمْ اِلٰهٌ وَاحِدٌ...﴾[٢].

و في هذا الضّوء فإنّ ما يوحى به إلى النّبيّ ﷺ لا يخلو إمّا أن يكون تعليمات يؤمر بإشاعة مفاهيمها بين النّاس بحال من الأحوال، و إمّا يكون كلامًا يؤمر بتدوينه، و يُثبّته الله في قلبه، و يتلوه بلسانه، فيكون كتابًا فيما بعد، وإلى هذا أشار الزُّهْريّ بقوله: «ما يوحي الله به إلى نبيّ من الأنبياء فيُثبّته في قلبه، فيتكلّم به و يكتبه، و هو كلام الله و منه ما لا يتكلّم به ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابته، و لكنّه يحدّث النّاس به حديثًا، و يُبيّن لهم أنّ الله أمره أن يبيّنه للنّاس و يبلّغهم إيّاه»[٣].

والقرآن الكريم من النّوع الّذي ثبت في قلب النّبيّ ﷺ و تكلّم به و أمر بكتابته و تدوينه بعد إنزاله وحيًا من قبله.

وقد أورد الزّركشيّ عن السّمرقَنديّ ثلاثة أقوال في المنزل من القرآن:

١ـ أنّه اللّفظ والمعنى، و أنّ جبرئيل عليه السلام حفظ القرآن من اللّوح المحفوظ و نزل به.

٢ـ أنّ جبرئيل إنّما نزل بالمعاني الخاصّة، و أنّ النّبيّ ﷺ علم تلك المعاني، و عبّر عنها بلغة العرب.

٣ـ أنّ جبرئيل إنّما أُلقي إليه المعنى، و أنّه عبّر بهذه الألفاظ بلغة العرب.[٤]

والأوّل هو الصّحيح دون ريب، لأنّ جبرئيل وصف بالرّوح الأمين لأمانته المتناهية، فلا يُضيف و لا يُغيّر، و لا يُبدّل و لا يُنسىٰ، و لا يُخوّل و لا يتجوّز، كيف لا و هو روح القُدُس بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ...﴾[٥].

و القرآن نازل من عند الله بألفاظه نفسها، و ما مهمّة جبرئيل إلاّ تبليغ الوحي كما تسلّمه، و هو آيات الكتاب الكريم بنصوصها خالصة بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ اٰيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[٦].

---

١ ـ الأحقاف / ٩.

٢ ـ الكهف / ١١٠.

٣ ـ الإتقان ١:١٢٨.

٤ ـ البرهان ١:٢٢٩، الإتقان ١:١٢٦.

٥ ـ النّحل /١٠٢.

٦ ـ آل عمران /١٠٨.

وقد اختار السّيوطيّ ذلك تعبّدًا بلفظ القرآن إعجازًا، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، و أنّ تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه.[١]

وخصوصيّة القرآن التّعبّد بتلاوته، لأنّ ألفاظه نازلة من الله تعالى فلا تدانيها خصوصيّة أُخرى، لأنّ هناك ما هو نازل من السّماء كالأحاديث القُدسيّة و لكنّها ليست بقرآن، فلا خصوصيّة للتّعبّد بتلاوتها، و إن أخذنا بمضامينها حرفيًّا، و لكنّها، لم تنزل بألفاظها المخصوصة لها كما هو شأن القرآن.

والحديث النّبويّ نتعبّد به أمرًا و نهيًا، و كان النّبيّ ﷺ يرسل الحديث و يقوله، و يتّبع ذلك أهله و أصحابه، ثمّ يتلو القرآن و يقرؤه، فما اتّفق يومًا أن تشاكل النّصّان، أو تشابه القولان، و لو كان معنى القرآن ينقل إلى النّبيّ وحيًا ـ أو وحيه ينقل إليه معنى، و النّبيّ يصوغه بلفظه، و يعبّر عنه بكلامه ـ لاشتبه القرآن بالحديث والحديث بالقرآن من وجهة نظر بلاغيّة على الأقلّ، بينما العكس هو الصّحيح، فالخصائص الأُسلوبيّة في القرآن تدلّ عليه، وخصائص الحديث تدلّ عليه، فكلّ له أُسلوبه المتميّز، و منهجه الخاصّ حتّى عرف ذلك القاصي و الدّاني ممّن آمن بالنّبيّ والقرآن و ممّن جحدهما، فالقرآن كلام الله، و محمّد ﷺ ينقله كما سمعه، بلفظه الدّال على معناه، و بمعناه الّذي نطق به لفظه، لا شيء من محمّد إلاّ النّقل الأمين، و الحديث كلام محمّد ﷺ يتفوّه به فيشرّع و يحكم، لأنّه المصدر الثّاني بعد القرآن للشّريعة الإسلاميّة، قال تعالى: ﴿وَ مَا آتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهيكُمْ عَنْه فَانْتَهُوا﴾.[٢]

و ثَمَّتَ دليل قرآنيّ آخر في توجيه الخطاب إلى النّبيّ ﷺ بعبارة (قُلْ) في القرآن الكريم، و تكرارها فيه أكثر من ثلاثمائة مرّة، تصريح و أيّ تصريح بأنّ النّبيّ ﷺ «**لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، و لا يلقيه بكلامه، إنّما يلقى إليه الخطاب إلقاءً، فهو مخاطب لا متكلّم، حاكٍ لما يسمعه، لا معبّر عن شيء يَجُول في نفسه**»[٣]. لهذا كان إذا نزلت عليه آية أو سورة ـ بل و جزءٌ من آية ـ يدعو كتبته لتدوينها على الفور نصًّا.(٢٣ ـ ٣١)

---

١ ـ الإتقان ١:١٢٨.
٢ ـ الحشر /٧.
٣ ـ مباحث في علوم القرآن: ٣٠.

الباب الثّالث من القسم الأوّل

بدء الوحي، أوّل و آخر ما نزل

وفيه فصول

الفصل الأوّل [1]

نصّ البخاريّ (م:٢٥٦) في «صحيحه» [2]

كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللهﷺ

١ـ حدّثنا يحيى بن بُكَير، قال: حدّثنا اللّيث عن عقيل، عن ابن شِهاب، عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عن عائشة أُمّ المؤمنين، أنّها قالت: أوّل ما بُدئ به رسول اللهﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لايرى رُؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح. ثمّ حُبِّب إليه الخلاء، و كان يخلو بغار حِراء فيتحنّث فيه، وهو التّعبّد اللّيالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، و يتزوّد لذلك ثمّ يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها حتّى جاءه الحقّ و هو في غارحِرا فجاءهُ الملك، فقال: «اِقْرَأ» قال: ما أنا بقارىء قال فأخذني فغطّني، حتّى بلغ منّي الجَـهد، ثـمّ أرسلني فقال: «اِقْرَأ» فقلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثّانية، حتّى بلغ منّي الجَهْد، ثمّ أرسَلَني فقال: «اِقرأ» فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثّالثة، ثمّ أرسلني فقال: ﴿اِقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَ رَبُّكَ الْاَكْرَمُ﴾ [3] فرجع بها رسول اللهﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خُوَيْلِد رضيالله عنها فقال: «زَمّلوني زمّلوني» فزمّلُوه حتّى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة و أخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلاّ و الله ما يُخزيك الله أبدًا، إنّك لتصِل الرّحِم، وتَحمِل الكَلّ، و تَكسِب المعدوم، و تَقري الضّيف، و تُعين على نوائب الحقّ، فانطلقت به خديجة حتّى أتت به

---

١ ـ راجع الفصل (٣٦،٤٠،٤١،٤٣،٤٤) من هذا الباب، حيث نقلنا هناك نظرة تحليليّة، حول بعض الرّوايات في هذا النّص، عن الأساتذة: الشّيخ معرفة و الشّيخ السُّبحانيّ ومرتضى العامليّ و الملكيّ والأراكيّ و غيرهم.

٢ ـ نحوه ابن هِشام (م: ١٥٣) في« السّيرة النّبويّة» ١:٢٥٢. والبَيْهقيّ (م: ٤٠٥) في «السُّنن الكُبرى» ٩:٥.

٣ ـ العلق / ١ـ٥.

وَرَقَة بن نَوْفَل بن أسد بن عبد العُزّى ابن عمّ خديجة، و كان اِمرأ تنصّر في الجاهليّة، و كان يكتُب الكتاب العِبرانيّ، فيكتب من الإنجيل بالعِبرانيّة ما شاء الله أن يَكْتُب، و كان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك فقال له وَرَقَة: يا ابن أخي ماذا ترىٰ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له وَرَقَة: هذا النّاموس الّذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ أوَ مُخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قَطّ بمثل ما جئت به إلاّ عُودي، و إن يُدرِكني يَومك أنصُرْك نصرًا مُؤزّرًا. ثمّ لم يَنشَب وَرَقَة أن توفّي وفترالوحي.

٢ـ قال ابن شِهاب: وأخبرني أبوسَلَمة بن عبدالرّحمان أنّ جابر بن عبدالله الأنصاريّقال و هو يُحدِّث عن فتره الوحي، فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السّماء، فرَفعتُ بَصَري، فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء جالِس على كُرسيّ بين السّماء وَالأرْضِ، فرُعِبتُ منه، فرَجَعتُ فقلت: زمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ـ إلى قوله ـ وَ الرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾[1] فَحَمِي الوحي وتتابع» تابعه عبدالله بن يوسف و أبوصالح، و تابعة هلال بن رَدّاد عن الزُّهْريّ و قال يونس و مَعْمَر: بَوَادرُهُ. (١:٢)

[أوّل ما نزل من القرآن]

٣ـ حدّثنا يحيى، حدّثنا وَكيع عن عليّ بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير سألت أبا سَلَمه عبدالرّحمان عن أوّل ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَاءَيُّهَا الْمدَّثِّر﴾ قُلت: يقولون: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ فقال أبو سَلَمة: سألتُ جابر بن عبدالله ﷺ عن ذلك، و قُلت له مثل الّذي قُلتَ، فقال جابر: لا أُحدّثك إلاّ ما حدّثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحِراء، فلمّا قضيت جواري هبَطْتُ فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، و نظرْت عنْ شمالي فلم أر شيئًا، و نظرْت أمامي فلم أرشيئًا، و نظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعتُ رأسي، فرأيْتُ شيئًا، فأتيتُ خديجة، فقُلت: دثّروني، وصُبّوا عليّ ماءً باردًا، قال: فَدثّرُوني و صَبُّوا عليّ ماءً باردًا، قال: فنزلت: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.[2]

---

١ ـ المدّثّر / ١ـ٥.

٢ ـ المدّثر / ١ـ٣.

٤ـ حدّثني محمّد بن بَشّار، حدّثنا عبدالرَّحمان بن مَهديّ و غيره، قالا: حدّثنا حَرْب بن شَدّاد، عن يَحيى ابن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن جابر بن عبدالله رضىالله‌عنهما عن النّبيّ ﷺ قال: جاورت بحِراء. مثل حديث عُثمان بن عمر، عن عليّ بن المبارك.

٥ـ حدّثنا إسحاق بن منصور، حدّثنا عبد الصّمد، حدّثنا حَرب، حدّثنا يَحيى، قال سألت أبا سَلَمة، أيّ القرآن أُنزِل أوّلُ؟ فقال: ﴿يَاءَيُّهَاالمُدَّثِّرُ﴾ فقُلت: أُنْبِئْتُ أنّه ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ فَقَالَ أبو سَلَمة: سألت جابر بن عبد الله أيّ القرآن أُنْـزِل أوّل؟ فـقال ﴿يَاءَيُّهَا الْمدَّثِّر﴾ فقُلت: أُنْبِئْتُ أنّـه ﴿اِقْـرَاْ بِـاسْم رَبِّكَ﴾ فـقال: لاأُخـبرك إلاّ بـما قـال رسول‌الله ﷺ: قال رسول لله ﷺ جاورت في حِراء، فلمّا قـضيتُ جِـواري هَـبَطتُ، فاسْتَبْطَنْتُ الواديَ فنُوديتُ، فنظرتُ أمامي و خلفي وعن يميني و عن شمالي فإذا هـو جالسٌ على عرش بين السّماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت دثّروني و صُبُّوا عليّ ماءً بارداً، و أنزل عليّ: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ * وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.[1]

٦ـ حدّثنا يحيى بن بُكَير، حدّثنا اللَّيْث عن عُقَيل، عن ابن شِهاب، وحدّثني عبدالله بن محمّد، حدّثنا عبدالرَزّاق أخبرنا مَعْمَر عن الزُّهريّ، فأخْبَرني أبو سَلَمة بن عبد الرّحمان عن جابر بن عبد الرَّزّاق، أخبرنا مَعْمَر عن الزُّهْريّ، فأخبرني أبوسَلَمَة بن عبد الرَّحمان عن جابر بن عبد الله رضيالله‌عنها قال: سمعت النّبيّ ﷺ وهو يُحدِّثُ عن فَترة الوحـي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمِعتُ صوتًا، فرفعت رأسي، فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء، جالسٌ على كُرسِيّ بين السّماء و الأرض، فَجَئِثتُ مِنه رُعـبًا، فـرجَـعتُ فـقلت: زمِّلوني زمِّلُوني، فَدثّرُوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ـ إلى ـ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[2] قبل أن تُفرَض الصّلاة[3] وهي الأوثان.

٧ـ حدّثنا عبدالله بن يوسف، حدّثنا اللَّيث عن عُقَيل قال ابن شِهاب: سـمعت أبـا سَلَمَة، قال: أخبرني جابر بن عبدالله أنّه سمع رسول الله ﷺ يُحَدّثُ عن فَترة الوحي: «فبينا أنَا أمشي سَمِعْتُ صوتًا من السّماء، فرفعْتُ بَصَري قِبَل السّماء، فإذا الملكُ الّذي جاءني

---

١ ـ المدّثر / ١ـ٤. ٢ ـ المدّثر / ١ـ٥.

٣ ـ مثله عن التّرمذيّ في سننه (الجامع الصّحيح) ٤٢٨:٥، إلاّ أنّه قدجاء في ذيله: وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

بجِراء قاعِدٌ على كُرسيّ بين السّماء و الأرض، فَجَئِثْتُ منه حتّى هوَيتُ إلى الأرض، فجِئتُ أهلي فقلتُ: زمِّلُوني زَمِّلُوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ـ إلى قوله ـ فاهْجُرْ﴾ قال أبوسَلَمَة: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ الأوثان، ثمّ حمى الوحي و تتابع (٦: ٢٠٠).

الفصل الثّاني

ماجاء في التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام (م: ٢٦٠)

[حديث بدء نزول الوحي]

قال عليّ بن محمّد عليه السلام:... إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ترك التّجارة إلى الشّام، و تصدّق بكلّ ما رزقه الله تعالى من تلك التّجارات، كان يغدو كلّ يومٍ إلى حِراء، يصعده و ينظر من قُلَله إلى آثار رحمة الله، وأنواع عجائب رحمته و بدائع حكمته، و ينظر إلى أكناف السّماء وأقطار الأرض و البحار و المَفاوِز و الفَيافي، فيعتبر بتلك الآثار، و يتذكّر بتلك الآيات، ويعبد الله حقّ عبادته.

فلمّا استكمل أربعين سنة، و نظر الله عَزَّوجَلَّ إلى قلبه فوجده أفضل القلوب و أجلّها و أطوعها و أخشعها و أخضعها، أذِن لأبواب السّماء ففُتِحت، و محمّد ينظر إليها، و أذِن للملائكة فنزلوا و محمّد ينظر إليهم، وأمر بالرّحمة فأُنزلت عليه من لدن ساق العرش إلى رأس محمّد و غَمرته و نظر إلى جبرئيل الرّوح الأمين المطوّق بالنّور، طاووس الملائكة هبط إليه، و أخذ بضبعه[1] و هزّه، قال: يا محمّد اقرأ، قال: «وما أقرأ» قال يا محمّد: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ - إلى - مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [2].

ثمّ أوحى إليه ما أوحى إليه ربّه عَزَّوجَلَّ، ثمّ صعد إلى العلوّ و نزل محمّد صلى الله عليه وآله من الجبل، و قد غشيه من تعظيم جلال الله، و ورد عليه من كبير شأنه ما رَكِبَه الحمّىٰ والنّافض، يقول: و قد اشتدّ عليه ما يخافه من تكذيب قريش في خبره و نسبتهم إيّاه إلى الجنون، و أنّه يعتريه شياطين، و كان من أوّل أمره أعقل خليقة الله و أكرم براياه، أبغض

---

١ - الضّبع: وسط العضد، و في المصدر: بضبعيه، وهزّه: حرّكه.

٢ - العلق / ١ - ٥.

الأشياء إليه الشّيطان و أفعال المجانين و أقوالهم فأراد الله عَزَّوجَلَّ أن يشرح صدره، ويشجّع قلبه، فأنطق الله الجبال والصّخور و المَدَر، و كلمّا وصل إلى شيء منها ناداه: السّلام عليك يا محمّد، السّلام عليك يا وليّ الله، السّلام عليك يا رسول الله، أبشر فإنّ الله عَزَّوجَلَّ قد فضّلك. جمّلك و زيّنك، و أكرمك فوق الخلائق أجمعين من الأوّلين و الآخرين، لا يحزنك قول قريش إنّك مجنون، و عن الدّين مفتون، فإنّ الفاضل من فضّله ربّ العالمين، والكريم من كرّمه خالق الخلق أجمعين، فلا يضيقنّ صدرك من تكذيب قُريش و عُتاة العرب لك، فسوف يبلغك ربّك أقصى منتهى الكرامات، ويرفعك إلى أرفع الدّرجات، وسوف ينعّم و يفرّح أولياءك بوصيّك عليّ بن أبي طالب، و سوف يبثّ علومك في العباد و البلاد بمفتاحك و باب مدينة حكمتك عليّ بن أبي طالب، وسوف يُقرّ عينك ببنتك فاطمة، وسوف يخرج منها و من عليّ، الحسن و الحسن سيّدي شباب أهل الجنّة، و سوف ينشر في البلاد دينك، وسوف يعظّم أُجور المحبّين لك و لأخيك، وسوف يضع في يدك لواء الحمد فتضعه في يد أخيك عليّ، فيكون تحته كلّ نبيّ و صدّيق و شهيد، يكون قائدهم أجمعين إلى جنّات النّعيم.

فقلت في سرّي: ياربّ مَن عليّ بن أبي طالب الّذي وعدتني به؟ ـ و ذلك بعد ما وُلِدِ عليّ عليه السلام و هو طفل ـ أهو وَلَدعمّي؟» وقال بعد ذلك لمّا تحرّك عليّ قليلاً و هو معه «أهو هذا»؟ ففي كلّ مرّة من ذلك أنزل عليه ميزان الجلال، فجعل محمّد في كفّة منه، و مثّل له عليّ عليه السلام و سائر الخلق من أُمّته إلى يوم القيامة في كفّة، فوزن بهم فرجح، ثمّ أخرج محمّد من الكفّة و ترك عليّ في كفّة محمّد الّتي كان فيها، فوزن بسائر أُمّته فرجّح بهم، فعرفه رسول الله بعينه و صفته، و نودي في سرّه: يا محمّد، هذا عليّ بن أبي طالب صفيّي الّذي أُؤيّد به هذا الدّين، يرجح على جميع أُمّتك بعدك، فذلك حين شرح الله صدري بأداء الرّسالة، و خفّف عنّي مكافحة الأُمّة، و سهّل عليّ مبارزة العُتاة الجبابرة من قُريش.

(١٥٦ـ ١٥٩)

الفصل الثّالث

نصّ اليعقوبيّ (م ٢٨٤) في تاريخه

[آخر مانزل من القرآن][١]

و كان آخر مانزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[٢] إلى آخر السّورة. و قد قيل: إنّ آخر ما نزل عليه: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْاِسْلاَمَ دِينًا﴾[٣]، و هي الرّواية الصّحيحة الثّابتة الصّريحة، و كان نزولها يوم النَّفْر على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، بغدير خمّ. و قيل: آخر مانزل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾[٤] و قال ابن عبّاس: كان جبريل إذا نزل على النّبيّ بالوحي يقول له: ضَعْ هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا، فلمّا نزل عليه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ قال: ضَعْها في سورة البقرة.

قال ابن مسعود: نزل القرآن بأمر و نهي و تحذير و تبشير. و قال جعفر بن محمّد عليه السلام «نزل القرآن بحلالٍ و حرامٍ، و فرائض و أحكام، و قصص و أخبار، و ناسخ و منسوخ، و محكم و متشابه، و عِبَر و أمثال، و ظاهر و باطن، و خاصّ و عامّ». و أقام رسول الله يتلوّم و يتهيّأ للقتال حتّى أنزل الله عزّوجلّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِاَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ اِنَّ اللهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٥]، و الآية الّتي بعدها. وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ اِلاَّ نَفْسَكَ﴾[٦] إلى آخر الآية. فكان الرّجل من المؤمنين يُعَدّ بعشرة من المشركين حتّى أنزل الله عزّوجلّ: ﴿اَلْئٰنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ اَنَّ فِيكُم ضَعْفًا فَاِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبوا مِائَتَيْنِ وَ اِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

---

١ ـ و في نفس المصدر جاء «كيف نزول الوحي».
٢ ـ التّوبة /١٢٧ ـ ١٢٨.
٣ ـ المائدة /٣.
٤ ـ البقرة /٢٨١.
٥ ـ الحجّ /٣٩.
٦ ـ النّساء /٨٤.

اَلْفٌ يَغْلِبُوا اَلْفَيْنِ﴾[۱] و أنزل الله عليه سيفًا من السّماء له غمده، فقال له جبريل: ربّك يأمرك أن تقاتل بهذا السّيف قومك حتّى يقولوا: لا إله إلاّ الله، و إنّك رسول الله، فإذا فعلوا ذلك حُرّمت دماؤهم و أموالهم إلاّ لحقّها وحسابهم على الله.(۲:۴۳)

۱ ـ الأنفال /٦٦.

الفصل الرّابع

نصّ مسلم (م: ٢٦١) في «صحيحه»

بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

١ـ حدّثني أبو الطّاهر أحمد بن عمر و بن عبد الله بن عمر و بن سَرْح، أخبَرَنَا ابن وَهْب، قال: أخبَرَني يُونس عن ابن شِهاب، قال: حدّثني عُروَةُ بن الزُّبَيْر أنّ عائشة زوج النّبيّ ﷺ أخبَرَته أنّها قالت: كان أوّلُ ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ عليه من الوحي الرُّؤيا الصّادقة في النّوم، فكان... **[و ذكر كما تقدّم عن البُخاريّ الرّقم ١، ثمّ قال:]**.

٢ـ و حدّثني محمّد بن رافع، حدّثنا عبد الرَّزّاق، أخبرنا مَعْمَر، قال: قال الزُّهْريّ و أخبَرَني عُرْوَة عن عائشة أنّها قالت: أوّل مابُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي، و ساق الحديث بمثل حديث يُونس، غير أنّه قال: فوالله لا يُحزِنُك الله أبدًا. وقال: قالت خديجة: أي ابن عمّ اسمع من ابن أخيك.

٣ـ و حدّثني عبد المَلِك بن شُعَيْب بن اللَّيث، قال: حدّثني أبي عن جدّي، قال حدّثني عُقَيل بن خالد، قال ابن شِهاب: سمعت عُرْوَة بن الزُّبَيْر يقول: قالت عائشة زوج النّبيّ ﷺ: فرجع إلى خديجة يرجُف فؤادُه. واقتصّ بمثل حديث يُونس و مَعْمَر، ولم يذكر أوّل حديثهما من قوله: أوّل ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّادقة و تابع يُونس **على قوله: فو الله لا يُخزيك الله أبدًا. و ذكر قول خديجة: أي ابن عمّ! اِسمَع من ابن أخيك.**

٤ـ و حدّثني أبو الطّاهر، أخبَرَنا ابن وَهْب قال: حدّثني يُونس، قال: قال ابن شِهاب: أخبرني أبو سَلَمة بن عَبدالّرحمان أنّ جابر بن عبد الله الأنصاريّ... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن البخاريّ الرّقم ٣]**.

٥ـ و حدّثني عبد المَلِك بن شُعَيب بن اللَّيْث، قال: حدّثني أبي عن جدّي، قال:

حدَّثني عُقَيل بن خالد عن ابن شِهاب، قال: سَمِعتُ أبا سَلَمَة بن عبدالرّحمان يقول: أخبرني جابر بن عبد الله أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثمّ فترالوحي عنّي فترة[1] فبينا أنا أمشي»، ثمّ ذكر مثل حديث يُونس غير أنّه قال «فَجُئثتُ[2] مِنهُ فَرقًا حتّى هَوَيتُ[3] إلى الأرض» قال: و قال أبُو سَلَمة: وَالرُّجْز: الأوثان. قال: «ثمّ حَمِي الوحي بَعدُ و تتابع»[4].

٦ـ و حدّثني محمّد بن رافع، حدّثنا عبدالرَّزاق؛ أخبرنا مَعْمَر عن الزُّهْريّ بهذا الإسناد نحو حديث يونس و قال: فأنزل الله تباركَ و تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر ـ إلى قوله ـ فالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قبل أن تُعرض الصّلاة، و هي الأوثان...

٧ـ وحدّثنا زُهَيْر بن حَرْب، حدّثنا الوليد بن مسلم، حدّثنا الأوزاعيّ، قال: سمعت يحيى يقول: سألت أبا سَلَمَة: أيّ القرآن أُنزل قبل؟ قال: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾، فقلت: أو (اِقْرَأْ) فقال سألت جابر بن عبدالله: أيّ القرآن أُنزِل قبل؟ قال: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾[5]، فقلت: أو (اِقْرَأْ) قال جابرٌ: أُحدّثكم ما حدّثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحِراء شهرًا، فلمّا قَضيْتُ جواري[6] نَزَلتُ فاستبطنت بطن الوَادِي[7]، فنوديتُ، فنظرتُ أمامي و خلفي و عن يميني و عن شمالي، فلم أر أحدًا، ثمّ نوديت، فنظرت فلم أر أحدًا، ثمّ نوديتُ فرفعتُ رأسي، فإذا

---

١ ـ (فترة الوحي) يعني احتباسه و عدم تتابعه و تواليه في النّزول.

٢ ـ (فَجُئِثْتُ)أي فُزِعْتُ ورُعِبْتُ، و كذا جُثِثت: قال الخَليل والكسائيّ: جُئِثَ وجُثَّ فهو مجئُوث ومجثُوث، أي مذعور فزع.

٣ ـ (هَوَيْتُ): هوى إلى الأرض و أهوى إليها، لغتان، أي سقط.

٤ ـ (ثمّ حَمِي الوحي و تتابع): هما بمعنى، فأكّد أحدهما بالآخر، و معنى حمي كثر نزوله وازداد، من قولهم: حميت النّار و الشّمس، أي قويت حرارتها.

٥ ـ قوله: إنّ أوّل ما أُنزل قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾ ضعيف، بل باطل، و الصّواب أنّ أوّل ما أُنزل على الإطلاق ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ كما صرّح به في حديث عائشة. و أمّا ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾ فكان نزولها بعد فترة الوحي، كما صرّح به في رواية الزُّهْريّ عن أبي سَلَمَة عن جابر. و الدّلالة صريحة فيه مواضع، منها قوله: و هو يحدّث عن فترة الوحي، إلى أن قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾ و منها قوله ﷺ: فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء»، ثمّ قال: «فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾. منها قوله: «ثمّ تتابع الوحي»، يعني بعد فترته. فالصّواب أنّ أوّل ما نزل: (اِقْرَأْ)، و أنّ أوّل مانزل بعدفترةالوحي ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾. وأمّا قول من المفسّرين: أوّل مانزل الفاتحة، فبطلانه أظهر من أن يذكر.

٦ ـ «فلمّا قضيت جواري» أي مجاورتي و اعتكافي. ٧ ـ «فاستبطنت الوادي» أي صِرْت في باطنه.

هو على العرش[1] في الهواء (يعني جبريل عليه السلام)، فأخذتني رَجْفَةٌ شَديدةٌ[2]، فأتَيت خديجة فقلت: دثِّروني، فدثَّروني، فصَبُّوا عليّ ماءً، فأنزل الله عَزَّوجَلَّ: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَ ثِيَابَكَ فطَهِّرْ﴾[3].

٨ـ حدّثنا محمّد بن المُثَنَّى، حدّثنا عُثمان بن عمر، أخبرنا عليّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير بهذا الإسناد، وَقال «فإذا هو جالسٌ علىالعرش بين السّماء و الأرض».

(١٣٩:١)

---

١ ـ «فإذا هو على العرش»، المراد بالعرش الكرسيّ: قال أهل اللُّغة: العرش هو السَّرير، و قيل: سرير الملك: قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

٢ ـ «فأُخذتني رَجْفَة شَديدة»، قال القاضي: ورواه السَّمَرقنديّ وجفة، و هما صحيحان متقاربان، و معناهما الاضطراب: قال الله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، و قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾، ﴿وَ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَال﴾.

٣ ـ المدَّثّر / ١ـ٤.

الفصل الخامس

نصّ التِّرمِذيّ (م: ٢٩٧) في سُننه: «الجامع الصّحيح»

ما جاء في بدء نبوّة النّبيّ ﷺ

١ـ حدّثنا الفضل بن سَهْل أبو العبّاس الأعْرَج البغداديّ، حدّثنا عبدالرّحمان بن غَزْوان أبو نُوح، أخبَرَنا يُونُس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشّام و خرج معه النّبيّ ﷺ في أشياخٍ من قُرَيشٍ، فلمّا أشرفوا على الرّاهب هَبَطوا فحَلّوا رِحالَهم، فخرج إليهم الرّاهب و كانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرُجُ إليهم ولايلتفت. قال: فهم يحلّون رِحالَهم، فجعل يتخلّلُهُم الرّاهب حتّى جاء فأخذ بيَدِ رسول الله ﷺ، قال: هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين، فقال له أشياخ من قُريش: ما عِلمُك، فقال: إنّكم حين أشرفتم من العَقَبَة لم يبقَ شَجرٌ و لاحَجَرٌ إلاّ خرّ ساجدًا، و لا يسجدان إلاّ لِنبيٍّ، و إنّي أعرِفُه بخاتم النُّبوَّة أسفَلَ من غضروف كَتِفِه مثلَ التُّفّاحَة، ثمّ رجع فصَنَع لهم طعامًا، فلمّا أتاهم به وكان هو في رِعْيَة الإبل قال: أرسِلوا إليه، فأقبَلَ و عليه غَمامةٌ تُظِلُّه، فلمّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فَيْء الشّجرة فلمّا جلس مالَ فَيْء الشّجرة عليه فقال: اُنظروا إلى فَيْء الشّجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائمٌ عليهم و هو يُنا شِدُهم أن لا يذهبوا به إلى الرّوم، فإنّ الرّوم إذا رأوه عَرِفوه بالصِّفة فيقتلونه، فالتَفَت فإذا بسبعةٍ قد أقبلوا من الرّوم فاستقبلهم فقال: ما جاءبكم؟ قالوا جئنا أنّ هذا النّبيّ خارج في هذا الشّهر، فلم يبقَ طريق إلاّ بُعِث إليه بأُناس و إنّا قد أُخبِرنا خَبَرَه بُعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خَلفَكم أحَدٌ هو خيرٌ منكم؟ قالوا: إنّما اخترنا خِيَرةً لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضِيَه هل يستطيع أحدٌ من النّاس رَدُّه؟ قالوا: لا؛ قال: فبا يعوه و أقاموا معه قال: أُنشِدُكم الله أيّكم و ليُّهُ؟ قالوا:

أبوطالب، فلم يزل ينا شده حتّى ردّه أبوطالب و بعث معه أبوبكر بِلالاً و زوّده الرّاهب من الكَعْك و الزَّيْت. قال أبوعيسى: هذا حديث حسنٌ غريب، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه. (٥:٥٩٠ـ٥٩١)

٢ـ حدّثنا الأنصاريّ إسحاق بن موسى، حدّثنا يونس بن بُكَيْر أخبَرَنا محمّد بن إسحاق، حدّثني الزُّهْريّ عن عُرْوة عن عائشة أنّها قالت: أوّل ما ابتُدِئ به رسول الله ﷺ من النّبوّة حين أراد الله كرامته و رحمة العباد به أن لا يرى شيئًا إلاّ جاءت مثلَ فلَقِ الصّبح، فمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكُث، و حُبِّب إليه الخَلوة فلم يكن شيءٌ أحَبَّ إليه من أن يخلُوَ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

ما جاء كيف كان ينزل الوحي على النّبيّ ﷺ

٣ـ حدّثنا إسحاق بن موسى الأنصاريّ، حدّثنا مَعنٌ، حدّثنا مالك عن هِشام بن عُرْوَة، عن أبيه عن عائشة أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي... [وذكركما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ١، ثمّ أضاف:] قال عيسى: هذا حديث حسن صحيح. (٥:٥٩٦ـ٥٩٧)

الفصل السّادس

نصّ الطّبريّ (م: ٣١٠) في تفسيره: «جامع البيان»[١]

[بدء الوحي أوّل و آخر ما نزل]

[أوّل ما أنزل جبرئيل على النّبيّ ﷺ]

«الاستعاذة ثمّ البَسْمَلة»

قد روي عن ابن عبّاس: أنّ أوّل ما نزل جبرئيل على النّبيّ ﷺ علّمه الاستعاذة.

١ـ حدّثنا أبوكُرَيب قال: حدّثنا عُثمان بن سعيد، قال: حدّثنا بُشربن عَمّارة، قال: حدّثنا أبوروق عن الضّحّاك عن عبدالله بن عبّاس قال: أوّل ما نزل جبرئيل على محمّد ﷺ قال: يا محمّد! قُل استعيذُ بالسّميع العليم، من الشّيطان الرّجيم ثمّ قال: قُل بِسمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم. ثمّ قال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾ قال عبدالله: وهي أوّل سورة أنزلها الله تعالى على محمّد ﷺ بلسان جبرئيل، فأمره أن يتعوّذ بالله دون خلقه. (١:٥٠)

أوّل آية نزلت من القرآن

﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ﴾ المدثّر ١ـ٣.

و ذُكر أنّ هذه الآية أوّل شيء نزل من القرآن على رسول الله ﷺ و أنّه قيل له: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾.

---

١ ـ لا يخفى أنّ بعض روايات هذا النّص، ولاسيّما الرّوايات رقم ٤٨،٤٢،٣٧،٣٦،١١،٩، لاتصحّ عندنا لِأنّها تنافي عصمة النّبيّ ﷺ و قد نقدها العلماء في كتبهم، لاحظ نصوص الشّيخ معرفة و الشّيخ السّبحانيّ و السّيّد مرتضى العامليّ و غيرهم في هذا المجلّد. (م)

٢ـ كما حدّثنا يُونس، قال أخبرنا ابن وَهْب. قال: أخبرنا يُونس، عن ابن شِهاب، قال: أخبرني أبو سَلَمة بن عبد الرّحمان أنّ جابر بن عبدالله الأنصاريّ... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ٣]**.

٣ـ حدّثنا ابن المثنّى. قال ثنا الوليد بن مُسلم، قال: ثنا الأوزاعيّ، قال: ثني يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سَلَمة: أيّ القرآن أُنزل أوّل؟ فقال: ﴿يَاۤ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: يقولون: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾، فقال: لا أخبرك إلاّ ما حدّثنا النّبيّ ﷺ قال: «جاورت في حِراء؛ فلمّا قضيت جواري هَبَطْت، فاستَبْطَنْتُ الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني و عن شمالي و خلفي و قُدّامي، فلم أر شيئًا، فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السّماء و الأرض، فخشيت منه». هكذا قال عُثمان بن عمرو، إنّما هو «فجُثِثْت[1] منه، و لقيت خديجة، فقلت دثّروني، فدثّروني، و صُبّوا عليّ ماءً، فأنزل الله عليّ: ﴿يَاۤ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ﴾[2].

٤ـ حدّثنا أبو كُرَيب، قال: حدّثنا وَكيع، عن عليّ بن مبارك عن يحيى بن أبي كثير، قال سَألت أبا سَلَمة عن أوّل ما نزل من القرآن... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ، الرّقم ٣]**.

٥ـ حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن الزُّهْريّ، قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزِن حُزنًا، فجعل يعدو إلى شواهق رؤوس الجبال ليتردّى منها. فكلّما أوىٰ بذَرْوَةِ جبل تبدىٰ له جبرئيل عليه السلام فيقول: إنّك نبيّ الله، فيسكن جأشه، و تسكن نفسه، فكان النّبيّ ﷺ يحدّث عن ذلك، قال: بينما أنا أمشي يومًا إذ رأيتُ المَلَك الّذي كان يأتيني بحِراء على كرسيّ بين السّماء والأرض، فجُثِثْت منه رُعبًا، فرجعت إلى خديجة، فقُلت: زمّلوني، فزمّلناه، أي فدثّرناه، فأنزل الله: ﴿يَاۤ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ * وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ..﴾.[3]

قال الزُّهْريّ: فكان أوّل شيءٍ أُنزل عليه ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.[4]

(٢٩: ١٤٣ـ١٤٤)

---

١ ـ جُثِثتُ (بالبناء للمجهول): فزعت و خفت.
٢ ـ المدثّر / ١ـ٢.
٣ ـ المدثّر / ١ـ٣.
٤ ـ العلق / ١ـ٥.

آخر آية نزلت من القرآن

﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ المائدة /٣

اختلف أهل التّاويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ دِينَكُمْ﴾ اليوم أكملت لكم أيّها المؤمنون فرائضي عليكم و حدودي، و أمري إيّاكم و نهيي، و حلالي و حرامي، و تنزيلي من ذلك ما أنزلتُ منه في كتابي و تبياني، ما بيّنت لكم دينكم منه بوحيي على لسان رسولي، و الأدلّة الّتي نصبتها على جميع ما بكم الحاجة إليه، من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم. قالوا: و كان ذلك في يوم عرفة، عام حجّ النّبيّ ﷺ حجّة الوداع.

وقالوا: لم ينزل على النّبيّ ﷺ بعده هذه الآية شيء من الفرائض، و لا تحليل شيء و لا تحريمه، و إنّ النّبيّ ﷺ لم يَعِش بعد نزول هذه الآية إلاّ إحدى و ثمانين ليلة...

و أولى الأقوال في ذلك بالصّواب، أن يقال: إنّ الله عَزَّوجَلَّ أخبر نبيّه ﷺ والمؤمنين به، أنّه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيّه دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام، و إجلائه عنه المشركين، حتّى حجّه المسلمون دونهم، لا يخالطونهم المشركون.

٦ـ فأمّا الفرائض و الأحكام، فإنّه قد اختلف فيها هل كانت أكملت ذلك اليوم أم لا؟ فُروي عن ابن عبّاس و السُّدّيّ؛ ماذكرنا عنهما قبل، ورُوي عن البَراء بن عازِب: إنّ آخر آية نزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ...﴾[1] و لا يدفع ذو علم أنّ الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى قبض، بل كان الوحي قبل و فاته أكثر ما كان تتابعًا. فإذ كان ذلك كذلك، و كان قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ...﴾ آخرها نزولاً، و كان ذلک من الأحكام و الفرائض، كان معلومًا أنّ معنى قوله: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ على خلاف الوجه الّذي تأوّله، أعني كمال العبادات و الأحكام و الفرائض.(٦:٧٩ و ٨٠)

---

١ ـ النّساء /١٧٦.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا...﴾ الكهف /١١٠

٧ـ حدّثنا أبو عامر إسماعيل بن عمر و السَّكُونيّ، قال: ثنا هِشام بن عَمّار، قال ثنا ابن عَيّاش، قال: ثنا عمروبن قَيْس الكِنْديّ، أنّه سمع معاوية بن أبي سُفيان تلا هذه الآيـة. ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...﴾ و قال: إنّها آخر آية أُنزلت من القرآن. (١٦:٤)

أوّل سورة نزلت من القرآن

﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾

قوله: ﴿اِقْرَاْ وَ رَبُّكَ الْاَكْرَمُ﴾ يقول: إقرأ يا محمّد و ربّک الأكرم ﴿اَلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ خَلْقه الكتاب و الخطّ.

٨ـ كما حدّثنا بُشر، قال ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قَتادة: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ قرأ حتّى بلغ: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ قال: القلم: نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم و لم يصلح عيش. و قيل: إنّ هذه أوّل سورة نزلت في القرآن على رسول الله ﷺ.

٩ـ حدّثني أحمد بن عُثمان البَصْريّ، قال: ثنا وَهْب بن جَرير، قال: ثنا أبي، قال: سمعت النُّعمَان بن راشِد عن الزُّهْريّ، عن عُرْوَة، عن عائشة أنّها قالت: كان أوّل ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّادقة، كانت تجيء مثل فَلَق الصّبح، ثمّ حُبِّب إليه الخلاء فكان بغار حِراء يتحنّث فيه اللّيالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ثمّ يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها، حتّى فجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمّد أنت رسول الله، قال رسول الله «فجثَوتُ لِرُكبتيّ و أنا قائم، ثمّ رجعت تَرجُف بوَادِري، ثمّ دخلت على خديجة، فقلت: زمِّلوني زمّلوني، حتّى ذهب عنّي الرَّوع، ثمّ أتاني فقال: يا محمّد، أنا جبريل و أنت رسول الله، قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالقٍ من جبل، فتمثّل إليّ حين هَمَمت بذلك، فقال: يا محمّد. أنا جبريل و أنت رسول الله، ثمّ قال: اِقْرأْ، قلت: ما أقرأُ؟ قال: فأخذني فغطّني ثلاث مرّات، حتّى بلغ منّي الجَهْد. ثمّ قال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾ فقرأتُ، فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشْفقت على نفسي، فأخبرتها خبري فقالت: أبشِر، فوالله لا يُخزيك الله أبدًا، و والله إنّك لتصل الرّحم، و تصدُق الحديث، و تؤدّي الأمانة،

و تَحمِلُ الكَلّ، و تَقري الضَّيف، و تُعين على نوائب الحقّ، ثمّ انطلقت بي إلى وَرَقَة بن نَوْفَل ابن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني، فأخبرته خبري، فقال: هذا النّاموس الّذي أُنزل على موسى عليه السلام، ليتني فيها جَذَعٌ، ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك، قلتُ: أومُخرجيّ هم؟ قال: نعم، إنّه لم يجيء رجل قطُّ بما جئت به إلاّ عُودى. و لئن أدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا، ثمّ كان أوّل ما نزل عليّ من القرآن بعد (اِقْرَأ): ﴿ن وَالْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ * مَا اَنْتَ بِنِعْمَةِ ربِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَ اِنّ لَكَ لَاَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَ اِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ﴾[١]، ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ﴾[٢]، ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيْلِ اِذَا سَجىٰ﴾.[٣]

١٠ـ حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: أخبرني يُونس عن ابن شِهاب، قال: ثني عُرْوة أنّ عائشة أخبرته، و ذكر نحوه. غير أنّه لم يقل: «ثمّ كان أوّل ما أُنزل عليّ من القرآن»... الكلام إلى آخره.

١١ـ حدّثنا ابن أبي الشّوارِب، قال: ثنا عبدالواحد، قال: ثنا سُليمان الشَّيْبانيّ. قال: ثنا عبدالله بن شَدّاد، قال: أتى جبريل محمّدًا، فقال يا محمّد: (إقرأ)، فقال: «و ما أقرأ»؟ قال: فضَمَّه. ثمّ قال يا محمّد: (اِقرأ)، قال: «و ما أقرأ»؟ قال: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ حتّى بلغ ﴿عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾، قال: فجاء إلى خديجة، فقال: «يا خديجة ما أراه إلاّ قد عُرِض لي» قالت: كلاّ، و الله ما كان ربّك يفعل ذلك بك، و ما أتيت فاحشة قطّ: قال: فأتت خديجة وَرَقَة، فأخبرته الخبر، قال: لئن كنت صادقة إنّ زوجك لنبيّ، و لَيَلقيَنّ من أُمّته شدّة، و لئن أدركته لأومننّ به. قال: ثمّ أبطأ عليه جبريل، فقالت له خديجة ما أرى ربّك إلاّ قد قلاك، فأنزل الله ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيْلِ اِذَا سَجىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَاقَلىٰ﴾.

١٢ـ حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، قال: ثنا سُفيان عن الزُّهْريّ، عن عُرْوَة، عن عائشة، قال إبراهيم: قال سُفيان: حفظه لنا ابن إسحاق: إنّ أوّل شيء أُنزل من القرآن: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

١٣ـ حدّثنا عبدالرّحمان بن بشر بن الحكم النّيسابوريّ، قال ثنا سُفيان عن محمّد بن

١ ـ القلم / ١ـ٦. ٢ ـ المدّثر / ١ـ٢.
٣ ـ الضّحىٰ /١ـ٢.

إسحاق، عن الزُّهْريّ عن عُرْوَة، عن عائشة: أنّ أوّل سورة أُنزلت من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٤ـ حدّثنا ابن المثنّى، قال ثنا ابن أبي عَدِيّ عن شُعبة، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد بن عُمَير، قال: أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

١٥ـ قال: ثنا عبدالرّحمان بن مَهديّ، قال ثنا شُعبة عن عمر و بن دينار، قال: سمعت عُبَيد بن عُمير يقول: فذكر نحوه.

١٦ـ حدّثنا خَلّاد بن أسلم: قال أخبرنا النّضر بن شُمَيْل، قال: ثنا قُرّة، قال: أخبرنا أبورَجاء العُطارديّ، قال: كنّا في المسجد الجامع، و مُقرئنا أبو موسى الأشعَريّ. كأنّي أنظر إليه بين بُردين أبيضين، قال أبورَجاء: عنه أخذت هذه السّورة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ و كانت أوّل سورة نزلت على محمّد.

١٧ـ حدّثنا ابن حَميد، قال: ثنا سَلَمة، قال: ثنا محمّد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عَطاء بن يَسار، قال: أوّل سورة نزلت من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٨ـ حدّثنا ابن بَشّار، قال: ثنا يحيى و عبدالرّحمان بن مهديّ، قالا: ثنا سُفيان عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، قال: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و زاد ابن مهديّ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾.

١٩ـ حدّثنا أبوكُرَيب، قالَ: ثنا وَكيع عن شُعبة، عن عمروبن دينار، قال: سمعت عُبَيد بن عُمَير بقول: أوّل ما أُنزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

٢٠ـ قال: ثنا وَكيع عن قُرّة بن خالد، عن أبي رَجاء العُطارديّ، قال: إنّي لأنظر إلى أبي موسى و هو يقرأ القرآن في مسجدالبَصْرة و عليه بُردان أبيضان، فأنا أخذت منه: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و هي أوّل سورة أُنزلت على محمّد ﷺ.

٢١ـ قال ثنا وَكيع عن سُفيان عن أبي نَجيح، عن مجاهد، قال: إنّ أوّل سورة أُنزلت: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ ثمّ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾.

٢٢ـ حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا مِهران عن سُفيان عن أبي نَجيح، عن مجاهد مثله.

(٣٠: ٢٥١ـ٢٥٣)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰو...﴾ البقرة / ٢٧٨ـ٢٨٠.

قد قيل: إنّ هذه الآيات في أحكام الرّبا، هنّ آخر آيات نزلت من القرآن.

٢٣ـ حدّثنا محمّد بن بَشّار، قال: ثنا ابن أبي عَديّ عن سعيد، و حدّثني يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيّة عن سعيد، عن قَتادة، عن سعيد بن المسيّب، أنّ عمر الخطّاب قال: كان آخر ما نزل من القرآن آية الرّبا، و إنّ نبيّ الله ﷺ قُبِض قبل أن يفسّرها، فدعوُا الرّبا و الرّيبة.

٢٤ـ حدّثنا حميد بن مَسْعَدة، قال: ثنا بُشر بن المفضّل، قال داود عن عامر: أنّ عمر رضي الله عنه قام فحمد الله و أثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّه و الله ما أدري، لعلّنا نأمركم بأمر لايصلح لكم، و ما أدري لعلّنا ننهاكم عن أمر يصلح لكم، و إنّه كان من آخر آيات القرآن تنزيلاً آيات الرّبا، فتوفّي رسول الله ﷺ قبل أن يبيّنه لنا، فدَعُوا ما يُريبُكم إلى ما لايَريبُكم.

٢٥ـ حدّثني أبو زيد عمر بن شَبَة، قال: ثنا قَبِيصَة، قال: ثنا سُفيان الثّوريّ عن عاصم، عن الأحوَل، عن الشَّعْبيّ، عن ابن عبّاس، قال: آخر ما أُنزل على رسول الله ﷺ آيه الرّبا، و إنّا لنأمر بالشّئ لا ندري لعلّ به بأسًا، و ننهى عن الشّيء لعلّه ليس به بأس.(٣:١١٤)

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

و قيل: هذه الآية أيضًا آخر آية نزلت من القرآن،

٢٦ـ حدّثنا ابن حَميد، قال: ثنا أبو تُميلة، قال: ثنا الحسين بن واقد عن يزيد النّحويّ، عن عكرمة عن ابن عبّاس، قال: آخر مانزلت على النّبيّ ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾.

٢٧ـ حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي عن ابيه، عن ابن عبّاس: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾... الآية، فهي آخر آية من الكتاب أُنزلت.

٢٨ـ حدّثني محمّد بن عَمّارة، قال: ثنا إسماعيل بن سَهل بن عامر، قال: ثنا مالك بن مِغْوَل عن عَطّية، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾.

٢٩ـ حدّثنا ابن و كيع، قال: ثنا أبي عن إسماعيل بن أبي خالد، عن السُّدّيّ، قال:

آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾.

٣٠ـ حدّثنا القاسم، قال: ثنا أبو تُميلة، عن عُبيد بن سَلْمَان، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبّاس و حَجّاج، عن ابن جُرَيْج، قال ابن عبّاس: آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَاكَسَبَتْ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾. قال ابن جُرَيْج: يقولون: إنّ النّبيّ ﷺ مكث بعدها تسع ليال، و بدا يوم السّبت، و مات يوم الإثنين. (٣:١١٤ـ١١٥)

آخر سورة نزلت من القرآن

«سورة البراءة»

٣١ـ حدّثني بذلك يعقوب بن إبراهيم، قال حدّثنا هُشَيم عن أبي بِشْر عن سعيد بن جُبَير و قد رُوي عن ابن عبّاس قولٌ يدلّ على موافقته قول سعيد هذا، و ذلك ما حدّثنا به محمّد بن بَشّار، قال: حدّثنا ابن أبي عَديّ، ويحيى بن سعيد، ومحمّد بن جعفر، و سهل بن يوسف، قالوا: حدّثنا عَوف، قال: حدّثني يزيد الفارسيّ، قال: حدّثني ابن عبّاس، قال: قلت لعُثمان بن عَفّان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال و هي من المثاني، و إلى بَرَاءَةٌ، و هي من المئين، فقر نتم بينهما، و لم تكتبوا سطر ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و وضعتموها فيالسّبع الطُّول؟ ما حملكم على ذلك؟ قال عُثمان: كان رسول الله ﷺ ممّا يأتي عليه الزّمان، و هو تنزّل عليه السُّور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه الشّيء دعا ببعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السّورة التّي يذكر فيها كذا و كذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، و كانت بَرَاءَة من القرآن نزولاً، و كانت قصّتها شبيهة بقصّتها. فظننت أنّها منها، فقبض رسول الله ﷺ و لم يبيّن لنا أنّها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، و وضعتهما في السّبع الطُّول.(١:٤٥)

و نصّه أيضًا في تاريخه [١]

[ابتداء الوحي و أوّل ما نزل]

قال أبو جعفر: قد ذكرنا قبل بعض الأخبار الواردة، عن أوّل وقت إتيان مجيئ جبريل، نبيّنا محمّدًاﷺ بالوحي من الله، و كم كان سنّ النّبيّﷺ يومئذ؟ و نذكر الآن صفة ابتداء جبريل إيّاه بالمصير إليه و ظهوره له بتنزيل ربّه.

٣٢ـ فحدّثني أحمد بن عُثمان المعروف بأبي الجَوزاء، قال: حدّثنا وَهْب بن جَرير، قال: حدّثنا أبي قال: سمعت النُّعمان بن راشد، يحدّث عن الزُّهريّ... **[و ذكر كما تقدّم عنه آنفًا، عن تفسيره، الرّقم ٩]**.

٣٣ـ حدّثني يونس بن عبدالأعلى، قال: أخبرنا ابن وَهْب قال: أخبرني يونس، عن ابن شِهاب قال: حدّثني عُرْوَة، أنّ عائشة أخبرته، ثمّ ذكر نحوه غير أنّه لم يقل ثمّ كان من أوّل ما أُنزل عليّ من القرآن إلى آخره.

٣٤ـ حدّثنا محمّد بن عبدالمَلَك بن أبي الشَّوارب، قال حدّثنا عبدالواحد بن زياد قال: حدّثنا سُلَيمان الشَّيبانيّ قال: حدّثنا عبدالله بن شَدّاد... **[و ذكر كما تقدّم عنه آنفًا عن تفسيره، الرّقم ١١]**.

٣٥ـ حدّثنا ابن حُمَيد قال: حدّثنا سَلَمة عن محمّد بن إسحاق قال: حدّثني وَهْب بن كَيْسان مولى آل الزُّبَير قال سمعت عبدالله بن الزُّبَير و هو يقول لعُبَيْد بن عُمَير بن قَتادة اللَّيثيّ: حدِّثنا يا عُبَيْد كيف كان بدء ما ابتدىء به رسول اللهﷺ من النّبوّة حين جاء جبريلعليه السلام فقال عُبَيد: و أنا حاضر يحدّث عبدالله بن الزُّبَيْر و من عنده من النّاس كان رسول اللهﷺ يجاور في حِراء من كلّ سنة شهرًا و كان ذلك ممّا تحنّث به قريش في الجاهليّة و التّحنّث التّبرّر.

٣٦ـ و قال أبوطالب: وَرَاقٍ لِيَرْقى في حِراءٍ و نازِلٍ. فكان رسول اللهﷺ يجاور ذلك الشّهر من كلّ سنة يطعم من جاء من المساكين، فإذا قضى رسول اللهﷺ جواره من شهره

١ ـ جاء مثل هذا النّص في «السّنن النّبويّة» لا بن هِشام (م: ٢١٨) ١: ٢٥٢ـ٢٥٥.(م)

ذلك كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعًا، أو ما شاءالله من ذلك ثمّ يرجع إلى بيته حتّى إذا كان الشّهر الّذي أراد الله عَزَّوجَلَّ فيه ما أراد من كرامته من السّنة الّتي بعثه فيها و ذلك في شهر رمضان خرج رسـول‌الله ﷺ إلى حِراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتّى إذا كانت اللّيلة الّتي أكرمه الله فيها برسالته و رحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله فقال رسول الله ﷺ: فجاءني و أنا نـائم بـنمط مـن ديباج، فيه كتاب فقال: (اِقرأ) فقلت: ما أقرأ، فغتّني حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسـلني فقال: (اِقرأ) فقلت: ماذا أقرأ و ما أقول ذلك: اِلّاافتداء منه أن يعود إلى بمثل ما صنع بي قال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى قوله: ـ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ قال فقرأته قال: ثمّ انتهى، ثمّ انصرف عنّي، و هببت من نومي، و كأنّما كتب في قلبي كتابًا. قال: و لم يكن من خلق الله أحدًا أبغض إليّ من شاعر أو مجنون كنت لاأُطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت: إنّ الأبـعد (يعني نفسه لشاعر أو مجنون) لاتحدّث بها عنّي قريش أبدًا لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسي منه فلأقتلنّها فلأستريحنّ قال: فخرجت أُريد ذلك حتّى إذا كـنت فـي وسط من الجبل سمعت صوتًا من السّماء يقول: يامحمّد! أنت رسول الله و أنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السّماء، فإذا جبريل في صورة رجل صافّ قديمه في أُفق السّماء يقول: يا محمّد أنت رسول الله، و أنا جبريل قال: فوقفت أنظر إليه، و شغلني ذلك عـمّا أردت، فما أتقدّم و ما أتأخّر و جعلت أصرف و جهي عنه في آفاق السّماء فلا أنظر في ناحية منها إلاّ رأيته كذلك فما زلتُ واقفًا ما أتقدّم أمامي و لا أرجع و رائي. حتّى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتّى بلغوا مكّة و رجعوا إليها و أنا واقف في مكاني، ثمّ انصرف عنّي و انصرفت راجعًا إلى أهلي حتّى أتيت خديجة، فجلست إلى فَخِذَهامضيفًا فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتّى بلغوا مكّة و رجعوا إليّ. قال: قلت لها: إنّ الأبْعَدَ لشاعر أو مجنون فقالت: أُعيذك بالله من ذلك يا أباالقاسم، ماكان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صِدق حديثك، و عِظَم أمانتك، و حُسن خلقك، وصِلَة رحمك، و ماذاك يا بن عمّ؟ لعلّك رأيت شيئًا؛ قال: فقلت لها: نعم، ثمّ حدّثتها بالّذي رأيت فقالت: أبشر يا بن عمّ و أثبت فو الّذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه

الأُمّة، ثمّ قامت، فجمعت عليها ثيابها، ثمّ انطلقت إلى وَرَقَة بن نَوْفَل بن أسد و هو ابن عمّها، وكان وَرَقَة قد تنصّر و قرأالكتب و سمع من أهل التّوارة و الإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول اللهﷺ أنّه رأىٰ و سمع، فقال وَرَقَة: قُدُّوس و قُدُّوس و الّذي نفس وَرَقَة بيده لئن كنت صدّقتني يا خديجة لقد جاءه النّاموس الأكبر يعني بالنّاموس جبريلعليه‌السلام الّذي كان يأتي موسى و إنّه لنبيّ هذه الأُمّة فقولي له فليثبت فرجعت خديجة إلى رسول اللهﷺ فأخبرته بقول ورقة فسهّل ذلك عليه بعض ماهو فيه من الهمّ، فلمّا قضى رسول اللهﷺ جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه وَرَقَة بن نَوْفَل و هو يطوف بالبيت، فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت أو سمعت، فأخبره رسول اللهﷺ فقال له: وَرَقَة والّذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأُمّة و لقد جاءك النّاموس الأكبر الّذي جاء إلى موسى و لتُكذِّبنَّهُ و لتُؤذِينَّهُ و لتُخرِجَنَّهُ و لتُقاتِلَنَّهُ، و لئن أنا أدركتُ ذلك، لأنصرنّ الله نصرًا يعلمه ثمّ أدنى رأسه فقبّل يافوخه، ثمّ انصرف رسول اللهﷺ إلى منزله و قد زاده ذلك من قول وَرَقَة ثباتًا و خفّف عنه بعض ما كان فيه من الهمِّ.

٣٧ـ فحدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا سَلَمَة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزُّبَير، أنّه حدّث عن خديجة، أنّها قالت: لرسول اللهﷺ فيما يثبته فيما أكرمه الله به من نبوّته يا ابن عمّ! أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الّذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريلعليه‌السلام كما كان يأتيه فقال رسول اللهﷺ لخديجة: يا خديجة! هذا جبريل قد جاءني فقالت: نعم، فقم يا ابن عمّ فاجلس على فَخِذي اليُسرى، فقام رسول اللهﷺ فجلس عليها قالت: هل تراه؟ قال نعم. قالت: فتحوّل، فاقعُد على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول اللهﷺ فجلس عليها فقالت: هل تراه قال: نعم قالت: فتحوّل، فاجلس في حِجري فتحوّل فجلس في حِجرها قالت: هل تراه قال: نعم، فتحسَّرت فألقت خِمارها، و رسول اللهﷺ جالس في حِجرها، ثمّ قالت: هل تراه قال: لا فقالت: يا ابن عمّ أثبت و أبْشِر، فوالله إنّه لملكٌ و ما هو بشيطان.

٣٨ـ فحدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سَلَمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق قال: حدّثت بهذا الحديث عبدالله بن الحسن فقال: قد سمعت أُمّي فاطمة بنت الحسين تحدّث

بهذا الحديث عن خديجة إلاّ أنّي قد سمعتها، تقول: أدخلت رسول‌الله ﷺ بينها و بين دِرعها فذهب عند ذلك جبريل فقالت لرسول‌الله ﷺ إنّ هذا الملك و ما هو بشيطان.

٣٩ـ حدّثنا ابن المثنّى قال: حدّثنا عثمان بن عمر بن فارس، قال: حدّثنا عليّ بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير... **[و ذكر كما تقدّم عنه آنفًا عن تفسيره الرّقم ٣]**.

٤٠ـ حدّثنا أبوكُرَيْب، قال حدّثنا وَكيع عن عليّ بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ، الرّقم ٣]**.

٤١ـ و حُدِّثت عن هِشام بن محمّد، قال: أتى جبريل رسول الله ﷺ، أوّل ما أتاه ليلة السّبت و ليلة الأحد، ثمّ ظهر له برسالة الله عَزَّوجَلَّ يوم الاثنين، فعلّمه الوضوء و علّمه الصّلاة و علّمه: ﴿اِقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ﴾ و كان لرسول‌الله ﷺ يوم الاثنين يوم أُوحي إليه أربعون سنة.

٤٢ـ حدّثني أحمد بن محمّد بن حبيب الطّوسيّ، قال: حدّثنا أبو داودالطّيالسيّ، قال:أخبرنا جعفر عبدالله بن عثمان القرشيّ، قال: أخبرني عمر بن عُروَة بن الزُّبَير، قال: سمعت عُروَة بن الزّبير يحدّث عن أبي ذرّالغِفاريّ، قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنّك نبيّ أوّل ما علمت حتّى علمت ذلك واستيقنت؟ قال يا أباذر: أتاني ملكان و أنا ببعض بطحاء مكّة، فوقع أحدهما في الأرض والآخر بين السّماء و الأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال: هو هو قال: فزِنْه برجل، فُوزِنت برجلٍ، فرَجَحته، ثمّ قال: زِنْه بعشرة فوزنني بألف فرجَحتهم، ثمّ قال زِنه بمائة فوزنني فرجحتهم، ثمّ قال: زِنه بألف فوزنني بألف فرجحتهم، فجعلوا ينتثرون عليّ من كفّة الميزان قال فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأُمّته رَجَحَها، ثمّ قال أحدهما لصاحبه: شُقْ بطنه فشَقّ بطني، ثمّ قال أحدهما: أُخرج قلبه أو قال شُقَّ قلبه، فشَقّ قلبي، فأخرج منه مغْمَز الشّيطان، و علَق الدّم فطرحها، ثمّ قال أحدهما للآخر: اغسِل بطنه غَسْل الإنا و اغسِل قلبه غَسْل الإنا أو اِغسِل قلبه غسل الملاءة ثمّ دعا بالسَّكينة كأنّها وجه هرَّة بيضاء فأدخلت قلبي، ثمّ قال أحدهما لصاحبه: خِطْ بطنه فخاط بطني، و جعلا الخاتم بين كَتفيَّ فما هو إلاّ أن وَلّيا عنّي فكأنّما أُعاين الأمر معاينة.

٤٣ـ حدّثنا محمّد بن عبدالأعلى، قال: حدّثنا ابن ثَوْر عن مَعْمَر عن الزُّهْريّ... **[وذكر كما تقدّم آنفًا عن تفسيره، الرّقم ٥]**.

٤٤ـ حدّثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: أخبرني يونس... أنّ جابر ين عبدالله الأنصاريّ... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ، الرّقم ٧]**.

قال أبو جعفر: فلمّا أمر الله عَزَّوجَلَّ نبيّه محمّدًا ﷺ أن يقوم بإنذار قومه عقاب الله على ما كانوا عليه مقيمين من كفرهم بربّهم و عبادتهم الآلهة و الأصنام، دون الّذي خلقهم ورزقهم و أن يحدّث بنعمة ربّه عليه بقوله: ﴿فَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] و ذلک فيما زعم ابن إسحاق النّبوّة.

٤٥ـ حدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا سَلَمة عن ابن إسحاق: ﴿وَ اَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي ما جاءك من الله من نعمته و كرامته من النّبوّة فحدّث اذكرها وادع إليها، قال: فجعل رسول‌الله ﷺ يذكر ما أنعم الله عليه و على العباد به من النّبوّة سرًّا إلى من يطمئنّ إليه من أهله فكان **أوّل من صدّقة و آمن به و اتّبعه من خلق الله فيما ذكر، زوجته خديجة رحمها الله.**

٤٦ـ حدّثني الحارث قا: حدّثنا ابن سعد قال: قال الواقِديّ أصحابنا مُجمعون على أنّ أوّل أهل القبلة استجاب لرسول الله ﷺ خديجة بنت خُوَيْلِد رحمهاالله.

قال أبو جعفر: ثمّ كان أوّل شيءٍ فرض الله عَزَّوجَلَّ من شرايع الإسلام عليه ـ بعد الإقرار بالتّوحيد والبراءة من الأوثان و الأصنام و خلع الأنداد ـ الصّلاة فبما ذكر.

٤٧ـ حدّثنا ابن حُمَيد، قال: حدّثنا سَلَمَة قال: حدّثني محمّد بن إسحاق قال: وحدّثني بعض أهل العلم أنّ الصّلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل و هو بأعلى مكّة فهمزله بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين فتوضّأ جبريل عليه‌السلام ورسول‌الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطّهور للصّلاة، ثمّ توضّأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل عليه‌السلام توضّأ، ثمّ قام جبريل عليه‌السلام فصلّى النّبيّ ﷺ بصلاته، ثمّ انصرف جبريل عليه‌السلام فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضّأ لها يريها كيف الطّهور للصّلاة كما أراه جبريل عليه‌السلام فتوضّأت كما توضّأ رسول الله ﷺ ثمّ صلّى بها رسول‌الله ﷺ كما صلّى به جبريل عليه‌السلام فصلّت بصلاته.

---

١ ـ الضُّحى /١١.

٤٨ـ حدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا هارون بن المغيرة و حكام بن سَلم عن عَنْبَسة عن أبي هاشم الواسطيّ عن ميمون بن سيّاه عن أنس بن مالك قال: لمّا كان حين نُبِّىء النّبيّ ﷺ وكان ينام حول الكعبة و كانت قُريش تنام حولها، فأتاه ملكان جبريل و ميكائيل فقالا: بأيّهم أُمرنا فقالا: أُمرنا بسيّدهم، ثمّ ذهبا، ثمّ جاء من القبلة و هم ثلاثة فألفوه و هو نائم، فقلبوه لظهره، و شقّوا بطنه، ثمّ جاؤا بماء من ماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من شكّ أو شركٍ أوجاهليّة أو ضلالة ثمّ جاؤا بطست من ذهب مُلِيء إيمانًا و حكمةً، ثمّ عرج به إلى السّماء الدّنيا فاستفتح جبريل فقالوا: من هذا؟ فقال: جبريل، فقالوا من معك فقال: محمّد، قالوا: و قد بُعث؟ قال؟ نعم قالوا: مرحبًا فدعوا له في دعائهم، فلمّا دخل فإذا هو برجل جسيم و سيم فقال: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا أبوك آدم ثمّ أتوا به إلى السّماء الثّانيّة فاستفتح جبريل فقيل له: مثل ذلك و قالوا: في السّموات كلّها كما قال. و قيل له: في السّماء الدّنيا. فلمّا دخل إذا برجلين فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: يحيى و عيسى ابنا الخالة ثمّ أتى به السّماء الثّالثة فلمّا دخل إذا هو برجل فقال، من هذه يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف فُضّل بالحُسن على النّاس، كما فضّل القمر ليلة البدر على الكواكب. ثمّ أتي به السّماء الرّابعة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا إدريس، ثمّ قرأ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[١] ثمّ أتى به السّماء الخامسة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا هارون ثمّ أتى به السّماء السّادسة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل؟ فقال: فقال: هذا موسى ثمّ أتى به السّماء السّابعة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل قال: هذا أبوك إبراهيم، ثمّ انطلق إلى الجنّة فإذا هو بنهر أشَدّ بياضًا من اللّبن، و أحلى من العسل بجنبتيه قباب الدّرّ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الكوثر الّذي أعطاك ربّك و هذه مساكنك قال و أخذ جبريل بيده من تربته فإذا هو مسك أذْفَر ثمّ خرج إلى سِدْرَة المُنْتهى و هي سِدرة نبق أعظمها أمثال الجرار و أصغرها أمثال البَيْض فَدَنَا ربّك عَزَّوجَلَّ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنىٰ﴾[٢] فجعل يتغشّى السِّدْرَةَ من دُنُوّ ربّها تبارك و تعالى أمثال الدُّرّ والياقوت والزَّبرجَد و اللُّؤلُؤ ألوان ﴿فَاَوْحىٰ اِلىٰ عَبْدِهِ﴾ و فهّمه و علّمه و فرض عليه

---

١ ـ مريم / ٥٧.
٢ ـ النّجم /٩.

خمسين صلاة، فمرّ على موسى فقال: ما فَرَض على أُمّتك فقال خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربّك فَسَله التّخفيف لأُمّتك فإنّ أُمّتك أضعف الأُمم، قوّة و أقلّها عمرًا و ذكر مالقي من بني إسرائيل، فرجع فوضع عنه عشرًا، ثمّ مرّ على موسى فقال: ارجع إلى ربّك فَسَله التّخفيف كذلك، حتّى جعلها خمسًا، قال ارجع إلى ربّك فَسَله التّخفيف فقال: لست براجع غير عاصيك، و قذف في قلبه أن لا يرجع فقال الله عَزَّوجَلَّ: لا يبدّل كلامي ولا يردّ قضائي و فرضي، و خفّف عن أُمّتي الصّلاة لعُشْرٍ. قال: أنس و ما وجدت ريحًا قطّ، ولا ريح عروس قطّ أطيب ريحًا من جِلد رسول الله ﷺ ألزقت جِلدي بجلده و شَمَمتُهُ. قال أبو جعفر: ثمّ اختلف السّلف فيمن اتّبع رسول الله ﷺ و آمن به وصدّقه على ما جاء به من عندالله من الحقّ بعد زوجته خديجة بنت خُوَيْلِد و صلّى معه فقال بعضهم: كان أوّل ذكر آمن برسول الله ﷺ و صلّى معه و صدّقه بما جاءه من عندالله عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

(۲: ٤٦ـ٥٥)

الفصل السّابع

نصّ القُمّيّ (م:٣٢٨) في «كتاب الأنبياء»

[بدء الوحى]

١ـ إنّ النّبيّ ﷺ لمّا أتى له سبع و ثلاثون سنة كان يرى في نومه كأنّ آتيًا أتاه فيقول: يا رسول الله، فينكر ذلك فلمّا طال عليه الأمر كان يومًا بين الجبال يرعى غنمًا لأبي طالب، فنظر إلى شخص يقول: يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتّخذك رسولاً، فأخبر النّبيّ ﷺ خديجة بذلك، فقالت: يا محمّد أرجو أن يكون كذلك، فنزل عليه جبرئيل و أنزل عليه ماءً من السّماء و علّمه الوضوء و الرّكوع و السّجود، فلمّا تمّ له أربعون سنة علّمه حدود الصّلاة، و لم ينزل عليه أوقاتها، فكان يصلّي ركعتين في كلّ وقت. **[و نقل أيضًا نحو تلك الرّواية بزيادة و هي:]**

٢ـ إنّ النّبيّ ﷺ لمّا أتى له سبع و ثلاثون سَنة، كان يرى في نومه كأنّ آتيًا أتاه فيقول: يارسول الله، و كان بين الجبال يرعى غنمًا، فنظر إلى شخص يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتّخذك رسولاً و كان رسول الله ﷺ يكتم ذلك فأنزل جبرئيل بماءٍ من السّماء، فقال: يا محمّد! فتوضّأ، فعلّمه جبرئيل الوضوء على الوجه واليدين من المرفق و مسح الرّأس و الرّجلين إلى الكعبين، و علّمه الرّكوع والسّجود فدخل عليّ عليه السلام إلى رسول الله ﷺ و هو يصلّي ـ هذا لَمّا تمّ له ﷺ أربعون سنة ـ فلمّا نظر إليه يصلّي قال: يا أباالقاسم ما هذا؟ قال: هذه الصّلاة الّتي أمرني الله بها، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، و صلّى معه، و أسلمت خديجة، فكان لا يصلّي إلاّ رسول الله ﷺ، و عليّ عليه السلام و خديجة عليها السلام خلفه، فلمّا أتى لذلك أيّام دخل أبوطالب إلى منزل رسول الله ﷺ ومعه جعفر، فنظر إلى رسول الله ﷺ و عليّ بجنبه يصّليان، فقال لجعفر: يا جعفر صلّ

جناح ابن عمّك، فوقف جعفر بن أبي طالب من الجانب الآخر، ثمّ خرج رسول الله ﷺ إلى بعض أسواق العرب فرأى زيدًا فاشتراه لخديجة و وجده غلامًا كيّسًا، فلمّا تزوّجها و هبته له، فلمّا نُبّيء رسول الله ﷺ أسلم زيد أيضًا، فكان يصلّي خلف رسول الله ﷺ عليّ وجعفر و زيد و خديجة.

٣ـ أبو مَيْسِرَة و بُرَيدة: إنّ النّبيّ عليه السلام كان إذا انطلق بارزًا سمع صوتاً: يا محمّد، فيأتي خديجة و يقول: يا خديجة قد خشيت أن يكون خالط عقلي شيئ، إنّي إذا خلوت أسمع صوتًا و أرى نورًا.

٤ـ محمّد بن كعب و عائشة: أوّل ما بديء به رسول الله من الوحي الرُّؤيا الصّادقة، وكان يرى الرّؤيا فتأتيه مثل فلق الصّبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حِراء، فسمع نداء يا محمّد، فغشي عليه، فلمّا كان اليوم الثّاني سمع مثله نداءً، فرجع إلى خديجة وقال: زمّلوني زمّلوني فوالله لقد خشيت على عقلي، فقالت: كلاّ و الله لا يخزيك الله أبدًا، إنّك لتصل الرّحم، و تحمل الكَلّ[١]، و تكسب المُعْدِم[٢]، و تَقْري الضّيف، و تُعين على نوائب الحقّ، فانطلقت خديجة حتّى أتت وَرَقَة بن نَوْفَل، فقال وَرَقة: هذا والله النّاموس[٣] الّذي أنزل على موسى و عيسى عليهما السلام و إنّي أرى في المنام ثلاث ليال أنّ الله أرسل في مكّة رسولاً اسمه محمّد و قد قرب وقته، و لست أرى في النّاس رجلاً أفضل منه، فخرج ﷺ إلى حِراء فرأى كرسيًّا من ياقوتة حَمراء، مِرْقاة من زَبَرْجَد، مِرْقاة من لؤلؤ، فلمّا رأى ذلك غشي عليه، فقال وَرَقَة: يا خديجة فإذا أتته الحالة فاكشفي عن رأسك، فإن خرج فهو ملك، و إن بقي فهو شيطان، فنزعت خمارها فخرج الجائي، فلمّا اختمرت عاد؛ فسأله وَرَقة عن صفة الجائي، فلمّا حكاه قام و قبّل رأسه و قال: ذلك النّاموس الأكبر الّذي نزل على موسى و عيسى عليهما السلام، ثمّ قال: أبشر فإنّك أنت النّبيّ الّذي بُشّربه موسى وعيسى عليهما السلام و إنّك نبيّ مرسل، ستؤمر بالجهاد، و توجّه نحوها، و أنشأ يقول:

فإن يك حقًّا يا خديجة فاعلمي حديثك إيّانا فأحمد مُرسَلُ

---

١ ـ الكلّ: من لا ولدله ولا والدٌ و من يكون عبئًا. ٢ ـ المُعْدِم: الفقير الّذي لا مال له.
٣ ـ النّاموس: الوحي، جبرئيل عليه السلام.

و جبريل يأتيه و ميكال معهما من الله وحي يشرح الصّدر مُنزَلُ
يفوز به من فاز عزًّا لدينه و يشقى به الغاوي الشّقيّ المُضلَّلُ
فريقان منهم: فرقة في جنانه و أُخرى بأغلال الجحيم تُغَلَّلُ

و من قصيدة له[1]

يا للرّجال لصرف الدّهر و القدر و ما لشيءٍ قضاء الله من غِيَرِ
حتّى خديجة تدعوني لأُخبرها ومالنا بخفيّ العلم من خَبَرِ
فخبّرتني بأمر قد سمعت به فيما مضى من قديم النّاس والعُصُرِ
بأنّ أحمد يأتيه فيخبره جبريل أنّك مبعوث إلى البَشَرِ

و من قصيدة له

فخبّرنا عن كلّ خير بعلمه وللحقّ أبواب لهنّ مفاتِحُ
و إنّ ابن عبدالله أحمد مرسلٌ إلى كلّ من ضمّت عليه الأباطِحُ
و ظنّي به أن سوف يبعث صادقًا كما أُرسل العبدان نوح و صالِحُ
و موسى و إبراهيم حتّى يرى له بهاءٌ و منشورٌ من الذّكر واضِحُ

٥ـ وروي أنّه نزل جبرئيل على جياد[2] أصفر و النّبيﷺ بين عليّعليه السلام و جعفر، فجلس جبرئيل عند رأسه، و ميكائيل عند رجله، و لم ينبّهاه إعظامًا له، فقال ميكائيل: إلى أيّهم بعثت؟ قال: إلى الأوسط، فلمّا انتبه أدّى إليه جبرئيل الرّسالة عن الله تعالى، فلمّا نهض النّبيّﷺ ليلحق بقومه فما مرّ بشجرة و لا مَدرَة إلاّ سلّمت عليه و هنّأته، ثمّ كان جبرئيل يأتيه ولايدنو منه إلاّ بعد أن يستأذن عليه. فأتاه يومًا و هو بأعلى مكّة فغمز بعقبه بناحية الوادي فانفجر عين فتوضّأ جبرئيل، و تطهّر الرّسول، ثمّ صلّى الظّهر و هي أوّل صلاة فرضها الله عَزَّوجَلَّ؛ و صلّى أميرالمؤمنينعليه السلام مع النّبيّﷺ، ورجع رسول اللهﷺ من يومه إلى خديجة فأخبرها، فتوضّأت و صلّت صلاة العصر من ذلك اليوم.

٦ـ وروي أنّ جبرئيل أخرج قطعة ديباج فيها خطّ فقال: اقرأ، قلت: كيف أقرأ ولست

---

١ ـ والقصيدة طويلة أخرجها الحاكم في المستدرك ٢: ٦٠٩، و فيه: يخفى الغيب.

٢ ـ كذا في النّسخ، و الصّحيح هو (أجياد)، و لعلّه مصحّف (جواد)، و الأصفر صفة له.

بقارىء؟ إلى ثلاث مرّات، فقال في المرّة الرّابعة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾، ثمّ أنزل الله تعالى جبرئيل و ميكائيل عليهما السلام و مع كلّ واحد منهما سبعون ألف ملك، وأتى بالكرسيّ ووضع تاجًا على رأس محمّد صلى الله عليه وآله و أعطى لواء الحمد بيده، فقال: اصْعَد عليه واحْمَدالله، فلمّا نزل عن الكرسيّ توجّه إلى خديجة، فكان كلّ شيء يسجدله ويقول بلسان فصيح: السّلام عليك يا نبيّ الله، فلمّا دخل الدّار صارت الدّار منوّرة، فقالت خديجة: و ما هذا النّور؟ قال هذا نورالنّبوّة، قولي: لاإله إلاّالله، محمّد رسول الله، فقالت: طال ماقد عرفت ذلك، ثمّ أسلمت، فقال: يا خديجة إنّي لأجد بردًا، فدثّرت عليه فنام فنودي:﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ...﴾ الآية، فقام و جعل إصبعه في أُذنه و قال: الله أكبر، الله أكبر، فكان كلّ موجود يسمعه يوافقه.

٧ـ وروي أنّه لمّا نزل قوله: ﴿وَاَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاَقْرَبِينَ﴾[١] صعد رسول الله ذات يوم الصّفا فقال: يا صباحاه[٢] فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟ قال: أرأيتكم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدّقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبولهب: تبًّا لك ألهذا دعوتنا؟! فنزلت سورة تبّت.

قَتادة: إنّه خطب ثمّ قال: «أيّها النّاس إن الرّائد لا يكذب أهله، و لو كنت كاذبًا لما كذبتكم، والله الّذي لاإله إلاّ هو، إنّي رسول الله إليكم حقًّا خاصّةً، و إلى النّاس عامّة و الله لتموتون كما تنامون، و لتبعثون كما تستيقظون، و لتحاسبون كما تعملون، و لتجزون بالإحسان إحسانًا، و بالسّوء سوءًا، و إنّها الجنّة أبدًا، و النّار أبدًا، و إنّكم أوّل من أنذرتم، ثمّ فترالوحي فجزع لذلك النّبيّ صلى الله عليه وآله جزعًا شديدًا، فقالت له خديجة: لقد قلاك[٣] ربّك، فنزل

---

١ ـ الشُّعراء ٢١٤.

٢ ـ قال الجَزَريّ في النّهاية ٢:٢٧١: لمّا نزلت: ﴿وَاَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاَقْرَبِينَ﴾ صعد على الصّفا و قال: يا صباحاه، هذه كلمة يقولها المستغيث، و أصلها إذا صاحواللغارة، لأنّهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصّباح، و يسمّون يوم الغارة يوم الصّباح، فكأنّ القائل: يا صباحاه يقول: قد غشينا العدوّ، و قيل: إنّ المتقاتلين كانوا إذا جاء اللّيل يرجعون عن القتال، فإذا عاد النّهار عاودوه، فكأنّه يريد بقوله: يا صبا حاه، قد جاء وقت الصّباح فتأهّبوا للقتال.

٣ ـ لم نظفر في غير ذلك الطّريق على أن يسند ذلك إلى خديجة عليها السلام، و المذكور في مجمع البيان و غيره في نزول الآية إسناد ذلك القول إلى المشركين، و في بعض الرّوايات إلى أُمّ جميل، امرأة أبي لهب، و المعلوم من حال خديجة أنّها

←

سورة الضُّحى، فقال لجبرئيل: ما يمنعك أن تزورنا في كلّ يوم؟ فنزل: ﴿وَ مَا نَتَنَزَّلُ اِلاَّ بِاَمْرِ رَبِّكَ ـ إلى قوله ـ نَسِيًّا﴾.[1]

(عنه مناقب آل أبي طالب ١: ٧١ـ٧٤. بحارالأنوار ١٨:١٨٤و ١٩٣ ـ١٩٨)

ونصّه أيضًا في «تفسيره»

٨ـ نزلت النّبوّة على رسول الله عليه السلام يوم الإثنين، و أسلم عليٌّ عليه السلام يوم الثّلثاء، ثمّ أسلمت خديجة بنت خويلد زوجة النّبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ دخل أبوطالب إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله و هو يصلّي وعليّ بجنبه و كان مع أبي طالب جعفر، فقال له أبوطالب: صلّ جناح ابن عمّك، فوقف جعفر على يسار رسول الله صلى الله عليه وآله، فبدر رسول الله صلى الله عليه وآله من بينهما فكان يصلّي رسول الله صلى الله عليه وآله و عليٌّ و جعفر و زيد بن حارثة و خديجة، إلى أن أنزل الله عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ...﴾.[2]

﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْيًا...﴾ الشّورى / ٥١ ـ ٥٢.

٩ـ قال [الإمام العسكريّ عليه السلام] وحي مشافهة و وحي إلهام، وهو الّذي يقع في القلب ﴿اَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ كما كلّم الله نبيّة صلى الله عليه وآله، و كما كلّم الله موسى عليه السلام من النّار ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِاِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: وحي مشافهة يعني إلى النّاس، ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿وَ كَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَ لاَالْاِيمَانُ﴾ قال: روح القُدُس، هي الّتي قال الصّادق عليه السلام في قوله: ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبّى﴾[3] قال: هو ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل، كان مع رسول الله، و هو مع الأئمّة. **(٢:٢٧٥)**

١٠ـ أبي، عن أحمد بن النّضر، عن عمر و بن شَمِر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال جبرئيل لرسول الله صلى الله عليه وآله في وصف إسرافيل: هذا حاجب الرّبّ و أقرب خلق الله منه، واللّوح بين عينيه من ياقوتة حَمراء، فإذا تكلّم الرّبّ تبارك و تعالى بالوحي ضرب اللّوح جبينه فنظر فيه، ثمّ ألقى إلينا فنسعى به في السّماوات و الأرض إنّه لأدنى خلق الرّحمان

ـ كانت من المصدّقين له صلى الله عليه وآله من أوّل يوم، و كانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه و عِشرتها إيّاه صلى الله عليه وآله، فالنّسبة غير خالية عن البعد و الغرابة فتأمّل.

١ ـ مريم /٦٤.

٢ ـ الحِجر / ٩٤.

٣ ـ الاسراء / ٨٥.

منه و بينه و بينه سبعون حجابًا من نور، يقطع دونها الأبصار ما لا يعدّ و لا يوصف، و إنّي لأقرب الخلق منه، و بيني و بينه مسيرة ألف عام.

١١ـ قال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [١] قال: اللّوح المحفوظ له طرفان: طرف على يمين العرش و طرف على جبهة إسرافيل، فإذا تكلّم الرّبّ جلّ ذكره بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل، فنظر في اللّوح فيوحي بما في اللّوح إلى جبرئيل عليه السلام. (٢: ٤١٤ـ ٤١٥)

١٢ـ في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [٢] و ذلك أنّ أهل السّماوات لم يسمعوا وحيًا فيما بين أن بعث عيسى بن مريم عليه السلام إلى أن بعث محمّد صلّى الله عليه و آله، فلمّا بعث الله جبرئيل إلى محمّد صلّى الله عليه و آله سمع أهل السّماوات صوت وحي القرآن كوَقْع الحديد على الصّفا، فصعق أهل السّماوات، فلمّا فرغ من الوحي انحدر جبرئيل، كلّما مرّ بأهل السّماء ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ﴾ يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعضهم. لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. (٢: ٢٠٢)

---

١ ـ البروج / ٢١ ـ ٢٢.

٢ ـ سبأ / ٢٣.

الفصل الثّامن

نصّ المسعوديّ (م:٣٤٦) في «مروج الذّهب»

ذكر مبعثه ﷺ

ثمّ بعث الله رسوله، و أكرمه بما اختصّه به من نبوّته بعد بنيان الكعبة بخمس سنين على ما قدّمنا آنفًا[١]، و هو ابن أربعين سنة كاملة، فأقام بمكّة ثلاث عشرة سنة، وأخفى أمره ثلاث سنين، و نكح خديجة بنت خُوَيْلِد وله خمس و عشرون سنة. و أُنزل عليه بمكّة من القرآن اثنتان و ثمانون سورة، و نزل تمام بعضهما بالمدينه، و أوّل ما نزل عليه من القرآن ﴿اِقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ وأتاه جبريل ﷺ في ليلة السّبت، ثمّ في ليلة الأحد، و خاطبه بالرّساله في يوم الإثنين، و ذلك بحِراء و هو أوّل موضع نزل فيه القرآن، و خاطبه بأوّل السّورة إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ ونزل تمامها بعد ذلك. و خوطب بفرض الصّلاة ركعتين، ثمّ أمر بإتمامها بعد ذلك، و أقرّت ركعتين في السّفر، و زيد في صلواةالحضر.

وكان مبعثه ﷺ على رأس عشرين من مُلك كَسرى أبرويز، و ذلك على رأس مائتي سنة من يوم التّحالف بالرَّبَذَة، و ذلك لستّة آلاف و مائة و ثلاث عشرة سنة من هبوط آدم عليه السلام...(٢:٢٧٥)

---

١ ـ انظر نفس الكتاب ٢: ٢٧٣.

الفصل التّاسع

نصّ الحاكم النّيسابوريّ (م: ٤٠٥) في «المستدرك على الصّحيحين»

أوّل سورة نزلت من القرآن

﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾

١ـ حدّثنا عبدالله بن محمّد بن عبدالله الصّفار الزّاهد، ثنا أحمد بن مهديّ بن رُستم الأصبهانيّ، أبو عامر العقديّ، ثنا قرّة بن خالد عن أبي رجاء العُطارديّ، عن أبي موسى الأشعريّ قال: تعلّمنا القرآن في هذا المسجد يعني مسجد البَصْرة و كنّا نجلس حَلَقًا حَلَقًا، و كأنّما أنظر إليه بين ثوبين أبيضين و عنه أخذت هذه السّورة: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ قال: و كانت أوّل سورة أُنزلت على محمّد ﷺ. هذا حديث صحيح على شرط الشّخين ولم يخرجاه.

٢ـ حدّثنا بإسناد صحيح على شرط مسلم، أخبرنا أبوبكر أحمد بن إسحاق الفقيه، أنبأ بُشربن موسى، ثنا الحميديّ، ثنا سُفيان، عن محمّد بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن عُروَة، عن عائشة ﵂ قالت: أوّل سورة نزلت: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

٣ـ حدّثنا عليّ بن عيسى، ثنا إبراهيم بن أبي طالب، ثنا ابن أبي عمر، ثنا سُفيان، عن الزُّهريّ، عن عُروة، عن عائشة ﵂ قال سُفيان: حفظه لنا ابن إسحاق، قالت: إنّ أوّل شيءٍ نزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾. (٢: ٢٠٢ـ ٢٢١)

٤ـ حدّثنا أبوالعبّاس محمّد بن يعقوب، ثنا أحمد بن سِنان الرّمليّ، ثنا سُفيان بن عُيَيْنة، عن الزُّهْريّ، عن عُروَة، عن عائشة قالت: أوّل سورة نزلت من القرآن: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ

رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ فإذا ابن عُيَيْنة لم يسمعه من الزُّهريّ.

حدّثنا أبوبكر بن إسحاق و عليّ بن حَمْشاد، قالا: ثنا بُشربن موسى، ثناالحُمَيديّ ثنا سُفيان عن محمّد بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن عُروَة، عن عائشة قالت: أوّل سورة نزلت من القرآن: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.

٥ـ حدّثنا أبو علي الحافظ، أنبأ عليّ بن سالم الحافظ، ثنا محمّد بن حمّاد، ثنا عبدالرّزاق، أنبأ مَعْمَر عن عمر و بن دينار، عن جابر رضي الله عنه: أنّ النّبيّ ﷺ كان بحِراء إذ أتاه الملك؟ بنمط من ديباح فيه مكتوب: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. (٢:٥٢٩)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة /١٢٨

٦ـ حدّثنا أبو العبّاس محمّد بن يعقوب، ثنا بَكّاربن قُتَيْبة القاضي، ثنا أبوعامر عبد الملك بن عمر و العقديّ، ثنا شُعْبة عن يونس بن عُبَيد، و عليّ بن زيد، عن يوسف بن مِهران، عن ابن عبّاس رضي الله عنه عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ حديث شُعبة عن يونس بن عُبيد، صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه. (٢:٣٣٨)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٧ـ حدّثنا أبو العبّاس محمّد بن يعقوب، ثنا بحربن نصر الخَوْلانيّ قال: قرئ عبدالله بن وَهْب أخبرك معاوية بن صالح، عن أبيالزّاهريّة، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جُبَيْر تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما أنّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، و ما وجدتم من حرام فحرّموه. هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين، و لم يخرجاه.

٨ـ حدّثنا أبوالعبّاس ثنا بحر بن نَصْر قال قريَ عليّ بن وَهْب، أخبرك حُيَيّ بن عبدالله المعافريّ، قال سمعت أبا عبدالرّحمان الحبلى حدّث عن عبدالله بن عمرو: أنّ آخر سورة نزلت: سورة المائدة. هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه. (٢:٣١١)

الفصل العاشر

نصّ الطُّوسيّ(م: ٤٦٠) في تفسير: «التّبيان»

أوّل ما نزل من القرآن

﴿يَاءَيُّهَاالْمدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ...﴾

١ـ قال أبو سَلَمَة بن عبدالرّحمان: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿يَاءَيُّهَاالْمدَّثِّرُ﴾ و حكى ذلك أبوسَلَمَة عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «جاوزت بحِراء فنوديتُ، فنظرت عن يميني، فلم أرَشيئًا، فنظرت عن شمالي، فلم أرشيئًا، فنظرت أمامي فلم أرَشيئًا...» [و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ، الرّقم ٣، ثمّ قال:] و قال الزُّهْريّ: أوّل مانزل قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾. (١٠:١٧١)

أوّل آية نزلت من القرآن:

﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ...﴾

٢ـ روي عن عائشة و مجاهد و ابن يَسار: «إنّ أوّل آية نزلت قوله: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ...﴾ و هو قول أكثر المفسّرين. و قال قوم: أوّل ما نزل قوله: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر...﴾.

(١٠:٣٧٨)

آخر آية نزل من القرآن:

﴿وَاتَّقوُا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ البقرة /۲۸۱.

۳ـ قال ابن عبّاس و عَطِيّة والسُّدّيّ: هذه الآية، آخر ما نزلت من القرآن، و قال جبريل: ضَعْها في رأس الثّمانين و المأتين من البقرة. (۲: ۳٦۹)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَهِ﴾ النّساء /١٧٦

٤ـ روى البَراء بن عازِب، قال: آخر سورة نزلت كاملة: براءة و آخر آية نزلت خاتمة سورة النّساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَهِ...﴾ وقال جابر عبد الله: نزلت في المدينه. و قال ابن سير بن: نزلت في مسير كان فيه رسول الله ﷺ و أصحابه.

﴿فَاِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ...﴾ التّوبة /١٢٩

قال أُبيّ بن كَعْب و سعيد بن جُبَيْر و الحسن و قَتادة: هذه آخر آية نزلت من القرآن، ولم ينزل بعدها شيءٌ (٥: ٣٣٠)

آخر سورة نزلت من القرآن:

«سورة المائدة»

قال عبدالله بن عمر: آخر سورة نزلت سورة المائدة، و هي مائة و عشرون آية كوفيّ، و اثنتان و عشرون في المدينتين، و ثلاثة و عشرون بَصْريّ. (٤١٣:٣)

«سورة البراءة»

قال مجاهد و قَتادة و عُثمان: هي آخر ما نزلت على النّبيّ ﷺ بالمدينة (٥: ١٩٥)

الفصل الحادي وعشر

نصّ الواحِديّ (م: ٤٨٦) في أسباب النّزول»

أوّل ما نزل من القرآن

«البَسْمَلة و سورة العلق»

١ـ أخبرنا أحمد بن محمّد بن إبراهيم المُقريّ قال: أخبرنا أبوالحسن عليّ بن محمّد الجُرجانيّ قال: حدّثنا نصر بن محمّد الحافظ قال: أخبرنا محمّد بن مَخْلَد أنّ محمّد بن إسحاق حدّثهم قال: حدّثنا يعقوب الدّورقي قال: حدّثنا أحمد بن نصر بن زياد قال: حدّثنا عليّ بن الحسين بن واقِد قال: حدّثني أبي قال: حدّثني يزيد النَّحويّ، عن عِكرِمة والحسن بمكّة، و أوّل سورة: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

القول في آية التّسميّة و بيان نزولها:

٢ـ أخبرنا أحمد بن محمّد بن إبراهيم المُقريّ قال: أخبرنا أبوالحسن عليّ بن محمّد الجُرجانيّ قال: أخبرنا أبوبكر محمّد بن عبدالرّحمان الجَوهَريّ قال: حدّثنا محمّد بن يحيى بن مَنْدَة قال: حدّثنا أبوكُرَيْب قال: حدّثنا عُثمان بن سعيد قال: حدّثنا بُشربن عَمَّار، عن أبي رِزْق، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبّاس أنّه قال: أوّل مانزل به جبريل على النّبيّ ﷺ قال: يا محمّد، استعذ، ثمّ قُلْ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

٣ـ أخبرنا أبو عبدالله بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن أحمد الخَلّال قال: أخبرنا أبو محمّد عبدالله بن زيد ان البَجَليّ قال: حدّثنا أبوكُرَيْب قال: حدّثنا سُفيان بن عُيَيْنَة عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس قال:«كان رسول الله ﷺ لا يعرف ختم

السّورة حتّى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

أخبرنا عبدالقاهر بن طاهر البَغْداديّ قال: أخبرنا محمّد بن جعفر بن مَطَر قال: أخبرنا إبراهيم بن عليّ الرّمليّ قال: حدّثنا يحيى بن يحيىٰ قال: أخبرنا، عمروبن الحَجّاج العبديّ عن عبدالله بن أبي حسين، ذكر عن عبدالله بن مسعود قال كنّا لا نعلم فصل ما بين السّورتين حتّى نزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

٤ـ أخبرنا سعيد بن محمّد بن أحمد بن جَعفر قال: أخبرنا جدّي قال: أخبرنا **أبوعمرو، أحمد بن محمّد الجرشيّ قال: حدّثنا محمّد بن يحيى قال: حدّثنا محمّد بن عيسى بن أبيفُدَيْك عن عبدالله بن نافع عن أبيه، ابن عمر قال نزلت: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾** في كلّ سورة.

(صدر آيات سورة العلق)

٥ـ أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم المُقري قال: أخبرنا عبدالله بن حامد الأصفهانيّ قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن الحسن الحافظ قال: حدّثني محمّد بن يحيى قال: حدّثنا عبدالرّزّاق، عن مَعْمَر عن ابن شِهاب الزُّهْريّ قال: أخبرني عُروَة، عن عائشة أنّها قالت: «أوّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّادقة... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ١، ثمّ قال:]**.

٦ـ أخبرنا الشّريف إسماعيل بن الحسن بن محمّد بن الحسين الطّبريّ قال: أخبرنا جدّي أبو حامد أحمد بن الحسن الحافظ قال: حدّثنا عبدالرّحمان بن بِشر، قال: حدّثنا سُفيان بن عُيَيْنة عن محمّد بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن عُروَة، عن عائشة، قالت: إنّ أوّل ما نزل من القرآن: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾. رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه عن أبي بكر الصَّيفيّ، عن بِشر بن موسى، عن الحُمَيديّ، عن سُفيان.

٧ـ أخبرنا الحسن بن محمّد الفارسيّ، قال: أخبرنا محمّد بن عبدالله بن الفضل التّاجر، قال: أخبرنا محمّد بن محمّد الحسن الحافظ، قال: حدّثنا محمّد بن يحيى، قال: حدّثنا أبو صالح قال: حدّثني اللّيث، قال: حدّثني عُقَيْل عن ابن شِهاب، قال: أخبرني محمّد بن عَبّاد، ابن جعفر المخزوميّ أنّه سمع بعض علمائهم يقول: كان أوّل ما أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَ رَبُّكَ الْاَكْرَمُ الَّذِى

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.[1] قالوا: هذا صدرها أُنزل على رسول الله ﷺ يوم حِراء، ثمّ أُنزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله.

٨ـ فأمّا الحديث الّذي روي: أنّ أوّل ما نزل سورة المدثّر فهو أخبرناه الأُستاذ أبوإسحاق الثّعالبيّ، قال حدّثنا عبدالله بن حامد قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب قال: حدّثنا أحمد بن عيسى بن زيد البينسيّ، قال: حدّثنا عمرو بن أبي سَلَمَة عن الأوزاعيّ قال: حدّثني يحيى بن أبي كثير... **[و ذكر كما تقدّم عن مسلم و الطّبريّ الرّقم ٧ و ٣، ثمّ قال:]**

وهذا ليس بمخالف لما ذكرناه أوّلاً، و ذلك أنّ جابرًا سمع من النّبيّ ﷺ القصّة الأخيرة و لم يسمع أوّلها، فتوهّم أنّ سورة المدّثّر أوّل ما نزل، و ليس كذلك، و لكنّها أوّل ما نزل عليه بعد سورة (اِقْرَأْ). والّذي يدلّ على هذا ما أخبرنا أبو عبدالرّحمان بن حامد، قال: حدّثنا محمّدبن عبدالله بن محمّدبن زكريّا، قال: أخبرنا محمّدبن عبدالرّحمان الدُّغُوليّ، قال: حدّثنا محمّدبن يحيى قال: أخبرنا عبدالرّزّاق، قال: حدّثنا مَعْمَر عن الزُّهريّ، قال: أخبرني أبو سَلَمَة بن عبدالرّحمان عن جابر... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ٣، ثمّ قال:]**

و بانَ بهذا الحديث أنّ الوحي كان قد فتر بعد نزول: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ثمّ نزول: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ و الّذي يوضّح ما قلنا إخبار النّبيّ ﷺ أنّ الملك الّذي جاء بحِراء جالس فدلّ على أنّ هذه القصّة إنّما كانت بعد نزول (اِقْرَأْ).

الفاتحة من أوائل مانزل من القرآن

اختلفوا فيها، فعندالأكثرين هي مكّية من أوائل ما نزل من القرآن.

٩ـ حدّثنا أبو عُثمان سعيد بن أحمد بن محمّد الزّاهد، قال: أخبرنا جدّي، قال: أخبرنا أبو عمرو الجَبْريّ، قال: حدّثنا إبراهيم بن الحارث و عليّ بن سَهل بن المُغيرة، قال: حدّثنا يحيى بن بُكَيْر، قال: حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن أبي مَيْسِرة أنّ رسول الله ﷺ كان إذا برز سمع مناديًا يناديه: يا محمّد! فإذا سمع الصّوت انطلق هاربًا، فقال له وَرَقَة بن نَوْفَل: إذا سمعت النّداء فأثبت حتّى تسمع ما يقول لك، قال: فلمّا برز سمع النّداء: يا محمّد!

---
١ ـ العلق / ١ـ٥.

فقال «لبّيك» قال: قُل أشهد أن لا إله إلاّ الله، و أشهد أنّ محمّدًا رسول الله، ثمّ قال: قل: ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ...﴾ حتّى فرغ من فاتحة الكتاب، و هذا قول عليّ بن أبي طالب.

١٠ـ أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمّد المفسّر، قال: أخبرنا الحسن بن جعفر المفسّر، قال: أخبرنا أبو الحسن بن محمّد بن محمود المَرْوَزيّ، قال: حدّثنا عبدالله بن محمود السّعديّ، قال: حدّثنا أبو يحيى القصريّ، قال حدّثنا مروان بن مُعاوية، عن الولاء بن المُسيّب، عن الفضل بن عمر، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «نزلت فاتحة الكتاب بمكّة من كنز تحت العرش».

و بهذا الإسناد عن السّعديّ، حدّثنا عمروبن صالح، قال: حدّثنا أبي عن الكَلْبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، قال: قام النّبيّ صلى الله عليه و آله بمكّة، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فقالت قُريش: رَضّ الله فاك.

و نحو هذا قاله الحسن و قَتادة، و عند مجاهد أنّ الفاتحة مدنيّة.

قال الحسين بن الفضل لكلّ عالِمٍ هفوةٍ، و هذه بادرة من مجاهد؛ لأنّه تفرد بهذا القول، و العلماء على خلافه.

و ممّا يقطع به على أنّها مكّيّة قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْاٰنَ الْعَظِيمَ﴾[1] يعني الفاتحة.

١١ـ أخبرنا محمّد بن عبدالرّحمان النّحويّ قال: أخبرنا محمّد بن أحمد بن عليّ الجَبريّ، قال: أخبرنا أحمد بن عليّ بن المثنّى، قال: حدّثنا يحيى بن أُذَين، قال: حدّثنا إسماعيل بن جعفر، قال: أخبرني العَلاء عن أبيه، عن أبي هُرَيْرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله، وقرأ عليه أُبيّ بن كعب أمّ القرآن، فقال: «والّذي نفسي بيده ما أُنزل الله في التّوراة ولا في الإنجيل ولا في الزّبور و لا في القرآن مثلها، **إنّها لهي السّبع المثاني و القرآن العظيم الّذي أُوتيته**».

وسورة الحِجْر مكّيّة بلاخلاف، و لم يكن الله ليمتنّ على رسوله بإيتائه فاتحه الكتاب و هو بمكّة، ثمّ ينزّلها بالمدينة و لا يسعنا القول بأنّ رسول الله صلى الله عليه و آله، قام بمكّة بضع

١ ـ الحِجْر / ٨٧.

عشرة سنة يصلّي بلافاتحة الكتاب، هذا ممّا لا تقبله العقول.

أوّل ما نزل و آخر مانزل بمكّة أو بالمدينة

١٢ـ أخبرنا أبو إسحاق بن محمّد المُقري، قال: أخبرنا أبوالحسن عليّ بن محمّد المُقري، قال: حدّثنا أبوالشّيخ، قال: وحدّثنا أحمد بن سُلَيْمَان بن أيّوب، قال: حدّثنا محمّد ابن عليّ بن الحسن بن سُفيان، قال: حدّثنا عليّ بن الحسين بن واقِد، قال: حدّثني أبي، قال: سمعت عليّ بن الحسين يقول: «أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ بمكّة: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و آخر سورة نزلت على رسول الله ﷺ بمكّة المؤمنون، و يقال: العنكبوت. و أوّل سورة نزلت بالمدينة: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ و آخر سورة نزلت في المدينة: (بَـرَاءَةٌ) و أوّل سورة علّمها رسول الله ﷺ بمكّة: (والنّجْمِ). و أشدُّ آية على أهل النّار: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ اِلاَّ عَذَابًا﴾[1] و أرجىٰ آية في القرآن لأهل التّوحيد ﴿اِنَّ اللهَ لاَيَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَادُونَ ذٰلِكَ﴾[2] الآية. و آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾[3] و عاش النّبيّ ﷺ بعدها تسع ليال».

آخر آية نزلت من القرآن

«آية الكلالة»النّساء /١٧٦

١٣ـ أخبرنا أبو إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ: قال: حدّثنا محمّد، قال: أخبرنا أبو عمرو بن مَطَر، قال: أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحُباب الجُمَحيّ، قال: حدّثنا أبوالوليد، قال: حدّثنا شُعبة، قال: حدّثنا أبو إسحاق، قال: سمعت البَراء بن عازِب يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ﴾[4] و آخر سورة أُنزلت: (بَرَاءَةٌ) رواه البُخاريّ في التّفسير عن سُلَيْمَان بن حَرْب، عن شُعبة، ورواه في موضع آخر عن أبي الوليد، ورواه مُسلم عن بُندار، عن غُنْدُر، عن شُعبة.

---

١ ـ النّبأ / ٣٠.
٢ ـ النّساء /٤٨.
٣ ـ البقرة /٢٨١.
٤ ـ النّساء / ١٧٦.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ البقره /٢٨١.

١٤ـ أخبرنا أبوبكر التّميميّ، قال: أخبرنا أبو محمّد الجيانيّ، قال: حدّثنا أبو يحيى الرّازيّ، قال: حدّثنا سَهل بن عُثمان، قال: حدّثنا ابن المبارك عن جُبَيْر، عن الضَّحّاك، عن ابن عبّاس، قال: آخر آية نزلت: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾**.

١٥ـ أخبرنا محمّد بن عبدالرّحمان النَّحويّ، قال: أخبرنا محمّد بن أحمد بن سنان المُقري، قال: أخبرنا أحمد بن عليّ الموصليّ، قال: حدّثنا أحمد بن الأحْمش، قال حدّثنا محمّد بن فُضَيلة، قال حدّثنا الكلبيّ عن أبي‌صالح، عن ابن‌عبّاس في قوله: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾، قال: ذكروا أنّ هذه الآية و آخر آية من‌سورة‌النّساء نزلت آخر القرآن.**

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة / ١٢٨.

١٦ـ أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الصُّوفيّ، قال: أخبرنا أبوبكر محمّد بن أحمد بن يعقوب، قال: حدّثنا الحسن بن عبدالله العَبْديّ، قال: حدّثنا مسلم بن إبراهيم، قال: حدّثنا شُعبة عن عليّ بن زيد، عن يوسف بن مِهران، عن ابن عبّاس، عن أُبيّ بن كعب أنّه قال: آخر آية أُنزلت على عهد رسول الله ﷺ: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾**، وقرأها إلى آخر السّورة. رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه عن الأصمّ، عن بَكّار بن قُتَيْبة، عن أبي عامر العقديّ عن شُعبة.

١٧ـ أخبرني أبو عمرو محمّد بن العزيز في كتابه: أنّ محمّد بن الحسين الحدّاديّ أخبرهم عن محمّد بن يزيد، قال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حدّثنا وَكيع عن شُعبة، عن عليّ بن يزيد، عن يونس بن ماهك، عن أُبيّ بن كعب، قال: أحدث القرآن بالله عهدًا **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾** الآية، و أوّل يوم أُنزل فيه يوم الاثنين.**(ص: ٥ـ١٢)**

الفصل الثّاني عشر

نصّ المَيْبُدِيّ (م: ٥٣٠) في تفسيره: «كشف الأسرار»[1]

أوّل آية و أوّل سورة نزلت من القرآن

﴿اَلْبَسْمَلَة، يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

حينما نادىٰ جبرئيل النّبيّ في غار حِراء: يا محمّد (اِقْرَاْ)، قال ﷺ: «ما أقرأ، و ما أنا بقارىءٍ، و أنا أُمّيّ»، فقال جبريل: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ...﴾، أي إقرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، هذا القول يُطابق رواية ابن عبّاس، إنّه قال: أوّل ما أوحى الله إلى النّبيّ ﷺ، آية البَسْمَلة.

و في رواية أُخرى: أوّل سورة أوحى الله إليه: ﴿يَاءَيُّهَاالْمدَّثِّر﴾.

و في رواية أُخرى أيضًا: أوّل سورة أوحى الله إليه: ﴿اِقرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾.

الجمع بين هذه الرّوايات: إنّ أوّل ما أوحي إلى النّبيّ ﷺ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ولذلك خاطب جبرئيل النّبيّ ﷺ ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ﴾ و أوّل سورة أوحى الله إليه ﴿يَاءَيُّهَاالْمدَّثِّر﴾.

فالبَسْمَلة أوّل آية نزلت من القرآن، و ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أوّل سورة منه، و نزلت بعدها آية فآية و قصّة فقصّة و سورة فسورة، و استمرّ النّزول في مدّة ثلاث و عشرين سنة، حتّى نزلت آخر آية: ﴿فَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾، و قيل: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السّورة. (١٠: ٥٥٤)

---

١ ـ قد ترجم بعض هذا النّصّ من الفارسيّة.

(سورة العلق)

قال المفسّرون: سورة العلق هي أوّل سورة نزلت من السّماء، و عن عائشة قالت: إنّ أوّل ما نزل من القرآن ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾.(١٠: ٥٤٩)

(سورة الفاتحة)

قالوا وجه التّسمية بفاتحة الكتاب؟ أنّها أوّل سورة نزلت من السّماء، و به قال أبو مَيْسِرة: أوّل ما أقرأ جبرئيل النّبيّ ﷺ بمكّة فاتحة الكتاب إلى خاتمتها. (١:٤)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقره /٢٨١.

قال المفسّرون: حينما نزلت هذه الآية، قال جبرئيل للنّبيّ ﷺ: ضَعوها على رأس ثمانين و مئتين من سورة البقرة، و عاش بعدها سبعة أيّام، و قال بعضهم: واحدًا وعشرين يومًا، و قال بعضهم: واحدًا و ثمانين يومًا، و قيل: ثلاث ساعات.

قال ابن عبّاس: آخر آية نزلت من السّماء هي: ﴿وَاتَّقُوا يَومًا تُرجَعُونَ...﴾[١]، و ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلالَهِ﴾[٢] و ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾[٣]، و ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾[٤] و اختلف المفسّرون في أيّ من هذه الآيات كانت الأخيرة؛ قال أُبيّ بن كعب: آخر آية هي: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾، و قال السُّدّيّ والضَّحّاك و جماعة: آخر آية هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾.(١: ٧٦٦)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم...﴾ نزلت هذه الآية في حجّة الوادع، قال رسول الله ﷺ: في

---

١ ـ البقرة /٢٨١.
٢ ـ النّساء /١٧٦.
٣ ـ التّوبة /١٢٨.
٤ ـ المائدة /٣.

خطبة حجّة الوداع: «ياءَيّهاالنّاس، إنّ سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً...».(٣:٣)

«سورة البراءة»

سئل أُبيّ بن كعب لماذا لا يكتبون «البَسْملة» في أوّل سورة البراءة قال: لأنّها نزلت في آخر القرآن، و كان رسول الله ﷺ يأمرني أوّل كلّ سورةٍ بـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ﴾، ولم يأمرني في سورة براءة، و لذلك ضمّت إلى سورة الأنفال لشبهها بها، يعني أمر العهود مذكور في الأنفال، و هذه نزلت بنقض العهود، و كانت ملتبسة بالأنفال بالشّبه، فضمّت إليها و كتبت في السّبع الطُّوال.(٤:٩٠)

الفصل الثّالث عشر

نصّ أبي الفتوح الرّازيّ (م :٥٣٥) في تفسيره: «روض الجَنان»[١]

[بدء الوحي و أوّل و آخر ما نزل]

أوّل آية نزلت من القرآن

﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذی خَلَقَ﴾

١ـ عن عائشة و عَطاء بن يَسار و مُجاهد: «إنّ أوّل آية نزلت من القرآن كانت هذه الآية» ـ إلى ـ ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

٢ـ روى الزُّهْريّ عن عُروَة، عن عائشة، أنّها قالت: أوّل مابدیء به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّادقة كانت تجيء مثل فلق الصّبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء، فكان بغار حِراء يتحنّث، فأتاه جبرئيل فقال له: يا محمّد! (اِقْرَاْ) قال: و ما أنا بقاریء، قال: فأخذني فغطّني، ثمّ رجع و قال: (اِقْرَأ) فقلت: و ما أنا بقاریء، فأخذني ثانيةً، ثمّ رجع فغطّني للمرّة الثّالثة، ثمّ قرأ: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ... ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. قال النّبيّ ﷺ: لقد بلغني الجَهد، وأصابتني الحُمّیٰ، و داهمني الرّوع، و ارتجفت و دخلت على خديجة و قلت لها زمّلوني ودثّروني، فألقت عليّ ثوبًا، فنمت فأتیٰ جبرئيل مرّةً أُخرى و قرأ: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ فقمت و ذهبت إلى خديجة، فأخبرتها بهذاالخبر و قلت لها: أشفقت على نفسي، فقالت: حاشاك من هذا، و دفع الله عنك البلاء، فإنّك تعين النّاس و تصل الرّحم، و تحمل الكَلّ، وتُقري الضّيف، و تُعين على نوائب الدّهر، ثمّ قالت: قم حتّى نذهب إلى ابن عمّي وَرَقَة بن نَوْفَل

---

١ ـ قد ترجمنا هذا النّص من الفارسية.

ونخبره بالخبر، فنرىٰ ماذا يقول؟ ثمّ قمنا و ذهبنا إليه، و كان قد قرأ كتب الأوائل و حينما سمع الخبر، قال: هنيئًا لك يا محمّد، أنت النّاموس الأعظم، و قد قرأنا في كتب الأوائل من التّوراة و الإنجيل، إنّك خاتم الرّسل، يختم الله بك النّبوّة، ياليتني كنت في يومك حتّى أنصرك، و كأنّي أرى قومك يخرجونك و يرهقونك، قلتُ: أوَ مُخرجيَّ هم؟ قال: نعم، و ما أرسل الله نبيًّا إلاّ عُودِيَ».

ثمّ قال رسول الله ﷺ: «حينما كنت وحيدًا في حِراء، جاءني جبرئيل فأخذني و غطّني، فذهبتُ إلى وَرَقَة و أخبرته مرّةً أُخرى. قال لي يا محمّد، إذا سمعت هذا النّداء لا تخف، و ابق مكانك و انظُر ماذا يقول لك، اسمع و تعلّم».

قال رسول الله ﷺ «ذهبت إلى حِراء، فجاء جبرئيل مرّةً أُخرى، قال يا محمّد، إنّك نبيٌّ حقًّا، اِقْرَأ قلت: و ما أنا بقارىء، قال: اِقْرَأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر السّورة، فتعلّمت و ذهبت إلى وَرَقَة و أخبرته. قال لي: أبشر فإنّك أنت النّبي الّذي بُشّربه موسى و عيسى عليهما السلام و لئن أدركني يومك لأُجاهدنّ معك، ثمّ التفت إلى خديجة و قال لها: فإن يك حقًّا يا خديجة...» [و ذكر كما تقدّم عن القمّي تفصيلاً الرّقم ٤].

(٥: ٥٥٥)

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة الفاتحة)

٣ـ جاء في حديث البعثة أنّ هذه السّورة أوّل ما نزلت من القرآن؛ روىٰ أبو مَيْسِرة عمر و بن شُرَحْبيل: كانت لرسول الله عادة، يذهب وحيدًا إلى حِراء، و كان يجلس ليتفكّر في آلاء الله و نعمائه، و كان جالسًا يومًا على عادته، فظلّل على الرّسول ﷺ فنظر ليرى ماهو؟ فرأى شيئًا فتح أجنحةً حتّى غطّى وجه كلّ السّماء و نادىٰ: السّلام عليك يا محمّد، اِقْرَأ، قال ﷺ: إنّي سمعتُ هذا الصّوت قبل ذلك مرّاتٍ عديدة، و ما رأيت شيئًا، و خفت أن يكون قدا ختلّ عقلي، قلت لخديجة: هكذا قد أصبحت حالي، قالت: لم يكن إلّا خيرًا، وذهبت يومًا إلى ابن عمّها وَرَقَة بن نَوْفَل و هو رجلٌ حكيم من أهل الكتاب، و كان قد قرأ

كتب الأوائل، فأخبرته بالخبر، فقال: يا خديجة قُولي لِمحمّدﷺ: لا تحزن من هذه الحالة، و إن سمعت هذا الصّوت و مرّةً أُخرى فقم على موضع، و انظُر ماذاترى، فقالت: خديجة لرسول الله ما قاله. و حينما رأى جبرئيل يومًا بصورته، قال فزعت أشدّ الفزع، ولكن تملّكت نفسي فقال جبرئيل؛ إقرَأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ إلى آخر السّورة و سمع الرّسول و تعلّم، ثمّ قام و رَجَعَ إلى البيت و عارضَتْه الحُمّىٰ، و كان يقول: زمّلوني و دثّروني»، فدثّرته خديجة بثوبٍ، و وضعت يدها على ظهره و كان يرتعد، و نامَ كنوم فَرْخ طائر، و انتبه من نومه و أعاد هذه القصّة مرّةً أُخرىٰ، وقال: «جاءني ذلك الشّخص بتلك الصّورة و قال لي: اِقْرَأْ قلت: ما أقرَأ؟ قال: إقرَأ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ * يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَاَنْذِرْ...﴾.

قامت خديجة و ذهبت إلى ابن عمّها وَرَقَة بن نَوفَل، فأخبرته الخبر و حينما سمع سَرّ، و قال ياخديجة: إن كان كما قلت فهذه علامة تدلّ على أنّ بعلك خاتم النّبيّين، فإنّاقرأنا نعته و وصفه في التّوراة و الإنجيل، ثمّ أنشأ هذه الأبيات: **[وذكر كماتقدّم عن القمّيّ الرّقم ٤، ثمّ قال:]**

فجاء وَرَقَة عند رسول الله، و قال بُشراك، فإنّ عيسى بَشَّر بك النّاس، و إنّك على مثل ما كان عليه، و إنّك نبيٌّ مُرسل، فإنّك تؤمر بالجهاد، و لئن أدركني يومك لأُجاهدنّ معك، فلمّا توفّى وَرَقَة، قال رسول اللهﷺ: «رأيته في الجنّة و عليه ثياب الحَرير»[1] (۱:۱٤)

٤ـ روي أنّ أوّل سورة نزلت من القرآن، سورة الفاتحة، ثمّ ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثمّ ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ **[ثمّ ذكر رواية جابربن عبدالله الأنصاريّ، كما تقدّم عن الطّوسيّ]**. (٥:٤٢٣)

---

۱ ـ لم نعثر على هذين الحديثين المذكورين في أيّ مصدر بهذا اللّفظ، و يبدو أنّ أبا الفتوح قد لفّق عدّة أحاديث من صحيحي مُسلم و البخاريّ و غير هما من محدّثي الجمهور، و جعلها حديثين اثنين، ونحن ترجمنا هما من الفارسيّة إلى العربيّة لفظًا بلفظٍ. و راجع الفصل (٤٣ و ٤٦). من هذا الباب، فقد نقلنا هناك نظرة تحليليّة حولها تين الرّوايتين عن الأُستاذين السُّبحانيّ و المرتضى العامليّ.

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ...﴾ البقرة /٢٨١.

٥ـ عن عبدالله بن عبّاس أنّه قال: هذه الآية آخر ما نزلت من القرآن. و في رواية أُخرى عن ابن عبّاس: آخر آية نزلت من القرآن آية الرّبا.

قال المفسّرون: حينما أنزل الله تعالى هذه الآية على النّبيّ ﷺ قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[١] «ليت شعري متى يكون ذلك». و حينما أنزل الله تعالى و سورة النّصر، كبّر ثمّ قال: «سبحان الله و بحمده أستغفرالله و أتوب إليه» قالُوا: يا رسول الله، لماذا فعلت ذلك؟ قال: «نعيت إلى نفسي» فحينئذٍ بكى! قالُوا: يا رسول الله، هل تخاف من الموت، و قد غفر الله تعالى لك على ما فعلت و ما تفعل؟ قال ﷺ: «أين هذا من هول المطلع، و ضيق اللّحد و ظُلْمته، و أهوال القيامة».

و عاش النّبيّ ﷺ سنة بعد هذه الآية و تلك السّورة، و بعد ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾[٢] إلى آخرها. فعاش بعدها ستّة أشهر، فلمّا ذهب إلى مكّة لحجّة الوداع نزلت عليه في الطّريق: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾[٣] و لمّا انصرف من مكّة إلى غدير خم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾[٤]، ثمّ نزل في ذلك المكان ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾[٥] و حينما انقضى اثنان و ثمانون يومًا، نزلت آية الرّبا. و بعد ذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ...﴾، و هي آخر ما نزلت من القرآن، فعاش بعهدها واحدًا و عشرين يومًا، و قال ابن جُرَيْج: تسعة أيّام، و قال مُقَاتِل: جاءه أمره تعالى بالرّحيل في الثّالث من ربيع الأوّل، يوم الاثنين وقت الزّوال سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة. (١:٤٨٩)

---

١ ـ الزّمر / ٣٠.

٢ ـ التّوبة /١٢٨.

٣ ـ النّساء /١٧٦.

٤ ـ المائدة /٦٧.

٥ ـ المائدة /٣.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة /١٢٨.

٦ـ قال يحيى بن جَعْدة: كان عمر بن الخطّاب لايثبت آية في المُصْحَف حتّى يشهد عليها رجلان، فجاءه رجلٌ من الأنصار بالآيتين من آخر سورة البراءة، فقال عمر: والله لا أسألك عليها بيّنة، كذلك كان النّبيّ ﷺ. فأثبتهما و قال: إنّهما آخر ما نزلتا من القرآن، وكانت كلّ هذه السّورة آخر ما نزلت من القرآن. قال قَتادة: آخر القرآن عهدًا بالسّماء الآيتان في خاتمةالبراءة.(٢:٦٥٦)

آخر سورة نزلت من القرآن

«سورة المائدة»

٧ـ جاء في الخبر أنّ رسول الله ﷺ، قرأ في خطبة حجّة الوداع: سورةالمائدة، ثمّ قال: «ياءَيُّهَا النَّاس! إنّ سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلّوا حلالها وحرّمُوا حرامها».

(٢:٨٦)

الفصل الرّابع عشر

نصّ الزَّمَخشريّ (م:٥٣٨) في «الكشّاف» والشّريف الجُرجانيّ (م٨١٦) في «حاشيته على الكشّاف»

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة إقرَأ)

قيل: [سورة المدثّر] هي أوّل سورة نزلت... و عن الزُّهْريّ: أوّل ما نزل سورة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. (٤:١٨٠)

فإن قلت: فقد قال ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ فقَدّم الفعل؟ قلتُ: هناك تقديم الفعل أوقع؛ لأنّها أوّل سورة نزلت، فكان الأمر بالقراءة أهمّ. (١:٣٠)

قال السَّيّد الشَّريف الجُرجانيّ:

قوله: (مكّيّة) ذكر المصنّف في سورة العلق أنّ أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل سورة نزلت، ثمّ القلم، فتكون مكّيّة، و أمّا أنّها نزلت مرّةً أُخرىٰ بالمدينة حين حُـوِّلت القبلة، كما نزلت بمكّة حين افترضت الصّلاة فهو قول البعض.

وقد يتوهّم أنّها مدنيّة فقط، و يردّه اتّفاق الأكثر على أنّها متقدّمة في النّزول على سورة القلم، و إن كان صدر القلم أوّل مُنزَل. (١:٢٣)

قوله: (لأنّها أوّل سورة نزلت) أي إلى قوله: ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ كما دلّت عليه الأحاديث الصّحيحة، و قرّره الأئمّة في مسألة تأخير البيان، و لا ينا في ذلك قول الأكثرين: إنّ أوّل سورة نزلت هي الفاتحة؛ لأنّ الخلاف في السّورة بتمامها.(١:٣٠)

(سورة الفاتحة)

عن ابن عبّاس و مُجاهد: [العلق] هي أوّل سورة نزلت، و أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل، ثمّ سورة القلم.(٤: ٢٧٠)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ البقرة /٢٨١.

عن ابن عبّاس: أنّها آخر آية نزل بها جبرئيل عليه السلام و قال: ضعها في رأس... [و ذكر كما تقدّم عن المَيْبُديّ].(١: ٤٠٢)

الفصل الخامس عشر

نصّ الطَّبرِسيّ (م: ٥٤٨) في «مجمع البيان»

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثّر)

١ـ قال الأوزاعيّ: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: سألت أبا سَلَمَة... [و ذكر كما تقدّم نحوه عن الطَّبريّ الرّقم ٣ ثمّ قال:]

٢ـ وفي رواية: فحَيِيتُ منه فَرِقًا حتّى هويت إلى الأرض؛ فجئت إلى أهلي فقلت: زمِّلُوني، فنزل ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي ليس بك ما تخافه من الشّيطان، إنّما أنت نبيّ فأنذر النّاس وادعهم إلى التّوحيد.

و في هذا ما فيه، لأنّ الله تعالى لا يوحي إلى رسوله إلاّ بالبراهين النّيّرة والآيات البيّنة الدّالّة على أنّ ما يوحىٰ إليه، إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيءٍ سواها و لا يَفْزَعُ و لا يَفْرَق... [ثمّ ذكر الأقوال في معنى المُدَّثِّر]. (٥:٣٨٤)

(سورة العلق)

وأكثر المفسّرون على أنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن، و أوّل يوم نزل جبرائيل على رسول الله ﷺ و هو قائمٌ على حِراء علّمه خمس آياتٍ من أوّل هذه السّورة.

وقيل: أوّل ما نزل من القرآن قوله: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ و قد مرّ ذكره.

٣ـ و قيل: أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ: (فَاتِحَةُ الكِتَاب)، رواه الحاكم أبوعبدالله الحافظ بإسناده عن أبي مَيْسِرة عمر و بن شُرَحْبيل: إنّ رسول الله ﷺ

قال لخديجة: «إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداءً» فقالت: ما يفعل الله بك إلاّ خيرًا، فو الله إنّك لتؤدّي الأمانة، و تصل الرّحم، و تصدّق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى وَرَقَة بن نَوْفَل بن أسد بن عبدالعُزّىٰ، و هو ابن عمّ خديجة، فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال له وَرَقَة: إذا أتاك فاثبت له حتّى تسمع ما يقول، ثمّ ائتني فأخبرني، فلمّا خلا ناداه: يا محمّد، قُل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتّى بلغ ﴿وَ لاَالضَّالِّينَ﴾، قُل: لا إله إلاّ الله، فأتى وَرَقَة، فذكر له ذلك، فقال له: أبشر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّك الّذي بَشّربه ابن مريم، و إنّك على مثل ناموس موسى و إنّك نبيٌّ مرسلٌ، و إنّك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، و لئن أدركني ذلك لأُجاهدنّ معك، فلمّا توفّي وَرَقَة بن نَوْفَل، قال رسول الله: «لقد رأيت القسّ في الجنّة عليه ثياب الحَرير؛ لأنّه آمن بي و صدّقني»، يعني وَرَقَة. ورُوي أنّ وَرَقَة قال في ذلك: فإنّ يك حقًّا يا خديجة... **[تقدّم هذا الحديث باختلاف عن القُمّيّ، الرّقم ٤]. (٥: ٥١٣ ـ ٥١٤)**

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١.

٤ـ هذا آخر آية نزلت من القرآن، و قال جبرائيل: ضعها في رأس الثّمانين و المئتين من البقرة، عن ابن عبّاس و السُّدّيّ قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿اِنَّكَ مَيِّتٌ وَ اِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾[1] قال رسول الله ﷺ «ليتني أعلم متى يكون ذلك»، فأنزل الله تعالى سورة النّصر ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْح...﴾ فكان رسول الله ﷺ يسكت بين التّكبير و القراءة بعد نزول هذه السّورة، فيقول: «سبحان الله و بحمده، استغفر الله و أتوب إليه» فقيل له: إنّك لم تكن تقوله قبل هذا، فقال: «أما أنّ نفسي نُعيت إليّ» ثمّ بكى بكاءً شديدًا فقيل: يا رسول‌الله أوتبكي من الموت و قد غفرالله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟ قال فأين هول المطلّع، وأين ضيق القبر و ظلمة اللّحد، و أين القيامة و الأهوال» فعاش رسول الله ﷺ بعد نزول

١ ـ الزّمر /٣.

هذه السّورة عامًا تامًّا، ثمّ نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ...﴾ [١] إلى آخر السّورة، و هذه السّورة آخر سورة كاملة نزلت من القرآن، فعاش رسول الله صلّى الله عليه و آله بعدها ستّة أشهر. ثمّ لمّا خرج رسول الله إلى حجّة الوداع نزلت عليه في الطّريق: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾ [٢] إلى آخرها، فسمّيت آية الصّيف، ثمّ نزل عليه و هو واقف بعرفة ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [٣] الآية، فعاش بعدها أحدًا و ثمانين يومًا ثمّ نزلت عليه آيات الرّبا، ثمّ نزلت بعدها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ [٤] و هي آخر آية نزلت من السّماء، فعاش رسول الله صلّى الله عليه و آله بعدها أحدًا و عشرون يومًا. و قال ابن جُرَيْج: تسع ليال، و قال سعيد بن جُبَير و مُقاتل: سبع ليال. ثمّ مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأوّل حين بزغت الشّمس وروى أصحابنا: لليلتين بقيتا من صفر، سنة إحدى عشرة من الهجرة، ولسَنَةٍ **واحدة من ملك «اردشير بن شيرُوية أبرويز بن هُرمُز بن أنوشِروان» بنفسي هو صلّى الله عليه و آله حيًّا وميّتًا.**

(١: ٣٩٤)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٥ـ عن عليّ عليه السّلام قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضًا، و إنّما يؤخذ من أمر رسول الله صلّى الله عليه و آله بأخذه، **و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، نسخت ما قبلها و لم ينسخها شيء. (٢: ١٥٠)**

(سورة البراءة)

و هي مدنيّةٌ كلّها، و قال بعضهم: غير آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ نزلت سنة تسع من الهجرة، و فتحت مكّة سنة ثمان، و حجّ رسول الله صلّى الله عليه و آله حجّة الوداع سنة عشر، و قال قَتادة و مجاهد: و هي آخر ما نزلت على النّبيّ صلّى الله عليه و آله بالمدينة. **(٣: ١)**

١ ـ التّوبة / ١٢٨ـ١٢٩.
٢ ـ النّساء / ١٢٧.
٣ ـ المائدة / ٣.
٤ ـ البقرة / ٢٨١.

الفصل السّادس عشر

نصّ ابن شهر اشوب (م: ٥٨٨) في «مناقب آل أبي طالب»

في مبعث النّبيّ صلّى الله عليه وآله

أرسله الله تعالى بعد أربعين سنة من عمره حين تكامل بها واشتدّت قواه، ليكون متهيّئًا و متأهّبًا لما أُنذربه. و لبعثته درجات:

أوّلها ـ الرّؤيا الصّادقة

والثّانية ـ ما رواه الشّعبيّ و داود بن عامر: أنّ الله تعالى قرن جبرئيل بنبوّة نبيّه ثلاث سنين، يسمع حسّه و لا يرى شخصه، و يعلّمه الشّيء و لا ينزل عليه القرآن، فكان في هذا المدّة مبشّرًا غير مبعوث إلى الأُمّة.

و **الثّالثة** ـ حديث خديجة وَرَقَة بن نَوفَل.

الرّابعة ـ أمره بتحديث النّعم فأذن له في ذكره دون إنذاره، قوله: ﴿وَ اَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [1] أي بما جاءك من النّبوّة.

و **الخامسة** ـ حين نزل عليه القرآن بالأمر و النّهي، فصار به مبعوثًا و لم يؤمر بالجهر، ونزل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فأسلم عليّ و خديجة، ثمّ زيد، ثمّ جعفر.

و **السّادسة** ـ أمر بأن يعمّ بالإنذار بعد خصوصه ويجهر بذلك، ونزل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [2] قال ابن إسحاق: و ذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه و نزل: ﴿وَاَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاَقْرَبِينَ﴾ [3] فنادى: «يا صباحاه».

و **السّابعة** ـ العبادات لم يشرع منها مدّة مقامه بمكّة إلاّ الطّهارة و الصّلاة، و كانت

---

١ ـ الضّحى /١١.
٢ ـ الحِجر /٩٤.
٣ ـ الشُعراء /٢١٤.

فرضًا عليه و سنّة لأُمّته، ثمّ فرضت الصّلوات الخمس بعد إسرائه و ذلك في السّنة التّاسعة من نبوّته، فلمّا تحوّل إلى المدينة فرض صيام شهر رمضان في السّنة الثّانية من الهجرة في شعبان، و حوّلت القلبة و فرض زكاة الفطر و فرضت[١] فيها صلاة العيد، و كان فرض الجمعة في أوّل الهجرة بدلاً من صلاة الظّهر، ثمّ فرضت زكاة الأموال، ثمّ الحجّ و العمرة والتّحليل و التّحريم و الحظر و الإباجة و الاستحبا و الكراهة، ثمّ فرض الجهاد ثمّ ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام و نزل ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٢]. (٦٩:١)

فيما لاقىٰ من الكفّار في رسالته

الفائق: أنّه لمّا اعترض أبو لهب على رسول الله صلى الله عليه وآله عند إظهار الدّعوة قال أبوطالب: يا أعور ما أنت و هذا؟ قال الأخْفَش: الأعور الّذي خيب و قيل، يارديّ و منه الكلمة العَوْراء و قال: ابن الأعرابيّ: الّذي ليس له أخ من أبيه و أُمّه؟.

ابن عبّاس: أنّ الوليد بن المُغيرة أتى قريشًا، فقال: إنّ النّاس يجتمعون غدًا بالموسم، و قد فشا أمر هذا الرّجل في النّاس، وهم يسألونكم عنه فما تقولون؟ فقال أبو جهل: أقول إنّه مجنون، و قال أبو لهب: أقول إنّه شاعر، و قال عُقْبَة بن أبي مُعيط: أقول إنّه كاهن، فقال الوليد: بل أقول هو ساحر يفرّق الرّجل و المرأة و بين الرّجل و أخيه و أبيه، فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَ الْقَلَمِ...﴾ الآية[٣] و قوله: ﴿وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ الآية.[٤]

وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله: يقرأ القرآن فقال أبو سفيان والوليد و عُتبة و شَيْبَة للنّضر بن الحارث: ما يقول محمّد؟ فقال: أساطير الأوّلين، مثل ما كنت أُحدّثكم عن القرون الماضية فنزل: ﴿وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ اَكِنَّةً﴾ الآية.[٥]

الكَلبيّ: قال النّضر بن الحارث و عبد الله بن أُميّة: يا محمّد لن نؤمن بك حتّى تأتينا بكتاب من عندالله و معه أربعة أملاك يشهدون عليه أنّه من عند الله و أنّك رسوله؟ فنزل: ﴿وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ الآية[٦] و قال قريش مكّة أو يهود المدينة: إنّ هذه

١ ـ و في بعض النّسخ: و شرّع مكان فرضت.
٢ ـ المائدة /٣.
٣ ـ ن و القلم /١.
٤ ـ الحاقّة /٤١.
٥ ـ الأنعام /٢٥.
٦ ـ الأنعام /٧.

الأرض ليست بأرض الأنبياء و إنّما أرض الأنبياء الشّام فائت الشّام، فنزل: ﴿وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْاَرْضِ﴾ الآية.[1]

وقال أهل مكّة: تركت ملّة قومك، و قد علمنا أنّه لا يحملك على ذلك إلاّ الفقر، فإنّا نجمع لك من أموالنا حتّى تكون من أغنانا فنزل:﴿قُلْ اَغَيْرَ اللهِ اَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[2] و كان المشركون إذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم على محمّد؟ قالوا: ﴿اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ﴾[3] فنزل: ﴿وَ اِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا اَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾[4] الآية.

ابن عبّاس: قالت قريش: إنّ القرآن ليس من عند الله، و إنّما يعلّمه بَلْعام و كان قينًا بمكّة روميًّا نصرانيًّا، و قال الضَّحّاك: أرادوا به سَلْمان، و قال مجاهد: عبد النّبيّ الحَضرَميّ يقال له يَعيش فنزل: ﴿وَ لَقَدْ نَعْلَمُ اَنَّهُمْ يَقُولُونَ اِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[5] و قوله: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا اِنْ هٰذَا اِلاَّ اِفْكٌ افْتَرٰهُ﴾[6] واختلقه من تلقاء نفسه و أعانه عليه قوم آخرون يعنون عَدّاسًا مولى حُوَيْطب، و يسار غلام العَلاء بن الحَضْرَميّ، و حَميرًا مولى عامر، و كانوا أهل الكتاب، فكذّبهم الله تعالى فقال: ﴿فَقَدْ جَاؤُا ظُلْماً وَ زُوراً﴾ الآية[7]. (۱: ۷۸ ـ ۷۹)

---

۱ ـ الإسراء /۷٦.
۲ ـ الأنعام /۱٤.
۳ ـ الفرقان /۵.
٤ ـ النّحل /۲٤.
۵ ـ النّحل /۱۰۳.
٦ ـ الفرقان /٤.
۷ ـ الفرقان /٤.

الفصل السّابع عشر

نصّ ابن الجَوْزيّ (م: ٥٩٧) في تفسيره: «زاد المسير»

أوّل ما نزل من القرآن

«خمس آيات من سورة العلق»

و هي مكيّة بإجماعهم. و هي أوّل مانزل من القرآن، و قيل: إنّها نزلت عليه في أوّل الوحي خمس آيات منها، ثمّ نزل باقيها في أبي جهل. (١٧٥:٩)

واختلفوا في أوّل ما نزل من القرآن، فأثبت المنقول أنّ أوّل ما نزل: ﴿اِقْرَاْ بَاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي...﴾ رواه عُروَة عن عائشة، و به قال قَتادة و أبو صالح.

١ـ ورُوِي عن جابربن عبدالله أنّ أوّل ما نزل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾.

والصّحيح: أنّه لمّا نزل عليه: ﴿اِقْرَاْ بِـاسْمِ رَبِّكَ...﴾ رجـع فـتدثّر، فـنزل: ﴿يَـاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ يدلّ عليه ما أخرج في الصّحيحين من حديث جابر، قال: سمعت النّـبيّ ﷺ وهو يحدّث... **[وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ، ثمّ قال:]**.

٢ـ ورُوي عن الحسن و عِكرِمة أنّ أوّل ما نزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (٥:١)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١.

٣ـ قال ابن عبّاس و أبو سعيد الخُدريّ و سعيد بن جُبَيْر و عَطيّة و مُقاتِل و آخرين:

هذه آخر آية نزلت من القرآن.[١]

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة التّوبة)

٤ـ هي مدنيّة بإجماعهم، سوى الآيتين اللّتين في آخرها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ فإنّهما نزلتا بمكّة؛ روى البخاريّ في صحيحه» من حديث البَراء، قال: آخر سورة نزلت: «بَرَاءَةٌ».[٢]

و قد نُقِل عن بعض العرب: أنّه سمع قارئًا يقرأ هذه السّورة، فقال الأعرابيّ: إنّي لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن، قيل له: و من أين علمت؟ فقال: إنّي لأسمع عهودًا تُنْبَذُ و وصايا تُنْفَذ.[٣] **(٣:٣٨٨)**

(سورة النّصر)

و هي مدنيّة بإجماعهم، و في أفراد مُسلم من حديث ابن عبّاس: أنّها آخر سورة نزلت جميعًا.

٥ـ قال ابن عبّاس: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحِ...﴾ داعٍ من الله و وداعٍ من الدّنيا قال قَتَادة: و عاش بعد نزول هذه السّورة سنتين. **(٩: ٢٥٥ و ٢٥٧)**

---

١ ـ رواه الطّبريّ و النّسائيّ في «السُّنن الكُبرى»، و ذكره الهيثميّ في «مَجمع الزّوائد» و قال: رواه الطّبرانيّ بإسنادين، رجال أحدهما ثقاة و ظاهر هذه الرّواية يعارض ما ثبت عن ابن عبّاس من أنّ آخر آية نزلت هي آية الرّبا. فقد روى البُخاريّ في «صحيحه» عن ابن عبّاس قال: آخر آية نزلت على النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم آية الرّبا. و طريق الجمع بين الرّوايتين كما قال الحافظ ابن حَجَر: إنّ هذه الآية (يريد آية الرّبا) ختام الآيات المنزلة في الرّبا؛ إذهي معطوفة عليهنّ.

٢ ـ صحيح البخاريّ ٨:٢٢٧.

٣ ـ كذا في الأصل، و الظّاهر: لاتُنْفَذ.

الفصل الثّامن عشر

نصّ الفخر الرّازيّ (م: ٦٠٦) في «تفسير الكبير»

أوّل ما نزل من القرآن

﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾

زعم المفسّرون أنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن، وقال آخرون: الفاتحة أوّل ما نزل، ثمّ سورة القلم.

قال تعالى: ﴿كَلاَّ اِنَّ الاِنْسَانَ لَيَطْغیٰ...﴾ [1] و فيه مسائل: المسألة الأُولى أكثر المفسّرين على أنّ المراد من الإنسان هاهنا إنسان واحد، و هو أبوجهل **[إلى أن قال:]**.

القائلون بهذا القول منهم من زعم أنّه ليست هذه السّورة من أوائل مانزل. ومنهم من قال: يحتمل أن يكون خمس آيات من أوّل السّورة نزلت أوّلاً، ثمّ نزلت البقيّة بعد ذلك في شأن أبي جَهل، ثمّ أمر النّبيّ ﷺ بضمّ ذلك إلى أوّل السّورة؛ لأنّ تأليف الآيات إنّما كان بأمر الله تعالى، ألاترى أنّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ [2]، آخر ما نزل عند المفسّرين؟ ثمّ هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل. **(٣٢: ١٣ و ١٧)**

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١.

قال ابن عبّاس: هذه الآية آخر آية نزلت على الرّسول ﷺ، ذلك لأنّه ﷺ لمّا حجّ، نزلت:

---

١ ـ العلق /٦.

٢ ـ البقرة /٢٨١.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ...﴾[1] و هي آية الكلالة، ثمّ نزل و هو واقف بعرفة: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾[2] ثمّ نزل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ...﴾ فقال جبرئيل عليه السلام يا محمّد!... [وذكر كما تقدّم عن المَيْبُديّ] (٧:١١١-١١٢)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ الآيتين

قال الحسن: هاتان الآيتان آخر ما أنزل الله من القرآن، و ما أنزل بعدهما قرآن.

وقال أُبيّ بن كعب: أحدث القرآن عهدًا بالله عَزَّوجَلَّ هاتان الآيتان، و هو قول سعيد بن جُبَيْر. و منهم من يقول آخرما أُنزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ (١٦:٢٣٨)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة البراءة)

روي عن ابن عبّاس قال لعُثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة براءة و هي من المئين... [و ذكر كما تقدّم عن الطّبري الرّقم ٢٩]. (١٥:٢١٥)

(سورة النّصر)

إذا حملنا الفتح على فتح مكّة، فللنّاس في وقت نزول هذه السّورة قولان:

أحدهما ـ أنّ فتح مكّة كان سنة ثمان، و نزلت هذه السّورة سنه عشر. وروي أنّه عاش بعد نزول هذه السّورة سبعين يومًا، و لذلك سمّيت سورة التّوديع.

ثانيهما ـ أنّ هذه السّورة نزلت قبل فتح مكّة، وهو وعد لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ينصره على أهل مكّة، و أن يفتحها عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿اِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرانَ لَرَادُّكَ اِلىٰ مَعَادٍ﴾[3]

---

١ ـ النّساء / ١٧٦. ٢ ـ المائدة /٣.

٣ ـ القصص /٨٥.

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[١] يقتضي الاستقبال؛ إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء، وإذا وقع، و إذا صحّ هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات، من حيث إنّه خبرٌ وجد مخبره بعد حين مطابقًا له، و الإخبار عن الغيب معجز. **(٣٢:١٥٥)**

ذكرنا أنّ الأصحّ هو أنّ السّورة نزلت قبل فتح مكّة. و أمّا الّذين قالوا: إنّها نزلت بعد فتح مكّة، فذكر الماوَرْديّ أنّه ﷺ لم يلبث بعد نزول هذه السّورة إلاّ ستّين يومًا مستديمًا للتّسبيح والاستغفار و قال مُقاتل: عاش بعدها حولاً و نزل: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ﴾، فعاش بعده ثمانين يومًا، ثمّ نزل آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا. ثمّ نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾، فعاش بعدها خمسة و ثلاثين يومًا، ثمّ نزل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾، فعاش بعدها أحد عشر يومًا، و في رواية أُخرى عاش بعدها سبعة أيّام، و الله أعلم كيف كان ذلك. **(٣٢: ١٦٤)**

---

١ ـ النّصر /١.

الفصل التّاسع عشر

نصّ الخازن (م: ٧٢٥) في تفسيره: «لُباب التّأويل»

أوّل ما نزل من القرآن

(اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...)

عن يحيى بن كثير قال: سألت أبا سَلَمَة بن عبدالرّحمان عن أوّل ما نزل من القرآن، قال: (يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) قلت: يقولون(اِقْرَاْ)... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبريّ و الطّوسيّ، ثمّ قال:]**

فإنّ قلت: دلّ هذا الحديث على أنّ سورة المُدّثّر أوّل ما نزل من القرآن، و يعارضه حديث عائشة رضي‌الله‌عنها المخرج في الصّحيحين أيضًا في بدء الوحي، **[كما تقدّم عنه]** و فيه «فغطّني الثّالثة حتّى بلغ منّي الجَهد، ثمّ أرسلني فقال: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ ـ حتّى بلغ ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع الرّسول ﷺ برجف فؤاده، الحديث.

قلت: الصّواب الّذي عليه جمهور العلماء، أنّ أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ كما صرّح به في حديث عائشة. وقول من قال: إنّ سورة المدثّر أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق ضعيف لا يعتدّ به، و إنّما كان نزولها بعد فَترة الوحي، كما صرّح به في رواية الزُّهْريّ عن أبي سَلَمَة عن جابر، و يدلُّ عليه أيضًا قوله في الحديث و هو يحدّث عن فَترة الوحي ـ إلى أن قال ـ و أنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾، و يدلُّ عليه أيضًا قوله: «فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء ثمّ قال: و أنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾: و أيضًا قوله: ثمّ حمي الوحي بعد و تتابع.

فالصّواب: أنّ أوّل ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ سورة(اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ). و أنّ أوّل ما نزل بعد فتره الوحي سورة (المدثّر)، و حصل بهذا الّذي بيّنّاه الجمع بين الحديثين، و الله أعلم. **(٧:١٤٣ـ١٤٤)**

(سورة العلق)

قال أكثر المفسّرون: هذا السّورة أوّل سورة نزلت من القرآن، و أوّل ما نزل خمس آيات من أوّلها إلى ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾

عن عائشة قالت: أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٩ و أبي الفتوح الرّقم ٢، ثمّ قال:]**.

في هذا الحديث دليل صحيح صريح على أنّ سورة (اِقْرَأْ) أوّل مانزل من القرآن، وفيه ردّ على من قال: إنّ المدّثّر أوّل ما نزل من القرآن، و قد تقدّم الكلام على ذلك.

والجمع بين القولين في أوّل سورة المدّثّر، و هذا الحديث من مراسيل الصّحابة؛ لأنّ عائشة لم تدرك هذه القصّة، فيحتمل أنّها سمِعَتْها من النّبيّ ﷺ أو من غيره من الصّحابة، ومرسل الصّحابيّ حجّة عند جميع العُلَماء، إلاّ ما انفرد به الأُستاذ أبو إسحاق الإسفراينيّ...(٧:٢٢٢)

آخر آيه نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

قال ابن عبّاس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال جبرئيل: ضعها... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن الطَّبِرسيّ الرّقم ٤]. (١:٢٥٥ـ٢٥٦)**

آخر سورة نزلت من القرآن:

(سورة البراءة)

عن البَراء بن عازِب رضي الله عنه قال: إنّ آخر سورة نزلت تامّة سورة التّوبة، و إنّ آخر آية نزلت آية الكلالة.

و في رواية مُسلم قال ﷺ: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ﴾ و رُوي عن ابن عبّاس: أنّ آخر آية نزلت آيه الرّبا، و آخر سورة نزلت: ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ...﴾ ورُوي عنه أنّ

آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾.

ورُوي أنّ النّبيّ ﷺ عاش بعد نزول سورة النّصر سنةً، و نزلت بعدها سورة بَرَاءَة وهي آخر سورة نزلت كاملة، فعاش بعدها ستّة أشهر، هكذا ذكره البَغَويّ.

و فيه نظر؛ لأنّه قد ثبت في الصّحيحين من حديث أبي بكر، رضي الله عنه فإنّ النّبيّ ﷺ بعثه في الحَجّة الّتي عليها قبل حجّة الوداع في رهطٍ يؤذّن النّاس يوم النّحر ألا؛ لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ثمّ أردف النّبيّ ﷺ بعليّ بن أبي طالب فأمره أن يؤذّن ببراءة.

قال أبو هُريرة: فأذّن معنا في أهل منى ببراءة، ألا لا يحجّ بعد العام مشرك و لا يطوف بالبيت عريان، و كانت حجّة أبي بكر هذه سنة تسع قبل حجّة الوداع بسنة.

قال البَغَويّ: ثمّ نزلت في طريق حجّة الوداع: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ‌الله...﴾، فسمّيت آية الصّيف، ثمّ نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى‌الله﴾ ،عاش النّبيّ ﷺ بعدها أحدًا و عشرين يومًا. **(٥٢٥:١)**

الفصل العشرون

نصّ القُرطُبيّ (م: ٦٧١) في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»

أوّل ما نزل من القرآن

(سورة الفاتحة)

اختلفوا أهي مكيّة أم مدنيّه؟ فقال ابن عبّاس و قَتادة و أبو العالية الرّياحيّ ـ و اسمه رُفَيع ـ و غيرهم: هي مكيّة، و قال أبو هُرْيرة و مجاهد و عَطاء بن يَسار و الزُّهْريّ وغيرهم: هي مدنيّة. و يقال: نزل نصفها بمكّة و نصفها بالمدينة، حكاه أبواللَّيث نَصر بن محمّد بن إبراهيم السَّمرقنديّ في تفسيره.

والأوّل أصحّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى﴾[1] والْحِجر مكيّة بإجماع، ولاخلاف أنّ فرض الصّلاة كان بمكّة، و ما حفظ أنّه كان في الإسلام قـطّ صـلاة بـغير ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدلّ على هذا قولهﷺ: « لاصلاة إلاّ بفاتحة الكتاب» و هذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء، و الله أعلم.

وقد ذكر القاضي ابن الطيّب اختلاف النّاس في أوّل ما نزل من القرآن؛ فقيل: المدّثّر، وقيل: اِقْرَأْ و قـيل: الفـاتحة. و ذكـر البَـيْهقيّ فـي «دلائـل النّـبوّة» عـن أبـي مَـيْسِرة عمر وبن شُرَحْبِيل... [و ذكر كما تقدّم عن الطَّبرِسيّ، ثمّ قال:]

قال البَيْهَقيّ: ﷺ هذا منقطع، يعني هذا الحديث، فإن كان محفوظًا، فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد مانزل عليه: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾.(١:١١٥)

---

١ ـ الحِجر / ٨٧.

(سورة العلق)

هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن في قول معظم المفسّرين، نزل بها جبريل على النّبيّ ﷺ و هو قائم على حِراء، فعلّمه خمس آيات من هذه السّورة و قيل: إنّ أوّل مانزل ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قاله جابر بن عبدالله.

وقيل: فاتحة الكتاب أوّل ما نزل، قاله أبو مَيْسِرة الهَمْدانيّ.

وقال عليّ بن أبي طالب ؑ: ﴿قُل تَعَالَوا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1].

والصّحيح الأوّل؛ قالت عائشة: أوّل ما بُدِيء به رسول‌الله ﷺ الرُّؤيا الصّادقة، فجاء الملك، فقال: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾ خرّجه البُخاريّ.

و في الصّحيحين عنها قالت: أوّل ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا...

[وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ۹، ثمّ قال:]

۱ـ قال أبو رجاء العُطارديّ: و كان أبو موسى الأشعريّ يطوف علينا في هذا المسجد، مسجد البَصْرة، فيقعدنا حِلقًا، فيقرئنا القرآن، فكأنّي أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، و عنه أخذت هذه السّورة: (اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ)، و كانت أوّل سورة أنزلها الله على محمّد ﷺ و روت عائشة ؓ أنّها أوّل سورة أُنزلت على رسول الله ﷺ، ثمّ بعدها: ن والْقَلَمْ، ثمّ بعدها: يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ثمّ بعدها: والضُّحىٰ، ذكره الماوَرْديّ.

۲ـ و عن الزُّهريّ: أوّل ما نزل سورة: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾، فحزن رسول‌الله ﷺ، و جعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: إنّك نبيُّ الله، فرجع إلى خديجة و قال: «دثّروني و صُبُّوا عليّ ماءً باردًا»، فنزل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ (۲۰:۱۱۷ـ۱۱۸)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاٰلَةِ﴾ النّساء /۱۷۶.

قال البَراء بن عازِب: هذه آخر آية نزلت من القرآن، كذا في كتاب مُسلم.

۳ـ و قيل: نزلت و النّبيّ ﷺ متجهّز لحجّة الوداع، و نزلت بسبب جابر، قال جابر بن عبدالله: مرضت، فأتاني رسول الله ﷺ و أبوبكر يعوداني ماشيين، فأُغمي عليّ، فتوضّأ

---

۱ ـ الأنعام /۱۵۱.

رسول الله ﷺ ثمّ صُبّ عليّ من وَضُوئه فأفقتُ، فقُلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يردّ عليّ من شيئًا حتّى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَـلالَةِ﴾ رواه مسلم. و قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾ [و سيأتي لاحقًا].(٦:٢٨)

﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ المائدة /٣.

والدّين عبارة عن الشّرائع الّتي شُرِع و فُتح لنا، فإنّها نزلت نجومًا. و آخر ما نزل منها هذه الآية، و لم يَنزِل بعدها حُكم، قاله ابن عبّاس و السُّدّيّ.

و قال الجمهور: المراد معظم الفرائض و التّحليل و التّحريم، قالوا: قد نزل بعد ذلك قرآن كثير، و نزلت آية الرّبا، و نزلت آية الكلالة، إلى غير ذلك، و إنّما كمل معظم الدّين و أمر الحجّ إذلم يطف معهم في هذه السّنة مشرك، و لا طاف بالبيت عريان، ووقف النّاس كلّهم بعرفه.(٦:٦١)

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ البقرة /٢٨١.

قيل: إنّ هذه الآية نزلت قبل موت النّبيّ ﷺ بتسع ليال، ثمّ لم ينزل بعدها شيء، قاله ابن جُرَيْج. و قال ابن جُبَيْر و مُقاتِل: بسبع ليال، وروي بثلاث ليال، وروي أنّها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، و أنّه عليه السلام قال: «اجعلوها بين آية الرّبا و آية الدّين».

و حكى مكّيٌّ: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «جاءني جبريل، فقال: اجعلها على رأس مـئتين وثمانين آية».

قلت: و حُكي عن أُبيّ بن كعب و ابن عبّاس و قَتادة: أنّ آخر ما نزل: **﴿لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾** إلى آخر الآية.

والقول الأوّل أعرف و أكثر و أصحّ و أشهر، ورواه أبو صالح عن ابن عبّاس، قال: آخر ما نزل... **[و ذكر كما تقدّم عن المَيْبُديّ، ثمّ قال:]** و هو قول ابن عمر: أنّها آخر مـا نـزل، و أنّه عليه السلام عاش بعدها، أحدًا و عشرين يومًا.(٣:٣٧٥)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة /١٢٨

٤ـ وحكى النَّقاش عن أُبيّ بن كعب أنّه قال: أقرب القرآن عهدًا بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ إلى آخر السّورة.

وروى يوسف بن مِهران عن ابن عبّاس: أنّ آخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾، ذكره المَاوَرْديّ.

وقد ذكر عن ابن عبّاس خلافه، على ما ذكرناه في البقرة و هو أصحّ. و قال مُقاتل: تقدّم نزولها بمكّة، و هذا فيه بُعدٌ؛ لأنّ السّورة مدنيّة، والله أعلم.

و قال يحيى بن جَعْدة: كان عمر بن الخطّاب... **[و ذكر كما تقدّم عن أبي الفتوح الرّقم ٦، ثمّ قال:]**

قال علماؤنا: الرّجل هو خُزَيْمة بن ثابت، و إنّما أثبتهما عمر بشهادته وحده لقيام الدّليل على صحّتها في صفة النّبيّ ﷺ فهي قرينة تغني عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية الأحزاب ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾[1] فإنّ تلك ثبتت بشهادة زيد و خُزَيْمة، لسماعهما إيّاها من النّبيّ ﷺ.

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنُقِذَة، تُنقِذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب و من هذه السّورة مانزل في حجّة الوداع. و منها ما أُنزل عامّ الفتح، وهو قوله تعالى: ﴿لاَيَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ الآية. و كلّ ما أُنزل من القرآن بعد هجرة النّبيّ ﷺ فهو مدنيّ، سواءً نزل بالمدينة أو في سَفَر من الأسفار. و إنّما يرسم بالمكيّ ما نزل قبل الهجرة. و قال أبومَيْسِرة: المائدة من آخر ما نزل، ليس فيها منسوخ، و فيها ثماني عشرة فريضة ليست في غيرها... **[ثمّ ذكر آيات الفريضة و إن شئت فراجع]**.

---

١ ـ الأحزاب /٢٣.

وروي عن النّبيّ ﷺ أنّه قرأ سورة المائدة في حجّة الوداع و قال: «يا أيّها النّاس إنّ سورة المائدة من آخر مانزل فأحلّوا حلالها و حرّموا حرامها» و نحوه عن عائشة رضي‌الله عنها موقوفًا؛ قال جُبَيْر بن نُفَيْر... [و ذكر كما تقدّم عن الحاكم، الرّقم ٨].(٦:٣٠)

(سورة البراءة)

وكانت الأنفال من أوائل ما أُنزل، و براءة من آخر القرآن، و كانت قصّتها شبيهة... [وذكركما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٢٩].(٨: ٦٢)

الفصل الحادي والعشرون

نصّ ابن كثير (م: ٧٧٤) في تفسيره

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة الفاتحة)

و هي مكّية، قاله ابن عبّاس و قَتَادة و أبو العالية. و قيل: مدنيّة، قاله أبو هُرَيْره ومُجاهد و عطاء بن يَسار و الزُّهْريّ.

و يُقال: نزلت مرّتين، مرّةً بمكّة و مرّةً بالمدينة، و الأوّل أشبه لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى﴾[1] والله تعالى أعلم.

وحكى أبو اللَّيْث السَّمرقنديّ: أنّ نصفها نزل بمكّة، و نصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدًّا، نقله القُرطُبيّ عنه...

وقد قيل: إنّ الفاتحة أوّل شيءٍ أُنزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البَيْهَقيّ في «دلائل النّبوّة»، و نقله الباقِلاّنيّ أحد أقوال ثلاثة.

و قيل: ﴿يَاءَيُّهَاالْمدّثّر﴾ كما في حديث جابر في «الصّحيح». و قيل: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ﴾ وهذا هوالصّحيح كما سيأتي تقريره في موضعه. (١٧:١ و ١٩)

(سورة المدّثّر)

١ـ ثبت في صحيح البُخاريّ من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سَلَمَة، عن جابر أنّه كان يقول: أوّل شيء نزل من القرآن: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ و خالفه الجمهور، فذهبوا إلى أنّ أوّل

---

١ ـ الحِجْر/٨٧.

القرآن نزولاً قوله:﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ كما سيأتي ذلك هنالك إن شاءالله تعالى.

قال البُخاريّ: حدّثنا يحيى، حدّثنا وَكيع عن عليّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سَلَمَة بن عبد الرّحمان عن أوّل ما نزل من القرآن، فقال: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ...﴾.

٢ـ وقد رواه مُسلم من طريق عُقَيْل عن ابن شِهاب، عن أبي سَلَمَة، قال: أخبرني جابر بن عبدالله، أنّه سمع عن رسول الله ﷺ عن فتره الوحي... **[و ذكر كما تقدّم عن الواحديّ، ثمّ قال:]** فأنزل: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ ـ إلى ـ فَاهْجُرْ﴾ قال أبو سَلَمَة ﴿وَالرُّجْزَ﴾: الأوثان، ثمّ حمي الوحي و تتابع.

هذا لفظ البُخاريّ، وهذا السّياق هو المحفوظ، و هو يقتضي أنّه قد نزل الوحي قبل هذا؛ لقوله: فإذاً الملك الّذي كان بحِراء، وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَ رَبُّكَ الْاَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[١] ثمّ إنّه حصل بعد هذا فترة، ثمّ نزل الملك بعد هذا.

٣ـ و وجه الجمع أنّ أوّل شيء نزل فترة الوحي هذه السّورة، كما قال الإمام أحمد؛ حدّثنا حَجّاج، حدّثنا ليث، حدّثنا عُقَيل عن ابن شِهاب، قال: سمعت أبا سَلَمَة بن عبدالرّحمان يقول: أخبرني جابر بن عبدالله، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثمّ فتر الوحي عنّي فترة، فَبَيْنَا أنَا أمشي سمعت صوتًا من السّماء، فرفعت بصري قبل السّماء فإذاً الملك الّذي جاءَني قاعد على كُرسيّ بين السّماء و الأرض، فجئثت منه فرقًا حتّى هَوَيْت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت لهم: زمّلوني زمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ ـ إلى ـ فَاهْجُرْ﴾.[٢] ثمّ حمي الوحي و تتابع. أخرجاه من حديث الزُّهْريّ به. **(١٥٢:٧)**

(سورة العلق)

٤ـ قال الإمام أحمد: حدّثنا عبدالرَّزّاق، حدّثنا مَعْمَر عن الزُّهْريّ، عن عُروة، عن عائشة، قلت: أوّل ما بدئ... **[وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ و أبي الفتوح، ثمّ قال:]**

---

١ ـ العلق / ١ـ٥.
٢ ـ المدّثّر / ١ـ٣.

ثمّ لم ينشب وَرَقَة أن توفّي، و فتر الوحي فترة حتّى حزن رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حُزنًا غدا منه مرارًا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أوفى بذَرْوَة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل، فقال: يا محمّد، إنّك رسول الله حقًّا، فيسكن بذلك جأشه، و تقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فتره الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفىٰ بذَرْوَة الجبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وهذا الحديث مخرج في الصّحيحين من حديث الزُّهْريّ، و قد تكلمّنا على هـذا الحديث من جهة سنده و متنه و معانيه في أوّل شرحنا للبُخاريّ مستقصى، فمن أراده فهو هناك محرّر، و لله الحمد و المنّة، فأوّل شيء نزل من القـرآن هـذه الآيـات الكـريمات المباركات، وهنّ أوّل رحمة رحم الله بها العباد، و أوّل نعمة أنعم الله بها عـليهم، و فـيها التّنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، و أنّ من كرمه تعالى أن ﴿عَلَّمَ الْاِنْسَـانَ مَـالَمْ يَعْلَمْ﴾ فشرّفه و كرّمه بالعلم، وهو القدر الّذي امتاز به أبو البريّة آدم على الملائكة، و العلم تارةً يكون في الأذهان، و تارةً يكون في اللّسان، و تارةً يكون في الكتابة بالبنان ذهنيّ ولفظيّ و رسميّ، و الرّسميّ يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿اِقْرَاْ وَ رَبُّكَ الْاَكرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمْ * عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ و في الأثر: «قيّدو العلم بالكتابة»، و فيه أيضًا: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ مَالَم يَكنْ يَعْلَمْ». (٣٢٥:٧)

آخر آية نزلت من القرآن:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١.

و البقرة جميعها مدنيّة بلاخلاف، و هي من أوائل مانزل بها، لكنّ قوله تعالى فـيه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾ يقال: إنّها آخر ما نزل من القرآن، و يـحتمل أن تكـون مـنها، وكذلك آيات الرّبا من آخر مانزل. (٦٣:١)

٥ـ وقد روُي أنّ هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لَهيعَة: حدّثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جُبَيْر، قال: آخر ما نزل من القرآن كلّه: ﴿وَاتَّـقُوا يَـوْمًا...﴾ وعاش النّبيّ ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ، ثمّ مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع

الأوّل، رواه ابن أبي حاتم و قد رواه من حديث المسعوديّ عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾.

٦ـ وقد رواه النّسائيّ من حديث يزيد النّحويّ عن عِكرمة، عن عبدالله بن عبّاس، قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ وكذا رواه الضّحّاك والعَوْفيّ عن ابن عبّاس.

٧ـ وروى الثّوريّ عن الكَلْبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس... [و ذكر كما تقدّم عن الواحِديّ و الطَّبَريّ الرّقم ١٧ و ٢٨].(١:٥٩١)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة /١٢٨.

٨ـ قال الإمام أحمد: حدّثنا محمّد بن أبي بكر، حدّثنا بُشر بن عمر، حدّثنا شُعبة عن عليّ بن زيد، عن يوسف بن مِهران، عن ابن عبّاس، عن أُبيّ بن كعب، قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية.

٩ـ قال عبدالله بن الإمام أحمد: حدّثنا روح، حدّثنا عبدالمؤمن، حدّثنا عمر بن شقيق،، حدّثنا أبو جعفر الرّازيّ عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيّ كَعْب، أنّهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر، فكان رجال يكتبون، و يملي عليهم أُبيّ بن كَعْب، فلمّا انتهوا إلى هذه الآية من سورة البراءة: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ...﴾[1] فظنّوا أنّ هذه آخرما نزل من القرآن، فقال لهم أُبيّ بن كَعْب: إنّ رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين ﴿لَقَدْجَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾[2] إلى آخر السّورة. قال: هذا آخر ما نزل من القرآن، فختم بما فتح به بالله الّذي لاإله إلاّ هو، و هو قول الله تعالى: ﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ اِلاَّ نُوحِى اِلَيْهِ اَنَّهُ لَا اِلٰهَ اِلاَّ اَنَا فَاعْبُدُونَ﴾[3] و هذا غريب أيضًا. (٣: ٤٨٠)

(فَمَنْ كَان يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ...) الكهف /١١٠.

---

١ ـ التّوبة /١٢٧. ٢ ـ التّوبة /١٢٨.
٣ ـ الأنبياء /٢٥.

١٠ـ و قال ابن جَرير: حدّثنا أبو عامر إسماعيل بن... [و ذكر كما تقدّم عن الطَّبريّ... الرّقم ٧، ثمّ قال:]

و هذا أثر مشكل، فإنّ هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلّها مكّيّة، و لعّل معاوية أراد أنّه لم ينزل بعدها آية تنسخها و لا تغيّر حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرُّواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم. (٤:٤٣٥ـ٤٣٦)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

١١ـ و قد روى التِّرمِذيّ عن قُتَيْبة، عن عبدالله بن وَهْب، عن حُيَيّ، عن أبي عبدالرّحمان، عن عبدالله بن عمرو، قال: آخر سورة أُنزلت سورة المائدة و الفتح، ثمّ قال التِّرمِذيّ: هذا حديث غريب حسن؛ و قد روي عن ابن عبّاس أنّه قال: آخر سورة أُنزلت: ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتحِ﴾.

١٢ـ و قد روى الحاكم في مستدركه من طريق عبدالله محمّد بن يعقوب، حدّثنا يحيى بن نصر، قال قرأ عَلَيَّ عبدالله بن وَهْب، أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الزّاهريّة، عن جُبَيْر بن نُفَيْر... [وذكر كما تقدّم عنه الرّقم ٨].(٢:٤٦٩)

(سورة البراءة)

١٣ـ هذه السّورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاريّ؛ حدّثنا أبو الوليد.. [و ذكر كما تقدّم عن الواحِديّ، الرّقم ١٥]

(سورة النّصر)

١٤ـ أخبرنا محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا جعفر عن أبي العُمَيس، و أخبرنا أحمد بن سُليمان، حدّثنا جعفر بن عَون، حدّثنا أبو العُمَيْس عن عبدالمجيد بن سُهَيل، عن عُبَيدالله بن عبدالله بن عُتْبة، قال: قال لي ابن عبّاس: يا بن عُتْبة، أتعلم آخر سورة من

القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتح﴾ قال: صدقت.

١٥ـ وروى الحافظان أبوبكر البَزّار و البَيْهَقيّ من حديث موسى بن عُبَيْدة البَريديّ عن صدقة بن يَسار، عن ابن عمر، قال: أُنزلت هذه السّورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْـفَتحِ﴾ على رسول الله ﷺ أواسط أيّام التّشريق، فعرف أنّه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثمّ قام فخطب النّاس، فذكر خطبته المشهورة.

١٦ـ و قال الحافظ البَيْهَقيّ: أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عُبَيد الصَّفّار، حدّثنا الأسقاطيّ، حدّثنا سعيد بن سُليمان، حدّثنا عَبّاد بن العَوام عن هلال بن خَبّاب، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس، قال: لمّا نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحِ...﴾ دَعا رسول الله ﷺ فاطمة و قال: «إنّه قَد نُعِيَت إليّ نَفْسي» فبكت ثمّ ضَحِكَتْ، و قالت: «أخبرني أنّه نُعِيَت اِلَيْه نفسُهُ، فبكَت، ثمّ قال: اصْبري، فإنّك أوّل أهلي لحاقًا بي، فَضَحِكَتْ». (٣٩:٧)

و نصّه أيضًا في «البداية و النّهاية»[١]

كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ و ذكر أوّل شيءٍ أُنزل عليه من القرآن[٢]

كان ذلك وله ﷺ من العمر أربعون سنة. و حكى ابن جَرير عن ابن عبّاس و سعيد بن المسيّب أنّه كان عمره إذا ذاك ثلاثًا و أربعين سنة.

١٧ـ قال البخاريّ: حدّثنا يحيى بن بُكَيْر...، عن عائشة أنّها قالت: أوّل ما بدئ به رسول‌الله ﷺ... [إلى أن قال:] قال ابن شِهاب: و أخبرني أبو سَلَمَة أنّ جابر... [و ذكر كما تقدّم عنه].

١٨ـ و أخرجه مُسلم في صحيحه من حديث اللَّيْث به، و من طريق يُونس و مَعْمَر عن الزُّهْريّ، كما علّقه البخاريّ عنهما، وقد رمزنا في الحواشي على زيادات مُسلم

١ ـ بعض هذا النّص يشبه ماورد في «السِّيرة النّبويّة» لا بن هشام ١: ٢٥١ (مطبعة مصطفى البابي و أولاده بمصر عام: ١٣٥٥ هـ. ق).

٢ ـ راجع الفصل (٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩) من هذا الباب و باب كيفيّة نزول الوحي حيث تجد هناك نظرة تحليليّة حول بعض الرّوايات الّتي جاءت في هذا النّص، نقلاً عن الأساتذة: السُّبحانيّ ومرتضى العامليّ والملكيّ و الأراكيّ وغيرهم.(م)

ورواياته، و لله الحمد، و انتهى سياقه إلى وَرَقَة: أنصرك نصْرًا مؤزّرًا.

فقول أُمّ المؤمنين عائشة: أوّل مابدىء به من الوحي الرُّؤيا الصّادقة، فكان لايرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح، يقوّي ما ذكره محمّد بن إسحاق بن يسار عن عُبَيْد بن عمر اللَّيثيّ، أنّ النّبيّ ﷺ قال: «فجاءني جبريل و أنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: (اِقْرَأْ)، فقلت: ما أقرأ؟ فغتّني، حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني» و ذكر نحو حديث عائشة سواء، فكان هذا كالتّوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، و قد جاء مصرّحًا بهذا في مغازي موسى بن عُقْبة عن الزُّهريّ، أنّه رأى ذلك في المنام، ثمّ جاءه الملك في اليقظة.

١٩ـ و قد قال الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهانيّ في كتابه «دلائل النّبوّة»: حدّثنا محمّد بن أحمد بن الحسن، حدّثنا محمّد بن عُثمان بن أبي شَيْبة، حدّثنا جناب بن الحارث، حدّثنا عبدالله بن الأجْلح عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة بن قَيس، قال: إنّ أوّل ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتّى تهدأ قلوبهم، ثمّ ينزل الوحي بعد و هذا من قبل عَلْقَمَة بن قَيْس نفسه، و هو كلام حسن، يؤيّده ما قبله و يؤيّده ما بعده.

[وجدير بالذّكر؛ أنّ بعض شرحه لهذا النّص تحت عنوان (عمره ﷺ وقت بعثته و تاريخها) قد ذكر سابقًا في باب كيفيّة نزول القرآن. و نأتي الآن على بقيّته].

و أمّا قول جبريل (اِقْرَأ) فقال: «ما أنا بقارى» فالصّحيح أنّ قوله «ما أنا بقارىء» نَفْيٌ، أي لست ممّن يحسن القراءة. و ممّن رجّحه النَّوَويّ و قبله الشّيخ أبو شَامَة. و من قال: إنّها استفهاميّة، فقوله بعيد؛ لأنّ الباء لاتزاد في الإثبات. و يؤيّد الأوّل رواية أبي نُعَيْم من حديث المعتمر بن سُلَيمان عن أبيه، فقال رسول الله ﷺ ـ و هو خائف يرعد ـ «ما قرأت كتابًا قطّ، و لا أحسنه، و ما أكتب و ما أقرأ» فأخذه جبريل فَغَتَّه غتًّا شديدًا، ثمّ تركه، فقال له: «اِقْرَأْ»، فقال محمّد ﷺ: «ما أرى شيئًا أقرأه، و ما أكتب» يروىٰ «فغطّني» كما في الصّحيحين و «غتّني»، و يروىٰ «قد غتّني» أي خنقني «حتّى بلغ منّي الجُهد» يروىٰ بضمّ الجيم و فتحها، و بالنّصب و بالرّفع، و فعل به ذلك ثلاثًا.

قال أبو سُلَيمان الخَطّابيّ: و إنّما فعل ذلك له ليبلو صبره، و يحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلّفه به من أعباء النّبوّة، و لذلك كان يعتريه مثل حال المحموم، و تأخذه

الرّحضاء، أي البهر والعرق. و قال غيره: إنّما فعل ذلك الأُمور؛ منها أن يستيقظ لعظمة ما يلقى إليه بعد هذا الصّنيع المشقّ على النّفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1] و لهذا كان عليه الصّلاة و السّلام إذا جاءه الوحي يحمرّ وجهه، و يغطّ كما يغطّ البكر من الإبل، و يتفصّد جبينه عرقًا في اليوم الشّديد البرد.

وقوله: فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة يرجف فؤداه، و في رواية: بوادره، جمع بادرة؛ قال أبو عُبَيْدة: و هي لحمة بين المِنْكب و العُنُق، و قال غيره: هو عروق تضطرب عند الفزع و في بعض الرّوايات: ترجف بآدله، واحدتها بأدلة، و قيل: بادِل، و هو ما بين العُنُق والتَّرْقُوَة، و قيل: أصل الثّدي، و قيل لحم الثّديين، و قيل غير ذلك.

فقال: «زمّلوني زمّلوني» فلّما ذهب عنه الرّوع قال لخديجة: «مالي؟ أيّ شيءٍ عرض لي؟»، و أخبرها ماكان من الأمر. ثمّ قال: «لقد خشيت على نفسي» و ذلك لأنّه شاهد أمرًا لم يعهده قبل ذلك، و لا كان في خلده. ولهذا قالت خديجة: «أبشر، كلّا والله، لايخزيك الله أبدًا». قيل: من الخِزْي، و قيل: من الحُزن، و هذا لعلمها بما أجرى الله به جميل العوائد في خلقه أنّ من كان متّصفًا بصفات الخير لا يخزى في الدّنيا و لا في الآخرة ثمّ ذكرت له منصفاته الجليلة ماكان من سجاياه الحسنة، فقالت: إنّك لتصل الرّحم، و تَصْدُق الحديث ـ و قد كان مشهورًا بذلك صلوات الله و سلامه عليه عند الموافق والمفارق ـ و تحمل الكَلّ» أي عن غيرك تعطي صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤنة عياله ـ «و تكسب المعدوم»، أي تسبق إلى فعل الخير، فتبادر إلى إعطاء الفقير، فتكسب حسنته قبل غيرك و يسمّى الفقير معدومًا لأنّ حياته ناقصة، فوجوده و عدمه سواء...

و قال الخطّابي: الصّواب و تكسب المعدم، أي تبذل إليه، أو يكون تلبس العدم بعطيّة مالاً يعيش به واختار شيخنا الحافظ أبو الحَجّاج المِزّيّ أنّ المراد بالمعدوم هاهنا المال المعطى، أي يعطي المال لمن هو عادمه و من قال: إنّ المراد إنّك تكسب باتّجارك المال المعدوم، أو النّفيس القليل النّظير، فقد أبعد النّجعة، و أغرق في النّزع، و تكلّف ما ليس له به علم، فإنّ مثل هذا لايمدح به غالبًا، و قد ضعّف هذا القول عَيَّاض و النَّوَويّ وغيرهما، و

---

١ ـ المزّمّل /٥.

الله أعلم.

«تقري الضّيف» أي تكرمه في تقديم قراه، و إحسان مأواه، «و تعين على نـوائب الحقّ»، و يروى «الخير»، أي إذا وقعت نائبة لأحدٍ في خير أعنت فيها، وقمت مع صاحبها حتّى يجد سدادًا من عيش، أو قوامًا من عيش، و قوله: ثمّ أخذته فانطلقتْ به إلى ابن عمّها وَرَقَة بن نَوْفَل، و كان شيخًا كبيرًا قدعمي و قد قدَّمنا طرفًا من خبره مع ذكر زيد بن عمرو بن نُفَيْل رحمه الله، و أنّه كان ممّن تنصَّر في الجاهليّة، ففارقهم و ارتحل إلى الشّام، هو وزيد بن عمرو و عُثمان بن الحَوْيرث وعُبَيْدالله بن جَحْش، فتنصّروا كلّهم؛ لأنّهم وجدوه أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحقّ، إلاّ زيد بن عمرو بن نُفَيْل، فإنّه رأى فيه دخلاً فيه و تخبيطًا وتبديلاً وتحريفًا وتأويلاً، فأبت فطرته الدّخول فيه أيضًا، و بشّروه الأحبار و الرُّهـبان بوجود نبيّ قد أزف زمانه، و اقترب أوانه، فرجع يتطلّب ذلك، و استمرّ عـلى فـطرته و توحيده. لكن اخترمته النّيّة قبل البعثة المحمّديّة و أدركها وَرَقَة بن نَوْفَل، و كان يتوسّمها في رسول الله ﷺ كما قدّمنا بما كانت خديجة تنعته له و تصفه له، و ما هو منطوٍ عليه من الصّفات الظّاهرة الجميلة و ما ظهر عليه من الدّلائل و الآيات، و لهذا لمّا وقـع مـاوقع أخذت بيد رسول الله ﷺ و جاءت به إليه، فوقفت به عليه و قالت: ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فلمّا قصّ عليه رسول الله ﷺ خبرما رأى، قال وَرَقَة: سُبُّوح سُبُّوح، هذا النّاموس الّذي أُنزل على موسى، و لم يذكر عيسى و إن كان متأخّرًا بعد موسى، لأنّه كانت شريعته متمّمة و مكمّلة لشريعة موسى عليه السلام، و نسخت بعضها على الصّحيح من قول العلماء. كما قال: ﴿وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُم﴾ [1] و قول وَرَقَة هذا كما قالت الجنّ: ﴿يَا قَوْمَنَا اِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا اُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ مُصدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى اِلَى الْحَقِّ وَ اِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [2]. ثمّ قال وَرَقَة: «ياليتني فيها جذعًا، أي ياليتني أكون اليوم شابًّا متمكّنا من الإيمان و العلم النّافع و العمل الصّالح، يا ليتنى أكون حيًّا حين يخرجك قومك»، يعني حتّى أخرج معك وأنصرك. فعندها قال رسول الله ﷺ: «أومخرجيّ هم»؟ قال السُّهيْليّ: و إنّما قال ذلك لأنّ فراق الوطن شديد على النُّفوس، فقال: نعم، إنّه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلاّ عودي،

---

١ ـ آل عمران /٥٠.
٢ ـ الأحقاف /٣٠.

وإن يُدْركني يومك، أنصرك نصرًا مؤزّرًا، أي أنصُرُك نصرًا عزيزًا أبدًا...

٢٠ـ وقد قال الإمام أحمد: حدّثنا حسن عن ابن لَهيعة، حدّثني أبو الأسود عن عُروَة، عن عائشة، أنّ خديجة سألت رسول الله ﷺ عن وَرَقَة بن نَوْفَل، فقال: «قَد رَأيتهُ، فرأيت عليه ثياب بياض، فأحسبه لو كان من أهل النّار لم يكن عليه ثياب بياض» وهذا إسناد حسن، لكن رواه الزُّهْريّ و هِشام عن عُروَة مرسلاً، فالله أعلم.

٢١ـ وروى الحافظ أبو يَعْلى عن شُريح بن يُونس، عن إسماعيل، عن مُجالِد، عن الشَّعبيّ، عن جابر بن عبدالله أنّ رسول الله ﷺ سئل عن وَرَقَة بن نَوْفَل، فقال «قَدْ رأيته، فرأيت عليه ثياب بياض، أبصرته في بُطْنانِ الجنّة و عَليْه السُّندُسِ». و سئل عن زيد بن عمر و بن نُفَيْل، فقال:«يبعث يوم القيامة أُمّة واحده» و سئل عن أبي طالب، فقال: أخرجته منْ غمْرة منْ جهنّم إلى ضحضاح منها» و سئل عن خديجة، لأنّها ما تت قبل الفرائض وأحكام القرآن فقال: «أبصرتها على نهر في الجنّة في بيت من قَصَب لاصَخَب فيه ولا نصب» إسناد حسن، و لبعضه شواهد في الصّحيح، والله أعلم.

٢٢ـ و قال الحافظ أبوبكر البزّار: حدّثنا عُبَيْد بن إسماعيل، حدّثنا أبو أُسامة عن هِشام بن عُروَة عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا وَرَقَة، فإنّي رأيت له جنّة أو جنّتين» و كذا رواه ابن عَسَاكِر من حديث أبي سعيد الأشجّ عن أبي معاوية، عن هِشام، عن أبيه، عن عائشة، و هذا إسناد جيّد، وروي مُرسلاً، وهو أشبه.

٢٣ـ وروى الحافظان البَيْهقيّ و أبو نُعَيْم في كتابهما« دلائل النّبوّة» من حديث يُونس بن بُكَيْر عن يُونُس بن عمرو، عن عمرو بن شُرَحْبيل، أنّ رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداء، و قد خشيت والله أن يكون لهذا أمر» قالت: معاذالله، ماكان ليفعل ذلك بك، فوالله إنّك لتؤدّي الأمانة، و تصل الرّحم، و تَصْدُق الحديث. فلمّا دخل أبوبكر و ليس رسول الله ﷺ، ثمّ ذكرت له خديجة، فقالت: يا عتيق، إذهب مع محمّد إلى وَرَقَة. فلمّا دخل رسول الله ﷺ أخذ بيده أبوبكر، فقال: انطلق بنا إلى وَرَقَة، قال: «و من أخبرك»؟ قال: خديجة فانطلقا إليه، فقصّا عليه. فقال رسول الله ﷺ: «إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمّد يا محمّد، فأنطلق هاربًا في الأرض». فقال له لا

تفعل، إذا أتاك فاثبت، حتّى تسمع ما يقول لك، ثمّ ائتني فأخبرني. فلمّا خلا ناداه يا محمّد قل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ حتّى بلغ ـ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ قل لا إله إلاّ الله. فأتى وَرَقَة فذكر له ذلك، فقال له وَرَقَة: أبشر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّك الّذي بَشّربك ابن مريم، و أنّك على مثل ناموس موسى، و أنّك نبيّ مرسل، و أنّك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، و لئن أدركني ذلك لأُجاهدَنّ معك. فلمّا توفّي قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القسّ في الجنّة عليه ثياب الحرير؛ لأنّه آمن بي و صدّقني» يعني وَرَقَة.

هذا لفظ البَيْهَقيّ و هو مرسل و فيه غرابة وهو كون الفاتحة أوّل مانزل، وقد قدّمنا من شعره ما يدلّ على إضماره الإيمان، و عقده عليه و تأكّده عنده، و ذلك حين أخبرته خديجة ما كان من أمره مع غلامها مَيْسِرة، و كيف كانت الغَمامة تُظلّله في هَجير القيْظ، فقال وَرَقَة في ذلك أشعارًا قدّمناها قبل هذا، منها قوله:

لججتُ و كنتُ في الذّكرىٰ لجوجًا ... لأمرٍ طالَما بعث النّشيجَا
و وصفٍ من خديجةَ بعدَ وصفٍ ... فقد طالَ انتظاري يا خديجَا
ببطن المكّتَينِ على رجائي ... حديثكِ أن أرى منهُ خروجَا
بما خبّرتِنا من قولِ قَسّ ... من الرّهبان أكره أن يَعوجَا
بأنّ محمّدًا سَيَسودُ قومًا ... و يخصم من يكون له حَجيجًا
و يظهرُ في البلادِ ضياء نور ... يقيم به البريّةَ أنْ[١] تَعُوجَا
فيَلقىٰ من يحاربه خَسارًا ... و يَلقىٰ من يُسالمهُ فَلوجَا
فياليتي إذا ما كانَ ذاكم ... شَهِدتُ و كنت أوّلهم وَلُوجَا
ولو كان الّذي كرهت قُريش ... ولوعَجّتْ بمكّتها عَجيجًا
أُرجّي با الّذي كرِهوا جميعًا ... إلى ذي العرش إذ سَفَلوا عَروجَا
فإن يَبقوا و أبق يكنْ أُمورًا ... يَضِجُّ الكافرونَ لها ضَجيجَا

١ ـ وردت في السّيرة لا بن هِشام (أنّ تموجا) مع بعض اختلاف في بعض الألفاظ.

و قال أيضًا في قصيدته الأُخرى:

و أخبار صدقٍ خبَّرتْ عن محمّد يخبِّرها عنهُ إذا غابَ ناصحُ
بأنّ ابن عبدالله أحمد مُرسل إلى كلّ من ضُمّتْ عليه الأباطحُ
وظنّيّ به أنّ سوف يَبْعثَ صادقًا كما أُرسِل العبدان هود و صالحُ
و موسى و إبراهيمُ حتّى يُرى له بهاءٌ و منشورٌ من الحقِّ و اضحُ
و يتبعُه حيًّا لُؤيّ بن غالبٍ شبابُهُم و الأشيبونَ الجَحاجحُ
فإن أبق حتّى يدركَ النّاس دهرُه فإنّيَ به مستبشرُ الوَدِّ فارحُ
و إلاّ فإنّيَ يا خديجة فاعلمي عن أرضِكِ في الأرض العريضَة سائحُ

و قال يونس بن بُكَيْر عن ابن إسحاق، قال وَرَقَة:

فإن يكُ حقًّا يا خديجةُ فاعلمي... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن القمّيّ ثمّ أضاف:]**

إذا ما دَعوا بالويل فيها تتابعتْ مقامِعُ في هاماتهمْ ثمّ تُشعَلُ
فسُبحانَ من يُهوي الرّياح بأمره و من هو في الأيّام ما شاءَ يُفعَلُ
و مَن عرشُه فوق السّمواتِ كلِّها و أقضاؤُه في خَلْقِه لاتُبَدَّلُ

و قال وَرَقَة أيضًا:

ياللرّجال و صَرْف الدّهر و القدر... **[و ذكر كما تقدّم مثله عن القمّيّ ثمّ أضاف:]**

فقلتُ علَّ الّذي ترجين يُنجِزُه لكِ الإلهُ فرجّي الخير و انتظري
و أرسليه إلينا كي نُسائلَه عن أمرِهِ ما يرى في النّوم و السَّهَرِ
فقال حين أتانا منطِقًا عَجَبًا يقفُّ منه أعالي الجِلدِ و الشَّعرِ
إنّيّ رأيتُ أمين الله واجَهَني في صورةٍ أُكملت من أعظم الصُّورِ
ثمّ استمرّ فكاد الخوفُ يُذْعِرني ممّا يسلّم مِنْ حولي من الشَّجَرِ
فقلتُ ظَنّيّ و ما أدري أيصدُقني أن سوف يُبعث يتلو مُنزَل السُّورِ
و سوف يبليك إن أعلنتَ دَعْوتَهمْ من الجهاد بِلا منّ ولا كَدَرِ

هكذا أورد ذلك الحافظ البَيهقيّ من الدّلائل و عندي في صحّتها عن وَرَقَة نظر، والله أعلم.

٢٤ـ وقال ابن إسحاق حدّثنيّ عبدالملك بن عبدالله بن أبي سُفيان بن العلاء بن جاريةالثّقفيّ ـ و كان داعية ـ عن بعض أهل العلم أنّ رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنّبوّة كان إذا خرج لِحاجة أبعد حتّى يحسرالثّوب عنه، ويفضي إلى شعاب مكّة وبطون أوديتها، فلايمرّ بحَجَر ولاشَجر إلاّ قال: السّلام عليك يارسول‌الله، قال: فيلتفت حوله عن يمينه و عن شماله و خلفه فلا يرى إلاّ الشّجر والحجارة، فمكث كذلك يرى ويسمع ماشاءالله أن يمكث، ثمّ جاءه جبريل عليه السلام بما جاء من كرامةالله وهو بحِراء في رمضان.

قال ابن إسحاق: وحدّثنيّ وَهْب بن كَيْسان مولى آل الزُّبَير،... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٣٤، ثمّ قال:]**.

جاء بعده من اليقظة، كما تقدّم من قول عائشة فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح. و يحتمل أنّ هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذ، و يحتمل أنّه كان بعده بمدّة، والله أعلم.

٢٥ـ و قال موسى بن عُقْبة عن الزُّهْريّ عن سعيد بن المُسيّب، قال: و كان فيما بلغنا أوّل ما رأى يعني رسول الله ﷺ أنّ الله تعالى أراه رؤيا في المنام، فشقّ ذلك عليه، فذكرها لا مرأته خديجة، فعصمها الله عن التّكذيب، و شرح صدرها للتّصديق، فقالت: أبشر، فإنّ الله لم يصنع بك إلاّ خيرًا، ثمّ إنّه خرج من عندها، ثمّ رجع إليها فأخبرها أنّه رأى بطنه شقّ، ثمّ غسل و طهّر، ثمّ أُعيد كما كان. قالت: هذا والله خير فأبشر. ثمّ استعلن له جبريل و هو بأعلى مكّة، فأجلسه على مجلس كريم معجب. كان النّبيّ ﷺ يقول: «أجلسَني على بساط كهيئة الدّرنوك، فيه الياقوت و اللُّؤلؤ» فبشّره برسالة الله عَزَّوجَلَّ حتّى اطمأنّ رسول‌الله ﷺ، فقال له جبرئيل: (اِقْرَأْ)، فقال: «كيف أقرأ»، فقال: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. قال: يزعم ناس: أنّ (يَاءيُّهَاالْمُدَّثِّرُ) أوّل سورة نزلت عليه، والله أعلم. قال فَقَبِلَ رسول الله ﷺ رسالة ربّه، و اتّبع ما جاءه به جبريل من عندالله، فلمّا انصرف منقلبًا إلى بيته جعل لا يمرُّ على شَجَر ولا حَجَر إلاّ سلّم عليه، فرجع إلى أهله مسرورًا موقنًا أنّه قد رأى أمرًا عظيمًا. فلمّا دخل على خديجة، قال: «أرأيتك الّتي كنت حدّثتك أنّي رأيته في المنام، فإنّه جبريل استعلن إليّ، أرسله إليّ ربّي عَزَّوجَلَّ» و أخبرها بالّذي

جاءه من الله و ما سمع منه، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلاّ خيرًا، واقبل الّذي جاءك من أمر الله، فإنّه حقّ و أبشر فإنّك رسول الله حقًّا. ثمّ انطلقت من مكانها فأتت غلامًا لعُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانيًّا من أهل نينوىٰ يقال له: عَدّاس، فقالت له: يا عَـدّاس، أذكرك بالله إلاّ ما أخبرتني، هل عندك علم من جبريل؟ فقال: قُدُّوس قُدُّوس، مـا شأن جبريل يذكر بهذه الأرض الّتي أهلها أهل الأوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه، قال: فإنّه أمين الله بينه و بين النّبيّين، وهو صاحب موسى و عيسى عليهما السلام. فرجعت خديجة من عنده، فجائت وَرَقَة بن نَوْفَل فذكرت له ما كان من أمر النّبيّ صلى الله عليه وآله و ما ألقاه إليه جبريل، فقال لها وَرَقة: يا بنيّة أخي ما أدري لعلّ صاحبك النّبيّ الّذي ينتظر أهل الكتاب الّذي يـجدونه مكتوبًا عندهم في التّوارة الإنجيل، و أقسم بالله لإن كان إيّاه، ثمّ أظهر دعواه و أنا حيّ لأبلينّ الله في طاعة رسوله وحسن مؤازرته للصّبر و النّصر. فمات وَرَقَة رحمه الله. قال الزُّهْريّ: فكانت خديجة أوّل من آمن بالله و صدّق رسوله صلى الله عليه وآله.

قال الحافظ البَيْهقيّ بعد إيراده ما ذكرناه والّذي ذكر فيه من شقّ بطنه يـحتمل أنّ يكون حكاية منه لما صنع به في صباه، يعني شقّ بطنه عند حليمة. و يحتمل أن يكون شقّ مرّةً أُخرى ثمّ ثالثة حين عرج به إلى السّماء، و الله أعلم.

٢٦ـ و قد ذكر الحافظ ابن عساكِر في ترجمة وَرَقة بإسناده إلى سُليمان بن طرخان التَّيميّ؛ قال: بلغنا أنّ الله تعالى بعث محمّدًا رسولاً على رأس خمسين سنة من بناء الكعبة، و كان أوّل شيء اختصّه به من النّبوّة و الكرامة رؤيا كان يراها، فقصّ ذلك على زوجته خديجة بنت خُوَيْلِد، فقالت له: أبشر، فوالله لايفعل الله بك إلاّ خيرًا، فبينما هو ذات يوم في حِراء، و كان يفرّ إليه من قومه إذ نزل عليه جبريل فدنا منه، فخافه رسول الله صلى الله عليه وآله مخافة شديدة، فوضع جبريل يده على صدره و من خلفه بين كتفيه، فقال: اللّهم أحطِطْ وِزْرَه، واشرح صدره، وطهّر قلبه أبشر! فإنّك نبيّ هذه الأُمّة،(اِقْرَا)، فقال له نبيّ الله: و هو خائف يرعد ـ «ما قرأت كتابًا قطّ، و لا أحسنه، و ما أكتب و ما أقرأ»، فأخذه جبريل فغتّه غتًّا شديدًا ثمّ تركه، ثمّ قال له (اِقْرَا)، فأعاد عليه مثله، فأجلسه على بساط كهيئة الدَّرنوك، فرأى فيه من صفائه و حسنه كهيئة اللُّؤلُؤ و الياقوت، و قال له: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾

الآيات، ثمّ قال له: لا تخف يا محمّد، إنّك رسول الله، ثمّ انصرف و أقبل على رسول الله ﷺ همّه، فقال: كيف أصنع و كيف أقول لقومي ثمّ قام رسول الله ﷺ و هو خائف، فأتاه جبريل من أمامه و هو في صَعَرته فرأى رسول الله ﷺ أمرًا عظيما ملأ صدره ـ فقال له جبريل: لاتخف يا محمّد، جبريل رسول الله إلى أنبيائه و رسله، فأيقن بكرامة الله، فإنّك رسول الله فرجع رسول الله ﷺ لا يمرّ على شَجَرٍ و لا حَجَرٍ إلاّ هو ساجد، يقول: السّلام عليك يا رسول الله. فاطْمَأنّتْ نفسه و عرف كرامة الله إيّاه فلمّا انتهى إلى زوجته خديجة أبصرت ما يوجّهه من تغيّر لونه فأفزعها ذلك، فقامت إليه، فلمّا دنت منه جعلت تمسح عن وجهه و تقول: لعلّك لبعض ما كنت ترى و تسمع قبل اليوم، فقال: يا خديجة أرأيت الّذي كنت أرى في المنام، والصّوت الّذي كنت أسمع في اليقظة و أُهال منه، فإنّه جبريل قد استعلن لي و كلّمني و أقرأني كلامًا، فزعت منه، ثمّ عاد إليّ فأخبرني أنّي نبيّ هذه الأُمّة، فأقبلت راجعًا، فأقبلت على شَجَر و حجارة فقلن السّلام عليك يا رسول الله. فقالت خديجة: أبشر، فوالله لقد كنت أعلم أنّ الله لن يفعل بك إلاّ خيرًا، و أشهد أنّك نبيّ هذه الأُمّة الّذي تنتظره اليهود، قد أخبرني به ناصح غلامي و بَحيرى الرّاهب و أمرني أن أتزوّجك منذ أكثر من عشرين سنة: فلم تزل برسول الله ﷺ حتّى طعم و شرب و ضحك، ثمّ خرجت إلى الرّاهب، و كان قريبًا من مكّة، فلمّا دنت منه و عرفها قال: مالك يا سيّدة نساء قريش؟ فقالت: أقبلت إليك لتخبرني عن جبريل، فقال: سبحان الله ربّنا القُدُّوس، ما بال جبريل يذكر في هذه البلاد الّتي يعبد أهلها الأوثان؟ جبريل أمين الله و رسوله إلى أنبيائه و رسله، وهو صاحب موسى وعيسى، فعرفت كرامةالله لمحمّد. ثمّ أتت عبدًا لعُتبة بن ربيعة يقال له: عَدّاس، فسألته فأخبرها بمثل ما أخبرها به الرّاهب و أزيَد؛ قال: جبريل كان مع موسى حين أغرق الله فرعون و قومه، و كان معه حين كلّمه الله على الطّور، وهو صاحب عيسى بن مريم الّذي أيّده الله به. ثمّ قامت من عنده فأتت وَرَقَة بن نَوفَل، فسألته عن جبريل، فقال لها مثل ذلك. ثمّ سألها ماالخبر؟ فأحلفته أن يكتم ما تقول له، فحلف لها، فقالت له: إنّ ابن عبدالله ذكرلي و هو صادق، أحلف بالله ما كَذَّبَ، أنّه نزل عليه جبريل بحِراء، و أنّه نبيّ هذه الأُمّة، و أقرأه آيات أرسل بها. قال: فذعر وَرَقَة لذلك، و قال: لئن كان جبريل قد استقرّت قدماه على

الأرض، لقد نزل على خير أهل الأرض، و ما نزل إلاّ على نبيّ، و هو صاحب الأنبياء و الرّسل يرسله الله إليهم، و قد صدّقتك عنه، فأرسلي إليّ ابن عبدالله أسأله و أسمع من قوله و أُحدّثه، فإنّي أخاف أن يكون غير جبريل، فإنّ بعض الشّياطين يتشبّه به؛ ليضلّ به بعض بني آدم و يفسدهم، حتّى يصير الرّجل بعد العقل الرّضيّ مدلّهًا مجنونًا. فقامت من عنده و هي واثقة بالله أن لا يفعل بصاحبها إلاّ خيرًا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال وَرَقَة، فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمَ وَ مَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات. فقال لها: كلاّ والله، إنّه لجبريل، فقالت له: أحبّ أن تأتيه فتخبره، لعلّ الله أن يهديه فجاءه رسول الله ﷺ فقال له وَرَقَة هذا الذّي جاءك جاءك في نور أو ظلمة؟ فأخبره رسول الله ﷺ عن صفة جبريل و ما رآه من عظمته و ما أوحاه إليه. فقال وَرَقَة: أشهد أنّ هذا جبريل، وأنّ هذا كلام الله، فقد أمرك بشيء تبلّغه قومك، و أنّه لأمر نبوّة، فإن أدرك زمانك أتّبعك، ثمّ قال: أبشر ابن عبدالمطّلب بما بشّرك الله به قال: وذاع قول وَرَقَة و تصديقه لرسول الله ﷺ فشقّ ذلك على الملأ من قومه قال: و فترالوحي، فقالوا: لوكان من عندالله لتتابع، و لكنّ الله قلاه فأنزل لله: وَالضُّحىٰ، وأَلَمْ نَشْرَحْ بكمالهما.

٢٧ـ و قال البَيْهَقيّ: حدّثنا أبو عبدالله الحافظ، حدّثنا أبو العبّاس، حدّثنا أحمد بن عبد الجبّار، حدّثنا يونس عن ابن إسحاق، حدّثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزُّبَير، أنّه حدّثه عن خديجة بنت خُوَيْلِد أنّها قالت... [و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٣٥، ثمّ قال:].

إنّ هذا لملك يا عمّ، فأثبت و أبشر. ثمّ آمنت به، و شهدت أنّ ما جاء به هو الحقّ.

٢٨ـ قال ابن إسحاق: فحدّثت عبدالله بن حسن هذا الحديث، فقال: قد سمعت أُمّي فاطمة بنت الحسين تحدّث بهذا الحديث عن خديجة، إلاّ أنّي سمعتها تقول: أدخلت رسول الله ﷺ بينها و بين درعها، فذهب عند ذلك جبريل عليه السلام.

قال: البَيْهقيّ: و هذا شيء كان من خديجة تصنعه تستثبت به الأمر احتياطًا لدينها وتصديقًا. فأمّا النّبيّ ﷺ فقد كان وثق. بما قال له: جبريل، وأراه من الآيات الّتي ذكرناها مرّةً بعد أُخرى، و ما كان من تسليم الشَّجَر و الحَجَر عليه ﷺ تسليمًا.

٢٩ـ وقد قال مُسلم في صحيحه: حدّثنا أبوبكر بن أبي شَيْبَة، حدّثنا يحيى بن بُكَيْر،

حدّثنا إبراهيم بن طَهْمان، حدّثني سَمّاك بن حَرب عن جابر بن سَمُرة ﷺ، أنّ رسول‌الله ﷺ قال «**إنّي لأعرف حجرًا بمكّة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعَث، إنّي لأعرفه الآن**».

٣٠ـ و قال أبو داود الطَّيالِسيّ: حدّثنا سُليمان بن مُعاذ عن سَمّاك بن حَرْب، عن جابر بن سَمُرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ بمكّة لحجرًا كان يسلّم عليّ ليالي بُعِثت، إنّي لأعرفه إذا مررت عليه».

٣١ـ وروى البَيْهَقيّ من حديث إسماعيل بن عبدالرّحمان السُّدّيّ الكبير عن عَبّاد بن عبدالله، عن عليّ بنِ أبي طالب ﷺ، قال: «كنّا مع رسول الله بمكّة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شَجرٌ ولاجَبلٌ إلاّ قال: السّلام‌عليك يارسول‌الله» وفي رواية: «لقد رأيتني أدخل معه الواديّ، فلا يمرّ بحجرٍ ولاشَجرٍ إلاّ قال: السّلام‌عليكم يارسول‌الله، وأنا أسمعه».

٣٢ـ قال البخاريّ في روايته المتقدّمة: ثمّ فترالوحي حتّى حزن النّبيّ ﷺ فيما بلغنا حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أوفى بذَرْوَة جبل لكي يلقي نفسه تبدّى له جبريل، فقال: يا محمّد إنّك رسول الله حقًّا فيسكُن لذلك جأشه، و تقُرّ نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذَرْوَة جبل تبدّى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

٣٣ـ و في الصّحيحين من حديث عبدالرَّزّاق عن مَعْمَر، عن الزُّهْريّ قال: سمعت أبا سَلَمَة... [**و ذكر كما تقدّم عن البُخاري، الرّقم ٦، ثمّ قال:**].

فهذا كان أوّل ما نزل من القرآن بعد فترةالوحي لا مطلقا، ذاك قوله: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ و قد ثبت عن جابر أنّ أوّل ما نزل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. واللّائق حمل كلامه ما أمكن على ما قلناه، فإنّ في سياق كلامه ما يدلّ على تقدّم مجئ الملك الّذي عرفه ثانيًا بما عرفه به أوّلاً إليه. ثمّ قوله: يحدّث عن فتره الوحي، دليل على تقدّم الوحي على هذا الإيحاء، و الله أعلم.

٣٤ـ و قد ثبت في الصّحيحين من حديث عليّ بن المبارك و عند مُسلم و الأوزاعيّ كلاهما عن يحيى بن أبي كثير، قال سألت أبا سَلَمَة... [**و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ، الرّقم ٣، ثمّ قال:**].

وقال في رواية: «فإذا الملك الّذي جاءَني بحِراء جالس على كُرسيّ بين السّماء والأرض، فجثيت منه».

و هذا صريح في تقدّم إتيانه إليه، و إنزاله الوحي من الله عليه ما ذكرناه، والله أعلم.

و منهم زعم: أنّ أوّل ما نزل بعد فتره الوحي، سورة: ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيْلِ اِذَا سَجىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلىٰ ...﴾ [1] قاله محمّد بن إسحاق.

وقال بعض القُرّاء: و لهذا كَبَّر رسول الله ﷺ في أوّلها فرحًا، و هو قول بعيد يردّه ما تقدّم من رواية صاحبي الصّحيح، من أنّ أوّل القرآن نزولاً بعد فترة الوحي: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر * قُمْ فَاَنْذِرْ﴾. و لكن نزلت سورة: (والضّحىٰ) بعد فَتْره أُخرىٰ كانت ليالي يسيرة، كما ثبت في الصّحيحين و غيرهما من حديث الأسود بن قَيْس عن جُندَب بن عبدالله البَجَليّ؛ قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا، فقالت امرأة ما أرىٰ شيطانك إلاّ تركك، فأنزل الله، ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيْلِ اِذَا سَجىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلىٰ﴾ و بهذا الأمر حصل الإرسال إلى النّاس، و بالأوّل حَصَلت النّبوّة و قد قال بعضهم: كانت مدّة الفترة قريبًا من سنتين أو سنتين و نصفًا.

والظّاهر والله أعلم أنّها المدّة الّتي اقترن معه ميكائيل، كما قال الشّعبيّ و غيره، ولاينفي هذا تقدّم إيحاء جبريل إليه أوّلاً ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ ثمّ اقترن به جبريل بعد نزول ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر * قُمْ فَاَنْذِرْ * وَ رَبُّكَ فَكَبِّرْ * وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [2] و ثمّ حَمِيَ الوحي بعد هذا و تتابع ـ أي تدارك شيئًا بعد شيءٍ ـ و قام حينئذ رسول الله ﷺ في الرّسالة أتمّ القيام، و شَمَّرَ عن ساق العزم، و دعا إلى الله القريب و البعيد، و الأحرار و العبيد، فآمن به حينئذٍ كلّ لبيب نجيب سعيد، واستمرّ على مخالفته و عصيانه كلّ جبّار عنيد. (٣: ٢ـ٧)

---

١ ـ الضّحى /١ـ٣.

٢ ـ المدّثّر /١ـ٥.

الفصل الثّاني والعشرون

نصّ الزَّركشيّ (م:٧٩٧) في كتابه: «البرهان في علوم القرآن»

معرفة أوّل ما نزل من القرآن و آخر مانزل

أوّل مانزل

فأمّا أوّله، ففي صحيح البُخاريّ في حديث بدء الوحي ما يقتضي أنّ مانزل عليه ﷺ اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ[١] ثمّ المدّثّر[٢].

وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عائشة ﵂ صريحًا، وقال: صحيح الإسناد.

ولفظ مسلم: أوّل مانزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْبِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله ـ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

و وقع في صحيح البخاريّ إلى قوله: ﴿و رَبُّكَ الاَكْرَمُ﴾، و هو مختصر، و في الأوّل زيادة، و هي من الثّقة مقبولة.

و قد جاء ما يعارض هذا، ففي صحيحي مُسلم عن جابر: أوّل مانزل من القرآن سورة المدّثّر.[٣]

و جمع بعضهم بينهما بأنّ جابرًا سمع النّبيّ ﷺ يذكر قصّة بدء الوحي، فسمع آخرها ولم يسمع أوّلها، فتوهّم أنّها أوّلُ مانزلت، وليس كذلك، نعم هي أوّل مانزل بعدسورة (اِقْرَأْ) وفترةالوحي؛ لما ثبت في الصّحيحين[٤] أيضًا عن جابر ﵁ أنّ رسول الله ﷺ كان يحدّث عن فترة الوحي، قال في حديثه: بينما... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ٣ ثمّ قال:]**.

فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الّذي جاءه بحِراء قبل هذه المرّة، وأخبر في

---

١ ـ العلق /١ـ٥.

٢ ـ صحيح البُخاريّ ١: ٦ـ٧ بسنده عن عائشة.

٣ ـ صحيح مُسلم ١: ١٤٤ بسنده عن يحيى.

٤ ـ صحيح البخاريّ ١: ٢٢٨، و صحيح مُسلم ١: ١٤٣، عن أبي سَلَمَة بن عبد الرّحمان عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ.

حديث عائشة أنّ نزول: (اِقْرَأْ) كان في غار حِراء، و هو أوّل وحي، ثمّ فتر بعد ذلك. و أخبر في حديث جابر أنّ الوحي تتابع بعد نزول: (يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ) فَعِلم بذلك أنّ (اِقْرأ) أوّل ما نزل مطلقًا، و أنّ سورة المدّثّر بعده. و كذلك قال ابن حِبّان في صحيحه: لا تضادّ بين الحديثين، بل أوّل ما نزل: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ﴾ بغار حِراء، فلمّا رجعَ إلى خديجة ﵂ و صبّت عليه الماء البارد، أنزل الله عليه في بيت خديجة: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ فظهر أنّه لمّا نزل عليه: (اِقْرَأ) رجع فتدثّر، فأنزل عليه: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾.

و قيل أوّل ما نزل سورة الفاتحة، وروي ذلك من طريق أبي إسحاق عن أبي مَيْسِره؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصّوت انطلق هارباً، و ذكر نزول الملك عليه وقوله قل: ﴿اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] إلى آخرها.

وقال القاضي أبوبكر في «الانتصار»: و هذا الخبر منقطع، و أثبتُ الأقاويل ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و يليه في القوّة ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ و طريق الجمع بين الأقاويل أنّ أوّل مانزل من الآيات: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و أوّل ما نزل أوامر التّبليغ: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾، و أوّل مانزل من السّور سورة الفاتحة. وهذا كما ورد في الحديث «أوّل ما يحاسب به العبد الصّلاة»[2]، و«أوّل ما يقضى فيه الدّماء»[3] و جمع بينهما بأنّ أوّل ما يحكم فيه من المظالم الّتي بين العباد الدّماء، و أوّل ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنيّة الصّلاة.

وقيل: أوّل ما نزل للرّسالة: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ و للنّبوّة: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فإنّ العلماء قالوا: قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْبِاسْمِ رَبِّكَ﴾ دالّ على نبوّة محمّد ﷺ؛ لأنّ النّبوّة عبارة عن الوحي إلى الشّخص على لسان الملك بتكليف خاصّ، وقوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ﴾[4] دليل على رسالته ﷺ؛ لانّها عبارة عن الوحي إلى الشّخص على لسان الملك بتكليف عامّ.

و ذكر القاضيّ في «الانتصار» رواية، ثمّ نزل بعد سورة (اِقْرَأْ) ثلاث آيات من أوّل

---

١ ـ فاتحة الكتاب /١.

٢ ـ نقله السّيوطيّ في الجامع الصّغير ١: ١٩٣، عن الطّبرانيّ، و لفظه «أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصّلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، و إن فسدت، فسدت سائر عمله».

٣ ـ رواه البخاريّ في كتاب الدّيات ٤: ١٨٦، و لفظه «أوّل ما يقضى بين النّاس في الدّماء».

٤ ـ المدّثّر /١ـ٢.

نوح، و ثلاث آيات من أوّل المدّثّر.

و عن مُجاهد قال: أوّل سورة أُنزلت (اِقْرَأْ)، ثمّ نوح.

وذكر الحاكم في «الإكليل» أنّ أوّل آية أُنزلت في الإذن بالقتال قوله تعالى: ﴿اِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اَنْفُسَهُمْ وَ اَمْوَالَهُمْ بِاَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [١].

وروي في المستدرك عن ابن عبّاس: أوّل آية أُنزلت فيه: ﴿اُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ...﴾. [٢]

آخر مانزل

وأمّا آخره فاختلفوا فيه؛ فعن ابن عبّاس رضي الله عنه [سورة] ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾، و عن عائشة سورة المائدة، و قيل: ﴿واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾. [٣]

وقال السُّدّيّ: آخر مانزل: ﴿فَاِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ اِلٰهَ اِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [٤]. **في «صحيح البخاريّ» في تفسير سورة براءة عن البَراء بن عازب رضي الله عنهما: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ﴾ [٥]، و آخر سورة نزلت براءة.**

وفي رواية غيره: آخر سُورة أُنزلت كاملة سورة براءة، و آخر آية نزلت خاتمة النّساء، و ذكر ابن الأنباريّ عن أبي إسحاق عن البَراء؛ قال آخر آية نزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ﴾ [٦]، ثمّ قال: و أخطأ أبو إسحاق، ثمّ ساق سنده من طرق إلى ابن عبّاس: آخر آية أُنزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ [٧]، و كان بين نزولها و وفاة النّبيّ صلّى الله عليه وآله أحدٌ و ثمانون يومًا، و قيل: تسع ليال، انتهى. **[ثمّ ذكر رواية ابن عبّاس نقلاً عن الحاكم... كما تقدّم عنه الرّقم ٧، فقال:].**

رواه أحمد في المسند عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب... **[و ذكر كما تقدّم عن ابن كثير الرّقم ٩، ثمّ قال:].**

و قال بعضهم: روى البُخاريّ آخر ما نزل آية الرّبا. وروى مُسلم آخر سورة نزلت

---

١ ـ التّوبة /١١١.
٢ ـ الحج /٣٩.
٣ ـ البقرة /٢٨١.
٤ ـ التّوبة /١٢٩.
٥ ـ النّساء /١٧٦.
٦ ـ النّساء /١٧٦.
٧ ـ البقرة /٢٨١.

جميعًا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾[١].

قال القاضيّ أبوبكر في «الانتصا» و هذه الأقوال ليس في شيء، منها ما رُفـع إلى النّبيّ ﷺ و يجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد و تغليب الظّنّ، و ليس العلم بذلك من فرائض الدّين، حتّى يلزم ما طعن به الطّاعنون من عدم الضّبط.

و يحتمل أنّ كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ في اليوم الّذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، و غيره سمع منه بعد ذلك، و إن لم يسمعه هو لمفارقته له و نزول الوحي عليه بقرآن بعده.

و يحتمل أيضًا أن تنزل الآية الّتي هي آخر آية تلاها الرّسول ﷺ مع آيات نـزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها و تلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرًا و تلاوته، فيظنّ سامع ذلك أنّه آخر ما نزل في التّرتيب. (١: ٢٠٦ ـ ٢١٠)

١ ـ النّصر /١.

الفصل الثّالث والعشرون

نصّ ابن حَجَر (م: ٨٥٢) في «فتح الباريّ»

[بدء الوحي أوّل و آخر مانزل من القرآن]

قوله: (بدء الوحي) قال عَيّاض: روي بالهمز مع سكون الدّال من الابتداء، و بغير همز مع ضمّ الدّال و تشديد الواو من الظّهور. قلت: ولم أره مضبوطًا في شيءٍ من الرّوايات الّتي اتّصلت لنا إلاّ أنّه وقع في بعضها «كيف كان ابتداء الوحي» فهذا يرجح الأوّل و هوالّذي سمعناه من أفواه المشايخ، و قداستعمل المصنّف هذه العبارة كثيرًا، كبدء الحيض و بدء الأذان و بدء الخلق...(١:٥)

أوّل ما نزل من القرآن

قوله: ﴿فقلت: أنبئت أنّه اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في رواية أبي داود الطَّيَالِسيّ عن حَرْب، قلت: إنّه مانزل: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و لم يبيّن يحيى بن أبي كثير مَن أنبأه بذلك، و لعلّه يريد عُروة بن الزُّبَيْر كما لم يبيّن أبو سَلَمَة مَن أنبأه بذلك و لعلّه يريد عائشة، فإنّ الحديث مشهور عن عُروَة، عن عائشة كما تقدّم في بدء الوحي من طريق الزُّهْريّ عنه مطوّلاً وتقدّم هناك أنّ رواية الزُّهْريّ عن أبي سَلَمَة عن جابر، تدلّ على أنّ المراد بالأوّليّة في قوله: أوّل ما نزل سورة المدّثّر أوّليّة مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أنّ المراد أنّها أوّليّة مطلقة، فكأنّ من قال: أوّل مانزل: (اِقْرَأْ) أراد أوّليّة مطلقة، ومن قال: إنّها المدّثّر، أراد بقيد التّصريح بالإرسال. قال الكَرْمانيّ: استخرج جابر أوّل ما نزل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ باجتهاد، و ليس هو من روايته. و الصّحيح ما وقع في حديث عائشة، ويحتمل أن يكون قوله في هذه الرّواية: «فرأيت شيئاً، أي جبريل بحِراء فقال لي

(اقرَأ) فخفت، فأتيت خديجة، فقلت: دثّروني، فنزلت: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾».

قلت: يحتمل أن تكون الأوّليّة في نزول ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بقيد السّبب، أي هي أوّل ما نزل من القرآن بسبب متقدّم، وهو ما وقع من التّدثّر النّاشيء عن الرّعب، (اقرَأ) فنزلت ابتداء بغير سبب متقدّم، ولا يخفى بُعد هذا الاحتمال و في أوّل سورة نزلت قول آخر عن عَطاء الخُراسانيّ، قال: المزمّل نزلت قبل المدّثّر، و عَطاء ضعيف و روايته معضلة، لأنّه لم يثبت لقاؤه لصحابي معيّن، و ظاهر الأحاديث الصّحيحة تأخّر المزّمّل لأنّ فيها ذكر قيام اللّيل و غير ذلك ممّا تراخىٰ عن ابتداء نزول الوحي، بخلاف المدّثّر فإنّ فيها: ﴿قُمْ فَأَنْذِر﴾ وعن مجاهد: أوّل سورة (ن والقلم) و أوّل سورة نزلت بعد الهجرة: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾. والمشكل من رواية يحيى بن أبي كثير قوله: «جاورت بحِراء شَهرًا، فلمّا قضيت جواري نزلت، فاستبطنت الوادي فنوديت» إلى أن قال فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء ـ يعني جبريل ـ فأتيت خديجة فقلت: دثّروني» و يزيل الإشكال أحد أمرين: إمّا أن يكون سقط على يحيى بن أبي كثير و شيخه من القصّة مجيء جبريل بحِراء ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و سائر ما ذكرته عائشة، و إمّا أن يكون جاور ﷺ بحِراء شهرًا آخر فقد تقدّم أنّ في مُرسل عُبَيْد بن عُمَيْر عند البَيْهَقيّ أنّه كان يجاور في كلّ سنة شهرًا و هو رمضان و كان ذلك في مدّة فترة الوحي فعاد إليه جبريل بعد إنقضاء جواره. (٨:٥٥)

قوله: ﴿سورة اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ قال صاحب الكشّاف ذهب ابن عبّاس ومجاهد إلى أنّها أوّل سورة نزلت، و أكثر المفسّرين إلى أنّ أوّل سورة نزلت: فاتحة الكتاب، كذا قال: والّذي ذهب أكثر الأئمّة إليه هو الأوّل، و أمّا الّذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلاّ عدد أقلّ من القليل بالنّسبة إلى من قال بالأُولى.

(قوله: و قال قُتَيبة: حدّثنا حَمّاد عن يحيى بن عَتيق، عن الحسن، قال: اُكتب في المُصحف في أوّل الإمام بسم الله الرَّحمٰنِ الرَّحِيم) و اجعل بين السّورتين خطًّا، في رواية أبي ذرّ عن غير الكشميهنيّ، حدّثنا قُتَيْبة و قد أخرجه ابن الضُّرَيْس في «فضائل القرآن»، حدّثنا أبو الرَّبيع الزَّهْرانيّ، حدّثنا حَمّاد بهذا، و حَمّاد هو ابن زيد و شيخه بَصْريّ ثقة من طبقة أيّوب مات قبله، و لم أرله في البُخاريّ إلاّ هذا الموضع و قوله: في أوّل الإمام

أي أُمّ الكتاب. و قوله: خطًّا، قال الدّاوُديّ: إن أراد خطًّا فقط بغير بَسْمَلة فليس بصواب، لاتّفاق الصّحابة على كتابة البَسْمَلة بين كلّ سورتين إلاّ «براءةٌ»، و إن أراد بالإمام أمام كلّ سورة، فيجعل الخطّ مع البَسْمَلة فحسَنٌ فكان ينبغي أن يستثني (بَرَاءَة) و قال الْكَرْمانيّ: مَعناه اجعل البَسمَلة في أوّله فقط، و اجعل بين كلّ سورتين علامة للفاصلة، و هو مذهب حَمزة من القُرّاء السّبعة.

قلت: المنقول ذلك عن حَمزة في القراءة لا في الكتابة، قال: و كان البخاريّ أشار إلى أنّ هذه السّورة لمّا كان أوّلها مبتدأ بقوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أراد أن يبيّن أنّه لا تجب البَسْمَلَة في أوّل كلّ سورة، بل من قرأ البَسْمَلَة في أوّل القرآن كفاه في امتثال هذا الأمر. نعم، استنبط السُّهَيْليّ من هذا الأمر ثبوت البَسْمَلَة في أوّل الفاتحة؛ لأنّ هذا الأمر هو أوّل شيءٍ نزل من القرآن، فأولى مواضع امتثاله أوّل القرآن **[إلى أن قال:]**

قوله: (أوّل ما بُدِىء به رسول الله ﷺ الرُّؤيا الصّادقة) زاد في رواية عُقَيْل كما تقدّم في بدء الوحي «من الوحى» أي في أوّل المبتدآت من إيجاد الوحي الرُّؤيا، وأمّا مطلق ما يدلّ على نبوّته فتقدّمت له أشياء مثل تسليم الحَجَر، كما ثبت في صحيح مُسلم و غير ذلك و «ما» في الحديث نكرة موصوفة، أي أوّل شيء و وقع صريحًا في حديث ابن عبّاس عند ابن عائذ، و وقع في مراسيل عبدالله بن أبي بكر بن حَزْم عند الدُّولابيّ ما يدلّ على أنّ الّذي كان يراه ﷺ: هو جبريل، و لفظه أنّه قال لخديجة: بعد أن أقرأه جبريل: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أرأيْتك الّذي كنت أُحدّثك أنّي رأيته في المنام، فإنّه جبريل استعلن... **[إلى أن قال:]**

قوله: (قال: والتّحنّث، التّعبّد اللّيالي) هذا ظاهر في الإدراج؛ إذ لو كان من بقيّة كلام عائشة لجاء فيه «قالت» و هو يحتمل أن يكون من كلام عُروَة أو من دونه، و لم يأت التّصريح بصفة تعبّده، لكن في رواية عُبَيْد بن عُمَير عند ابن إسحاق «فيطعم من يرد عليه من المساكين» و جاء عن بعض المشايخ «أنّه كان يتعبّد بالتّفكّر» و يحتمل أن تكون عائشة أطلقت على الخلوة بمجرّدها تعبّدًا، فإنّ الانعزال عن النّاس و لا سيّما من كان

على باطل من جملة العبادة كما وقع للخليل عليه السلام حيث قال: ﴿إِنّى ذَاهِبٌ إِلىٰ رَبّى﴾.[1]

و هذا يلتفت إلى مسألة أُصوليّة، و هو أنّه صلى الله عليه وآله هل كان قبل أن يوحىٰ إليه متعبّدًا بشريعة نبيّ قبله قال الجمهور: لا، لأنّه لوكان تابعًا لا ستبعد أن يكون متبوعًا، و لأنّه لوكان، لنُقِل من كان يُنسب إليه. و قيل نعم و اختاره ابن الحاجب.

واختلفوا في تعيينه على ثمانية أقوال؛ أحدها: آدم، حكاه ابن بُرهان، **الثّاني**: نوح، حكاه الآمديّ، **الثّالث**: إبراهيم، ذهب إليه جماعة، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿اَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ اِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[2] **الرّابع**: موسى، الخامس: عيسى، **السّادس**: بكلّ شيءٍ بلغه عن شرع نبيّ من الأنبياء و حجّته ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدٰيهُم اقْتَدِه﴾[3] **السّابع**: الوقف، واختاره الآمديّ و لا يخفى قوّة الثّالث، ولا سيّما مع ما نقل من ملازمته للحجّ و الطّواف و نحو ذلك ممّا بقى عندهم من شريعة إبراهيم والله أعلم. وهذا كلّه قبل النّبوّة... **[إلى أن قال:]**

تنبيه: إذا علم أنّه كان يجاور في غار حِراء في شهر رمضان، و أنّ ابتداء الوحي جاءه و هو في الغار المذكور، اقتضى ذلك أنّه نُبِّئَ في شهر رمضان، و يُعَكِّر على قول ابن إسحاق أنّه بعث رأس الأربعين مع قوله أنّه في شهر رمضان ولدويمكن أن يكون المجئ في الغار كان أوّلاً في شهر رمضان، وحينئذ نُبِّئَ و أُنزل عليه: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ثمّ كان المجيء الثّاني في ربيع الأوّل بالإنذار، و أُنزلت عليه: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ﴾[4] فيحتمل قول ابن إسحاق على رَأس الأربعين، أي عند المجيء بالرّسالة، و الله أعلم.

(قوله: اِقْرَاْ) يحتمل أن يكون هذا الأمر لمجرّد التّنبيه و التّيقّظ؛ لما سيلقىٰ إليه، ويحتمل أن يكون على بابه من الطّلب، فيُستدلّ به على تكليف مالايطاق في الحال، و إن قدر عليه بعد ذلك. و يحتمل أن تكون صيغة الأمر محذوفة، أي قُل اِقْرَأ، أو إن كان الجواب «ما أنا بقارىء» فعلى ما فهم من ظاهر اللّفظ، و كان السّرّفي حذفها لئلاّيتوهّم أنّ لفظ «قُل» من القرآن، و يؤخذ منه جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، و أنّ الأمر على الفور، لكن يمكن أن يجاب بأنّ الفور فهم من القرينة.

---

١ ـ الصّافات /٩٩.

٢ ـ النّحل /١٢٣.

٣ ـ الأنعام /٩٠.

٤ ـ المدّثّر /١ ـ٢.

قوله: (ما أنا بقارىء) وقع عند ابن إسحاق في مرسل عُبَيْد بن عُمَيْر: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «أتاني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: (اِقْرَأ)، فقلت: (ما أنا بقارىء). قال السُّهَيْليّ: قال بعض المفسّرين: إنّ قوله تعالى: **﴿الَم * ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ﴾**[١] إشارة إلى الكتاب الّذي جاء به جبريل حيث قال له: (اِقْرَأ).

قوله: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك ـ إلى ـ مَالَم يَعْلَمْ) هذا القدر من هذه السّورة هو الّذي نزل أوّلاً؛ بخلاف بقيّة السّورة، فإنّما نزل بعد ذلك بزمان، و قد قدّمت في تفسير المدّثّر بيان الاختلاف في أوّل ما نزل. والحكمة في هذه الأوّليّة أنّ هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن، ففيها براعة الاستهلال، و هي جديرة أن تسمّى عنوان القرآن؛ لأنّ عنوان الكتاب بجمع مقاصده بعبارة و جيزة في أوّله، و هذا بخلاف الفنّ البديعيّ المسمّى العنوان، فإنّهم عرّفوه بأن يأخذالمتكلّم في فنّ فيؤكّده بذكر مثال سابق و بيان كونها اشتملت على مقاصد القرآن أنّها تنحصر في علوم التّوحيد و الأحكام و الأخبار، و قد اشتملت على الأمر بالقراءة و البداءة فيها ببسم الله، و في هذه الإشارة إلى أُصول الدّين، وفيها ما يتعلّق بالإخبار من قوله: **﴿علَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾**.

قوله: (بِاسْمِ رَبِّكَ) استدلّ به السُّهَيْليّ على أنّ البَسْمَلة يؤمر بقرائتها أوّل كلّ سورة لكن لايلزم من ذلك أن تكون آية من كلّ سورةٍ كذا قال و قرّره الطِّيْبيّ، فقال قوله: **﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾**، قدّم الفعل الّذي هو متعلّق الباء؛ لكون الأمر بالقراءة أهمّ و قوله: (اِقْرَأ) أمر بإيجاد القراءة مطلقًا. وقوله: **﴿بِاسْمِ رَبِّك﴾** حال، أي اِقرَأ مفتتحًا بِاسْم رَبِّكَ. و أصحّ **تقاديره قل باسم الله، ثمّ اِقرَأ قال: فيؤخذ منه أنّ البَسْمَلة مأمور بها في ابتداء كلّ قراءة، انتهى.**

لكن لايلزم من ذلك أن يكون مأمورًا بها، فلا تدلّ على أنّها آية من كلّ سورة، وهو كما قال؛ لأنّها لو كان للزم أن تكون آية قبل كلّ آية، و ليس كذلك. و أمّا ماذكره القاضي عَيَّاض عن أبي الحسن بن القَصَّار من المالكيّة أنّه قال في هذه القصّة ردّ على الشّافعيّ في قوله: إنّ البَسْمَلة آية من كلّ سورة، قال: لأنّ هذا أوّل سورة أُنزلت، و ليس في أوّلها البَسْمَلَة، فقد تعقّب بأنّ فيها الأمر بها و إن تأخّر نزولها.

---

١ ـ البقرة /١ ـ ٢.

وقال النَّوَويّ: ترتيب آية السّور في النّزول لم يكن شرطًا، و قد كانت الآية تنزل فتوضع في مكان قبل الّتي نزلت قبلها، ثمّ تنزل الأُخرى فتوضع قبلها، إلى أن استقرّالأمر في آخر عهده ﷺ على هذه التّرتيب، و لو صحّ ما أخرجه الطَّبَريّ من حديث ابن عبّاس، أنّ جبريل أمر النّبيّ ﷺ بالاستعاذة والبَسْمَلة قبل قوله (اِقْرَأ) لكان أولى في الاحتجاج، لكن في إسناده ضعف و انقطاع، و كذا حديث أبي مَيْسرِة، أنّ أوّل ما أمر به جبريل قال له: قُل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو مرسل، و إن كان رجاله ثقات، والمحفوظ أنّ أوّل ما نزل: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك...﴾، و أنّ نزول الفاتحة كان بعد. **[إلى أن قال:]**

قوله: (زمّلوني زمّلوني) كذا للأكثر مرّتين، و كذا تقدّم في بدء الوحي، و وقع لأبي ذَرّ هنا مرّة واحدة. و التّزميل التّلفيف و قال: ذلك لشدّة مالحقه من هول الأمر، و جرت العادة بسكون الرّعدة بالتّلفيف. و وقع في مرسل عُبَيد بن عُمَيْرُ أنّه ﷺ خرج فسمع صوتًا من السّماء يقول: يا محمّد، أنت رسول الله و أنا جبريل. «فوقفت أنظر إليه، فما أتقدّم و ما أتأخّر، و جعلت أصرف وجهي في ناحية آفاق السّماء، فلا أنظر في ناحية منها إلاّ رأيته كذلك» و سيأتي في التّعبير أنّ مثل ذلك وقع له عند فَتْرة الوحي، وهو المعتمد فإنّ إعلامه بالإرسال وقع بقوله: (قُم فَاَنْذِرْ) **[إلى أن قال:]**

قوله: (قال لخديجة: أي خديجة مالي لقد خشيت على نفسي فأخبرها الخبر) تقدّم في بدء الوحي بلفظه: «فقال لخديجة و أخبرها الخبر، لقد خشيت» و قوله: و أخبرها الخبر، جملة معترضة بين القول و المقول و قد تقدّم في بدء الوحي ما قالوه في متعلّق الخشية المذكورة، و قال عَيّاض: هذا وقع له أوّل ما رأى التّباشير في النّوم ثمّ اليقظة، وسمع الصّوت قبل لقاء الملك، فأمّا بعد مجيء الملك فلا يجوز عليه الشّكّ، و لا يخشىٰ من تسلّط الشّيطان و تعقّبه النَّوَويّ بأنّه خلاف صريح الشّفاء، فإنّه قال: بعد أن غطّه الملك واَقْرأه: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك﴾، قال: إلاّ أن يكون أراد أنّ قوله: «خشيت على نفسي» وقع منه إخبار عمّا حصل له أوّلاً، لا أنّه حالة إخبارها بذلك جازت، فَيَتَّجه و الله أعلم.

قوله: (قالت خديجة: كلاّ أبشر... فوالله لا يخزيك الله أبدًا)... و وقع في رواية مَعْمَر في التّعبير «يحزنك» بمهملة و نون، ثلاثيًّا و رباعيًّا. قال اليزيديّ: «أحزنه» لغة تَميم،

و«حزنه» لغة قُريش، و قد نبّه على هذا الضّبط و الخَـزْي: الوقـوع فـي بـليّة و شـهرة بذلّة... [ثمّ ذكر رواية ابن إسحاق عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزُّبَير، كما تقدّم عن الطَّبريّ الرّقم ۳۵، فقال:] و في رواية مرسلة عند البَيْهَقيّ فـي الدّلائـل أنّـها ذهـبت إلى عَدّاس، و كان نصرانيًّا، فذكرت له خبر جبريل، فقال: هو أمين الله بينه و بين النّبيّين. ثمّ ذهبت إلى وَرَقة.

قوله: (ماذا ترىٰ؟) في رواية ابن مَنْدَة في الصّحابةَ من طريق سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس عن وَرَقَة بن نَوْفَل، قال: قلت: يا محمّد! أخبرني عن هذا الّذي يأتيك؟ قال: يأتيني من السّماء جناحاه لُؤلُؤ و باطن قدميه أخضر... **[إلى أن قال:]**

قوله: (أُنزل على موسى) كذا هنا على البناء للمجهول وقد تقدّم في بدء الوحـي «أنزل الله»، وقع في مرسل أبي مَيْسِرة «أبشر فأنا أشهد أنّك الّذي بَشّر به ابن مَرْيَم و أنّك على مثل ناموس موسى، وأنّك نبيّ مرسل، وأنّك ستؤمر بالجهاد» و هذا أصرح ما جاء في إسلام وَرَقَة، أخرجه ابن إسحاق، و أخرج التِّرمِذيّ عن عـائشة أنّ خـديجة قـالت للنّبيّ ﷺ لمّا سئل عن وَرَقَة: كان وَرَقَة صدّقك، و لكنّه مات قبل أن تظهر، فقال: «رأيته في المنام وعليه ثياب بيض، و لو كان من أهل النّار لكان لباسه غير ذلك» و عند البَزّاز و الحاكم عن عائشة مرفوعًا: «لا تسبّوا وَرَقَة، فإنّي رأيت له جَنّة أوجَنّتين و قد استوعبت ماورد فيه في ترجمته من كتابي في الصّحابة و تقدّم بعض خبره في بدء الوحي، و تقدّم أيضًا ذكر الحكمة في قول وَرَقَة: ناموس موسى، ولم يقل: عيسى مع أنّه كان تنصّر و إنّ ذلك و رد في رواية الزُّبَير بن بَكّار بلفظ عيسى و لم يقف بعض من لقيناه على ذلك، فبالغ في الإنكار على النَّوَويّ و من تبعه، بأنّه ورد في غير الصّحيحين: بلفظ «ناموس عيسى» و ذكر القطب الحَلَبيّ في وجه المناسبة لذكر موسى دون عيسى: أنّ النّبيّ ﷺ لعلّه لمّا ذكر لوَرَقَة ممّا نزل عليه من (اِقْرَأ) و (يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر) و (يَاءيُّهَا الْمُزَّمِّل) فَهِم «وَرَقَة» من ذلك أنّه كلّف بأنواع من التّكاليف، فناسب ذكر موسى لذلك؛ لأنّ الّذي أُنزل على عيسى إنّما كان مواعظ، كذا قال: و هو متعقّب، فإنّ نزول: ﴿يَاءَيُّهَاالْمدّثّر﴾ و ﴿يَاءَيُّهَاالْمزّمّل﴾ إنّما نزل بعد فترة الوحي، كما تقدّم بيانه في تفسير المدّثّر، والاجتماع بوَرَقَة كان في أوّل البعثة. زعم

أنّ الانجيل كلّه مواعظ، متعقّب أيضًا، فإنّه منزّل أيضًا على الأحكام الشّرعيّة و أنّ معظمها موافقًا لِما في التّوارة، لكنّه نسخ منها أشياء، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾...[١]

قوله: (لَيتني أكون حيًّا... و إن يدركني يومك..) أي وقت الإخراج، أووقت إظهار الدّعوة، أو وقت الجهاد و تمسّك ابن القيّم الحَنْبليّ بقوله في الرّواية الّتي في بدء الوحي: ثمّ لم ينشب وَرَقَة أن توفّى، يردّ ما وقع في السّيرة النّبويّة لإبن إسحاق: أنّ وَرَقَة كان يمرّ ببلال، و المشركون يعذّبونه و هو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد والله يا بلال، لئن قتلوك لاتّخذنّ قبرك حنانًا. هذا و الله أعلم ـ وَهْمٌ: لأنّ وَرَقَة قال: و إن أدركني يومك حيًّا لأنصرنّك نصرًا مؤزّرًا، فلو كان حيًّا عند ابتداء الدّعوة لكان أوّل من استجاب، وقام بنصر النّبيّ ﷺ كقيام عُمر و حَمْزة.

قلت: و هذا اعتراض ساقط، فإنّ وَرَقَة إنّما أراد بقوله: فإن يدركني يومك حيًّا أنصرك اليوم الّذي يخرجوك فيه؛ لأنّه قال: ذلك عنه، عند قوله: «أو مخرجيّ هم» و تعذيب بلال كان بعد انتشار الدّعوة، و بين ذلك و بين إخراج المسلمين من مكّة للحبشة ثمّ للمدينة مدّة متطاولة. **[إلى أن قال:]**

قوله: (قال رسول الله ﷺ و هو يُحدِّث عن فتره الوحي قال في حديثه: بينا أنا أمشي) هذا يشعر بأنّه كان في أصل الرّواية أشياء غير هذا المذكور، و هذا أيضًا من مرسل الصّحابي؛ لأنّ جابرًا لم يدركه زمان القصّة فيحتمل أن يكون سمعها من النّبيّ ﷺ أو من صحابيّ آخر حضرها، والله أعلم.

(قوله: قال رسول الله ﷺ: وهو يحدّث عن فتره الوحي)، وقع في رواية عُقَيْل في بدء الوحي غير مصرّح بذكر النّبيّ ﷺ و وقع في رواية يحيى بن أبي كثير عن أبي سَلَمَة في تفسير المدّثّر، عن جابر، عن النّبيّ ﷺ قال: «جاورت بحِراء، فلمّا قضيت جواري هبطت فنوديت» و زاد مسلم في روايته جاورت بحِراء شهرًا... **[إلى أن قال:]**

قوله: (فنزلت يا أيّها المدّثّر) يعرف من اتّحاد الحديثين في نزول: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

---

١ ـ آل عمران /٥٠.

عقب قوله: «دثّروني و زمّلوني» أنّ المراد بزمّلوني: دثّروني، و لا يؤخذ من ذلك نـزول ﴿يَاءَيُّهَا الْمُزَمِّلُ﴾ حينئذ؛ لأنّ نزولها تأخّر عن نزول ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بالاتّفاق؛ لأنّ أوّل ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ الأمر بالإنذار، و ذلك أوّل ما بعث، و أوّل المزمّل الأمـر بـقيام اللّـيل و ترتيل القرآن، فيقتضي تقدّم نزول كثير من القرآن قبل ذلك و قد تقدّم في تفسير المدّثّر أنّه نزل من أوّلها إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾... [إلى أن قال:]

قوله: (باب قوله: خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) ذكر فيه طَرْفًا من الحديث الّذي قـبله برواية الكشميهنيّ «الصّادقة»، قال فجاءه الملك، فقال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمْ﴾ و هذا في غايه الإجحاف، و لا أظنّ يحيى بن بُكَيْر حدّث البُخاريّ به هكذا ولاكان له هذا التّصرّف، و إنّما هذا صنيع البُخاريّ، و هو دالّ على أنّه كان يجيز الاختصار من الحديث إلى هذه الغاية. (٨: ٥٨٠ـ٥٨٧)

قوله: (إنّما نزل أوّل ما نزل منه سورة المفصّل فيها ذكر الجنّة و النّار). هذا ظاهره مغاير لما تقدّم، إنّ أوّل شيءٍ نزل: ﴿اِقْرَأْ بِسْمِ رَبِّك﴾ و ليس فيها ذكر الجنّة و النّار، فلعلّ «مِن» مقدّرة، أي من أوّل ما نزل، أوالمراد سورة المدّثّر، فإنّها أوّل ما نزل بعد فتره الوحي، و في آخرها ذكر الجنّة و النّار، فلعلّ آخرها نزل قبل نزول بقيّة سورة (اِقْرَأ) فإنّ الّذي نزل أوّلاً من (اِقْرَأ) كما تقدّم خمس آيات فقط...

قوله: (نزل الحلال و الحرام) أشارت إلى الحكمة الإلهيّة في ترتيب التّنزيل، و أنّ أوّل ما نزل من القرآن الدّعاء إلى التّوحيد، و التّبشير للمؤمن و المطيع بالجنّة و للكـافر والعاصي بالنّار، فلمّا اطمأنّت النّفوس على ذلك أُنزلت الأحكام. و لهذا قالت: و لو نزل أوّل شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا تدعهما، و ذلك لما طبعت عليه النّفوس من النّفرة عن ترك المألوف.(٩: ٣٢)

آخر ما نزل من القرآن

قوله: (ثمّ حرّم التّجارة في الخمر) تقدّم توجيهه في البيوع، و إنّ تحريم التّجارة في الرّبا وقع بعد تحريم الخمر بمدّة، فيحصل به جواب من استشكل الحديث بأنّ آيات الرّبا من آخر ما نزل القرآن، و تحريم الخمر تقدّم قبل ذلك بمدّة...

قوله: (عن ابن عبّاس) كذا قال عاصم، و خالفه داود بن أبي هِند عن الشَّعبيّ، فقال عن عمر، أخرجه الطَّبَريّ بلفظ «كان من آخر ما نزل من القرآن آيات الرّبا» و هو منقطع، فإنّ الشَّعبيّ لم يلق عمر.

قوله: (آخر آية نزلت على النّبيّ ﷺ آية الرّبا)، كذا ترجم المصنّف بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[1] وأخرج هذا الحديث بهذا اللّفظ، و لعلّه أراد أن يجمع بين قولي ابن عبّاس، فإنّه جاء عنه ذلك من هذا الوجه و جاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النّبيّ ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾، أخرجه الطَّبَريّ من طرق عنه.

و كذا أخرجه من طرق جماعة من التّابعين، وزاد عن ابن جُرَيْج، قال: يقولون: إنّه مكث بعدها تسع ليال، و نحوه لا بن أبي‌حاتم عن سعيد بن جُبَيْر، و رُوي عن غيره أقلّ من ذلك و أكثر، فقيل: إحدى و عشرين. و قيل: سبعًا، و طريق الجمع بين هذين القولين: أنّ هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الرّبا، إذ هي معطوفة عليهنّ، و أمّا ما سيأتي في آخر سورة النّساء من، حديث البَراء آخر سورة نزلت: (بَرَاءَةٌ) و آخر آية نَزَلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِى الْكَلَالَةِ﴾[2] فيجمع بينه و بين قول ابن عبّاس: بأنّ الآيتين نزلتا جميعًا، فيصدق أنّ كلاًّ منهما آخر بالنّسبة لماعداهما. يحتمل أن تكون الآخريّة في آية النّساء مقيّدة بما يتعلّق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة، و يحتمل عكسه و الأوّل أرجح، لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النّزول.

وحكى ابن عبدالسّلام أنّ النّبيّ ﷺ عاش بعد نزول الآية المذكورة أحدًا و عشرين يومًا وقيل: سبعًا وأمّا ماورد في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ﴾ أنّها آخر سورةنزلت... واللهأعلم.

تنبيه: المراد بالآخريّة في الرّبا تأخّر نزول الآيات المتعلّقة به من سورة البقرة، و أمّا حكم تحريم الرّبا فنزوله سابق لذلك بمدّة طويلة على ما يدلّ عليه قوله تعالى في أثنا قصّة أحُد ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَاتَاْكُلُوا الرِّبَا اَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾[3].

قوله: (يضاهؤن: يَشبهون) [إلى أن قال]: ثمّ ذكر حديث البَراء في آخر آية نزلت و

١ ـ البقرة / ٢٨١.
٢ ـ النّساء /١٧٦.
٣ ـ آل عمران /١٣٠.

آخر سورة نزلت، فأمّا الآية فتقدّم حديث ابن عبّاس في سورة البقرة، و أنّ آخر آية أُنزلت آية الرّبا، و يجمع بأنّهما لم ينقلاه، و إنّما ذكراه عن استقراء بحسب ما اطّلع عليه و أولىٰ من ذلك أنّ كلاً منهما أراد آخريّة مخصوصة. و أمّا السّورة فالمراد بعضها أو معظمها و إلاّ ففيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النّبويّة و أوضح من ذلك أنّ أوّل (بَرَاءَةٌ) نزل عقب فتح مكّة في سنة تسع، عامّ حجّ أبي بكر، و قد نزل: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [١] و هي في المائدة في حجّة الوداع سنة عشر، فالظّاهر أنّ المراد معظمها. و لا شكّ أنّ غالبها نزل في غزوة تَبوك، و هي آخر غزوات النّبيّ ﷺ و سيأتي في تفسير: ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ أنّها آخر سورة نزلت، و أذكر الجمع هناك إن شاء الله تعالى و قد قيل في آخريّة نزول (بَرَاءَةٌ): إنّ المراد بعضها، فقيل: قوله: ﴿فَاِنْ تَابُوا وَاَقَامُوا الصَّلٰوةَ﴾ الآية [٢] وقيل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ [٣] و أصحّ الأقوال في آخريّة الآية قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ [٤] كما تقدّم في البقرة، و نقل ابن عبدالسّلاّم آخر آية نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا، ثمّ نزلت آية البقرة، و الله أعلم. (٨: ٢٥٤)

قوله: (سورةٌ اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ)، و قد أخرج النّسائي من حديث ابن عبّاس: أنّها آخر سورة نزلت من القرآن، و قد تقدّم في تفسير سورة (بَرَاءَةٌ) أنّها آخر سورة نزلت. والجمع بينهما أنّ آخريّة سورة النّصر نزولها كاملة، بخلاف براءة كما تقدّم توجيهه. و يقال: إنّ ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ نزلت يوم النّحر، و هو بمنىٰ في حجّة الوداع، و قيل عاش بعدها إحدىٰ وثمانين يومًا و ليس منافيًا للّذي قبله بناءً على بعض الأقوال في وقت الوفاة النّبويّة. و عند ابن أبي حاتم من حديث ابن عبّاس: عاش بعدها تسع ليال، وعن مُقاتِل: سبعًا، و عن بعضهم: ثلاثًا، قيل: ثلاث ساعات و هو باطل. (٨: ٥٩٦)

١ ـ المائدة /٣.
٢ ـ التّوبة /٥.
٣ ـ التّوبة /١٢٨.
٤ ـ البقرة /٢٨٠.

الفصل الرّابع والعشرون

نصّ السّيوطي (م: ٩١١) في تفسيره: «الدّر المنثور»

أوّل ما نزل الله

(البَسْمَلَة)

١ـ أخرج ابن جُرَيْج و ابن، أبي حاتم عن ابن عبّاس، قال: أوّل ما نزل جبرئيل على محمّد ﷺ، قال له جبرئيل: «بِسْمِ اللهِ» يا محمّد! يقول: اِقْرأ بذكر الله ذوالاُلوهيّة والمعبوديّة على خلقه أجمعين. (١: ٨)

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة المدّثّر)

٢ـ أخرج ابن الضُّرَيْس و ابن مَردُوَيْه و النَّحّاس و البَيْهَقيّ عن ابن عبّاس، قال: نزلت سورة المدّثّر بمكّة. و أخرج ابن مَردُوَيْه عن ابن زُبَيْر مثله.

٣ـ و أخرج الطَّيالِسيّ و عبد الرَّزّاق و أحمد و عَبْد بن حَميد و البُخاريّ و مُسلم والتِّرمِذيّ و ابن الضُّرَيْس و ابن جَرير و ابن المُنذِر و ابن مَردُوَيْه و ابن الأنباريّ، قال: سألت أبا سَلَمَة بن عبد الرّحمان عن أوّل ما نزل... [و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٤].

(٦: ٢٨٠)

(سورة العلق)

٤ـ أخرج ابن مَردُوَيْه من طرق عن ابن عبّاس، قال: أوّل ما نزل من القرآن بـمكّة ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

٥ـ وأخرج ابن أبي شَيْبَة و ابن الضُّرَيْس و ابن الأنباريّ في «المصاحف» و الطَّبَرانيّ و الحاكم، و صحّحه ابن مَرْدُوَيْه و أبو نُعَيْم في «الحِلْيَة» عن أبي موسى الأشعريّ، قال: كانت ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى﴾. أوّل سورة أُنزلت على محمّدﷺ.

٦ـ وأخرج الْبَيْهَقيّ في «الدّلائل» عن ابن شِهاب، حدّثني محمّد بن عَبّاد بن جعفر المخزوميّ أنّه سمع بعض علمائهم يقول: كان أوّل ما أنزل الله على نبيّه: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ -إلى - مَالَم يَعْلَمْ﴾. فقالوا: هذا صدرها الّذي أُنزل يوم حِراء، ثمّ أنـزل الله آخـرها بـعد ذلك ماشاء الله.

٧ـ وأخرج ابن جَرير و الحاكم و صحّحه، و ابن مَردُوَيْه و البَيْهَقيّ في «الدّلائـل» وصحّحه، عن عائشة قالت: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى﴾.

٨ـ و أخرج عَبد الرَّزّاق و أحمد و عَبْد بن حَميد و البُخاريّ و مُسلم و ابن جَرير و ابن الأنباريّ في «المصاحف» و ابن مَردُوَيْه و البَيْهَقيّ من طريق ابن شِهاب عن عُروَة بـن الزُّبَيْر، عن عائشة أنّها قالت: أوّل ما بدىء ... [و ذكر كما تقدّم نحوه عن الطَّبَريّ الرّقم ٧.]

٩ـ و أخرج ابن المُنذِر عن ابن عبّاس، قال: أوّل سورة نزلت على محمّدﷺ: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى﴾.

١٠ـ و أخرج ابن أبي شَيْبَة و عَبْد بن حَميد و ابن جَرير و ابن المُنذر عن مجاهد، قال: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى...﴾، ثمّ (ن وَ الْقَلَمِ).

١١ـ و أخرج ابن المُنذِر و ابن مَرْدُوَيْه عن ابن عبّاس قال: أوّل شيءٍ أُنزل من القرآن خمس آيات ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

١٢ـ و أخرج ابن أبي شَيْبَة عن عُبيد بن عُميْر، قال: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ ثمّ (ن وَ الْقَلَمِ).

١٣ـ و أخرج ابن الأنباريّ في «المصاحف» عن عائشة، قالت: كان أوّل مانزل بعد اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ: ن والقلم و ياءيّهاالمدّثّر والضُّحى.

١٤ـ وأخرج عبد الرّزّاق و عَبد بن حَميد عن الزُّهْريّ و عمروبن دينار: أنّ النّبيّ ﷺ كان بحِراء، إذا أتاه ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ وأخرج‌الحاكم من طريق عمرو عن جابر [مثله].

١٥ـ و أخرج ابن أبي شَيْبَة و ابن جَرير و أبو نُعَيْم في «الدّلائل» عن عبد الله بن شَدّاد، قال: أتى جبرئيل محمّدًا ﷺ، فقال: يا محمّد (اِقْرَأ)، قال: «و ما أقرأ» فضمّه، ثـمّ قـال... [وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٩].

١٦ـ و أخرج ابن مَرْدُوَيْه عن عائشة: «أنّ رسول الله ﷺ اعتكف هو و خديجة شهرًا، فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله ﷺ و سمع السّلام عليكم، قالت: فظننت أنّه فَجْأة الجنّ، فقال أبشروا، فإنّ السّلام خيرٌ. ثمّ رأى يومًا آخر جبريل على الشّمس، له جَـناحٌ بالمشرق و جَناح بالمغرب، قال: فبُهِت منه، فانطلق يريد أهله، فإذا هو بجبريل بينه و بين الباب، قال: فكلّمني حتّى آنستُ منه، ثمّ وعدني موعدًا، فجئت لموعده، واحتبس عليّ جبريل، فلمّا أراد أن يرجع إذا هو به بميكائيل، فهبط جبريل إلى الأرض و ميكائيل بين السّماء و الأرض فأخذني جبريل فصَلَقني لحلاوة القفا و شَقّ عن بطني، فأخرج منه ما شاء الله ثمّ غسله في طست من ذهب، ثمّ أعاد فيه، ثمّ كفأني الإناء كما يكفأ الإناء، ثمّ

ختم في ظهري حتّى وجدت مسّ الخاتم، ثمّ قال لي: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾، ولم أقرأ كتابًا قطّ، فأخذ بحلقي أجْهَشْتُ بالبكاء، ثمّ قال لي: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ قال: فما نسيت شيئًا بعده، ثمّ وزنني جبريل برجل فوازَنْتُه، ثمّ وزنني بآخر فوازَنْتُه، ثمّ وزنني بمائة فقال ميكائيل: تَبِعَتْه أُمّته و ربّ الكعبة، قال: ثمّ جِئتُ إلى منزلي فلم يَلقَني حَجَر و لا شَجَر إلاّ قال: السّلام عليك يا رسول الله، حتّى دخلت على خديجة، فقالت: السّلام عليك يا رسول الله.(٦: ٣٦٨)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَومًا تُرجَعُون فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١.

١٧ـ أخرج أبو عُبيد و عبد بن حَميد و النَّسائي و ابن جَرير و ابن المُنذِر و ابن الأنباريّ في «المصاحف»، و الطَّبَرانيّ و ابن مَردُوَيه و البَيْهَقيّ في «الدّلائل» من طرق، عن ابن عبّاس، قال: آخر آية نزلت على النّبيّ ﷺ ﴿وَاتَّقُوا يَومًا تُرجَعُون فِيه اِلَى اللهِ﴾.

١٨ـ و أخرج ابن أبي شَيْبَة عن السُّدّيّ و عطيّة العَوْفيّ مثله. و أخرج الأنباريّ عن أبي صالح و سَعيد بن جُبَيْر مثله.

١٩ـ و أخرج الفُريابيّ و عَبْد بن حَميد و ابن المُنذِر و البَيْهَقيّ في «الدّلائل» من طريق الكلْبيّ و أبي صالح عن ابن عبّاس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَومًا تُرجَعُون فِيهِ اِلَى اللهِ﴾، نزلت بمنى، و كان بين نزولها و بين موت النّبيّ ﷺ أحد و ثمانون يومًا.

٢٠ـ و أخرج ابن أبي حاتم عن سَعيد بن جُبَيْر، قال: آخر ما أُنزل من القرآن كلّه ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُون فِيهِ اِلَى اللهِ﴾، عاش النّبيّ ﷺ بعد نزول الآية تسع ليال، ثمّ مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأوّل. (١: ٣٦٩)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ التّوبة /١٢٧

٢١ـ و أخرج ابن أبي شَيبة و إسحاق بن راهْوَيْه و ابن مَنيع في مسنده و ابن جَرير وابن المُنذِر و أبو الشّيخ و ابن مَرْدُوَيْه و البَيْهقيّ في الدّلائل من طريق يوسف بن مِهران،

عن ابن عبّاس، عن أُبيّ بن كعب قال: آخر آية أُنزلت على النّبيّ ﷺ و في لفظٍ: أنّ آخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

٢٢ـ و أخرج ابن الضُّرَيْس في «فضائل القرآن»، و ابن الأنباريّ في المصاحف و ابن مَرْدُوَيْه عن الحسن أنّ أُبيّ بن كعب... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن القُرطُبيّ، ثمّ قال:]**

٢٣ـ و أخرج عبدالله بن أحمد بن حَنبَل في زوائد المسند، و ابن الضُّرَيْس في «فضائله»، و ابن أبي داود في «المصاحف»، و ابن أبي حاتم و أبو الشّيخ و ابن مَرْدُوَيْه والبَيْهَقيّ في «الدّلائل»، و الخَطيب في «تلخيص المتشابة»، و الضّياء في «المختارة» من طريق أبي العالية عن أُبيّ بن كَعْب، أنّه جمعوا القرآن في مُصحف... **[وذكر كما تقدّم عن ابن‌كثير الرّقم ٨]. (٣: ٢٩٥ـ٢٩٦)**

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٢٤ـ أخرج ابن جَرير و ابن المُنذِر عن قَتادة، قال: المائدة مدنيّة و أخرج أحمد وأبوعُبَيْد في «فضائله» و النّحّاس في «ناسخه» و النّسائيّ و ابن المُنذِر و الحاكم وصحّحه، وابن مَرْدُوَيْه و البَيْهَقيّ في «سُننه» عن جُبَيْر بن نُفَير، قال:... **[و ذكر كما تقدّم عن الحاكم الرّقم ٨، ثمّ قال:]**

٢٥ـ و أخرج أحمد و التِّرمِذيّ و حسّنه، و الحاكم و صحّحه، و ابن مَرْدُوَيْه و الْبَيْهَقيّ في «سُننه»، عن عبد الله بن عمر، قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة و الفتح.

٢٦ـ و أخرج أبو عُبَيْد عن محمّد بن كَعْب القُرَظيّ، قال: نزلت سورة المائدة على رسول‌الله ﷺ في حجّة الوداع فيما بين مكّة و المدينة و هو على ناقته، فانصَدَعَتْ كتفها، فنزل عنها رسول الله ﷺ.

٢٧ـ و أخرج أبو عُبَيد عن ضَمْرَة بن حَبيب و عَطِيّة بن قَيْس قالا: قال رسول الله: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلّو حلالها، وحرّموا حَرامها».

٢٨ـ و أخرج سَعيد بن منصور و ابن المُنذِر عن أبي مَيْسِرة، قال: آخر سورة أُنزلت

سورة المائدة، و أنّ فيها لسبع عشرة فريضة.(٢: ٢٥٢)

و نصّه في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»

معرفة أوّل ما نزل

اختلف في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال:

القول الأوّل ـ و هو الصّحيح: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾، روي الشّيخان و غيرهما عن عائشة، قالت: أوّل ما بُدیء به رسول الله... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ، الرّقم ٩ ثمّ قال:]**

٢٩ـ و أخرج الطَّبَرانيّ في «الكبير» بسند على شرط الصّحيح عن أبي رجاء العُطارِديّ، قال: كان أبو موسى يُقرئنا، فيُجلِسنَا حلقًا، عليه ثوبان أبيَضان، فإذا تلا هذه السّورة ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ قال هذه أوّل سورة أُنزلت على محمّد ﷺ.

٣٠ـ و قال سعيد بن منصور في سُننه: حدّثنا سُفيان عن عَمرو بن دينار: عن عُبَيْد بن عُمَيْر، قال: جاء جبريل إلى النّبيّ ﷺ، فقال له: إقرأ، قال: و ما أقرأ؟ فوالله ما أنا بقارىء، فقال: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك الّذي خَلَقَ...﴾، فكان يقول: هو أوّل ما أُنزل.

٣١ـ و قال أبو عُبَيد في فضائله: حدّثنا عبدالرّحمان عن سُفيان، عن ابن أبي نَجيع، عن مجاهد، قال: إنّ أوّل ما أُنزل من القرآن: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و ﴿ن وَ الْقَلَمِ﴾.

٣٢ـ و أخرج ابن أشْتَةَ في كتاب «المصاحف» عن عُبَيْد بن عُمَيْر، قال: جاء جبريل إلى النّبيّ ﷺ بنَمطٍ، فقال: إقرأ. قال: «ما أنا بقارىء»، قال: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك﴾، فيرون أنّها أوّل سورة أُنزلت مِن السّماء.

٣٣ـ و أُخرج عن الزُّهْريّ أنّ النّبيّ ﷺ... **[مثله عن الدُّرّ المنثور]**.

القول الثّاني ـ ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، روى الشّيخان عن سَلَمَة ابن عبدالرّحمان: سألت جابر بن عبدالله... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن الطَّبَريّ الرّقم ٣، ثمّ قال:]**

و أجاب الأوّل عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها ـ أنّ السّؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبيّن أنّ سورة المدّثّر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة إقرأ، فإنّها أوّل ما نزل منها صدرها. و يؤيّد هذا ما في الصّحيحين أيضًا عن أبي سَلَمَة، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ٣، ثمّ قال:]**.

فقوله: «الملك الّذي جاءني بحِراء» يدلّ على أنّ هذه القصّة متأخّرة عن قصّة حِراء الّتي نزل فيها: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك...﴾.

ثانيها ـ أنّ مراد جابر بالأوّليّة، أوّليّة مخصوصة بما بعد فتره الوحي لا أوّليّة مطلقة.

ثالثها ـ أنّ المراد أوّليّة مخصوصة بالأمر بالإنذار. و عبّر بعضهم عن هذا بقوله: أوّل ما نزل للنّبوّة: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾، و أوّل ما نزل للرّسالة: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر...﴾.

رابعها ـ أنّ المراد أوّل ما نزل بسبب متقدّم، وهو ما وقع من التّدثّر النّاشئ عن الرّعب. و أمّا (اِقْرَاْ) فنزلت ابتداء بغير سبب متقدّم، ذكره ابن حَجَر.

خامسها ـ أنّ جابرًا استخرج ذلك باجتهاده، و ليس هو من روايته، فيقدّم عليه ما روته عائشة، قاله الكَرمانيّ. و أحسن هذه الأجوبة الأوّل و الأخير.

القول الثّالث: سورة الفاتحة... **[ثمّ ذكر قول ابن عبّاس ومجاهد وأكثرالمفسّرين نقلاً عن الكشّاف، و قول ابن حَجَر كماتقدّم عنه، فقال:]**

وحجّته ما أخرجه البَيْهقيّ في «الدّلائل» و الواحديّ من طريق يُونُس بن بُكَيْر عن يُونُس بن عمرو ، عن أبيه، عن أبي مَيْسرِة عمرو بن شُرَحْبيل... **[و ذكر كما تقدّم عن القُرطُبيّ، قال:]** هذا مُرسَل، رجاله ثقات.

و قال البَيْهَقيّ: إن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعدما نزلت عليه إقرأ والمدّثّر.

القول الرّابع: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حكاه ابن النَّقيب في مقدّمة تفسيره قولاً زائدًا... **[ثمّ ذكر رواية الواحديّ عن عِكرِمة و الحسن الرّقم ١، و رواية ابن جَرير من طريق الضَّحّاك الرّقم ١، كما تقدّم عنهما، فقال:]** و عندي أنّ هذا لا يعدّ قولاً برأسه، فإنّه من ضرورة نزول السّورة نزول البَسْمَلَة معها، فهي أوّل آية نزلت على الإطلاق.

٣٤ـ وورد في أوّل ما نزل حديث آخر؛ روى الشَّيْخان عن عائشة، قالت: إنّ أوّل ما نزل سورة من المفصّل، فيها ذكر الجنّة و النّار، حتّى إذا ثاب النّاس إلى الإسلام نزل الحلال و الحرام.

و قد استشكل هذا بأنّ أوّل ما نزل: (اِقْرَأْ)، و ليس فيها ذكر الجنّة والنّار. وأُجيب بأنّ «مِنْ» مقدّرة، أي مِن أوّل ما نزل، والمراد سورة المدّثّر، فإنّها أوّل ما نزل قيل: بعد فترة الوحي، و في آخرها ذكر الجنّة و النّار فلعلّ آخرها نزل قبل نزول بقيّة (اِقرأ).

فرع في أوائل مخصوصة

٣٥ـ **أوّل ما نزل في القتال:** روى الحاكم في المستدرَك عن ابن عبّاس، قال أوّل آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[1]

٣٦ـ و أخرج ابنُ جَرير عن أبي العالِية، قال: أوّل آية نزلت في القتال بالمدينة: ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[2] و في «الإكليل» للحاكم: إنّ أوّل ما نزل في القتال: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ﴾[3].

أوّل ما نزل في شأن القتل: آية الإسراء ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا...﴾[4] الآية، أخرجه ابن جَرير عن الضَّحَّاك.

٣٧ـ **أوّل ما نزل في الخمر:** روى الطَّيالِسيّ في مسنده عن ابن عمر، قال نزل في الخمر ثلاث آيات، فأوّل شيءٍ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾[5] الآية، فقيل: حُرّمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثمّ نزلت هذه الآية: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلٰوةَ و اَنْتُمْ سُكَارىٰ﴾[6]، فقيل: حُرّمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، لانشربها قرب الصّلاة، فسكت عنهم، ثمّ نزلت: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾[7]، فقال رسول الله ﷺ: حُرّمت الخمر.

---

١ ـ الحج /٣٩.
٢ ـ البقرة/١٩٠.
٣ ـ التّوبة /١١١.
٤ ـ الإسراء /٣٣.
٥ ـ البقرة /٢١٩.
٦ ـ النّساء /٤٣.
٧ ـ المائدة /٩٠.

أوّل آية نزلت في الأطعمة بمكّة آية الأنعام ﴿قُلْ لاَ اَجِدُ فِى مَا اُوحِىَ اِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾[١]، ثم آية النّحل ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا...﴾[٢]، إلى آخرها. و بالمدينة آية البقرة ﴿اِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ...﴾[٣] ثمّ آية المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾[٤]، قاله ابن الحصّار.

٣٨ـ وروى البُخاريّ عن ابن مسعود، قال: أوّل سورة أُنزلت فيها سجدة، النّـجم...

[ثمّ ذكر أوّل ما نزل من بعض السّور الّتي لاحاجة لذكرها هنا].

معرفة آخر ما نزل

٣٩ـ فيه اختلاف، فروى الشّيخان عن البَراء بن عـازِب، قـال: آخـر آيـة نـزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ﴾[٥]، و آخر سورة نزلت بَراءَة.

٤٠ـ و أخرج البُخاريّ عن ابن عبّاس، قال: آخر آية نزلت آية الرّبا.

٤١ـ وروى البَيْهَقيّ عن عمر مثله، و المراد قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبٰوا﴾[٦] و عند أحمد و ابن ماجه عن عمر من آخر ما نزل آية الرّبا.

٤٢ـ و عند ابن مَرْدُوَية عن أبي سعيد الخُدريّ، قال: خَطَبَنا عمر، فقال: إنّ من آخر القرآن نزولاً آية الرّبا.

٤٣ـ و أخرج النّسائيّ من طريق عِكْرِمة عن ابن عبّاس، قال: آخر شيء نزل مـن القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾[٧].

٤٤ـ وأخرج ابنمَرْدُوَيه نحوه من طريق سعيدبنجُبَير عنابنعبّاس بلفظ آخرآية نزلت.

٤٥ـ و أخرجه ابن جَرير من طريق الْعَوْفيّ و الضَّحّاك عن ابن عبّاس.

[ثمّ ذكر رواية الفِرْيابيّ في تفسيره عن ابن عبّاس و رواية سَعيد بن جُبَيْر كما تقدّم آنفًا عن الدّرّ المنثور، فقال:]

٤٦ـ وأخرج من طريق عَطيّة عن أبي سعيد، قال: كان آخـر آيـة: ﴿وَاتَّـقُوا يَـوْمًا

---

١ ـ الأنعام /١٤٥.
٢ ـ النّحل /١١٤.
٣ ـ البقرة /١٧٣.
٤ ـ المائدة /٣.
٥ ـ النّساء /١٧٦.
٦ ـ البقرة /٢٧٨.
٧ ـ البقرة /٢٨١.

تُرْجَعُونَ...﴾.

٤٧ـ و أخرج أبو عُبَيد في «الفضائل» عن ابن شِهاب، قال: آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الرّبا و آية الدَّيْن.

٤٨ـ و أخرج ابن جُرَيج من طريق ابن شِهاب عن سعيد بن المُسَيَّب، أنّه بـلغه أنّ أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدَّيْن، مرسل صحيح الإسناد.

قلت: ولامنافاة عندي بين هذه الرّوايات في آيةالرّبا وآيةالدَّيْن؛ لأنّالظّاهر أنّـها **نزلت دفعةً واحدةً كترتيبها فيالمُصحف. ولأنّها فيقصّة واحدة، فأخبر كلّ عن بعض مانزل بأنّه** آخر، و ذلك صحيح. وقولالبَراء: آخرمانزل ﴿يَسْتَفْتُونَكَ...﴾ أي في شأن الفرائض.

وقال ابن حَجَر في شرح البُخاريّ: طريق الجمع بين القولين في آية الرّبا... **[و ذكر كماتقدّم عنه ثمّ قال:]**

٤٩ـ و في «المستدرك» عن أُبيّ بن كعب، قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السّورة.

و روى عبدالله بن أحمد في زوائد المسند و ابن مَرْدُوَيْه عن أُبـيّ، أنّـهم جـمعوا القرآن... **[وذكر كما تقدّم عن ابن كثير الرّقم ٩، ثمّ قال:]**.

٥٠ـ وأخرج أبو الشّيخ في تفسيره من طريق عليّ بن زيد عـن يـوسف المكـيّ، عن ابنعبّاس، قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾.

٥١ـ وأخرج مسلم عنابنعبّاس: و قال: آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَ الْفَتْحُ﴾.

٥٢ـ و أخرج التِّرمِذيّ والحاكم عن عائشة، قالت : آخر سورة نزلت المائدة، فـما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه...

٥٣ـ و أخرجا أيضًا عن عبدالله بن عمرو، قال: آخر سورة نـزلت سـورة المـائدة والفتح. قلت: يعني ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ﴾، و في حديث عُثمان المشهور (بَراءَةٌ) مـن آخر القرآن نزولاً.

قال البَيْهَقيّ: يجمع بين هذه الاخـتلافات ـ إن صـحّت ـ بأنّ كـلّ واحـدٍ أجـاب ممّا عنده.

وقال القاضيّ أبوبكر في الإنتصار: هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النّبيّ ﷺ... [و ذكر كما تقدّم عن الزّركشيّ، ثمّ قال:]

و من غريب ماورد في ذلك ما أخرجه ابن جَرير عن مُعاوية بن أبي سُفيان... [وذكركما تقدّم عن الطّبريّ و ابن كثير، ثمّ قال:].

قلت: و مثله ما أخرجه البُخاريّ و غيره عن ابن عبّاس، قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾[1] هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء. و عند أحمد والنّسائيّ عنه: لقد نزلت في آخر ما نزل، مانسخها شيء.

٥٤ـ و أخرج ابن مَرْدُوَيه من طريق مُجاهد عن أُمّ سَلَمَة، قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اَنّى لاَ اُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ...﴾[2] إلى آخرها.

قلت: و ذلك أنّها قالت: يا رسول الله، أرى الله يذكر الرّجال و لا يذكر النّساء؟ فنزلت: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ﴾[3] و نزلت: ﴿اِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلَمَاتِ﴾.[4] ونزلت هذه الآية، فهي آخر الثّلاثة نزولاً، أو آخر ما نزل بعدما كان ينزل في الرّجال خاصّة.

٥٥ـ و أخرج ابن جَرير عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ «من فارق الدّنيا على الإخلاص لله و حدَه وعبادته لا شريك له، و أقام الصّلاة، و آتى الزّكاة. فارقها واللهُ عنه راض». قال أنس. تصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل: ﴿فَاِنْ تَابُوا وَ اَقَامُوا الصَّلٰوة واٰتَوُا الزَّكٰوةَ...﴾[5] قلت: يعني في آخر سورة نزلت.

و في «البُرهان» لإمام الحرمين: إنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ اَجِدُ فِى مَا اُوحِىَ اِلَىَّ مُحَرَّمًا...﴾[6] من آخر ما نزل.

و تعقّبه ابن الحَصّار بأنّ السّورة مكيّة باتّفاق، و لم يرد نقل بتأخّر هذه الآية عن نزول السّورة، بل هي في محاجّة المشركين و مخاصمتهم و هم بمكّة.

---

١ ـ النّساء /٩٣.
٢ ـ آل عمران /١٩٥.
٣ ـ النّساء /٣٢.
٤ ـ الأحزاب /٣٥.
٥ ـ التّوبة /٥.
٦ ـ الأنعام /١٤٥.

تــنبيــه

من المشكل على ما تقدّم قوله تعالى: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] فإنّها نزلت بعرفة عام حجّة الوداع، و ظاهرها إكمال جميع الفرائض و الأحكام قبلها، و قد صرّح بـذلك جماعة منهم السُّدّيّ، فقال: لم ينزل بعدها حلال و لاحرام، مع أنّه وارد فـي آيـة الرّبـا والدَّيْن والكلالة أنّها نزلت بعد ذلك. و قد استشكل ذلك ابن جَـرير، و قـال: الأولى أن يُتأوّل على أنَّه أكمل لهم دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام، و إجلاء المشركين عـنه، حـتّى حجّه المسلمون لا يخالطهم المشركون، ثمّ أيّده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عبّاس، قال: كان المشركون والمسلمون يحجّون جميعًا، فلمّا نـزلت: (بـراءة) نُـفي المشركون عن البيت، و حجّ المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النّعمة ﴿وَاَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.(۱:۹۱ـ۱۰٦)

---

۱ ـ المائدة /۳.

الفصل الخامس والعشرون

نصّ ملاّصالح المازندرانيّ (م: ١٠٨١) في «شرح جامع أُصول الكافي»

أوّل ما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله

قوله: إنّ أوّل ما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ مثله في رواية العامّة، و فيه دلالة على أنّ البَسْمَلة جزء من هذه السّورة، و تأويل الشّاطبيّ بأنّه دليل أنّه لابُدّ منها أنّه جزء من السّورة، بعيد جدًّا.

وفي بعض رواياتهم: إنّ أوّل ما نزل: ﴿اِقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾، و استدلّ بعضهم بذلك على أنّ البَسْمَلة ليست ؛ لأنّ (اِقْرَأْ) أوّل سورة نزلت، ثمّ قال: فيه دلالة على بطلان مذهب الشّافعيّ، وهو أنّ البَسْمَلة آية من كلّ سورة.

أقول: فيه نظرٌ من وجهين؛

الأوّل ـ أنّ المذكور في الرّواية أنّ ﴿اِقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ أوّل ما نزل، و ليس فيها أنّه أوّل سورة نزلت، فيجوز أن يكون البَسْمَلة نزلت بعد ذلك. وقد صحّ عندهم أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله كان إذا نزلت آية يقول «اِجْعلوها في موضع كذا» و لعلّه قال في البَسْمَلَة «إجعلوها في كلّ سورة» فهي جزء منه. و ممّا يدلّ على ذلك أنّهم قالُوا: أوّل مانزل: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ ثمّ نزل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فكما أنّ بقيّة السّورة نزلت بعد ذلك، ثمّ ضمّ مع ما نزل أوّلاً، ثمّ صار جزءً للسّورة، فكذلك نزول البَسْمَلَة بعد، و ضمّها إلى ما نزل أوّلاً لاينافي أن يكون جزءً من السّورة.

الثّاني ـ يجوز أن يكون ﴿اِقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ علمًا للسّورة الّتي أوّلها البَسْمَلَة، فلا دلالة في الرّواية على أنّ البَسْمَلَة ليست جزءً من السّورة قطعًا.

آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله

قوله: و آخره، أي آخر ما نزل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾.

اختلف العامّة في آخر سورة نزلت كاملة؛ فقيل: (بَراءَة) و قيل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ وكانوُا يسمّونها بسورة التّوديع. واختلفوا في وقت نزولها على أقوال، أشبهها أنّها نزلت في حجّة الوداع، ثمّ نزل بعدها: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] فعاش بعدها ثمانين يومًا، بعدها آية الكلالة: ﴿وَ يَسْتَفْتُونَكَ...﴾[2] فعاش بعدها خمسين يومًا، ثمّ نزل بعدها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾[3] فعاش بعدها خمسة و ثلاثين يومًا، و قيل: سبعة أيّام. (١١:٦٢)

١ ـ المائدة /٣.
٢ ـ النّساء /١٧٦.
٣ ـ التّوبة /١٢٨.

الفصل السّادس والعشرون

نصّ البَحْرانيّ (م:١١٠٧) في: «تفسير البُرهان»

أوّل ما نزل و آخر ما نزل

١ـ محمّدبن يعقوب عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد و سَهل بن زياد، عن منصور بن العبّاس، عن محمّد بن الحسن بن المسريّ، عن عمّه عليّ بن المسريّ، عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال أوّل مانزل على رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1] إلى آخره، و آخر سورة ﴿إذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ...﴾.

٢ـ محمّد بن عليّ بن بابويه عن أحمد بن عليّ بن إبراهيم، قال حدّثني أبي عن جدّي إبراهيم بن هاشِم، عن عليّ بن مَعْبَد، عن الحسين بن خالد، قال: قال الرّضا عليه‌السلام: سمعت أبي يحدّث عن أبيه عليهما‌السلام: إنّ أوّل سورة نزلت: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و آخر سورة نزلت ﴿إذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ...﴾.

٣ـ سعد بن عبدالله عن أحمد بن محمّد بن عيسى و محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب و غيرهما، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن هِشام بن سالم، عن سعيد بن ظريف الخَفّاف، قال: قلت لأبي جعفر عليه‌السلام ما تقول فيمن أخذ عنكم علمًا فنسيه؟ قال: لاحجّة عليه، إنّما الحجّة على من سمع منّا حديثًا فأنكره، أو بلغه فلم يؤمن به و كفر، فأمّا النّسيان فهو موضوع عنه، إنّ أوّل سورة نزلت على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلىٰ﴾[2] فنسيها، لم يلزمه حجّة في نسيانه و لكنّ الله تبارك و تعالى أمضى له ذلك؛ إذ قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾.[3] (١:٢٩)

---

١ ـ العلق /١.

٢ ـ الأعلى /١و٦.

٣ ـ الأعلى /١و٦.

(سورة العلق)

مكيّة، و هي أوّل ما نزل من القرآن

٤ـ عليّ بن إبراهيم الأوْسيّ، قال ابن عبّاس: إنّ أوّل ما ابتدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّادقة في النّوم، و كان لايرى رؤيا إلاّ جاءت كفلق الصّبح، و لمّا تزوّج بخديجة، وكمل له من العمر أربعون سنة، قال: فخرج ذات يوم إلى جبل حِراء، فهتف به جبرئيل، و لم يبد له، فغشي عليه، و حمله مشركو قُريش إليها و قالوا: يا خديجة تزوّجت بمجنون، فو ثبت خديجة من السّرير و ضمّته إلى صدرها، و وضعت رأسه في حجرها وقَبّلت عينيه. و قالت: تزوّجت نبيًّا مرسلاً، فلمّا أفاق، قالت: بأبي و أُمّي يارسول الله، ماالّذي أصابك؟ قال: «ما أصابني غير الخير، و لكنّي سمعت صوتًا أفزعني، و أظنّه جبريل فاستبشرت». ثمّ قالت: إذا كان غداة غد، فارجع إلى الموضع الّذي رأيته فيه بالأمس. قال: «نعم» فخرج ﷺ و إذا هو بجبرائيل في أحسن صورة و أطيب رائحة. فقال: يا محمّد، وربّك يقرئك السّلام، و يخصّك بالتّحيّة و الإكرام، ويقول لك: إنّك رسولي إلى الثَّقَلَين، فادعهم إلى عبادتي، و أن يقولوا: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ ولي الله. فضرب بجناحيه الأرض، فانبعت عين ماء، فشرب ﷺ منها و توّضأ، و علّمه: ﴿اِقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾ إلى آخرها، و عرج جبرائيل إلى السّماء، و خرج رسول الله ﷺ من حِراء. فما مرّ بحَجَر و لا مَدَر و لا شَجَر إلاّ ناداه السّلام عليك يا رسول الله، فأتى خديجة و هي بانتظاره و أخبرها بذلك، ففرحت به بسلامته و بقائه. (٤: ٤٧٨ ـ ٤٧٩)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١

٥ـ ابن شهراشوب، قال في «أسباب النّزول» عن الواحِديّ: إنّه روى عِكرِمة عن ابن عبّاس، قال: لمّا أقبل رسول الله ﷺ من غزوة حُنَين، و أنزل سورة الفتح، قال:«يا عليّ بن أبي طالب و يا فاطمة ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ والْفَتْحُ...﴾ إلى آخر السّورة».

٦ـ و قال السُّدّيّ و ابن عبّاس: ثمّ نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ فعاش بها

ستّة أشهر... [و ذكر كما تقدّم عن الطَّبْرِسيّ]. (١: ٢٦١)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٧ـ العَيّاشيّ عن زُرارَة بن أعيَن، عن أبي جعفرعليه السلام، قال: قال عليّ بن أبي طالبعليه السلام «نزلت المائدة قبل أن يقبض النّبيّصلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة» و في رواية أُخرى عن أبي جعفرعليه السلام مثله.

٨ـ عن عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّعليه السلام، قال: «كان القرآن ينسخ بعضه بعضًا، و إنّما كان يؤخذ من أمر رسول اللهصلى الله عليه وآله بآخره، فكان من آخر مانزل عليه سورة المائدة، فنسخت ما قبلها و لم ينسخها شيءٌ، لقد نزلت عليه و هو على بغلته الشّهباء و ثقل عليه الوحي، حتّى وقفت و تدلّى بطنها حتّى رأيت سُرّتها تكاد تمسّ الأرض، و أُغمي على رسول اللهصلى الله عليه وآله حتّى وضع يده على ذؤابة شَيْبَة بن وَهْب الحَجميّ (و في نسخة الجُهَميّ) ثمّ رفع ذلك عن رسول اللهصلى الله عليه وآله، فقرأ علينا سورة المائدة، فعمل رسول اللهصلى الله عليه وآله و عملنا».(١: ٤٣٠)

(سورة النّصر)

نزلت بمنى في حجّة الوداع، فتعدّ مدنيّة، و هي آخر ما نزل من السّور، نزلت بعد التّوبة... و قد تقدّم في مقدّمة الكتاب أنّها آخر سورة نزلت. (٤: ٥١٦ ـ ٥١٨)

الفصل السّابع والعشرون

نصّ العلاّمة المَجْلِسيّ (م: ١١١١) في «بحار الأنوار...»

[بــدء الوحي]

١ـ عليّ عليه السلام: «ولم يجمع بيت و احد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله و خديجة و أنا ثالثهما، أرى نور الوحي و الرّسالة، و أشمّ ريح النّبوّة، و لقد سمعت رنّة الشّيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرّنّة؟ فقال: هذا الشّيطان قدأيس من عبادته **إنّك تسمع ما أسمع، وترى ماأرى، إلاّ أنّك لست بنبيّ، ولكنّك وزير، وإنّك لعلى خير»**[١].

٢ـ بيان: قال ابن أبي الحديد: و أمّا رنّة الشّيطان فروى أحمد بن حنبل في مسنده عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال كنت مع رسول الله صبيحة اللّيلة الّتي أُسري به فيها و هو بالحجر يصلّي، فلمّا قضى صلاته وقضيت صلاتي سمعت رنّة شديدة، فقلت: يارسول الله ما هذه الرّنّة؟ قال: ألا تعلم؟ هذه رنّة الشّيطان، علم أنّه أُسري بي اللّيلة إلى السّماء فأيس من أن يعبد في هذه الأرض.

٣ـ و قد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله مايشابه هذا لمّا بايعه الأنصار السّبعون ليلةالعقبة، سمع من العقبة صوت عال في جوف اللّيل: يا أهل مكّة هذا مذمّم و الصّباة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار: ألا تسمعون ما يقول هذا أزيب الكعبة يعني شيطانها **ـ و قد روي أريب العقبة ـ ثمّ التفت إليه فقال: أتسمع يا عدوّ الله؟ أما والله لأفرغنّ لك، انتهى**[٢].

أقول: وهاتان الرّنّتان غير ماورد في الخبر، وهي إحدى الرّنّتين اللّتين مضتا في الخبرين.(١٨: ٢٢٣ـ٢٢٤)

---

١ ـ نهج البلاغة ١: ٣٧٢ـ٣٧٣.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لا بن أبي الحديد ٣: ٢٥٤.

٤ـ أقول: قال الكازرونيّ في المنتقى فيما رواه بإسناده: أوّل ما بدىء به رسول الله من الوحي الرُّؤيا الصّادقة، و كان لايرى رؤيا إلاّ جاءت به مثل فلق الصّبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء فكان يأتي حِراء فيتعبّد فيه، حتّى فجأه الحقّ و هو غار حِراء فجاءه الملك و ساق الحديث إلى أن قال: كان وَرَقَة بن نَوفَل ابن عمّ خديجة: امرءًا تنصّر في الجاهليّة، و كان يكتب العِبرانيّ بالعربيّة من الانجيل ما شاءالله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال وَرَقَة: ياابن أخي ماترى؟ فأخبره رسول‌الله ﷺ، فقال وَرَقَة: هذاالنّاموس الأكبر الّذي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام يا ليتني فيها جذعًا أكون حيًّا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم قال: نعم، لم يأت رجل قطّ بماجئت به إلاّعودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا موزّرًا، ثمّ لم ينشب وَرَقَه أن توفّي، وفترالوحي فترة، ثمّ أتاه الوحي النّاموس جبرئيل عليه السلام وصاحب سرّ الملك.

قوله: جذعًا، أي شابًّا قويًّا كالجذع من الدّوابّ حتّى أُبالغ في نصرك قوله: مؤزّرًا، أي بالغًا في القوّة، لم ينشب بفتح الشّين، أي لم يمكث و لم يحدث شيئًا و لم يشتغل به.

٥ـ و في رواية أُخرى: أنّ خديجة أتت ورقة و قالت: أخبرني عن جبرئيل ما هو؟ قال: قُدُّوس قُدُّوس ماذكر جبريل في بلدة لا يعبدون فيها الله، قالت: إنّ محمّد بن عبدالله أخبرني أنّه أتاه، قال: فإن كان جبرئيل هبط إلى هذه الأرض لقد أنزل الله إليها خيرًا عظيمًا، هو النّاموس الأكبر الّذي أتى موسى و عيسى عليهما السلام بالرّسالة و الوحي، قالت: فأخبرني هل تجد فيما قرأت من التّوراة و الإنجيل أنّ الله يبعث نبيًّا في هذا الزّمان يكون يتيمًا فيُؤويه الله، وفقيرًا فيغنيه الله تكفّله امرأة من قريش أكثرهم حسبًا، و ذكرت كلامًا آخر فقال لها: نعته مثل نعتك يا خديجة؟! قالت: فهل تجد غيرها؟ قال: نعم؛ إنّه يمشي على الماء كما مشى عيسى بن مريم و تكلّمه الموتى كما كلّمت عيسى بن مريم عليه السلام، وتسلّم عليه الحجارة و تشهد له الأشجار، و أخبرها بنحو قول بَحيرا، ثمّ انصرفت منه وأتت عَدّاسًا الرّاهب و كان شيخًا قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر فقالت: يا عَدّاس أخبرني عن جبرئيل عليه السلام ما هو؟ فقال: قدُّوس قُدُّوس و خَرَّ ساجدًّا، و قال: ما ذكر جبريل في بلدة لايذكرالله و لا يعبد، قالت: أخبرني عنه قال: لا والله لا أُخبرك حتّى تخبرني من

أين عرفت اسم جبرئيل؟ قالت: لي عليك عهدالله و ميثاقة بالكتمان؟ قال: نعم، قالت: أخبرني به محمّد بن عبدالله أنّه أتاه، قال عدّاس: ذلك النّاموس الأكبر الّذي كان يأتي موسى و عيسى عليهما السلام بالوحي و الرّسالة، والله لئن كان نزل جبرئيل على هذه الأرض لقد نزل إليها خير عظيم، و لكن ياخديجة إنّ الشّيطان ربّما عرض للعبد فأراه أُمورًا، فخذي كتابي هذا فانطلقي به إلى صاحبك فإن كان مجنونًا فإنّه سيذهب عنه، و إن كان من أمر الله فلن يضرّه[١] ثمّ انطلقت بالكتاب معها، فلمّا دخلت منزلها إذا هي برسول الله صلى الله عليه وآله مع جبرئيل عليه السلام قاعد يقرؤه هذه الآيات: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا اَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَ اِنَّ لَكَ لَاَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَ اِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ * بِاَيِّكُم الْمَفْتُونُ﴾[٢] أي الضّالّ، أوالمجنون[٣]، فلمّا سمعت خديجة قراءته اهتزّت فرحًا، ثمّ رآه صلى الله عليه وآله عَدَّاس[٤] فقال اكشف لي عن ظهرك، فكشف فإذا خاتم النّبوّة يلوح بين كتفيه، فلمّانظر عَدّاس إليه خرّ ساجدًا يقول: قُدُّوس قُدُّوس، أنت والله النّبيّ الّذي بَشَّربك موسى وعيسى عليهما السلام أما والله يا خديجة ليظهرنّ له أمر عظيم، و نبأ كبير، فوالله يا محمّد إن عشتُ حتّى تؤمر ثمّ بالدّعاء لأضربنّ بين يديك بالسّيف هل أُمرت بشيءٍ بعد؟ قال: لا، قال: ستؤمر ثمّ تؤمر ثمّ تُكذِّب ثمّ يخرجك قومك[٥] والله ينصرك و ملائكته.

قال ابن إسحاق: كان أوّل من اتّبع رسول الله صلى الله عليه وآله خديجة، و كان أوّل ذَكَر آمن به عليّ عليه السلام و هو يومئذ ابن عشر سنين، ثمّ زيد بن حارثه، قيل: ثمّ أسلم بلال، و قيل: ثمّ أبوبكر، ثمّ الزُّبَير و عُثمان و طلحة و سَعد بن أبي وَقّاص و عبدالرّحمان بن عَوْف.[٦]

وقال في المنتقى: و ممّا كان في مبعثه صلى الله عليه وآله رمي الشّياطين بالشُّهُب بعد عشرين يومًا

---

١ ـ في المصدر: وسألته عمّا سألت عنه وَرَقَة بن نَوفَل فأخبرها بنحو ما قال وَرَقَة بن نَوفَل ثمّ انطلقت.

٢ ـ القلم /١ـ٦.

٣ ـ في المصدر: يعني بالمفتون الضّالّ، و الصّحيح في تفسير المفتون أنّه المجنون.

٤ ـ في المصدر: اهتزّت فرحًا، ثمّ قال للنّبيّ صلى الله عليه وآله فداك أبي و أُمي أمض معي إلى عَدّاس، فقام معها إلى عَدّاس، فلمّا أن سلّم عليه، قال، قال: أدن منّي، فدنا منه، قال: اِكْشِف ١ ﻫ.

٥ ـ في المصدر بعد ذلك: فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: يا عَدّاس و أنّهم ليخرجوني؟ قال: نعم ما جاء والله أحد بمثل ما جئت به إلاّ أخرجه قومه، و كان قومه أشدّ النّاس عليه، والله ينصرك و ملائكته، ثمّ انصرف عنه النّبيّ.

٦ ـ المنتقى في مولود المصطفى: الباب الثّاني فيما كان في السّنة الأُولى من نبوّته.

من البعث، روي عن ابن عبّاس قال: لمّا بعث الله محمّداًﷺ دحر[١] الجنّ و رموا بالكواكب، و كانوا قبل يستمعون، لكلّ قبيل من الجنّ مقعد يستمعون فيه، فأوّل من فزع لذلك أهل الطّائف، فجعلوا يذبحون لآلهتهم من كان له إبل أوغنم كلّ يوم حتّى كادت أموالهم يذهب، ثمّ تناهوا، و قال بعضهم لبعض: ألا ترون معالم السّماء كما هي لم يذهب منها شيء، و قال إبليس: هذا أمر حدث في الأرض، ائتوني من كلّ أرض بتربة، فكان يؤتي بالتّربة فيشمّها و يلقيها حتّى أُتي بتربة تهامة فشمّها و قال: هنا الحدث.

و ممّا كان في مبعثهﷺ ما روي أنّه لمّا بعث الله نبيّه أصبح كسرى ذات غداة و قد انفصم طاق ملكه من وسطها، فلمّا رأى ذلك أحزنه، و قال: «شاه بشكست» يقول: الملك انكسر، ثمّ دعا كهانه و سحرته و منجّميه و قال: انظروا في ذلك الأمر، فنظروا ثمّ قالوا: ليخرجنّ من الحجاز سلطان يبلغ المشرق تخصب عنه الأرض كأفضل ما أخصبت من ملك كان قبله...[٢] **(١٨:٢٢٨ـ٢٣٠)**

ومنه، قال الدُّولابيّ يرفعه عن رجاله: إنّه كان من بدء أمر رسول اللهﷺ أنّه رأىٰ فيالمنام رُؤيًا فشقّ عليه... **[و ذكر كما تقدّم عن ابن كثير نقلاً عن موسى بن عُقْبة، عن الزُّهْريّ، عن سَعيد بن مسيَّب الرّقم ٢٥]**. (١٦: ١٠)

١ ـ دحره: طرده دفعه. أبعده.

٢ ـ المنتقى: الباب ٢ فيما كان في السّنة الأُولى من نبوّته.

الفصل الثّامن والعشرون

نصّ البُروسَويّ (م:١١٣٧) في تفسيره: «روح البيان»

أوّل آية نزلت من القرآن

﴿اِقْرَأْ بِاِسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ...﴾

(اِقرَأ) أي ما يوحى إليك يا محمّد، فإنّ الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعًا، و حيث لم يعيّن وجب أن يكون ذلك ما يتّصل بالأمر حتمًا سواء كانت السّورة أوّل ما نزل أم لا؟ فليس فيه تكليف ما لايطاق، سواءً دلّ على الفور أم لا؟.

و الأقرب أنّ هذا إلى قوله: ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ أوّل مانزل عليه ﷺ ما دلّت عليه الأحاديث الصّحيحة، و الخلاف إنّما هو في تمام السّورة. (١٠:٤٧٠)

﴿آية البَسْمَلَة﴾

و في كتاب «شمس المعارف»: أوّل آية نزلت على وجه الأرض: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني على آدم الصّفيّ عليه السلام، فقال آدم: الآن علمت أنّ ذرّيتي لا تعذّب بالنّار مادامت عليها، ثمّ أُنزلت على إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، فأنجاه الله عليه السلام من النّار، ثمّ على موسى عليه السلام، فقهر بها فرعون و جنوده، ثمّ على سُلَيمان عليه السلام فقالت الملائكة: الآن و الله قد تمّ مُلك، فهي آية الرّحمة و الأمان لرسله و أُممهم، و لمّا نزلت على رسول الله ﷺ في سورة النّمل: ﴿اِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَ اِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾[١] كانت فتحًا عظيمًا، فأمر رسول الله فكتبت على رؤوس السّور، وظهور الدّفاتر، و أوائل الرّسائل. (١٠:٤٧٢)

---

١ ـ النّمل /٣٠.

آخر سورة نزلت من القرآن:

(سورة النَّصر)

عن ابن مَسْعود: إنّ هذهالسّورة تسمّى سورة التّوديع؛ لما فيها من الدّلالة على توديع الدّنيا.

قال عليّ ﷺ: «لمّا نزلت هذه السّورة مرض رسول الله ﷺ، فخرج إلى النّاس فخطبهم وودّعهم، ثمّ دخل المنزل فتوفّي بعد أيّام».

قال الحسن: أعلمَ أنّه قد اقترب أجله، فأمر بالتّسبيح و التّوبة، ليختم له بالعمل الصّالح و فيه تنبيه لكلّ عاقل.(١٠:٥٣١)

الفصل التّاسع والعشرون

نصّ الآلوسيّ (م: ١٢٧٠) في تفسيره: «روح المعاني»

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة المدّثّر)

[هذه السّورة] مكّيّة، قال ابن عَطِيّة بإجماع، و في «التّحرير» قال مُقاتل: إلاّ آية، و هي: ﴿وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ اِلاَّ فِتْنَةً...﴾ [1].

وروى أُمَيَّة الأَزْدِيّ عن جابربن زيد، و هو من علماء التّابعين بالقرآن، أنّ المدّثّر نزلت عقب المزّمّل. و أخرجه ابن الضُّرَيْس عن ابن عبّاس، و جعلوا ذلك من أسباب وضعها بعدها.

والظّاهر ضعف هذا القول، فقد أخرج أحمد و البُخاريّ و مُسلِم و التِّرمِذيّ و جماعة عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت... [**و ذكر كما تقدّم عن الطَّبريّ**].

فإنّ القصّة واحدة، و لو كانت ﴿ياءَيُّهَاالْمُزَّمِّلُ﴾ هي النّازلة قبل فيها لذكرت. نعم، ظاهر هذا الخبر يقتضي أنّ ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ نزل قبل: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [2]. و المرويّ في الصّحيحين و غيرهما عن عائشة أنّ ذاك أوّل مانزل من القرآن، و هو الّذي ذهب إليه أكثر الأُمّة، حتّى قال بعضهم: هو الصّحيح ولصحّة الخبرين احتاجوا للجواب، فنقل في «الإتقان» خمسة أجوبة؛ الأوّل: أنّ السّؤال في حديث جابر... [**وذكر كما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ قال:**] وفيه نظرٌ، فتأمّل و لا تغفل. (٢٩: ١١٥).

---

١ ـ المدّثّر /٣١.

٢ ـ راجع ٢٩: ١٠٠.

(سورة العلق)

تسمّى سورة(اِقْرَاْ) لاخلاف في مكّيّتها، و إنّما الخلاف في أنّها أوّل نازل أولا؟ فذهب كثيرٌ إلى أنّها أوّل نازل؛ فقد أخرج الطَّبَرانيّ في «الكبير» بسنده على شرط الصّحيح عن أبي رجاء العُطارِديّ، قال: كان أبو موسى الأشعريّ...[وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ (الرّقم ١٤، ثمّ قال:].

وقد أخرج الحاكم في «المستدرك» والبَيْهَقيّ في «الدّلائل» وصحّحاه عن عائشة نحوه.

و أخرج غير واحدٍ عن مجاهد، قال: أوّل ما نزل من القرآن: (اِقْرأ بِاسْمِ) ثمّ ﴿ن والْقَلَمْ﴾.

وروى الشّيخان عن أبي سَلَمَة بن عبدالرّحمان، قال: سألت جابر بن عبدالله: أيّ القرآن أُنزل أوّلاً؟ قال: ﴿ياءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾ قُلت: يقولون: ﴿اِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، قال: أحدّثكُمْ بما حدّثنا به، رسول الله ﷺ فساق الحديث مستدلاً به على ما ادّعاه. و أجاب عنه الأوّلون بعدّة أجوبة مرّ ذكرها.

و **قيل**: الفاتحة، واحتجّ له بحديثٍ مرسل رجاله ثقات، أخرجه البَيْهَقيّ في «الدّلائل» والواحِديّ من طريق يونس بن بُكَيْر عن يونس بن عمر، عن أبيه، عن أبي مَيْسِرة عمر و بن شُرَحْبيل.

و **أُجيب عنه**: بأنّ ما فيه يحتمل أن يكون خبرًا عمّا نزل بعد (اِقْرأْ) و ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر﴾ مع أنّ غيره أقوى منه رواية.

و جزم جابر بن زيد، بأنّ أوّل مانزل: اِقْرَأ، ثمّ ن، ثمّ يَاءَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، ثمّ يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر، ثمّ الفاتحة.

و قيل: أوّل ما نزل صدرها إلى ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ في غار حِراء، ثمّ نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله تعالى، و هو ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد و الشَّيخان و عبد بن حَميد و عبد الرَّزّاق و غيرهم من طريق ابن شِهاب عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عن عائشة... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبريّ الرّقم ٩، ثمّ قال]**.

و في آخر ما رووا قال ابن شِهاب: و أخبرني أبوسَلَمَة عن جابر بن عبدالله، قال و هو

يحدّث عن فترة الوحي... [و ذكر كما تقدّم عن ابن كثير الرّقم ٣، ثمّ قال:].

ويعلم منه ضعف الاستدلال على كون سورة المدّثّر أوّل نازل من القرآن على الإطلاق، بما روي أوّلاً عن جابر المذكور كما لايخفى على الواقف عليه، و قد ذكرناه صدر الكلام في سورة المدّثّر؛ لقوله فيه: وهو يحدّث عن فترة الوحي، و قوله: «فإذاً الملك الّذي جاءني بحِراء» وقوله: «فحمي الوحي و تتابع» أي بعد فترته.

وبالجملة، الصّحيح كما قال البعض و هو الّذي أختاره: إنّ صدر هذه السّورة الكريمة هو أوّل مانزل من القرآن على الإطلاق، كيف و قد ورد حديث بدء الوحي المرويّ عن عائشة من أصحّ الأحاديث، و فيه: فجاءه الملك، فقال (اِقْرَأ) فقال: «قلتُ: ما أنا بقارىء» فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجَهد... إلخ.

والظّاهر أنّ «مَا» فيه، نافية، بل قال النَّوَويّ: هو الصّواب، و ذلك إنّما يتصوّر أوّلاً، و إلاّ لكان الامتناع من أشدّ المعاصي. و يطابقه ما ذكره الأئمّة في باب تأخير البيان.

و في «الكشف»: الوجه حمل قول جابر على السّورة الكاملة.

و في شرح صحيح مُسلم: الصّواب أنّ أوّل ما نزل (اِقْرَأ)، أي مطلقًا، و أوّل ما نزل بعد فترة الوحي ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾.

وأمّا قول من قال من المفسّرين: أوّل ما نزل الفاتحة، فبطلانه أظهر من أن يذكر، انتهى. و تمام الكلام في هذا المقام يطلب من محلّه، و الله تعالى أعلم.(٣٠:١٧٧ـ١٧٨)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيه اِلَى اللهِ...﴾ البقرة /٢٨١.

أخرج غير واحدٍ، من غير طريق عن ابن عبّاس أنّ آية:﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ آخر مانزل من القرآن، واختلف في مدّة بقائه بعدها عليه السلام...

روي أنّه قال: «اجعلوها بين آية الرّبا و آية الدَّين» و في رواية أُخرى أنّه صلى الله عليه وآله قال: «جاءني جبرائيل، فقال: اجعلوها على رأس مأتين و ثمانين آية من البقرة».

و لا يعارض الرّواية عن ابن عبّاس رضي الله عنه، في أنّ هذه آخر آية نزلت ما أخرجه

البُخاريّ و أبو عُبَيْد و ابن جَرير و البَيْهَقيّ من طريق الشَّعبيّ عنه﵁، أنّه قال: آخر آية أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ: آية الرّبا.

ومثله ما أخرجه البَيْهَقيّ من طريق ابن المُسَيَّب عن عمر بن الخَطّاب، كما قاله محمّد بن سَلَمَة فيما نقله عنه عليّ بن أحمد الكَرباسيّ: أنّ المراد من هذا أنّ آخر ما نزل من الآيات في البيوع آية الرّبا، أو أنّ المراد أنّ ذلك من آخر ما نزل، كما يصرّح به ما أخرجه الإمام أحمد. (٣: ٥٤ـ٥٥)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة / ١٢٨ـ١٢٩

وهاتان الآيتان على ما روي عن أُبيّ بن كَعْب آخر ما نزل من القرآن، لكن روى الشَّيخان عن البَراء بن عازِب﵁، أنّه قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ...﴾ و آخر سورة نزلت: براءة. وعن ابن عبّاس﵁: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾.

وحاول بعضهم التّوفيق بين الرّوايات في هذه الشّأن بما لا يخلو عن كدر، و يبعد عن أُبيّ ما أخرجه ابن مَرْدُوَيْه عن سعد بن أبي وَقّاص، فقالوا له: إنّك قد نزلت بين أظهرنا، فأوثق لنا نأمنك و تأمنّا، قال: «و لِم سألتم هذا؟» قالُوا: نطلب الأمن، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ و الله تعالى أعلم بحقيقة الحال. (١١: ٥٣)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة النّصر)

و تسمّى سورة (اِذَا جَاءَ) و عن ابن مسعود أنّها تسمّى سورة التّوديع لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه‌الصّلاة و السّلام و توديعه الدّنيا و ما فيها. وهي مدنيّة على القول الأصحّ في تعريف المدنيّ.

فقد أخرج التِّرمِذيّ في مسنده. و البَيْهقيّ من حديث موسى بن عُبَيْدة و عبدالله بن دينار، و صَدَقَة بن بَشّار عن ابن عمر أنّه قال: هذه السّورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيّام التّشريق بمنى؛ و هو في حجّة الوداع ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتّى ختمها الخبر.

و أخرجه أيضًا عن ابن أبي شَيْبَة و عبدبن حَميد و غيرهما، لكن قال الحافظ ابن رَجَب بعد أن أخرجه عن الأوّلين، أنّ إسناده ضعيف جدًّا، و موسى بن عُبَيْدة قال أحمد: لا تحلّ الرّواية عنه و عليه، إن صحّ يكون نزولها قريبًا جدًّا من زمان وفاته ﷺ فإنّ ما بين حجّة الوداع و إجابته عليه الصّلاة و السّلام داع الحقّ ثلاثة أشهر ونَيِّف.

وأخرج عَبْد بن حَميد و ابن جَرير و ابن المُنذر عن قَتادة، أنّه قال: والله ما عاش ﷺ بعد نزول: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلاّ قليلاً سنتين، ثمّ توفّى عليه الصّلاة و السّلام.

وفي «البَحْر»: أنّ نزولها عند منصرفه ﷺ من خيبر، و أنت تعلم أنّ غَزوة خيبر كانت في سنة سبع أواخر المحرّم فيكون ما في البين أكثر من سنتين. و يدلّ على مدنيّتها أيضًا، ما أخرجه مُسلم، و ابن أبي شَيْبَة و ابن مَرْدُوَيْه عن ابن عبّاس أنّه قال: آخر سوره نزلت من القرآن جميعًا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ...﴾ و آيها ثلاث بالاتّفاق و فيها إشارة إلى إضمحلال ملّة الأصنام و ظهور دين الله عَزَّوجَلَّ على أتمّ وجه... (٣٠:٢٥٥)

الفصل الثّلاثون

نصّ رَشيد رَضا (م: ١٣٥٤) في تفسيره: «المنار»

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة الفاتحة)

قال الأُستاذ الإمام[١]: سميّت الفاتحة فاتحة لأنّها أوّل القرآن في هذا التّرتيب... و هي مكّيّة خلافًا لمجاهد، فاالإجماع على أنّ الصّلاة كانت بالفاتحة لأوّل فرضيّتها. و لاريب أنّ ذلك كان في مكّة. وقالوا هي المراد بالسّبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْاٰنَ الْعَظِيمِ﴾[٢] و هو مكيّ بالنّص.

وقال بعضهم: إنّها نزلت مرّتين، مرّةً بمكّة عند فرضيّة الصّلاة، و أُخرى بالمدينة حين حوّلت القبلة، و كأنّ صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين، و ليس بشيءٍ. و قال كثيرون: إنّها أوّل سورة أُنزلت بتمامها.

أقول الآن: ذكر الحافظ السّيوطيّ في «الإتقان» أربعة أقوال... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال]**: هذا؛ و أمّا الأُستاذ الإمام فقد رجّح أنّها أوّل ما نزل على الإطلاق، و لم يستثنِ قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و نزع في الاستدلال على ذلك منزعًا غريبًا في حكمة القرآن وفقه الدّين **[إلى أن قال:]**

فتبيّن من مجموع ماتقدّم أنّ الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأُصول الّتي يفصّلها

---

١ ـ هوالشّيخ محمّد عبده.

٢ ـ الحجر /٨٧.

القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها أوّلاً موافقًا لسنّة الله تعالى في الإبداع. و على هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمّى (أمّ الكتاب)، كما نقول: إنّ النّواة أُمّ النّخلة، فإنّ النّواة مشتملة على شجرة النّخلة كلّها حقيقة، لا كما قال بعضهم: إنّ المعني في ذلك أنّ الأُمّ تكون أوّلاً، و يأتي بعدها الأولاد.

و **أقول الآن**: هذا ما قاله الأُستاذ الإمام مبسوطًا موضّحاً، و يمكن أن يقال: إنّ نزول أوّل سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم الّتي بيّنها، لأنّه تمهيد للوحي المجمل والمفصّل خاصّ بحال النّبيّ ﷺ، و إعلام له بأنّه يكون و هو أُمّيّ قارئًا بعناية الله تعالى، ومخرجًا للأُمّيين من أمّيّتهم إلى العلم بالقلم، أي الكتابة، و في ذلك استجابة لدعوة إبراهيم: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ﴾**[1] فسّر الأُستاذ الإمام: الكتاب بالكتابة، ثمّ كانت الفاتحة أوّل سورة نزلت كاملة، و أمر النّبيّ بجعلها أوّل القرآن، وانعقد على ذلك الإجماع. (١: ٣٤ ـ ٣٨)

آخر آية نزلت من القرآن

(آية الرّبا)

أخرج البخاريّ عن ابن عبّاس: أنّ آخر آية نزلت آية الرّبا. و أخرج البَيْهَقيّ عن عمر مثله. قال في «الإتقان»: و المراد بها **﴿يَاءَيُّهَاالَّذِين اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبٰوا﴾**[2].

[ثمّ ذكر روايات عديدة حول آخر ما نزل، منها قول السُّيوطيّ، كما تقدّم عنه، فقال:]

و قيل: غير ماذكر في آخر القرآن نزولاً و في مدّة بقائه ﷺ بعد نزول: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَىَ اللهِ﴾** وورد أنّه قال: «اجعلوها بين آية الرّبا... **[و ذكر كما تقدّم عن الآلوسيّ]. (٣:١٠٥)**

---

١ ـ البقرة /١٢٩.

٢ ـ البقرة ٢٧٨.

(آية الكلالة)

و من مباحث تاريخ القرآن و أسباب نزوله ماروي من كون هذه الآية آخر آية نزلت، روى الشَّيْخان و التِّرمِذيّ و النّسائيّ و غيرهم عن البَراء... [و ذكر كما تقدّم عن الواحِديّ، ثمّ قال:]

وبهذا لا تنافي ماروّاه البخاريّ عن ابن عبّاس، قال: آخر آية نزلت آية الرِّبا. وروى البَيْهَقيّ عن ابن عمر مثله، و في بعض الرّوايات عن عمر التّعبير بقوله: من آخر ما نزل آية الرِّبا، رواه أحمد و ابن مَاجَه، قالوا المراد بآية الرّبا ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَـنُوا اتَّـقُوا اللهَ وَ ذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبٰوا...﴾. و ذكر عمر أنّ النّبيّ ﷺ توفّي و لم يفسّرها.

وفي روايات ضعيفة عن ابن عبّاس أنّ آخر آية نزلت، أو آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَىَ اللهِ﴾[1] الآية، و هي بعد آيات الرّبا من سورة البقرة الّتي تقدّم أنّها من آخر مانزل أو آخره. قال في رواية الكلبيّ عن أبي صالح عنه: و كان بين نزولها وبين موت النّبيّ ﷺ أحد و ثمانون يومًا. ورواية الكَلْبيّ عن أبي صالح هي أوهَى الرّوايات عن ابن عبّاس، فلا يعتدّبها. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبَيْر أنّها: آخر ما نزل من القرآن كلّه، قال: و عاش النّبيّ ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، و مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأوّل. وفي هذه الرّواية بحث ليس هذا محلّه.

وجملة القول أنّه لا سبيل إلى القطع بآخر آية نزلت من القرآن، و إنّما نقول: إنّ هذه الآية من آخر ما نزل قطعًا ،و يجوز أن تكون آخرها كلّها، والله أعلم. (٦:١١١-١١٢)

﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ المائدة /٣.

مكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين يومًا ثمّ قبضه الله إليه...

وذكر ماروّاه قبل ذلك عن ابن عبّاس و السُّدّيّ من تفسير الإكمال بإكمال الفرائض والأحكام، و ما يعارضه من قول البَراء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله...﴾ إنّها آخر آية نزلت.

ونقول: لا معارضة، فإنّ مراده أنّها آخر آيات الفرائض، و هذا لا ينفي أن تكون نزلت

---

١ ـ البقرة /٢٨١.

قبل آية المائدة أو سورة المائدة واستدلّ على التّرجيح أيضًا باتّفاق العلماء على أنّ الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى أن قبض، و كونه كان قبل وفاته أكثر ما كان تتابعًا، وجعل منه آية الفتوى في الكلالة، و أصحاب القول الآخر يمنعون أن تكون هذه الآية ممّا نزل بعد آية المائدة، ولا يمنعون غيرها ممّا ليس فيه فرائض ولاحلال ولاحرام، وبهذا يبطل ترجيحه إثبات نزول شيء من الأحكام على نفيه بتقديم المثبت على النّافي. (٦: ١٥٤)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة /١٢٨.

ونختم تفسير الآيتين بتحقيق مسألتين ذكر تا في تفسير هما، و لم نر أحدًا حقّقهما؛ الأُولى: ماورد في كتابة الآيتين عن النّبيّ ﷺ، و كونهما آخر ما نزل، أنّ معنى هاتين الآيتين لا يظهر إلاّ في دعوته ﷺ إلى الإسلام بمكّة في أوّل زمن البعثة. وقد ذكرت في الكلام على هذه السّورة قبل البدء بتفسيرها أنّ ابن أبي الفَرَس قال: إنّهما مكيّتان، و أنّه يردّ قوله ماورد من أنّهما آخر ما نزل من القرآن، ثمّ ذكرت هنالك أصحّ ماورد في آخر ما نزل من القرآن، و هو غير هاتين الآيتين.

و **أقول الآن**: إنّ قول ابن أبي الفَرَس هو الوجيه من جانب المعني، فهو يؤيّد الرّواية، و أمّا القول بأنّهما آخر مانزل، فقد أخرج في بعض المسانيد و التّفاسير المأثورة عن أُبيّ بن كعب بألفاظ متقاربة؛

منها: عن ابن عبّاس عنه: أنّ آخر آية أُنزلت على النّبيّ ﷺ و في لفظ أنّ آخر ما أُنزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ إلخ.

ومنها: عن الحسن عنه، أنّه كان يقول: إنّ أحدث القرآن عهدًا بالله، و في لفظ بالسّماء، هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ إلخ السّورة.

و منها: من طريق أبي العالية عنه أنّهم جَمَعُوا القرآن في مُصحف في خلافة أبي بكر...

[وذكر كما تقدّم عن ابن كثير، ثمّ قال:].

و هو صريح في أنّهما آخر ما نزل من هذه السّورة، لا من القرآن مطلقًا، إلاّ إذا صحّ أنّ سورة براءة آخر سورة نزلت والصّحيح في الرّواية أنّ آخر ما نزل من السّور سورة النّصر، ومن الآيات ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ كما تقدّم في محلّه. **[إلى أن قال:]**

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف أنّ خُزَيْمة بن ثابت جاء عثمان حين تصدّى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر، فقال: إنّي رأيتكم تركتُم آيتين لم تكتبوهما فقالوا ما هما؟ قال: تلقّيت من رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّم...﴾ إلى آخر السّورة. فقال عثمان: و أنا أشهد أنّهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلها؟ قال: اختم بهما آخر ما نزلت من القرآن، فختمت بهما براءة. (١١: ٩١ ـ ٩٣)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة البراءة)

و هي مدنيّة بالإتّفاق، قيل: إلاّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ اٰمَنُوا اَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَو كَانُوا اُولِى قُربىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُمْ اَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

واستثنى ابن الفَرَس قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ إلى آخر الآيتين في آخرها، فزعم أنّهما مكّيّتان، و يردّه ماروواه الحاكم و أبو الشّيخ في تفسيره عن ابن عبّاس من أنّ هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، و قول الكثيرين: إنّها نزلت تامّة. و ما يعارض هذا ممّا ورد في أسباب نزول بعض الآيات يجاب عنه بأنّ أكثر ماروي في أسباب النّزول كان يراد به أنّ الآية نزلت في حكم كذا، أعني أنّ الرُّواة كانوا يذكرونها كثيرًا في مقام الاستدلال، وهذا لا يدلّ على نزولها وحدها، ولا على كون النّزول كان عن حدوث ما استدلّ بها عليه، كما قلنا آنفا في احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين في المدينة، و إن كان ماذكروه من سببها حدث بمكّة قبل الهجرة...

وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك و هي آخر غزواته ﷺ و في حال الاستعداد لها في زمن العُسرة و الخروج إليها في القيظ، و في أثنائها ظهر من آيات نفاق المنافقين ما كان خفيًّا من قبل.

و قد صرّحوا بأنّ أوّلها نزل سنة تسع بعد فتح مكّة، فأرسل النّبيّ صلوات الله و سلامه

---

١ ـ التّوبة /١١٣.

عليه عليًّا عليه السلام ليقرأها على المشركين في الموسم، كما يذكر مفصّلاً في محلّه.

وفي صحيح البُخاريّ و غيره عن البَراء، قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَك قُلِ الله...﴾ وآخر سورة نزلت: براءة، وهو رأي له لا رواية مرفوعة، و يحمل قوله في الآية على أنّها آخر مانزل في الكلالة، فهي بعد آيات المواريث، و في السّورة على بعضها أو معظمها. وأرجح ما ورد في آخر آية نزلت أنّه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ أو ما قبلها من آيات الرّبا من دونها، والأرجح أن يقال معها، و تقدّم تفصيل المسألة في آخر سورة البقرة. و أمّا آخر سورة نزلت تامّة فالأرجح أنّها سورة النّصر و قد عاش صلى الله عليه وسلم بعدها أيّامًا قليلة. (١٠:١٤٥)

الفصل الحادي والثّلاثون

نصّ أبي عبدالله الزّنجانيّ (م: ١٣٦٠) في «تاريخ القرآن»

أوّل ما نزل من القرآن

الصّحيح أنّ أوّل مانزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾[١]؛ قال محمّد بن إسحاق المعروف بابن أبي يعقوب النّديم في كتابه: «فوز العلوم» المعروف بالفهرست:

حدّثني أبوالحسن محمّد بن يوسف، قال: حدّثنا أبو عبدالله محمّد بن غالب، قال: حدّثنا أبو محمّد عبدالله بن الحَجّاج المدينيّ قدم من المدينة سنة ٢٩٩، قال: حدّثنا بكر بن عبد الوَهّاب المدينيّ، قال حدّثني الواقِديّ محمّد بن عمر، قال: حدّثني مَعْمَر بن راشد عن الزُّهْري، عن محمّد بن نُعمان بن بِشر، قال: أوّل ما نزل من القرآن على النّبيّ ﷺ: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى قوله ـ عَلَّمَ الْاِنْسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. روى الشّيخان عن عائشة: كان النّبيّ ﷺ يأتي حِراء... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ الرّقم ٣ ثمّ قال:]**

وقال أبو عُبَيْدة في «فضائل القرآن»: حدّثنا عبدالرّحمان عن سُفيان، عن ابن أبي نَجيح، عن مُجاهد ﷺ، قال: إنّ أوّل مانزل من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿ن والْقَلَمْ﴾.

وأخرج ابن أشتة في كتاب «المصاحف»... **[إلى أن قال:]** وأخرج عن الزُّهريّ... **[وذكر كما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ قال:]**

ولم تنزّل بعد نزول آية: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ إلى ثلاث سنوات آية من القرآن، وتسمّى هذه المدّة زمن فترةالوحي، ثمّ أخذ القرآن ينزل على النّبيّ ﷺ منجّمًا، و كان تنجيمه مثار اعتراض المشركين، و قد ذكر ذلك القرآن و أجاب عنه، وقال في سورةالفرقان: **﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ**

---

١ ـ العلق /١.

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[1] لما في تنجيمه و تكرار الوحي و إشراق نورالعلم على قلبه من التّثبيت لفؤاده الشّريف. ولا تنافي بين نزوله مفرّقًا و مُنَجّمًا و بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[3] و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[4] لصحّة إطلاق القرآن على بعضه، كما في قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[5]، مع العلم بأنّ أُخر منها متشابهات. على أنّه يمكن أن تقول بأنّ روح القرآن، و هي أغراضه الكلّيّة الّتي يرمي إليها، تجلّت لقلبه الشّريف في تلك اللّيلة ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[6] ثمّ ظهرت بلسانه الأطهر مفرّقة في طول سنين ﴿وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[7].

و دلّ استقراء الأحاديث أنّ أكثر القرآن نزل مفرّقًا، و من أمثلته في السُّوَر القصار، سورة (اِقْرَأْ)، أوّل ما نزل منها إلى قوله تعالى: ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ و الضّحىٰ، أوّل ما نزل منها إلى قوله: ﴿فَتَرْضىٰ﴾[8] و منه ما نزل جميعًا، ومن أمثلته فيها سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، و تَبَّتْ، وَ لَمْ يَكنْ، و النّصرِ[9]، و من أمثلته في السُّور الطّوال، والْمُرسَلاَت[10].

و قد دلّ الاستقراء على نزول خمس آيات و عشر آيات، و صحّ نزول عشر آيات من أوّل المُؤمنين جملةً، و صحّ نزول ﴿غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ﴾ وحدها، وهي بعض آية ﴿لاَيَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[11] و كذا قوله تعالى ﴿وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[12] فإنّها نزلت بعد نزول أوّل الآية، و هي بعض الآية.

(ص: ١ـ٨)

١ ـ الفرقان /٣٢.

٢ ـ القدر /١.

٣ ـ البقرة /١٨٥.

٤ ـ الدّخان /٣.

٥ ـ هود /١.

٦ ـ الشّعراء /١٩٣.

٧ ـ الإسراء /١٠٦.

٨ ـ في حديث الطّبرانيّ.

٩ ـ ذكر في «الإتقان» للحافظ جلال الدّين السّيوطيّ.

١٠ ـ في «المستدرك» عن ابن مسعود (رض) قال: كنّا مع النّبيّ صلى الله عليه وآله في غار فنزلت عليه: (وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا)، فأخذتها من فيه، و إنّ فاهُ رطب بها، فلا أدري بأيّها ختم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾.

١١ ـ النّساء /٩٥.

١٢ ـ التّوبة /٢٨.

الفصل الثّاني والثّلاثون

نصّ سيّد قُطب (م:١٣٨٥) في تفسيره: «في ظلال القرآن»

أوّل آية نزلت من القرآن

(صدر آيات سورة العلق)

مطلع هذه السّورة هو أوّل مانزل من القرآن باتّفاق، و الرّوايات الّتي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة.

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبدالرَّزّاق، حدّثنا مُعَمَّربن الزُّهْريّ، عن عُرْوَة، عن عائشه... [وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٩، ثمّ قال:]

وروى الطَّبَريّ بإسناده عن عبدالله بن الزُّبَيْر قال: قال رسول الله ﷺ: فجاءني و أنا نائم... [و ذكر كما تقدّم عنه الرّقم ٤، ثمّ قال:] و قد رواه ابن إسحاق مطوّلاً عن وَهْب بن كَيْسان، عن عُبَيْد أيضًا...

إنّها السّورة الأُولى من هذا القرآن، فهي تبدأ باسم الله، و توجّه الرّسول ﷺ أوّل ماتوجّه في أوّل لحظة من لحظات اتّصاله بالملأالأعلى، و في أوّل خطوة من خطواته في طريق الدّعوة الّتي اختير لها توجّهه إلى أن يقرأ باسم الله: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾.(٦:٣٩٣٥ـ٣٩٣٨)

آخر آية نزلت من القرآن

(آية الرّبا)

[سورة البقرة] من أوائل مانزل من السّور بعد الهجرة... و في هذه السّورة آيات في أواخر ما نزل من القرآن كآيات الرّبا، في حين أنّ الرّاجح أنّ مقدّماتها كانت من أوّل ما نزل من القرآن في المدينة. (٢٧:١).

(آية إكمال الدّين)

في روايات كثيرة أنّ هذه السّورة [أي سورة المائدة] نـزلت بـعد سـورة الفـتح، وسورةالفتح معروف أنّها نزلت في الحُدَيبيّة في العامالسّادس من الهجرة، و في بعض هذه الرّوايات أنّها نزلت مرّةً واحدةً فيما عدا الآية الثّالثة الّتي فـيها: ﴿اَلْـيَومَ اَكْـمَلْتُ لَكُـمْ دِينَكُمْ...﴾[1] فإنّهانزلت في حجّة الوداع في السّنة العاشرة.

ولكنّ المراجعة الموضوعيّة للسّورة مع أحداث السّيرة تكاد تنفي هذا الرّواية الّتي تقول: إنّ السّورة نزلت بكاملها بعد الفتح، فضلاً على أنّ هناك حادثة من حوادث السّيرة في غزوة بدر تقطع بأنّ الآيات الخاصّة بموقف بني إسرائيل مع موسىعليه السلام مـن دخـول الأرض المقدّسة، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر في السّنة الثّانية الهجريّة و قد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن مُعاذ الأنصاريّ رضي الله عنه في رواية، و على لسان المقداد بن عمرو في رواية، وهو يقول لرسول الله صلّى الله عليه وآله: إذن و الله لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ اَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلاَ اِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾[2] و لكن اذهب أنت و ربّك فقاتلا إنّا معكما متّبعون... إلخ [إلى أن قال:]

و من هذه الملاحظات يترجّح لدينا أنّ مطالع السّورة وبعض مقاطعها هي الّتي نزلت بعد سورة الفتح، بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك، كما أنّ الآية الّتي فيها قول الله تعالى: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لابدّ أن تكون قد نزلت بعد ذلك، فقد كانت آخر مانزل مـن

---

١ ـ المائدة /٣.

٢ ـ المائدة /٢٤.

القرآن على أرجح الأقوال، و أنّ السّورة لم تنزل كلّها مرّةً واحدةً كما جاء في إحدى الرّوايات.(٢:٨٣٢)

﴿اَلْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَتَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ اَلْيَوْمْ اَكْمَلْتُ...﴾[1] المائدة/٣

و هي آخر ما نزل من القرآن ليعلن كمال الرّسالة و تمام النّعمة...

اليوم نزلت فيه هذه الآية في حجّة الوداع، أكمل الله هذا الدّين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد وأتمّ نعمته الكبرى بهذا المنهج الكامل الشّامل و رضي لهم الإسلام دينًا... فأعلن لهم إكمال العقيدة، و إكمال الشّريعة معًا، فهذا هو الدّين... (٢: ٨٤١ ـ ٨٤٣)

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة المدَّثِّر)

ينطبق على هذه السّورة من ناحية سبب نزولها ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة المزّمّل.

فهناك روايات بأنّها هي أوّل مانزل بعد سورة العلق، ورواية أُخرى بأنّها نزلت بعد الجهر بالدّعوة و إيذاء المشركين للنّبيّ.

قال البُخاريّ: حدّثنا يحيى، حدّثنا وَكيع عن عليّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سَلَمَة... [**و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ٣، ثمّ قال:**].

و قد رواه مسلم من طريق عقيل عن ابن شِهاب، عن أبي سلمة، قال: أخبرني جابربن عبدالله... [**و ذكر كما تقدّم عن مُسلم و الطَّبريّ الرّقم ٧ و ٣، ثمّ قال:**].

علّق ابن كثير في التّفسير على هذا الحديث بقوله: و هذا السّياق هو المحفوظ... [**وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:**] فهذه رواية، و هناك روايه أُخرى؛

قال الطَّبَرانيّ: حدّثنا محمّد بن عليّ بن شُعَيْب السَّمسار، حدّثنا الحسن بن بِشر البَجَليّ، حدّثنا المُعافي بن عمران عن إبراهيم بن يزيد، سمعت ابن أبي مَليكة يقول:

١ ـ المائدة /٣.

سمعت ابن عبّاس يقول: إنّ الوليد بن المُغيرة صنع لقُريش طعامًا... [و ذكر كما تقدّم عن القاسِميّ، ثمّ قال:].

وتكاد تكون هذه الرّواية هي ذاتها الّتي رُويت عن سورة المُـزّمّل، مـمّا يـجعلنا لانستطيع الجزم بشيءٍ عن أ يّتهما هي الّتي نزلت أوّلاً، والّتي نزلت بهذه المناسبة أو تلك.

غير أنّ النّظر في النّصّ القرآني ذاته يوحي بأنّ مطلع هذه السّورة إلى قوله تـعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ربّما يكون قد نزل مبكرًا في أوائل أيّام الدّعوة، شأنه شأن مطلع سورة المزّمّل، إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ و تَبَتَّلْ اِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ اِلٰهَ اِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[1]. و هذا و ذلك لإعداد نفس الرّسولﷺ للـنّهوض بـالتّبعة الكُـبرى، ومواجهة قُريش بعد ذلك بالدّعوة جهارًا و كافّة، ممّا سيترتّب عليه مشاقّ كثيرة متنوّعة، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسيّ سابق، و يكون ماتلا ذلك في سورة المدّثّر، و ما تلا هذا في سورة المزّمّل، قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم و عنادهم، و إيذائهم للنّبيّﷺ بالاتّهام الكاذب و الكيد اللّئيم.

إلاّ أنّ هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر، و هو أن يكون كلّ من المطّلعين قد نزل متّصلاً بما تلاه في هذه السّورة و في تلك بمناسبة واحدة هي التّكذيب، و اغتمام رسول اللهﷺ للكيد الّذي كادته قريش و دبّرته، و يكون الشّأن في السّورتين هو الشّأن في سورة القلم على النّحو الّذي بيّنّاه هناك (٦: ٣٧٥١).

[من أواخر السّور الّتي نزلت من القرآن: البراءة]

هذاالسّورة مدنيّة من أواخر ما نزل من القرآن، إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن. (٣: ١٥٦٤)

---

١ ـ المزّمّل / ٨ ـ ٩.

الفصل الثّالث والثّلاثون

نصّ عزَّة دَرْوَزَة (معاصر) في «التّفسير الحديث»

أوّل آية نزلت من القرآن

﴿بسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾

هذه الآيات هي على ما جاء في حديث رواه البُخاريّ عن عائشة، سنورده بعد قليل أُولى الآيات القرآنيّة نزولاً و مع أنّ هناك روايات تذكر أنّ الآيات الأُولى من سورة أُخرى مثل سورة القلم و المُدَّثِّر و المزَّمّل، وأنّ سورًا أُخرى مثل سورتي الفاتحة[1] والضُّحىٰ هي أوّل القرآن نزولاً، فإنّ أحاديث أوّليّة هذه الآيات أقوى سندًا، كما أنّ مضمونها يلهم ترجيح هذه الأوّليّة و ليس في هذه الآيات الواضحة العبارة أمرًا بالدّعوة، و إنّما هي تنبيه و إعداد. و لمّا كانت الآيات التّاليه لها تتضمّن مشهدًا من مشاهد تصدّى بعض الطّغاة للنّبيّ عليه السلام حينما بدأ بدعوته و صلاته، فإنّ المعقول أن تكون هذه الآيات قد نزلت وحدها ثمّ نزلت آيات أو سور قرآنيّة أُخرى فيها أمر بالدّعوة و مبادئها، و أن تكون أوّليّة السّورة في ترتيب النّزول هي بسبب أوّليّة نزول هذه الآيات.

أوّل قرآن نزل على النّبيّ ﷺ

و قد نزلت هذه الآيات على النّبيّ عليه السلام ليلاً في غار حِراء، أحد جبال مكّة أثناء اعتكافه في هذا الغار في رمضان، على ما ورد في حديث رواه البُخاريّ و مُسلم عن

---

١ ـ و سيأتي كلام له في نزول سورة الفاتحة في باب ترتيب السّور.

عائشة، جاء فيه أوّل ما بدىء به رسول الله [و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ و غيره بألفاظٍ مختلفة] (۱:۲۲)

﴿يَاءَيُّهَا الْمُزَّمِّل ـ إلى قوله ـ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ المزّمّل / ۱ـ۹

و قد جاء في بعض الرّوايات[1] أنّ هذه الآيات أوّل ما نزل من القرآن، كما جاء في بعضها[2] أنّها نزلت حينما رجع النّبيّ ﷺ من غار حِراء بعد نزول الوحي عليه لأوّل مرّة وقلبه يرجف، فقال لأهله: «زَمِّلُوني».

ومضمون الآيات يجعل الرّواية الثّانية أقوى، و هو ما عليه جمهور المفسّرين. و هذه الرّوايات تعني و الحالة هذه أنّ هذه الآيات نزلت وحدها؛ لأنّ الآيات التّالية احتوت مشاهد و مواقف لا يمكن أن تقع إلاّ بعد أن يكون قد نزل جملةً من القرآن، و سار النّبيّ ﷺ في الدّعوة شوطًا غير يسير و في هذه الحالة يكون ترتيب السّورة كثالثة السّور نزولاً بسبب ذلك.

على أنّ ما بين هذه الآيات و الآيات التّالية لها من انسجام و توازن قافية، و عطف ما بعدها عليها، و ما فيها من حكاية لموقف المكذّبين، و تثبيت للنّبيّ ﷺ، يمكن أن يدلّ على أنّها ليست منفصله عمّا بعدها، و أنّها جاءت كمطلع تمهيديّ له، فيه تثبيت و إعداد. و إذا صحّ هذا فإنّ أوّليّة الآيات و باالتّالي ترتيب السّورة لا يكون صحيحًا.(۱:۷۳)

﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر ـ إلى قوله ـ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدّثّر / ۱ـ۵

وقد ذكرت الرّوايات أنّ هذه الآيات نزلت بعد فترة قصيرة من الوحي، بعد نزوله الأوّل على النّبيّ ﷺ في غار حِراء و ممّا جاء في حديث مرويّ عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ... [و ذكر كما تقدّم عن البُخاريّ الرّقم ۳، ثمّ قال:]

وهناك روايات تذكر أنّها أوّل ما أُنزل، أو أنّها ثاني أو ثالث أورابع مجموعة نزلت.

ولمّا كانت الآيات التّاليه لها قداحتوت حكاية أقوال بعض المكذّبين و مواقفهم،

---

۱ ـ أُنظر تفسير الآلوسيّ لهذه السّورة.

۲ ـ المصدر السّابق أيضًا. في تفسير الطَّبَريّ و ابن كثير.

ولايمكن أن يكون هذا إلاّ بعد نزول جملة من القرآن و سير النّبيّ ﷺ في الدّعوة شوطًا، فيكون ترتيب السّورة المتقدّم بسبب رواية تبكير نزول آياتها الأولى هذه.

و الآيات تحتوي أوّل أمر للنّبيّ ﷺ بإنذار النّاس و دعوتهم، و بما يجب عليه من الظّهور بالمظهر الطّاهر النّظيف و اللّسان العفيف و التّواضع. وهذا ممّا يمكن أن يدعم رواية كونها ثانية مجموعة نزلت بعد آيات العلق الأولى. والمُصحف الّذي اعتمدناه هو الّذي ذكر أنّها نزلت بعد المزّمّل، و جعلها رابع السّور نزولاً، فلم نشأ أن نخلّ في ترتيبه.

على أنّ روح الآيات و نظمها و روح الآيات التّالية لها و نظمها أيضًا يمكن أن يلهم أنّها غير منفصلة عن بعضها. و حيئذ فإنّ الآيات تكون قد نزلت بقصد تثبيت النّبيّ ﷺ، وتكون قد نزلت هي و الآيات التّالية لها معًا أو متلاحقة بعد نزول سور و فصول قرآنيّة فيها مبادئ الدّعوة و أهدافها. **و في هذه الحالة يكون ترتيبها كرابعة سورة قرآنيّه غير صحيح.**

و على كلّ حال فالآيات و آيات السّورة معًا ممّا نزل مبكرًا على ما يلهم أسلوبها ومضمونها، و الخطّة الّتي رسمها الله للنّبيّ في الدّعوة، والاتّصال بالنّاس و دعوتهم وإنذارهم من الأدلّة القويّة على ذلك. (١: ٩٢ ـ ٩٣)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ البقرة / ٢٨١.

و قد روى المفسّرون: أنّ الآية (٢٧٨) نزلت في مناسبة مطالبة العبّاس بن عبدالمطّلب و خالدبن الوليد، أورجل من بني المغيرة لدّيْنٍ لهما بالرّبا عند بعض الثّقفيّين قبل إسلامهما، فرفع الأمر إلى النّبيّ فنزلت، و أنّ الآية (٢٨١) آخر آية نزلت من القرآن. وقالوا: كانوا في الجاهليّة يكون للرّجل على الرّجل دين من بيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل **ولم يكن عنده قضاء، طلب المُدين من الدّائن تأخير الأجل مقابل زيادة في الدّين، وهذا هو الرّبا.**

والّذي نلحظه أنّ الآيات فصل تامّ منسجم سبكاً و موضوعًا، و نرجّح أنّه دفعةً واحدةً، و لاينفي هذا أن يكون تشدّد أصحاب الأموال المرابين من المسلمين في طلب أموالهم من مدينين معسّرين من الأسباب المباشرة لنزول الآيات.

و يتبادر لنا أنّ الآية الأخيرة منسجمة مع سابقاتها انسجامًا وثيقًا، و لذلك نتوقّف في رواية كونها لِحِدتّها آخر القرآن نزولاً. ونرجّح أنّها نزلت مع هذه الآيات، فإذا كان لرواية نزولها كآخر آيات القرآن أصل فالمتبادر أنّ ذلك يشمل الفصل جميعه. و قد روى البُخاريّ حديثًا في هذا الباب عن ابن عبّاس، جاء فيه: آخر آية نزلت على النّبيّ ﷺ آية الرّبا. وروى ابن كثير حديثًا عن عمر جاء فيه: إنّ آخر ما نزل آية الرّبا، و في رواية إنّ من آخر القرآن نزولاً آية الرّبا، و إنّ النّبيّ ﷺ مات و لم يفسّرها لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، أو دعوا الرّبا و الرّيبة؛ بحيث يمكن الاستئناس بهذين الحديثين على أنّ فصل الرّبا إلى آخر الآية (٢٨١)، نزل دفعةً واحدةً في أواخر عهد النّبيّ. و لقد رُوي أنّ النّبيّ قال في حجّة و داعه فيما قال: «إنّ كلّ ربا موضوع، و لكن﴿ فَلَكُمْ رُؤُسُ اَمْوَالِكُمْ لاَتَظْلِمُونَ وَ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[1] قضى الله أنّه لا ربا، و إنّ ربا العبّاس بن عبد المطّلب موضوع كلّه» و هذا ممّا يستأنس به كذلك؛ لأنّ العبّاس آمن قبل الفتح المكّيّ، ثمّ هاجر عقبه إلى المدينة، فلو كانت الآيات نزلت قبل حجّة الوداع لما كان للعبّاس ربا يطالب به؛ لأنّه لا يمكن إلاّ أن يتقيّد بأمر الله المشدّد.

ومع هذا فإنّنا ننبّه على أنّ هناك روايات تذكر غير هذه الآية، كآخر ما نزل من القرآن على ما سوف ننبّه إليه في مناسبته. **[إلى أن قال:]**

وقد روت الرّوايات أنّ الرّبا كان يتضاعف بسبب الإعسار، إلى أن يبلغ أضعافًا مضاعفةً، و يستغرق جميع مال المُدين و ما في حيازته. و إلى هذا أشارت آية: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا لاَ تَاْكُلُوا الرِّبٰوا اَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾[2].

وإذا صحّ أنّ هذه الآيات كان من آخر ما نزل من القرآن و الرّوايات الّتي أوردناها تؤيّد ذلك، فتكون آية آل عمران هذه قد نزلت قبلها، فنهت عن أكل الرّبا أضعافًا مضاعفةً كخُطوة أُولى، ثمّ جاءت هذه الآيات لتحرّمه تحريمًا حاسمًا. و هذا من أساليب التّشريع القرآنيّ؛ حيث اقتضت حكمة التّنزيل التّدرّج في إلغاء العادات الّتي كانت راسخة و ذات تأثير شديد في المجتمع. و قد سار القرآن على هذا الأُسلوب في تحريم الخمر و الميسر

---

١ ـ البقرة /٢٧٩.   ٢ ـ آل عمران /١٣٠.

على ما ذكرناه في مناسبة في هذه السّورة، لأنّهما كـان لهـما تأثـير شـديد ورسـوخ في المجمع... (٧:٤٠١)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ التّوبة /١٢٨.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...﴾ و الآية التّالية لها و ما فيهما من صور و تلقين و ما روي في صددهما من روايات، وتمحيص رواية مكّيّتهما ومـدنيّتهما، ومسألة كـونهما آخرالقرآن نزولاً.

ولقد كثرت الرّوايات و الأقوال في صدد هاتين الآيتين و مداهما، فالْمُصحَف الّذي اعتمدنا عليه يذكر أنّهما مكّيتان. و لم نَر في كتب التّفسير تأييدًا لهذه الرّوايـة إلاّ فـي تفسير «المنار» عزوًا إلى ابن أبي الفَرَس، وهذا ورد أيضًا في كتاب «الإتقان» عزوًا إلى ابن الفَرَس... **[إلى أن قال:]**

ولقد روى ابن كثير حديثًا عن عبدالله بن الإمام أحمد عن أُبيّ كعب جاء فيه: أنّهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**

وقد وصف ابن كثيرالحديث بأنّه غريب، و هو كذلك لم يرد في مسانيد الأحاديث الصّحيحة.

وبالإضافة إلى هذا و ذاك فقد روى الطَّبَريّ عن عُبَيْد بن عُمَيْر، قال: كان عمر لا يثبت آية في المُصْحَف حتّى يشهد رجلان، فجاء رجل من الأنصار بالآيتين، فـقال عـمر لا أسألك عليهما بيّنة أبدًا، كذا كان رسول الله ﷺ.

وروى البُخاريّ عن زيد بن ثابت، بعد أن ذكر ما كان من تكليف أبي بكر و عمر له بتتبّع القرآن و جمعه. قوله: فتتبّعت القرآن أجمعه من العُسُب و اللّخاف و صُدور الرّجال، حتّى وجدت آخر سورة التّوبة مع أبي خُزَيْمَة الأنصاريّ، لم أجدها مع أحد غيره[١] و ليس في الحديثين إيضاح ما إذا كانت الآيتان مكّيتين أو مدنيّتين و عن وقت نزولها. و حديث عبدالله بن الزُّبَير الّذي أورده ابن كثير يفيد أنّ السّورة الّتي نزلت الآيتان فـيها لم تكـن معروفة، وأنّ عمر بن خطّاب فكّر في جعلهما سورة برأسهما لو و جـد آيـة ثـالثة، ثـمّ

---

١ ـ التّاج ٤: ٢٨ـ٢٩.

ألحقوهما في آخر سورة براءة؛ حيث يستنتج منه ما استنتجناه من حديث زيد بن ثابت. وهناك روايات أشرنا إليها في مقدّمة السّورة تذكر أنّ سورة براءة هي آخر السّور في ترتيب نزول القرآن؛ حيث يحتمل أن يكون إلحاقهما بسورة براءة، لأنّه لم يكن لهما محلّ في سورة أُخرى. و لمّا رأوه فيهما من الثّناء العظيم على رسول الله ﷺ، حيث استحسنوا أن تكونا خاتمة للقرآن.

و بناءً على هذا نقول: إمّا أن تكون الآيتان مكّيتين لم تعرف السّورة الّتي نزلتا فيها، فوضعتاه في آخر سورة براءة، وهذا متّسق مع التّنبيه الّذي نبّه عليه مفسّر «المنار» على ما قلناه قبل. و إمّا أن تكونا معقّبتين على الآيات السّابقة الّتي احتوت صورًا بموقف المنافقين، و دلّت كما قلنا على شدّة عمق الكفر و النّفاق في قلوبهم و إصرارهم عليهما، بقطع النّظر عمّا إذا كانتا آخر ما نزل من القرآن أم لا؛ لأنّ ذلك مرتبط بمسألة صحّة كون سورة براءة آخر ما نزل من القرآن، و هي مسألة لا يمكن الجزم بها. و في هذه الحالة يكون معناهما ظاهر الصّلة بالسّياق، ولا يكون من الضّروريّ أن يكون هذا المعنى ممّا لا يكون إلاّ في العهد المكّيّ. نحن نرجّح هذا؛ لأنّنا نعتقد ـ استنادًا إلى الدّلائل العديدة القرآنيّة و الرّوايات المتّسقة معها و الّتي أوردناها و شرحناها في كتابنا القرآن المجيد[١] ـ أنّ القرآن كان يدوّن أوّلاً فأوّلاً، و توضع آياته في سور بأمر النّبيّ ﷺ، و أنّ سوره كانت تامّة التّرتيب في أواخر عهد النّبيّ ﷺ حسب ما جاء في المُصْحَف، و أنّه كان لبعض أصحاب رسول الله مصاحف تحتوي سور القرآن بترتيبها المشهور. و لا نعتقد أنّ الآيتين كانتا منسيّتين من التّدوين، فألحقتا بآخر سورة التّوبة ارتجالاً. ولا نرى حديث زيد بن ثابت ناقضًا لهذا...(١٢: ٢٤٨)

١ ـ ص ٥٢ ـ ١١٥، و في مقدّمة السّورة إشارة خاطفة إلى ذلك.

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

و أورد [ابن كثير] حديثًا أخرجه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو، قال: أُنـزلت على رسول‌الله ﷺ سورة المائدة و هو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها و أورد حديثًا أخرجه التِّرمِذيّ عن عبدالله بن عمرو أيضًا، قال: آخر سورة أُنزلت سورة المائدة و الفتح[1] و أخرج الحاكم حديثًا عن جُبَيْر بن نُفَيْر، قال: حججت، فـدخلت إلى عائشة، فقالت لي: يا جُبَيْر تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما أنّها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، و ما وجدتم من حرام فحرّموه. ولم ينفرد ابـن كـثير في إيراد هذه الأحاديث؛ حيث أوردها مفسّرون آخرون أقدم منه، مثل الطَّبَريّ و البَغَويّ والزَّمَخْشريّ، منهم من أوردها جميعها، و منهم من أورد بعضها، و منهم من زاد عـليها؛ حيث روى الطَّبَريّ عن عِكرِمة أنّ عُمر بن الخطّاب، قال: نزلت سورة المائدة يوم عرفة، ووافق يوم الجمعة...[2] [إلى أن قال:]

و كلّ هذا يجلعنا نتوقّف في الأحاديث الّتي تقول: إنّها نزلت دفعةً واحدةً، أو إنّها آخر ما نزل من القرآن، و نقول: إنّ فصولها أُلّفت تأليفًا بعد تكامل نزول ما اقتضت حكمة التّنزيل أن تحتويه من فصول، و كلّ ما يحتمل أن يكون بعض فصولها قد تأخّر في النّزول إلى أواخر عهد النّبيّ ﷺ و أنّ تأليفها تأخّر بناء على ذلك إلى أواخر هذا العهد.

والْمُصْحَف الّذي اعتمدناه يروي ترتيبها بعد سورة الفتح، و تروي هذا رواية أُخرى، في حين أنّ هناك روايات ترتيب تجعلها بعد عدّه بعد سورة الفتح[3]، و قد جارينا المُصحف الّذي اعتمدناه. و المتبادر أنّ رواية ترتيبها بعد سورة الفتح هي بسبب مطلع السّورة الّذي نرجّح أنّه نزل بعد صلح الحُدَيْبيّة بوقت قصير، والله تعالى أعلم.

هذا، و لقد انطوى في فصول السّورة صور و أحكام كثيرة، فأدّى بنا هذا إلى التّوسّع

---

١ ـ أورد ابن كثير حديثًا عن ابن عبّاس أنّ آخر سورة نزلت: (اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْح)، فالمتبادر أنّ المقصود من الفتح في حديث التِّرمِذيّ هو هذه السّورة.

٢ ـ و قد رأينا المفسّر القاسميّ يوردها بدون أيّ تعليق.

٣ ـ أُنظر روايات ترتيب السّور المدينة في كتابنا «سيرة الرّسول» ٢: ٩

في الشّرح، و إيراد ما ورد في صددها من أحاديث و روايات حتّى استوعب حيّزًا أوسع من الحيّز الّذي استوعبه تفسير سورة البقرة، مع أنّ آياتها لا تكاد تزيد عن خمس آيات هذهالسّورة، و قد رأينا أن نجعلها في جزء برأسه حتّى يظلّ حجم الأجزاء متقاربًا.(١١:٤)

(سورة النّصر)

و معظم المفسّرين على أنّ الفتح المذكور في السّورة هو فتح مكّة، حتّى إنّهم جعلوا تفسيرها وسيلة لإيراد قصّة هذا الفتح.

و لقد تمّ هذا الفتح في رمضان في السّنة الثّامنة للهجرة على ما شرحناه في سياق تفسير سورة الحديد، في حين أنّ النّبيّ ﷺ انتقل إلى الرّفيق الأعلى في أوائل السّنة الحادية عشرة.

والرّوايات متواترة على أنّ السّورة قد نزلت قبل وفاته بمدّة قصيرة أقلّ من ثلاثة أشهر، و هذا يجعلنانرجّح أن يكون ما عنته الآيات ليس فتح مكّة و حسب، بل مجموعة الانتصارات والفتوحات الضّخمة الّتي يسّرها الله لنبيّه ﷺ إلى قُبَيل و فاته، و الّتي بلغت ذَرْوَتها بفتح مكّة الّذي شرحنا قصّته في سورة الحديد، و بغزوة تبوك الكبرى الّتي شرحنا قصّتها في سورة التّوبة، و بفتح الطّائف الّتي ظلّت مستعصية إلى السّنة الهجريّة التّاسعة، والّتي لم تقتض حكمة التّنزيل أن يشار إليها في القرآن، ثمّ بسبيل الوفود الّتي أخذت تتدفّق من جميع أنحاء جزيرة العرب على المدينة المنوّرة خلال السّنتين التّاسعة والعاشرة؛ لمبايعة النّبيّ ﷺ و الدّخول في دين الله أفواجًا، و استمرّ تدفّقها إلى قُبَيل وفاة الرّسول ﷺ ثمّ بتوطّد سلطان النّبيّ و الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربيّة...

(١٢:٢٥٥ ـ ٢٥٦)

الفصل الرّابع والثّلاثون

نصّ الزُّرقانيّ (معاصرٌ) في «مناهل العرفان»[1]

[فوائد أوّل ما نزل و آخر ما نزل من القرآن]

و من فوائد الإلمام بأوّل ما نزل و آخره تمييزُ النّاسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، و كان الحكم في إحدى هذه الآيات يغاير الحكم في الأُخرى. و من فوائده أيضًا معرفة تاريخ التّشريع الإسلاميّ، و مراقبة سيره التّدريجيّ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام و سياسته في أخذه النّاس بالهوادة و الرّفق، والبعد بهم عن غوائل الطَّفرة و العُنف، سواء في ذلك هدم ما مَردُوا عليه من باطل، و بناء مالم يحيطوا بعلمه من حقّ.

يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة هي إظهار مَدَى العناية الّتي أُحيط بها القرآن الكريم، حتّى عُرف فيه أوّل ما نزل و آخر ما نزل، كما عُرف مكّيُّه و مدنيُّه، و سفريُّه وحضريُّه، إلى غير ذلك. و لاريب أنّ هذا مظهر من مظاهر الثّقة به، و دليلٌ على سلامته من التّغيير و التّبديل، ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[2]

وليس من غرضنا في هذا الباب أن نتحدَّث عن أوّل ما نزل و آخر ما نزل في كلّ تعليم من تعاليم الإسلام، فتلك غاية بعيدة المدى، و مجهود طويل جدير أن يُفْرَدَ بالتّأليف، و له مواضع أُخرى يمكن طلبه منها. إنّما الميسور لنا أن نحدّثك عن أمرين؛

أحدهما ـ أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق، و آخر ما نزل منه على الإطلاق، وهذا هو المقصود المهمّ.

---

١ ـ ألّفه عام ١٣٦٢ هـ.

٢ ـ يونس /٦٤.

الثّاني ـ نماذج من أوّل ما نزل في بعض الأحكام التّشريعيّة و آخر ما نزل منها، أي أوائل و أواخر إضافيّة مخصوصة و مقيّدة ببعض الأحكام.

أوّل ما نزل على الإطلاق

ورد في ذلك أقوال أربعة؛

القول الأوّل و هو أصحّها ـ أنّه صَدْر سورة: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ **إلى قوله سبحانه ـ** عَلَّمَ الاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [1] و دليله ما يأتي:

١ـ روى البخاريّ و مسلم ـ و اللّفظ للبُخاريّ ـ عن عائشة أُمّ المؤمنين أنّها قالت: أوّل ما بدیء بهِ... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ و أبي الفتوح الرّقم ٣ و ٢]**.

٢ـ وصحّح الحاكم في مستدركه، و البَيْهَقيّ في دلائله عن عائشة أيضًا أنّها قالت: أوّل سورة نزلت من القرآن: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

٣ـ و صحّح الطَّبَرانيّ في الكبير بسنده عن أبي رجاء العُطارديّ... **[إلى أن قال:]**

٤ـ وردت آثار في هذا المعنى أيضًا في بعضها زيادة تعرفها من رواية الزُّهْريّ...

[وذكر هاتين الرّوايتين كما تقدّم عن السّيّوطيّ ثمّ قال:]

القول الثّاني ـ أنّ أوّل ما نزل إطلاقًا: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ [2]، و استدلّ أصحابُ هذا الرّأي بماروواه الشّيخان عن أبي سَلَمَة... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّوسيّ، الرّقم ١، ثمّ قال:]**

لكنّ هذه الرّواية ليست نصًّا فيما نحن بسبيله من إثبات أوّل ما نزل من القرآن إطلاقًا، بل تحتمل أن تكون حديثًا عمّا نزل بعد فترة الوحي، و ذلك هو الظّاهر من رواية أُخرى رواها الشّيخان أيضًا عن أبي سَلَمَة، عن جابر... **[و ذكر كما تقدّم نحوه عن مُسلِم الطَّبريّ الرّقم ٧ و٣، ثمّ قال:]**

فظاهر هذه الرّواية يدلّ على أنّ جابرًا استند في كلامه على أنّ أوّل ما نزل من القرآن هو المدّثّر، إلى ما سمعه من رسول الله ﷺ وهو يحدّث عن فترة الوحي، و كأنّه لم يسمع بما حدّث به رسول الله ﷺ عن الوحي قبل فترته، من نزول الملك على الرّسول في حِراء

---

١ ـ العلق / ١ـ٥.

٢ ـ المدّثّر /١.

بصدر سورة (اِقْرَأ) كما روت عائشة فاقتصر في إخباره على ما سمع ظانًّا أنّه ليس هناك غيره اجتهادًا منه غير أنّه أخطأ في اجتهاد بشهادة الأدلّة السّابقة في القول الأوّل، و معلوم أنّ النّص يقدّم على الاجتهاد، و أنّ الدّليل إذا تطرّق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال، فبطل إذاً القول الثّاني و ثبت الأوّل.

القول الثّالث ـ أنّ أوّل مانزل هو: (سورة الفاتحة) وقد استدلّ أصحاب هذا الرّأي بما رواه البَيْهَقيّ في «الدّلائل» بسنده عن أبي مَيْسِرة عمر بن شُرَحْبيل: أنّ رسول الله ﷺ قال لخديجة... [**و ذكر كما تقدّم عن أبي الفتوح و القُرطُبيّ، ثمّ قال:**]. و لكنّ هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أوّليّة ما نزل مطلقًا، و ذلك من وجهين؛

أحدهما ـ أنّه لا يفهم من هذه الرّواية أنّ الفاتحة الّتي سمعها الرّسول ﷺ كانت في فجر النّبوّة أوّل عهده بالوحى الجليّ و هو في غار حِراء، بل يفهم منها أنّ الفاتحة كانت بعد ذلك العهد. و بعد أنّ أتى الرّسول إلى وَرَقَة، و بعد أن سمع النّداء من خلفه غير مرّة، و بعد أن أشار عليه وَرَقَة أن يثبت عند هذا النّداء حتّى يسمع ما يلقي إليه. و ليس كلامنا في هذا، إنّما هو فيما نزل أوّل مرّة.

الثّاني ـ أنّ هذا الحديث مرسل سقط من سنده الصَّحابيّ، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السّابق في بدء الوحي، و هو مرفوع إلى النّبيّ ﷺ. فبطل إذاً هذا الرّأي الثّالث و ثبت الأوّل أيضًا.

بَيْد أنّ صاحب الكشّاف عزا هذا القول الثّالث إلى أكثر المفسّرين، و لكنّ ابن حَجَر فنّده فيما ذهب إليه من هذا العزْو، و صرّح بأنّ هذا القول لم يقل به إلاّ عددٌ أقلّ من القليل.

القول الرّابع ـ أنّ أوّل ما نزل هو: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و استدلّ قائلوه بما أخرجه الواحِديّ بسنده عن عِكرِمة و الحسن قالا: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و أوّل سورة: (اِقْرَأ). و هذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضًا:

إحداهما ـ أنّ الحديث مرسل كسابقه، فلا يناهض المرفوع. الثّانيه: أنّ البَسْمَلَة كانت بطبيعة الحال تنزّل صدرًا لكلّ سورة إلاّ ما استثني. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة (اِقْرَأ) فلا يستقيم اعتبار الأوّليّة في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

آخر ما نزل على الإطلاق

اختلف العُلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، و استند كلّ منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النّبيّ ﷺ فكان هذا من دواعي الاشتباه، و كثرة الخلاف على أقوال شتّى:

القول[١] الأوّل ـ أنّ آخر ما نزل قول الله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾**[٢]. أخرجه النّسائيّ من طريق عِكرِمة عن ابن عبّاس... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ]**

القول الثّاني ـ أنّ آخرَ ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضًا **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[٣] أخرجه البخاريّ عن ابن عبّاس و البَيْهَقيّ عن ابن عمر.

القول الثّالث ـ أنّ آخر ما نزل آية الدَّين في سورة البقرة أيضًا و هي قوله سبحانه: **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِذَا تَدَا يَنْتُمْ بِدَيْنٍ اَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ـ إلى قوله سبحانه ـ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ﴾**[٤] و هي أطول آية في القرآن. أخرج ابن جَرير عن سَعيد بن المُسَيَّب: أنّه بلغه أنّ أحدثَ القرآن عهدًا بالعرش آية الدَّين.

أخرج أبو عُبَيْد في «الفضائل» عن ابن شِهاب، قال: آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الرِّبا و آية الدّين.

و يمكن الجمع بين هذا الأقوال الثّلاثة بما قاله السُّيوطيّ... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**

أقول: ولكنّ النّفس تستريح إلى أنّ آخر هذه الثّلاثة نزولاً هو قول الله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾**. و ذلك لأمرين:

أحدهما ـ ما تحمله هذه الآية في طيّاتها من الإشارة إلى ختام الوحي و الدّين،

---

١ ـ لفظة «القول» ليس في هذا التّرتيب و لكن أضفناه لتنسيق النّظم كما في ترتيب السّابق.(م)

٢ ـ البقره /٢٨١.

٣ ـ البقرة /٢٧٨.

٤ ـ البقرة /٢٨٢.

بسبب ما تحثُّ عليه الاستعداد ليوم المعاد، و ما تنوِّه به من الرّجوع إلى الله، و استيفاء الجزاء العادل من غير غَبن و لا ظلم، و ذلك كلّه أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها.

ثانيهما ـ التّنصيص في رواية ابن أبي حاتم السّابقة على أنّ النّبيّ ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط، ولم تظفر الآيات الأُخرى بنصّ مثله.

القول الرّابع ـ أنّ آخر القرآن نزولاً قول الله تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اَنّى لاَ اُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْثىٰ﴾**[1] الآية. و دليل هذا القول ما أخرجه ابن مَردُوَيه من طريق مُجاهدٍ عن أُمّ سَلَمة أنّها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اَنّى لاَاُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾** إلى آخرها. و ذلك أنّها قالت: يا رَسوُلَ اللهِ، أرى الله يذكر الرّجال ولايذكر النّساء، فنزلت: **﴿وَ لاَ تَتَمَنَّوا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ﴾**[2] و نزلت: **﴿اِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾**[3]، و نزلت هذه الآية، فهي آخر الثّلاثة نزولاً، و آخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرّجال خاصّة.

ومن السّهل ردُّ الاستدلال بهذا الخبر على آخر ما نزل مطلقًا، و ذلك لما يُصرِّح به الخبر نفسه من أنّ الآية المذكورة آخر الثّلاثة نزولاً و آخر ما نزل بالإضافة إلى ما ذكر فيه النّساء، أي فهي آخر مقيّد لا مطلق، و ليس كلامنا فيه.

القول الخامس ـ أنّه آية: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ اَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾**[4] و استدلّوا بما أخرجه البُخاريّ و غيره عن ابن عبّاس؛ قال: هذه الآية: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾** هي آخر ما نزل، و ما نسخها شيء. و لا يخفى عليك أنّ كلمة «وَ ما نسخها شيء» تشير إلى أنّ المراد من كونها آخر مانزل، أنّها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمدًا، لا آخر ما نزل مطلقًا.

القول السّادس ـ أنّ آخر آية نزلت: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ﴾**[5] و هي

---

١ ـ آل عمران /١٩٥.
٢ ـ النّساء: ٣٢.
٣ ـ الأحزاب /٣٥ و تمامها.
٤ ـ النّساء /٩٦.
٥ ـ النّساء /١٧٦.

خاتمة سورة النّساء، و أنّ آخر سورةٍ نزلت سورةُ: (بَرَاءَةٌ). و استند صاحب هذا الرّأي إلى ما يرويه البُخاريّ و مُسلم عن البَراءِ بن عازِب؛ أنّه قال: آخرُ آيةٍ نزلت: (يَسْتَفْتُونَك...) الآية، و آخر سورة نزلت: (بَرَاءةٌ). و يمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أنّ الآية آخر ما نزل في المواريث، و أنّ السّورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد، فكلاهما آخر إضافيّ لا حقيقيّ.

القول السّابع ـ أنّ آخر ما نزل سورة المائدة، و احتجّ صاحب هذا القول بروايةٍ للتِّرمِذيّ و الحاكم في ذلك عن عائشة رضي الله عنها. و يمكن رَدّه بأنّ المراد أنّها آخر سورة نزلت في الحلال و الحرام، فلم تُنسخ فيها أحكام، و عليه فهي آخر مقيّد كذلك.

القول الثّامن ـ أنّ آخر ما نزل هو خاتم سورة براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السّورة، رواه الحاكم و ابن مَرْدُوَيْه عن أُبيّ بن كعب. يمكن نقضه بأنّها آخر مانزل من سورة بَرَاءَةٌ لا آخر مطلق، و يؤيّده ما قيل من أنّ هاتين الآيتين مكّيّتان بخلاف سائر السّورة. و لعلّ قوله سبحانه: ﴿فَاِنْ تَوَلَّو فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ﴾[1] إلخ، يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولّي الأعداء و إعراضهم.

القول التّاسع ـ أنّ آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ اَحَدًا﴾[2] أخرجه ابن جَرير عن مُعاوية بن أبي سُفيان. قال ابن كثير: هذا أثر مشكل، و لعلّه أراد أنّه لم ينزل بعدها آية تنسخها و لا تغيِّر حكمها، بل هي مثبتة محكمة. وهو يفيد أنّها آخر مقيّد لا مطلق.

القول العاشر ـ أنّ آخر ما نزل هو سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْح﴾ رواه مسلمٌ عن ابن عبّاس. و لكنّك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أنّ هذه السّورة آخر مانزل مُشْعِرًا بوفاة النّبيّ ﷺ و يؤيّده ما روي من أنّه ﷺ قال حين نزلت: «نُعِيَتْ إليّ نَفْسي» و كذلك فَهم بعض كبار الصّحابة. كما ورد أنّ عمر بكى حين سمعها، و قال: الكمالُ دليل الزّوال، ويحتمل أيضًا أنّها آخر ما نزل من السّور فقط، و يدلّ عليه روايه ابن عبّاس: آخر سورة من القرآن جميعًا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ﴾.

---

١ ـ التّوبة /١٢٩.

٢ ـ الكهف /١١٠.

تلك أقوال عشرة، عرفتها و عرفت توجيهها، و رأيت أنّ الّذى تستريح إليه النّفس منها هو أنّ آخر القرآن نزولاً على الإطلاق قولُ الله في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[1] و أنّ ما سِواها أواخر إضافيّة أو مقيّدة بما علمت،... **[ثمّ حكى قول الباقِلاّنيّ، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]**

و كأنّه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعّبة بأنّها أواخر مقيّدة بما سمع كلّ منهم من النّبيّ ﷺ و هي طريقة مريحة، غير أنّها لا تلقي ضوء على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم.

مَثَلان من أوائل و أواخر مخصوصة

نضع بين يديك هنا مثلين من أوائل و أواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشّرعيّة لنلحظ فيهما سَيْرَ التّشريع الإسلاميّ و تدرُّجه الحكيم.

١ـ ما نزل في الخمر ـ روى الطّيالسيّ في مسنده عن ابن عمر، قال:... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ]**

٢ـ ما نزل في أمر الجهاد و الدّفاع ـ لم يشرّع الجهاد دفاعًا في صدر الإسلام، على الرّغم من أنّ الأذى كان يُصَبّ على المسلمين من أعدائهم صَبًّا. بل كان الله يأمر بالعفو و الصّفح، ومن ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِىَ اللهَ بِاَمْرِهِ اِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] فكانت أمرًا صريحًا لهم بالعفو والصّفح حتّى يأتي الله بأمره فيهم من القتال، و يتضمّن ذلك النّهي عن القتال حتّى يأتي أمر الله. ثمّ شُرّع القتال دفاعًا في السّنة الثّانية من الهجرة بقولة تعالى في سورة الحجّ: ﴿اُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِاَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَاِنَّ اللهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * اَلَّذِينَ اُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ـ إلى قوله ـ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْاُمُورِ﴾[3].

ثمّ حضّ الله عليه حضًّا شديدًا في آخر الأمر، فنزلت سورة بَرَاءَة و هي من آخر

---

١ ـ البقرة /٢٨١.
٢ ـ البقرة /١٠٩.
٣ ـ الحج /٣٩ ـ ٤١.

مانزل من القرآن، و فيها قوله سبحانه: ﴿وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [1] وقوله: ﴿اِنْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالاً وَ جَاهِدُوا بِاَمْوالِكُمْ وَ اَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [2]، و قوله: ﴿اِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُم وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْـئًا وَاللهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [3].

شبهة في هذا المقام

بقي أنْ نُدحض شبهة أُثيرت حول تعيين آخر ما نزل من القرآن؛ قالوا: لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن؟ و هي قوله سبحانه: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلاَمَ دِينًا﴾ [4] مع أنّها صريحةٌ في أنّها إعلام بإكمال الله لدينه، ذلك اليوم المشهود الّذي نزلت فيه، و هو يومٌ عرفة في حجّة الوداع بالسّنة العاشرة من الهجرة. و الظّاهر أنّ إكمالَ دينه لا يكون إلاّ بإكمال نزول القرآن و إتمام جميع الفرائض والأحكام.

والجواب: أنّ هناك قرآنًا نزل بعد هذه الآية حتّى بأكثر من شهرين، و لعلّك لم تنس أنّ آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق، و أنّ النّبيّ ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط. تلك قرينةٌ تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدّين في آية المائدة المذكورة. والأقرب أن يكون معنى إكمال الدّين فيها يومئذ هو إنجاحه و إقراره، و إظهاره على الدّين كلّه و لو كره الكافرون. و لا ريب أنّ الإسلام في حجّة الوداع كان قد ظهرت شوكته و عَلت كلمته، و أُديل له على الشّرك و حزبه، و الكفر وجنده، و النّفاق و حشراته، حتّى لقد أُجْلِيَ المشركون عن البلد الحرام، و لم يـخالطوا المسلمين في الحجّ و الإحرام.(١: ٨٥ ـ ٩٦)

---

١ ـ التّوبة /٣٦.
٢ ـ التّوبة /٤١.
٣ ـ التّوبة /٣٩.
٤ ـ المائدة /٣.

الفصل الخامس والثّلاثون

نصّ العلاّمة الطّباطبائيّ (م:١٤٠٢) في تفسيره: «الميزان»

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثّر)

والسّورة مكّيّة من العتائق النّازلة في أوائل البعثة و ظهور الدّعوة، حتّى قيل: إنّها أوّل سورة نزلت من القرآن، و إن كان يكذّبه نفس آيات السّورة الصّريحة في سبق قراءته ﷺ القرآن على القوم و تكذيبهم به، و إعراضهم عنهم، و رميهم له بأنّه سحر يؤثَر.

ولذا مال بعضهم إلى أنّ النّازل أوّلاً هي الآيات السّبع الواقعة في أوّل السّورة، ولازمه كون السّورة غير نازلة دفعةً، و هو إن كان غير بعيد بالنّظر إلى متن الآيات السّبع، لكن يدفعه سياق أوّل سورة العلق الظّاهر في كونه أوّل ما نزل من القرآن.

واحتمل بعضهم: أن تكون السّورة أوّل مانزل على النّبيّ ﷺ عند الأمر بإعلان الدّعوة بعد إخفائها مدّة في أوّل البعثة، فهي في معنى قوله: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1] و بذلك جمع بين ما ورد من أنّها أوّل ما نزل، و ما ورد أنّها نزلت بعد سورة العلق، و ما ورد أنّ سورتي المزّمّل و المدّثّر نزلتا معًا، و هذا القول لا يتعدّى طور الاحتمال.

---

١ ـ الحِجر /٩٤.

وكيف كان فالمتيقّن أنّ السّورة من أوائل مانزل على النّبيّ ﷺ من السّور القرآنيّة، والآيات السّبع الّتي نقلناها تتضمّن الأمر بالإنذار وساير الخصال الّتي تلزمه ممّا وصّاه الله به. (٢٠: ٧٩)

(سورة العلق)

أمر للنّبيّ بتلقّي القرآن بالوحي منه تعالى، و هي أوّل سورة نزلت من القرآن، و هي مكيّة قطعًا. (٢٠: ٣٢٢)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ البقرة /٢٨١

أقول: و الرّاويات في هذه المعاني كثيرة، و المتحصّل من روايات الخاصّة و العامّة: أنّ الآية نزلت في أموال من الرّبا كانت لبني المغيرة على ثقيف، و كانوا يربونهم في الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام طالبوهم ببقايا كانت لهم عليهم فأبوا التّأدية لوضع الإسلام ذلك، فرفع أمرهم إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

و هذا يؤيّد ما قدّمناه في البيان أنّ الرّبا كان محرّمًا في الإسلام قبل نزول هذه الآيات و مبيّنًا للنّاس، و إنّ هذه إنّما تؤكّد التّحريم و تقرّره، فلا يعبأ ببعض ما روي أنّ حرمة الرّبا، إنّما نزلت في آخر عهد رسول الله ﷺ، و أنّه قبض و لم يبيّن للنّاس أمر الرّبا، كما في الدّرّ المنثور عن ابن جَرير و ابن مَردُوَيْه عن عمر بن الخَطّاب، أنّه خطب فقال: من آخر القرآن نزولاً آية الرّبا، و إنّه قدمات رسول الله ﷺ ولم يبيّنه لنا، فدعوا ما يريبكُم إلى مالا يريبكم.

على أنّ من مذهب أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الله تعالى لم يقبض نبيّه حتّى شرع كلّ ما يحتاج إليه النّاس من أمر دينهم، و بيّن ذلك للنّاس نبيّه ﷺ.

وفي الدّرّ المنثور بطرق عديدة عن ابن عبّاس و السُّدّيّ و عَطيّة العَوْفيّ و أبي صالح وسعيد بن جُبَيْر: أنّ آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ...﴾.

(٢: ٤٢٦)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاٰلَةِ﴾

وفي الدّرّ المنثور: أخرج ابن شَيبَة و البُخاريّ و التّرمِذيّ و النّسائيّ و ابن ضُرَيْس وابن جَرير و ابن المُنذر و البَيْهقيّ في «الدّلائل» عن البَراء... [و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]

أقول: وروي فيه[1] عدّة روايات أنّ رسول الله ﷺ والصّحابة كانوا يسمّون الآية بآية الصّيف.

قال في المجمع: و ذلك أنّ الله تعالى أنزل في الكلالة آيتين؛ إحداهما في الشّتاء، وهي الّتي في هذه السّورة، و أُخرى في الصّيف، و هي هذه الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاٰلَةِ﴾.[2] (١٦٥:٥)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ التّوبة /١٢٧ ـ ١٢٨

و فيه[3] أخرج ابن الضُّرَيْس في «فضائل القرآن» و ابن الأنباريّ في «المصاحف» وابن مَرْدُوَيْه عن الحسن، أنّ أُبيّ بن كعب كان يقول: إنّ أحدث القرآن عهدًا بالله، ـ و في لفظ «بالسّماء ـ هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

أقول: و الرّواية مرويّة من طريق آخر عن أُبيّ بن كعب، و هي لا تخلو عن تعارض مع ما سيأتي من الرّواية و كذا مع ما تقدّم من الرّوايات في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾[4] أنّها آخر آية نزلت من القرآن.

على أنّ لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلاّ أن يكون إشارة إلى بعض الحوادث الواقعة في مرض النّبيّ ﷺ كحديث الدّواة و القِرطاس.

وفيه أخرج ابن إسحاق و أحمد بن حَنْبَل و ابن أبي داود عن عَبّاد بن عبدالله بن الزُّبَير، قال: أتى الحارث بن خُزَيْمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ ـ إلى قوله ـ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ إلى عمر، فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا

---

١ ـ أي الدّرّ المنثور.

٢ ـ النّساء /١٧٦.

٣ ـ أي الدّرّ المنثور.

٤ ـ البقرة /٢٨١.

أدري و الله، إلاّ أنّي أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، و وعيتها و حفظتها. فقال عمر: و أنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها، فألحقت في آخر (بَرَاءَةٌ).

أقول: و في رواية أُخرى أنّ عمر قال للحارث: لا أسألك عليها بيّنة أبدًا، كذلك كان رسول الله ﷺ و في هذا المعنى أحاديث أُخرى، و سنستو في الكلام في تأليف القـرآن وما يتعلّق به من الأبحاث في تفسير سورة الحِجْر إن شاء الله تعالى. **(٩: ٤١٤)**

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة النّصر)

في المجمع، عن مُقاتل: لمّا نزلت هذه السّورة قرأها ﷺ عـلى أصـحابه فـفرحـوُا واستبشروا، و سمعها العبّاس فبكى، فقال ﷺ: **ما يبكيك يا عمّ؟ قال: أظنّ أنّه قد نُعيَت إليك نفسك يا رسول الله، فقال: إنّه لكَما تقول فعاش بعدها سنتين، ما رُؤي بعدها ضاحكًا مستبشرًا.**

أقول: وروي هذا المعنى في عدّة روايات بألفاظ مختلفة، و قيل في وجه دلالتها: إنّ سياقها يلوح إلى فراغه ﷺ ممّا عليه من السّعي و المجاهدة و تمام أمره، و عند الكمال يرقب الزّوال.

وفيه عن أُمّ سَلَمَة قالت: كان رسول الله ﷺ بالآخرة لا يقوم و لا يقعد و لا يجيء ولا يذهب إلاّ قال: سبحان الله و بحمده استغفرالله و أتوب إليه، فسألنا عن ذلك فقال: إنّي أُمرت بها ثمّ قرأ: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْح...﴾**.

أقول: و في هذا المعنى غير واحد من الرّوايات مع اختلاف ما فيما كان يقوله ﷺ وفي العيون بإسناده إلى الحسين بن خالد، قال الرّضا ؑ: «سـمعت أبـي يـحدّث عـن أبيه ؑ أنّ أوّل سورة نزلت: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم. اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾**، و آخر سورة نزلت: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ﴾**. **أقول:** لعلّ المراد به أنّها آخر سورة نزلت تامّة كما قيل. **(٢٠: ٣٧٧)**

الفصل السّادس و الثّلاثون

نصّ الأُشَيْقِر (مُعاصرٌ) في «لمحات من تاريخ القرآن»

[بدء الوحي و أوّل ما نزل]

وكان أوّل ما نزل من القرآن هو دعوته سبحانه و تعالى لرسوله و للنّاس جميعًا للقراءة و التّعلّم، و تذكيرهم بخلقتهم الأُولى و أصل نشأتهم، فضلاً عن الإشارة إلى وحدانيّته و فضله على عموم النّاس بقوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾[1]. و قد كان نزول هذه الآيات في يوم الاثنين (١٧) رمضان للسّنة (٤٠) من ميلاد الرّسول ﷺ، المصادف ١ شباط أو ٦ آب من سنة (٦١٠) ميلاديّة، و في غار حِراء، في أعلى جبل النّور الّذي يقع على بعد (٥) كيلومترات من مكّة، و موقعه على يسار الذّاهب إلى منى و عرفات من مكّة، والّذي كان الرّسول ﷺ **يتعبّد فيه ويخلو به قبل أن يبعثه الله بالرّسالة ويصطفيه للنّبوّة.**

كانت ساعة الصِّفر في الثّورة الإسلاميّة قد دَقّت عند ما دوّىٰ جنبات غار حِراء صوت عال متّسم بالوضوح و الجلاء، و قاضيًا على سكون الغار و صمته، مخاطبًا الرّسول ﷺ (اِقرَأ) فيجيبه «ما أنا بقارىء». و هكذا يتكرّر الخطاب ثلاثًا، حتّى يعود الصّوت أخيرًا لينشد البيان الأوّل لقيام الثّورة، و هو: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾ فما كان من الرّسول ﷺ إلاّ يردّد في تُؤَدَة و هُدوء و سكون هذه الألفاظ الّتي سمعها لتوِّه مرّةً ومرّةً ومرّات بعد أن يكون الطّارق الجديد قد أنهى مهمّته الأُولى و انصرف خارجًا.

وماهي إلاّ لحظات حتّى يغادر الرّسول ﷺ الغار مسرعًا تلقاء داره؛ ليخفّف عن كاهِله و طأة هذا الحدث الجديد، و ليجد فيه من يفسّر له حقيقة ما رآه و سمعه آنفًا، حتّى

---

١ ـ العلق /١.

إذا كان في وسط الجبال و إذا به‌ﷺ يسمع من السّماء صوتًا مماثلاً للأوّل يقول له: «يامحمّد، أنت رسول الله إلى النّاس كافّة، و أنا الأمين جبريل» و ينقطع الصّوت، و يغيب الوحي ليخيّم على جنبات الجبل صَمْتٌ كصَمْت القبور.

فعرف الرّسول‌ﷺ أنّ الأمر جدّيّ، و أنّه أمسى رسولاً إلى النّاس جميعًا، و أنّ عليه الآن أن يشرع في إنجاز المهمّة الموكّل بها، و أنّ كلّ ما سمعه آنفًا لم يك من خيالات النّفس و لا أوهام اليقظة، و إنّما هي الحقيقه الواضحة و الواقع الجليّ وضوح الشّمس وجلاء النّور لذي عينين.

جاء النّبيّ‌ﷺ إلى داره من أقصر الطّرق، من دون أن يعرج على أحد أو يمرّ على آخر، و حال وصوله إلى الدّار نراه يلقي بنفسه إلى حِجر خديجة بنت خُويلد طالبًا منها أن تدثّره في الحال، فما عتمت هذه المجاهدة و هذه الزّوجة البارّة أن لمست من زوجها‌ﷺ ـ و على خلاف العادة ـ وضعًا جديدًا، و طورًا غريبًا لم يسبق لها أن وجدته فيه من قبل، فقادها تفكيرها إلى أنّ شيئًا أوحدثاً قد حصل لزوجها في هذا اليوم، و لكن ما هو هذا الشّيء و ما هذا الحدث؟ لا أحد يعرف حقيقته من النّاس عدا زوجها نفسه. لذا استجمعت قواها و صَمَّمت على معرفة واقع الحال، فسألته‌ﷺ بعد حين عن حقيقة الأمر، و هل ألمّ به حادث مهمّ، أو أصابه طارىء جديد في محابة يومه هذا؟

و لكنّه‌ﷺ طلب منها التّريّث قليلاً، و بعد ذلك قصّ عليها حقيقة الوحي و واقع الرّسالة، و كلّ ما شاهده و سمعه في مطلع هذااليوم. و بعد صَمْت مُطْبَق خيّم على أرجاء الغرفة فإذا بها تجيبه بكلام يطمئنّ قلبه و نفسه، و يبعث فيهما القوّة و العزيمة و المضاء قائلة: «كلاّ، و الله ما يخزيك الله أبدًا، إنّك لتصل الرّحم، و تحمل الكلّ، و تكسب المعدوم و تقري الضّيف، و تعين على نوائب الحقّ، فأبشر يا ابن العمّ و أثبت، فوالّذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمّة». فكانت (رحمهاالله) أوّل مسلمة في الإسلام كما وكان إمام الهُدى عليّ بن أبي طالب‌عليه السلام أوّل مسلم فيه.

لم يهدأ روع خديجة بعد كلّ الّذي سمعته من زوجها، و لم يقرّلها قرار، بل انطلقت مسرعة تلقاء دارها الأُولى، حيث يقيم فيه قريبها وَرَقَة بن نَوفَل ابن عبد العُزّى، فأخبرته

بالقصّة كاملة، و هي آملة أن تسمع منه شيئًا يسرّها و يضاعف يقينها، و يقوّي في عزيمة زوجها محمّدﷺ، و يشدّ في أزره و تصميمه على أداء الرّسالة الجديدة.

فما يكاد وَرَقَة يسمع آخر قولها حتّى انتفض واقفًا على قدميه، و كأنّه قد وجد شيئًا طالما كان ينتظره و يبحث عنه، أجل وقف وَرَقَة و قال لقريبته خديجة قولته المشهورة المأثورة، و هي[1] لئن كنت قد صدّقتيني يا خديجة فيما قلتيه لي ـ و ما أظنّك و أحسبك إلاّ صادقة ـ فقد جاء زوجك أمين الوحي الّذي أتى موسى من قبل، و أنّه لنبيّ هذه الأُمّة، فقولي له فليثبت، فإنّه ذائق من قومه ما ذاق إخوانه موسى و عيسى من قبله، فطوبى لمن يؤمن به و من يصدّقه.

عادت خديجة بعد كلّ الّذي سمعته إلى زوجها مسرعة؛ من أجل أن تروي له جواب قريبها وَرَقَة علّ هذا الجواب يخفّف من وَقْع الوحي على زوجها، و يضاعف عزيمته و إرادته فحكت له الجواب كاملاً، فما كان من الرّسولﷺ إلاّ أن حمد الله ربّه و شكره طويلاً على ما أصفاه للرّسالة، و آثره بتبليغها و نشرها بين النّاس، رغم ما ينتظر أن يلاقي في سبيلها من عقبات و مكاره و متاعب، كما ورد على لسان قريب زوجته وَرَقَة بن نَوفَل.

هذا و أنّ الوحي الّذي جاء إلى الرّسولﷺ انقطع عن النّزول عليه مدّة (٤٠) يوم أو ثلاث سنوات بقول آخر، و هي الفترة المسمّاة بـ«فترة انقطاع الوحي» و هي الفترة والمدّة الّتي كانت الدّعوة في خلالها تلتزم جانب السّرّيّة التّامة، و لم تصل أخبارها وأنباؤها إلى قريش بعد، لذا لم تلق هذه الدّعوة أيّة معارضة أو مقاومة تذكر من طواغيت قريش وطُغاتها.

ثمّ يعود الوحي بعد مضيّ هذه الفترة «و هي ثلاثة سنوات على أصحّ الأقوال» ليستأنف نزوله كرّة أُخرى، لينقل إلى الرّسول الأكرمﷺ قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّر * وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَ لاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾[2] و عند نزول هذا الآيات المعلنة عن علنيّة الدّعوة يذهب الرّسولﷺ إلى جبل الصّفا بمكّة، و يقف عليه و يهتف بأعلى صوته: «يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم، أكنتم تصدّقونى؟ فأجابت قريش ـ الّتي اجتمعت من كلّ

١ ـ القرآن ـ محمّد صبيح.
٢ ـ المدّثّر /١ـ٦.

جانب بعد سماعها لهذا النّداء أجابت: نعم أنت عندنا غير متّهم، وما جرّبنا عليك كذبًا قطّ، فقال النّبيّ ﷺ «إذن فاسمعوا، إنّي نذير لكم بين عذاب شديد، إنّ الله أمرني أن أُنـذركم وعشيرتي الأقربين، و إنّي لا أملك من الدّنيا منفعة، ولا من الآخرة إلاّ أن تقولوا: لا إله إلاّ الله».

فأجاب من بينهم أبو لهب غاضبًا: ألهذا جمعتنا؟ تبًّا لك هذا اليوم، تفرّقوا أ يّها النّاس، عن هذا الضّال، و لا تعيروا لقوله أُذنًا واعية.

فقال الرّسول ﷺ: «ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، لقد جئتكم بخير الدّنيا و الآخرة، و قد أمرني ربّي أن أدعوكم إليه، فأيّكم مؤازري على هذا الأمر، على أن يكون أخي و وصيّي و خليفتي فيكم؟» و سكت الجـميع ثـمّ ضـحكوا ساخرين، بينما نهض من بينهم الإمام عليّ عليه السلام و قال: «أنا يا نبيّ الله، أكون وزيرك عليه وحَرْب على من حاربتَ و سِلم لمن سالمتَ» فقال الرّسول ﷺ: بعد أن أخذ برَقَبة الإمام عليّ عليه السلام: «هذا أخي و خليفتي فيكم، فاسمعوا له و أطيعوا».

و بعد هذه الواقعة أخذت الآيات الكريمة تأخذ طريقها إلى صدر النّبيّ ﷺ دونما انقطاع أو تأخير؛ حيث مضى عهد سرّيّة الدّعوة و غـدت لذلك عـلنيّة، و أخـذ أفـراد المسلمين يزدادون و يتضاعفون شيئًا فشيئًا، في نفس الوقت الّذي أخذت مقاومة قريش و عدوانها هو الآخر يزداد و ينموا من أجل الحدّ من اندفاع حركة الدّين الجديد، و إيقاف زخم تقدّمها و بالتّالي القضاء عليها في مهدها. (ص: ٤٣ـ٤٩)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ المائدة /٣.

أمّا آخر ما نزل من القرآن الكريم فهو قوله تعالى: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْاِسْلاَمَ دِينًا﴾.

و قد نزلت هذه الآية في غدير خمّ بين مكّة و المدينة، بعد الخطبة الشّهيرة الّـتي ألقاها الرّسول ﷺ على جموع المسلمين، حين الفراغ من حجّة الوداع عام ١٠ هجريّة، وقبل أن يتفرّق هؤلاء المسلمون و ينطلقوا إلى أمصارهم و ديارهم، و هي الخطبة المسمّاة

بـ« خطبة الوداع» حيث أحاط الرّسول ﷺ المسليمن علمًا بأحكام دينهم وأُمور دنياهم، فخوّفهم من عذاب الله، و رغّبهم في رضوانه، و عبّد لهم السّبيل الموصل للوحدة و الحرّيّة و العدالة الاجتماعيّة، و حذّرهم من ارتياد سلوك الطّرق و السّبل المفضية إلى الخلاف و الشّقاق و النّزاع، فضلاً عن التّأكيد بلزوم التّمسّك بالثّقَلَين: كتاب الله و عترته الطّاهرة و قد حرص ﷺ بعد كلّ أمر أو نهي فيها أن يردّد جملته الخالدة «ألا هَل بلّغت، اللّهم اشهد»[1].

و قد كان و قت إلقاء هذه الخطبة على وجه الحصر هو في ١٨ ذي الحجّة من السّنة العاشرة للهجرة، و قد كان عمره الشّريف ﷺ حينئذٍ ٦٣ سنة، و قبل ارتحاله لجوار ربّـه بفترة قصيرة... [ثمّ ذكر أقوال أُخرى في آخر ما نزل، كما تقدّم سابقًا].

آخر سورة نزلت من القرآن

أمّا بشأن آخر سورة كاملة نزلت على الرّسول ﷺ، فقد قيل: هي سورة النّصر، و قال آخرون: هي سورة المائدة و قال غيرهم: بل هي سورة براءة، كما قد قال قوم: إنّها سورة الأنعام، و الّتي قيل بصددها: إنّه قد شيّعها سبعون ألف ملك حتّى نزلت على الرّسول ﷺ.

(ص:٤٨ ـ ٤٩)

١ ـ الغدير في الكتاب والسّنّة. العلاّمة الأمينيّ.

الفصل السّابع والثّلاثون

نصّ السّيّد مصطفى الخُمينيّ (م: ١٣٩٨) في «تفسير القرآن الكريم»

أوّل مانزل من القرآن

﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾

الأقوال في أوّل ما أنزل أربعة:

١ـ ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و هو المرويّ عن عائشة و عن مجاهد و عطاء و ابن يسار، وهو قول أكثر المفسّرين.

٢ـ سورة المدّثّر، و هو قول سَلَمَة بن عبد الرّحمان عن جابربن عبدالله، عن رسول‌الله ﷺ في حديث.[1]

٣ـ سورة الفاتحه بتمامها، و قول جماعة قليلين، و نسب ذلك في الكشّاف إلى الأكثر، و هو محلّ منع، و لكنّه يساعده الاعتبار؛ لأنّ الصّلاة كانت بالفاتحة عند الفرض وهو بمكّة، و لأنّها من الابتداء كانت مسمّاة بالفاتحة، و بها فُتِح الوحي، و هو المراد من السّبع المثاني على ما اشتهر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[2] و هو مكّي، فإذا كانت هي مكّيّة، فهي أوّل ما نزلت للإجماع المركّب، و لكنّه كما ترى.

٤ـ التّفصيل، أوّل الآيات من (اِقْرَأْ) و أوّل السّور (الفاتحة) بتمامها، و في المسألة بعض الأقوال الأُخر.

---

١ ـ الإتقان ١: ٧٤.

٢ ـ الحِجر/٨٧.

والّذي هو الأظهر حسب نصوصنا هو الأوّل، و لا ينافيه كون الفاتحة مكّيّة كما يأتي إنشاء الله تعالى.

و أمّا ما قيل استدلالاً على أوّليّة الفاتحة نزولاً بأنّها سورة إجماليّة من الكتاب العزيز، و نموذج من هذا البحر المحيط، فلها الإحاطة التّامّة على ما فيه من التّوحيد والقصص و الأحكام و غيرها، فهو ممّا لا يبالي به العاقل، و لا يركن إليه اللّبيب، بداهة أنّ التّاريخ لا يصطاد بالذّوق و الاستحسان، و يعارضه ما أُفيد من أنّ سؤاله صلى الله عليه وآله عمّا يقرأ بعد الأمر بالقراءة على ما في الكتب، شاهد على عدم أُنسه بالوحي، وعدم سبقه صلى الله عليه وآله بالبارقة الإلهيّة، و الله العالم.

نعم، شهادة فضلاء الإسلام كابن النَّديم، في كتابه «نورالعلوم» المعروف بالفهرست، ناقلاً حديثًا مسندًا عن محمّد بن نُعمان بن بَشير، و هو موجود في البُخاريّ و مُسلم و سائر ما قيل بالمعنى، تورث الظّنّ بل الاطمئنان بأوّليّة ﴿اِقْرَأْ ـ إلى قوله تعالى ـ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ و قال أبو عُبَيْدة في «فضائل القرآن»: حدّثنا عبدالرّحمان، إلى أن قال: إنّ أوّل ماأُنزل: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ انتهى و هو الوحيد في هذا الذّيل كما ترى...
[إلى أن قال:]

سورة الفاتحة

والّذي يظهر من تتبّع الآثار و مراجعة الأخبار أنّ الصّلاة كانت مفروضة في مكّة، بل كان الرّسول صلى الله عليه وآله يصلّي قبل البعثة كما في سيرته و قد وردت في أحاديثنا و أحاديث العامّة ما يدلّ على أن لاصلاة إلاّ بفاتحة الكتاب، و قضيّة إطلاق هذه الأخبار و تلك التّعابير أنّه صلى الله عليه وآله ما كان يصلّي بغيرها؛ لظهور الرّوايات في تقوّم طبيعة الصّلاة بها مطلقًا، فصلاته قبل كانت معها، فهي أوّل ما نزلت، و الله الموفّق، فليتأمّل.

بحثٌ و تحصيلٌ

لاشبهة في أنّ الصّلاة كانت مخترعة قبل الإسلام ﴿وَاَوْصَانِى بِالصَّلٰوةِ وَ الزَّكٰوةِ﴾[1] وأنّه ﷺ على ما قيل كان يصلّي في المسجد الحرام في ابتداء البعثة، بل و قبلها، فإن كان بعد البعثة و بعد تشريعها، فالجواب واضح، و إن كان قبلها أو قلنا بأنّها مدنيّة أو مكّيّة، ولكنّها نزلت بعد تشريع الصّلاة، فربّما يشكل، و لكنّ التّاريخ قاطع بأنّ نزولها لم يكن بعد تشريعها، نعم لا يمكن الإحاطة العلميّة بسيرة النّبيّ ﷺ.

والّذي يمكن أن يقال: إنّه كان يصلّي من غير الفاتحة؛ لأنّها ليست ركنًا، و أدلّتها لا تفيد بطلانها بدونها على الإطلاق، كما هو الظّاهر، أو يقال بنزولها عليه قبل البعثة أو بعدها، و قبل أن يأمر بإبلاغها إلى الأُمّة الإسلاميّة، فإنّه ﷺ ما كان قبل البعثة بدين اليهود و النّصارى، فربّما كان نبيًّا ثمّ صار رسولاً.

قال ابن عطيّة:[2] ظنّ بعض العلماء أنّ جبرئيل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد؛ لما رواه مُسلم عن ابن عبّاس، قال: بينما قاعد عند النّبيّ ﷺ سمع نقيضًا (هو الصّوت من فوقه)، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السّماء ففتح اليوم، لم يفتح قطّ إلاّ اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلاّ اليوم، فسلّم فقال: أبشر بنورين أو تيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك: **فاتحة الكتاب وخواتم سورةالبقرة، لم تقرأ بحرف منها إلاّ أعطيته» إنتهى.**[3]

والّذي يصطاد منه أنّ هذه المسألة، ليست حديثة، فلعلّ الملك كان ينزل عليه ﷺ قبل ذلك، و كان يأخذ عنه المعارف قبل البعثة، و كان عارفًا بأحكامه الفرديّة، فيقرأ القرآن قبل أن يقضى عليه وحيه توسّط جبرئيل بعنوان الرّسالة، و ربّما يشهد لذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[4] أو أنّ القرآن حسب قوله تعالى: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[5] قوله تعالى: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ و قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[6] ولو كان بمعنى بعض القرآن لما كان له اختصاص بالذّكر

---

١ ـ مريم /٣١.
٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ١:١١٦.
٣ ـ المستدرك على الصّحيحين ١: ٥٥٨، سنن النّسائيّ ٢:١٣٨.
٤ ـ طه /١١٤.
٥ ـ القدر /٢.
٦ ـ البقرة /١٨٥.

وشرف بوحي بصورة و حدانيّة، مرّةً و بصورة مفصّلة نجومًا و تدريجًا ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ أيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[١] و ربّما كان ذلك الإجمال حسب ما يظهر من سيرة النّبيّ ﷺ قبل البعثة، يوحى إليه قبلها، و كان عارفًا بحقائقها و بواطنها أو بألفاظها على نعت الإجمال والاندماج. (١: ١٧ـ٢٣)

١ ـ هود /١.

الفصل الثّامن والثّلاثون

نصّ الآصفي (معاصرٌ) في «دراسات في القرآن»

البعثة أو بدء نزول القرآن

البعثة واجبة لاشتماله على اللّطف الواجب على اللّه سبحانه، فإنّ الإنسان بمقتضى قواه الحيوانيّة الّتي أودعها اللّه فيه لمصالح شتّى، لو خلّي وطبعه يريد الإباحيّة والانهماك في الشّهوات، ولايدري أنّ من وراء نشأته هذه نشأة الحياة الدّنيا نشأة أُخرى يحاسب فيها، فيثاب أو يعاقب، كما لا يعرف بنفسه ما ينفعه أو يضرّ به في حياته الاجتماعيّة والفرديّة، ولا يميّز بين ضارّ الأشياء ونافعها إلّا بعد تجارب كثيرة في أدوار من عمره، وربّما لا يفي عمره بها، فلا بدّ له من شرع يفرضه له مشرّع من قبل اللّه عَزَّوجَلَّ حتّى لو أراد أن يتبعه ويهتدي به أمكنه ذلك، ولا يقول يوم القيامة: ﴿لَوْلَا اَرْسَلْتَ اِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ اٰيَاتِكَ﴾.[1]

نعم، الإنسان قد يدلّه عقله الفطريّ على واجبات ومنهيّات، ويستقلّ بمعرفتها ولو لم يكن شرع أصلاً، فتكون البعثة حين ذا لطفاً في تلكم الواجبات والمنهيّات العقليّة، فإنّ الإنسان لو كان واقفاً على تكاليفه بحسب الشّرع كان أقرب إلى الصّواب، فأوجبت تلك القاعدة قاعدة اللّطف البعث والإرسال، فأرسل اللّه رسله تترى يتبع بعضهم بعضاً حتّى بعث المسيح عيسى عليه السلام، ثمّ أرسل رسوله محمّدًا صلى الله عليه وآله على فترة، أي انقطاع من الرّسل، كما قال سبحانه: ﴿يَا اَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَائَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ اَنْ تَقُولُوا مَاجَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[2].

وكانت الفترة بين مجيء عيسى و محمّد صلى الله عليه وآله (٦٠٠) سنة على قول أو (٥٦٠)

---

١ ـ طه / ١٣٤.

٢ ـ المائدة / ١٩.

أو (٤٦٠) وبضع سنة، أو (٥٠٠) وشيء على قول آخر. فما أرسل اللّٰه في تلك المدّة على اختلاف الأقوال فيها رسولاً.

وأمّا إرسال الرّسل إلى أصحاب القرية (مدينة أنطاكية) في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[1]، فقد اختلفت فيه الأحاديث؛ ففي حديث العيّاشيّ بإسناده عن الثُّماليّ وغيره: عن أبي جعفر وأبي عبد اللّٰه عليهما السلام: «إنّهم كانوا رسل عيسى عليه السلام من الحواريّين، وإنّما أضاف اللّٰه إرسالهم إلى نفسه لأنّ عيسى أرسلهم بأمره». ويظهر ذلك ممّا جاء في الأصحاح (١٠ - ١١) من إنجيل لوقا في إرسال المسيح تلاميذه إلى القرى بأمر اللّٰه. وحاصل ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[2]، إنّ عيسى عليه السلام بعث رسولين من الحواريّين إلى مدينة أنطاكية، فاتّصل الرّسولان بحبيب النّجّار، وكان منزله في أقصى باب المدينة، فآمن بهما، وشفى اللّٰه على أيديهما كثيرًا من مرضى أهل المدينة، فآمنوا بهما. وكان لهم ملك يعبد الأصنام، فطلبهما حتّى وجدهما وحبسهما، فبعث عيسى عليه السلام شمعون الصّفا رأس الحواريّين على أثرهما. وفي رواية أُخرى: أنّ اللّٰه بعث الرّسولين إلى أهل أنطاكية، ثمّ بعث الثّالث.

وقيل: كان بين ميلاد عيسى ومحمّد صلى الله عليه وآله (٥٦٩) سنة، وكان بعد عيسى أربعة من الرّسل، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[3]، ولا أدري من الرّابع، فكان من تلك المدّة (٥٦٩) سنة بين ميلاد المسيح ومحمّد صلى الله عليه وآله (١٣٤) سنة نبوّة وسائرها فترة.

وكيفما كان فقد ختم اللّٰه النّبوّة بمحمّد صلى الله عليه وآله وبشّر به في التّوراة والإنجيل، كما قال سبحانه الرّسول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾[4]. ومن الواضح أنّ المراد التّوراة والإنجيل الأصل، لا هذا المحرّف المشحون بالأغلاط والاختلافات، وممّا حرّف في التّوراة اسم محمّد وصفاته.

ففي الدّرّ المنثور، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

---

١ ـ يس / ١٣.
٢ ـ يس / ١٤.
٣ ـ يس / ١٤.
٤ ـ الأعراف / ١٥٧.

يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾[١]. قال: هم أحبار اليهود، وجدوا صفة النّبيّ مكتوبة في التّوراة أكحل، أعين، رَبعة، جعد الشّعر، حسن الوجه. فلمّا وجدوه محوه حسدًا وبغياً، فأتاهم نفر من قريش، فقالوا: تجدون في التّوراة نبيًّا منّا؟ قالوا: نجد طويلاً، أزرق، سبط الشّعر، فأنكرت قريش، وقالوا: ليس هذا منّا.

وفيه بالإسناد عن عُثمان بن عَفّان، عن رسول اللّه في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[٢]، قال: «الويل جبل في النّار، وهو الّذي أُنزل فيه اليهود؛ لأنّهم حرّفوا التّوراة وزادوا فيها ما أحبّوا، ومَحَوا منها ما كانوا يكرهون، ومَحَوا اسم محمّد».

نعم، ذكر في الموجود من الإنجاريل على ما يقول الإمام البلاغيّ في «الرّحلة»: (پريقلوط) معرّب (پريقليطوس) بمعنى أحمد أو محمّد، أو (فارقليط) معرّب (پاراقليطوس).

وقال في مجمع البيان: وفي الإنجيل بشارة بـ(فارقليط) في مواضع، منها: «تعطيكم فارقليط آخر ما يكون معكم» ومنها:«سيأتيكم فارقليط آخر روح الحقّ الّذي لا يتكلّم من قبل نفسه».

والّذي وجدته في إنجيل يوحنّا في المحلّ الّذي عيّنه الإمام البلاغيّ هو هذا: «وأمّا متى جاء ذاك روح الحقّ، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ؛ لأنّه لا يتكلّم من نفسه، بل كلّ ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأُمور آتية» لا غير، وهو قدّس سرّه أبصر، واللّه أعلم.

وذكر في الموجود من التّوراة في الأصحاح الثّامن عشر من سفر التّثنية هكذا «أُقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه، فيتكلّم بكلّ ما أوصيه به».

وقال في المجمع: ومكتوب في التّوراة أيضًا:«وأمّا ابن الأمَة فقد باركت عليه جدًّا جدًّا، وسيلد اثني عشر عظيماً، وأُأخِّره لأُمّة عظيمة» وفيها أيضًا «أتانا اللّه من سَيْناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبل فاران».

وفاران جبل بالقرب من مكّة، يقال له: حِراء، وقد كان محمّدﷺ يصعده ويتعبّد فيه قبل بعثته.

---

١ ـ البقرة / ٧٩.
٢ ـ البقرة / ٧٩.

كانﷺ يتّجر بأموال خديجة بنت خُوَيلد من قبل أن يتزوّج بها، وكانت خديجة امرأة لبيبة حازمة ذات مال كثير، يتّجر في مالها رجال قريش تضاربهم بشيء من الرّبح. فلمّا بلغها عن محمّدﷺ صِدقه وأمانته وشيمته الكريمة، بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشّام، وتعطيه أكثر ممّا كانت تعطي غيره، فأجابها إلى ذلك وخرج مع غلام يقال له: مَيْسِرة، حتّى قدم الشّام، فباع واشترى، ورجع بتجارة رابحة. وكان من أمره مع راهب في القرب من الشّام، قد شاهد منه آية النّبوّة ما حكاه أهل السّير، وقالوا: كان مَيْسِرة إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلّانه من الشّمس وهو على بعيره، فأخبر سيّدته خديجة بما رأى، فرغبت فيه وعرضت نفسها عليه، وقد كانت موضع رغبة رجال من قريش لكثرة مالها، فحدّث محمّد ﷺ أعمامه بما أشارت إليه خديجة، فخرج عمّه حمزة وأبوطالب ابنا عبد المطّلب حتّى دخلا على خُوَيْلد، فخطبها أبو طالب من خُوَيلد لمحمّدﷺ، فزوّجها أبوها منه وأنكحه إيّاها، فباشرها ﷺ وعاشرها بالمعروف. ثمّ حبّب اللّٰه إليه الخلوة الّتي بها فراغ القلب، فكان ﷺ يختلي في غار في أعلا جبل على ثلاثة أميال من شمال مكّة يقال له: حِراء، ويتعبّد فيها ليالي ذات عدد، كما في الحديث قال شارح الحديث: يعني مع أيّامها، فتارةً كان ثلاث ليال وتارةً سبع ليال وتارةً شهر رمضان وغيره. وكان يتزوّد الكعك والزّيت، فإذا نفد زاده عاد إلى أهله يتزّود مثل ذلك وكان يطعم مَن جاءه كدأب المتألّهين من قريش.

قال ابن أثير: أوّل من تحنّف بحِراء عبد المطّلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد الحِراء، ثمّ وَرَقَة بن نَوفَل، وأبي أمَتَة بن مُغيرة. وكان من نُسكهم في ذلك المحلّ أن يطعم الرّجل من جاءه من المساكين. وكان محمّدﷺ إذا قضى جواره بحِراء نزل منه يطوف البيت سبعاً، ثمّ يدخل داره، حتّى إذا كان الوقت الّذي أراد اللّٰه أن يبعثه كافّةً للنّاس كشف عن بصره، وأنزل عليه الملائكة وهو في حِراء، فأتاه جبرائيلؑ وبشّره بالرّسالة من اللّٰه، وأجلسه على كرسيّ من ياقوتة حَمراء، وأعطى لواء الحمد بيده، وقال: يا محمّد اقرأ. أو أخرج قطعة ديباج فيها خطوط، فقال: أتقرأ، قال: كيف أقرأ ولست بقارىء. أو قال ما أقرأ، إلى ثلاث مرّات. فقال جبريل في الرّابعة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

ـ إلى قوله ـ ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[١] فلمّا صعد جبرائيل والملائكة إلى السّماء توجّه نزيل حِراء إلى أُمّ القرى، فما مرّ على حجر ولا مدر إلّا وسلّم عليه بالرّسالة، وأشرقت دار خديجة بنور وجهه. فقالت: ما هذا النّور الّذي يسطع من وجهك؟ قال: هذا نور النّبوّة. قولي: لا إله إلّا اللّه، محمّد رسول اللّه، فقالت: طالما قد عرفت ذلك منك، ثمّ أسلمت، وكان ﷺ قد بلغ من عمره أربعين سنة على المشهور بين الجمهور من أهل السّير، ولهم فيه أقوال أُخرى ومجموعها سبعة.

تاريخ البعثة واختلاف أهل السّير فيه

بعث النّبيّ محمّد ﷺ في يوم الاثنين بلا خلاف فيه، كما ولد في يوم الاثنين، وإن اشتهر أنّ ولادته كانت ليلة الجمعة قريباً من طلوع الفجر، ولكنّ الأحاديث الدّالّة على أنّ بعثته كانت في يوم الاثنين لا تخلو عن ذكر الولادة، بل قدّم ذكر الولادة فيها على البعثة.

فعن ابن عبّاس أنّه قال: ولد النّبيّ ﷺ يوم الاثنين، واستنبىء يوم الاثنين.

وعن أبي قَتادة الأنصاريّ: سئل رسول اللّه عن صوم يوم الاثنين، فقال: «ذلك يوم وُلِدْت فيه، ويوم بُعِثْت فيه، وأُنزل عليّ فيه».

وعنه عن عمر أنّه قال: يانبيّ اللّه أصوم يوم اثنين؟ فقال: «ذلك يوم بعثت فيه، ويوم أُنزل عليّ فيه»[٢].

وإنّما الخلاف في يوم بعثته وولادته من الشّهر، وشهر بعثته من الشّهور. فالمشهور عند الإماميّة أنّ ولادته كانت في السّابع عشر من ربيع الأوّل، وعند العامّة أنّها كانت في الثّاني عشر منه، واختاره ثقة الإسلام الشّيخ الكُلينيّ أيضًا.

وأمّا البعثة فالمشهور بل المتّفق عليه عند الإماميّة أنّها كانت في السّابع والعشرين من شهر رجب المطابق لنيروز سنة (٦٢٠٣) من هبوط آدم عليه السلام. وظاهرهم الاتّفاق على أنّها كانت في النّهار، وأمّا العامّة فلهم في يوم بعثته وشهرها اختلاف، ويظهر من أقوالهم الاختلاف أيضًا في أنّها كانت في اللّيل أو في النّهار.

---

١ ـ العلق / ١ - ٥.

٢ ـ تاريخ الطّبَريّ ٢: ٢٠٢.

ففي سيرة السّيد أحمد زيني دَحْلان بهامش الحلبيّة وقيل:«السّابع والعشرين من رجب» [١].

وفي السّيرة الحلبيّة قيل: كان ذلك ليلة، أو يوم السّابع والعشرين من رجب أورده الحافظ الدِّمْياطيّ في «سيرته» عن أبي هُرَيرة عنه ﷺ، قال: «من صام يوم السّابع والعشرين من رجب كتب اللّٰه له صيام ستّين شهرًا» [٢].

فهذا القول متّفق عليه بين الفريقين في الجملة، قالت به الإماميّة جَمْعاء وبعض العامّة، فهو أقوى الأقوال.

وفيها أيضًا: وقيل ليلة ثمانية من ربيع الأوّل، وقيل: ليلة ثالثة منه، وقيل: رابعة عشر من رمضان.

وفيها: ليلة سبع عشر من رمضان و في كلام بعض: أتاه - يعني جبرائيل عليه السلام - ليلة سبت وليلة الأحد، ثمّ ظهر له بالرّسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان. وهذا القول قال به جماعة، منهم الإمام الصَّرصَريّ؛ حيث قال:

وَأَتَتْ عَلَيْه أربَعُون فَأشْـرَقَتْ ... شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْه في رَمَضَانِ [٣]

وفي زاد المعاد لأبي عبد اللّٰه بن قَيِّم الجَوزِيّة: ولا خلاف في أنّ مبعثه كان يوم الاثنين، واختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضين من ربيع الأوّل سنة (٤١) من عام الفيل، وهذا قول الأكثرين، وقيل: بل كان ذلك في رمضان، واحتجّ هؤلاء بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِی أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾ [٤]، **وإلى هذا ذهب جماعة، منهم الإمام يحيى الصَّرصَريّ** [٥].

وفي سيرة زيني دَحْلان أيضًا، وسبع عشر من رمضان، وقيل: ثامن من ربيع الأوّل [٦].

وفي مروج الذّهب: لعشر خلون من ربيع الأوّل [٧]. وفي الكامل: قال أبو قِلابة الجَرْميّ: أنزل القرآن على النّبيّ ﷺ لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال آخر: كان ذلك لتسع خلت من رمضان [٨].

---

١ ـ سيرة زينيّ دَحْلان ١: ١٥٧.
٢ ـ السّيرة الحلبيّة ١: ١٢٨).
٣ ـ السّيرة الحلبيّة ١: ١٢٨.
٤ ـ البقرة / ١٨٥.
٥ ـ زاد المعاد ١: ٢٤ – ٤٣.
٦ ـ سيرة زينيّ دَحْلان ١: ١٥٨.
٧ ـ مروج الذّهب ١: ٣١٢.
٨ ـ الكامل لابن أثير: ١٦٢٤.

وفي تاريخ الطَّبَريّ: عن أبي قِلابة: أُنزل القرآن على رسول اللّٰه لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال آخرون: بل نزل لسبع عشرة خلت من رمضان، وقال آخرون: بل أُنزل لأربع وعشرين خلت من رمضان [١].

وفي المواهب للقَسْطَلانيّ: وقيل: في أوّل ربيع الأوّل، وقال ابن عبد البرّ: يوم الاثنين لثمان من ربيع الأوّل، وقيل: لأربع وعشرين ليلة من رمضان، وقيل: لسبع من شهر رمضان [٢].

وفي شرح الزُّرقانيّ على المواهب: ثمّ كون البعث فيه (يعني رمضان) هو قول الأكثر والمشهور عند الجمهور، قاله الحافظان ابنا كثير و حَجَر [٣].

وفي سيرة ابن هِشام: قال ابن إسحاق: فابتدأ رسول اللّٰه ﷺ بالتّنزيل في شهر رمضان؛ يقول اللّٰه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ [٤]، ويقول: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [٥]، ويقول سبحانه: ﴿حٰمٓ * وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [٦]، ويقول: ﴿وَمَا اَنْزَلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [٧]، ويوم الفرقان كانت صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان [٨].

هذه مجموعة أقوالهم في تاريخ البعثة أو بدء نزول القرآن على رسول اللّٰه ﷺ، وقد عرفت أنّ أقوى هذه الأقوال هو القول الأوّل؛ لأنّه قالت به الإماميّة جَمْعاء وجماعة من العامّة. كما تقدّم عن سيرة زيني دَحْلان وسيرة الحلبيّ، نقلاً عن الحافظ الدِّمياطيّ في سيرته عن أبي هُرَيرة، عن رسول اللّٰه ﷺ: «أنّه قال من صام يوم السّابع والعشرين من رجب ...».

واحتمال ابتداء نزول القرآن على رسول اللّٰه ﷺ في ليلة القدر، وهو القول الثّاني من الأقوال الأربعة المتقدّمة في كيفيّة نزول القرآن في ليلة القدر، وإنّما يأتي على القول بكون البعثة في شهر رمضان على الإجمال، وقد كانت أقوالهم في ذلك ستّة وليست منها

---

١ ـ تاريخ الطَّبَريّ: ٢: ٢٠٢.
٢ ـ المواهب للقَسْطَلانيّ ١: ٢٠٧.
٣ ـ شرح الزُّرقانيّ ١: ٢٠١.
٤ ـ البقرة / ١٨٥.
٥ ـ القدر / ١.
٦ ـ الدّخان / ١ ـ ٣.
٧ ـ الأنفال: ٤١.
٨ ـ سيرة ابن هِشام ١:١٥٤.

ليلة القدر؛ لأنّا قد أبطلنا في أوائل الكتاب جميع ما قيل في تعيين ليلة القدر، وأثبتنا هناك بالأحاديث الصّحيحة التّرديد بين ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وليستا من السّتّة، مع أنّ الأقوال السّتّة اختلفت في أنّ البعثة كانت في اللّيل من شهر رمضان أو في نهاره. وقد تقدّم عن السّيرة الحَلبيّة أنّ جبرائيل عليه السلام ظهر له بالرّسالة يوم الاثنين لسبع عشر خلت من رمضان.

وعن سيرة ابن هِشام نقلاً عن ابن إسحاق: أنّ البعثة كانت صبيحة يوم الجمعة لسبع عشر من رمضان، والآيات الّتي تمسّك بها ابن إسحاق تنافي قوله.

أمّا آية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2] فلصراحتهما في أنّ النّزول كان في اللّيل. وأمّا آية: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[3] فلأنّ يوم الفرقان كان في سنة اثنين من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهرًا، وهو يوم بدر المشهور الّذي التقى فيه الجمعان؛ جمع من المسلمين، وهم ثلاثمائة وبضعة وعشرين رجلاً، وجمع من المشركين، وهم بين تسعمائة إلى ألف من صناديد قريش، وكان ما أنزله اللّه فيه على رسوله قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾[4] الآية.

هذا مع أنّ يوم الفرقان كان يوم الجمعة، والبعثة أوّل بدء نزول القرآن على رسول اللّه صلى الله عليه وآله كانت يوم الإثنين بلاخلاف فيه أضف إلى هذا وما قبله أنّ يوم الفرقان كانت صبيحة يوم الجمعة للتّاسع عشر من رمضان كما قيل، وروي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أيضًا. وأمّا الآية الأُولى الّتي تمسّك بها ابن إسحاق لإثبات كون البعثة وابتداء التّنزيل على رسول اللّه صلى الله عليه وآله في شهر رمضان على الإجمال، وهي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، فيمكن أن لا تكون لها صلة بمحلّ الكلام؛ لما قيل في تفسيرها من أنّ المراد أُنزل في إيجاب صومه القرآن، ويقرّبه البيان الآتي في فرضه على الصّحيح الحاضر دون المريض والمسافر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى

---

١ ـ القدر / ١.
٢ ـ الدّخان / ١.
٣ ـ الأنفال / ٤١.
٤ ـ الأنفال / ٩.

سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ اَيَّامٍ اُخَرَ﴾ [١].

ولكن يبعده قوله تعالى بعده مباشرة: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾ [٢] لأنّ الجملتين حاليّتان، فهما صفتان للقرآن المنزّل، والمراد كلّ القرآن كما تقدّم، ولا يبعد دلالة هذا التّوصيف عليه أيضًا، فالمعنى إذن أُنزل القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان جملةً واحدةً إلى بيت العزّة من سماء الدّنيا، على حدّ معنى قوله تعالى: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، فالآيتان قرينتان على المراد من شهر رمضان ونزول القرآن فيه، واللّٰه العالم.

فتحصّل من مجموع ما بيّنّاه أنّ احتمال ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر على رسول اللّٰه ﷺ باطل، وأنّ المتعيّن هو القول الأوّل من الأقوال الأربعة المتقدّمة في كيفيّة نزول القرآن في ليلة القدر، وهو القول المشهور، والأحاديث فيه متضافرة.

فالحقّ أنّ القرآن الكريم نزل مرّتين، مرّةً نزل من اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً إلى بيت العزّة وبيت المعمور من سماء الدّنيا في ليلة القدر، ومرّةً أُخرى نزل منها نجوماً على رسول اللّٰه ﷺ، من يوم السّابع والعشرين من رجب إلى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة، في السّفر والحضر في الوقائع والأحكام، ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، وقد صرّح به أعلام المفسّرين كالإمام البلاغيّ [٣]، والشّيخ الطَّبرسيّ [٤]، والشّيخ الطُّوسيّ [٥]، وابن كثير القُرَشيّ [٦]، والطَّبَريّ [٧]، والسّيوطيّ [٨]، والرّازيّ [٩]... **[ثمّ ذكر قول الشّيخ الصّدوق كما تقدّم عنه، فقال:]**

والأحاديث في ذلك كثيرة، منها ما رواه الكُلينيّ بسنده عن حَفص بن غِياث، عن أبي عبداللّٰه عليه السلام قال: ... **[وذكر كما تقدّم عنه]**. **(١٥١ ـ ١٦١)**

---

١ ـ البقرة / ١٨٤.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ آلاء الرّحمن ١: ١٦٠.

٤ ـ مجمع البيان ١: ٥١٨ و ٥: ٦١.

٥ ـ التّبيان ١: ٢٠٣ و ٢: ٥٧٣.

٦ ـ تفسير ابن كثير ١: ٢١٦.

٧ ـ تفسير الطَّبَريّ ٢: ٢١٦.

٨ ـ الدّرّ المنثور ١: ١٨٩.

٩ ـ التّفسير الكبير ٢: ١٨١.

أوّل ما نزل من القرآن و آخر ما نزل منه

قد يقال: الأوّل و يراد به معناه الإضافيّ، و البحث عن أوّل مانزل من القرآن بـهذا المعنى بحث عن ترتيب سور القرآن و آياته كما نزل، الأوّل فالأوّل إلى آخر مانزل في الوقايع و الأحكام و غيرها. و هذا بحث طويل و جدير بأن يفرد بالتّأليف، و قلّ من بلغ إلى تلك الغاية؛ لأنّها بعيدة المدٰى، فهذا البحث غير ميسور لنا، و إنّما الميسور أن نتحدّث عن أوّل ما نزل من القرآن بمعناه الحقيقيّ، أي على الإطلاق، و آخر مانزل منه كذلك، ثمّ انقطع بعده الوحي، و قبض النّبيّ ﷺ بعد ذلك.

نعم، قد نتحدّث عن أوائل و أواخر إضافيّة مخصوصة ببعض الأحكام، ثمّ نتحدّث عن أوّل من آمن برسول الله ﷺ و صلّى معه.

أوّل مانزل من القرآن

اختلفوا في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال أربعة، و هذا يكشف عن عناية الأُمّة الإسلاميّة في الصّدر الأوّل بالقرآن الكريم بالحفظ و الرّعاية، حتّى عرفوا أوّل ما نـزل وآخر ما نزل منه، كما عرفوا مكّيّة. و مـدنيّة، و سـفريّة. و حـضريّة، و غـير ذلك مـن خصوصيّاته، وهي من أدلّتنا على صيانة القرآن من التّحريف، و يأتي تفصيله في محلّه.

القول الأوّل ـ و هو أصحّها: أنّه صدر سورة **﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله تعالى ـ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾** و دليله أحاديث معتبرة رواها الطَّبَريّ و العلاّمة السُّيوطيّ و الواحِديّ و غيرهم من العامّة، و المحقّق رشيد الدّين ابن شهراشوب و عليّ بن إبـراهـيم القُـمّيّ وغيرهم من الخاصّة.

و هناك أحاديث أُخرى ضعيفة سندًا و متنًا ،و قد استدلّ بها بعض أصحاب هذا القول أيضًا... **[ثمّ ذكر رواية عبدالله بن شَدّاد و غيره، ورواية عائشة كما تقدّم عن الطَّبَريّ و أبي الفُتوح]**. و أخرجه مُسلم عن يُونس، عن ابن شِهاب، عن عُروَة بن زُبَيْر، عـن عـائشة وأخرجه أيضًا عن الزُّهْريّ، عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر، عن عائشة، باختلاف يسير.

و أخرجه الحافظ ابن كثير أيضًا باختلاف يسير وقال بـعد نـقله الحـديث، و قـد

تكلّمناه على هذا الحديث من جهة سنده و متنه و معناه في أوّل شرحنا للبُخاريّ مستقصى، فمن أراده فهو هنالك محلّه[١].

مناقشة الحديث من جهة السّند و المتن

و لنا في الحديث نظر من حيث السّند و المتن. أمّا من حيث السّند: فإنّ كلام عائشة ظاهر في الدّراية، و لم تكن عائشة ممّن أدرك بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وآله، فهو إذن رواية مقطوعة. وأمّا من جهة المتن: فإنّ الله تعالى إذا أراد أن يبعث رسولاً فإنّما يبعثه بالوحي الجليّ أوالقول الصّريح، كما بعث موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَانَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحىٰ﴾[٢]، و قال ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى * اِذْهَبْ اَنْتَ وَ اَخُوكَ بِاٰيَاتِى﴾[٣] فلا يكاد يشتبه عليه الأمر، حتّى ظنّ أنّه قد عرض له شيء، فيقول: «أي خديجة مالي! لقد خشيت على نفسي»؟ أو يقول: فانطلقت به خديجة إلى وَرَقَة بن نَوْفَل فبشّره بالرّسالة.

أكان وَرَقَة أعرف بأمر الرّسالة ممّن اختاره الله، و أيّده بروح القُدُس، و قرنه بنبوّته ثلاثة سنين من قبل أن يبعثه كما في الحديث.

و حديث خديجة مع وَرَقَة بن نَوْفَل، و إخباره بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله غير منكر، و أشعاره في ذلك معروفة، و قد ثبت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لأصحابه: «لا تسبُّوا رئيس القِسّ، إنّه آمن بي و صدّقني». و لكن له محمل صحيح، و هو أنّ خديجة لمّا شاهدت من زوجها محمّد صلّى الله عليه وآله بعض علائم النّبوّة أتت عمّها أو ابن عمّها وَرَقَة، و حدّثته بما شاهدت منه صلّى الله عليه وآله، فبشّرها وَرَقَة بأنّه نبيّ وسوف يأمر بالجهاد، و أنشأ يقول... **[و ذكر كما تقدّم عن القميّ وابن‌كثير الرّقم ٢ و ٢١]**.

القول الثّاني: أنّ أوّل مانزل: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّر﴾ قال الواحديّ: فأمّا الحديث الصّحيح الّذي روي أنّ أوّل مانزل سورة المدّثّر فهو ما أخبرناه الأُستاذ أبو إسحاق الثّعالِبيّ؛ قال: سألت أبا سَلَمَة... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٤:٥٢٧.

٢ ـ طه /١٣.

٣ ـ طه /٤١،٤٢.

أقول: لا خلاف ظاهرًا في أنّه ابتدأ نزول القرآن على رسول الله ﷺ، و هو على حِراء. وهذا الحديث يدلّ على أنّ أوّل ما نزل عليه، و هو المدّثّر نزل عليه في داره بعد أن نزل من حِراء و استبطن الواديّ، و نودي و أخذته الرّجفة وأتى خديجة، وأمرهم فدثّروه.

و لكن ورد عن جابر حديث آخر بسند صحيح يدلّ على أنّ نزول سورة المدّثّر كان بعد فترة الوحي عن رسول الله ﷺ، فيدلّ بالملازمة القطعيّة على أنّه نزل عليه قبل ذلك شيء من القرآن ثمّ وقعت الفترة، ثم نزلت عليه المدّثّر.

الواحِديّ عن جابر، قال: سمعت النّبيّ ﷺ و هو يحدّث عن فترة الوحي... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**

و قد ثبت بالأحاديث الصّحيحة أنّ الملك الّذي جاءه بحِراء أنزل عليه صدرًا من سورة: ﴿اِقْرَاْ ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ فبان بهذا الحديث أنّ المدّثّر كانت أوّل سورة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ بعد الفتره الواقعة بعد نزول صدر سورة اِقْرَأْ عليه يوم حِراء.

والّذي ينبغي أن يقال هو: إنّ جابرًا حدّث حديثه الأوّل قبل أن يسمع عن رسول الله حديث الفترة، و إليك حديث الفترة بتمامه:

حدّثنا الطَّبَريّ عن الزُّهْريّ، قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة... **[و ذكر كما تقدّم عنه]**.

القول الثّالث: قال العلاّمة الزَّمَخْشريّ في «الكشّاف»: و أكثر المفسّرين إلى أنّ أوّل سورة نزلت فاتحة الكتاب، و دليله حديث أبي مَيْسِرة.

روى البَيْهقيّ في «الدّلائل» بسنده عن أبي مَيْسِرة عمرو بن شُرَحْبيل... **[و ذكر كما تقدّم عن أبي الفُتوح و القُرطُبيّ، ثمّ قال:]**

و لكنّ هذا الحديث لا يصلح للاستدلال به على ما نسبه صاحب «الكشّاف» إلى أكثر المفسّرين، و ذلك لما أوردناه فيما تقدّم على متن حديث عُرْوَة بن زُبَيْر عن عائشة، مع أن ابن حَجَر ناقش في نسبة هذا القول إلى الأكثر بقوله: و أمّا الّذي نسبه إلى الأكثر، فلم يقل به إلاّ عدد أقلّ من قليل بالنّسبة إلى من قال بالأوّل، يعني كون أوّل ما نزل صدر سورة (اِقْرَأْ).

و قال الواحِديّ: فعند الأكثر هي مكيّة من أوائل ما نزل من القرآن ... **[ثمّ ذكر رواية**

أبي إسحاق عن عليّ عليه السلام ورواية عبد الرّحمان عن أبي هُرَيْره، وقول الحسين بن الفضل، كماتقدّم عن الواحِديّ، وقال:]

و قيل: نزلت مرّتين، و قد فسّر بذلك المثاني أيضًا، فهى مكّيّة مدنيّه و من أوائل مانزل من القرآن، و الأوّل على إطلاق ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

القول الرّابع: إنّ أوّل مانزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ... [ثمّ ذكر رواية الواحِديّ بسنده عن عِكْرِمة، كما تقدّم عنه، فقال:].

و هذا رأي حسن، غير أنّه لا ينبغي أن يعدّ قولاً مستقلاً برأسه؛ لأنّ البَسْملة أوّل آية من كلّ سورة على الصّحيح، فكانت تنزل صدرًا لكلّ سورة إلاّ ما استثني، بل ورد أنّ ابن مسعود قال: كنّا لا نعلم فصل ما بين السّورتين حتّى نزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ...﴾ و أنّ ابن عبّاس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يعرف ختم السّورة حتّى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ...﴾.[1]

فالابتداء به لازم الابتداء بالسّورة، فلا يعدّ اعتبار الأوّليّة في نزوله قولاً مستقلاً برأسه، بل يرجع إلى القول بأوّليّة نزول سورة ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

وقد يستفاد ذلك من ظاهر كلام الحسن و عِكرِمة أيضًا؛ لأنّهما قالا: أوّل ما نزل من القرآن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ...﴾ و أوّل سورة ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

و لكن يلوح منه أوّليّة نزول السّورة بتمامها، وهو خلاف مادلّت عليه الأحاديث الواردة في أوّليّة نزولها.

والّذي يتحصّل لنا من مجموع أحاديث الباب ـ ما تقدّم منها و ما يأتي ـ هو أنّه نزل عليه صدر سورة: ﴿اِقْرَاْ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ و هو على حِراء، ثمّ نزلت عليه هناك سورة الحمد بتمامها؛ لأنّه صلى الله عليه وآله صلّى في اليوم الّذي بعث فيه.

فعن ابن عبّاس و أنس وزيد بن أرقم و مُجاهد و قَتادة و ابن إسحاق: بُعِثَ النّبيّ صلى الله عليه وآله و صلّى يوم الإثنين.

ثمّ وقعت الفترة، ولهم في مدّتها اختلاف عظيم، فلم ينزل عليه في تلك المدّة شيء

---

[1] ـ أسباب النّزول: ١٠ـ١١.

من القرآن، ثمّ نزلت عليه المدّثّر، كما في حديث جابر عنهﷺ، و هو يحدّث عن فترة الوحي، ثمّ نزلت عليه تمام سورة (اِقْرَأ) في أبي جهل، ثمّ تتابع الوحي.

و سبب نزول تمام سورة (اِقرَأ)، من قوله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ إلى آخر السّورة في أبـي جهل، هو ما رواه البُخاريّ و ابن جَرير الطَّبَريّ و الواحِديّ و غيرهم.

آخر ما نزل من القرآن

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على أقوال شتّى؛

القول[١] **الأوّل** ـ أنّ آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾.[٢]

القول الثّاني ـ أنّ آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوااللهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰوا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[٣]

القول الثّالث ـ أنّ آخر ما نزل آية الدَّين، و هي قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا اِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ـ إلى قوله ـ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤] و هي أطول آية في كتاب الله. [**ثمّ ذكر قول الزُّرقانيّ: في جمع هذه الأقوال الثّلاثة، كما تقدّم عنه، فقال:**]

أقول: بل ذلك غير صحيح؛ لأنّ سورة البقرة لم تنزل دفعةً واحدةً، بل نزلت دفعات، كما أنّها ليست قصّةٌ واحدةً، بل فيها قصص و أحكام كثيرة، فقد جـزم الشّـيخ الأجـلّ الطَّبرِسيّ بأنّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ نزل في حجّة الوداع بمنى.

ورُوي عن السُّدّيّ و ابن عبّاس أنّه لمّا أُنزلت هذه الآية قال جبرائيل: ضعها فـي رأس الثّمانين و المأتين من البقرة، وهذا يدلّ على أنّها لم تنزل دفعة.

و على تقدير القول بأنّها نزلت دفعةً، ليست آخر سورة أُنزلت؛ ليخبر كلّ عن بعض ما نزل منه بأنّه آخر ما نزل، سلّمنا أنّها آخر سورة نزلت، إلاّ أنّه كان يلزم حينئذ أن يكون آخر ما نزل من القرآن آخر آية من هذه السّوره قولاً واحدًا. من دون خـلاف فـي ذلك أصلاً، لفرض أنّها نزلت كترتيبها في المُصحف، على ما حكاه عن السّيوطيّ جازمًا بـه،

---

١ ـ لفظة «القول ليس في هذا التّرتيب و لكن أصفناه لتنسيق النّظم كما في ترتيب السّابق(م).

٢ ـ البقرة /٢٨١.

٣ ـ البقرة /٢٧٨.

٤ ـ البقره /٢٨٢.

فمن أين نشأت هذه الأقوال؟ و كيف أخبر كلّ عن بعض ما نزل بأنّه آخر؟

القول الرّابع ـ أنّ آخر ما نزل هو سورة: (إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ) رواه مُسلم عن ابن عبّاس، وحمل الخبر على أنّ هذه السّوره آخر ما نزل مشعرًا بوفاة النّبيّ ﷺ.

و يؤيّده ما ورد عن ابن عبّاس و السُّدّيّ: أنّه لما نزل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾[1] قال رسول‌الله ﷺ: «ليتني أعلم متى يكون ذلك»، فأنزل الله عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحِ...﴾.

فكان رسول‌الله ﷺ يسكت بين التّكبيرات و القراءة بعد نزول السّورة، ويقول: «سبحان الله و بحمده أستغفره و أتوب إليه»، فقيل له: إنّك لم تكن تقوله قبل، فقال: «أما أنّ نفسي نعيت إليّ».

وقال مُقاتل: لمّا نزلت هذه السّورة قرأها... **[و ذكر كما تقدّم عن العلاّمة الطّباطبائيّ]**.

وروى الشّيخ الطّبرِسيّ عن ابن عبّاس أنّه قال: لمّا نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ﴾ قال النّبيّ ﷺ «نُعِيَتْ إليَّ نفسي، إنّها مقبوضة في هذه السّنة».

و قال الواحِديّ: نزلت في منصرف النّبيّ ﷺ عن غزوة حُنين، وعاش سنتين بعد نزولها.

و عن ابن عبّاس قال: لمّا أقبل رسول الله ﷺ من غزوة حُنَين، و أنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ﴾ قال: «يا عليّ بن أبي طالب، و يا فاطمة، قولا: جاء نصرالله والفتح، و رأيت النّاس...».

أقول: نزلت سورة النّصر قُبَيل فتح مكّة بشارة للنّبيّ ﷺ و أصحابه بدخول أهلها ومن حولها في دين الله أفواجًا بعد أن كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا أو اثنين اثنين. أو نزلت بمكّة يوم الفتح كما قيل[2] و غزوة حُنَيْن كانت بعد فتح مكّة؛ لأنّه ﷺ فتح مكّة في رمضان سنة ثمان من الهجرة، و خرج من مكّة و قد بقي من رمضان أيّام لقتال هَوازِن وثَقيف في وادي حُنَيْن. وعاش بعد فتح مكّة سنتين و خمسة أو ستّة أشهر على الخلاف في شهر وفاته، ونزلت عليه بعد فتح مكّه سورة براءة[3]، و نزلت عليه خلال نزول تلك

---

١ ـ الزّمر / ٣٠.

٢ ـ النّاسخ و المنسوخ لأبي نصرالمفسّر بهامش «أسباب النّزول» للواحِديّ.

٣ ـ فسّر الواحِديّ في أسباب النّزول «الأمر» في قوله تعالى في سورة براءة: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾، فسّره بالقتال و فتح مكّة، و حكاه الشّيخ الطّبرِسيّ عن المجاهد، ثمّ ردّه بأنّ سورة براءة نزلت بعد فتح مكّة.

السّورة آية المباهلة من سورة آل عمران، و لم تنزل عليه بعد سورة براءة سورة أُخرى قطّ، فهي آخر سورة نزلت بالمدينة بلاخلاف فيه ظاهر. أوكان النّبيّ صلى الله عليه وآله قد بعث بآيات من صدرها مع أبي بكر في السّنة التّاسعة إلى مكّة؛ ليقرأها على أهل الموسم، فلمّا خرج أبوبكر بعث عليًّا عليه السلام خلفه، فخرج على ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله الغضباء يحثّ في السّير حتّى أدرك أبابكر بذي الحليفة فأخذها منه و مضى و رجع أبوبكر، فقال: هل نزل يا رسول الله فيّ شيء؟ فقال: «لا، إلاّ خيرًا، و لكن لا يؤدّي عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي» و قيل: أخذها رسول الله صلى الله عليه وآله منه قبل أن يخرج، و قال: «لا يبلّغ عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي» و قيل: كان أبوبكر أميرًا على الموسم، و عليّ يقرأ الآيات عليهم. و هذه القصّة ممّا قد أجمعت عليه المسلمون، و إن اختلفوا في كيفيّتها.

و لمّا دخلت السنّة العاشرة و خرج رسول الله صلى الله عليه وآله مع أصحابه إلى حجّة الوداع نزلت عليه ـ و هو في مسيره ـ خاتمة سورة النّساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ﴾[1] الآية. و يحمل حديث البُخاريّ و مُسلم عن البَراء بن عازِب في آخريّة الآية نزولاً على الآخريّة بمعناها الإضافيّ، أي أنّها آخر ما نزلت في المواريث.

قال ابن سيرين: **و تسمّى هذه الآية آية الصّيف، و ذلك أنّ الله تعالى أنزل في الكلالة آيتين؛ أحدهما في الشّتاء و هي الّتي في أوّل هذه السّورة، وأُخرى فيالصّيف و هي هذه الآية.**

ثمّ نزلت عليه آيات ثلاثة من سورة المائدة﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ـإلى قوله ـ اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] إلى آخر الآية.

بيّن سبحانه في هذه الآية أحد عشر حكمًا من الأحكام التّحريميّة، ثمّ قال: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ و لن يثبت أنّ هذه الأحكام أو كثير منها شرّعت قبل ذلك اليوم المشهور، أي لم يكن الرّسول صلى الله عليه وآله مأمورًا بتبليغها؛ لأنّ تشريع الأحكام و تبليغها كان على نحو التّدرّج بتنجيم نزول الآيات على حسب قابليّة الظّروف والحالات. و إذن يسهل الجواب عن شبهة قد أُثيرت حول هذه الجملة: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾، و هي أكان دين الله ناقصًا حتّى أكمله في ذلك اليوم؟.

---

١ ـ النّساء /١٧٦.
٢ ـ المائدة/٣.

والجواب: أمّا دين الله فلم يكن ناقصًا في وقت من الأوقات، و لا يلوح من الآية احتماله؛ لأنّه تعالى لم يقل: اليوم أكملت الدّين. وأمّا من ناحية إضافته إلى النّاس بقوله ﴿اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الرّاجع إلى تبليغة إليهم فلامانع من الالتزام بنقصانه قبل ذلك اليوم، ولافساد فيه، هذا جوابنا، وهو إنّما يتمّ لولم تنزّل بعد هذه الآية، آية أُخرى في تحليل أو تحريم أو فريضة، و إن نزلت في غيرها ختامًا للوحي، و ليس إكمال الدّين بإكمال القرآن، و إنّما هو بإكمال أحكامه.

و أمّا أن نزلت بعدها فريضة أُخرى كفريضة الكلالة، كما جزم به الطّبَريّ و قال به الفَرّاء، بل قالا: إنّ فريضة الكلالة ـ خاتمة سورة النّساء ـ هي آخر ما نزل على الإطلاق، استناداً إلى حديث البُخاريّ و مُسلم عن البَراء بن عازِب الّذي حملناه على ماعلمت، فالجواب إذن ما قاله الطَّبَريّ في تأويل الآية... [و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:].

فلمّا حجّ رسول الله ﷺ مع أصحابه حجّة الوداع، ولم يكن يخالطهم في ذلك اليوم مشرك، نوّه سبحانه بما أنعم عليه و على أصحابه بقوله: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ هذا، و لكنّ الأحاديث المعتبرة دلّت على أنّ المراد إكمال الدّين و إتمام النّعمة بولاية عليّ بن أبي طالب، و أنّ الآية نزلت على النّبيّ في غدير خم منصرفة عن حجّة الوداع لا يوم الحجّ و أنّ النّبيّ ﷺ لمّا نزلت عليه هذه الآية قال: الله أكبر على إكمال الدّين و إتمام النّعمة و رضا الرّبّ برسالتي و ولاية عليّ بن أبي طالب من بعدي» و قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، و عاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». و هذا بحث يطول، و لسنا بصدد الحديث عنه هنا، و قد أشبعه العلماء بحثًا.

القول الخامس ـ أنّ آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السّورة، رواه الحاكم و ابن مَرْدُويه والواحِديّ بأسانيدهم عن أُبيّ بن كعب، قال: آخر آية نزلت على عهد رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الآية.

و عمل هذا الخبر على أنّ المراد أنّها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلقًا، والإنصاف أنّه حمل بعيد. هناك أقوال أُخرى في تعيين آخر مانزل من القرآن و مجموعها

عشرة.. **[ثمّ حكى قول البَاقِلاّنيّ، كما تقدّم عن الزَّركشي، فقال:]**.

و أظنّه يشير بكلامه هذا إلى عدم تعيين ما ختم الله تعالى به كتابه الكريم، و هو بعيد عمّا ثبت من سيرة النّبيّ ﷺ في إبلاغ كان ينزّل عليه من آي القرآن، و بعيد عن اهتمام أصحابه و شدّة عنايتهم خصوصًا كُتّاب الوحي بشأن القرآن الكريم، فقد كان ﷺ كلّما نزلت عليه آية يتلوها عليهم آن نزولها، و يأمر كُتّاب الوحي بكتابتها، معيّنًا لهم السّورة الّتي تكون الآية منها، و موضع الآية من تلك السّور طبق نزول الوحي بذلك فكيف أهمل و الحال هذه بيان ما عساه أن يكون قد ختم الله به كتابه الكريم. و أمّا هذا الاختلاف والأقوال المتشعّبة في تعيّن ذلك فهو كسائر اختلافهم، و عسى أن تكون رحمة.

والرّاجح من هذه الأقوال هو ما أخرجه النّسائيّ من طريق عِكرِمة، و أخرجه الواحِديّ من طريق الضَّحَّاك عن ابن عبّاس أنّه قال: آخر ما نزل من القرآن كلّه، أو قال: آخر آية نزلت: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ**﴾.[1]

قال الشّيخ الطَّبرِسيّ مشيرًا إلى الآية: هذه آخر آية نزلت من القرآن و قال جبريل: ضعها... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**.

و أمّا مبدأ نزول الوحي بالقرآن الّذي هو يوم بعث الرّسالة، و هبوط جبرئيل بأمر الجليل جلّ جلاله على النّبيّ ﷺ بصدر سورة (اِقْرَأ) في غار حِراء فقد تقدّم و إذن تستطيع أن تتحصّل على مدى نزول القرآن لمّا بيّن المبدأ و المنتهى.

سير التشّريع الإسلاميّ في تحريم الخمر، و أوّل ما نزل فيه و آخره

و كما أنّ التّعوّد بشيء لا يحصل للإنسان إلاّ على نحو التّدرّج لمدى زمان كثير، كذلك ترك التّعوّد به إذا كان مضرًّا بحال الإنسان ينبغي أن يكون على هذا النّحو، لئلاّ يصعب عليه تركه أو يتضرّر بتركه، هذا من ناحية الواقع، و أمّا من ناحية الآمريّة بفعل شيء يشقّ على الإنسان فعله، أو بترك شيء يشقّ عليه تركه، فالأصلح أن يكون على

---

١ ـ البقره /٢٨١.

هذا النّحو أيضًا، وعليه جرى سير التّشريع الإسلاميّ في كثير من واجباته و محرّماته، ومنها تحريم الخمر، فأوّل ما نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا اِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَاِثْمُهُمَا اَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[١] فلم يحرّمه بالنّهي الصّريح، و لكنّه سبحانه بيّن أنّ فيه إثم كبير، و صرّح بأنّ إثمه أكبر من نفعه، و هذا يدلّ على تحريمه بحكم العقل، فإنّ مضرّة الشّيء إذا غلبت منفعته يحكم العقل بالامتناع منه، فقالوا على ما حكي عن ابن عُمر: يارسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله (أي كما قال الله): ﴿وَ مَنَافِعُ لِلنَّاس﴾ فسكت عنهم، فكانوا يشربونها إلى أن شربها رجل قرب الصّلٰوة، فدخل في الصّلاة و هجر. فأنزل الله تعالى في سورة النّساء: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَاَنْتُمْ سُكَارٰى﴾[٢]، فقالوا: يا رسول الله، لانشربها قرب الصّلاة، فسكت عنهم، فشربها من شربها. حتّى شربها الرّجل المعروف، فأخذ بلَحْيَي بعير و شجّ بهما رأس عبدالرّحمان بن عَوْف، ثمّ جعل ينوح على قَتلىٰ بدر بأشعار الأسود بن يعفُر:

و كأنّ بالقَليب قَليب بدرٍ مِنَ الفِتْيان و العَرَب الكِرَامِ
أيوعِدني ابن كَبْشَة أن سَنَحْيا وَكَيْف حَياةُ أصداءٍ وَهامٍ؟
فَقُل لله يَمْنَعُني شِرابي وَقُل لله يَمْنَعُني طَعامي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مُغضبًا يجرّ ردائه، فرفع شيئًا كان في يده فضربه به، فقال الرّجل، أعوذ بالله من غضبه و غضب رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْاَنْصَابُ وَ الْاَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣] و هذا آخر ما نزلت في حكم الخمر، و يدلّ على حرمتها من وجوه خمسة؛ أهمّها أنّ الله تعالى قرن فيه حكم الخمر بعبادة الأنصاب، و الأنصاب: الأوثان. وروي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «مُدمِنُ الخَمْر كَعَابِدِ الوَثَن».

١ ـ البقرة /٢١٩. ٢ ـ النّساء /٤٣.
٣ ـ المائدة /٩٠.

تشريع القتال و أوّل ما نزل فيه و آخره

لم يكن النّبيﷺ مأذونًا من الله تعالى في القتال مع المشركين و أعداء الدّين مدّة إقامته بمكّة، وسنة من مدّة إقامته با لمدينة، بل كان مأمورًا بالعفو والصّفح عنهم؛ حتّى نزل عليه في أوائل السّنة الثّانية في سورة الحجّ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[١] فوقعت الغزوات و بعث السّرايا. ثمّ حضّ الله تعالى حضًّا شديدًا على قتال المشركين في أواخر الأمر، فأنزل سورة براءة، و فيها: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[٢]، ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾[٣] ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[٤] و ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[٥] ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦]، ﴿اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[٧]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[٩] و آخر غزوة غزاها النّبيّﷺ غزوة تبوك، و آخر سريّة بعثها جَيْش أُسامة بن زيد، و كانﷺ مريضًا، فأمر كبار أصحابه بتنفيذ الجيش قائلاً «نفّذوا جيش أُسامة»، وقصّته مشهورة. (ص: ١٧٤ ـ ١٩٠)

---

١ ـ الحجّ /٣٩.
٢ ـ التّوبة /٥.
٣ ـ التّوبه /١٢.
٤ ـ التّوبة /١٤.
٥ ـ التّوبة /٣٦.
٦ ـ التّوبة /٣٩.
٧ ـ التّوبة /٤١.
٨ ـ التّوبة /٧٣.
٩ ـ التّوبة /١٢٣.

الفصل التّاسع و الثّلاثون

نصّ الشّيخ معرفة (١٣٥٦ ـ.....) في «التّمهيد في علوم القرآن»

بدء نزول الوحي «البعثة»

قال الشّيخ الجليل الثّقة عليّ بن إبراهيم القمّيّ: إنّ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِه لمّا أتى له سبع و ثلاثون سنة. [و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ ذكر قول الإمام العسكرى في تفسيره[1] كما تقدّم نحوه عنه، فقال:]

و في شرح النّهج: إنّ بعض أصحاب أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السّلام سأله عن قول الله عَزَّوجَلَّ: ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[2] فقال: يوكّل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، و يؤدّون إليه تبليغهم الرّساله، ووكّل بمحمّد صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِه مَلَكًا عظيمًا منذ فصل عن الرّضاع يرشده إلى الخيرات و مكارم الأخلاق، و يصدّه عن الشّرّ و مساوىء الأخلاق، هو الّذي كان يناديه: السّلام عليك يا محمّد يا رسول الله، و هو شابّ لم يبلغ درجة الرّسالة بعد، فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمّل فلا يرى شيئًا»[3].

وراجع الخطبة القاصعة من كلام أميرالمؤمنين عليه السّلام بهذا الشّأن، و قد نقلنا فيما سبق شطرًا منها، و هي الخطبة رقم (٢٣٨) في شرح النّهج لا بن أبي الحديد.

---

١ ـ تفسير الإمام: (ص:١٥٧)، و هو منسوب إلى الإمام الحادي العشر للشيعة الإمامية: الحسن بن عليّ العسكريّ عليه السّلام وقد طعن بعض المحقّقين في نسبته إلى الإمام عليه السّلام، لما فيه من مناكير، لكن لو كان المقصود أنّه من تأليف الإمام بقلمه و إنشائه الخاص، فهذا شيء لا يمكن قبوله بتاتًا.

٢ ـ الجنّ /٢٧.

٣ ـ شرح نهج البلاغة ١٣:٢٠٧.

و في تاريخ الطّبريّ: كان رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل أن يظهر به جبرئيل عليه السلام برسالة الله إليه، يرى و يعاين آثارًا و أسبابًا من آثار من يريد الله إكرامه و اختصاصه بفضله، فكان من ذلك ما مضى من خبره عن الملكين اللّذين أتياه فشقّا بطنه[1]، و استخرجا ما فيه من الغلّ والدّنس، و هو عند أُمّه من الرّضاعة (حليمة) و من ذلك أنّه كان إذا مرّ في طريق لا يمرّ بشجر و لا حجر إلاّ سلّم عليه. و هكذا كان إذا خرج لحاجته أبعد حتّى لا يرى بيتًا، ويفضي إلى الشّعاب و بطون الأودية. فلا يمرّ بحجر و لا شجر إلاّ قال: السّلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يلتفت عن يمينه و شماله و خلفه فلا يرى أحدًا[2].

قال اليعقوبي: كان جبرئيل يظهر له و يكلّمه، أو ربّما ناداه من السّماء و من الشّجر ومن الجبل. ثمّ قال له: إنّ ربّك يأمرك أن تجتنب الرّجس من الأوثان، فكان أوّل أمره. فكان رسول الله يأتي خديجة ابنة خُوَيلد و يقول لها ما سمع و تكلّم به، فتقول له: أُستر يا ابن عمّ! فوالله إنّي لأرجو أن يصنع الله بك خيرًا[3].

و كان صلى الله عليه وآله يوم بعث قد استكمل الأربعين، لعشرين مضين من ملك كسرى أبرويز بن هُرمُز بن أنوشِرْوان[4]. قال اليعقوبيّ: كان مبعثه صلى الله عليه وآله في شهر ربيع الأوّل، و قيل: في رمضان، و من شهور العجم في شُباط. قال: و أتاه جبريل ليلة السّبت و ليلة الأحد، ثمّ ظهر له بالرّسالة يوم الاثنين[5] قال ابن سعد: نزل الملك على رسول الله صلى الله عليه وآله بحِراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان[6].

قال أبو جعفر الطَّبَريّ: و هذا ـ أي نزول الوحي عليه بالرّسالة يوم الاثنين ـ ممّا لا خلاف فيه بين أهل العلم،و إنّما اختلفوا في أيّ الأثانين كان ذلك؟ فقال بعضهم: نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله لثماني عشرة خلت من رمضان، وقال آخرون: لأربع و

---

١ ـ لم يرد بهذا المعني حديث من طريق أهل البيت عليهم السلام.

٢ ـ أبو جعفر الطّبريّ ـ التّاريخ ٢: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

٣ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢:١٧ طبعة النّجف الثّانية.

٤ ـ ابن الأثير الكامل: ٢ ـ ٣١.

٥ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٧ ـ ١٨.

٦ ـ طبقات ابن سعد ١ ـ ١٢٩.

عشرين خلت منه و قال آخرون: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَ مَا اَنْزَلْنَا عَلىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[١]. و ذلك ملتقى رسول الله ﷺ و المشركين ببدر، و كان صبيحة سبع عشرة من رمضان[٢]. لكن لا دلالة في الآية على أنّ مبعثه كان مصادفًا لذلك اليوم.

أوّلاً ـ لأنّ المقصود ما أُنزل عليه ذلك اليوم من دلائل الحقّ و آيات النّصر، لا القرآن كلّه و لا مبدأ نزوله.

و **ثانيًا** ـ سوف نذكر أنّ مبدأ نزول القرآن ـ بعنوان كونه كتابًا سماويًّا ـ كان متأخّرًا عن يوم مبعثه بالرّسالة، فقد بعث ﷺ رسولاً إلى النّاس في (٢٧) رجب، و أُنزل عليه القرآن في شهر رمضان ليلة القدر، و ربّما كان بعد فترة ثلاث سنين كما يأتي.

و **ثالثًا** ـ معنى يوم الفرقان اليوم الّذي فرّق فيه بين الحقّ و الباطل، و غلب الحقّ على الباطل فكان زهوقًا، و كان يومًا حاسمًا في حياة المسلمين، وقد أيس الشّيطان فيه أن يعبد أو يطاع إلى الأبد.[٣] **[ثمّ ذكر قول المسعوديّ، كما سيأتي عنه في أوّل مانزل، فقال:]** و كانت سنة ستّمائة و تسع من تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام.[٤]

و الصّحيح عندنا في تعيين يوم مبعثه ﷺ أنّه اليوم السّابع و العشرون من شهر رجب الأصبّ، على ما جاء في روايات أهل البيت:، و يستحبّ صيامه و القيام بآداب و عبادات تخصّه، تلتزم بها الشّيعة الإماميّة كلّ عام تقديسًا لهذا اليوم المبارك الّذي أُنزلت الرّحمة فيه على النّاس جميعًا، و افتتحت أبواب البركة العامّة على أهل الأرض؛ إذ بعث النّبيّ ﷺ رحمة للعالمين، فياله من يوم مبارك... **[ثمّ ذكر روايتين نقلاً عن الإمامين الصّادق والرّضا عليهما السلام كما تقدّم عن العلاّمة المَجلِسيّ، فقال:]**.

والرّوايات بهذا الشّأن من طرق أهل البيت عليهم السلام كثيرة[٥]. و هكذا وردت روايات من

---

١ ـ الأنفال /٤١.
٢ ـ تاريخ الطّبريّ ٢: ٢٩٤.
٣ ـ راجع تفسير شُبَّر: ١٩٥.
٤ ـ تاريخ التّمدّن الإسلاميّ لجرجي زيدان ١:٤٣.
٥ ـ راجع وسائل الشّيعة للشّيخ الحرّ العامليّ، كتاب الصّوم المندوب، الباب: ١٥.

طرق أهل السّنّة بتعيين نفس اليوم؛ أورد الحافظ الدِّمياطيّ في سيرته عن أبي هُرَيرة؛ قال من صام يوم سبع و عشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستّين شهرًا، و هو اليوم الّذي نزل فيه جبريل على النّبيّ عليه السلام بالرّسالة، و أوّل يوم هبط فيه جبرئيل.[١]

وروى البَيهقيّ في «شُعَب الإيمان» عن سلمان الفارسيّ قال: في رجب يوم و ليلة، من صام ذلك اليوم و قام تلك اللّيلة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة، و هو لثلاث بقين من رجب، و فيه بعث الله محمّدًا صلى الله عليه وآله.[٢]

وروى صاحب المناقب عن ابن عبّاس و أنس بن مالك أنّهما قالا: أوحى الله إلى محمّد صلى الله عليه وآله يوم الاثنين، السّابع و العشرين من رجب، و له من العمر أربعون سنة.[٣]

و قال العلاّمة المَجلِسيّ رحمه الله: اختلفوا في اليوم الّذي... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**

أقول: و هناك قول سادس: ثامن ربيع الأوّل، و قول سابع: ثالث ربيع الأوّل، ذكر هما ابن برهان الحلبيّ في سيرته. ثمّ ذكر القول بأنّه الثّاني عشر من ربيع الأوّل، يوم مولده الشّريف؛ ليوافق القول بأنّه بعث على رأس تمام الأربعين.[٤]

و سنذكر أنّ أكثريّة القائلين ببعثته صلى الله عليه وآله في شهر رمضان، لعلّه قد اشتبه عليهم مبدأ حادث النّبوّة بمبدأ حادث نزول القرآن كتابًا فيه تبيان كلّ شيء. و هذا الاشتباه يبدو من استدلالهم على تعيين يوم البعثة بمادلّ على أنّ القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان، و سنتحقّق أن لا صلة بين الحادثين، فقد بعث صلى الله عليه وآله في رجب (٢٧)، و لكنّ القرآن بسمته كتابًا مفصّلاً، بدأ نزوله على النّبيّ صلى الله عليه وآله في شهر رمضان ليلة القدر بعد ثلاث سنين من نبوّته صلى الله عليه وآله فكانت مدّة نبوّته صلى الله عليه وآله ثلاثًا و عشرين سنة. ولكن فترة نزول القرآن مفرّقًا استغرقت عشرين عامًا بدأت بدخول السّنة الرّابعة من البعثة، و ختمت في عاشر الهجرة بوفاته صلى الله عليه وآله. **(١: ٧٢ ـ ٧٨)**

---

١ ـ السّيرة الحلبيّة ١: ٢٣٨.
٢ ـ منتخب كنزالعمّال بهامش المسند ٣: ٣٦٢.
٣ ـ المناقب ابن شهر اشوب ١: ١٥٠، و البحار ١٨: ٢٠٤.
٤ ـ السّيرة الحلبيّة ١: ٢٣٨.

أوّل ما نزل

احتلف الباحثون في شؤون القرآن في أنّ أيّ آياته أو سوره نزلت قبل؟ و الأقوال في ذلك ثلاثة:

١ـ **سورة العلق**؛ لأنّ نبوّتهﷺ بدأت بنزول ثلاث أو خمس آيات من أوّل سورة العلق، و ذلك حينما فجأه الحقّ و هو في غار حِراء... **[إلى أن قال:]**

و في تفسير الإمام: هبط إليه جبرائيل و أخذ بضبعه و هزّه، فقال: يا محمّدﷺ اقرأ، قال: «وما أقرأ»؟ قال: يا محمّد ﴿**اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...**﴾.

وروي عن الإمام الصّادقؑ: «أوّل ما نزل على رسول اللهﷺ: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ و آخر ما نزل عليه: ﴿**اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ**﴾[1].

٢ـ **سورة المدّثّر**؛ لما روي عن ابن سَلَمة، قال: سألت جابر... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ الرّقم ٣، ثمّ قال:]**.

هذا، و لعلّ جابرًا اجتهد من نفسه أنّها أوّل سورة نزلت؛ إذ ليس في كلام رسول اللهﷺ دلالة على ذلك، و الأرجح أنّ ما ذكره جابر كان بعد فترة انقطاع الوحي، فظنّه جابر بدء الوحي[2]. و إليك حديث فترة انقطاع الوحي برواية جابر أيضًا، قال: سمعت رسول اللهﷺ يحدّث عن فترة الوحي؛ قال... **[و ذكر كما تقدّم عن البُخاريّ الرّقم ٢]**.

٣ـ **سورة الفاتحة**؛ قال الزَّمَخْشري: أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل[3].

وروى العلاّمة الطَّبْرِسيّ عن الأُستاذ أحمد الزّاهد في كتابه: «الايضاح»، بإسناده عن سعيد بن المُسَيَّب، عن عليّؑ... **[و ذكر كما سيأتي عن الطَّبْرِسيّ في ترتيب النّزول، ثمّ حكى رواية الواحِديّ عن أبي مَيْسِرة كما تقدّم عنه، الرّقم ١١ فقال:]**.

---

١ ـ أُصول الكافي ٢: ٦٢٨، عيون أخبار الرّضا ٢:٦، البحار ٢: ٣٩، البُرهان ١: ٢٩.

٢ ـ البُرهان في علوم القرآن ١:٢٠٦.

٣ ـ الكشّاف ٤: ٧٧٥، و ناقشه ابن حَجَر مناقشة سطحيّة لا مجال لها بعد توضيحنا الآتي في وجه الجمع بين الأقوال الثّلاثة، راجع فتح الباريّ ٨: ٥٤٨.

قلت: لا شكّ أنّ النّبيّ ﷺ كان يصلّي منذ بعثته، و كان يصلّي معه عليّ و جعفر و زيد بن حارثة و خديجة[١] و لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[٢]، فقد ورد في الأثر: أوّل ما بدأ به جبرائيل أن علّمه الوضوء و الصّلاة،[٣] فلابدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة. قال جلال الدّين السّيوطيّ: لم يحفظ أنّه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب.

وبعد، فلا نرى تنافيًا جوهريًّا بين الأقوال الثّلاثة، نظرًا لأنّ الآيات الثّلاث أو الخمس من أوّل سورة العلق، إنّما نزلت تبشيرًا بنبوّته ﷺ، و هذا إجماع أهل الملّة. ثمّ بعد فترة جاءته آيات أيضًا من أوّل سورة المدّثّر، كما جاء في حديث جابر ثانيًا. أمّا سورة الفاتحة فهي أُولى سورة نزلت بصورة كاملة، و بسمة كونها سورة من القرآن كتابًا سماويًّا للمسلمين، فهي أوّل قرآن نزل عليه ﷺ بهذا العنوان الخاصّ، و أمّا آيات غيرها سبقتها نزولاً، فهي إنّما نزلت لغايات أُخرى، و إن سجّلت بعدئذ قرآنًا ضمن آياته و سوره.

و من هنا صحّ التّعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة، أي أوّل سورة كاملة نزلت بهذه السّمة الخاصّة. و هذا الاهتمام البالغ بشأنها في بدء الرّسالة، و اختصاص فرضها في الصّلوات جميعًا، جعلها في الفضيلة عدلاً للقرآن العظيم: ﴿وَ لَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْاٰنَ الْعَظِيمَ﴾[٤]، فقد امتنّ الله على رسوله بهذا النّزول الخاصّ تجاه سائر القرآن.

نعم، لوا عتبرنا السّور باعتبار مفتتحها فسورة الحمد تقع الخامسة، كما جاء في رواية جابر بن زيد الآتية.[٥]

آخر مانزل

جاء في رواياتنا: أنّ آخر ما نزل هي سورة النّصر، روي أنّها لمّا نزلت و قرأها ﷺ على أصحابه فرحوا واستبشروا، سوى العبّاس بن عبدالمطّلب، فإنّه بكى، قال ﷺ: «ما يبكيك يا عمّ»؟ قال أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله ﷺ فقال: «إنّه لكما تقول».

---

١ ـ تفسير القمّي: ٣٥٣.
٢ ـ مستدرك الحاكم ١: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، صحيح مسلم ٢: ٩.
٣ ـ سيرة ابن هِشام ١: ٢٦٠ ـ ٢٦١، البحار ١٨: ١٨٤ و ١٩٤.
٤ ـ الحِجْر /٨٧.
٥ ـ الإتقان ١: ٢٥.

فعاش عليه‌السلام بعدها سنتين[١].

قال الإمام الصّادق عليه‌السلام: «و آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والْفَتْحُ﴾[٢] و أخرج مُسلم عن ابن عبّاس، قال: آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[٣] وروي آخر سورة نزلت: (براءة)، نزلت في السّنة التّاسعه بعد عام الفتح عند مَرجعه عليه‌السلام من غـزوة تـبوك، نزلت آيات من أوّلها، فبعث بها النّبيّ مع عليّ عليه‌السلام ليقرأها على ملأ من المشركين[٤].

وروي آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ [و ذكر كما تقدّم عن المَيْبُديّ]. قـال ابـن واضح اليعقوبيّ: و قد قيل: إنّ آخر ما نزل عليه عليه‌السلام: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ...﴾... [و ذكر كما سيأتي عنه في قسم التّرتيب].

أقول: لا شكّ أنّ سورة النّصر نزلت قبل (بَرَاءَة)؛ لأنّها كانت بشارة بالفتح، أو بمكّة عام الفتح[٥] و (بَرَاءَة) نزلت بعد الفتح بسنة فطريق الجمع بين هذه الرّوايات، أنّ آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النّصر، فقال عليه‌السلام: «أمَا أنّ نفسي نُعِيَت إليّ»[٦]. و آخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة (بَرَاءَة).

و أمّا آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾، فإن صحّ أنّها نزلت بمنى يوم النّحر في حجّة الوداع ـ كما جاء في رواية المَاوَرْديّ[٧] فآخر آية نزلت هي آية الإكمال، كما ذكرها اليعقوبيّ؛ لأنّها نزلت في مَرجعه عليه‌السلام من حجّه الوداع ثامن عشر ذي الحجّ. وإلاّ فلو صحّ أنّ النّبيّ عاش بعد آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ أحدًا و عشرين يومًا أوسبعة أو تسعة أيّام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه عليه‌السلام.

و الأرجح عندنا هو ما ذهب إليه اليعقوبيّ، نظرًا لأنّها آية الإعلام بكـمال الدّيـن، فكانت إنذارًا بانتهاء الوحي عليه عليه‌السلام بالبلاغ و الأداء. فلعلّ تلك الآية كانت آخر آيات

---

١ ـ مجمع البيان ١٠: ٥٥٤.

٢ ـ تفسير البُرهان ١: ٢٩.

٣ ـ الإتقان ١: ٢٧.

٤ ـ تفسير الصّافيّ ١: ٦٨٠.

٥ ـ أسباب النّزول بهامش الجلالين ٢: ١٤٥.

٦ ـ تفسير شُبَّر: ٨٣.

٧ ـ مجمع البيان ٢: ٣٩٤.

الأحكام، و هذه آخر آيات الوحي إطلاقًا.

و هناك أقوال و آراء أُخر لاقيمة لها، إنّها غير مستندة إلى نصّ معصوم. [ثمّ ذكر قول الزّركشيّ، كما تقدّم عنه]. (١: ٩٣ـ٩٨)

الفصل الأربعون

نصّ أبي شهبة (معاصرٌ) في «المدخل لدراسة القرآن»

أوّل ما نزل من القرآن و آخر ما نزل منه

هذا المبحث المدار فيه على النّقل عن الصّحابة و التّابعين، و لا مجال للعقل فيه إلاّ بالتّرجيح بين الأدلّة، أو الجمع بين ما ظاهره التّعارض منها، و يترتّب على العلم بأوّل ما نزل و آخر ما نزل فوائد؛ منها:

١ـ معرفة النّاسخ و المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو أكثر في موضع واحد، و حكم إحداهما يغاير الأُخرى تغايرًا لايمكن معه الجمع، فنعرف أنّ المتأخّر منها ناسخ للمتقدّم.

٢ـ معرفة تاريخ التّشريع الإسلاميّ، و ذلك مثل ما إذا عرفنا أنّ الآيات الّتي نزلت في فرضيّة الصّلاة كانت بمكّة قبل الهجرة، و أنّ الآيات الّتي نزلت في فرض الزّكاة[1] و الصّوم كانت في السّنة الثّانية بعد الهجرة، و أنّ الآيات الّتي نزلت في فرض الحجّ كانت في السّنة السّادسة على ما هو الرّاجح أمكننا أن نرتّبها ترتيبًا تشر يعيًّا، فنقول: إنّ أوّل ما فـرض الصّلاة، ثمّ الزّكاة و الصّوم، ثمّ الحجّ.

و مثل ما إذا عرفنا أنّ آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا...﴾ [2] نزلت بالمدينة في السّنة الثّانية، علمنا أنّ تشريع الجهاد كان بالمدينة بالسّنة الثّانية و هكذا بقيّة التّشريعات .

---

١ ـ بعض العلماء يرى أنّ الزّكاة فُرضت بمكّة، و إنّما الّذي كان بالمدينة بيان مصارفها و أنصبتها، و لكنّ الأكثر على أنّها فرضت بالمدينة في السّنة الثّانية.

و قد اختلف هؤلاء؛ فرضها قبل الصّوم أم بعده؟ رأيان، و يرجّح الثّاني حديث قَيْس بن سَعد بن عُبَادة عند أحمد وابن خُزَيْمة و النَّسائيّ و ابن ماجَة و الحاكِم، قال قَيْس: أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزّكاة، ثمّ نزلت فريضة الزّكاة، فلم يأمر و لم ينهنا، و نحن نفعله. قال الحافظ ابن حَجَر: إسناده صحيح. (فتح الباريّ ٣: ٢٠٧).

٢ ـ الحجّ /٣٩.

٣ـ معرفة التّدرّج في التّشريع، فتوصل إلى حكمة الله سبحانه العالية في أخذ الشّعوب بهذه السّياسة الحكيمة في الإسلام، و ذلك مثل ما إذا عرفنا ترتيب الآيات الّتي نزلت في شأن تحريم الخمر، و قد ذكرنا ذلك آنفًا. و مثل ما إذا عرفنا أنّ الآيات الدّاعية إلى أُصول العقائد نزلت أوّلاً، و أنّ الآيات الّتي نزلت في التّشريعات التّفصيليّة و الأحكام العمليّة نزلت بعدها، أدركنا أسرار الله في التّربية و التّشريع، فمالم تعرف الأُصول، و تطمئنّ إليها القلوب، لا يسهل الأخذ بالفروع.

ثمّ إنّ أوّليّة النّزول و آخريّته تارةً تكون على الإطلاق، أي بالنّسبة للقرآن كلّه، و تارةً تكون مقيّدة إمّا بالنّسبة لموضع معيّن، و ذلك مثل أوّل ما نزل في الجهاد و آخر ما نزل فيه، و إمّا بالنّسبة لمكان خاصّ، مثل أوّل ما نزل بمكّة و آخر ما نزل بها، و أوّل ما نزل بالمدينة و آخر ما نزل بها، و إمّا بالنّسبة لسورة ما، مثل أوّل ما نزل من سورة كذا و آخر ما نزل منها.

أمّا الأوّليّة و الآخريّة المطلقتان فسأتنا ولهما بالتّفصيل، و أمّا المقيّدتان فسأكتفي بضرب بعض الأمثلة؛ لأنّ استيعابها يحتاج إلى مؤلّف خاصّ. و لنبدأ بأوّل ما نزل و آخر ما نزل على الإطلاق.

أوّل ما نزل من القرآن

اختلف العلماء في هذا على أقوال أربعة:

القول الأوّل ـ إنّ أوّل ما نزل هو قوله تعالى: **﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾**[1]، و يدلّ لذلك ما يأتي:

أ ـ روي عن البُخاريّ و مُسلم ـ و اللّفظ للبُخاريّ ـ بسند هما عن عائشة أنّها قالت: أوّل ما بدیء... **[و ذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ١، ثمّ قال:]**.

و قد سُقت الحديث بطوله، و شرَحتُه في كتابي: «السّيرة النّبويّة في ضوء القرآن والسّنّة» و عائشة و إن لم تعاين القصّة و تشاهدها، إلاّ أنّه يحتمل أن تكون سمعتها من

---

١ ـ العلق /١ـ٥.

النّبيّ بعد، أو حدّثها بها صحابيّ سمعها من النّبي، وأيًّا كان الأمر فهو حديث متّصل مرفوع.

ب ـ وروى الحاكم في «مستدركه» والبَيْهَقيّ في «دلائل النّبوّة، و صحّحاه عن عائشة، أنّها قالت: أوّل سورة نزلت من القرآن ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و مرادها بالسّورة صدرها، إلاّ فباقيها نزل بعد، كما تدلّ على ذلك رواية الصّحيحين.

[ثمّ ذكر رواية الطَّبَرانيّ عن أبي رَجَاء العُطارديّ، و رواية ابن أشته في «المصاحف»، ورواية الزُّهْريّ، كما تقدّم عَن السّيوطيّ فقال:]

و لعلّ هذا ـ إن صحّ ـ يفسّرلنا الأمر بالقراءة في رواية الصّحيحين، أي اقرأ ما في هذا النّمط، إلى غير ذلك من الآثار الّتي ذكرها الإمام السُّيوطيّ في «الإتقان» الصّحيح، و عليه جمهور العلماء سلفًا و خلفًا.

القول الثّاني ـ إنّ أوّل ما نزل هو قوله تعالى: **﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ ـ إلىٰ ـ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾**،[1] وهذا القول مرويّ عن جابر بن عبدالله و أبي سَلَمَة بن عبدالرّحمان بن عَوْف.

و يدلّ لهذا ما رواه الشّيخان ـ و اللّفظ للبُخاريّ ـ عن يحيى بن أبي كثيرٌ قال: سألت أبا سَلَمَة بن عبدالرّحمان... **[و ذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ٣، ثمّ قال:]**.

وقد أجاب القائلون بالأوّل عن هذا بأجوبة أحسنها و أخلقها بالقول: إنّ **﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾** أوّل ما نزل بعد فترة الوحي، أمّا (اِقْرَأْ) فهي أوّل ما نزل على الإطلاق.

ويؤيّد هذا التّأويل و يقوّيه ما رواه الشّيخان أيضًا عن طريق الزُّهْريّ ـ و اللّفظ للبُخاريّ ـ عن أبي سَلَمَة بن عبدالرّحمان، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال... **[وذكر كما تقدّم عنه الرّقم ٣ ثمّ قال:]**.

فقوله: و هو يحدّث عن فترة الوحي،[2] نصّ على أنّ ذلك بعد فترة الوحي، فهي أوّليّة مقيّدة لا مطلقة.

و كذلك قولهﷺ: «فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء» الخ، يدلّ على أنّ هذه القصّة متأخّرة عن قصّة حِراء الّتي نزل فيها: **﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ﴾**.

على أنّنا نلاحظ أنّ جابرًا استنبط ذلك باجتهاده على حسب علمه من روايته،

---

١ ـ المدّثر /١ـ٥.

٢ ـ الإتقان ١:٣٤.

ولذلك لمّا روجع، لم يجد بدًّا من ذكر ماسمعه، و لم يقطع برأي، ثمّ لمّا تبيّن له الأمر، و أنّ ذلك كان بعد فتره الوحي، ذكر ذلك صراحة كما في طريق الزُّهْـريّ، بـخلاف حـديث عائشة، فالمتيقّن أنّه من روايتها لا من اجتهادها.

و من الأجوبة الّتي أُجيب بها:

١ـ أنّ أوّل سورة المدّثر مقيّد بما نزل متعلّقًا بالإنذار، و لذلك دعا النّبيّ بعدها إلى الله، بخلاف صدر سورة العلق، فهو مطلق غير مقيّد بشيء خاص.

٢ـ أنّ سورة المدّثّر أوّل سورة نزلت بكما لها قبل نزول تمام سورة (اِقْرَأ)، فإنّها أوّل مانزل منها صدرها.

أقول: هذا الجواب غير مسلّم، فقد ذكرت آنفًا رواية الصّحيحين عن جابر، و فيها فأنزل الله: ﴿يَاءَيُّهَالْمُدَّثِّر ـ إلى ـ والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

فكيف يدّعي مُدّع، أو يقول قائل: إنّ المدّثّر أوّل سوره نزلت بتمامها؟ فالحقّ أنّـه لايصلح أن يكون جوابًا.

و لذلك لمّا تعرّض الحافظ ابن حَجَر في «الفتح» للتّوفيق بين الحديثين: حـديث عائشة و حديث جابر، لم يذكر هذا الوجه[١]، و إنّما ذكره صاحب الإتقان.

القول الثّالث ـ إنّ أوّل ما نزل سورة الفاتحة، و قد عزا هذا القول الزَّمَخْشريّ فـي «كشّافه» إلى أكثر المفسّرين، وردّ عليه الحافظ ابن حَجَر بأنّ هذا القول لم يقل به إلاّ عدد أقلّ من القليل، **و إلى هذا الرّأي مال الأُستاذ الإمام الشّيح محمّد عَبدُه في تفسير سورة الفاتحة.**

و قد استدلّ الذّاهبون إليه بما رواه البَيْهَقيّ في «دلائل النّبوّة» والواحِديّ بسنده عن أبي مَيْسِرة ـ عمرو بن شُرَحْبيل... **[و ذكر كما تقدّم عن أبي الفتوح والقُرطُبيّ، ثمّ قـال:]** ويجاب عن هذا القول بأنّه حديث مرسل و إن كان رجاله ثقات، فلا يعارض حـديث عائشة المرفوع، فالرّاجح هو الأوّل.

أقول: و ليس فيه التّنصيص على أنّ الفاتحة أوّل ما نزلت، فيجوز ـ على فرض صحّة

---

١ ـ فتح الباريّ: ٥٥٠، ٥٥١.

هذا المرسل ـ أن تكون من أوائل ما نزل، و إلى هذا ذهب البَيْهَقيّ؛ قال و إن كـان ـ أي المرسل ـ محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه: اِقْرَأ والمدّثّر.[١] والظّاهر أنّ الفاتحة من أوائل السّور نزولاً كما يفهم ذلك من صنيع المرتّبين للسّور على حسب نزولها.

القول الرّابع ـ إنّ أوّل ما نزل هو قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾... [ثمّ ذكر رواية الواحديّ عن عِكرِمة والحَسَن، ورواية ابن جَرير عن ابن عبّاس، كما تقدّم عنهما الرّقم ١، فقال:].

وقد أجاب السّيوطيّ عن هذا القول، فقال: و عندي أنّ هذا لا يُعدّ قولاً برأسه، فإنّ من ضرورة نزول السّورة نزول البَسْمَلة معها، فهي أوّل آية نزلت على الإطلاق[٢].

أقول: وهذا الجواب غير مسلّم، فالأحاديث الصّحيحة في بدء الوحي كحديث عائشة و غيره لم تذكر قطّ نزول البَسْمَلة مع صدرها، والظّاهر أنّها نزلت بعد نزول تمام السّورة.

وقد ذكر ابن عَطِيّة في مقدّمة تفسيره: ـ عند حكاية هذا القول ـ أنّ في بعض طرق حديث خديجة، و حملها رسول الله ﷺ إلى وَرَقَة بن نَوْفَل أنّ جبريل قال للنّبيّ ﷺ: قل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقالها، فقال: (اِقْرَأْ)، قال: «ما أنا بقارىء».[٣] فإذا ثبت هذا يكون مؤيّدًا لما أجاب به السّيُوطيّ.

نعم، هذه الآثار و الآحاديث لا تنهض لمعارضة حديث عائشة المرفوع الّذي اتّفق عليه صاحبا الصّحيحين، فهو في أعلى درجات الصّحّة.

إزالة إشكال: لكن يشكل على الوجه الّذي رجّحنا مارواه الشّيخان عن عـائشة، قالت إنّ أوّل ما نزل سورة من المفصّل فيها ذكر الجنّة و النّار، حتّى إذا ثاب الإسلام نزل الحلال والحرام. لأنّه ليس في صدر سورة (اِقْرَأْ) ذكر الجنّة و النّار، بل ولا في السّـورة كلّها.

والجواب: أنّ «من» مقدّرة في الكلام، أي من أوّل مانزل، و مرادها رضي الله عنها

---

١ ـ الإتقان ١:٢٤.
٢ ـ الإتقان ١: ٢٤.
٣ ـ مقدّمتان في علوم القرآن: ٢٨٩.

سورة المدّثّر، فإنّها أوّل ما نزل بعد فترة الوحي و في آخرها ذكر الجنّة و النّار، فلعلّ آخرها نزل قبل نزول بقية (اِقْرَأ)، و بهذا يزول هذا الإشكال.

آخر ما نزل من القرآن

ليس في هذا الموضوع أحاديث مرفوعة إلى النّبيّ ﷺ، و إنّما هي آثار مرويّة عن بعض الصّحابة و التّابعين، استنتجوها ممّا شاهدوه من نزول الوحي و ملابسات الأحوال، وقد يسمع أحدهم مالا يسمعه الآخر، و يرى [أحدهم] مالا يرى الآخر، فمن ثمّ كثر الاختلاف بين السّلف والعلماء في آخر ما نزل، و تعدّدت الأقوال و تشعّبت الآراء، و إليك تفصيل القول في هذا.

القول الأوّل ـ إنّ آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى في آخر سورة البقرة: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾**[1].

والدّليل على ذلك:

١ـ روى النّسائيّ من طريق عِكْرِمة عن ابن عبّاس، قال: آخر ما نزل من القرآن **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾**.

٢ـ وروى ابن مَرْدُوَيْه بسنده عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس، قال: آخر آية نزلت من القرآن: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾**.

٣ـ و أخرج ابن جَرير عن طريق عَطيّة، عن أبي سَعيد، قال: آخر آية نزلت: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾**.

٤ـ و أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جُبَيْر... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]**.

٥ـ و ذكر البَغَويّ في تفسيره عند هذه الآية عن ابن عبّاس رضي‌الله‌عنهما، قال: هذه آخر آية... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبرِسيّ، ثمّ حكى قول الآلوسيّ كم تقدّم عنه، فقال:]**

و هذا الرّأي هو أرجح الآراء و الأقوال، وهو الّذي تركن إليه النّفس بعد النّظر في هذه

---

١ ـ البقرة /٢٨١.

الأحاديث أو الآثار، و ذلك لما يأتي:

أ- لم يحظَّ قول من الأقوال الّتي سنذكرها بجملة من الآثار و أقوال أئمّة التّفسير مثل ما حظّي به هذا القول.

ب - ما تشير إليه هذه الآية في ثناياها من التّذكير باليوم الآخر، والرّجوع إلى الله ليوفّى كلاًّ جزاء عمله، وهو أنسب بالختام.

ج - ما ظفر به هذا القول من تحديد الوقت بين نزولها، و بين وفاة النّبيّ ﷺ، و لم يظفر قول غيره بمثل هذا التّحديد، ولا يضرّ الاختلاف في تحديد المدّة، فالرّوايات حدّدت المدّة بينها قدر مشترك، وهو بيان قرب نزول هذه الآية من وفاة النّبيّ ﷺ.

القول الثّاني - إنّ آخر ما نزل هو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُواالله وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

و يدلّ لذلك ما أخرَجه البُخاريّ عن ابن عبّاس، قال: و آخر آية نزلت آية الرّبا، وأخرج البَيْهَقيّ عن عمر مثله، و المراد بآية الرّبا الآية الّتي ذكر ناها و الحقّ هو الأوّل.

ويجاب عن هذا القول: إمّا بأنّها آخر آية نزلت في شأن الرّبا، و إمّا بأنّ المراد أنّها من أواخر الآيات نزولاً.

و يؤيّد هذا الجواب الأخير، و أنّها ليست آخر آية على الإطلاق، ما رواه الإمام أحمد و ابن ماجَه عن عمر نفسه، قال: من آخر ما نزل آية الرّبا، وماذكره ابن مَرْدُويه عن أبي سعيد الخُدريّ، قال: خطبنا عمر، فقال: إنّ من آخر القرآن نزولاً آية الرّبا. والظّاهر أنّ هذا هو مراد ابن عبّاس أيضًا في روايته، و هذا التّعبير له نظائر في اللّغة العربيّة.

و يرى بعض العلماء[2] أنّ المراد بقول ابن عبّاس «آية الرّبا» أي الآية الّتي ختمت بها آيات الرّبا، وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ و هكذا تكون رواية البُخاريّ مؤيّدة لما ذكرناه عن ابن عبّاس في القول الأوّل.

القول الثّالث - إنّ آخر آية نزلت آيةالدَّين، و هي قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِذَا

---

١ - البقرة/٢٧٨.

٢ - شرح المختار من تيسير الوصول: ٥٢.

تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ اِلٰى اَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ...﴾ الآية[1]، و هي أطول آية في القرآن أخرج أبو عُبَيْد في كتاب «فضائل القرآن» عن ابن شِهاب الزُّهْريّ، قال: آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الرّبا، و آية الدّين. و أخرج ابن جَرير من طريق ابن شِهاب عن سعيد بن المُسَيَّب أنه بلغه أنّ آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الدَّين، مرسل صحيح الإسناد.

و يجاب عن هذا القول: بأنّ هذه الآية آخر ما نزل في باب «المعاملات»، فهي آخريّة مقيّدة، لا مطلقة كالآية الأُولى... **[ثمّ ذكر جمع السّيوطيّ بين هذه الأقوال، كما تقدّم عنه، فقال:]** و مقتضى هذا الجمع من الإمام السّيوطيّ: أنّ آية الدَّين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق.

و لكنّي أقول: إنّ في النّفس من هذا التّوفيق شيئًا، و ماذكره غير مسلّم له، فقد سمعت آنفًا قول الفاروق عمر في أنّ آية الرِّبا من أواخر الآيات لا آخرها و استدلال السّيوطيّ بأنّ الآيات الثّلاث في قصّة واحدة غير مسلّم، فالآية الأُولى في ترك ما بقى من الرّبا عند المدينين بعد نزول آية التّحريم، و الثّانية في التّذكير باليوم الآخر و ما فيه من جزاء، و الثّالثة في أحكام تتعلّق بالدَّين، فكيف يقال إذاً: إنّها في قصّة واحدة؟.

و ممّا يضعّف هذا الطّريق في الجمع أيضًا أنّ آية الرّبا نزلت[2] لمّا أسلمت ثقيف، وأرادوا أن يستمرّوا على رباهم، فاشتكى بنو المغيرة ـ و كانوا مدينين لهم ـ إلى عامل رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية آمرة لهم أن يتركوا ما بقي لهم من رباهم قبل التّحريم، و إلاّ فليأذنوا بحرب من الله و رسوله، و ثقيف إنّما كان إسلامهم، في رمضان في السّنة التّاسعة، و الظّاهر أنّ هذه القصّه كانت بعد إسلامهم، و أين زمن إسلامهم من زمن اختتام القرآن قُبيل وفاة الرّسول؟ **[ثمّ ذكر طريق الجمع بين القول بآية الرّبا و آية (واتَّقُوا يَوْمًا...) عن ابن حَجَر، كما تقدّم عنه، فقال:]**

و بعد هذا التّحقيق يتبيّن لنا أنّ الصّحيح أنّ آخر ما نزل على الإطلاق هي آية **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾** لما حفّ بها من دلائل و قرائن.

---

١ ـ البقرة /٢٨٢.

٢ ـ أسباب النّزول للسّيوطيّ على هامش تفسير الجلالين ١:٦٩.

القول الرّابع ـ إنّ آخر ما نزل هو قوله تعالى: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ...**﴾[١].

و يدلّ على هذا ماروااه البُخاريّ و مُسلم عن البَراء بن عازِب أنّه آخر سورة نزلت: (بَرَاءَةٌ) و آخر آية نزلت﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ...**﴾.

و يجاب عن هذا: بأنّ سورة براءة آخر ما نزل في شأن القتال و الجهاد، أو أنّ في الكلام تقديرًا، أي من أواخر السّور نزولاً سورة براءة، و أنّ آية الكلالة آخر ما نزل في شأن المواريث، وقد سمعت آنفًا قول الحافظ ابن حَجَر في هذا.

القول الخامس ـ إنّ آخر مانزل قوله تعالى: ﴿**وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ اَعَدَّلَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[٢].

واستدلّ صاحب هذا القول بما رواه البخاريّ و غيره عن ابن عبّاس، قال: نزلت هذه الآية:﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ هي آخرمانزل، ومانسخها شيء[٣].

و يجاب عن هذا القول: بأنّها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمدًا، فهي آخريّة مقيّدة، و يؤيّد هذا قوله في الحديث: و ما نسخها شيء، فهو يدلّ على نزول شيء بعدها، ولكن ليس بناسخ لها، وقوله في حديث النّضر عند مسلم عن ابن عبّاس، قال: إنّها لمن آخر ما أُنزلت[٤]، و في الحديث الّذي رواه الإمام أحمد النّسائيّ عنه: لقد نزلت في آخر مانزل، مانسخها شيء.[٥]

القول السّادس ـ إنّ آخر ما نزل قوله تعالى في خاتمة سورة براءة: ﴿**لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...**﴾.[٦]

والدّليل على ذلك مارواه الحاكم في «المستدرك» عن أُبيّ بن كعب، قال: آخر آية نزلت: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ...**﴾ إلى آخر السّورة.

وروى ابن مَرْدُوَيْه عن أُبيّ أيضًا، قال: آخر القُرآن عهدًا بالله هاتان الآيتان: ﴿**لَقَدْ**

---

١ ـ النّساء /١٧٦، والمراد بالكلالة من لا ولدله أولم يرثه والدٌ و ولاولد.
٢ ـ النّساء /٩٣.
٣ ـ صحيح البخاريّ (كتاب التّفسير).
٤ ـ صحيح مسلم بشرح النّوَوِيّ ١٨: ١٥٨.
٥ ـ الاتقان ١: ٢٨.
٦ ـ التّوبة /١٢٨.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية.[1]

ويجاب عنه:بأنّهما آخر مانزل من سورة براءة، أو أنّه أخبر بذلك بحسب ظنّه واجتهاده.

القول السّابع ـ إنّ آخر مانزل سورة المائدة، واستند صاحب هذا القول إلى مارواه التّرْمِذيّ و الحاكم عن عائشة، قالت: آخر سورة نزلت المائدة، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، و ما وجدتم من حرام فحرّموه.

و يجاب عن هذا القول: بأنّها آخر سورة نزلت في الحلال و الحرام، و لم ينسخ فيها شيءٌ، و يشير إلى هذا آخر الحديث.

القول الثّامن ـ إنّ آخر سورة نزلت هي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ...﴾ روى هذا مُسلم في صحيحه عن ابن عبّاس، ورواه النّسائيّ أيضًا عنه و يجاب عن هذا القول بأنّها آخر سورة نزلت بتمامها في حجّة الوداع فلا ينافي نزول آية أو آيات بعدها.

أو أنّها آخر ما نزل مشعرًا بوفاة النّبيّ صلوات الله و سلامه عليه، و يؤيّد هذا ماروواه البُخاريّ عن ابن عبّاس حين سأله عمر بمحضر من الصّحابة عنها، فقال: أجل، أو مثل ضرب لمحمّدﷺ نعيت إليه نفسه[2] وفي رواية أُخرى للبخاريّ عن ابن عبّاس هو أجل رسول الله ﷺأعلمه إيّاه[3]. فقال عمر: ما أعلم منها إلاّ ما تقول.

وروى أبو يعلى عن ابن عمر: أنّ هذه السّورة نزلت في حجّة الوداع، في أوسط أيّام التّشريق، فعرف رسول اللهﷺ أنّه الوداع. هذا وقد أوصل السُّيوطيّ في «الإتقان» الأقوال إلى عشر.

و قد عرفت أنّ القول الأوّل هو الصّحيح الرّاجح، و عرفت الإجابة عمّا ورد مخالفًا له، و أنّ المراد أواخر مقيّدة لا مطلقة، وهذه الطّريقة في التّوفيق بين النّصوص المتعارضة في هذا الباب هي أعدل الطّرق، و هو المنهج الّذي سلكه المحقّقون من العلماء... [ثمّ حكى

---

١ ـ التّوبة /١٢٨.

٢ ـ بضم النّون و كسر العين و فتح الياء و سكون التّاء مبنيًّا للمجهول، من كلام ابن عبّاس، و قد وهم بعض الرُّواة فزعم أنّ النّبيّ قال لجبريل لمّا نزل بها عليه «نُعِيَت إليّ نفسي (بفتح النّون و العين و سكون الياء و فتح التّاء خطابًا لجبريل) فتح الباريّ ٨:٥٩٨.

٣ ـ صحيح البخاريّ ـ كتاب التّفسير ـ سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحِ).

قول البَاقِلاّني، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]

و يحتمل أيضًا: أنّ تنزّل هذه الآية الّتي هي آخر آية تلاها الرّسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظنّ أنّها آخر ما نزل في التّرتيب.

و مردّ هذا التّوفيق بين الأقوال إلى غلبة الظّنّ و الاجتهاد من القائل بناء على ما سمعه أو شاهده من قرائن، و قد لا يوافق الظّنّ و الاجتهاد و الواقع و نفس الأمر، و قد تركنا صاحب هذا الرّأي بين جملة من الاحتمالات من غير أن يقطع برأي.

و يقرب من هذا الرّأي في التّوفيق ما ذهب إليه البَيْهقيّ أيضًا؛ حيث قال: يجمع بين هذه الاختلافات ـ إن صحّت ـ بأنّ كلّ واحد أجاب بما عنده.

التّنبيه إلى خطأ مشهور

من الأخطاء المشهورة على ألسنة العامّة و بعض الخاصّة[1] ما يزعمونه من أنّ قوله تعالى: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِى وَرَضيتُ لَكُمُ الاِسْلاَمَ دِينًا﴾[2] هي آخر ما نزل من القرآن، فإنّها تدلّ على إكمال الدّين في ذلك اليوم المشهود الّذي نزلت فيه، وهو يوم عرفة في حجّة الوداع، و كان يوم جمعة، ففهموا منه أنّ إكمال الدّين لا يكون إلاّ بإكمال نزول القرآن الكريم.

والحقّ أنّ هذا الزّعم غير صحيح، و لم يقل أحد قطّ من العلماء: إنّها آخر ما نزل من القرآن، و الإمام السّيوطيّ، وهو الباقعة الّذي لا يخفي عليه قول، سرد الأقوال في آخر ما نزل، و لم ينقل عن أحد مثل هذا القول، بل نبّه على خطئه و زيفه[3].

و قد رأيت في الآثار السّابقة الّتي ذكرناها آنفًا أنّ آية الرّبا و آية الكلالة من أواخر القرآن نزولاً، بل آية ﴿وَتَّقُوا يَوْمًا...﴾ نزلت بعد: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ بأكثر من شهرين، فقد حدّدت رواية ابن أبي حاتم أنّ نزولها كان قبل وفاة النّبيّ ﷺ بتسع ليال، ممّا يجعلنا نقطع بأنّ: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينِكُمْ...﴾ ليس آخر القرآن نزولاً، و أنّ هذا

---

١ ـ وقع في هذا الخطأ بعض المؤلّفين في تاريخ التّشريع الإسلاميّ كالأُستاذ الشّيخ الخِضريّ رحمه الله، و تابعه بعض المؤلّفين في كليّات الشّريعة والحقوق.

٢ ـ المائدة /٣.

٣ ـ الإتقان ١:٢٦ـ٢٨.

الزّعم لانصيب له من الصّحّة.

بم يفسّر الإكمال في الآية؟

و قد يقول لي قائل: و إذا كان الأمر كما ذكرت، فبم تفسّر إذاً إكمال الدّين و إتمام النّعمة؟ و الجواب: أنّ للعلماء المفسّرين في فهم الآية رأيين؛

الأوّل ـ أنّ المراد بإكمال الدّين يومئذ هو إنجاحه و إقراره و إظهاره على الدّين كلّه، و لو كره الكافرون بفتح مكّة، و إتمام حجّهم الأكبر.

و لا شكّ أنّ الإسلام في حجّة الوداع كان قد ظهرت شوكته، و علت كلمته، و أذلّ الشّرك و أهله، وأجلى المشركون عن البلد الحرام، و انفرد المسلمون بالحجّ و الطّواف بالبيت، لم يشاركهم فيهما مشرك، فأيّ كمال بعد هذا؟ و أيّ نعمته بعد تلك النّعمة؟ و إلى هذا الرّأي ذهب العلاّمة ابن جَرير الطَّبَريّ في تفسيره؛ حيث قال... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ ثمّ قال:]**

و هذا الرّأي في تفسير الآية لا ينفي نزول آيات بعدها في الحلال و الحرام والوعظ والتّذكير.

الثّاني ـ أنّ المراد بإكمال الدّين إكمال الأحكام و الحلال و الحرام، فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض و التّحليل و التّحريم، روي هذا عن السُّدّيّ و جماعة.

وعلى هذا الرّأي فلا مانع من نزول آيات بعدها ليست منشئة لأحكام جديدة، بل مقرّرة لما سبق من الأحكام كآية الرّبا **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰوا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[1].

وذلك عند من يرى أنّها آخر آية نزلت من القرآن[2] فإنّها ليست منشئة لتحريم الرّبا؛ إذ التّحريم مستفاد قبل ذلك من آية آل عمران: **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاَ تَاْكُلُوا الرِّبٰوا اَضْعَافًا مُضَاعَفَةً واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[3] و آية البقرة الّتي هي قبل: **﴿اَلَّذِينَ يَاْكُلُونَ الرِّبٰوا**

١ ـ البقرة /٢٧٨.

٢ ـ أمّا عند المحقّقين فليست آخر آية كما قدّمنا.

٣ ـ آل عمران /١٣٠.

لاَيَقُومُونَ اِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ قَالُوا اِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰوا وَاَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبٰوا﴾ [١] و إنّما جاءت هذه مقرّرة و مؤكّدة للحرمة.

و كآيات التّذكير بالآخرة و الوعظ و التّرغيب و التّرهيب، و ذلك مثل قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ...﴾ فإنّها للتّذكير باليوم الآخر و التّرغيب و التّرهيب.

و من ثمّ يتبيّن لنا أنّ الآية كيفما فهمناها و حملناها لا تدلّ على أنّها آخر القرآن نزولاً، و هو ما قاله ثقات المفسّرين، و أجمع عليه علماء علوم القرآن.

أمثلة لأوائل و أواخر مقيّدة

هذا الّذي قدّمناه في البحثين السّابقين إنّما أُريد به الأوائل و الأواخر المطلقة، و إن كان التّحقيق العلميّ دعانا إلى تنزيل بعضها على أنّها أوائل و أواخر مقيّدة. و كما بحث العلماء في النّوع الأوّل، بحثوا في الأوائل و الأواخر المقيّدة بمحرّم خاصّ أو بموضوع خاصّ، و قد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة منها.

١ـ فمن ذلك الآيات الّتي نزلت في الخمر؛ فأوّل آية نزلت فيها هي قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا اِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ اِثْمُهُمَا اَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [٢].

و آخر ما نزل في التّحريم قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَ الْاَنْصَابُ وَالْاَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ـ إلى قوله تعالى ـ فَهَلْ اَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [٣]. فحرّمت الخمر تحريمًا باتًّا، و أراق النّاس ما عندهم حتّى سالت طرق المدينة.

٢ـ الجهاد: قيل أوّل مانزل فيه قوله تعالى: ﴿اُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ...﴾ [٤] روى هذا الحاكم في «المستدرك» عن ابن عبّاس.

و أخرج ابن جَرير عن أبي العالية، قال: أوّل مانزل في القتال بالمدينة: ﴿وَ قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ لاَ تَعْتَدُوا اِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٥].

و قيل: إنّ أوّل مانزل في القتال قوله تعالى: ﴿اِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اَنْفُسَهُمْ

---

١ ـ البقرة /٢٧٥.
٢ ـ البقرة /٢١٩.
٣ ـ المائدة /٩٠، ٩١.
٤ ـ الحج /٣٩، ٤١.
٥ ـ البقرة /١٩٠.

وَاَمْوَالَهُمْ بِاَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ـ إلى قوله ـ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾[١].

و الّذي تركن إليه النّفس هوالأوّل، إذ فيه التّصريح بمبرّرات الجهاد و بيان حكمته في الإسلام، و أنّ الغرض منه ردّ الظّلم الواقع عليهم من المشركين و دفعه، و تأمين العقيدة حقّ تجد سبيلها إلى القلوب، و تأمين أهلها و معتنقيها، و تأمين الدّعوة إلى الله حتّى لايطغى الباطل على الحقّ، و الكفر على الإيمان، و الشّرّ على الخير، و ذكر المبرّرات والحكم هو الأليق ببدء التّشريع.

أمّا الآية الثّانية فقد ذكر أنّها نزلت عام عمرة القضاء[٢]، لمّا خاف المسلمون أن يباغتهم المشركون، فأنزل الله الآية مبيّنة لهم حلّ الدّفاع عن النّفس، و القتال في هذا الوطن، و تشريع الجهاد كان في السّنة الثّانية، و بينهما بضع سنوات.

و أمّا الآية الثّالثة فيبعد كونها أوّل آية؛ لأنّ سورة براءة من أواخر القرآن نزولاً كما رواه البخاريّ عن البَراء بن عازِب، و هي إلى التّرغيب في الجهاد أقرب منها إلى بدء التّشريع، و آخر آية نزلت في شأن الجهاد قوله تعالى: **﴿وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا اَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾**[٣]...

[ثمّ ذكر أوّل مانزل في القتل و الأطعمة (رقم ٣ و ٤) كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:].

٥ـ روي عن مجاهد أنّه قال: أوّل ما نزل من سورة التّوبة: قوله تعالى: **﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ اِذْ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْـئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾** الآيات.[٤]

وعن مَسروق، عن أبي الضُّحى: إنّ أوّل ما نزل من براءة: **﴿اِنْفِروا خِفَافًا وَ ثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِاَمْوَالِكُم وَ اَنْفُسِكُمْ...﴾**[٥] الآية، ثمّ أنزل الله أوّلها ـ أي السّورة[٦] ـ ثمّ أنزل آخرها.

و الآيات الأُولى نزلت بعد حُنَين، و أمّا الآية الثّانية فالظّاهر أنّها نزلت في تبوك

---

١ ـ التّوبة /١١١.

٢ ـ أسباب النّزول للسّيوطيّ على هامش الجلالين ١:٤٥ ط: الحلبيّ.

٣ ـ التّوبة /٣٦.　　٤ ـ التّوبة /٢٥.

٥ ـ التّوبة /٤١.

٦ ـ و ذلك في السّنة التّاسعة، فقد أرسل بصدرها عليًّا كرّم الله وجهه ليقرأها على النّاس.

وحُنين متقدّمة على تبوك، فالرّاجح هو الأوّل.

و آخر ما نزل من التّوبة هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [1] الآيتان، وقد ورد أنّهما آخر مانزل من القرآن، و أوّلنا ذلك بأنّها آخر ما نزل من (بَراءَةٌ).

٦ـ أوّل سورة نزلت بمكّة: ﴿اِقْرَأْ بِاِسْمِ رَبِّكَ﴾، أي صدرها إلى ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ و آخر سورة نزلت بها المؤمنون، و يقال: العنكبوت.

و أوّل سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة، و قد ذكر الحافظ ابن حَجَر في الفتح الاتّفاق على ذلك، لكن في دعوى الاتّفاق نظر، فقد نقل الواحِديّ عن عليّ بن الحسين: أنّ أوّل سورة نزلت بالمدينة: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. و آخر سورة نزلت: بَرَاءَةٌ.

و قيل: سورة المائدة، و قيل: سورة النّصر. أقول: و الظّاهر أنّ آخر سورة نزلت بالمدينة بتمامها هي سورة: ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَ الْفَتْحُ...﴾، فقد روي أنّها نزلت في حجّة الوداع في أوسط أيّام التّشريق على النّبيّ ﷺ، أمّا (بَرَاءَةٌ) و المائدة فهما من أواخر السّور نزولاً. (ص:١٠٩ـ١٣١)

١ ـ التّوبة /١٢٨.

الفصل الحادي و الأربعون

نصّ الدّكتور حُجَّتي (معاصرٌ) في مختصر «تاريخ القرآن الكريم)

أوّل ما نزل من القرآن

اختلف المفسّرون و المحقّقون و كذا المحدّثون في أوّل ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ، و ينقل السّيوطيّ في ذلك أربعة أقول:... [و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

والقول الأوّل أقرب إلى الحقيقة؛ لأنّ المدّثّر نزلت بعد العلق، و بعد فترة انقطاع الوحي عن النّبيّ ﷺ و يمكن اعتبارها أوّل سورة نزلت بعد تلك الفترة، و هذا الرّأي موضع اتّفاق أكثر العلماء[1].

وروي عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام ما يؤيّد أنّ العلق أوّل ما نزل من القرآن، و سورة الفتح آخر ما نزل منه[2].

أمّا سورة الحمد فقد تجلّت في قلب الرّسول بصورة رُؤيا صادقة لا بصورة الوحي، و هذه الرُّؤيا ترتبط بزمن سابق على البعثة و نزول الوحي[3] هذه السّورة ـ إذن ـ ليست أوّل مانزل على النّبيّ ﷺ بالمعنى الاصطلاحيّ لنزول القرآن.

أمّا بالنّسبة للبَسْمَلَة فهي آية تتصدّر كلّ السّور عَدا سورة التّوبه، و لذلك لا تتنافىٰ أوّليّتها مع أوّليّة سورة العلق.

---

١ ـ راجع الإتقان ١: ٣٩ـ٤٢، الفهرست لا بن النّديم: ٣٧، مجمع البيان ١٠: ٥١٤، جلاء الأذهان ١٠:٤٠٣، جامع البيان ٢٩: ١٤٤، التّبيان للشّيخ الطّوسيّ ١٠: ٣٧٨، مقدّمتان: ٨.

٢ ـ سفينة البحار ٢:٤١٣.

٣ ـ دارالسّلام: ٣٠٩، بشأن حقيقة الرُّؤيا الصّادقة و الكاذبة.

آخر ما نزل من القرآن

نستعرض هنا آراء العلماء و المحدّثين بشأن آخر مانزل من القرآن. **[ثمّ ذكر آيات مختلفة حول هذا القول، و قد تقدّم ترتيبها عن السُّيوطيّ، فقال:]**

هذه هي الآيات الّتي يدور البحث عنها حول آخر ما نزل من القرآن، و العلماء تجاهها بين معترض و مؤيّد[1] غير أنّنا لا نرى بين هذه البحوث ذكرًا للآية: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى...﴾[2]. مع أنّ هذه الآية نزلت في عرفة عام حجّة الوداع، ويبدو من ظاهر الآية أنّ جميع الفرائض و الأحكام كانت قد بلغت مرحلة الكمال قبل نزول هذه الآية، من هنا يمكن أن نعتبر هذه الآية ـ على الظّاهر ـ آخر ما نزل من القرآن.

و من أجْل الجمع بين ظاهر هذه الآية ـ الدّال على أنّها آخر ما نزل على النّبيّ ﷺ من القرآن، و بين ما قيل بشأن آية الرّبا و آية الكلالة و غيرها من أنّها آخر مانزل من القرآن ـ ذكر المحقّقون أقوالاً مختلفة:

أوّلاً ـ هذه الآية تؤكّد إكمال الفرائض والحدود و الحلال و الحرام، لذلك لم تنزل بعد هذه الآية آية ناسخ تزيد شيئًا في الأحكام النّازلة أو تنقص منها شيئًا. و يؤيّد ذلك ما قاله ابن عَبّاس و السُّدّيّ و الجُبّائيّ من أنّه لم ينزل على النّبيّ ﷺ شيء من الفرائض في تحليل و لا تحريم بعد هذه الآية[3] و لذايمكن اعتبارها إيذانًا بانتهاء النّسخ في القرآن، وهذا لايتنافي مع نزول آيات أُخرى بعدها.

ثانيًا ـ إنّ معنى: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ اليوم أكملت لكم حجّكم و أفردتكم بالبلد الحرام تحجّونه دون المشركين، ولا يخالطكم مشرك[4].

ثالثًا ـ المقصود من إكمال الدّين انتصار المسلمين على المشركين[5]

رابعًا ـ معنى إكمال الدّين إعلام خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وروي عن طريق أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الآية نزلت بعد واقعة غدير خم، حيث أعلن

---

١ ـ راجع ١: ٤٤ـ٤٧.
٢ ـ المائدة /٣.
٣ ـ مجمع البيان ٦: ٢٥.
٤ ـ الإتقان ١: ٤٧، ٤٨.
٥ ـ مجمع البيان ٦: ٢٥ـ٢٦.

رسول‌الله‌ﷺ لدى عـودته مـن حـجّة الوداع ولايـة أمـيرالمـؤمنين‌عليه السلام، ثـمّ لم يـنزل بعدها فريضةً[١].

الرّأي المختار: و الّذي نختاره من بين هذه الآراء بشأن آخر ما نزل من القرآن مـا رواه الطَّبْرِسيّ؛ إذ قال في سبب نزول الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾...[٢] [و ذكر كما تقدّم‌عنه]. (ص:٢٨ـ٣٢)

١ ـ لمزيد من التّفصيل راجع المصدر نفسه.

٢ ـ البقرة /٢٨١.

الفصل الثّاني و الأربعون

نصّ جَمال الدّين عَيّاد (معاصرٌ) في «بحوث في تفسير القرآن»

(سورة العلق)

القول بأنّ البَسْمَلة أوّل ما نزل

يرى البعض أنّ البَسْمَلَة أوّل ما نزل، فلقد أخرج الواحِديّ بإسناده عن عِكرِمة والحسن قالا... [و ذكر كما تقدّم عن الواحِديّ، الرّقم ١ ثمّ قال:].

والرّاجح أنّ من قالوا بهذا قد تأثّروا بوجود البَسْمَلَة في مطلع العلق و سائر السّور ما عدا (بَرَاءَةٌ)، فظنّوا أنّ مطالع العلق نزلت مسبوقة بالبَسْمَلَة، و أنّ البَسْمَلَة بذلك أوّل آيات القرآن نزولاً.

و الثّابت ـ كما قدّمنا ـ أنّ الوحي حين نزل بمطالع العلق لم يقل لرسول الله: استعذ ثمّ قل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و إنّما قال له: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ دون أن يسبقها باستعاذة أو بَسْمَلة.

أضف إلى ذلك أنّ الآيات لم ترتّب في السّور بترتيب نزولها، فقد تجد آية متأخّرة النّزول سابقة لآية متقدّمة النّزول، أو تجد آية متقدّمه النّزول لا حقة لآية متأخّرة النّزول.

و من الجائز أنّ البَسْمَلَة نزلت متأخّرة[١]، ثمّ أمرﷺ بوضعها في مطلع العلق و سائر السّور ما عدا (بَرَاءَةٌ)، شأنه مع ما ينزل من الآيات؛ إذ يقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السّورة الّتي يذكر فيها كذا و كذا، و هذا هو الرّأي الّذي نرتضيه.

---

١ ـ صحيح مُسْلم بشرح النَّوَوِيّ ٢: ٢٠٠.

القول بأنّ مطالع المدّثّر أوّل ما نزل

و يرى البعض أنّ مطالع المدّثر أوّل مانزل، و لعلّهم يستندون في ذلك إلى فهم خطأ لجابر بن عبد الله؛ إذ سأله أبو سَلَمَة بن عبد الرّحمان فيما يرويه الشَّيخان: أيّ القرآن أُنزل قبل؟ قال... **[وذكر كما تقدّم عن القُرْطُبيّ ثمّ قال:]**

و واضح أنّ جابر بن عبدالله قد أخطأ في استنباطه من الحديث أن تكون مطالع المدّثّر أوّل ما نزل، فتعبير الرّسولﷺ عن الملك بضمير الغائب «فإذا هو» دليل على أنّ الملك قد سبق نزوله، و سبقت معرفة الرّسول له.

أضف إلى ذلك ما جاء في الصّحيحين عن نزول المدّثّر... **[و ذكر كما تقدّم عن ابن كثير، ثمّ قال:]**

و واضح من هذا الرّواية أنّ مطالع المدّثّر نزلت بعد فترة الوحي، أي بعد نزول مطالع العلق بفترة لا تقلّ عن أشهر ستّة، وواضح كذلك أنّ الرّسولﷺ حين تحدّث عن الملك أشار إلى سبق نزوله بقوله: «فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء...».

و هذا ـ فيما نرى ـ كافٍ لإثبات خطأ ما ذهب إليه جابر بن عبدالله، و لا وجه بعد ذلك لأن نلتمس له الأعذار كما فعل البعض فنقول: إنّه تحدّث عن أوّل ما نزل بسبب متقدّم، أو عن أوّل مانزل بعد فترة الوحي، أو عن أوّل سورة نزلت كامله، أو عن أوّل ما نزل خاصًّا بالرّسالة.

فليس ثمّة ما يفيد أنّ جابر بن عبدالله سئل عن شيءٍ من ذلك، إنّما سئل: أيّ القرآن أُنزل قبل؟ فهو سؤال عن أوّل مانزل على الإطلاق، و لا يحتمل التّأويل إلى واحد من الوجوه الّتي حاول بها البعض تبرير خطأ جابر.

القول بأنّ الفاتحة أوّل ما نزل

و يرى البعض أنّ الفاتحة أوّل ما نزل، و حجّتهم في ذلك؛

أوّلاً ـ ما أخرجه البَيْهَقيّ في «الدّلائل» و الواحِديّ من طريق يُونس بن بُكَيْر عن يُونُس بن عمرو، عن أبيه، عن أبي مَيْسِرة عمرو بن شُرَحْبيل... **[و ذكر كما تقدّم عن أبي**

الفُتوح و القُرطبيّ].

ثانيًا ـ أنّ السّنّة الإلهيّة في هذا الكون أن يظهر سبحانه الشّيء مـجملاً ثـمّ يـتبعه بالتّفصيل، و الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، و كلّ ما فيه تفصيل للأُصول الّتي وضعت فيها[١]، و هذا ما يراه محمّد عَبْدُه.

أمّا الحديث الّذي أخرجه البَيْهَقيّ و الواحِديّ فمر دود لسببين؛

١ـ إنّه مرسل[٢] سقط الصّحابيّ من سفك، والمرسل عند جمهور المحدّثين نازل عن مرتبه الصّحيح، ولا يحتجّ به.

٢ـ إنّه يتعارض مع الحديث الصّحيح المتّصل السّند الّذي أفاد بأسبقيّة نزول مطالع العلق فمطالع المدّثّر، و الّذي سجّلناه في آخر الفصل الأوّل نقلاً عن صحيح البُخاريّ ومُسلِم.

أمّا القول بأنّ السّنة الإلهيّة أن يسبق التّفصيل إجمال، و أنّ الفاتحة إجمال فـصّله القرآن، هذا القول لايستلزم مطلقًا أن تكون الفاتحة أوّل ما نزل. فمن الممكن أن نقول كما قال السّيد رشيد رضا: إنّ نزول مطالع العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه السّنّة الإلهيّة؛ لأنّه تمهيد للوحي المجمل و المفصّل على السّواء.

أضف إلى ذلك أنّ محمّد عبده قد أغفل تمامًا ما هو ثابت في الحديث الصّحيح من أسبقيّة نزول مطالع العلق، و لم يضعه موضع الاعتبار عند ما أدلى بحجّته، ممّا يفقد هذه الحجّة قيمتها.

ثمّ إنّ الفاتحة بعيدة عن المناسبة و عن خصائص السّور الأُولى من القرآن، فليس فيها ما في هذه السّور من تقرير لبعثتهﷺ، أو بيان لمهمّته، أو إعداد لوظيفته، أو إشارة إلى تتابع الوحي عليه بالقرآن، كما هو الشّأن في مطالع العلق و مطالع المدّثّر و مطالع المزّمّل، و هي أوّل ما نزل من القرآن بالتّرتيب المذكور.

والفاتحة ـ في رأينا ـ أنسب لمواقف العبادة منها للموقف الّذي يبعث فيه الّتي تمهيدًا للرّسالة، فهي ثناء على الله تعالى، و إقرار بعبادته، و دعاء بالهدايته إلى الصّراط المستقيم. يقول تعالى في الحديث القُدْسيّ: «قسّمت الصّلاة بيني و بين عبدي نصفين، و لعبدي ما

---

١ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ١: ٣٥.

٢ ـ الإتقان ١: ٢٤

سأل، فإذا قال العبد: ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: «حمدني عبدي»، فإذا قال: ﴿اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمُ﴾، قال الله: «أثنىٰ عليّ عبدي»، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: «مجّدني عبدي»، و إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ اِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني و بين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:﴿اِهْدِنَاالصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ...﴾ الخ، قال: «هذا لعبدي و لعبدي ما سأل»

وواضح من الحديث أنّ الآيات الأُولى من الفاتحة ثناءٌ على الله تعالى؛ إذ يقول تعالى لمن يتلوها في صلاته: «حمدني عبدي، أثنى عليّ عبدي، و مجّدني عبدي على التّوالي، والآيات التّالية إقرار بالعبادة و دعاء لله تعالى.

وكون الفاتحة هكذا ثناء و إقرارًا بالعبادة و دعاء، يجعلها أنسب لموقف المتعبّد الّذي يثني على الله شاكرًا فضله الأعظم. وهذا ما جعلت الفاتحة له، فقد جعلت قراءتها في كلّ صلاة ضرورة لا تصحّ الصّلاة إلاّ بها؛ إذ يقول عليه السلام: من صلّى صلاة لم يقرأ بفاتحة الكتاب فهي خِداج[١]». أي ناقصة. و يقول: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[٢]. و في الحديث القُدسيّ الّذي أشرنا إليه آنفًا ما يشير إلى أنّ الفاتحة لُبّ الصّلاة، فهو تعالى يقول: «قسّمت الصّلاة بيني و بين عبدي نصفين»، ثمّ يتحدّث عن فاتحة الكتاب.

و هذا الارتباط الوثيق بين الفاتحة و مواقف العبادة يجعل من اللّائق عندنا أن تنزل الفاتحة في وقت متأخّر نسبيًّا، فمن المناسب أن تنزل الفاتحة و أمثالها من آيات الثّناء على الله بعد أن يبدأ النّاس في الإيمان بالدّين الجديد و التّعبّد للرّب سبحانه. أمّا أن تنزل في أوّل الوحي و لم يبدأ النّاس في الإيمان بعد، فضلاً عن أن يتعبّدوا لله سبحانه فذلك بعيد. و أنسب منه أن تنزل الآيات الّتي تجذب النّاس إلى عبادة الرّبّ سبحانه بذكر فضله و نعمه بيانًا لجدارته بالعبادة وحده، كهذه الآيات الأُولى من سورة العلق.

أضف إلى ذلك ما ذكره الدّكتور النّويهيّ[٣] من أنّ صيغه المتكلّم الجمع في قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ اِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤] و في قوله: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٥]، تفيد أنّ

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤.
٢ ـ صحيح البخاريّ ١: ١٥٢.
٣ ـ من محاضراته بالجامعة الأمر يكيّة بالقاهرة في الفصل الدّراسيّ الثّاني سنة ١٩٦٠، أذن بالإشارة إليه.
٤ ـ الفاتحة /٥.
٥ ـ الفاتحة /٦.

الفاتحة نزلت في وقت كان الإسلام فيه قد عرف طريقه إلى قلوب جماعة تقول: نعبد، ونستعين، و اهدنا، بصيغة الجمع، و لم يكن ذلك إلاّ في وقت متأخّر نسبيًّا.

أقوال أُخرى يعوزها الدّليل

و إلى جانب هذه الأقوال بأنّ البَسْمَلة أو المدّثّر أو الفاتحة أوّل ما نزل توجد أقوال أُخرى يعوزها الدّليل، من ذلك قولهم: إنّ قوله تعالى:﴿قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1] هو أوّل مانزل[2] و هو قول يعوزه الدّليل كما أشرنا، إذ لا يرويه صاحبه عن رسول الله ﷺ، ولا يعدو أن يكون ظنًّا لا يقوم على أساس.

مطالع العلق أوّل ما نزل

و هذا هو الرّاجح عندنا من غير شكّ، و حجّتنا في ذلك؛

أوّلاً ـ ما هو ثابت في الحديث الصّحيح الّذي سجّلناه في آخر الفصل الأوّل نقلاً عن صحيح البخاريّ و مُسلم من أنّ أوّل ما نزل مطالع العلق فمطالع المدّثّر.

ثانيًا ـ ما أثبتناه ـ فيما قدّمناه ـ من فساد الحجج الّتي استند إليها القائلون بغير هذا.

ثالثًا ـ إنّ سورة العلق أنسب للموقف و أصلح للمناسبة، فمن المناسب أن تكون أوّل آيات القرآن نزولاً إيذانًا ببعثته ﷺ، و تتابع الوحي عليه بالقرآن. وهذا ما تشير إليه سورة العلق، فقوله:﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ كما سنبيّين بعد إيذان ببعثة ﷺ، و إشارة إلى أنّ الوحي سوف يتابع عليه بما يقرأه باسم ربّه. **(ص ٢٣ ـ ٢٩)**

---

١ ـ الأنعام /١٥١.

٢ ـ راجع الجامع الأحكام القرآن ٢٠: ١١٨.

الفصل الثّالث و الأربعون

نصّ السُّبحانيّ (معاصرٌ) في «مجلّة رسالة القرآن»

[أوّل و آخر مانزل]

أوّل ما نزل على رسول الله صلّى الله عليه و آله ذكر أكثر المفسّرين: أنّ أوّل سورة نزلت على رسول الله هي سورة العلق، و تدلّ عليه روايات أئمّة أهل البيت؛ روى الكُلينيّ عن الصّادق عليه السّلام قال: «أوّل ما نزل على رسول الله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و آخر سورة هو قوله: (اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ والْفَتْحُ)[1] و مثله عن الإمام الرّضا عليه السّلام.

و لعلّ المراد نزول آيات خمس من أوّلها لا جيمع السّورة؛ لأنّ قوله سبحانه في نفس تلك السّورة ﴿اَرَاَيْتَ الَّذِى يَنْهىٰ * عَبْدًا اِذَا صَلّىٰ...﴾[2] إلخ، لا يناسب أن تكون أوّل ما نزل، بل هو حاكٍ عن وجود تشريع للصّلاة، ووجود من يقيمها حتّى واجه نهي بعض المشركين، و هذا لا يتّفق مع كونه أوّل ما نزل.

أساطيرٌ و خُرافاتٌ

دلّت الأدلّة العقليّة والآيات القرآنيّة على أنّ الأنبياء مصونون عن الخطأ و الاشتباه في تلقّي الوحي أوّلاً، و ضبطه ثانيًا، و إبلاغه ثالثًا، و إنّهم لا يشكّون فيما يلقى في روعهم من أنّه نداء ربّ العالمين، و أنّ ما يعاينونه رسول إله العالمين. والكلام كلامه، لا يشكّون في ذلك طرفة عين ولا يتردّدون، بل يتلقّونها بنفس مطمئنّةً.

هذا هو القرآن الكريم يذكر كيفيّة بدء نزول الوحي إلى موسى، و أنّه تلقّاه بلا تردّد

---

١ ـ النّصر /١.

٢ ـ العلق /٩ ـ ١٠.

ولاتريُّث، بذكره في سور مختلفة؛ يقول: ﴿فَلَمَّا اَتيهَا نُودِىَ يَا مُوسىٰ * اِنّى اَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ اِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً * وَ اَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ...﴾[١].

ترى أنّ الكليم عندما فوجئ، بنزول الوحي تلقّاه بصدر رحب، و لم يتردّد في أنّه وحيه سبحانه و أمره، و لذلك سأله سبحانه أن يشرح له صدره، و ييسر له أمره، و يحلّ العقدة الّتي في لسانه، و يجعل له وزيرًا من أهله، يشدّ به أزره، و يشركه في أمره.

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ اَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَهَا و سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسىٰ اِنَّهُ اَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢]و جاءت هذه القصّة في سورة القصص على وفق ما وردت في السّورتين[٣]، و من لاحظ هذه الآيات يقف على أنّ موقف الأنبياء من الوحي هو موقف الإنسان المتيقّن المطمئنّ إليه، و هذه خاصّة تعمّ جميع الأنبياءعليهم السلام نرى أنّه سبحانه يذكر رؤية النّبيّ الأكرم، و مواجهته لمعلّمه الّذي وصفه القرآن بـ (شَدِيدُ الْقُوىٰ)؛ يقول: ﴿اِنْ هُوَ اِلاَّ وَحْىٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ...﴾ [٤]فأيّ كلمة أصرح في توصيف إيمان النّبيّ و إذعانه في مجال الوحي و مواجهته عينه من قوله سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاٰى﴾ أي صدّق القلب عمل العين، و يحتمل أن يكون المراد مارآه الفؤاد.

قال العلاّمة الطّباطبائيّ: فالمراد بالفؤاد فؤاد النّبيّ و ضمير الفاعل في ﴿مَارَاٰى﴾ راجع إلى الفؤاد، و الرُّؤيا رؤيته، و لا بدع في نسبة الرُّؤية ـ و هي مشاهدة العيان ـ إلى الفؤاد، فإنّ للإنسان نوعًا من الإدراك الشّهوديّ وراء الإدراك بإحدى الحواسّ الظّاهرة، والتّخيّل والتّفكّرُ بالقوىٰ الباطنة، كما أنّنا نشاهد من أنفسنا أنّنا نرى، و ليست هذه المشاهدة العيانيّة رؤية بالبصر و لا معلومًا بالفكر، و كذا نرى من أنفسنا أنّنا نسمع و نشمّ و نذوق و نلمس و نشاهد، و أنّنا نتخيّل و نتفكّر، و ليست هذه الرُّؤية ببصر أو بشيءٍ من الحواسّ الظّاهرة أو الباطنة[٥]

١ ـ طه / ١٠ـ٣٥.

٢ ـ النّمل / ٨ـ٩.

٣ ـ القصص /٢٩ـ٣٥.

٤ ـ النّجم /٤ ـ ١٢.

٥ ـ الميزان ١٩: ٣٠.

فالله سبحانه يؤيّد صدق النّبيّ فيما يدّعيه من الوحي و رؤية آيات الله الكبرىٰ سواءً كانت بالعين أو بالفؤاد.

و على كلّ تقدير فهذه الآيات و غيرها تدلّ على أنّ الأنبياء و غيرهم لايشكّون ولايتردّدون فيما يواجهون من الأُمور الغيبيّة.

و على ضوء ذلك تقف على أنّ ما ملأ كتب السّيرة و بعض التّفاسير في مجال بدء الوحي، و أنّه تردّد النّبيّ و شكّ عندما بُشِّر بالنّبوّة و شاهد ملك الوحي، و امتلأ روعًا وخوفًا، إلى حدّ حاول أن يلقي نفسه من شاهق، و عاد إلى البيت فكلّم زوجته فيما واجهه، **و عادت زوجته تسلّيه و تقنعه بأنّه رسول ربّ العالمين، و أنّ ما رآه ليس إلاّ أمرًا حقًّا.**

إذ كلّ ذلك أساطير و خرافات تناقض البراهين العقليّة، و ما يتلقّاه الإنسان من قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، و قد دسَّها الأحبار و الرُّهبان و سمَا سِرة الحديث و القصّاصون في كتب القصص و السّير و الحديث و نحن نكتفي في المقام بما ذكره البُخاريّ في صحيحه و ابن هِشام في سيرته، فإنّ استقصاء كلّ ما ورد حول هذا الموضوع من الرّوايات المدسوسة يدفع بنا إلى تأليف رسالة مفردة و لكن فيما ذكرنا غِنًى و كفايةً؛ قال البُخاريّ بعد ذكر نزول أمين الوحي عليه في جَبَل حِراء فرجع بها رسول‌الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خُوَيْلِد رضي الله عنها فقال: «زمّلوني زمّلوني» فزمّلوه حتّى ذهب عنه الرّوع... **[و ذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ١، فقال:]**

هذا ما لدى البُخاريّ، و أمّا صاحب السّيرة النّبويّة فبعد ما ذكر مسألة الغتّ ينقل عن النّبيّ أنّه قال: «فخرجت حتّى إذا»... **[وذكر كما تقدّم عن ابن كثير، فقال:]**

ثمّ يذكر انطلاق خديجة إلى وَرَقَة بن نَوْفَل، و ما أجابها به وَرَقَة بنفس النّص الّذي ذكره البُخاريّ، ثمّ يذكر لقاء النّبيّ وَرَقَة بن نَوْفَل و هو يطوف بالكعبة، فسأله وَرَقَة بما رأى و سمع، فأخبره النّبيّ ﷺ فقال له وَرَقَة: والّذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأُمّة.

ثمّ عقّبه بذكر ما قامت به خديجة من امتحان صدق نبوّته، فذكر أنّها قالت لرسول الله: أي ابن عم، أتستطيع... **[و ذكر كما تقدّم أيضًا عن الطَّبريّ، الرّقم ٣٥]**.

و قال الطَّبَريّ بعد ما ذكر نزول جبرئيل إليه و تعليم آيات من سورة العلق: «ثمّ

دخلتُ على خديجة و قلتُ: زمّلوميّ زمّلوني حتّى ذهب عنّي الرّوع...». [و ذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ٩]

نظرة تحليليّة حول هذه النُّصوص

إنّ هذه النّصوص التّاريخيّة الّتي نقلها المشايخ كالبُخاريّ و ابن هِشام و الطَّبَريّ، وتلقّاها الآخرون من بعدهم على أنّها حادثة متسالم عليها تضادّ ما يستشفيه الإنسان من التّدبّر في حالات الأنبياء في القرآن الكريم و تناقض البديهة العقليّة، و إليك بيان ما فيها من نقاط الضّعف و علائم الجعل و التّهافت:

١ـ إنّ النّبوّة كما عرفت منصب إلهيّ، لا يفيضه الله إلاّ على من امتلك زخمًا هائلاً من القدَرَات الرّوحيّة، والقُوى النّفسيّة العالية، حتّى يَقوىٰ على معاينة الوحي و مشاهدة الملائكة. فعندئذ فلا معنى لما ذكره البُخاريّ: «لقد خشيت على نفسي» أفيمكن أن ينزل الوحي الإلهيّ على من لا يفرق بين لقاء الملك و لقاء الجنّ و مكالمتهما، حتّى يخشى على نفسه الجنون أو الموت؟.

٢ـ و أسوأ منه ما ذكره الطَّبَريّ من أنّه ﷺ همّ أن يرمي بنفسه من شاهق من جَبل، فندم عليه ورجع عنه حين سمع كلام جبرئيل: يا محمّد أنا جبرئيل.

إنّ هذا الكلام يعرب عن أنّ نفسه ﷺ ـ لم تكن نفسًا مستعدّة لتحمّل الوحي على حدّ، همّ أن يقتل نفسه بالإلقاء من حالق، و على هذا هو إلاّ نفس الجنون الّذي كان المشركون يصفونه به طيلة بعثته، فواعجبًا نسمعه من أعوانه و أنصاره و من لسان زوجته.

٣ـ إنّ قول خديجة لرسول الله ﷺ كلاّ و الله ما يخزيك الله أبدًا. تعرب عن أنّها كانت أوثق إيمانًا بنبوّته من نفس الرّسول، أفهل يمكن التّفوّة بذلك؟ و ما حاجة النّبيّ الأعظم الّذي قال تعالى في حقّه: ﴿و عَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1] إلى هذا التّسلّي؟

و هل يصحّ و يتعقّل للنّبيّ أن يشكّ في رسالة نفسه حتّى يستفتي زوجته، فيزول شكّه بتصديقها؟.

---

١ ـ النّساء /١١٣.

٤ـ ذكر البُخاريّ أنّ خديجة انطلقت مع رسول الله إلى وَرَقَة، فأخبره رسول الله بما وقع، فأجاب وَرَقَة بما ذكره، و أنّ ما نزل عليه هو النّاموس الّذي نزّل الله على موسى.

و معنى هذا أن يكون وَرَقَة أعلم بالسّرّ المودع في قلب رسول الله من نفسه، كما أنّ معنى ذلك أنّ كلاًّ من الزّوجين كانا شاكّين في صحّة الرّسالة، فانطلقا إلى متنصّر، و قرأ وُرَيقات من العهدين حتّى يستفتياه؛ ليزيل عنهما حجاب الشّك وغشاوة الرّيب.

٥ـ إنّ معنى ما ذكره البُخاريّ من أنّ وَرَقَة أخبر النّبيّ بأنّه سيخرجك قومك، فتعجّب الرّسول من هذا الكلام و قال: أو مخرجيّ هم؟ كون المرسل إليه أعلم من الرّسول وأفضل منه.

٦ـ إنّ ما ذكره ابن هِشام من أنّ الرّسول كلّما رفع رأسه إلى السّماء لينظر، ما رأى إلاّ رجلاً صافًّا قدميه في أُفق السّماء، فلا ينظر في ناحية من السّماء إلاّ رآه فيها، يشبه كلام المصابين في عقولهم و شعورهم و المختلّين في أفكارهم، فلا يرون في كلّ جهة إلاّ الصّورة المتخيّلة؛ لطغيانها على مخيّلتهم و شعورهم، أعاذنا الله من إكالة الشّنائع بمقام النّبوّة بنحو لا يليق بساحة العاديّين من النّاس، فضلاً عن النّبيّ الأكرم خاتم النّبيّين.

٧ـ انظر إلى امتحان خديجة لبرهان النّبوّة، فإنّ ظاهر أنّها كانت شاكّة في نبوّة زوجها، لكنّها استحصلت اليقين على الوجه الّذي سمعته في كلام ابن هِشام و الطّبريّ، ولكن أيّ صلة بين رفع الخِمار و إلقائه و عدم رؤية جبرئيل؟ و هل لرفع الخِمار و تعرية شعر الرّأس تأثير في غياب أمين الوحي عن البيت؟.

نرى أنّه سبحانه ينقل في غير سورة من سور القرآن الكريم مكالمة الملائكة زوجة الخليل و تبشيرها بالولد أفهل يمكن لنا أن نقول بعد ذلك: إنّ زوجة الخليل لو كانت مكشوفة الرّأس لا متنعت الملائكة من دخول بيت الخليل عليه السلام[1].

٨ـ إنّ وَرَقَة بن نَوْفَل على حدّ تصريح نصّ الرّواية كان بادىء بدئه نصرانيًّا بعد ما كان مشركًا، فمقتضى الحال أن يشبّه الرّسول الأعظم بالمسيح الّذي كان يعتقد بنبوّته لابالكليم. أو ليس هذا يعرب عن لعب يد الأحبار في الخفاء في اصطناع هذه الأحاديث،

١ ـ لا حظ سورة هود /٧١ ـ ٧٣، و الذّاريات /٢٩.

ودورهم في تشويش صفاء رسالة الرّسول الأعظم بأمثال هذه الأساطير و المهاترات والخُرافات؟.

٩ـ نحن على ثقة و يقين بأنّ النّبوّة منصب إلهيّ لا يتحمّله إلاّ الأمثل و الأكمل فالأكمل من النّاس، و لا يقوم بأعباء مهامّها إلاّ من امتلك قدرة روحيّة خاصّة تبعث في نفسه الإذعان و التّسليم و الانقياد حينما يتمثّل له رسول ربّه و أمين و حيه، فلا تأخذه المسكنة، و لا يستولي عليه الخوف عند سماع كلامه و وحيه، و قد درسنا وضع الكليم عندما فوجىء بالوحي، فما حاق به الرّوع، ولا أحاط به الخوف، و لا همّ بإلقاء نفسه، إلى غير ذلك ممّا ورد في هذه الرّوايات، و بما أنّ القرآن هو المرجع الفصل في تمييز الصّحيح من الزّائف في جملة هذه الرّوايات، يحتّم علينا إعراض الصّفح عنها و ضربها عرض الجدار، مضافًا إلى ما فيها من التّناقض و الاختلاف في حكاية القصّة، كما هو معلوم لمن تدبّر فيها و تأمّل نصّها.

فِرية انقطاع الوحي و فتوره

وقفت على ما في الرّوايات السّابقة من الوضع والدّسّ بهدف تشويش صفاء صورة رسالة النّبيّ الأكرم، فهلمّ معي نتناول فِرية أُخرى حُكيت على المنوال السّابق و للغاية نفسها، و هي مسألة انقطاع الوحي بعد نزول آيات من سورة العلق أو سورة المدّثّر أو سورة الحمد، على اختلاف في أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ و قد حازت هذه الفرية على نصيب من الاهتمام و التّقدير في كتب السّيرة و التّفسير، حتّى أنّ الدّكتور حسين هيكل أرسلها إرسال المسلّمات في كتابة بقوله: انتظر هداية الوحي إيّاه في أمره وإنارة سبيله، فإذا الوحي يفتر، و إذا جبرئيل لا ينزل عليه. إلى أن قال: و قد روي أنّ خديجة قالت له: ما أرى ربّك إلاّ قد قلاك، و تولاّه الخوف والوجل، فهما يبعثانه من جديد، يطوي الجبال، و ينقطع في حِراء يرتفع بكلّ نفسه ابتغاء وجه ربّه، سأله: لِم قلاه بعد أن اصطفاه، و لم تكن خديجة بأقلّ منه إشفاقًا و وجلاً، و يتمنّى الموت صادقًا، لولا أنّه كان يشعربما أمر به، فيرجع إلى نفسه ثمّ إلى ربّه، و لقد قيل: إنّه فكّرني أن يلقي بنفسه من أعلى حِراء أو أبي قُبَيْس، و أيّ خير في الحياة، و هذا أكبر عمله فيها يذوي و ينقضي،

و أنّه كذلك تساوره هذه المخاوف؛ إذ نزل جاءه الوحي بعد طول فتوره، إذ نزل عليه بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيْلِ اِذَا سَجىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلىٰ * وَ لَلْاٰخِرَةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الاُولىٰ ـ إلى قوله ـ وَ اَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

هذا ما يذكره رجل مثقّف في القرن العشرين في حقّ النّبيّ الأكرم، فما ظنّك بغيره ممّن سبقه من الّذين يتعبّدون بالرّوايات، و لا يحيدون عن شاذّها و سقيمها قيد أنمُلة وقدر شَعْرة، و أصل هذه الفِرية يرجع إلى كتب السّيرة و التّفسير و إليك ما يذكره واحد من أُولئك من أمثال الطَّبَريّ؛ حيث يصرّح في تفسيره بما نصّه:

١ـ عن ابن زيد أنّ هذه السّورة نزلت على رسول الله تكذيبًا من الله قريشًا في قولهم لرسول الله لمّا أبطأ عليه الوحي: قد ودّع محمّدًاربّه و قلاه.

٢ـ عن ابن عبد الله: لمّا أبطأ جبرئيل على رسول الله فقالت امرأة من أهله أو من قومه: ودّع الشّيطان محمّدًا، فأنزل الله عليه: ﴿وَالضُّحىٰ ـ إلى ـ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلىٰ﴾.

٣ـ عن جُندَب البَجَليّ: أبطأ جبرئيل على النّبيّ، حتّى قال المشركون: ودّع محمّدًا ربّه، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحىٰ...﴾ و عنه، قالت امراة لرسول الله ما أرى صاحبك إلاّ قد أبطأ عنك، فنزلت هذه الآية، و في رواية أُخرى عنه: ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك.

٤ـ عن عبدالله بن شَدّاد أنّ خديجة قالت للنّبيّ: ما أرىٰ ربّك إلاّ قد قَلاك، فأنزل الله ﴿وَالضُّحىٰ...﴾.

٥ـ و عن قَتادة أنّ جبرئيل أبطأ عليه بالوحي، فقال ناس من النّاس: مانرى صاحبك إلاّ قد قلاك فوَدَّعك، فأنزل الله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلىٰ﴾.

٦ـ عن الضَّحّاك: مكث جبرئيل عن محمّد، فقال المشركون: قد ودّعه ربّه.

٧ـ عن ابن عُرْوَة، عن أبيه قال: أبطأ جبرئيل على النّبيّ، فجزع جزعًا شديدًا، و قالت خديجة: أرى ربّك قد قلاك، ممّا نرى من جزعك، قال: فنزلت: ﴿وَالضُّحىٰ﴾.[2]

يلاحظ على هذه الرّوايات و على فرية فترة انقطاع الوحي عدّة أُمور:

١ـ إنّ هذه الرّوايات الّتي ملأت التّفاسير و كتب السّير رويت عن أُناس لا يركن

---

١ ـ حياة محمّد: ١٣٨ ـ (الضّحى /١ ـ ١١)

٢ ـ تفسير الطّبريّ ٣:١٤٨.

إليهم كقَتادة و الضَّحَّاك، فإنّهما كانا يأخذان تفسير القرآن عن أهل الكتاب،[١] و جلّها بل كلّها مرسلة غير مسندة إلى الرّسول صلى الله عليه و آله.

٢ـ إنّها اختلفت في القائل الّذي شمت رسول الله صلى الله عليه و آله بقوله: ودّعك ربّك، فربّما يسند إلى امرأة من أهله أو قومه، و أُخرى إلى المشركين، و ثالثة إلى طائفة من النّاس، و رابعة إلى زوجته خديجة.

إنّ نسبة هذا القول إلى زوجته الطّاهرة الّتي آمنت به يوم بعثته ـ و قد عرفت فضائله و ملكاته النّفسيّة عن كَثَب ـ بعيد جدًّا.

٣ـ إنّها اختلفت في مدّة الفترة؛ قال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يومًا، و قال ابن عبّاس: خمسة عشر يومًا و قيل خمسة و عشرين يومًا، و قال مقاتل: أربعين يومًا[٢]، و في فتح الباريّ: إنّه كان ثلاث سنين[٣]، كما في السّيرة الحلبيّة، و فيها أيضًا: إنّها كانت سنتين و نصفًا، و على قول سنتين، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الّتي تحكي عن اضطراب في الرّواية و النّقل.

٤ـ اختلفت الرّواية في سبب الفترة و انقطاع الوحي؛

فتارةً: زعموا أنّ سببها هو أنّ اليهود سألوا رسول الله عن مسائل ثلاث: عن أصحاب الكهف، و عن الرّوح، و عن قصّة ذي القرنين، فقال عليه الصّلاة و السّلام: سأُخبركم غدًا، و لم يستثن، فاحتبس عنه الوحي، فقال المشركون: ما قالوا، فنزلت[٤].

و أُخرى: قالوا: إنّ عُثمان أُهدي إليه عُنقود عنب، و قيل: عِذْق تَمْر. فجاء سائل فأعطاه، ثمّ اشتراه عُثمان بدرهم، فقدّمه إليه عليه السلام ثانيًا، ثمّ عاد السّائل فأُعطي، و هكذا ثلاث مرّات، فقال عليه السلام ملاطفًا لاغضبان: «أسائل أنت يا فلان أم تاجر»؟ فتأخّر الوحي أيّامًا، فاستوحش، فنزلت.

و ثالثة: رَوَوا عن ابن أبي شَيْبَة في مسنده و الطَّبَرانيّ و ابن مَرْدُوَيْه من حديث خَوْلة، و كانت تخدم رسول الله صلى الله عليه و آله أن جروًا دخل تحت سرير رسول الله، فمات و لم

١ ـ آلاء الرّحمان في تفسير القرآن ١:٤٦.
٢ ـ تفسير القُرطُبيّ ٢٠:٩٢.
٣ ـ السّيرة الحلبيّة ١:٢٦١.
٤ ـ روح المعاني ١٠:١٥٧ نقله عن جمع المفسّرين.

تشعر به، فمكث رسول الله أربعة أيّام لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خَوْلة! ما حدث في بيت رسول الله؟ جبرئيل لا يأتيني». فقالت: يا نبيّ الله، ما أتى علينا يوم خير عن هذا اليوم. فأخذ بَرده فلبسه و خرج، فقلت في نفسي، لو هيّأت البيت و كنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السّرير، فإذا بشيء ثقيل، فلم أزل به حتّى بدا لي الجَرْو ميتًا، فأخذته بيدي فألقيته خلف الدّار، فجاء النّبيّ ترعد لحيته، و كان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرَّعدة، فقال: «يا خَوْلة، دثّريني»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحىٰ * وَ اللَّيْلِ اِذَا سَجىٰ﴾[1].

و **رابعة:** إنّ المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «و كيف ينزل عليّ و أنتم لا تنقّون رواجبكم ـ و في رواية براجبكم ـ و لا تقصّون أظفاركم، و لا تأخذون من شواربكم»، فنزل جبرئيل بهذه السّورة. فقال النّبيّ: «ما جئت حتّى اشتقت إليك»، فقال جبرئيل: و أنا كنت أشدّ إليك شوقًا، و لكنّي عبد مأمور. ثمّ أُنزل عليه: ﴿وَ مَا نَتَنَزَّلُ اِلاَّ بِاَمْرِ رَبِّكَ﴾[2].

إنّ الاضطراب في أسباب فتور الوحي تعرب عن عدم صحّة الرّواية؛

أمّا الأوّل ـ فلو صحّ فيلزم كون انقطاع الوحي في العام السّابع من البعثة؛ لأنّ قُريشًا أرسلت النّضر بن الحارث و ابن أبي مُعيط إلى أحبار اليهود يسألانهم عن النّبيّ الأكرم، قالا لهم: إنّكم أهل التّوراة، و قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار اليهود: سَلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فجاؤوا إلى رسول الله و قالوا: يا محمّد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل، قد كانت لهم قصّة عجب، و عن رجل كان طوّافًا قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها، و أخبرنا عن الرّوح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبركم بما سألتم عنه غدًا»، و لم يستثن، فانصرفوا عنه[3].

نحن ننزّه ساحة النّبيّ الأكرم الّذي نشأ نشأة الأنبياء في عالم مليء بالطّهر و القداسة ـ أن يخبرهم على وجه قاطع بأنّه سيجيبهم غدًا على أسئلتهم تلك، فمن أين علم أنّه سبحانه ينزل الوحي عليه غدًا؟ أو أنّه سبحانه يجيب عن أسئلتهم عن طريق الوحي؟.

---

١ ـ روح المعاني ١٠:١٥٧.

٢ ـ تفسير القُرطُبيّ ٢:٩٢ و الآية مريم /٦٤.

٣ ـ مجمع البيان ١٠:٥٥.

و **أمّا الثّاني** ـ فهو أشبه بالقصص الموضوعة، فهل من المعتاد أن يباع عنقود عنب ثلاث مرّات في السّوق؟ و مثله عِذقُ تمر، و لعلّ الجاعل كان يهدف إلى اختلاق الفضائل لعُثمان، فحسب أنّ هذا الموضع مناسب له.

و **أمّا الثّالث** ـ فبعيد جدًّا؛ إذ كيف يمكن أن يموت الجَرْو تحت سرير النّبيّ أو في زاوية من البيت و لا يلتفت إليه؟ على أنّ ظاهر الرّواية أنّ انقطاع الوحي كان بعد تلقّي النّبيّ لنزول الوحي مدّة مديدة؛ حيث أنّ خَوْلة قالت: و كان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرّعدة، فإنّ ذلك يعرب عن أنّ الحادثة كانت في أزمنة متأخّرة من بدء البعثة» أي بعد نزول سورة العلق أو آيات منه.

و **أمّا الرّابع** ـ فهو أشبه بحمل النّبيّ وِزر الغير، فإنّ عدم قَصّ المسلمين شواربهم، أو عدم تنظيف رواجبهم لايكون سببًا لا نقطاع الوحي؛ قال سبحانه: **﴿ وَلاَتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ اُخْرٰى﴾**[1].

هذه الوجوه كلّها تدفع بنا إلى القول بأنّ مسألة انقطاع الوحي فِرْية تاريخيّة صنعتهايد الجعل والوضع لغاية أو لغايات خاصّة، و لم يكن هناك أيّة فترة و إنّما المسألة كانت بصورة أُخرى، هي أنّه تعلّقت مشيئته سبحانه على نزول الوحي نجومًا، أي فترة بعد فترة، حسب المقتضيات و الأسباب الموجبة لنزوله أوّلاً، و تثبيت فؤاد النّبيّ بذلك ثانيًا؛ قال سبحانه مشيرًا إلى مشيئته الحكيمة: **﴿وَ قُرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾**[2] و قال سبحانه مشيرًا إلى أنّ من بواعث نزول الوحي تدريجيًّا كونه سببًا لتثبيت فؤاده: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾**[3]. فعلى ضوء ذلك لم يكن هناك إلاّ مسألة طبيعيّة على صعيد الوحي، و هو نزوله تدريجيًّا لا دفعةً واحدةً، غير أنّ المشركين الجاهلين بمشيئته سبحانه و أسرار نزول الوحي تدريجيًّا كانوا يترقّبون نزول الوحي عليه دوامًا و في كلّ يوم وساعة، أو نزول مجموع الشّريعة دفعةً واحدةً كما نزلت التّوراة على موسى؛ قال سبحانه: **﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْاَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وأمُرْ قَوْمَكَ يَاْخُذُوا بِاَحْسَنِهَا**

---

١ ـ الأنعام /١٦٤.
٢ ـ الإسراء /١٠٦.
٣ ـ الفرقان /٣٢.

سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

فلمّا شاهدوا خلاف ما كانوا يترقّبونه من مدّعي النّبوّة انصرفوا إلى اتّهام النّبيّ بأنّه ودّعه ربّه الّذي ينزّل إليه الوحي، أو الشّيطان الّذي يلهمه على حدّ تعبيرهم.

فحصيلة البحث أنّه لم يكن هناك انقطاع ولافتور، ولاسبب من الأسباب المذكورة في الرّوايات، بل كان مجرّد توهّم توهمّوه.

ثمّ إنّ المعروف بين المفسّرين أنّ سورة الضّحى حسب التّرتيب النّزوليّ السّورة الحادية عشرة، و كانت الأُولى هي العلق فالقلم فالمزمّل فالمدّثر فلهب فالتّكوير فالانشراح فالعصر فالفجر فالضّحىٰ.[2]

و الظّاهر ممّن ينقل مسألة انقطاع الوحي و فتوره أنّها نزلت في بدء الوحي بعد انقطاعه، أي نزل بعد العلق أو بعد المدّثّر، مع أنّها نزلت متأخّرة، و كان الوحي ينزل على النّبيّ بَتْرىٰ حسب مقتضيات الظّروف والمناسبات و الوقائع و الأحداث.

نعم، ذكر اليعقوبيّ: أنّ سورة الضّحىٰ هي السّورة الثّالثة، ولعلّه متفرّد في ذلك القول.[3]

(العدد: ٤، عام: ١٤١١، ص: ١٤٦)

---

١ ـ الأعراف /١٤٥.

٢ ـ تاريخ القرآن للزّنجانيّ:٣٦.

٣ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢:٣٣.

الفصل الرّابع و الأربعون

الأراكيّ (معاصر) في «مجلّة رسالة القرآن»

أوّل ما نزل من القرآن الكريم و آخر ما نزل

تعدّدت الأقوال حول أوّل ما نزل من القرآن، و أشهر ما قيل في ذلك و أصحّه، إنّ قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ - إلى قوله تعالى - عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ أوّل ما نزل من القرآن، و قد روي في ذلك أيضًا رأيان آخران؛

أحدهما - أنّ سورة الفاتحة هي أوّل مانزل من القرآن.

و **ثانيهما** - أنّ سورة المدّثّر هي أوّل مانزل من القرآن، روي عن جابر.

و قد جمع بعض الباحثين هذه الآراء الثّلاثة، فقال: و طريق الجمع بين الأقاويل أنّ أوّل مانزل من الآيات ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و أوّل ما نزل من أوامر التّبليغ: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ...﴾ و أوّل ما نزل من السّور سورة الفاتحة.[1]

و مهما يكن من أمر فلم يعد بين علماء القرآن خلاف في أنّ ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هو أوّل ما نزل من القرآن، و أمّا غير ذلك من الأقوال فبين مرفوض لا يعبأ به، و بين ما جمع بينه و بين كون (اِقْرَاْ) أوّل ما نزل بوجه من وجوه الجمع.

و الّذي يهمّنا في هذا الموضع من البحث هو الصّورة الّتي تمّ بها أوّل نزول للقرآن على النّبيّ ﷺ، كما رسمتها لنا كتب التّاريخ و الحديث المتداولة بين إخواننا العامّة. ولم يكن يغنينا ذلك كثيرًا لولا ما في ذلك من شناعة النّسبة إلى الرّسول الكريم، و بشاعة المشهد الّذي تصوّره لنا تلكم الأحاديث. و سوف نحاول فيما يلي نقل تلك الصّور

---

١ - البُرهان في علوم القرآن ١:٢٠٨.

والمشاهد مع نقدها على ضوء من العقل و مسلّمات الإسلام و أُصوله.

وروى الطَّبريّ في تفسيره عن عُرْوَة، عن عائشة. أنّها قالت... **[و ذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ٩، فقال]**.

هذه هي القصّة كما روتها لنا كتب التّفسير و التّاريخ و الحديث لدى إخواننا أهل السّنّة.

و القصّة هذه مختلقة دون ريب، و قد افتعلتها أياد أثيمة عبثت بالتّاريخ الإسلاميّ أيّما عبث، و شوّهت حقائق الأحداث أيّما تَشوية. و ليست هذه القصّة بأكثر خطرًا على الإسلام و المسلمين، و لا أقلّ تعبيرًا عن الكيد و الحَنْق الّذي كان يكنّه مفتعل الحديث للإسلام من قصّة أُخرى تقرن في كثير من كتب التّاريخ و التّفسير و الحديث بهذه القصّة وإليك نصّها:

عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزُّبير، أنّه حدّث عن خديجة رضي الله عنها أنّها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عمّ، أتستطيع أن تخبرني... **[و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٣٥، فقال:]**

و هذه جريمة أُخرى من جرائم الدّسّ و الاختلاق و التّزوير الّتي بُلي بها الإسلام أشدّ البلاء، منذ انحسرت القيادة المبدئيّة عن مسرح الحكم و تناولت أمواج الحوادث وتيّارات الأهواء سفينة الإسلام، فأخذت بها يمينًا و شمالاً.

و لابُدّ هنا أن نلمّح إلى دلائل الاختلاق و الانتحال البادية على هاتين القصّتين، ونبدأ بالقصّة الأُولى، و فيها من دلائل الاختلاق ما يلي:

الأوّل: أنّ الرّواية تصرّح في أوّل الأمر بأنّ أوّل ما ابتدىء به رسول الله من الوحي الرُّؤيا الصّادقة، ثمّ حبّب إليه الخلاء. ممّا يدلّ على أنّ مسألة النّبوّة المحمّديّة كانت مسبوقة برعاية خاصّة، و أنّها لم تكن حدثًا فجائيًّا لم تمهّد له الأرضيّة و لم تهيّأله المقدّمات، و إنّما أعدّ الرّسول الكريم إعدادًا إلهيًّا خاصًّا تحت رعاية و تربية إلهيّة فريدة، تتقبّل الوحي و الاتّصال بعالم الغيب، فلم يكن نزول الوحي عليه أمرًا مرتجلاً و مولود السّاعة. و إذا كان الأمر كذلك فإنّ الإنسان المتأمّل يقف حائرًا أمام المشهد الّذي تصوّره الرّواية لنزول الوحي؛ رسول الغيب ينزل على النّبيّ ليبتعثه رسول رحمة للعالمين،

فترتجف بوادر هذا و يفقد تمالكه، حتّى يكاد يطرح نفسه من حالق من جبل، ثمّ يصرّح له رسول الغيب بالحقيقة مرّة و مرّتين: أنت رسول الله و أنا جبرئيل. و لا يغني هذا التّصريح في رفع الهول و إزالة الرّوع شيئًا، أفليس تلك التّربيّة الإلهيّة و الإعداد الرّبّاني كان كفيلاً بتهيئة الجوّ الرّوحيّ و النّفسيّ الّذي تزول معه كلّ أشكال القلق و الاضطراب المنبعث عن الارتجال المفاجئ؟.

الثّاني: أنّ الإتّصال بالعالم الأعلى من طبيعته أن يلهم الإنسان في حالة الصّلاة وأمثالها، و لا يمكن أن يكون الوحي ـ و هو ليس إلاّ نوعًا خاصًّا من الاتّصال بعالم الغيب ـ إلاّ باعثًا على هذا السّكون و الاطمئنان و الاستقرار النّفسيّ، بل لابُدّ أن يوجد من الاطمئنان أسمى أشكاله في النّفس و من الاستقرار على نماذجه في الرّوح. أمّا أن تصيب النّفس البشريّة بهذه المسّة المروّعة الّتي تشبه مسّة العفاريت و الأغوال، فتترك الإنسان في قلق صاخب و اضطراب ثائر، فهذا ممّا لا تهضمه العقول.

الثّالث: أنّ قبول هذه الرّواية يعني قبول أحد الأُمور التّالية:

١ـ أن يكون الرّسول ـ و العياذ بالله ـ غير صادق فيما يحدّث به عن حالة الوحي الأوّل.

٢ـ أن يكون صادقًا، و لكنّ المشاهد الّتي حكاها عن ظروف الوحي الأوّل وملابساته لم تكن إلاّ صورًا خياليّة و أشباحًا و هميّة، كالّتي تتراءىٰ للمصابين بالأمراض النّفسيّة و الرّوحيّة.

٣ـ أن يكون صادقًا، و المشاهد الّتي شاهدها مشاهد حقيقيّة غير خياليّة وكان الرّسول ﷺ على سلامة كاملة، و لكنّه مع ذلك لم يؤمن بكلّ مارأى، و لم تكف تلك الحقائق العينيّة الّتي شاهدها و عاشها أن توجد في قلبه اطمئنانًا و يقينًا بالوحي، بل ظلّ شاكًّا متردّدًا في هذا الّذي تراءىٰ له. أهو حقيقة أم خيال؟ أهو واقع أم و هم؟ حتّى طمأنته خديجة بذلك، و حتّى شهد له وَرَقة بصحّة كلّ مارأى و كلّ ماشاهد.

و كلّ هذه الثّلاثة باطلة بحكم العقل و الواقع.

أمّا الأوّل و الثّاني: فهما باطلان بحكم العقل و بحكم الشّواهد و الأرقام التّاريخيّة الّتي تنطق بالعظمة الّتي كانت تتّصف به شخصيّة الرّسول الكريم و الكمال الإنسانيّ الّذي

كان قد تجلّى بأسمىٰ أشكاله في وجوده الطّاهر. و هذا بغضّ النّظر عن كونه رسول الله وخاتم النّبيّين و سيّد الأنبياء.

و **أمّا الثّالث:** فهو زائف بحكم الوجدان، أو ليس من شهد الحقيقة عيانًا أولى باليقين بها ممّن لم يعلم بها، إلاّ بالسّماع عن مخبر واحد شاكّ في حقيقة ما يخبر عنه؟ أوليس من الهزل أن يرى امرؤ حدثًا ثمّ يخبر به إنسانًا آخر، ثمّ يكون هذا الثّاني أكثر منه اطمئنانًا بما أخبره به، بل يحاول تطمينه و تسكينه إلى الحدث الّذي أخبره به.

ثمّ لا نعلم كيف يرضى مفتعل الرّواية أن يكون النّبيّ ـ و العياذ بالله ـ شاكًّا فيما سمعه ورآه؟ ثمّ ينقلب شكّه هذا إلى يقين بمجرّد أن سكّنته خديجة، أو أقرّه وَرَقَة على مارآه وأخبر عنه.

الرّابع: و الآن لنعرف المصدر الّذي استلهم منه واضع هذه الرّواية هذه الأرقام الّتي نسجها حول بدء الوحيء فإنّنا إذا طالعنا شيئًا من كتب العهدين رأينا فيها صورًا من الوحي على الأنبياء تحمل نفس الطّابع الّذي تحمله روايتنا هذه، و نذكر على سبيل المثال النّماذج الآتية.[١]

في التّوارة: أنّ إبراهيم لمّا أوحي إليه في شأن نسله و غربتهم وقع عليه عند مغيب الشّمس سبات و رُعبة مُظلمة.[٢]

و أنّ يعقوب لمّا رأى في الحُلم السُّلَّم و الملائكة و خاطبه الرّبّ و استيقظ، خاف وقال ما أرهب هذا المكان.[٣]

وعن قول دانيال في بعض رؤياه و مكاشفاته بالوحي: و سمعت صوت إنسان بين أولاي فنادى و قال: يا جبرائيل، فهمّ هذا الرّجل فجاء إليّ حيث وقفت و لمّا جاء خِفت وحَزرت على وجهي، و إذكان يتكلّم معي كنت مسنجًا على وجهي إلى الأرض، فلمسني و أوقفني على مقامي.[٤]

---

١ ـ اعتمدنا في هذه النّماذج على النّقول الّتي وردت في كتاب «الهدى إلى دين المصطفى» ١: ١٤ ـ ١٦.

٢ ـ سفر التّكوين: الإصحاح ١٥: ١٢ـ١٥.

٣ ـ سفر التّكوين: الإصحاح ٢٨: ١٢ ـ ١٨.

٤ ـ كتاب دانيال: الإصحاح ٨: ١٦ ـ١٩.

و في الإنجيل: إنّ زكريّا لمّا رأى ملاك الرّبّ عن يمين مَذبح النّجور، اضطرب ووقع عليه الخوف.[١]

فالرّواية إذن إسرائيليّة مدخولة، شاء بها اليوم الحاقدون و من شاكلهم من عصابة المختلقين و الوضّاعين أن يطفئوا نور الإسلام، و يُشوّهوا صورته، و يغيّروا معالمه. و لكنّ الله أبى إلاّ أن يتمّ نوره و لوكره الكافرون.

و من الغريب الّذي يؤسَف له أن تتناقل كتب الحديث و الرّواية و التّاريخ هذه الأُكذوبة، و يعتمد عليها الكتاب الإسلاميّون حتّى المتجدّدون و المحدِّثون منهم.

أمّا الرّواية الثّانية فهي مَهْزلة من مهازل الاختلاق و الوضع. أو كان الوحي الإلهيّ أُلعوبة يتلهّىٰ بها البُسَطاء؟ أم كان النّبيّ العظيم ـ و العياذ بالله ـ ذلك الرّجل المتجلّل المطواع الّذي ينتقل من فَخِذ إلى فَخِذ إلى حِجر، لتقضي خديجة أُمنيتها في رؤية الملك؟. أم كانت خديجة عليها السلام المرأة الخفيفة العقل الّتي تطلب أمرًا تعلم أنّ لا سبيل لها إليه؟

أو كانت النّبوّة و رسالة الله العظيم الّتي تحمل مسؤوليّة إنسان الأرض من أقصاها إلى أقصاها لتخضع لهذه الأمانيّ و الأحلام الّتي تراود صدر هذا و ذهن ذلك؟

العدد: ١ عام: ١٤١١ ص: ١٢ ـ ١٦

١ ـ إنجيل لوقا ١١: ١٢.

الفصل الخامس و الأربعون

نصّ الوِشنويّ (١٣٢٩ ـ ...) في «حياة النّبيّ و سيرته»

مبعث رسول اللهﷺ

قال ابن هِشام[١]: فلمّا بلغ محمّد رسول اللهﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين و كافّةً للنّاس بشيرًا، و كان الله تبارك و تعالى قد أخذ الميثاق على كلّ نبيّ بعثه قبله بالإيمان به، و التّصديق له، و النّصر له على من خالفه، و أخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كلّ من آمن بهم و صدّقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحقّ فيه؛ يقول تعالى لمحمّد نبيّه: ﴿وَ اِذْ اَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيّينَ لَمَا اٰتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَاَقْرَرْتُمْ وَ اَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ اِصْرِى﴾، أي ثقل ما حملتكم من عهدي. ﴿قَالُوا اَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ اَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢]. فأخذ الله ميثاق النّبيّين جميعًا بالتّصديق له و النّصر له ممّن خالفه، و أدّوا ذلك إلى من آمن بهم و صدّقهم من أهل هذين الكتابين.

قال الطَّبريّ و ابن الأثير، و العبارة له في الكامل[٣] بعث الله نبيّه محمّدًا لعشرين سنة مضت من مُلك كَسرى ابرويز بن هُرمُز بن أنوشِروان.

قال ابن عبّاس من رواية حَمزة و عِكررمة عنه و أنس بن مالك و عُرْوَة بن زُبَير: إنّ النّبيّﷺ بعث و نزل عليه الوحي و هو ابن أربعين سنة.

و قال ابن عبّاس من رواية عِكرِمة أيضًا عنه و سعيد بن المُسيَّب: إنّه نزل عليهﷺ وهو ابن ثلاث و أربعين سنة.

---

١ ـ السّيرة النّبويّة لا بن هِشام ١:٢٤٩.

٢ ـ آل عمران /٨١.

٣ ـ الكامل ٢:٤٦، تاريخ الطَّبَريّ ٢:٢٩٣.

و كان نزول الوحي عليه يوم الاثنين بلاخلاف، و اختلفوا في أيّ الأثانِين كان ذلك، فقال أبو قِلابة الجَرْميّ: نزل الفرقان على النّبيّ لثمان ليلة خلت من رمضان، و قال آخرون: كان ذلك لتسع عشرة مضت من رمضان. **[ثمّ ذكر قول الطَّبَريّ كما تقدّم عن معرفة، فقال:]**

محمّد بن سَعد قال:[1] نزل الملك على رسول الله ﷺ بحِراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، و رسول الله يومئذ ابن أربعين سنة، بعثه الله رحمةً للعالمين، و كافّةً للنّاس أجمعين إلى أن قال: فعن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين، قال: و هذا هو المشهور بين الجمهور من أهل السّير و العلم بالأثر، و قيل بزيادة يوم، و قيل بزيادة عشرة أيّام، و قيل بزيادة شهرين، و قيل بزيادة سنتين، و هو شاذّ. و أكثر منه شذوذاً ما قيل: إنّه بزيادة ثلاث سنين، و ما قيل: إنّه خمس سنين. قال بعضهم: الأربعون هي سنّ الكمال و نهاية بعث الرّسل ـ إلخ.

و قال الصَّبَّان[2]: و اختلف في شهر إبتداء الوحي، و الّذي عليه الأكثر أنّه رمضان لسبع ليال مضت منه، و قيل: لسبع عشرة، و قيل: ربيع الأوّل، و قيل: رجب. و أمّا اليوم فالّذي عليه جمع أنّ في يوم الإثنين ولادته و بعثته و خروجه من مكّة و وصوله المدينة ووفاته ـ إلخ **[ثمّ ذكر قول المسعُوديّ، كما سيأتي عنه في أوّل ما نزل، فقال:]** قال الطّبريّ و محمّد بن سعد و ابن الأثير، و العبارة له في الكامل[3]: كان أوّل ما ابتدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصّادقة... **[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]**

قال الحَلَبيّ و الزَّيْنيّ دِحْلان و ابن هِشام، و العبارة له في السّيرة[4]: قال ابن إسحاق: فذكر الزُّهْريّ عن عُروة بن الزُّبَير عن عائشة أنّها حدّثته... **[و ذكر كما تقدّم عن البُخاريّ، ثمّ قال:]**

كرامته و رحمته العباد به ما رأىٰ رؤيًا في نومه إلاّ جاءت كفلق الصّبح. قالت: وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده.

---

١ ـ الطَّبقات لا بن سعد ١: ١٩٤.
٢ ـ إسعاف الرّاغبين: ١٧.
٣ ـ الكامل ٢: ٤٨، تاريخ الطَّبَريّ ٢: ٢٩٨، الطَّبقات لا بن سعد ١: ١٩٤.
٤ ـ السّيرة النّبويّة لا بن هشام ١: ٢٤٩، السّيره الحلبيّة ٢: ٢٣٣، السّيرة النّبويّة لدِحلان.

قال الشِّبْلَنْجيّ و الصَّبّان، و العبارة للصَّبّان[1]: و لمّا قربت أيّام الوحي حبّب الله إليه الخلوة، فكان يختلي في غار حِراء و يتعبّد فيه، قيل: بالذّكر، و قيل: بالفكر، ورُدّ بما هو مبسوط في طَبقات المناويّ.

و في كلام الشّيخ مُحي الدّين بن العَربيّ: إنّ تعبّده قبل نبوّته كان بشريعة إبراهيمعليه السلام و قيل غير ذلك.

و كان لايرىٰ رؤيًا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح، و كانت تلك المنامات الصّادقة مقدّمات للوحي، قيل: مدّتها ستّة أشهر.

و ثبت أنّه لمّا دنا زمن الوحي إليهصلى الله عليه وآله كثر رجم الشّياطين بالنّجوم مع إصابتهالهم وانقطع بالمرّة استراق السّمع من حينه. و ما روي من رجمهم بها ليلة مولده و قبلها في أزمنة الرّسل، فعلى ثبوته كان قليلاً، و تارةً يصيب و تارةً لا يصيب، و أمّا في زمن قرب الوحي إليهصلى الله عليه وآله فكان يصيب و لابدّ معالكثرة، قاله الحَلبيّ في سيرته. (١: ٨٩ ـ ٩٢)

أوّل ما نزل من القرآن

﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾

فلمّا تمّ له[2] أربعون سنة جاءه جبريل بالنّبوّة و هو في غار حِراء، فقال له: اقرأ فقال: «ماأنا بقارىء» فضمّه حتّى بلغ منه الجهد، ثمّ أطلقه فقال له: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارىء»، فضمّه كذلك ثمّ أطلقه، فقال له: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارىء»، فضمّه كذلك ثمّ أطلقه، فقال له: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى قوله ـ وَ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[3] إلخ.

قال الطَّبَريّ و ابن الأثير و العبارة له في الكامل[4]: ثمّ إنّ أوّل ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ، ن والقلم و ما يسطرون، ياءيّها المدّثّر و الضُّحى.

و قال يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سَلَمَة عن أوّل ما نزل من القرآن، قال: نزلت، ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ أوّل ما نزل، قال: قلت إنّهم يقولون: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قال:... [و ذكر كما

---

١ ـ نور الأبصار: ١٥، إسعاف الرّاغبين: ١٥.

٢ ـ أي رسول اللهصلى الله عليه وآله.

٣ ـ العلق /١ ـ ٥.

٤ ـ الكامل ٢: ٤٩، تاريخ الطَّبَريّ ٢: ٢٩٩.

تقدّم عن مُسْلِم، الرّقم ٧، ثمّ قال:].

قال هِشام الكَلبيّ: أتى جبريل النّبيّ عليه السلام أوّل ما أتاه ليلة السّبت وليلة الأحد، ثـمّ ظهرله برسالة الله يوم الاثنين، فعلّمه الوضوء و الصّلاة، وعلّمه ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾، وكان لرسول الله عليه السلام أربعون سنة. انتهى ما نقله ابن الأثير والطَّبَريّ. **[ثمّ ذكر قول ابن هِشام نقلاً عن ابن إسحاق، كما تقدّم عن معرفة، فقال:]**

قال محمّد بن إسحاق: و حدّثني أبو جعفر محمّد بـن عـليّ بـن الحسـين عليهما السلام، إنّ رسول الله عليه السلام التقى هو و المشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان.

وقال الحَلَبيّ[1] و عن النَّخَعيّ؛ أنّ أوّل سورة أُنزلت عليه: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) قال الإمام النَّوَوِيّ: و هو الصّواب الّذي عليه الجماهير من السّلف و الخلف، هذا كلامه.

ولا يخفى أنّ مراد النَّخَعيّ بالسّورة هنا القطعة من القرآن، أي أوّل آيات أُنزلت، فلا ينافي ما تقدّم من رواية عمرو بن شُرَحْبيل ممّا يدلّ على أنّ أوّل سورة أُنزلت فـاتحة الكتاب؛ لأنّ المراد أوّل سورة كاملة أُنزلت لا في شأن الإنذار، فلا ينافي ما تقدّم من رواية جابر ممّا يقتضي أنّ أوّل ما أُنزل: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾، لأنّ المراد بذلك أوّل سورة كاملة نزلت في شأن الإنذار بعد فترة الوحي، أي فإنّها نزلت قبل تمام سورة اقرأ، وهذا الجمع تقدّم الوعد به... الخ.

و قال الشِّبلَنْجيّ[2]: و فتر الوحي حتّى حزن النّبيّ عليه السلام حزنًا شديدًا، و كان مدّة فترته ثلاث سنين كما جزم به ابن إسحاق، ثمّ نزل عليه جبريل بسورة: (يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ) و تتابع الوحي و نزولها ابتداء رسالته عليه السلام، فهي متأخّره عن نبوّته بثلاث سنين، و قيل: مـقارنة لنبوّته، و صار يدعو النّاس إلى الله خفية لعدم الأمر بالإظهار، و كان من أسـلم إذا أراد الصّلاة ذهب إلى بعض الشّعاب؛ ليستخفي بصلاته من المشركين... الخ.

و قال الزَّيني دِحْلان[3]: و في فتح الباري: جزم ابن إسحاق بأنّ مدّة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، و جزم السُّهَيليّ بأنّها كانت سنتين و نصفًا، و قيل: خمسة عشرة يومًا، و قيل غير ذلك ـ إلخ.

---

١ ـ السّيرة الحلبيّة ١: ٢٦٠.

٢ ـ نور الأبصار ١: ١٥.

٣ ـ السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٤.

قال ابن هِشام في السّيرة: قال ابن إسحاق: ثمّ فترالوحي عن رسول اللهﷺ فترة حتّى شقّ ذلك عليه فأحزنه، فجاء جبريل بسورة الضُّحى يقسم له، و هو الّذي أكرمه بما أكرمه، ما ودّعه ربّه و ما قلاه، فقال تعالى: ﴿وَالضُّحىٰ * وَالَّيلِ اِذَا سَجىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلىٰ...﴾[١] [ثمّ ذكر قول المسعوديّ كما تقدّم عنه فقال:].

محمّد بن سعد[٢] قال: أوّل ما أُنزل على النّبيّﷺ ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَم﴾ فهذا صدرهاالّذي نزل على النّبيّ يوم حِراء، ثمّنزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله.

و عن عُبَيْد بن عُمَيْر قال: أوّل سورة أُنزلت على النّبيّ: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

و عن ابن عبّاس: أنّ رسول اللهﷺ لمّا نزل عليه الوحي بحِراء مكث أيّامًا لا يرى جبرئيل؛ فحزن حُزنًا شديدًا. إلى أن قال: فبينا رسول اللهﷺ عامدًا لبعض تلك الجبال إلى أن سمع صوتًا من السّماء، فوقف رسول اللهﷺ صعقًا للصّوت، ثمّ رفع رأسه فإذا جبريل على كرسيّ بين السّماء و الأرض متربّعًا عليه يقول: يا محمّد أنت رسول اللهﷺ حقًّا و أنا جبريل. قال: فانصرف رسول اللهﷺ و قد أقرّ الله عينه و ربط جأشه، ثمّ تتابع الوحي بعد و حمي...

[تاريخ البعثة]

قال الحَلَبيّ[٣] و قال بعضهم: القول بأنّه في ربيع الأوّل يوافق القول بأنّه بعث على رأس أربعين؛ لأنّ مولدهﷺ كان في ربيع الأوّل على الصّحيح و هو قول الأكثرين.

و قيل: كان ذلك في ليلة أو يوم السّابع و العشرين من رجب، فقد أورد الحافظ الدِّمياطيّ في سيرته عن أبي هُرَيْرَة، قال: من صام يوم سبع و عشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستّين شهرًا، وهو اليوم الّذي نزل فيه جبريل على النّبيّﷺ بالرّسالة، و أوّل يوم هبط فيه على النّبيّ و لم يهبط عليه قبل ذلك.

و سيأتي في بعض الرّوايات أنّ جبريل نزل في سحر تلك اللّيلة الّتي هي ليلة

١ ـ الضُّحى ١ ـ ١١.
٢ ـ الطَّبقات لا بن سَعْد ١:١٩٦.
٣ ـ السّيرة الحَلَبيّة ١:٢٣٨.

الإثنين، و يجوز أن يكون كلّ من تلك اللّيالي كانت ليلة الاثنين، فقد جاء أنّ رسول‌الله ﷺ قال لبَلال: «لايفوتك صوم يوم الإثنين»: لأنّي ولدت فيه، و نبئّت فيه» فلا **مخالفة بين كونه نبّيء في الّليل و بين كونه نبّيء في اليوم؛ لأنّ وقت السّحر قد يلحق بالّليل.**

وفي‌كلام بعضهم: أتاه ﷺ جبريل ليلة السّبت و ليلة الأحد، ثمّ ظهر له بالرّسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان في حِراء، فجاء بأمرالله تعالى.

وهذا القول ـ أي البعث كان في رمضان ـ قال به جماعة، منهم الإمام الصَّرْصَريّ؛ حيث قال: و أتت عليه أربعون، فأشرقت شمس النّبوّة منه في رمضان.

واحتجّوا بأنّ أوّل ما أكرمه الله تعالى بنبوّته نزل عليه القرآن. و أُجيب: بأنّ المراد بنزول القرآن في رمضان نزوله جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا...

(١: ٩٢ ـ ٩٧)

الفصل السّادس و الأربعون

نصّ مُرتضى العامليّ (معاصر) في «الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم ﷺ»

بدء الوحي و أوّل ما أُنزل عليه ﷺ

لقد كان بدء الوحي في غار حِراء، و هو جَبَل على ثلاثة أميال من مكّة، و يقال: هو جَبَل فاران الّذي ورد ذكره في التّوراة، إلاّ أنّ الظّاهر هو أنّ فاران اسم لجبال مكّة، كما صرّح به ياقوت الحَمَويّ حسبما تقدّم، لا لخصوص حِراء:

و كان ﷺ يتعبّد في حِراء هذا، على النّحو الّذي ثبتت له مشروعيّته، و كان قبل ذلك يتعبّد فيه عبدالمطّلب.

و أوّل مانزل عليه ﷺ هو قوله تعالى: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾** إلخ [1].

و هذا هوالمَرويّ عن أهل البيت عليهم السلام، وروي أيضًا عن غيرهم بكثرة، و يدلّ عليه أيضًا سياق الآيات المذكورة.

و ربّما يقال: إنّ أوّل مانزل عليه ﷺ هو فاتحة الكتاب، ولاسيّما بملاحظة أنّه ﷺ قد صلّى في اليوم الثّاني. هو ﷺ و عليّ عليه السلام و خديجة عليها السلام حسبما ورد في الرّوايات.

ولكن من الواضح أنّ ذلك لا يثبت شيئًا؛ إذ يمكن أن تُنزّل بعد سورة إقرأ بلافصل، ثمّ يصليّ و يقرأها في صلاته، كما أنّ من الممكن أن تكون صلاتهم آنئذٍ غير مشتملة على فاتحة الكتاب، ثمّ وجبت بعد ذلك، و إن كان لم يذكر أحد ذلك. هذا كلّه عداعن أنّهم يروون أنّ سورة الفاتحة قد نزلت بعد المدّثّر.

---

١ ـ العلق /١ ـ ٥.

هذا، و ثمّة قول آخر، و هو أنّ أوّل مانزل هو سورة المدّثّر[1]. و سيأتي الإشارة إلى أنّها قد نزلت بعد المرحلة السّريّة، كما أنّهم يروون روايات عديدة تنافي قولهم هذا، وليراجع الميزان (٢:٢٢) و على كلّ حال، فإنّ تحقيق هذا الأمر لا يهمّنا كثيرًا، فلابدّ من تَوْفير الفُرصة للحديث عن الأهمّ فالأهمّ. (١:١٩٧)

ما روي في بدء الوحي

روى البُخاريّ و مُسلم و غيرهما عن الزُّهْريّ، عن عُرْوة بن الزُّبَيْر، عن عائشة في بدء الوحي، ماملخّصه: أنّ الملك جاء للنّبيّ، و هو صلّى الله عليه و آله في غار حِراء، فقال: اقرأ... [و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:] و ثمّة روايات كثيرة أُخرى متناقضة و متعارضة، و نذكر على سبيل المثال:

١ـ أنّ رواية تقول: إنّ خديجة أرسلته مع أبي بكر إلى وَرَقَة بن نَوْفَلْ، فأخبره صلّى الله عليه و آله أنّه يسمع نداء خلفه: يا محمّد يا محمّد، فينطلق هاربًا في الأرض، فأمره وَرَقَة أن يثبت؛ ليسمع ما يقول ثمّ يخبره، ففعل، فناداه: يا محمّد، قل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ حتّى بلغ ـ وَلاَالضَّالِّينَ﴾ قل لا إله إلاّ الله. فأخبر وَرَقَة، فبشّره بأنّه هو الّذي بُشّربه ابن مريم. فلمّا توفّي وَرَقَة قال صلّى الله عليه و آله «لقد رأيت القَسّ[2] في الجنّة، عليه ثياب الحرير؛ لأنّه آمن بي و صدّقني[3]».

٢ـ ورواية أُخرى تقول بعد أن ذكرت أنّ خديجة أخبرت وَرَقَة بالأمر، فأخبرها أنّه نبيّ هذه الأُمّة: إنّه بعد مدّة التقى بالنّبيّ صلّى الله عليه و آله و هما يطوفان، فسأله وَرَقَة عمّا رأىٰ و سمع، فأخبره، فأخبره وَرَقَة أنّه نبيّ هذه الأُمّة[4].

٣ـ إنّ خديجة لمّا أخبرها بما رأى بشّرته بأنّه نبيّ هذه الأمّة، و أنّ الّذي أخبرها

---

١ ـ الإتقان ١: ٣٢، والبخاريّ و غيره.

٢ ـ القَسّ جمعه قُسوس: من كان بين الأُسقف و الشمّاس، القِسّيس جمعه قِسّيسُون: بمعنى القَسّ. (المنجد ١:٦٢٧).

٣ ـ الْبداية و النّهاية ٣: ٩ ـ ١٠ و الرّوض الأنف ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ و السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٣ ـ ٨٤ و السّيرة الحلبيّة ١: ٢٥٠ و سيرة مغلطاي: ١٥.

٤ ـ البدايةوالنّهاية ٣:١٢ ـ١٣. وسيرة ابن هِشام ١:٢٥٤ والسّيرة الحلبيّة ١:٢٣٩ـ٢٤٠، والسّيرةالنّبويّة لدِحْلان ١:٨١ـ٨٢.

بذلك هو غلامها ناصح، و بَحيرا الرّاهب. و أمرها أن تتزوّجه منذ أكثر من عشرين سنة. ولم تزل برسول الله حتّى طعم و شرب و ضحك، ثمّ خرجت إلى الرّاهب، و كان قريبًا من مكّة فأخبرته، فأخبرها أنّ جبرئيل هو أمين الله و رسوله إلى أنبيائه. ثمّ أتت عَدّاسًا فسألته، فأخبرها بمثل ذلك، ثمّ أتت وَرَقَة، فأخبرها بمثل ذلك. و لكنّها حلّفته أن يكتم الأمر، فطلب منها أن ترسل ابن عبدالله إليه؛ ليسأله و يسمع منه، مخافة أن يكون الّذي جاؤه هو غير جبرئيل، فإنّ بعض الشّياطين يتشبّه ليضلّ و يفسد، حتّى يصير الرّجل بعد العقل الرّضيّ مدلّهًا مجنونًا. فرجعت إلى النّبيّ ﷺ، و أخبرته بمقالة ورقة، فنزل قوله تعالى: ﴿ن * وَالْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ * مَا اَنْتَ بِنَعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[1] و لكنّها أصرّت عليه أن يذهب إلى وَرَقَة، ففعل، و صدّقه وَرَقَة، فذاع قول وَرَقَة و تصديقه لرسول الله ﷺ، فشقّ ذلك على الملأمن قومه[2].

٤ـ إنّ خديجة طلبت منه أن يخبرها حين يأتيه الملك ففعل، فأمرته أن يجلس إلى شقّها الأيمن، ففعل، فلم يذهب الملك. فأجلسته في حِجرها، فلم يذهَب. فتحسّرت، فشالت خِمارها، و رسول الله ﷺ في حِجرها، فذهب الملك فقالت: ماهذا بشيطان، إنّ هذاالملك يابن عمّ، فأثبت و أبشر.

و في رواية أنّها أدخلت رسول الله بين جلدها ودرعها، و أخرجت رأسه من جَيبها، فذهب جبرئيل ﷺ عند ذلك[3]. و في رواية أنّ ذلك كان بإشارة وَرَقَة[4].

٥ـ و في رواية أنّ وَرَقَة قال لخديجة: إسأليه مَن هذا الّذي يأتيه، فإن كان ميكائيل، فقد أتاه بالخفض والدّعة و اللّين، و إن كان جبريل، فقد أتاه بالقتل و السّبي، فسألته، فقال: جبريل، فضربت خديجة جبهتها[5].

٦ـ و في رواية أنّه لما أتاه الوحي قال: «إنّ الأبعد ـ يعني نفسه ـ لشاعر أو مجنون، لا

---

١ ـ القلم /١ـ٢.

٢ ـ البداية و النّهاية ٣: ١٤ ـ ١٥ و راجع الأوائل لأبي هِلال العَسْكريّ ١:١٤٦.

٣ ـ البَداية و النّهاية ٣: ١٥ ـ ١٦، و سيرة ابن هِشام ١: ٢٥٥، والطَّبَريّ ٢: ٥٠ و تاريخ الخميس ١: ٢٨٣، و السّيرة الحَلَبيّة ١:٢٥١، والسّيرة النّبويّة لدِحْلان ١:٨٤.

٤ ـ السّيرة الحَلبيّة ١: ٢٥٢.

٥ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣.

تحدّث بها قُرَيْش عنّي أبدًا، لأعمدنّ إلى حالق من الجبل، فلأطرحنّ نفسي منه، فلأقتلنّها، و لأستريحنّ. قال: فخرجت أُريد ذلك»، حتّى إذا كان في وسط الجبل سمع صوتًا من السّماء يقول: يا محمّد، أنت رسول الله. ثمّ تستمرّ الرّواية حتّى تذكر أنّه ذكر لخديجة أنّ الأبعد لشاعر أو مجنون: فقالت أُعيذك بالله من ذلك، ثمّ التقت بوَرَقَة، فأرسل إليه بالثّبات، ثمّ التقىٰ به في الطّواف، فجرى له معه ماجرى[١].

و عند السُّهَيْليّ و غيره أنّ خديجة سألت وَرَقَة و عَدّاسًا و نسطورًا عن أمر رسول الله ﷺ[٢].

٧ـ و في رواية أنّ عَدّاسًا أعطاها كتابًا لتضعه على النّبيّ ﷺ، فإن كان مجنونًا شفي، و إلاّ لم يضرّه شيء، فلمّا عادت إليه بالكتاب وجدت معه جبريل يقرئه الآيات من سورة القلم، ففرحت، و أخذته إلى عَدّاس، فكشف عَدّاس عن ظهره، فوجد خاتم النّبوّة بين كتفيه إلخ[٣].

و يروي البعض أنّه لمّا أخبرها بجبرئيل كتبت إلى بَحيراالرّاهب، و قيل: سافرت بنفس إليه لتسأله عن الأمر[٤].

٨ـ و في رواية أنّه حين ذهب ليتردّى من شواهق الجبال، كان إذا ارتقى بذَرْوَة جبل تبدّى له جبرئيل، و يخاطبه بالرّسالة، فيسكن جأشه، و تطمئنّ نفسه[٥].

٩ـ و يروون أيضًا أنّه كان قبل النّبوّة يتعرّض للرّعدة و تغميض العينين، وتربّد الوجه، و لما يشبه الإغماء، و يغطّ كغطيط البكر[٦].

١٠ـ و في رواية أنّه ﷺ عاد إلى أهله مسرورًا موقنًا أنّه قد رأى أمرًا عظيمًا، فلمّا دخل على خديجة قال: «أريتك الّذي كنت حدّثتك أنّي رأيته في المنام، فإنّ جبريل استعلن إليّ، أرسله إليّ ربيّ عَزَّوجَلَّ، و أخبرها بالّذي جاءه من الله، و ما يسمع منه فقالت

١ ـ تاريخ الطّبَريّ ٢: ٤٩ ـ ٥٠.

٢ ـ الرّوض الأنف (١: ٢٧٣) و الأوائل لأبي هِلال الْعَسْكريّ ١: ١٤٦.

٣ ـ تاريخ الخميس (١:٢٨٤) و السّيرة و النّبويّة لدَحْلان ١:٨٣ و السّيره الحَلَبيّة ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٤ ـ السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٣ و السّيرة الحَلَبيّة ١: ٢٤٤.

٥ ـ المصنّف ٥: ٣٢٣.

٦ ـ السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٤ و السّيرة الحَلَبيّة ١: ٢٥٢.

له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلاّ خيرًا، و أقبل الّذي جاءك من أمرالله، فإنّه حقّ، أبشر، فإنّك رسول الله حقًّا.

ثمّ انطلقت إلى عَدّاس النّصرانيّ، غلام عُتْبَة بن ربيعة، من أهل نينوىٰ، فسألته عن جبرئيل، فتعجّب من ذكر جبرئيل بتلك الأرض، ثمّ أخبرها بأنّه أمين الله بينه و بين الأنبياء، ثمّ جاءت إلى وَرَقَة إلخ[1].

هذا غيض من فيض، ممّا قيل و يقال حول ماجرى حين بدء الوحي، و كيفيّة وملابساته، من روايات و أقوال متضاربة و متناقضة.

ولننتقل الآن إلى الإشارة إلى بعض مالنا من مناقشات في تلك الأراجيف المتقدّمة، ومتوخّين الإيجاز و الاختصار مهما أمكن، فنقول:

مناقشة روايات بدء الوحي

إنّنا في مجال بيان ما في تلك الرّوايات من خلل و خطل لا نستطيع أن نستوعب كلّ ما فيها من نقاط ضعف في هذه العجالة؛ لأنّ استيعاب ذلك ـ كما يبدو ـ يحتاج إلى وقت طويل، بل إلى مؤلّف مستقلّ. و لكن مالا يدرك كلّه لا يترك كلّه، لأنّنا نريد أن نسهم بدورنا في الذّبّ عن مقام النّبوّة الأقدس، ولو بشكل محدود و مقتضب، و ما نريد أن نشير إليه هنا هو:

أوّلاً ـ من حيث السّند، و حيث إنّ العمدة في ذلك هو ماورد في الصّحيحن و غيرهما عن الزُّهْريّ، عن عُروَة بن الزُّبَير، عن عائشة، فنحن نكتفي بالإشارة الإجماليّة إلى حال هؤلاء فنقول:

١ـ الزُّهْريّ كان من أعوان الظّالمين، و من الّذين يركنون لهم و كان كاتبًا لِهشام بن عبدالملك و معلّمًا لأولاده.

و عدّه الثّقفيّ من فقهاء الكوفة الّذين خرجوا عن طاعة عليّ عليه السلام، و كانوا أهل عداوة و بغض، و خذلوا عنه[2]، و جلس هو و عُروَة في مسجد المدينة فنا لا من عليّ عليه السلام، فبلغ

---

١ ـ البداية و النّهاية ٣: ١٣.

٢ ـ الغارات للثّقفيّ ٢: ٥٥٨ ـ ٥٦٠.

ذلك السّجّادعليه السلام، فجاء حتّى وقف عليهما؛ فقال: «أما أنت يا عُروَة، فإنّ أبي حاكم أباك، فحكم لأبي على أبيك، و أمّا أنت يازُهْريّ؛ فلو كنت أنا و أنت بمكّة لأريتك كنّ[1] أبيك»[2] ونحن لا نستطيع أن نثق بأعوان الظّلمة، و بمبغضي عليّ عليه السلام، كيف و قد قال صلى الله عليه وآله «من سبّ عليًّا فقد سبّني[3].»؟.

٢ـ عُروَة بن الزُّبَيْر، عن عُرْوَة قال: أتيت عبدالله بن عمر بن الخطّاب، فقلت له: يا أبا عبدالرّحمان، إنّا نجلس إلى أئمتّنا هؤلاء، فيتكلّمون بالكلام، نعلم أنّ الحقّ غيره فنصدّقهم، و يقضون بالجور فنقوّيهم و نحسّنه لهم، فكيف ترى في ذلك؟ فقال: يا ابن أخي، كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نعدّ هذا النّفاق، فلا أدري كيف هو عندكم[4] فعُرْوَة يعتبر أئمّة الجور أئمّته، و ابن عمر يحكم عليه بالنّفاق.

و عدّه الإسكافيّ من التّابعين الّذين كانوا يضعون أخبارًا قبيحة في عليّ عليه السلام[5]. و كان يتألّف النّاس على روايته[6]، وروى عبدالرَّزّاق عن مَعْمَر، قال: كان عند الزُّهْريّ حديثان عن عُروَة، عن عائشة في عليّ عليه السلام، فسألته عنهما يومًا، فقال: ما تصنع بهما و بحديثهما؟ إنّي لأتّهمهما في بني هاشم[7]. وكان إذا ذكر عليًّا نال منه[8]، و يصيبه الزّمع فيسبّه، و يضرب إحدى يديه على الأُخرىٰ إلخ[9].

و بعد ذلك كلّه، فإنّه لم يثبت سماع الزُّهْريّ عنه، و لكنّ أهل الحديث اتّفقوا على ذلك[10].

٣ـ أمّا عائشة الّتي حاربت عليًّا و عادته، و الّتي يتّهمها الزُّهْريّ بأنّها لا تؤمن في بني

---

١ ـ الكن: البيت.

٢ ـ شرح النّهج للمعتزليّ ٤: ١٠٢ و الغارات للثّقفي ٢: ٥٧٨. و البحار ٤٦: ١٤٣).

٣ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٢١ و صحّحه الذّهبيّ في تلخيص المستدرك هامش نفس الصّفحة.

٤ ـ سُنن البَيْهَقيّ ٨: ١٦٥ و قريب منه ما في: ١٦٤ من دون ذكر اسم «عُرْوَة»، و مثله التّرغيب و التّرهيب ٤: ٣٨٢ عن البخاريّ، و إحياء علوم الدّين ٣: ١٥٩ و في هامشة عن الطّبرانيّ.

٥ ـ شرح النّهج للمعتزليّ ٤: ٦٣.

٦ ـ صفة الصّفوة ٢: ٨٥، و تهذيب التّهذيب ٧: ١٨٢.

٧ ـ شرح النّهج للمعتزليّ ٤: ٦٤، و قاموس الرّجال ٦: ٢٩٩.

٨ ـ الغارات ٢: ٥٧٦، و شرح النّهج ٤ : ١٠٢.

٩ ـ قاموس الرّجال ٦: ٣٠٠.

١٠ ـ تهذيب التّهذيب ٩: ٤٥٠.

هاشم، فقد أرسلت هذه الرّواية، و لم تبيّن لنا عمّن روتها فإنّهم يقولون: إنّها قد ولدت بعد البعثة، و إن كنّا نحن نناقش في ذلك، كماربّما نشير إليه في ما يأتي.

و أخيرًا، فإنّ لنا كلامًا طويلاً في بقيّة رجال الأسانيد في الصّحاح و غيرها لا مجال له هنا، و نكتفي بهذا القدر، لنشير إلى بقيّة ما في الرّواية من مواضع للنّظر، فنقول:

و **ثانيًا** ـ تناقض الرّوايات الظّاهر لدى كلّ أحد، و يظهر ذلك بالملاحظة و المقارنة، و نكل ذلك إلى القارىء نفسه. و لو أنّ الاختلاف كان بالزّيادة و النّقيصة لأمكن قبوله، على اعتبار أنّ أحدهما حفظ دون الآخر، أو تعلّق غرضه بهذا النّحو من النّقل، و ذاك بنحو آخر. و كذا لو كان التّناقض في مورد واحد مثلاً، فلربّما يمكن الاعتذار عن ذلك بأنّ من الممكن وقوع الاشتباه غير العمدي من أحد النّقلة.

و لكنّ الأمرهنا أبعد من ذلك، فإنّ التّناقض و الاختلاف إن لم يكن في كلّ ما تضمّنته تلك الرّوايات من نقاط، ففي جلّها ممّا يعني أنّ ثمّة تعمّدًا للوضع والجعل، وقديمًا قيل: لا حافظة لكذوب.

هذا كلّه مع غضّ النّظر عن المناقضة بين هذه الرّوايات و بين الرّواية الّتي يذكرها البُخاريّ نفسه في أوّل كتابه بعد هذه الرّواية مباشرة، من أنّ أوّل ما نزل عليه ﷺ هو سورة المدّثّر، وليس في تلك الرّواية ذكر لأيّ شيء من تلك الأُمور الغريبة و العجيبة الّتي تضمّنتها رواية عائشة السّابقة عليها.

و **ثالثًا** ـ إنّ رواية الصّحاح، بل و سائر الرّوايات تذكر أنّ جبرئيل قد أخذ النّبيّ ﷺ فغطّه، أي عصره و حبس نفسه أو خنقه، حتّى بلغ منه الجهد، أو حتّى ظن أنّه الموت، ثمّ أرسله، و أمره بالقراءة، فأخبره النّبيّ ﷺ أنّه لا يعرفها، فلم يقنع منه، بل عاد فغطّه، ثمّ أرسله، و هكذا ثلاث مرّات.

و لنا على هذا الكلام العديد من الأسئلة؛ فإنّنا لانعرف ما هو المبرّر لذلك كلّه؟ كيف جاز لجبرئيل أن يروّع النّبيّ الأعظم ﷺ، و أن يؤذيه بالعصر والخنق، إلى حدّ أنّه ﷺ يظنّ أنّه الموت؟ يفعل به ذلك، وهو يراه عاجزًا عن القيام بما يأمره به، و لا يرحمه، و لا يلين معه! و لماذا يفعل به ذلك ثلاث مرّات، لاأكثر و لا أقلّ؟ و لماذا صدّقه في الثّالثة، ولا

يصدّقه في المرّة الأُولى أو الثّانية؟ و إذا كان النّبيّ ﷺ قد كذب عليه أوّلاً، فكيف بقي أهلاً للنّبوّة؟ و إذا كان قد صدّقه فلما ذالم يقتنع جبرئيل بكلامه، و عاد فخنقة حتّى ليظنّ أنّه الموت؟!.

و أيضًا، هل جاء جبرئيل إليه بكتاب ليقرأه؟ إذ أنّ قوله ﷺ: «ما أنا بقارىء» إنّما يصحّ لو كان ﷺ قدفهم أنّ جبرئيل يأمره بالقراءة نفسها لا بتعلّم القراءة كما ذكره السّنديّ[1]...

و إذا كان المراد القراءة بمعنى التّلاوة، فلماذا يطلب منه جبرئيل ذلك قبل أن يتلوا عليه شيئًا؟ ثمّ لماذا يعاند هو و يرفض ذلك؟ وبعد هذا كلّه، لماذا يستسلم النّبيّ ﷺ لجبرئيل ليعذّبه على هذا النّحو الّذي لا مبرّرله؟.

ثمّ لماذا يرجع مرعوبًا خائفًا؟ ألم يكن باستطاعته أن يلطمه لطمةً يقلع بها عينه كما فعل موسى بملك الموت من قبل؟ حيث إنّه لمّا جاء ليقبض روحه، لطمه على عينه فقلَعَها، كما نصّ عليه البُخاريّ و كثير من المصادر الأُخرى[2]. أم يعقل أنّه كان ـ والعياذ بالله ـ جبانًا إلى هذا الحدّ؟ و كانت الشّجاعة من مختصّات نبيّ الله موسى وحده؟.

إشارة: هذا، و من المضحك المبكي هنا، أن نجد البعض يحاول أن يستدلّ بهذه الرّواية على رأي يكذّبه العقل و النّقل، وبالذّات يكذّبه نصّ القرآن الكريم، فنراه يجعل ذلك دليلاً على جواز التّكليف بما لا يطاق[3] ـ كما هو مذهبهم ـ الأمر الّذي يصادم العقل و الفطرة، و يخالف القرآن، كما في قوله تعالى: **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَا﴾**[4] و قوله: **﴿مَا جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[5]، و قوله: **﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَيُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾**[6]، و غير ذلك كثير.

رابعًا ـ حول ما يذكر من خوفه ﷺ، و دور زوجته و وَرَقَة و غيرهما في بعث الطّمأنينة في نفسه نذكر:

---

١ ـ حاشية السّنديّ على البُخاريّ بهامشه ١: ٣ ط: سنة ١٣٠٩.

٢ ـ البُخاريّ ١: ١٥٢، أبواب الجنائز و ٢: ١٥٩ باب وفاة موسى عليه السلام و صحيح مُسلم ٧: ١٠٠ باب فضائل موسى، و مسند أحمد ٢: ٣١٥. و مصنّف الحافظ عبدالرّزّاق ١١: ٢٧٤ و سنن النّسائيّ ٤: ١١٨ و تاريخ الطّبَريّ ١: ٣٠٥، و البداية و النّهاية ١: ٣١٧، و الغدير ١١: ١٤٠ و ١٤١، و عن مختصر تذكرة القُرطبيّ للشّعْرانيّ: ٢٩، و العرائس للثّعلبيّ: ١٣٩.

٣ ـ فتح الباريّ ٨: ٥٥١ و ارشاد السّاريّ ١: ٦٣.

٤ ـ البقرة /٢٨٦.

٥ ـ الحجّ /٧٨.

٦ ـ البقرة /١٨٥.

ألف ـ كيف يجوز إرسال نبيّ يجهل نبوّة نفسه، و يحتاج في تحقيقها إلى الاستعانة بامرأة أو نصرانيّ؟ ألم تكن هي ـ فضلاً عن ذلك النّصرانيّ ـ أجدر بمقام النّبوّة من ذلك الخائف المرعوب الشّاك؟ و لماذا لم يستطع هو أن يدرك ما أدركته تلك المرأة، و ذلك النّصرانيّ؟ أم يعقل أن يكون كلاهما أكبر عقلاً و أكثر معرفةً بالله و تفضّلاته منه؟ نعوذ بالله من الزّلل في القول و العمل...

و إذا جاز أن يرتاب هو مع معاينته لما يأتيه من ربّه، فكيف ينكر على من ارتاب من سائر النّاس، مع عدم معاينتهم لشيء من ذلك؟ قال السّنديّ: مقتضى جواب خديجة، والذّهاب إلى وَرَقَة أنّ هذا كان منه على وجه الشّكّ، و هو مشكل بأنّه لمّا تمّ الوحي صار نبيًّا، فلا يمكن أن يكون شاكًّا بعد في نبوّته، و في كون الجائي عنده ملكًا من الله، و كون المنزل عليه كلام ربّ العالمين.

ثمّ حاول السّنديّ توجيه ذلك بأنّه٩ أراد اختبار خديجة، و أن يمهّد لإعلامها بالأمر[1].

و هو توجيه عجيب، فإنّنا لم نعهد منهﷺ اتّباع مثل هذه الأساليب الملتوية في الوصول إلى مقاصده، و نحن نجلّهﷺ عن نسبة الكذب إليه على خديجة، معاذ الله، ثمّ معاذ الله! ثمّ كيف يتناسب ذلك مع كونه أراد أن يلقي نفسه من شواهق الجبال، وغير ذلك ممّا تقدّم ممّا ذكرته روايات الوحي؟.

و أيضًا، كيف يبعث الله رجلاً، قبل أن يربّيه تربية صالحة، و يعدّه إعدادًا تامًّا، بحيث يستطيع أن يكون في مستوى الحدث العظيم الّذي ينتظره؟ نعم، كيف أهمله هكذا حتّى إنّه حين بعثته ليبدو مذعورًا خائفًا، ظانًّا بنفسه الجنون، يريد أن يلقي بنفسه من شواهق الجبال، **حتّى كأنّه طفل تائه، يملأ قلبه الهمّ، يحتاج إلى من يطمئنه و يهديه و يأخذ بيده،و لو امرأة أو أي إنسان عاديّ آخر؟ هذا كلّه عن أنّ ذلك يدلّ على ضعف إرادته و ضآلة شخصيّته.**

وأين ذهبت عن ذاكرته تلك الكرامات الّتي يواجهها دون كلّ أحد، كتسليم الشّجر والحِجارة عليه[2]، والرُّؤيا الصّادقة، و غير ذلك ممّا ذكره المؤلّفون و المؤرّخون؟.

---

١ ـ حاشية السّنديّ بهامش البُخاريّ ط: سنة ١٣٠٩ هـ ١: ٣.

٢ ـ سيرة ابن هِشام ١: ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

ب ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١]. وقال تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ اٰمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٢]. و قال: ﴿إِنِّى عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّى﴾[٣]، و قال: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى اَدْعُوا اِلَى اللهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ اَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾[٤].

و إذن، فالنّبوّة و تنزيل القرآن ليس إلاّ لتثبيت المؤمنين، و لتثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ، وهذا يتنافى مع قولهم: إنّ نفسه الشّريفة قد سكنت اعتمادًا على قول نصرانيّ أوامرأة. كما أنّ من الواضح أنّه لاحجّة بيّنة في قول وَرَقَة أو خديجة، فكيف صحّ أن يقول: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى اَدْعُوا اِلَى اللهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ اَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى...﴾؟

و **خامسًا** ـ لابدّ من الإشارة إلى بعض الكلام حول وَرَقَة و نِسْطور و عَدّاس و بَحيرا و غيرهم، ممّن ذكرت أسماؤهم فيما تقدّم، و عمدة الرّوايات تتّجه نحو وَرَقَة و تركّز عليه، **و لا سيّما و أنّه هوالّذي نصّ عليه البُخاريّ و غيره من المصادر الموثوقة لدى غير الشّيعة.**

١ـ أمّا نِسطور و بَحيرا فهما الرّاهبان اللّذان تنسب إليهما القضيّة الّتي جرت للنّبيّ ﷺ في صِغَره، حينما سافر مع أبي طالب إلى الشّام و بُصرى؛ حيث بَشَّر نِسْطور أو بَحيرا بنبوّة النّبيّ ﷺ، و أمر بإعادته ﷺ إلى مكّة كما تقدّم.

و إذا كان بَحيرا أو نِسطور في بُصرىٰ ـ و هي قصبة كورة حوران في الشّام من أعمال دمشق ـ فيردالسّؤال كيف سافرت خديجة من مكّة إلى الشّام هذه السّفرة الطّـويلة؟ أو متى كتبت إليه مع أنّهم يقولون: إنّه ﷺ بعث في أوّ ل يوم، فأسلم عليّ و خديجة عليهما السلام في اليوم الثّاني، و صلّيا معه مسلمين مؤمنين بنبوّته؟ و هل كان في ذلك الزّمان طائرات؟ أو أنّها سافرت على بساط الرّيح أو طويت لها الأرض؟! و لا ندري فـلعلّهم قـد انـتقلوا ليسكنوا قرب مكّة؛ لتتمكنّ خديجة من استشارتهم في الوقت المناسب، ثمّ لا يعود يسمع لهما ذكر أصلاً ؛ لأنّ مهمّتهما قد انتهت.

٢ـ وَ عَدّاس، أليس هو الّذي أسلم على يد النّبيّ ﷺ في الطّائف بعد عشر سنين من

---

١ ـ الفرقان /٣٢.
٢ ـ النّحل /١٠٢.
٣ ـ الأنعام /٥٧.
٤ ـ يوسف /١٠٨.

البعثة، أي بعد وفاة أبي طالب عليه السلام؟ و تروي القصّة بنحو يدلّ أنّ عَدّاسًا لم يكن يعرف النّبيّ صلى الله عليه و آله قبل ذلك، و ستأتي القصّة. كما أنّ الرّوايات تنصّ على أنّ جوابه هو نفس جواب وَرَقَة، و على أنّه كان ـ كَوَرَقَة ـ راهبًا كبير السّنّ، قد وقع حاجباه على عينيه، و قد ثقل سمعه إلخ. و هذه الأوصاف يشاركه فيها غيره ممّن سألتهم خديجة، ماعداثقل السّمع الّذي عوّض عنه وَرَقَة المسكين بالعمى.

و يبقى هنا سؤال أخير، و هو إنّه كيف لم يسمع بإسلام هؤلاء: بَحيرا و عدّاس و نِسْطور من حين بعثته صلى الله عليه و آله مع معرفتهم بأنّ النّبيّ صلى الله عليه و آله قد بعث، و مع أن سند نبوّته تلقّاه صلى الله عليه و آله منهم حسب نصّ الرّوايات المتقدّمة؟.

كما أنّ رواية عدّاس تقول: إنّه لمّا عادت خديجه من عند عَدّاس، إذا بجبرئيل يقرئ النّبيّ صلى الله عليه و آله سورة القلم. و هذا مخالف لما يذكره المفسّرون من أنّ هذه السّورة إنّما نزلت حينما وصف المشركون النّبيّ صلى الله عليه و آله بأنّه مجنون[1]، و واضح أنّ هذا لم يحصل إلاّ بعد انتهاء فتره الدّعوة السّريّة، و حينما صدع بما يؤمر به كما هو معلوم.

٣ـ وَ وَرَقَة، فإنّهم بالإضافة إلى ما ينسبونه له من دورهامّ في تثبيت نبوّة نبيّنا صلى الله عليه و آله، نجدهم يذكرون أنّه صلى الله عليه و آله قد قال عن وَرَقَة كلامًا يدلّ عَلى أنّه في الجنّة، و لكنّهم اختلفوا في نصّ ذلك الكلام، ففي رواية: «لا تسبّوا وَرَقَةـ فإنّي رأيت له جنّة، أوجنّتينِ...» أو «رأيته في ثياب بيض» و في أُخرى: «لقد رأيت القسّ ـ يعني وَرَقَة ـ في الجنّة عليه ثياب الحرير» و في ثالثة «أبصرته في بطنان الجنّة و عليه ثياب السّندس» و في رابعة «قد رأيته فرأيت عليه ثيابًا بيضًا، و أحسبه لو كان من أهل النّار لم تكن عليه ثياب بيض»[2].

وعدّه ابن مَنْدَة في الصّحابه، و عدّه الزّين العراقيّ على أنّه أوّل من أسلم، و مال إليه البُلقَيْنيّ[3].

---

١ ـ الدّرّ المنثور ٦: ٢٥٠ و السّيرة الحَلَبيّة ١: ٢٤٤.

٢ ـ راجع في تلكم النّصوص مستدرك الحاكم ٢: ٦٠٩ و تلخيصه للذّهبيّ هامش نفس الصّفحة، و صحّحاه على شرط الشّيخين، و سيرة مُغْلَطاي: ١٥ عن الحاكم، و المصنّف ٥: ٣٢٤ و نسب قُريش لَمَصعب الزُّبَيْريّ: ٢٠٧، والبَداية و النّهاية ٣: ٩ و الرّوض الأنُف ١: ٢٧٥ و السّيرة الحَلبيّة ١: ٢٥٠ و أُسد الغابة ٥: ٨٩ و الإصابة ٣: ٦٣٥ و غير ذلك...

٣ ـ شرح بهجة المحافل ١: ٧٤ و إرشاد السّاريّ ١:٦٧.

و تقدّم في الرّوايات بدء الوحي الّتي هي موضع المناقشة أنّه صدّق النّبيّ ﷺ، وعرّفه أنّه نبيّ، و وعده النّصر، ثمّ لم ينشب أن توفّي. هذا ما قيل عنه، و لكنّنا نجد في مقابل ذلك:

١ـ أنّ ابن عَساكِر يقول: لا أعرف أحدًا قال: إنّه أسلم[١].

٢ـ و ابن الجَوْزيّ يقول: إنّه آخر من مات في الفترة، و دفن في الحجون، فلم يكن مسلمًا، و كذا قال غيره[٢].

٣ـ و ابن عَبّاس يقول: مات على نصرانيّته[٣].

٤ـ لقد مات على نصرانيّته، مع أنّه عاش بعدالبعثة عدّة سنوات، فكيف يدخل الجنّة إذن؟ و يدلّ على أنّه عاش بعد البعثة عدّة سنوات مارواه غير واحد من أنّه كان يمرّ ببلال و هو يعذّب، ونها هم عنه فلم ينتهوا، فقال: والله، لئن قتلتموه لأتّخذنّ قبره حنانًا[٤] و تعذيب بلال إنّما كان بعد الإعلان بالدّعوة كما هو معروف.

وكيف يصحّ قول البعض: إنّه مات بعد النّبوّة و قبل الرّسالة[٥]؟.

وقد أسلم عليّ وخديجة، وصلّيا ثاني يوم البعثة، بدعوة منه ﷺ، فلماذا بقي وَرَقَة على نصرانيّته هذه السّنين المتعدّدة؟.

هذا، عداعن أنّ البعض قد استنتج ممّا رواه البخاريّ و غيره، من أنّ سورة المدّثّركانت أوّل مانزل عليه ﷺ و بالذّات من قوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ استنتج أنّ البعثة كانت مقترنة بالنّبوّة[٦].

٥ـ قال في «الإمتاع» وغيره: إنّ وَرَقَة قد توفّي في السّنة الرّابعة للمبعث، أوبعد تتابع الوحي[٧].

١ ـ الإصابة ٣: ٦٣٣.

٢ ـ الإصابة ٣: ٦٣٤ و السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٣ ـ ٨٤ و السّيرة الحلبيّة ١: ٢٥٠.

٣ ـ السّيرة الحلبيّة ١: ٢٥٠ و الإصابة ٣: ٦٣٤.

٤ ـ حِلية الأولياء ١: ١٤٨ و نسب قُريش لمَصْعب: ٢٠٨، و إرشاد السّاريّ ١: ٦٧ و فتح الباريّ ١: ٢٦ و ٨: ٥٥٤ و السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٤ و ١٢٥ و السّيرة الحلَبيّة ١: ٢٥٢ و الإصابة ٣: ٦٣٤، و ليراجع نهاية ابن الأثير ١: ٢٦٦ و السّيرة النّبويّة لا بن كثير ١: ٤٩٢.

٥ ـ السّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٤ و غيره...

٦ ـ السّيرة الحلَبيّة ١: ٢٥١.

٧ ـ السّيرة الحلَبيّة ١: ٢٥٠ و ٢٥٢ عن كتاب الخميس عن الصّحيحين، والسّيرة النّبويّة لدَحْلان ١: ٨٤.

٦ـ بل نقل عن الواقِديّ أنّه توفّى بعد الأمر بالقتال[١]، و كان ذلك بعد الهجرة.

و عليه فكيف يكون ورقة في الجنّة عليه ثياب السّندس أو الحرير؟ و كيف يكون هو في الجنّة، و أبوطالب حامي الإسلام و الدّين في ضحضاح من نار؟!.

و بعد ذلك كلّه، فإنّنا لم نفهم سبب تردّد النّبيّ صلّى الله عليه و آله في أن يكون له جنّة أو جنّتان، ولانفهم أيضًا لماذا قال: و أحسبه لو كان من أهل النّار لم يكن عليه ثياب بيض»؟ أم لعلّه نسي أنّه قد قال: إنّه رآه في الجنّة عليه ثياب السّندس أو الحرير؟ أو أنّ النّبيّ نفسه صلّى الله عليه و آله قد ترقّى و تدرّج في التّعرّف على ما لوَرَقَة من مقام؟ أم أنّ وَرَقَة نفسه قد ترقّى في مدارج القرب و الزُّلفى؟!.

و أخيرًا، فإنّنا لاندري بعد ورود تلك الأقوال فيه لماذا لم يحكم المسلمون جميعًا **بأنّه أوّل من أسلمَ، لا عليّ و لا خديجة و لا غيرها؟ و لماذا لا يعدّونه من جملة الصّحابة؟.**

و كيف يقولون: إنّه توفّي و هو على نصرانيّته؟ ثمّ كيف يدخل هذا النّصرانيّ الجنّة؟

كانت تلك بعض الأسئلة الّتي تحتاج إلى جواب، و أنّى...

و ثمّة أسئلة أُخرى

هذا غيض من فيض ممّا يرد على تلك الرّوايات، و بقي فيها الكثير من الأسئلة الّتي تحتاج إلى جواب، فمثلاً حول ذهاب المَلَك حينما كشف خديجة قناعها، وأدخلته صلّى الله عليه و آله بين درعها و جلدها. يستدعي سؤال: إنّه هل الحجاب في ذلك الوقت **مفروضًا تلتزم به النّساء؟ و كيف و هم يقولون: إنّ الحجاب قد فرض في المدينةبعدالهجره و بعد وفاة خديجة عليها السّلام؟ فكيف إذن أدركت خديجة أنّ المَلَك يذهب إذا كانت بلاقناع؟.**

و أيضًا هل الملك مكلّف بعدم النّظر إلى نساء البشر؟ و هل للملك شهوة كشهوة الإنسان لابدّ من الاحتراس منها؟ و من أين عرفت خديجة كلّ ذلك؟.

وسؤال آخر، إنّ بعض الرّوايات تقول: إنّ الملك قد أخبره أنّه رسول الله، و ليس مايراه من قبيل الشّعر أو الجنون، فلماذا بقي شاكًّا، واحتاج تثبيت خديجة و وَرَقَة أو

---

١ ـ إرشاد السّاريّ ١: ٦٧.

غيرهما له؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة الّتي لن تجدلها عند هؤلاء الجواب المقنع و المفيد.

و من الطّعن في النّبوّة أيضًا

وبالمناسبة، فإنّ كلّ ما تقدّم لم يكفهم، بل زادوا عليه أنّه كان للنّبيّ ﷺ عدوّ من شياطين الجنّ يسمّى الأبيض، كان يأتيه في صورة جبرئيل، و لعلّه الشّيطان الّذي أعانه‌الله عليه فأسلم كما يقولون[1]، و شيطانه هذا الّذي أسلم كان يجري منه مجرى الدّم[2]، و كان يدعوالله بأن يخسأ شيطانه، فلمّا أسلم ذلك الشّيطان ترك ذلك[3].

و يروون أيضًا أنّه ﷺ قد صلّى بهم الفجر، فجعل، يهوي بيديه قُدّامه و هو في الصّلاة، و ذلك لأنّ الشّيطان كان يلقي عليه النّار؛ ليفتنه عن الصّلاة[4].

و نحن لانشكّ في أنّ هذا كلّه من وضع أعداء الدّين، بهدف فسح المجال أمام التّشكيك في النّبوّة و في الدّين الحقّ. و قد أخذه بعض المسلمين ـ لربّما ـ بسلامة نيّة، وحسن طويّة، و بلاتدبّر أو تأمّل، سامحهم الله و عفاعنهم.

والغريب في الأمر أنّنا نجدهم في مقابل ذلك يروون عنه ﷺ قوله لعمر: «والّذي نفسي بيده، مالقيك الشّيطان قطّ سالكًا فجًّا، إلاّ سلك فجًّا غير فجّك[5]»، و قوله له: «إنّ الشّيطان ليخاف منك يا عمر[6]، و قوله: «إنّ الشّيطان لم يلقَ عمر منذ أسلم إلاّخرّ لوجهه[7]». وعن مجاهد: كنّا نتحدّث، أو نحدّث إنّ الشّياطين كانت مصفّدة في إمارة عمر، فلمّا أُصيب بثّت[8]. و صارع عمر الشّيطان مرّات، و في كلّ مرّة يصرعه عمر[9].

---

١ ـ السّيرة الحَلَبيّة ١: ٢٥٣، وراجع إحياء علوم الدّين ٣: ١٧١ و في هامشه عن مُسلم، و الغدير ١١: ٩١ عنه، والمواهب اللّدنّية ١:٢٠٢ و مشكل الآثار ١: ٣٠، وراجع حياة الصّحابة ٢: ٧١٢ عن مُسلم و عن المشكاة: ٢٨٠.

٢ ـ مشكل الآثار ١:٣٠. ٣ ـ المصدر السّابق.

٤ ـ المصنّف ٢: ٢٤ وراجع البُخاريّ ط: سنة ١٣٠٩ هـ ١:١٣٧ و ٢: ١٤٣.

٥ ـ صحيح مُسلم ٧: ١١٥، و البُخاريّ ط: سنة ١٣٠٩ (٢: ١٤٤ و ١٨٨ و مسند أحمد ١:١٧١ و ١٨٢ و ١٨٧.

٦ ـ صحيح التِّرمِذيّ كتاب ٤٦ باب ١٧، و فيض القدير عنه و عن أحمد و ابن حبّان.

٧ ـ عن فيض القدير ٢:٣٥٢ عن الطّبَرانيّ و ابن مَنْدة و أبي نُعَيْم، و الإصابة ٤: ٣٢٦ عنهم.

٨ ـ منتخب كنز العمّال، هامش مسند أحمد ٤: ٣٨٥ ـ ٣٨٦، عن ابن عساكِر و حياة الصّحابة ٣:٦٤٧ عن المنتخب.

٩ ـ حياة الصّحابه ٣: ٦٤٦ عن مجمع الزّواعد ٧:٧١ عن الطّبَرانيّ، و عن أبي نُعَيْم في الدّلائل: ١٣١.

هذا عمر! و هذه حالة الشّيطان معه! و ذلك هو نبيّ الإسلام الأعظمﷺ، و تلك هي حالته مع الشّيطان عند هؤلاء الّذين تروق لهم هذه التّرهات، و يتقبّلونها من أعداء الإسلام والمتاجرين به بسذاجة هي إلى الغباء أقرب. و لربّما يكون الدّافع لدى بعضهم أن يجد لأبي بكر الّذي قال حين أصبح خليفة: إنّ له شيطانًا يعتر يه أن يجدله نظيرًا، ولكن من مستوى لايداني و لا يجاري، فوقع اختياره على النّبيّ الأعظمﷺ، ليكون هو ذلك النّظير، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون.

ما هو الصّحيح في قضيّة بدء الوحي؟

و الّذي نطمئنّ إليه هو أنّه قد أوحي إلى النّبيّﷺ، و هو غار حِراء، فرجع إلى أهله مستبشرًا مسرورًا بما أكرمه الله به مطمئنًّا إلى المهمّة الّتي أوكلت إليه ـ كما يرويه ابن إسحاق، و أشارت إليه الرّواية الأخيرة الّتي تقدّمت عند ذكر نصوص الرّوايات، و إن كان قد زيد فيها مالا يصحّ ـ فشاركه أهله في السّرور، و أسلموا، و قد روي هذا المعنى عن أهل البيتعليهم السلام. فعن زُرارة أنّه سأل الإمام الصّادقعليه السلام: كيف لم يخف رسول اللهﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشّيطان؟ فقال «إنّ الله اتّخذ عبدًا رسولاً، أنزل عليه السّكينة و الوقار، فكان الّذي يأتيه من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه»[1]. و سئلعليه السلام: كيف علمت الرّسل أنّها رسل؟ قال: «كشف عنهم الغطاء»[2].

و قال الطَّبرِسيّ: إنّ الله لايوحي إلى رسوله إلاّ بالبراهين النّيّرة، والآيات البيّنة الدّالّة على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولايَفْزَع ولايَفْرَق[3].

و قال عَيّاض: لايصحّ أن يتصوّر له الشّيطان في صورة الملك، و يلبس عليه الأمر، لافي أوّل الرّسالة و لابعدها، والاعتماد في ذلك على دليل المعجزة، بل لا يشكّ النّبيّ أنّ ما يأتيه من الله هو الملك و رسوله الحقيقيّ، إمّا بعلم ضروريّ يخلقه الله له، أو

١ ـ التّمهيد في علوم القرآن ١: ٤٩ عن العيّاشيّ ٢: ٢٠١ و البحار ٨: ٢٦٢.

٢ ـ التّمهيد ١: ٥٠ و البحار ١١: ٥٦.

٣ ـ مجمع البيان ١٠: ٣٨٤، والتّمهيد ١: ٥٠.

ببرهان جليّ يظهره الله لديه؛ لتتمّ كلمة ربّك صدقًا و عدلاً، لا مبدّل لكلمات الله[١]

لماذا الكذب و الافتعال إذن؟

و بعد كلّ ما تقدّم، فإنّنا نرى أنّ افتعال تلك الأكاذيب يعود لأسباب، أهمّها:

١ـ إنّ حديث الوحي هو من أهمّ الأُمور الّتي يعتمد عليها الاعتقاد بحقائق الدّين وتعاليمه، و له أهمّية قصوىٰ في إقناع الإنسان بضرورة الاعتماد في التّشريع و السّلوك والاعتقاد و الإخبارات الغيبيّة، و كلّ المعارف و المفاهيم عن الكون و عن الحياة على الرّسل و الأنبياء و الأئمّة و الأوصياء. و له أهمّيّة كُبرى في إقناعه بعصمة ذلك الرّسول، وصحّة كلّ مواقفه و سلوكه و أقواله و أفعاله.

فإذا أمكن أن يتطرّق الشّكّ في نفسه إلي الوحي، على اعتبار أنّه إذالم يستطع النّبيّ ﷺ **نفسه أن يفرقّ بين الملك و الشّيطان و الوسوسة و الحقيقة، و هو يعاين ويشاهد، فإنّ غيره و هو لا يتيسّرله الإطّلاع الحسّي على شيء من ذلك يكون أولى بالشّك و عدم الاعتماد.**

وقد نقل الحجّة البلاغيّ؛ أنّ بعض أهل الكتاب قد نقض على المسلمين بذلك، فقال: الشّيطان قرين محمّد، و تشبّث بنقله عن بعض المفسّرين قولهم: إنّه كان لرسول الله عدوّ من شياطين الجنّ، كان يأتيه بصورة جبرئيل، و أنّه يسمّى الأبيض[٢]. و بعد هذا، فإنّنا نستطيع أن نعرف سرّ محاولات أعداء الإسلام الدّائبة للتّشكيك في اتّصال نبيّنا الأعظمﷺ بالله تعالى، فافتعلوا الكثير ممّارأوه مناسبًا لذلك، من الوقائع و الأحداث الّتي رافقت الوحي في مراحله الأُولى، أو حرّفوه و حوّروه حسب أهوائهم و خططهم و مذاهبهم، على اعتبار أنّها فترة بعيدة نسبيًّا عن متناول الأيدي عادة. فلمّا فشلوا في ذلك حاولوا ادّعاء أنّ ما جاء به نبيّناﷺ كان نتيجة عبقرّيته و نبوغه، و عمق تفكيره، و معرفته **بطرق استغلال الظّروف، و انتهاز الفرص، و ليس لأجل اتّصاله بالمبدئ الأعلى تبارك وتعالى.**

وهكذا، فإنّنا نستطيع أن نتّهم يد أهل الكتاب في موضوع الأحداث غير المعقولة

---

١ ـ التّمهيد ١: ٥٠ عن رسالة الشّفاء: ١١٢.

٢ ـ الهُدى إلى دين المصطفى ١: ١٦٩ عن كتاب الهداية في الرّد على إظهار الحقّ، و السّيف الحميديّ ٣: ٥.

الّتي تنسب زورًا و بهتانًا إلى مقام نبيّنا الأعظمﷺ حين بعثته، و لاأقلّ من تشجيعهم لمثل هذه التّرهات.

٢ـ كما أنّه لا بدّ و أن يحتاج نبيّناﷺ إليهم لإمضاء صكّ نبوّته، و تصديق وحيه، ويكون مدينًا لهم، و على كلّ مسلم أن يعترف بفضلهم، و بعمق وسعة اطّلاعهم، ومعرفتهم بأُمور لا يمكن أن تعرف إلاّ من قبلهم، فكان اختراع هذا الدّور لَوَرَقة و عَدّاس و بَحيرا وناصح و نَسطور، وكلّهم أهل الكتاب.

٣ـ إنّنا لا ندري لماذا اختصّ نبيّناﷺ بكلّ تلك المصاعب و الأهوال، وبهذه المعاملة السّيّئة من جبرائيل؟ حتّى لقد صرّح البعض أنّه لم ينقل عن أيّ من الأنبياء السّابقين أنّه تعرّض لمثل ذلك عن ابتداء الوحي، حتّى عدّ ذلك من خصائص نبيّناﷺ [١].

و لكن، هذا الإشكال ينحلّ إذا لاحظنا أنّ بعض الأُمور و الأحوال غير المعقولة قد تسرّبت إلى بعض المسلمين من قبل أهل الكتاب، حتّى أصبحت جزء من التّاريخ و الفقه و العقائد و إلخ.

و إذن، فليس غريبًا أن نجد ملامح هذه القصّة موجودة في العهدين، فقد جاء في الكتابين اللّذَين يطلق عليهما اسما التّوراة و الإنجيل: أنّ دانيال خاف و خرّ على وجهه، وزكريّا اضطرب ووقع عليه الخوف، و يوحنّا سقط في رؤياه كميّت، وعيسىٰ تغيّرت هيئة وجهه، وبُطرس حصلت له غيبوبة و إغماء، و هكذا الحال بالنّسبة ليعقوب و إبراهيم وغيرهم.[٢]

و لكن ذلك لايعني أنّنا ننكر ثقل الوحي عليهﷺ، فإنّ ذلك بحث آخر[٣]، و لكنّنا ننكر اضطرابه و خوفهﷺ، حتّى أراد أن يتردّى من شواهق الجبال، و خاف على نفسه الجنون. و ننكر ما فعله به جبرئيل، حسب ما ذكرته الرّوايات المتقدّمة، فإنّ الظّاهر أنّ ذلك قد تسرّب من قبل أهل الكتاب إلى المحدّثين الأتقياء، أو فقل: الأغبياء، كما هو

١ ـ بهجة المحافل ١:٦٢ و فتح الباري ٨:٥٢، و إرشاد السّاريّ ١:٦٣ و السّيرة الحَلبيّة ١: ٢٤٢.

٢ ـ راجع في ذلك كلّه الهُدى إلى دين المصطفى، للحجّة البلاغيّ ١: ١٤.

٣ ـ و قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾، يرى المحقّق السّيّد مهديّ الرّوحانيّ أنّ معناه أنّ مهمّة دعوة النّاس إلى الحقّ و ترك عاداتهم و ماهم عليه حتّى يزكّيهم، من أثقل الأُمور و أصعبها.

الحال في كثير من نظائر المقام، حسبما يظهر للنّاقد البصير، والمتتبّع الخبير.

٤ـ إنّك تجد في العهدين أنّ الشّيطان يتصرّف بالأنبياء و غيرهم حتّى بـابن الإله بزعمهم، فيقولون: إنّ الرّوح أصعد المسيح إلى البريّة أربعين يومًا؛ ليجرّب من قبل إبليس، فأصعده الشّيطان إلى جبل عالٍ، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزّمان، و قال له: أعطيك هذا السّلطان كلّه، واسجدلي إلخ[١].

وقال في موضع آخر: و لمّا أكمل إبليس كلّ تجربة (أي مع المسيح) فارقه إلى حين[٢].

ويقول بولس الرّسول: و لئلاّ أرتفع بفرط الأعلانات أعطيت شوكة في الجسد ملاك الشّيطان ليلطمني: لئلاّ أرتفع، من جهة هذا تضرّعت إلى الرّب ثلاث مرّات أن يفارقني[٣].

ويقولون في موضع آخـر: لذلك أردنـا أن نأتـي أنـا و بـولس مـرّة و مـرّتين، و إنّما عاقنا الشّيطان[٤].

كما أنّ الإنجيل يذكر أنّ المسيح قد عبّر عن بُطرس بأنّه الشّيطان[٥]، إلى غير ذلك ممّا **لامجال لتتبّعه، و لا بأس بمراجعة كتاب الهُدى إلى دين المصطفى (١: ١٦٩ ـ ١٧٣) في ذلك.**

٥ـ و عداعن ذلك كلّه، فإنّنا لانستبعد أن يكون الهدف من جعل تلك التّرهات هو الحطّ من كرامة النّبيّ الأعظمﷺ، و الطّعن في قـدسيّته و مـقامه فـي نـفوس النّـاس، وتصويره لهم على أنّه رجل عاديّ مبتذل، و لا أدلّ على ذلك من احتياجه إلى أبسـط النّاس حتّى النّساء؛ ليرشده إلى طريق الهُدى، و يدلّه على الحقّ، ممّا يدلّ على أنّه قاصر محتاج باستمرار إلى مساعدة الآخرين الّذين هم أحسن تصرّفًا و أكثر تعقّلاً منه. و قد أشرنا في تمهيد الكتاب إلى بعض ما يمكن أن يقال في ذلك، و أنّ الظّاهر هو أنّ تلك خطّة السّياسيّين الّذين يريدون أن يرغموا أُنوف بني هاشم، و يبزّونهم سـياسيًّا، مـن أمـثال معاوية الّذي أقسم على أن يدفن ذكر النّبيّﷺ، ومع معاوية سائر الأُمويّين و أعوانهم.

---

١ ـ إنجيل مَتّى الإصحاح ٤ الفقرة ٣ ـ ١٣ و الهُدى إلى دين المصطفى ١:١٧٠ عنه.

٢ ـ الهُدى إلى دين المُصطفى ١: ١٧١ عن إنجيل لوقا ١٣.

٣ ـ كورنتوش الثّانية الإصحاح ١٢ فقره ٧ ـ ٩.

٤ ـ تسالونيكي الأُولى الإصحاح ١٦ فقر ٢٣، و الهُدى إلى دين المصطفى ١: ١٧١.

٥ ـ إنجيل مَتّى الإصحاح ١٦ فقر ٢٣، و الهُدى إلى دين المصطفى ١:١٧١.

ومن أمثال عبدالله بن الزُّبَيْر الّذي قطع الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وآله مدّة طويلة؛ لأنّ له أهيل سوء، إذا ذكر شمخت آنافهم[١].

٦ـ لقد كان الزُّبَيْريّون يواجهون و ينافسون الأُمويّين، و يعادون الهاشميّين، و يحسدونهم على مالهم من شرف وسؤود. و إذا لاحظنا أنّ عمدة رواة قضيّة وَرَقَة هم من الزُّبَيْريّين و حزبهم، كعُرْوَة بن الزُّبَيْر الّذي اصطنعه معاوية ؛ ليضع أخبارًا قبيحة في عليّ وكإسماعيل بن حكيم مولى آل الزُّبير، و كذلك وَهْب بن كَيْسان، ثمّ أُمّ المؤمنين عائشة خالة عبدالله بن الزُّبير. ثمّ لا حظنا في المقابل أنّ خديجة هي بنت خُوَيْلد بن أسد، و وَرَقَة هو ابن نَوْفَل بن أسد، و الزُّبَير هو ابن العوّام بن خُوَيْلد بن أسد، فتكون النّسبة بين الجميع واضحة المعالم. إذا لا حظنا ذلك كلّه، فإنّنا نستطيع أن نعرف أنّه كان لابدّ و أن يكون لأقارب عبدالله بن الزُّبَيْر بن العوّام بن خُوَيْلد بن أسد، ومن ثمّ للزُّبَيريّين بشكل عامّ دور حاسم في انبعاث الإسلام ؛ إذ لولاهم لقتل النّبيّ صلّى الله عليه وآله نفسه، أو على الأقلّ لم يستطيع أن يكتشف نبوّة نفسه.

و إذا كان للزُّبَيْريّين هذا التّاريخ المجيد، فليس للأُمويّين أن يفخروا عليهم بخلافة عُثمان، و ليس للهاشميّين أن يفخروا بمواقف أبي طالب و ولده عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام.

و إذن، فلابدّ من دعوى أنّ وَرَقَة قد تنصّر، و أنّه كان يكتب من الإنجيل بالعِبرانيّة ما شاء، إلى آخر ما قيل و يقال في ذلك.

النّتيجة

و هكذا، فإنّ النّتيجة تكون هي أنّ الأُمويّين يستفيدون من افتعال القصّة على هذا النّحو، و يحقّقون أعزّ أهدافهم و أغلاها، كما أنّ الزُّبَيريّين أيضًا يستفيدون منها، أمّا أهل الكتاب لهم منها حصّة الأسد.

و هكذا، فقد التقت المصالح و الأهواء، و اجتمعت على هذا الأمر، فلماذا لا يُدلي كلّ بدلوه، و يشجّع أمثال هذه التّرهات و الأباطيل؟. (١: ٢١٦)

١ ـ تقدّم مصادر ذلك حين الكلام على حلف الفضول، فراجع.

الفصل السّابع و الأربعون

نصّ الشّيخ الملكيّ (معاصرٌ) في «تفسير مناهج البيان»

أوّل سورة نزلت من القرآن

(سورة المدّثّر)

في رواية عن ابن عبّاس أنّهما مكّيّة و هي السّورة الرّابعة من القرآن.

و قد قيل: إنّ السّورة المباركة كانت أوّل مانزلت على رسول الله ﷺ و استدلّوا على ذلك بروايات. منها: ما في «نور الثّقلين» قال: قال الأوزاعيّ: سمعت يحيى بن كثير يقول: سألت جابر بن عبدالله... **[و ذكر كما تقدّم عن مُسلم الرّقم ٧، ثمّ قال]**

و فيه أيضًا في رواية أُخرى: فجئثت منه فرقًا، حتّى هـويت إلى الأرض. فـقلت: زَمّلوني! زَمّلوني! فنزل: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ...﴾ [1].

و في الكشّاف ٤: ١٨٠ قال: وروى جابربن عبدالله عن رسول الله ﷺ كنت على جبل حِرا فنوديت: يا محمّد! إنّك رسول الله. فنظرت عن يميني و يساري، فلم أرشيئًا. فنظرت فوقي، فرأيت شيئًا.

و في رواية عائشة: فنظرت فوقي، فإذا به قاعد على عرش بين السّماء و الأرض ـ يعني الملك الّذي ناداه فرعبت و رجعت إلى خديجة فـقلت دثّـرونى! دثّـروني! فـنزل جبرئيل و قال: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ...﴾.

---

١ ـ المدّثر /١ـ٢.

و عن الزُّهْريّ: أوّل ما نزل سورة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله: ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ فحزن رسول الله ﷺ و جعل يعلو شواهق الجبال. فأتاه جبرئيل فقال: إنّك نبيّ الله خديجة فقال: دثّروني، و صبّوا عليّ ماءً باردًا. فنزل... ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾.

و فيه ٤: ١٧٤: و قيل: دخل على خديجة و قد جئث فرقًا أوّل ما أتاه جبرئيل وبوادره ترعد؛ و قال: زمّلوني! زمّلوني! و حسب أنّه عرض له. فبينا هو على ذلك، إذ ناداه جبرئيل: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُزَمِّلُ﴾.

أقول: هذه الرّوايات و نظائرها، لاوزن لها و لا اعتبار بها. إذهي مرسلات تاريخيّة لا دليل على التّعبّد بها؛ و لا يجوز الاعتماد عليها. فلا تفيد علمًا و لا توجب عملاً في شيء من الأحكام، فضلاً عن مثل المقام الّذي هو من مُعظم المسائل الدّينيّة و أُصولها.

على أنّ فيها إهانةً و استخفافًا بمقام النّبوّة و الرّسالة؛ من حيث إنّه ﷺ لم يعرف جبرئيل، و قد اضطرب و استوحش منه، عند أوّل مارآه، ثمّ استأنس به بتكرار ملاقاته، ولم يكن له حجّة بينه و بين ربّه على رسالته و نبوّته، و لم يكن له حجّة على أنّ من يأتيه ملك مقرّب أو غيره، و إنّما كان ملاقاته إيّاه من قبيل الأُمور العاديّة، فيصيبه ما يصيب الأشخاص من الخوف و الاضطراب و عدم السّكون و الاعتماد في أمره.

و في سيرة ابن هِشام ١: ٢٤٩ ـ ٢٥٥ مايُقْضى منه العجب أنّه كان في ترديد و ريب من أمره حتّى سألت خديجة رضي الله عنها من وَرَقَة؛ و غيرها من القصص المذكورة فيها.

أقول: و ليس الأمر على ما زعموا، و قد صرّح ـ سبحانه ـ أنّه تعالى أيّد رسوله بروح القُدُس. و هو عبارةٌ عن العلم المفاض على الإنسان الرّسول و النّبيّ و الصّدّيق. و هذا هو العلم و العيان الحقيقيّ المصون المعصوم بذاته، يستحيل دخول الرّيب فيه. قال تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحًا مِنْ اَمْرِنَا...﴾[1] و غيرها من الآيات. فبهذا العلم الصّريح يَعرِف ﷺ جبرئيل عيانًا و يكلّمه مشافهةً. و بهذاالعلم يأخذ عنه ما يأخذ و كذلك يأخذ عن الله سبحانه و بهذا العلم يحفظ ما يأخذ. و به يبلّغ ما يبلّغ.

و كذلك الكلام بعينه في الإنسان النّبيّ. وهو الّذي يأخذ النّبأ من الله مستقيمًا بلا

١ ـ الشّورىٰ /٥٢.

واسطة الملك، فيَعرِف بهذا العلم عيانًا و بداهةً أنّه نبيّ. و يعرف أنّ ما أُوحي إليه إنّما هو من الله سبحانه لا ريب فيه و لاترديد، بل كلّها أحكام إلهيّة و شرائع حقّة ؛ فلا يغفل، فلاينسى، فلا يخطئ، فلا يسهو، فلا يضلّ.

و كذلك الكلام بعينه في الصّدّيق المحدَّث. و هو الإنسان الّذي يحدِّثه الملك، فيعرف صوته، ولا يرى شخصه فيعرف أنّ كلّ ما يحدّثه من المعارف و الحقائق و العلوم، إنّما يفاض إليه من الله ـ سبحانه. و هذا في غير الأحكام والشّرائع. ومن هذا القبيل مُصحف فاطمة الصّدّيقة صلوات الله عليها.

و تفسير الرّسالة و النّبوّة و التّحديث، بهذا المعنى الّذي ذكرناه، قد جاء به الكتاب والسّنّة. و تفرّد بذلك التّفسير أئمّة أهل البيت عليهم السلام و من يتّبع منهجهم، لم يشاركْهُم أحد فيه ممّن يدّعي العلم و العرفان. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

و أمّا ما زعموا من اضطرابه و وحشته عند أوّل ما رأى جبرئيل، فمختلق عليه صلى الله عليه وآله ولادليل على ذلك. ولا وجه لخوفه و دهشته من جبرئيل. لأنّ الله سبحانه ـ ما جعله رسولاً ولا نبيًّا، إلاّ مقارنًا بإفاضة روح القُدُس إليه و تأييده به. فيعرف صلى الله عليه وآله مقام شخصه بالنّسبة إلى جبرئيل، و مقام جبرئيل بالنّسبة إليه، و كذلك ما يوحى إليه من الوحي بواسطة جبرئيل أو ما يأخذه عن الله سبحانه بلا واسطة.

و في عدّة من الرّوايات أنّ جبرئيل عليه السلام كان يستأذن عليه و يقعد بين يديه.[1]

و أمّا الكلام في خوفه و خشيته عن الله سبحانه سيّما إذا تجلّى له ربّه عند أخذ الوحي بلاواسطة فهو حقيقة أُخرى خارج عن محلّ البحث. و هو من باب السّكينة من الرّب و طمأنيته القلب، و من أشرف مراحل الإيمان و العرفان؛ ليس فيه دغدغة ولاحيرة ولااضطراب.

في البحار ١٨: ٢٥٦، عن التّوحيد مسندًا، عن عُبَيد بن زُرارة، عن أبيه قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فدك؛ الغشية الّتي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد. ذاك إذا تجلّى الله له. قال: ثمّ قال

١ ـ انظر: البحار ١٨:١٩٦، ٢٤٨، ٢٥٣.

تلك النّبوّة يا زُرارة. و أقبل يتخشّع.

و فيه أيضًا عن العلل مسندًا عن عمرو بن جَميع، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان جبرئيل إذا أتى النّبيّ صلى الله عليه و آله يقعد بين يديه قعدة العبد. و كان لا يدخل حتّى يستأذنه.

أقول: و أنت بعد الإحاطة بجميع ما ذكرناه، تعرف أنّه ليس في شيء من تلك الرّوايات و نظائرها ما يدلّ على أنّ سورة المدّثّر أوّل ما نزل من القرآن. و أمّا رواية جابر بن عبدالله المتقدّمة، فهي قاصرة عن معارضة ما هو أقوى سندًا و أظهر دلالةً على أنّ أوّل مانزل من القرآن سورة العلق. و سيجيء إن شاء الله إشباع الكلام في أنّ أوّل ما نزل هي سورة العلق أو الفاتحة أو غيرهما. **(٢٩: ١٥٩ ـ ١٦٣)**

(سورة العلق)

في رواية عن ابن عبّاس قال: إنّ أوّل ما أُنزل بمكّة: (اقرأ باسم ربّك ثمّ ن و القلم؛ ثمّ المزّمّل؛ ثمّ المدّثّر).

[ثمّ ذكر رواية حسين بن خالد عن الرّضا٧ و رواية عليّ بن السَّرِيّ عن الصّادق عليه السلام كماتقدّم عن البَحرانيّ الرّقم ١ و ٢، فقال:] و فيه أيضًا[1]، مسندًا عن عبدالله بن كَيْسان، عن أبي جعفر عليه السلام :نزل جبرئيل على محمّد صلى الله عليه و آله فقال: يا محمّد، اقرأ. قال: و ما أقرأ؟ قال: ﴿**اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ**﴾.

أقول: في هذا الحديث إشعار بأنّ القضيّة كانت في بدء أمره و كانت عند أوّل قراءة القرآن... **[ثمّ ذكر قول المسعوديّ كما تقدّم عنه، فقال:]**

و قد ورد أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الفاتحة أوّل سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله كما في البحار ٤: ٢٦٦ في خطبة لعليّ عليه السلام مسندًا عن التّوحيد قال: ... ثمّ إنّ الله ـ و له الحمد ـ افتتح الكتاب بالحمد لنفسه، و ختم أمر الدّنيا و مجيء الآخرة بالحمد لنفسه فقال «وقضي بينهم بالحقّ و قيل الحمد لله ربّ العالمين».

أقول: تشكل معارضة ما في الخطبة الكريمة بما تقدّم من الرّوايات من أنّ سوره

---

١ ـ أي و في «نور الثّقلَين».

العلق أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ لكثرتها و صراحتها، بخلاف الخطبة المباركة، فإنّها ليست بهذه المكانة من التّصريح. فالمتعيّن الأخذ بالرّوايات المتقدّمة و تأييدها بما تقدّم من التّاريخ في كتاب مروج الذّهب.

و هناك روايات عامّيّة في شأن نزول جبرئيل عليه السلام و وحشته ﷺ عنه حتّى استوضح ذلك عن وَرَقَة بن نَوْفَل، و ما أشبه ذلك من الأوهام الباطلة، أعرضنا عن إيرادها في المقام.

والحقّ في هذا الباب ما هو المسلّم بحسب الرّوايات الكثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام من أنّ الله سبحانه ما أكرم أحدًا من عباده بالرّسالة والنّبوّة، إلاّ و أيّده قبل مرتبة الرّسالة والنّبوّة أو مقارنًا لهما بروح القدس؛ و هو العلم المصون المعصوم بذاته. فيتلقّى الرّسول و النّبيّ الرّسالة و النّبوّة بهذا العلم المعصوم. و يتحمّله و يحفظه و يبلّغه بهذا العلم القُدسيّ. ويعرف جبرائيل بعينه بالبداهة ؛ و النّبوّة و الرّسالة أيضًا بالبداهة. و كان ﷺ على سكينة من ربّه و عليه جمال العلم و بهاؤه و مكانته و عصمته و قداسته. و كان جبرائيل يستأذن عليه ويقعد بين يديه قعدة العبد. و قد بسطنا الكلام في ذلك بعد تفسير سورة النّبأ في رسالتنا «الرّوح في القرآن» في الآية الأُولى. (٣٠: ٥٧٨ ـ ٥٧٩)

آخر سورة نزلت من القرآن:

(سورة النّصر)

و ورد في بعض الرّوايات أنّها آخر ما نزل من القرآن. ففي نور الثّقلين ٥: ٦٩٠، عن الكافي مسندًا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أوّل ما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و آخره ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ...﴾. و فيه عن العيون مسندًا عن الحسين بن خالد عن الرّضا عليه السلام مثله.

و الظّاهر من كلام عدّة من المفسّرين أنّ المراد من الفتح فتح مكّة و السّورة نزلت قبل الفتح و هي بشارة بالفتح. و عدّه بعضهم من جملة الإخبار بالغيب؛ حيث وعد الله لرسوله الفتح و قد تحقّق بفتح مكّة. و ذكر في التّبيان ١٠: ٤٢٦ نقلاً عن قَتادة أنّ النّبيّ ﷺ عاش بعد نزول السّورة سنتين. و ذكر مثله في المجمع ١٠: ٥٥٤، عن مقاتل.

أقول: كان فتح مكّة في سنة ثمان من الهجرة. ولا يخفى أنّ الّذي ذكروه ينافي ما أوردناه من الحديثين أنّ السّورة آخر مانزل من القرآن. و قد نزل بعد فتح مكّة آيات كثيرة من القرآن. منها سورة براءة نزلت بتسع من الهجرة و أرسلها رسول الله صلى الله عليه وآله مع أبي بكر ليقرأها على النّاس في الموسم ثمّ عزل أبابكر و أرسلها مع عليّ عليه السلام فقرأها على المشركين. و نزلت سورة المائدة؛ فهي من آخر ما نزل عليه. وقد ورد في الرّوايات أنّ سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن لم ينسخ من آياتها شيء.

و في نور الثَّقَلَين ٥: ٦٠٩. في تفسير عليّ بن إبراهيم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحِ﴾ قال: نزلت بمنى في حجّة الوداع.

و هذا هو الظّاهر. و لادليل بحسب ظاهر الآية و بحسب الرّوايات و بحسب التّاريخ على شيء ممّا ذكروه. نعم؛ يمكن فرض التّعارض بين ما أوردناه من الحديثين و بين ما ورد في نزول سورة المائدة.

ففي تفسير العيّاشيّ ١٠: ٢٨٨، عن زُرارة بن أعْيَن، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه: «نزلت المائدة قبل أن يقبض النّبيّ صلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة».

و فيه أيضًا عن عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام قال: «كان القرآن ينسخ بعضه بعضًا. و إنّما كان يؤخذ من أمر رسول الله بآخره و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، فنسخت ما قبلها و لم ينسخها شيء...».

أقول: لا تعارض بين الطّائفتين؛ لصريح الطّائفة الأُولى أنّ النّصر آخر سورة نزلت من القرآن، و في الطّائفة الثّانية أنّ المائدة من آخر ما نزل، لا أنّها آخر بعينها. و كذلك قوله عليه السلام: «شهرين أو ثلاثة» على التّرديد، و التّعارض متوقّف عل تعيين التّاريخ.

فعلى هذا نزلت السّورة في السَّنَة العاشرة من الهجرة بمنى في حجّة الوداع. وقبض صلى الله عليه وآله في العشر الثّالثة من صفر في سنة إحدى عشر. فعاش صلى الله عليه وآله بعد نزول السّورة شهرين و أيّامًا. (٣٠: ٧٠١ ـ ٧٠٣)

الفصل الثّامن و الأربعون

نصّ الدُّوز دوزاني (معاصر) في «دروس حَول نزول القرآن»

في بيان أوّل ما نزل من القرآن

و هذا البحث و إن لم يكن من التّفسير الموضوعيّ إلاّ أنّه نبحث فيه استطرادًا كما لا يخفى، و قد وقع الخلاف في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال؛

أحدها ـ و هو المشهور ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى قوله تعالى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

ثانيها ـ سورة الفاتحة؛ قال الزَّمَخْشريّ في «الكشّاف»: ذهب ابن عَبّاس و مجاهد إلى أنّ أوّل سورة نزلت: (اقرأ)، ثمّ قال: و أكثر المفسّرين إلى أنّ أوّل سورة نزلت: (فاتحةالكتاب).

ثالثها ـ ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ...﴾ و هو المنسوب إلى جابر كما سيأتي، و الأظهر منها هو القول الأوّل؛ لأنّه ليس للقول الثّاني و الثّالث دليل معتنى به، فلذا أُشير أوّلاً إليهما و بيان دليلهما، والجواب عنهما، ثمّ أذكر دليل المختار.

واعلم، أنّه استدلّ للقول الثّاني ـ و هو كون الفاتحة أوّل مانزل ـ بأُمور؛

الأوّل ـ كما في «الإتقان» و حجّته ما أخرجه البَيْهَقيّ في «الدّلائل» والواحِديّ من طريق يُونُس بن بُكَيْر عن يُونس، عن عمرو، عن أبيه، عن أبي مَيْسِرة عمرو بن شُرَحْبيل... **[و ذكر كما تقدّم عن القُرطُبيّ، ثمّ قال:]**

قلت: لا يكاد ينقضي تعجّبي من السُّيوطيّ و البَيْهَقيّ، أمّا عن البَيْهَقيّ لأنّ توجيهه بما ذكره و رضاءه به أمر بعيد، بل غلط؛ لأنّه بعد نزول سورة إقرأ و المدّثّر لا معنى لخوفه من نفسه، و هربه من الملائكة، وتسلية خديجه له صلّى الله عليه وآله و... ولو على اعتقادهم في أمره صلّى الله عليه وآله.

وبالآخرة احتمال أمثال هذه في أوّل الأمر، إن كان ممكناً على مذهبهم، إلاّ أنّه لايصحّ بعد نزول الملائكة بمرّات و مأموريّته ﷺ بتكاليف، كما في سورة المدّثّر من الإنذار ونحوه.

و ممّا ذكرنا يعلم وجه التّعجب من السُّيوطيّ؛ لأنّه نقل كلام البَيْهَقيّ بلا إيراد و نقد عليه، بل سكوته دليل على رضاه به و قبول توجيهه.

و الحقّ في الجواب أنّ الخبر مرسل شاذّ، معارض بأخبار كثيرة دالّة على أنّ أوّل ما نزل هو ﴿اِقْرَاْ﴾، هذا مع أنّ في متن الخبر مالايخفى من شكّه ﷺ و ترديده في أمره وتسلية خديجة لرسول ﷺ من قولها له ﷺ: ما كان الله ليفعل بك، كلّ هذه يسقطه عن الاعتبار، و يأتي البحث حوله عن قريب.

و أمّا نسبة «الكشّاف» هذا القول إلى الأكثر فخالية عن السّداد؛ لأنّه لم يذهب إليه إلاّ قليل. و من هنا قال ابن حَجَر: والّذي ذهب إليه أكثر الأئمّة هو الأوّل، و أمّا الّذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلاّ عدد أقل من القليل بالنّسبة إلى من قال بالأوّل.[1]

الثّاني ـ إنّه لا شكّ في اعتبار الفاتحه في الصّلاة، و قد ورد أنّه لاصلاة إلاّ بفاتحة الكتاب. و الحال أنّه جاء في سورة اقرأ ﴿اَرَاَيْتَ الَّذى يَنْهىٰ * عَبْدًا اِذَا صَلّٰى﴾[2] فلا يصحّ حينئذٍ ما في سورة (اِقْرَأ)، إلاّ أن يكون نزولها بعد الفاتحة.

قلت: أوّلاً ـ أنّه مرّ منّا الإشارة في أوّل البحث أنّ القول الأوّل هو نزول خمس آيات من (اِقْرَأ) لاإتمامها، فحينئذٍ يمكن أن يكون نزول ما بعد خمس آيات (اِقْرَأ) بعد الفاتحة، بل هو غير بعيد.

و **ثانيًا** ـ أنّ عدم صحّة الصّلاة في أوّل الأمر إلاّ بالفاتحة أوّل الكلام: لأنّ الأحكام إنّما جاءت تدريجًا، فيمكن أن يكون هذا (وجوب الفاتحة فيها) منها، فاعتبار لزوم الفاتحة اليوم لا يدلّ على اعتبارها في أوّل الأمر.

الثّالث: أنّ التّسمية بالفاتحة تشعر بذلك، و تدلّ على هذه التّسمية جملة من الرّوايات؛

منها: ما عن أبي بكر الحَضرميّ، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قلت: أصلحك الله و ما المثاني؟ قال: «فاتحة الكتاب».

---

١ ـ الإتقان ١: ٢٥.

٢ ـ العلق /٩ ـ ١٠.

و منها: ما عن السُّدّيّ عمّن سمع عليًّاعليه السلام يقول «سبعًا من المثاني فاتحة الكتاب»[١].

و أُجيب: أنّ الفاتحة أوّل نزولاً باعتبار تمامها و كمالها، و لا ينافي حينئذٍ أن يكون (اقْرَأ) أوّلاً باعتبار خمس آياته الأوّل، فالفاتحة أوّل باعتبار تمامها.

و هذا كما قال «عَبْدُه» في تفسير سورة (اِقرَأ): ثمّ هذا لا ينافي أنّ أوّل سورة نزلت كاملة بعد ذلك أُمّ الكتاب، كما بيّنّاه في تفسيرها.

قلت: هذا كلّه مبنيّ على كون التّسمية بفاتحة الكتاب باعتبار النّزول، أمّا لو قيل باعتبار كتابة الفاتحة أوّل القرآن كما قيل، أو باعتبار أنّها واجبة في الصّلاة، فلا حاجة إلى هذا التّجشّم.

فحينئذ نقول في مقام الجواب: إنّما سميّت السّورة بالفاتحة لا فتتاح الكتاب بها، وجعلها في أوّله، كما هو المرسوم. و في «المجمع»: سميّت بذلك لا فتتاح المصاحف بكتابتها.

إن قلت: نعم، إلاّ أنّه لا يساعده مانقل من عدم كتابتها في أوّل قرآن عليّ أمير المؤمنين و الإمام الصّادق عليهما السلام، بل و قرآن ابن عبّاس و ابن مسعود كما في تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزّنجانيّ.

قلت: لم يثبت لنا وجود قرآن لعليّ عليه السلام لم يكتب في أوّله الفاتحة، و ما جمعه عليه السلام بعد النّبيّ صلى الله عليه و آله لم يره أحد من الصّحابة، بل في حديث منه عليه السلام: إنّ القرآن الّذي عندي لا يمسّه إلاّ المطهّرون و الأوصياء من وُلدي»[٢].

فلم يكن قرآنه في مرأى حتّى ينقله لنا أحد، و كذا القرآن المنسوب إلى الإمام الصّادق عليه السلام زِد على ذلك أنّ القرآن المنسوب إليهما ناقص؛ لعدم ذكر لفاتحة أصلاً في قرآن عليّ عليه السلام، وعدم ذكر ستّ سور في قرآن الصّادق عليه السلام.

فعلم أنّ المنقول لا اعتبار له، و أنّ الحقّ في وجه التّسمية هي كتابتها أوّل المصاحف، أو لوجوب قراءتها في الصّلاة كما قيل.

أمّا القول الثّالث فقد استدلّ عليه بخبر جابر، و في «المجمع قال الأوزاعيّ: سمعت يحيى ابن أبي كثير يقول: سألت أبا سَلَمَة: أيّ القرآن أُنزل من قبل؟ قال: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾.

١ ـ بحار الأنوار ٩٢: ٢٣٦.

٢ ـ تفسير الصّافي ١ في المقدّمة السّادسة: ٣٩.

فقلت ... [و ذكر كما تقدّم عن الطّبرسيّ، ثمّ ذكر قوله كما تقدّم أيضًا عنه، فقال:]

قلت: والّذي يظهر من الطَّبرسيّ أنّ الحديث من حيث الدّلالة لا إشكال فيه، بل الإشكال من جهة أُخرى، و هو أنّ الحديث دالّ على ترديده صلى الله عليه وآله في أمره و خوفه، و هذا شيء لا يصحّ من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فعلم أنّه ردّ الحديث من هذه الجهة، إلاّ أن الأظهر عندنا أنّ دلالة الحديث غير تامّة.

والوجه في ذلك أنّ قوله صلى الله عليه وآله: «فإذا هو على العرش في الهواء» يعني جبرائيل، دليل على أنّه صلى الله عليه وآله كان يعرف جبرائيل من حيث نزوله عليه قبلاً، فالحديث يدلّ ضمنًا على نزول جبرائيل له صلى الله عليه وآله قبل هذا.

و هذا المعنى صريح ما نقله في «الدّرّ المنثور» عن جابر؛ حيث جاء فيه: «فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء جالس على كرسيّ بين السّماء و الأرض» إلخ.

و يظهر من حديثه ـ أي جابر ـ الآخر الّذي نقله السُّيوطيّ ذيل سورة (اِقْرَأْ)، أنّه حصل في الوحي فترة، نزلت بعد الفترة المدّثّر، فهي الأُولى بعد الفترة؛ قال ابن شِهاب: وأخبرني أبو سَلَمَة عن عبد الرّحمان أنّ جابربن عبدالله... **[و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ و الطَّبرِسيّ، ثمّ قال:]**

فعلم من تمام ذلك أنّ ما نقل عن النّبيّ صلى الله عليه وآله و يدلّ على أنّه كان جبرائيل نازلاً عليه صلى الله عليه وآله قبلاً، و كان يعرفه.

فحينئذٍ يكون قول جابر بأنّ المدّثّر هو أوّل ما نزل، استنباطًا منه، و لا يخفى أنّ اجتهاده ليس بحجّة لنا، مع وضوح عدم استقامة فهمه.

و قلنا أيضًا: إنّه يظهر من خبره الآخر أنّ أوّل ما نزل هو سورة المدّثّر بعد الفترة، فلاينافي كون سورة (اِقْرَأْ) أوّل ما نزل.

هذا، و في «الإتقان» ذكر أجوبة أُخرى، أعرضنا عن نقلها؛ لوضوح ضعفها، و من أراد فليراجع هناك.

وإذا تحرّر ذلك علم أنّ الأظهر هو القول الأوّل، و هو المشهور عند العامّة و الخاصّة، بل لم أجد القائل بغيره من الخاصّة. فعلى أيّ حال، فهذا القول هو كالمسلّم به عندنا، و إن

كان بين العامّة فيه خلاف، إلاّ أنّه غير معتدّ به.

و في «الإتقان»: اختلف في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال؛ أحدها: و هو الصّحيح ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾. **[ثمّ ذكر رواية الشّيخان عن عائشة. كما تقدّم عن الطّبَريّ، الرّقم ٩، فقال:].**

و في «الدّرّ المنثور» بدل ترجف بوادره «يرجف فؤاده» و ذيّله بقوله: فدخل على خديجة بنت خُوَيلد، فقال: «زمّلوني زمّلوني»، فزمّلوه حتّى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة و أخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»!.

هذا، و نقل السُّيوطيّ عدّة روايات آخر مثلها في كتابَيه «الإتقان» و «الدّرّ المنثور»، إن شئت فراجع.

و هذه المقالات و الأحاديث قد تكرّرت في كتب التّواريخ و السِّيَر و التّفسير وغيرها في القرون المتوالية، بلا أيّ إشارة إلى ضعف و نقد و بلا دغدغة، بل أرسلوه إرسال المسلّمات، فانظر إلى تفسير جزء (عَمَّ) لمحمّد عَبْده حتّى يتّضح ما قلناه، و إليك نصّه: صحّ في الأخبار أنّ النّبيّ ﷺ أوّل ما تمثّل له الملك الّذي يتلقّى عنه الوحي، قال له الملك: اِقرأ.

قال رسول الله: «فقلت: ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطّاني حتّى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اِقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّاني ثانية حتّى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اِقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطّاني ثالثة حتّى بلغ منّي الجهد، فقال: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ حتّى بلغ ـ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قال الرّاويّ فرجع بها ترجف بوادره حتّى دخل على خديجة، و الحديث طويل و فيه أنّ الوحي قد فتر فترة بعد ذلك حزن لها النّبيّ ﷺ حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، و لكن كان يمنعه تمثّل الملك له و إخباره بأنّه رسول الله حقًّا إلخ [1].

وكلامه هذا صريح في عدّه الخبر من المسلّمات، و لذا قال: صحّ في الأخبار، و... وما أدري كيف قال بصحّة ما نقل مع دلالته على أنّ النّبيّ ﷺ بعد تحقّق نبوّته في زمان

---

١ ـ تفسير جزء عمّ للشّيخ محمّد عَبْدُه: ١٢٠ ـ ١٢١.

الفترة، كان يريد أن يقتل نفسه، بأن يتردّىٰ من رؤوس الجبال، مع أنّ المسلم العاديّ لا يقصد قتل نفسه، بل هذا لا يقصده عاقل، وهذا واضح؟!.

و أنت إذا تأمّلت في هذا الخبر، و دلالته على قصد النّبيّ صلى الله عليه و آله بأنّ يتردّى نفسه من رؤوس شواهق الجبال في زمان رسالته، تصل إلى فساد هذا القول، و عدم صحّة هذا الخبر بلا حاجة إلى البيان و البرهان.

و مع هذا نرىٰ كثيرًا من مفسّري الشّيعة أنّهم ينقلون بعض هذه الأخبار الدّالّة على تردّد رسول الله صلى الله عليه و آله في أمره، و عدم علمه بنبوّته، و استمداده من ورقة، و إظهاره ما لا يجوز له صلى الله عليه و آله، من عروض الجنون له، أو قصد إلقاء نفسه من رؤوس الجبال....

و لم يفطنوا إلى أنّ هذه مخالفة لمعتقداتهم من كون و حي النّبوّة و الرّسالة يلازم اليقين من النّبيّ و الرّسول بكونه عن الله تعالى.

بل ليس لهذا نظير في الأنبياء السّلف، كيف و عيسى عليه السلام تكلّم في حال الطّفولة في المهد، و أخبر أنّه عبدالله، و آتاه الكتاب، و جعله نبيًّا بلا شكّ و ترديد. و موسى عليه السلام بعد وروده الطّور، خوطب: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ اِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾،[1] ﴿اِذْهَبْ اِلىٰ فِرْعَونَ اِنَّهُ طَغىٰ﴾[2]. ولم يرد في رواية تردّده وتزلزله في أوّل أمره، والحال أنّ نبيّنا أفضل من تمام الأنبياء.

فالنّتيجة أنّ أمثال هذه الأحاديث من جعل الجاعلين، و دسّ الدّسّاسين لأغراض فاسدة، من تنقيص مقامه و منزلته الرّبّاني، و جعله فردًا عاديًّا، مع أنّه ثبت في أخبارنا أنّه كان له صلى الله عليه و آله ملك من حال الصّباوة يسدّده.

و من هنا لا يكاد ينقضي تعجّبي من أبي الفتوح الرّازيّ و الطَّبْرِسيّ و الكاشانيّ صاحب تفسير المَنْهج، حيث أوردوا هذه الأخبار بلا إشارة إلى الرّد و النّقد.

فانظر تفسير أبي الفتوح؛ حيث نقل أنّه صلى الله عليه و آله كان يتردّى من شواهق الجبال، و سكت عليه و كذا الطَّبْرسيّ في ذيل السّورة.

و العلامّة الطّباطبائيّ و إن أشكل على الحديث بعد نقله، و أجاد في الإيراد عليه، إلاّ

---

١ ـ طه /١٢.

٢ ـ طه /٢٤.

أنّه لم يشر إلى ورود حديث عن الأئمّة الطّاهرين، مع أنّ ما ورد عنهم عليهم السلام خالية عن الإشكال و الإيراد.

إذا تحرّر ذلك و علم أنّ هذه الأخبار كلّها ضعيفة جدًّا من حيث المتن و السّند، فنقول: إنّ الدّليل على أنّ سورة (اِقْرَأ) أوّل ما نزل جملة أخبار واردة عن الأئمّة عليهم السلام؛

الخبر الأوّل: مارواه عليّ بن إبراهيم بإسناده عن عبدالله بن كَيْسان، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «نزل جبرئيل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه و آله فقال: يا محمّد، اقرأ، قال: ما أقرأ؟ قال: ﴿**اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ**﴾.

الحديث كماترى يدلّ على نزول (اِقْرأ) أوّلاً بلا اشكال في الحديث ؛ لأنّ الظّاهر بل المقطوع أنّ ما في قوله: «ما أقرأ» استفهام.

الخبر الثّاني: ما رواه عليّ بن إبراهيم الأوْسيّ، قال ابن عبّاس: إنّ أوّل ما ابتدأ به رسول الله... **[و ذكر كما تقدّم عن البَحْرانيّ، الرّقم ٤ ثمّ قال:]**

الخبر كماترى يدلّ على المراد بلا أيّ إيراد و نقد عليه، مع شموله بعض ما في رواياتهم من عروض الجنون له، إلاّ أنّه على فرض صحيح من نقل قول المشركين بذلك: «تزوّجت بمجنون». و هذا موافق للقرآن من حكاية ذلك عنهم، كقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ اِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾[1].

و يظهر من الخبر أنّه صلى الله عليه و آله كان يعرف جبرئيل قبل نزول (اِقْرَأ)، نظرًا إلى قوله لخديجة: «و أظنّه جبرئيل» بل يستفاد منه أنّه كان حينئذ نبيًّا، و خديجة عليها السلام كانت عارفة بذلك؛ حيت قالت في جوابها: بل تزوّجت نبيًّا مرسلاً.

و الحاصل أنّ الخبر مع طوله و اشتماله على مطالب عديدة خالٍ من النّقد و الإشكال والفتور، فارجع البصر كرّتين هل ترى من فتور؟. **[ثمّ ذكر الرّوايتين حول أوّل ما نزل، كما تقدّم عن البَحْرانيّ، الرّقم ٢ و ٣، فقال:]**.

و تحصّل من تمام ذلك: أنّ أوّل ما نزل هو خمس آيات من سورة (اِقْرَأ)، و لا يصغى إلى ما قيل من نزول الفاتحة أو المدّثّر أوّلاً؛ لعدم الدّليل عليهما كما لا يخفى.

---

١ ـ القلم /٥١.

هذا، مع أنّه يمكن استفادة هذا من نفس السّورة، و أنّ قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ معناه كن قارئًا باسم الله، من قبيل الأمر التّكوينيّ بعد أن لم يكن قارئًا.

و هذا يناسب نزوله أوّلاً كما لا يخفى على المتأمّل، هذا آخر ما تيسّر لنا من إيراده.

(ص: ٨٩ ـ ١٠٥)

الباب الرّابع من القسم الأوّل

السّور المكّيّة و المدنيّة و ترتيب نزولها

وفيه فصول

الفصل الأوّل

نصّ اليعقوبيّ (م: ٢٨٤) في تاريخه

مانزل من القرآن بمكّة

نزل من القرآن بمكّة اثنتان و ثمانون[1]، على ماروواه محمّد بن حَفْص بن أسد الكوفيّ عن محمّد بن كثير و محمّد بن السّائب الكلبيّ، عن أبي صالح عن ابن عبّاس: و كان أوّل ما نزل على رسول الله ﷺ: اِقْرَأْ، ن وَ الْقَلَمِ... **[راجع الجدول، الرّقم ١ في آخر هذاالجزء]**.

ما نزل من القرآن بالمدينة

و نزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان و ثلاثون سورة أوّل ما نزل: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين، البقرة... **[راجع الجدول، الرّقم ١ في آخر هذا الجزء]**.

و قد اختلف النّاس في هذا التّاليف في غير رواية ابن عَبّاس، و كان الاختلاف أيضًا يسيرًا. وروى محمّد بن كثير و محمّد بن السّائب عن ابن صالح، عن ابن عَبّاس أنّه قال: كان القرآن ينزل مفرَّقًا، لا ينزل سورة سورة، فما نزل أوّلها بمكّة أثبتناها بمكّة و إن كان تمامها، و كذلك ما نزل بالمدينة، و إنّه كان يعرف فصل ما بين السّورة و السّورة إذا نزل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فيعلمون أنّ الأُولى قد انقضت و ابتدىء بسورة أُخرى. وَرَوىٰ بعضهم أنّ التّوراة أُنزلت لستّ خَلَون من شهر رمضان، و الزّبور لا ثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، بعد التّوراة بألف و خمسائة عام، و الإنجيل لثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، بعد الزّبور بثما نمائة عام، و قيل: ستّمائة.

---

١ ـ لكنّه لم يذكر سوى (٧٩) سورة.

وروىٰ آخرون أنّ القرآن نزل لعشرين ليلة خلت من شهر رمضان. وروي عن جعفر بن محمّد أنّه قال: «إنّ الله لم يبعث قطّ نبيًّا إلاّ بما هو أغلب على أهل زمانه، مبعث موسى بن عمران إلى قوم كان الأغلب عليهم السّحر، فأتاهم بما ضلّ معه سحرهم من العصا واليد و الجراد و القُمّل و الضّفادِع و الدّم و انفلاق البَحر و انفجار الحَجَر حتّى خرج منه الماء و الطّمس على وجوههم، فهذه آياته، و بعث داود في زمن أغلب الأُمور على أهله الصّنعة و الملاهي، فألاٰن له الحديد، و أعطاه حسن الصّوت، فكانت الوحوش تجتمع لحسن صوته، و بعث سليمان في زمانه قد غلب على النّاس فيه حبّ البناء و اتّخاذ الطّلسمات و العجائب، فسخّر له الرّيح و الجنّ، و بعث عيسى في زمان أغلب الأُمور على أهله الطّبّ، فبعثه بإحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص، و بعث محمّدًا في زمان أغلب الأُمور على أهله الكلام و الكهنة و السّجع و الخطب، فبعثه بالقرآن المبين و المحاورة».

(٣٣:٢)

الفصل الثّاني

نصّ ابن النَّديم (م:٤٣٨) في كتابه: «الفهرست»

نزول القرآن بمكّة و المدينة و ترتيب نزوله

حدّثني أبوالحسن محمّد بن يوسف، قال: حدّثنا أبو عبدالله محمّد بن غالب، قال: حدّثنا أبو محمّد عبدالله بن الحَجّاج المدينيّ؛ قدم من المدينة سنة تسع و تسعين ومائتين، قال حدّثنا بكر بن عبد الوَهّاب المدينيّ، قال: حدّثني الواقِديّ محمّد بن عمر، قال: حدّثنا مَعْمَرِ بن راشِد عن الزُّهْريّ، عن حَمد بن نُعْمان بن بَشير، قال: أوّل مانزل من القرآن على النّبيّ ﷺ... **[راجع الجدول،الرّقم ٣ في آخر هذا الجزء].**

و قال: و حدّث ابن جُرَيج عن عطاء الخراسانيّ، عن ابن عبّاس، قال: نزلت بمكّة خمس و ثمانون سُورة و نزل بالمدينة ثمان و عشرون سُورة[1]، نزل بالمدينة... **[راجع الجدول،الرّقم ٣ في آخر هذا الجزء]. (ص:٣٦)**

---

١ ـ والجمع (١١٣) فيقل عن (١١٤) واحدة، و لعلّها الفاتحة.

الفصل الثّالث

نصّ «المباني في نظم القرآن» ـ و مؤلّفه مجهول ـ و قد ألّف سنة ٤٢٥

ترتيب نزول القرآن

أخبرنا الإمام أبو عبدالله محمّد بن عليّ رضي الله عنه و أرضاه، و جعل الجنّة منقلبه و مأواه قال: أخبرنا أبو النّضر محمّد بن عليّ الطّالقانيّ، قال: حدّثنا الشّيخ أبو سهل محمّد بن عليّ الطّالقانيّ الأنماريّ رحمه الله، و ذكره في كتاب «فيه ما فيه»، و أخبرني الشّيخ أبو القاسم عبدالله بن محمشاذ رضي الله عنه بهراة، قال: أجازلي الشّيخ أبو سهل محمّد بن محمّد بن عليّ الأنماريّ بكتاب «فيه ما فيه» قال: حدّثنا عبدالله بن محمّد بن سُلَيْم، قال: حدّثنا صالح بن محمّد التِّرمِذيّ، قال: حدّثنا محمّد بن مروان الكَلبيّ عن أبي صالح، عن ابن عبّاس قال: إنّ أوّل شيءٍ نزل بمكّة: اِقْرَأْ، ن وَالْقَلَم... **[راجع الجدول، الرّقم ٦ في آخر هذا الجزء]**.

هنّ ثلاث و ثمانون سورة ممّا نزلت بمكّة على النّبيّ صلّى الله عليه و آله، ثمّ قال: أوّل شيء نزل بالمدينة: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، البقرة، الأنفال... **[راجع الجدول، الرّقم ٣ في آخر هذاالجزء]**.

و إذا كانت فاتحة سورة نزلت بمكّة كُتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، ونزلت بمكّة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾[1] إلى آخر السّورة، ثمّ سورة اِذَا وَقَعَت، ثمّ والعادياتِ ضَبحًا، ثمّ سورة الفلق، ثمّ قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس، و ذلك ثلاثون سورة نزلت بالمدينة. فجميع مانزل بمكّة و المدينة مائة و ثلاث عشرة سورة[2]، منها ثلاث و ثمانون بمكّة و ثلاثون بالمدينة.

قال: و أخبرنا أبو النَّضر، قال: حدّثنا أبو سهل الأنماريّ، قال: حدّثنا محمّد بن حاتم

---

١ ـ التّوبة /١٢٨.

٢ ـ هذا عدا سورة الفاتحة، و معها يكون المجموع (١١٤) سورة.

الجَوزجانيّ و غيره، قالوا: أخبرنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا عمر بن هارون عن عُثمان بن عَطاء، عن أبيه، عن ابن عبّاس، قال: أوّل ما نزل بمكّة و ما أُنزل منه المدينة الأوّل فالأوّل. و كانت إذا نزلت سورة فاتحة الكتاب[1] بمكّة كتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، فكان أوّل مانزل من القرآن: اِقْرَأ، ن وَالْقَلَم، المُزَّمِّل... **[إلى أن قال:]** ثمّ أُنزل بالمدينة: البقرة، الأنفال... **[راجع الجدول، الرّقم ٧ في آخر هذا الجزء]**.

قال: و أخبرنا أبو النَّضر، قال: أخبرنا أبو سهل الأنماريّ، حدّثنا محمّد بن حاتم وغيره، قالوا: أخبرنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا عمر بن هارون، عن عُثمان بن عَطاء الخراسانيّ مثله. إلاّ أنّه شكّ في الضّحى؛ قال: لاأدري أمكّية أو مدنيّة؟.

قال أبوسهل: فهذه الرّوايات كماترى قد اتّفقت على أنّ جميع سورالقرآن مائة وثلاث عشرة سورة، و لم يذكر في شيء منها فاتحة الكتاب في العدد، و لافي أنّها مكّيّة أو مدنيّة، ولامتى أُنزلت. غير أنّ الشّيخ أبا محمّد عبدالله بن محمّد بن سُلَيْم جمعه... ذكر أوّل ما ابتدأ في التّفسير أنّها مكّية، و كذا كان مكتوبًا في طيّه.

قال أبوسهل: و أخبرنا غير واحد، منهم إسحاق بن الحسن بن صَدَقة الجَوزجانيّ عن محمّد بن الأزْهَريّ، عن وَكيع بن الجَرّاح بن مَليح، قال: حدّثني أبي و سُفيان عن منصور ومجاهد، قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة، و هذا إسناد كماترى في صحّته و شهرته.

قال أبو سَهْل: و قد وقع عندي حديث هو أوجب من هذه الأحاديث كلّها، و أقرب إلى المعنى المحتمل أنّ أوّل مانزل من القرآن فاتحة الكتاب، ثمّ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ، و هذا عندي أشبه بالمعنى لجهتين؛

إحداهما: أنّها سُمّيت أُمّ الكتاب؛ لأنّها أقدم ما أنزل و أوّله، كما سُمّيت مكّة أُمّ القرى؛ **لأنّها أقدمها. و سُمّيت فاتحة الكتاب لأنّ الكتاب فتح بها، أي ابتدىء النّزول بتلك السّورة.**

و الأُخرى: أنّ بها تفتتح القراءة في الصّلاة، و تثنّى في كلّ صلاة، و ليس من السّور سورة بتلك المنزلة، فيحتمل أن يكون تركهم ذكر نزولها وعدّها في عدد السّور لشهرتها، ولأنّها لا تخفى على أحد منزلتها بذلك على ما ذهبنا إليه. و طرح عبدالله بن مسعودٍ إيّاها

١ ـ لم تذكر فيه: الصّف والفتح والتّوبة والمائدة. فعدد السُّور فيه مائة و تسع سور فقط.

من المُصْحَف؛ لأنّ المُصْحَف إنّما كتب و جمع بين اللّوحين مخافة الشّكّ و النّسيان، فلمّا لم تخف عليه فاتحة الكتاب طرحها من المُصْحَف.

قال الشّيخ أبو سهل: حدّثنا أبو طَلْحة سريح بن عبدالكريم التّميميّ، و مُحَبَّر بن محمّد، و أبو يعقوب يوسف بن عليّ، و محمّد بن فَراس الطّالقانيّون، قالوا: حدّثنا أبوالفضل جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القُرشيّ[1]، قال: حدّثنا سُلَيْمان بن حَرْب المكّيّ، قال: حدّثنا حَمّاد بن زيد عن عليّ بن زيد بن جدعان. عن سعيد بن المسيّب، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: سألت النّبيّ ﷺ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب كلّ سورةٍ سورةٍ على نحو ما نزلت من السّماء، و بأنّ أوّل ما أُنزل بمكّة فاتحة الكتاب، ثمّ: اِقْرَأ ثمّ ن و القَلَم... **[إلى أن قال:]** و ما أُنزل بالمدينة: البقرة ثمّ الأنفال، ثمّ الأحزاب... **[راجع الجدول،الرّقم ٨ في آخر هذا الجزء]**.

فهذا ما أُنزل بالمدينة، ثمّ قال النّبيّ ﷺ: جميع سورالقرآن مائة و أربع عشرة، و آيات القرآن... **[سيأتي تفصيلها لا حقًا عن الشّيخ الطَّبرِسيّ، ثمّ قال:]**.

قلت: وأكثر الرّوايات قد تظاهرت أنّ ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أوّل مانزل من القرآن. و في بعضها ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾، مع أنّه جعَل المعوّذتين ممّا أُنزل بمكّة. و المشهور من الرّوايات أنّهما أنزلتا حين سحر لُبَيد بن أعصم[2] اليهُوديّ رسول الله ﷺ و هو بالمدينة فأخذه عن عائشة، و لأنّه جعل النّجم آخر القرآن نزولاً، وهي في مشهور الرّوايات من أوائل القرآن نزولاً، فكيف و قد ذكر فيه حديث الغرانيق، و سجود صناديد قُريش. و قد رُوي أنّها أوّل سورة أظهرها رسول الله ﷺ بمكّة، ولأنّ خطاباتها توافق ابتداء الحال، و لأنّ فيها حديث المعراج موافقًا لسورة سبحان، اللّهمّ إلاّ أن نقول: إنّ ذلك المعراج كان سوى هذا، و لأنّه جعل وَالْعَاديات: مكّية. و في المشهور أنّها نزلت في سَريّة[3] أنفذها رسول الله ﷺ وأبطأ عليه خبرها فاشتغل قلبه. و هذه من أوصاف كونه بالمدينة بلا مِرية. و أمّا تسمية سورة

١ ـ في هذا السّند خلل، فإنّه لو أُريد به جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام، فليس كنيته أبا فضل، ثمّ إنّه لا يقال القُرشيّ، ثمّ إنّه لا يروي عن سُليمان بن حَرْب، فلاحظ.(م)

٢ ـ انظر سيرة رسول الله لابن هِشام: ٣٥٢، و أسباب النّزول للواحِديّ: ٣٤٦.

٣ ـ انظر أسباب النّزول للواحِديّ: ٣٤١.

الحمد بفاتحة الكتاب فلأنّه ابتدأ الله سبحانه في التّكليم حين نزل بها جبريل عليه السلام إلى السّفرة كما نذكره في الفصل الثّالث إن شاء الله تعالى.

و هذه الأحاديث كلّها مكتوبة على وجهها في كتاب: «فيه ما فيه» للشّيخ أبي سَهْل رحمة الله عليه. إلاّ أنّه لم يكن عندي إسنادها، و وجدت إسنادها فيما أجازني الشّيخان أبو عبدالله محمّد بن عليّ، والشّيخ أبو القاسم عبدالله بن مَحْمَشاذ، رَوَيتها عنهما لأكون قد جمعت بين ذكر المشايخ، فيكون الكتاب مباركًا عليّ و على من تخلف إليّ، فعند ذكر الصّالحين تنزل الرّحمة. (ص: ٨ ـ..)

الفصل الرّابع

نصّ الطَّبرِسي (م: ٥٤٨) في تفسيره: «مجمع البيان»

[سورة الدّهر]

قد روى الخاصّ و العامّ: أنّ الآيات من هذه السّورة و هي قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ -إلى قوله- وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾[١] نزلت في عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام وجارية لهم تسمّى فضّة، و هو المرويّ عن ابن عَبّاس و مجاهد و أبي صالح...

[ثمّ ذكر قصّة مرض الحسن والحسين ونذر عليّ عليه السلام عند شفائهما، ثمّ صومه مع أهل بيته وفاءً للنّذر فقال:] و في هذا دلالة على أنّ السّوره مدنيّة.

و قال أبو حَمزة الثُّماليّ في تفسيره: حدّثني الحسن بن الحسن أبو عبدالله بن الحسن: أنّها مدنيّة نزلت في عليّ و فاطمة السّورة كلّها.

حدّثنا السّيّد أبوالحمد مهديّ بن نزار الحسينيّ القاينيّ، قال: أخبرنا الحاكم أبوالقاسم عُبَيدالله بن عبدالله الحَسْكانيّ، قال: حدّثنا أبو نصر المفسّر، قال حدّثني عميّ أبوحامد إملاء، قال: حدّثني الفزاريّ أبو يوسف يعقوب بن محمّد المُقرئ قال: حدّثنا محمّد بن يزيدالسُّلّمي، قال: حدّثنا زيد بن موسى، قال: حدّثنا عمرو بن هارون عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عبّاس، قال أوّل ما أُنزل بمكّة: (اقرأ)... **[و ذكر كما تقدّم عن صاحب كتاب المباني، ثمّ قال:]**.

وقد رواه الأُستاذ أحمد الزّاهد بإسناده عن عُثمان بن عَطاء، عن أبيه، عن ابن عبّاس في كتاب «الإيضاح» وزاد فيه، و كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت بمكّة، ثمّ يزيد

---

١ ـ الدَّهر /١ ـ ٢٢.

الله فيها ما يشاء بالمدينة و بإسناده عن عِكرِمة و الحسن بن أبي الحسن البَصْريّ: أنّ أوّل ما أنزل الله من القرآن بمكّة على التّرتيب: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) و ن والمزّمّل إلى قوله: و ما نزل بالمدينة وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ و البقرة و الانفال و آل عمران و الأحزاب و المائدة و الممتحنة والنّساء و اِذَا زُلْزِلَت و الحديد و سورة محمّد ﷺ و الرّعد والرّحمن و هَلْ اَتىٰ عَلَى الْاِنسَانِ إلى آخره.

و بإسناده عن سعيد بن المُسَيَّب، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «سألت النّبيّ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السّماء، فأوّل ما نزل عليه بمكّة: فاتحة الكتاب، ثمّ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ، ثمّ (ن) إلى أن قال: أوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثمّ الأنفال، ثمّ آل عمران، ثمّ الأحزاب، ثمّ الممتحنه، ثمّ اِذَا زُلْزِلَت، ثمّ الحديد، ثمّ سورة محمّد، ثمّ الرّعد، ثمّ سورة الرّحمن، ثمّ هَلْ أتىٰ إلى قوله: «فهذا ما أنزل بالمدينة»[1] ثمّ قال النّبيّ ﷺ: «جميع سور القرآن مائة و أربع عشرة سورة، و جميع آيات القرآن ستّة آلاف آية و مائتا آية و ستّ و ثلاثون آية، و جميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف، واحد و عشرون ألف حرف و مائتان و خمسون حرفًا، لايرغب في تعلّم القرآن إلاّ السُّعَداء، و لا يتعهّد قراءته إلاّ أولياء الرّحمان».

أقول: قد اتّبع نطاق الكلام في هذا الباب حتّى كاد يخرج عن أُسلوب الكتاب، وربّما نُسِبنا به إلى الإطناب. و لكنّ الغرض فيه أنّ بعض أهل العصبيّة قد طعن في هذه القصّة بأن قال: هذه السّورة مكّيّة، فكيف يتعلّق بها ما كان المدينة؟ و استدلّ بذلك على أنّها مخترعة جرأة على الله سبحانه، و عداوة لأهل بيت رسوله، فأحببت إيضاح الحقّ في ذلك، و إيراد البرهان في معناه، و كشف القناع عن عناد هذا المعاند في دعواه. على أنّه كما ترى يحتوي على السّرّ المخزون، و الدّرّ المكنون من هذا العلم الّذي يستضاء بنوره، ويتلألأ بُزهُوره، و هو معرفة ترتيب السّور في التّنزيل، و حصر عددها على الجملة والتّفصيل.(٥: ٤٠٤ ـ ٤٠٦)

---

١ ـ كما تقدّمت عن صاحب المباني، و ذكرنا هاهنا استطرادًا لارتباطها بكلام الشّيخ و تعليقه(م).

الفصل الخامس

نصّ الشّهرستانيّ (م: ٥٤٨) في التّفسير المنسوب إليه: «مفاتيح الأسرار...»

[اختلاف الرّواة في ترتيب نزول سور القرآن]

في ذكر اختلاف الرُّواة في ترتيب نزول سور القرآن مثل مُقاتِل عن رجاله، و مُقاتِل عن عليّ عليه السلام و الكلبيّ عن ابن عبّاس، و ابن واقِد بإسناده، و جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام.

إنّ الصّدر الأوّل من الصَّحابة و التّابعين بإحسان رضي الله عنهم اختلفوا في ترتيب نزول سور القرآن و ترتيب كتابتها في المصاحف.

و الصّدر الثّاني وجدوا مصاحف بالحجاز و العراق و الشّام مختلفة السّور و الآيات والكلمات فهجروها، و اتّفقوا على الرّجوع إلى المُصْحَف الّذي هو الإمام، و فيه قليل تفاوت في الكتابة... [إلى أن قال:]

ثمّ إنّ ترتيب نزول القرآن بحكم الوحي سورة فسورة و آية فآية، فممّا عليه إلاّ الخواصّ من العلماء، الّذي عندهم الرّوايات الصّحيحة و النّصوص الصّريحة، و أمّا السّور فقد نقلت كيف نزلت على اختلاف الرّوايات و أنّها مكّية و أنّها مدنيّة، و كيف كتبت في المصاحف الخمسة. و قد رأيناها جمعت في جداول على اختلافات فيها بين الرّواة، فنقلناها كما وجدناها، و لا عهدة على النّاقل، و ألحقنابها ذكر السّور الطُّول و المثاني والمفصّل القصار، و النّقل عن رجالٍ هم ثقات، و من كُتُب هي معتبرة لا يطُور بجنابها شبهات و لعلّك لا تجدها مسطورة في سائر التّفاسير، فإنّها قد أقفرت عن أمثالها، لا لأنّ المفسّرين خلوا عن الاحاطة بها و الإعتماد عليها، و لكن لقلّة الفائدة فيها و كثرة المهمّات الشّاغلة عنها، و قد أوردتها في جداولها كما وجدتها، والله أعلم بالصّواب. [راجع الجدول،الرّقم ٩ في آخر هذا الجزء]. (١: ٦آ)

الفصل السّادس

نصّ ابن طاوُوس (م: ٦٦٤) في «سعد السُّعُود»

[ترتيب السّور و عدد الآيات في كلّ سورة و مكان نزولها]

فيما نذكره من كتاب مجلّد، يقول مصنّفه في خطبته: هذا كتاب جمعت فيه ما استفدت في مجلس الشّيخ أبي زَرْعَة عبد الرَّحمان بن محمّد بن نحلة المقرىء نذكر منه من الوجهة الأُولى من القائمة الثّانية من النّسخة الّتي عنده بلفظه.

باب ما اتّفقوا في نزوله من السُّور: اتّفقوا أنّ سورة الماعون ثلاث آيات، منها نزلت بمكّة و أربع آيات نزلت بالمدينة، واتّفقوا أنّ ثمانية و سبعين سورة منها نزلت بمكّة. ثمّ ذلك على ضربين؛

أحدهما ـ أنّ السّورة كلّها نزلت بمكّة.

و الثّاني ـ أنّ السّورة نزلت بالمدينة ثمّ ذلك أيضًا على ضربين؛ أحدهما: السُّورة كلّها بالمدينة. و الثّاني ـ آيات منها نزلت بمكّة... [**راجع الجدول، الرّقم ١٠ في هذا الجزء**].

و جملة الآيات المكّيّة على اختلاف، نذكر في كلّ سورة أربعة آلاف و ثلاثمائة وستّ و تسعين آية.

و جملة الآيات المدنيّة على اختلاف، نذكر في كلّ سورة ألف و أربع مائه و سبع عشرة آية، و جملة الآيات الّتي نزلت في الظّاهر من السّماء ثلاث آيات.

يقول عليّ بن موسى بن طاوس: فانظر رحمك الله ما بلغ إليه نقض الإختلاف في هذاالكتاب إليهم، الّذي اتّفق على تعظيمه أهل الوفاق و أهل الانحراف، فأيّ عجب يبقي في اختلافهم فيما هم يختلفون في أصله، و بينهم أحقاد و قوم حُسّاد يمنعهم ذلك من نقله.

[الآيات المُستثناة من السّور المكّيّة و المدنيّة]

و نحن نذكر ما حكاه جدّي أبو جعفر محمّد بن الحسن الطُّوسي في كتاب «التّبيان» و جملته التّقيّة على الاقتصار عليه من تفصيل المكّيّ من المدنيّ، و الخلاف في أوقاته، و ما اقتصر عليه من الأقاويل في عدد آياته. و نبدأ بما ذكروا أنّه نزل بمكّة، فنقول إنّ:

سورة الحمد؛ مكّيّة و هي سبع آيات. و قال الطُّوسي: مكّيّة عن ابن عبّاس و قَتادة، ومدنيّة عن مجاهد و قيل: أُنزلت من بين مكّة و المدينة.

و قال جدّي الطّوسيّ:

سورة الأنعام؛ قال ابن عبّاس و مُجاهد و قَتادة و غيرهم: إنّها مكّيّة. و قال زيد بن رُومان: بعضها مكّيّ و بعضها مدنيّ. و عن شهر بن حَوشَب: هي مكّية إلاّ آيتين منها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1] و الّتي بعدها، و هي خمس و ستّون آية كوفيّ، و ستّ في البَصْريّ، و سبع في المدنيّين. و روي عن ابن عبّاس أنّها مكّية غير ستّ آيات منها، فإنّها مدنيّات ﴿قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ...﴾، و آيتان بعدها، و قوله: ﴿وَ مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾[2] و الآية الّتي بعدها: ﴿وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا اَوْقَالَ اُوحِيَ اِلَيَّ﴾[3] إلى آخرها.

سورة الأعراف؛ قال قَتادة، إنّها مكّيّة و قال قوم: هي مكّيّة إلاّ قوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾[4] إلى آخر السّورة و قال قوم: هي محكمة كلّها، و قال آخرون: حرفان منها منسوخان: أحدهما: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ و الآخر: ﴿وَاَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[5] نسخ بالسّيف و قال قوم: ليست واحدة منهما منسوخًا بل لكلّ واحد منهما موضع، وهو الأقوى، و هي مائتان و ستّ آيات كوفيّ، و خمس آيات مدنيّات و بصريّ.

سورة يونس؛ مائة و تسع ليس فيها خلاف، و هي مكّيّة في قول قَتادة و مُجاهد.

سورة يوسف؛ مكّيّةفي قول قَتادة ومُجاهد، وهي مائة وإحدى عشرة آيةبلاخلاف فيذلك.

سورة إبراهيم؛ قال قَتادة: هي مكّيّة إلاّ آيتين؛ قوله: ﴿اِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا

---

١ ـ الأنعام /١٥١.
٢ ـ الأنعام /٩١.
٣ ـ الأنعام /٩٣.
٤ ـ الأعراف /١٦٣.
٥ ـ الأعراف /١٩٩.

ـإلى قوله ـ وَ بِئْسَ﴾ [١] قال مجاهد: هي مكّيّة ليس فيها ناسخ و لا منسوخ و هي اثنتان وخمسون آية في الكوفيّ، و أربع في المدنيّ، و آية في البَصْريّ.

سورة الحِجْر؛ مكّيّة في قول قَتادة و مجاهد، و هي تسع و تسعون آية بلا خلاف.

سورة النّحل؛ مكّيّة إلاّ آية: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [٢] الآية. و قال الشَّعبيّ: نزلت بمكّة إلاّ قوله: ﴿وَ اِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [٣] إلى آخرها و قال قَتادة: من أوّل السّورة إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٤] مكيّ و باقيها مدنيّ و قال مجاهد: أوّلها مكّيّ و آخرها مدنيّ، و هي مائة و ثمان و عشرون آية بلا خلاف.

سورة بني إسرائيل؛ هي مكّية في قول قَتادة و مُجاهد، و هي مائة و إحدى عشرة آية في الكوفيّ، و عشر آيات في البَصْريّ، و عشر آيات في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة الكهف؛ قال مجاهد و قَتادة: هي مكّيّة، و هي مائه و عشر آيات في الكوفيّ، وإحدى عشرة في البصريّ و خمس في المدنيّين.

سورة مريم؛ هي مكّيّة في قول قَتادة و مُجاهد، و هي ثمان و تسعون آية في الكوفيّ والبَصْريّ و المدنيّ، و تسع آيات في عدد إسماعيل.

سورة طه؛ مكّية في قول قَتادة و مُجاهد، و هي مائة و خمس و ثلاثون آية في الكوفيّ، و أربع في المدنيّين، و آيتان في البَصْريّ.

سورة الأنبياء؛ مكّية في قول قَتادة و مُجاهِد، و هي مائة و اثنا عشرة آية في الكوفيّ، وإحدى في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة المؤمنين؛ مكّية بلاخلاف، و هو قول قَتادة و مُجاهِد، و هي مائة و ثماني عشرة آية في الكوفيّ، و تسع عشرة في البَصْريّ و المدنيّين و ليس فيها ناسخ و لامنسوخ، إلاّ ما روي أنّهم كانوا يجيزون الالتفات يمينًا و شمالاً و إلى وراء، فنسخ بقوله: ﴿فِى صَلوتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٥] فلم يجيزوا أن ينظر إلاّ إلى موضع السُّجود.

---

١ ـ إبراهيم /٢٨ ـ ٢٩.
٢ ـ النّحل /٤١.
٣ ـ النّحل /١٢٦.
٤ ـ النّحل /٤٠.
٥ ـ المؤمنون /٢.

سورة الفرقان؛ قال مُجاهِد و قَتادة هي مكّيّة، و قال ابن عبّاس: نزلت آيتان بالمدنيّة من قوله: ﴿لاَيَدْعُونَ مَعَ اللهِ اِلٰهًا اٰخَرَ ـ إلى قوله ـ رَحِيمًا﴾ [1] وعددها سبع وتسعون آيةليس فيهاخلاف.

سورة **الشُّعراء**؛ قال قَـتادة: هـي مكّـية و قـيل: أربـع آيـات مـدنيّة مـن قـوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ...﴾ إلى آخرها و هي مائتان و سبع و عشرون آيـة فـي الكـوفيّ و المـدنيّ الأوّلين، و ستّ في البَصْريّ و المدنيّ الأخير.

سورة **النّمل**؛ قال قَتادة و مُجاهِد: هي مكّية، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ ،و هي ثلاث وتسعون آية في الكوفيّ، و أربع في البَصْريّ، و خمس في المدنيّين.

سورة **القصص**؛ مكيّة في قول حسن البَصْريّ و عَطاء و عِكْرِمة و مُجاهِد و قَتادة، وليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قال ابن عبّاس: إنّ منها نزلت بالمدينة، و قيل: بالجُحفة، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ لَرَادُّكَ﴾ [2] إلى آخرها، و هي ثمان آيات.

سورة **العنكبوت**؛ قال قوم: هي مكّيّة، و قال قَتادة: العشر الأوّل مدنيّ و الباقي مكّيّ، و قال مُجاهِد: هي مكّيّة، و هـى تسـع و سـتّون آيـة بـلاخلاف فـي جـملتها، و فـي بعضها خلاف.

سورة **الرّوم**؛ مكّيّة في قول مُجاهِد و قَتادة، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قال حسن البَصْريّ: كلّها مكّيّة إلاّ قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ ـ إلى قوله ـ تُظْهِرُونَ﴾ [3]، و هي ستّون آية، ليس في جملتها خلاف بين الكوفيّين و البَصْريّين و المدنيّ الأوّل و في بعضها خلاف، وفي المدنيّ الآخر تسع و خمسون آية.

سورة **لقمان**؛ و هي مكّية في قول مُجاهِد و قَتادة، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قال حسن البَصْريّ: هي مكّيّة إلاّ آية واحدة، و هي قوله ﴿اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ﴾ [4]، لأنّ الصّلاة و الزّكاة مدنيّـتان، و هي أربع و ثلاثون آية في الكوفيّ و البَصْريّ، وثلاث في المدنيّين.

سورة السّجدة؛ وهي مكّيّة في قول مُجاهِد و قَتادة و غيرهما، و قال الكَلْبيّ و مُـقاتل:

---

١ ـ الفرقان /٦٨ ـ ٧٠. ٢ ـ القصص /٨٥.
٣ ـ الرّوم /١٧ ـ ١٨. ٤ ـ لقمان /٤.

ثلاث آيات منها مدنيّة قوله: ﴿اَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ فَاسِقًا﴾ [١] إلى تمام ثلاث آيات، وهي ثلاثون آية في الكوفيّ، وتسع وعشرون في البَصْريّ؛ لأنّ ﴿آلم﴾ يعدّها أهل الكوفة آية فقط.

سورة **سبأ**؛ هي مكّيّة في قول مُجاهِد و قَتادة و حسن البَصْريّ و غيرهم، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قيل: إنّ آية منها مدنيّة، و هي قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ اُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [٢] و هي أربع و خمسون آية في الكوفيّ.

سورة **الملائكة**؛ مكّيّة في قول مُجاهِد و قَتادة، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و به قال حسن البَصْريّ، إلاّ آيتين قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ـ إلى قوله ـ ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣] و هي خمس و أربعون آية في الكوفيّ و البَصْريّ و المدنيّ الأوّل، و في الآخر ستّ و أربعون آية.

سورة **يٰس**؛ مكّية في قول مُجاهِد و قَتادة و حسن البَصْريّ، و ليس فيها ناسخ ولامنسوخ، وقال ابن عبّاس: آية فيها مدنيّة و هي قوله: ﴿وَ اِذَا قِيلَ لَهُمْ اَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [٤]، و هي ثلاث و ثلاثون آية في الكوفيّ، و آيتان في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة الصّافّات؛ مكّية في قول مُجاهِد و قَتادة و حسن البَصْريّ، وهي مائة و اثنتان وثلاثون آية في الكوفيّ والمدنيّين، و إحدى وثمانون في البَصْريّ، وليس فيها ناسخ ولامنسوخ.

سورة ص؛ مكّيّة في قول مُجاهِد و قَتادة و حسن البَصْريّ، و ليس فيها ناسخ ولامنسوخ، وهي ثمان و ثمانون آية في الكوفيّ، و خمس و ثمانون في البَصريّ، و ستّ في المدنيّ.

سورة **الزُّمَر**؛ و تسمّىٰ سورة العرف: مكّيّة في قول قَتادة و مجاهد و حسن البَصْريّ، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، عدد آياتها خمس و سبعون آية في الكوفيّ، و آيتان في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة **المؤمن**؛ مكّيّة في قول مُجاهد و قَتادة، ليس فيها ناسخ و لامنسوخ، و قال حسن البَصْريّ: هي مكّيّة إلاّ آية واحدة، و هي قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْاِبْكَارِ﴾ [٥]

---

١ ـ السّجدة /١٨.
٢ ـ سبأ /٦.
٣ ـ فاطر /٢٩ ـ ٣٢.
٤ ـ يس /٤٧.
٥ ـ المؤمن /٥٥.

يعني بذلك صلاة الفجر و المغرب، و قد ثبت أنّ فرض الصّلوات بالمدنيّة، و هي خمس و ثمانون آية في الكوفيّ، و أربع في المدنيّين، و آيتان في البَصْريّ.

سورة حم؛ (السّجدة) مكّيّة في قول قَتادة و مُجاهد، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، وهي أربع و خمسون آية في الكوفيّ، و ثلاث في المدنيّ، و آيتان في البَصْريّ.

سورة حمسعق؛ مكّية في قول قَتادة و مُجاهد ،و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و هي أربع و خمسون آية في الكوفيّ، و خمس في البَصْريّ والمدنيّين.

سورة الزُّخْرُف؛ مكّية في قول قَتادة ومُجاهِد، وهي بضع وثمانون آية بلاخلاف في جملتها.

سورة الدُّخان؛ مكّيّة في قول قَتادة و مُجاهِد، و هي تسع و خمسون آية في الكوفيّ، و سبع في البَصْريّ، و ستّ في المدنيّين.

سورة الجاثية؛ مكّيّة في قول مُجاهِد و قَتادة، و هي سبع و ثلاثون آية في الكوفيّ، وستّ في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة الأحقاف؛ مكّيّة بلاخلاف، و هي خمس و ثلاثون آية في الكوفيّ، و أربع و ثلاثون في البَصْريّ و المدنيّين. عدّ أهل الكوفة (حٰم)[1] آية ولم يعدّها الباقون، و الباقي بلاخلاف فيه.

سورة ق؛ مكّيّة، و هي خمس و أربعون آية بلا خلاف.

سورة الذّاريات؛ مكّيّة بلا خلاف، و هي ستّون آية بلا خلاف.

سورة الطّور؛ مكّيّة بلا خلاف، و هي تسع و أربعون في الكوفيّ، و ثمان في البَصْريّ، و سبع في المدنيّين.

سورة التّحريم؛ مكّيّة، وهي اثنتان وستّون آية في الكوفيّ، وستّ في البَصْريّ والمدنيّين.

سورة القمر؛ مكّيّه بلا خلاف، و هي خمس و خمسون آية بلا خلاف.

سورة الواقعة؛ مكّيّة بلا خلاف، و هي ستّ و تسعون آية في الكوفيّ، و سبع في البَصْريّ، و تسع فى المدنيّين.

سورة الملك؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحّاك و عَطاء و غيرهم، و هي ثلاثون

---

١ ـ (حم الإسم الآخر، لهذه السّورة)

آية في الكوفيّ و البَصْريّ و المدنيّ الأوّل، وإحدى و ثلاثون في المدنيّ الأخير.

سورة نون؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضّحّاك و غيرهما، و هي اثنتان و خمسون آية في الكوفيّ و المدنيّين، و إحدى و خمسين آية في البَصْريّ.

سورة سأل سائل؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضّحّاك و غيرهما، و هي أربع و أربعون آية بلاخلاف.

سورة نوح؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضّحّاك و غيرهما، و هي ثمان و عشرون آية في الكوفيّ، و سبع في البَصْريّ، و ثلاث في المدنيّين.

سورة الجنّ؛ مكّيّة في قول قَتادة و ابن عبّاس و الضّحّاك و غيرهم، و هي ثمان وعشرون آية، و ليس فيها خلاف.

سورة المزّمّل؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضّحّاك، و هي عشرون آية في الكوفيّ والمدنيّ الأوّل، و تسع عشرة في البَصْريّ، وثمان عشرة في المدنيّ.

سورة المدّثّر؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضّحّاك: هي مدنيّة، وهي خمسون و ستّ آيات في الكوفيّ و البَصْريّ و المدنيّ الأوّل، و خمسون في المدنيّ الأخير.

سوره القيامة؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضّحّاك و هي أربعون آية في الكوفيّ، وتسع و ثلاثون في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة الإنسان؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضّحّاك و غيرهما، و قال قوم: هي مدنيّة، و هي إحدى و ثلاثون آية بلاخلاف.

يقول عليّ بن موسى بن طاوُوس: ومن العجب العجيب أنّهم رووا من طرق الفريقين أنّ المراد بنزول سورة ﴿هَلْ اَتى عَلَى الْاِنْسانِ﴾[1] مولانا عليّ و فاطمة والحسن والحسين عليهما السلام و قد ذكرنا في كتابنا هذا بعض روايتهم لذلك، و من المعلوم أنّ الحسن والحسين عليهما السلام كانت ولادتهما في المدينة، و مع هذا فكأنّهم نسوا ما رووه على اليقين، وأقدموا على القول بأنّ هذه السّورة مكّيّة، و هو غلط عند العارفين.

سورة المرسلات؛ مكّيّة في قول ابن عَبّاس والضّحّاك، وهي خمسون آية بلاخلاف.

---

١ ـ الدّهر /١.

سورة عَمّ يَتَسَائلون؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحَّاك، و هي أربعون آية في الكوفيّ و المدنيّين، وإحدى و أربعون في البَصْريّ.

سورة النّازعات؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحَّاك، و هي ستّ و أربعون آية في الكوفيّ، و خمس في البَصْريّ و المدنيّين.

سورة عَبَس؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحَّاك، و هي اثنتان و أربعون آية في الكوفيّ والمدنيّين، وإحدى و أربعون في البَصْريّ.

سورة اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحَّاك، و هي تسع و عشرون آية بلاخلاف.

سورة انفطرت؛ مكّيّة بقول ابن عبّاس و الضَّحَّاك، و هي تسع عشرة آية بلاخلاف.

سورة المطفّفين؛ مكّيّة في قول ابن عَبّاس، و قال الضَّحَّاك: هي مدنيّة، و هي ستّ وثلاثون آية بلا خلاف.

سورة اِذَا السَّماء اَنشَقَّتْ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحَّاك، و هي خمس و عشرون آية في الكوفيّ و المدنيّين، و ثلاث و عشرون آية في البَصْريّ.

سورة البروج؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي اثنتان و عشرون آية بلاخلاف.

سورة الطّارق؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي سبع عشرة آية في الكوفيّ و البَصْريّ و المدنيّ الأخير، و ستّ عشرة في المدنيّ الأوّل.

سورة الأعلى؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضَّحَّاك: هي تسع عشرة آية بلاخلاف.

سورة الغاشية؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي ستّ و عشرون آية بلاخلاف.

سورة الفَجر؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، والضَّحَّاك: هي مدنيّة، و هي ثلاثون آية في الكوفيّ، و تسع و عشرون في البَصْريّ، و اثنتان و ثلاثون في المدنيّين.

سورة البلد؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، والضَّحَّاك: أُنزلت حين افتتحت مكّة، و هي عشرون آية بلاخلاف.

سورة وَالشَّمْس؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي خمس عشرة آية في الكوفيّ و البَصْريّ، و ستّة عشرة في المدنيّين.

سورة اللّيل؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي عشرون آية بلا خلاف.

سورة الضُّحىٰ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي إحدى عشرة آية بلاخلاف.

سورة اَلَمْ نَشْرَحْ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي ثمان آيات بلا خلاف.

سورة التّين؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي ثمان آيات بلاخلاف.

سورة اِقْرَأْ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي تسع عشرة آية في الكوفيّ و البَصْريّ، و عشرون آية في المدنيّين.

سورة القدر؛ مكّية في قول الضَّحَّاك، وقال عَطاء الخراسانيّ: وهي خمس آيات بلاخلاف.

سورة العاديات؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، و قال والضَّحَّاك: هي مدنيّة، و هي إحدى عشرة آية في الكوفيّ، و عشرة في المدنيّين، و ثمان في البَصْريّ.

سورة اَلْهٰيكُمُ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي أربع آيات بلاخلاف في جملتها، و إن اختلفوا في تفصيلها.

سورة الهُمَزَة؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي تسع آيات بلاخلاف.

سورة الفيل؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي خمس آيات بلاخلاف.

سورة الإيلاف؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، و قال والضَّحَّاك: هي مدنيّة، و هي أربع آيات في الكوفيّ و البَصْريّ، و خمس آيات في المدنيّين.

سورة اَرَاَيْتَ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، و قال والضَّحَّاك: مدنيّة، و هي سبع آيات في الكوفيّ و البَصْريّ، و ستّ في المدنيّين.

سورة الكوثر؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، و قال والضَّحَّاك: مدنيّة، و هي ثلاث بلاخلاف.

سورة الْكَافِرونَ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، و قال والضَّحَّاك: و هي ستّ آيات بلاخلاف.

سورة تَبَّتْ؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي خمس آيات بلا خلاف.

سورة الإخلاص؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس، و قال والضَّحَّاك: مدنيّة، و هي أربع آيات بلاخلاف.

سورة الفلق؛ مكّيّةفي‌قول‌ابن‌عبّاس، وقال والضَّحَّاك: مدنيّة، وهي خمس آيات‌بلاخلاف.

سورة النّاس؛ مكّيّة في قول ابن عبّاس والضَّحَّاك، و هي ستّ آيات بلاخلاف.

يقول عليّ بن موسى بن طاوُوس: ومن عجيب هذه المقالة عن ابن عبّاس، أنّهم علموا أنّه ما كان بالغًا، و لعلّ، ما كان موجودًا بمكّة عند نزول السّور المكّيّة، و إنّما رواها عن غيره ممّن حضرها! فهلاّ ذكروا القرابة و الصّحابة الّذين رواها ابن عبّاس عنهم، وجملوا ذكرهم بهذا المقدار، و كان زيادة في قوّة النّقل و الآثار.

[الأقوال في عدد الآيات في السّور المدنيّة]

فيما نذكره ممّا نزل من القرآن بالمدنيّة على ما وجدناه، و رويناه عن جدّي الطّوسيّ.

سورة **البقرة**؛ كلّها مدنيّة، و هي مائتان و ستّ و ثمانون آية في الكوفيّ، و ستّ في البَصْريّ، و خمس في المدنيّ. وروي أنّ قول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾[1]، نزلت بمنى في حجّة الوداع.

سورة **آل عمران**؛ مأتا آية في الكوفيّ، وروي عن ابن عَبّاس و قَتادة و مُجاهِد وجميع المفسّرين أنّ هذه السّورة مدنيّة.

سورة **النّساء**؛ مائة و ستّ و سبعون آية في الكوفيّ، و خمس و سبعون في البَصْريّ والمدنيّ، و هي كلّها مدنيّ. و قال بعضهم: إلاّ آية، و هي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوا الْاَمَانَاتِ اِلىٰ اَهْلِهَا﴾[2] فإنّ هذه الآية نزلت بمكّة عند فتحها.

سورة **المائدة**؛ مدنيّة في قول ابن عَبّاس و مُجاهِد و قَتادة، و قال جعفر بن مُبشِّر: هي مدنيّة إلاّ قوله: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، في حجّة الوداع، و قال الشَّعبيّ: نزلت: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[3] و النّبيّ صلّى الله عليه وآله واقف على راحلته في حجّة الوداع.

يقول عليّ بن موسى بن طاوُوس: و قد روينا في هذا الكتاب و كتاب «الطّرائف» وكتاب «الإقبال» من طرق المخالفين لأهل البيت عليهم السّلام يوم غدير خم نزولها عند النّصّ من النّبيّ صلّى الله عليه وآله على مولانا عليّ عليه السّلام بالولاية، و هو أليق بصورة الحال عند ذوي العناية والرّعاية. و قال ابن عمر: آخر سورة نزلت في المدنيّة، و هي مائة و عشرون آية كوفيّ،

---

۱ ـ البقرة /۲۸۱. ۲ ـ النّساء /۸۵.

۳ ـ المائدة /۳.

واثنتان و عشرون بالمدنيّين، و ثلاث و عشرون في البصريّين.

سورة الأنفال: مدنيّة في قول ابن عبّاس و قَتادة و مجاهد، و حكي عن ابن عبّاس أنّها مدنيّة إلاّ تسع آيات، وروي عن ابن عبّاس أنّ الأنفال نزلت في بدر، و هي سبع وسبعون آية في الشّاميّ، و ستّ في البَصْريّ و المدنيّين، و خمس و سبعون آية في الكوفيّ.

سورة برائة؛ مدنيّة، و هي مائة و تسع و عشرون آية في الكوفيّ، و ثلاثون في البَصْريّ و المدنيّين. قال قَتادة و مُجاهد و عُثمان: هي مدنيّة، و هي أوّل ما نزل.

سورة الرّعد؛ قال قَتَادة: هي مدنيّة إلاّ آية منها، فإنّها مكّيّة، و هي قوله: ﴿وَ لاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾[1] و قال مجاهد: هي مكّية، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و هي ثلاث و أربعون آية في الكوفيّ، و أربع في المدنيّين، و خمس في البَصْريّ.

سورة الحجّ؛ قال قَتَادة: هي مدنيّة إلاّ أربع آيات، فإنّها مكّيّات، و من قوله: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ـ إلى قوله ـ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[2] و قال مُجاهد و العبّاس بن أبي رَبيعة: هي مدنيّة كلّها، و هي ثمان و سبعون آية في الكوفيّ، وستّ في المدنيّين وخمس في البَصْريّ.

سورة النّور؛ مدنيّة بلا خلاف، و هي أربع و ستّون آية في البَصْريّ و الكوفيّ، واثنتان وسبعون في المدنيّين.

سورة الأحزاب؛ مدنيّة فيقول مُجاهد وحسنالبَصْريّ، وهي ثلاثوسبعون آيةبلاخلاف.

سورة الفتح؛ مدنيّة بلاخلاف، و هي تسع و عشرون آية بلاخلاف.

سورة الحُجُرات؛ مدنيّة إلاّ آية واحدة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾[3] إلى آخرها، و قال قوم: كلّها مدنيّة، وهي ثمان عشرة آية بلا خلاف.

سورة الحديد؛ مدنيّة بلاخلاف، و هي تسع و عشرون آية في الكوفيّ و البَصْريّ. وثمان و عشرون في المدنيّين.

سورة المجادِلة؛ مدنيّة بلا خلاف، و هي اثنتان و عشرون آية في الكوفيّ و البَصْريّ

---

١ ـ الرّعد /٣١.	٢ ـ الحج /٥٢ ـ ٥٥.
٣ ـ الحُجُرات /١٣.

و المدنيّ الأوّل، واحد و عشرون في المدنيّ الآخر.

سورة الحشر؛ مدنيّة بلاخلاف، و هي أربع و عشرون بلاخلاف.

سورة المُمتحنة؛ مدنيّة بلاخلاف، و هي ثلاث عشرة آية.

سورة الصَّفّ؛ مدنيّة بلاخلاف، و هي أربع عشرة آية بلاخلاف.

سورة الجُمُعة؛ مدنيّة، و هي إحدى عشرة آية ليس فيها خلاف، و قال ابن عبّاس والضَّحّاك؛ هي مكّيّة.

سورة المنافقين؛ مدنيّة بلاخلاف، و هو قول ابن عبّاس و عَطاء و الضَّحّاك و مُجاهِد، وهي إحدى عشرة آية بلاخلاف.

سورة التّغابن؛ مدنيّة بلاخلاف، و في قول ابن عبّاس و عَطاء و الضَّحّاك، و هي ثمان عشرة آية بلاخلاف.

سورة الطّلاق؛ مدنيّة في قول ابن عبّاس و عَطاء و الضَّحّاك و غيرهم، و هي اثنتا عشرة آية في الكوفيّ و المدنيّين، و عشرة في البَصْريّ.

سورة التّحريم؛ مدنيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحّاك وغيرهما، وهي اثنتا عشرة آية بلاخلاف.

سورة لَم يكن؛ مدنيّة في قول ابن عبّاس و الضَّحّاك، و هي ثمان آيات في الكوفيّ والمدنيّين، و تسع آيات في البَصْريّ.

سورة الزّلزلة؛ مدنيّة في قول ابن عبّاس، و قال الضَّحّاك مكّيّة. و هي ثمان آيات في الكوفيّ و المدنيّين، و تسع آيات في البَصْريّ والمدنيّ الأخير.

سورة النّصر؛ في قول ابن عبّاس و الضَّحّاك. و هي ثلاث آيات بلاخلاف.

(٢٨٧ ـ ٢٩٦)

الفصل السّابع

نصّ الخازن (م: ٧٢٥) في «لُباب التّأويل»

اعلم أنّ الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثمّ كان ينزّله مفرّقًا على لسان جبرئيل عليه السلام إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله مدّة رسالته نجومًا عند الحاجة و حدوث ما يحدث على ما شاء الله تعالى.

و ترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التّلاوة و المُصْحَف، فأمّا ترتيب نزوله على رسول الله... فأوّل ما نزل من القرآن بمكّة: اِقْرَأْ، ن و الْقَلَم... **[راجع الجدول،الرّقم ١١ في آخر هذا الجزء]**.

واختلفوا في آخر ما نزل بمكّة، فقال ابن عبّاس: العنكبوت، و قال الضَّحَّاك و عَطاء: المؤمنون، و قال مُجاهد: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفينَ.

فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكّة، فذلك ثلاث و ثمانون سورة على ما استقرّت عليه روايات الثّقات.

و أمّا ما نزل بالمدينة فإحدى و ثلاثون سورة[1]: فأوّل مانزل بها سورة البقرة، ثمّ الأنفال... **[راجع الجدول،الرّقم ١١ في آخر هذا الجزء]**.

واختلفوا في سورة الشّورى، فقيل: نزلت بمكّة، و قيل: نزلت بالمدينة، و سنذكر ذلك في موضعه.[2] **(١:٩)**

---

١ ـ لكنّه لا يذكر سوي ٢٨ سورة، فأسقط المطفّفين و النّور و الجُمُعه، كما أُسقط في المكيّ: الشّمس و الملائكة، و هي كلّها مع الفاتحة تصير ١١٤ سورة (م).

٢ ـ راجع إلى ٦: ٩٧(م).

الفصل الثّامن

نصّ الزَّركشيّ (م: ٧٩٧) في «البُرهان في علوم القرآن»

معرفة المكّيّ و المدنيّ و ما نزل بمكّة و المدينة و ترتيب ذلك

إعلم أنّ للنّاس في ذلك ثلاثة اصطلاحات؛

أحدها ـ أنّ المكّيّ ما نزل بمكّة ،و المدنيّ ما نزل بالمدينة[1].

والثّاني ـ و هو المشهور ـ أنّ المكّيّ ما نزل قبل الهجرة، و إن كان بالمدينة، والمدنيّ مانزل بعد الهجرة، و إن كان بمكّة.

و الثّالث ـ أنّ المكّيّ ما وقع خطابًا لأهل مكّة، و المدنيّ ماوقع خطابًا لأهل المدينة، و عليه يحمل قول ابن مسعود الآتي؛ لأنّ الغالب على أهل مكّة الكفر، فخوطبوا: بـ ﴿يَاءَيُّهَاالنَّاسُ﴾، و إن كان غيرهم داخلاً فيهم، و كان الغالب على أهل المدينة الإيمان، فخوطبوا بـ ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و إن كان غيرهم داخلاً فيهم.

و ذكر المَاوَرْديّ أنّ البقرة مدنيّة في قول الجميع إلاّ آية، و هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[2]، فإنّها نزلت يوم النّحر في حجّة الوداع بمنى، انتهى.

و نزولها هناك لا يُخرجها عن المدنيّ بالاصطلاح الثّاني، أنّ ما نزل بعد الهجرة مدنيّ سواء كان بالمدينة أو بغيرها.

و قال المَاوَرْديّ: في سورة النّساء: هي مدنيّة، إلاّ آية واحدة نزلت في مكّة في عُثمان بن طَلْحَة، حين أراد النّبيّ ﷺ أن يأخذ منه مفاتيح الكعبة و يسلّمها إلى العَبّاس،

---

١ ـ قال السُّيوطيّ في الإتقان ١:٩: و يدخل في مكّة ضواحيها، كالمنزل بمنى و عرفات و الحُدَيبيّة، و في المدينة ضواحيها، كالمنزل ببدر و أُحد و سَلْع.

٢ ـ البقرة /٢٨١.

فنزلت: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[١].

و من جملة علاماته أنّ كلّ سورة فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاس﴾ و ليس فيها ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهي مكّيّة، و في الحجّ اختلاف. و كلّ سورة فيها: ﴿كَلَّا﴾ فهي مكّيّة ،و كلّ سورة فيها حروف المعجم فهي مكّيّة، إلاّ البقرة و آل عمران، و في الرّعد خلاف. و كلّ سورة فيها قصّة آدم و إبليس فهي مكّية سوى البقرة. و كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنيّة سوى العنكبوت.

وقال هِشام عن أبيه: كلُّ سورة ذكرت فيها الحدود و الفرائض فهي مدنيّة، و كلُّ ما كان فيه ذِكر القرون الماضية فهي مكّيّة.

و ذكر أبو عمرو عُثمان بن سعيد الدّارميّ بإسناده إلى يحيى بن سَلاّم، قال: مانزل بمكّة و ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النّبيّ ﷺ المدينة فهو من المكّيّ، و ما نزل على النّبيّ ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنيّ، وما كان من القرآن ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فهو مدنيّ، و ما كان ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾، فهو مكّيّ.

و ذكر أيضًا بإسنادة إلى عُرْوَة بن الزُّبَيْر، قال: ما كان من حدّ أو فريضة فإنّه أُنزل بالمدينة، و ما كان من ذكر الأُمم و العذاب فإنّه أُنزل بمكّة.

وقال الجَعْبريّ: لمعرفة المكّيّ و المدنيّ طريقان: سماعيّ و قياسيّ. فالسّماعيّ ما وصل إلينا نزولُه بأحدهما، و القياسيّ قال عَلْقمة عن عبدالله: كلّ سورة فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقط أو ﴿كَلَّا﴾ أو أوّلها حروف تهجّ سوى الزّهراوين[٢] و الرّعد في وجه، أو فيها قصّة آدم و إبليس سوى الطّولىٰ[٣]، فهي مكّيّة، و كلّ سورة فيها قصص الأنبياء و الأُمم الخالية مكّيّة و كلُّ سورة فيها فريضة أو حدّ، فهي مدنيّة، انتهى.

وذكر ابن أبي شَيْبَة في مصنّفه في كتاب «فضائل القرآن»: حدّثنا و كيع عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة، قال: كلّ شيء نزل فيه: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكّة، وكلّ شيء نزل فيه: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين ءَامَنُوا﴾ فهو بالمدينة. و هذا مرسل قد أُسند عن عبدالله بن

---

١ ـ النّساء /٥٨.

٢ ـ هما سورتا البقرة و آل عمران، و اقرأ في تفسير القُرطُبيّ ٤:٣ سبب التّسمية.

٣ ـ هي سورة البقرة، أطول سورة في القرآن.

مسعود، ورواه الحاكم في مستدركه في آخر كتاب الهجرة عن يحيى بن معين، قال: حدّثناوكيع عن أبيه، عن الأعمش و عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله بن مسعود به.

ورواه الْبَيْهقيّ في أواخر دلائل النّبوّة، و كذا رواه البَزّار في مسنده، ثمّ قال: و هذا يرويه غير قَيْس عن عَلْقَمة مرسلاً، و لانعلم أحدًا أسنده إلاّ قَيْس، انتهى.

ورواه ابن مَرْدُوَيْه في تفسيره في سورة الحجّ عن عَلْقَمَة، عن أبيه، و ذكر في آخر الكتاب عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر نحوَه، وقد نص على هذا القول جماعة من الأئمّة منهم أحمد بن حَنْبَل و غيره، و به قال كثير من المفسّرين، و نقله عن ابن عبّاس.

و هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإنّ سورة البقرة مدنيّة، و فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [١] وفيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْاَرْضِ حَلاَلاً طَـيِّبًا﴾ [٢]، و سورة النّساء مدنيّة، و فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [٣] و فيها: ﴿إِنْ يَشَاْ يُذْهِبْكُمْ اَيُّهَا النَّاسُ﴾ [٤] وسورة الحج مكّيّة و فيها: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [٥]. فإن أراد المفسّرون أنّ الغالب ذلك فهو صحيح، ولذا قال مكّيّ: هذا إنّما هو في الأكثر و ليس بعامّ، وفي كثير من السُّور المكّية ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ انتهى.

والأقرب تنزيل قول من قال: مكّيّ و مدنيّ، على أنّه خطابُ المقصود به أو جلّ المقصود به أهل مكّة ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ كذلك بالنّسبة إلى أهل المدينة.

وفي تفسير الرّازيّ عن عَلْقَمَة و الحسن: أنّ ما في القرآن ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكّيّ، و ما كان ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ فبالمدينة، و أنّ القاضي قال: إن كان الرّجوع في هذا إلى النّقل فمسلّم، و إن كان السّبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكّة فضعيف؛ إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتهم واسمهم و جنسهم، و يؤمر غير المؤمنين بالعبادة، كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها و الازدياد منها، انتهى.

١ ـ البقرة /٢١.
٢ ـ البقرة /١٦٨.
٣ ـ النّساء /١.
٤ ـ النّساء /١٣٣.
٥ ـ الحج /٧٧.

[ضرورة معرفة المكّيّ و المدنيّ]

و يقع السّؤال أنّه هل نصّ النّبيّ ﷺ على بيان ذلك؟ قال القاضي أبوبكر في الانتصار: إنّما هذا يرجع لحفظ الصّحابة و تابعيهم، كما أنّه لابدّ في العادة من معرفة معظّمِي العالَم والخطيب، و أهلِ الحرص على حفظ كلامه و معرفة كتبه و مصنّفاته من أن يعرفوا ما صنّفه **أوّلاً و آخرًا، و حالُ القرآن في ذلك أمثل، والحرص عليه أشدّ. غير أنّه لم يكن من النّبيّ ﷺ** في ذلك قول، و لا ورد عنه أنّه قال: اعلموا أنّ قدر مانزل بمكّة كذا و بالمدينة كذا وفصّله لهم، و لو كان ذلك منه لظهر و انتشر، و إنّما لم يفعله لأنّه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأُمّة، و إن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النّاسخ والمنسوخ، ليعرف الحكم الّذي تضمّنهما، فقد يُعرف ذلك بغير نصّ الرّسول بعينه، و قوله: هذا هو الأوّل المكّيّ، و هذا هو الآخر المدنيّ. وكذلك الصّحابة و التّابعون من بعدهم لمّالم يعتبروا أنّ من فرائض الدّين تفصيل جميع المكّيّ و المدنيّ ممّا لا يسوغ الجهل به، لم تتوفّر الدّواعي على إخبارهم به و مواصلة ذكره على أسماعهم، و أخذهم بمعرفته. و إذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكّيّ أو مدنيّ، و أن يعملوا في القول بذلك ضربًا من الرّأيّ و الاجتهاد، و حينئذ فلم يلزم النّقل عنهم ذكر المكّيّ و المدنيّ، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كلّ آية أُنزلت قبل إسلامه مكّيّة أو مدنيّة. فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنّه أحد الأمرين، و إذا كان كذلك بطل ما توهّموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في النّاس، و لزوم العلم به لهم، و وجوب ارتفاع الخلاف فيه.

[معرفة المكّيّ و المدنيّ و مواضع نزول الآيات]

قال أبو القاسم الحسن بن محمّد بن حبيب النّيسابوريّ في كتاب: «التّنبيه على فضل علوم القرآن»: من أشرف علوم القرآن علم نزوله و جهاته، و ترتيب ما نزل بمكّة ابتداءً ووسطًا و انتهاءً، و ترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثمّ ما نزل بمكّة و حكمه مدنيّ، و ما نزل بالمدينة و حكمه مكّيّ، و ما نزل بمكّة في أهل المدينة، و ما نزل بالمدينة في أهل مكّة، ثمّ ما يشبه نزول المكّيّ في المدنيّ، و ما يشبه نزول المدنيّ في المكّيّ، ثمّ ما نزل بالجُحفة، و ما نزل ببيت المَقْدِس، و ما نزل بالطّائف، و مانزل بالحُدَيْبيّة، ثمّ مانزل ليلاً، و مانزل نهارًا،

و مانزل مشيَّعًا، و مانزل مفردًا، ثمّ الآيات المدنيّات في السُّور المكّيّة، و الآيات المكّية في السُّور المدنيّة، ثمّ ما حُمِل من مكّة إلى المدينة، و ما حُمِل من المدينة إلى مكّة، وماحُمِل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثمّ ما نزل مجملاً، و ما نزل مفسَّرًا، و ما نزل مرموزًا، ثمّ ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدنيّ. هذه خمسة و عشرون وجهًا، مَن لم يعرفها و يميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله تعالى.

[ثمّ ذكر ترتيب السُّور المكّيّة بحسب ما تقدّم عن صاحب كتاب «المباني» و ذكر أيضًا عقيبها اختلاف في آخر مانزل بمكّة و ترتيب مانزل بمكّة كما تقدّم أيضًا عن الخازن فقال:].

ومنهم من يقدِّم المائدة على التّوبة، و قرأ النّبيّ ﷺ المائدة في خطبة حجّة الوداع وقال: «يَاءَيُّهَاالنَّاس، إنّ آخرالقرآن نزولاً سورةالمائدة، فأحلّو حلالها، و حرّموا حرامها».

فهذا ترتيب ما نزل بالمدينة، و أمّا ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب؛ قال ابن عبّاس والضَّحَّاك و مُقاتل و عَطَاء: إنّها مكّيّة، و قال مُجاهد: مدنيّة، و اختلفوا في ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فقال ابن عبّاس: مدنيّة، و قال عَطاء: هي آخر ما نزل بمكّة، فجميع مانزل بمكّة خمس و ثمانون سورة، و جميع مانزل بالمدينة تسع و عشرون سورة على اختلاف الرّوايات.

ذكر ما نزل بمكّة و حكمه مدنيّ

منها قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ اُنْثىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ...﴾[1] الآية، و لها قصّة يطول بذكرها الكتاب[2]، و نزولها بمكّة يوم فتحها، و هي مدنيّة؛ لأنّها نزلت بعد الهجرة.

ومنها قوله: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ إلى قوله: ـ الخَاسِرِينَ﴾[3] نزلت يوم الجمعة والنّاس وقوف بعرفات، فبركت ناقة النّبيّ ﷺ من هيبة القرآن. و هي مدنيّة؛ لنزولها بعد الهجرة، و هي عدّة آيات يطول ذكرها.

---

١ ـ الحُجُرات /١٣.

٢ ـ انظر تفصيل القصّة في سيرة ابن هِشام ٤: ٣١،٣٢.

٣ ـ المائدة /٣ ـ ٥.

ذكر مانزل بالمدينة و حكمه مكّيّ

منه الممتحنة إلى آخرها، و هي قصّة حاطب بن أبي بَلْتَعة و سارة، و الكتاب الّذي دفعه إليها ـ و قصّتها[١] مشهورة ـ فخاطب بها أهل مكّة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾[٢] إلى آخر السّورة، مدنيّات يخاطب بها أهل مكّة.

ومنها سورة الرّعد يخاطب أهل مكّة، و هي مدنيّة.

ومن أوّل (بَرَاءة) إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٣]، خطاب لمشركي مكّة، و هي مدنيّة. فهذا من جملة مانزل بمكّة في أهل المدينة و حكمه مدنيّ، و ما نزل في أهل مكّة وحكمه مكّيّ.

ما يشبه تنزيل المدينة في السّور المكّيّة

من ذلك قوله تعالى في النّجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾[٤] يعني كلّ ذنب عاقبته النّار ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ يعني كلّ ذنب فيه حدّ، ﴿إلاَّ اللَّمَمَ﴾ و هو بين الحدّين من الذّنوب نزلت في نَبْهَان و المرأة الّتي راودها عن نفسها فأبت، و القصّة مشهورة، و استقرّت الرّواية بما قلنا، و الدّليل على صحّته أنّه لم يكن بمكّة حدّ و لا غَزْو.

و منها قوله تعالى في هود: ﴿وَ اَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ...﴾[٥] الآية، نزلت في أبي مقبل الحسين بن عُمر بن قَيْس[٦] والمرأة الّتي اشترت منه التّمر فراودها.

---

١ ـ و ذلك حينما أجمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المسير إلى مكّة، و كتب حاطب بن أبي بَلْتَعَة كتابه إلى قُرَيْش يخبرها بالّذي أجمع عليه رسول الله من الأمر بالسّير إليهم. و انظر تفصيل الخبر في ابن هِشام ٤: ١٦ ـ ١٧.

٢ ـ النّحل /٤١.

٣ ـ التّوبة /٢٨.

٤ ـ النّجم /٣٢.

٥ ـ هود /١١٤.

٦ ـ في تفسير القُرطُبيّ ٩: ١١٠ ـ ١١١ أنّها نزلت في رجل من الأنصار اسمه أبو اليُسْر بن عمرو، ثمّ ذكر تفصيل الخبر والخلاف الوارد فيه.

مايشبه تنزيل مكّة في السُّور المدنيّة

من ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ اَرَدْنَا اَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَ تَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾[١] نزلت في نصارى نَجران، و منهم السّيّد و العاقب.

ومنها سورة (وَالْعادياتِ ضَبْحًا) في رواية الحسين بن واقِد، و قصّتها مشهورة. ومنها قوله تعالى في الأنفال: ﴿اِذْ قَالُوا اللّٰـهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ اَلْحقَّ...﴾[٢] الآية.

مانزل بالجُحْفَة[٣]

قوله عَزَّوجَلَّ في سورة القصص: ﴿اِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ لَـرَادُّك اِلىٰ مَـعَادٍ﴾[٤]، نزلت بالجُحْفة و النّبيّ ﷺ مهاجر.

مانزل ببيت المَقْدِس

قوله تعالى في الزُّخْرُف: ﴿وَ سْئَلْ مَنْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا اَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ اٰلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٥] نزلت عليه ليلة أُسرى به.

مانزل بالطّائف

قوله تعالى في الفرقان: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ...﴾[٦] و لذلك قصّة عجيبة.

و قوله في (اِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ): ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللهُ اَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾[٧] يعني كفّار مكّة.

مانزل بالحُدَيْبيّة

قوله تعالى في الرّعد: ﴿وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾[٨]، نزلت بـالحُدَيْبيّة حـين صـالح

---

١ ـ الأنبياء /١٧.   ٢ ـ الأنفال /٣٢.

٣ ـ الجُحْفة قرية على طريق المدينة من مكّة على أربع مراحل.

٤ ـ القصص /٨٥.   ٥ ـ الزُّخْرُف /٤٥.

٦ ـ الفرقان /٤٥.   ٧ ـ الانشقاق /٢٢ ـ ٢٤.

٨ ـ الرّعد /٣٠.

النبيّ ﷺ أهل مكّة، فقال رسول الله ﷺ لعليّ: اُكتب: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال سُهيل بن عمرو: ما نعرف الرّحمان الرّحيم، و لو نعلم أنّك رسول الله لتابعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ـ إلى قوله ـ مَتَابِ﴾.

منها سورة الأنعام، و هي كلّها مكّيّة خلا ستّ آيات، و استقرّت بذلك الرّوايات.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1]، نزلت هذه في مالك بن الصّيف، إلى آخر الآية.

﴿وَ مَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾[2] نزلت في عبدالله بن أبي سَرْح، أخي عُثمان من الرّضاعة، حين قال: ﴿سَاُنْزِلُ مِثْلَ مَا اَنْزَلَ اللهُ﴾[3] و ذلك أنّه كان يكتب لرسول الله ﷺ فأنزل الله جلّ ذكره: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الْاِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾[4]، فأملاها عليه رسول الله ﷺ، فلمّا بلغ قوله: ﴿ثُمَّ اَنْشَاْنَاهُ خَلْقًا اٰخَرَ﴾[5] قال رسول الله ﷺ اكتب: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ...﴾ إلخ الآية؛ فقال: إن كنت نبيًّا فأنا نبيّ؛ لأنّه خطر ببالي ما أمليت عليّ، فلحق كافرًا.

و أمّا قوله: ﴿اَوْ قَالَ اُوحِيَ اِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ اِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[6] فإنّه نزل في مُسَيْلمة الكذّاب، حين زعن أنّ الله سبحانه أوحىٰ إليه. و ثلاث آيات من آخرها: ﴿قُلْ تَعَالَوا ـ إلى قوله ـ تَتَّقُونَ﴾[7].

سورة الأعراف مكّيّة، إلاّ ثلاث آيات: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾[8].

سورة إبراهيم مكّيّة، غير آيتين نزلتا في قتلى بدر ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا...﴾[9] إلخ الآيتين.

سورة النّحل مكّيّة إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعدِ مَا ظُلِمُوا﴾[10] **و الباقي مدنيّ.**

سورة بني إسرائيل مكّية، غير قوله: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ﴾[11]

---

١ ـ الأنعام /٩١.
٢ ـ الأنعام /٩٣.
٣ ـ الأنعام /٩٣.
٤ ـ المؤمنون /١٢.
٥ ـ المؤمنون /١٤.
٦ ـ الأنعام /٩٣.
٧ ـ الأنعام /١٥١ ـ ١٥٣.
٨ ـ الأعراف /١٦٣ ـ ١٧١.
٩ ـ إبراهيم /٢٨ ـ ٢٩.
١٠ ـ النّحل /٤١.
١١ ـ الإسراء /٧٣.

يعني ثقيفًا، و له قصّة[١].

سورة الكهف مكّيّة، غير قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾[٢] نزلت في سَلْمَان الفارسيّ وله قصّة[٣].

سورة القصص مكّيّة، غير آية: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾**[٤] ـ يعني الإنجيل ـ **﴿مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾** يعني الفرقان. نزلت في أربعين رجلاً من مؤمني أهل الكتاب قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب فأسلموا، و لهم قصّة[٥].

سورة الزُّمر مكّيّة، غير قوله: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اَسْرَفُوا عَلَى اَنْفُسِهِمْ...﴾**[٦] الآية.

الحواميم كلّها مكّيات، غير آية في الأحقاف نزلت في عبدالله بن سَلاَّم[٧]: **﴿قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾**[٨].

---

١ ـ في الجامع لأحكام القرآن للقُرطُبيّ ٩: ٢٩٩. نزلت في و فدثقيف، أتوا النّبيّ ﷺ فسألوه شططًا، و قالوا متّعنا بآلهتنا حتّى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها و أسلمنا، و حرّمنا وادينا كما حرّمت مكّة، حتّى تعرف العرب فضلنا عليهم فهمّ رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية.

٢ ـ الكهف /٢٨.

٣ ـ عن سلمان الفارسيّ قال: جاءت المؤلّفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عُيَيْنَة بن حِصْن و الأقرع بن حابِس و ذُووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنّك لو جلست في صدر المجلس و نَحَّيت عنّا هؤلاء و أرواح جبابهم ـ يعنون سَلمان و أباذر و فقراء المسلمين، و كانت عليهم جباب الصّوف لم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك و حادثناك، و أخذنا عنك، فأنزل الله: ﴿وَاتْلُ مَا اُوحِيَ اِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ＊ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ الكهف /٢٧ ـ ٢٨. فقام النّبيّ ﷺ يلتمسهم حتّى إذا أصابهم في مؤخّر المسجد يذكرون الله تعالى، قال: «الحمدلله الّذي لم يمتني حتّى أمرني أُصبِّر نفسي مع رجال من أُمّتي، معكم المحيا و معكم الممات». أسباب النّزول للواحِديّ: ٢٢٥.

٤ ـ القصص /٥٢.

٥ ـ في تفسير ابن كثير ٣: ٣٩٤ عن ابن إسحاق: قدّم على رسول الله ﷺ و هو بمكّة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النّصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه و كلّموه و سائلوه و رجال من قُريش في أنديتهم حول الكعبة، فلمّا فرغوا من مساءلته عمّا أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، و تلا عليهم القرآن، فلمّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدّمع، ثمّ استجابوا لله و آمنوا به و صدّقوه، و عرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلمّا قاموا عنه اعترضهم أبوجهل ابن هِشام في نفر من قُريش، فقالوا لهم: خيّبكم الله تعالى من ركب! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرّجل، فلم تطمئنّ مجالسكم عنده حتّى فارقتم دينكم و صدّقتموه فيما قال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرًا.

٦ ـ الزّمر: ٥٣.

٧ ـ في هذا خلاف ذكره ابن كثير في التّفسير ٤: ١٥٦.

٨ ـ الأحقاف /١٠.

الآيات المكّيّة في السّور المدنيّة

منها قوله تعالى في الأنفال: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعذِّبَهُمْ وَ اَنْتَ فِيهِمْ...﴾[١] الآية، يعني أهل مكّة حتّى يخرجك من بين أظهرهم. استقرّت به الرّواية.

سورة التّوبة مدنيّة، غير آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ...﴾[٢] إلخ السّورة.

سورة الرّعد مدنيّة، غير قوله: ﴿وَ لَوْ اَنَّ قُرْانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ـ إلى قوله ـ جَمِيعًا﴾[٣]

سورة الحجّ مدنيّة، و فيها أربع آيات مكّيّات، قوله: ﴿وَ مَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ اِلاَّ اِذَا تَمَنَّى ـ إلى قوله ـ عَقِيمٍ﴾[٤] و له قصّة.

سورة أَرَاَيْتَ مكّية إلاّ قوله:﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾[٥] إلى آخرها، فإنّها مدنيّة كذا قال مُقاتل بن سُلَيْمان.

ما حُمِل من مكّة إلى المدينة

أوّل سورة حملت من مكّة إلى المدينة سورة يوسف، انطلق بها عَوْف بن عَفراء في الثّمانية الّذين قدموا على رسول الله ﷺ مكّة، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، و هم أوّل مَنْ أسلم من الأنصار، قرأها على أهل المدينة في بني زُرَيْق، فأسلم يومئذ بيوت من الأنصار روى ذلك يزيد بن رومان عن عَطاء، عن ابن يسار، عن ابن عبّاس. ثمّ حمل بعدها﴿قُلْ هُوَاللهُ اَحَدٌ...﴾ إلى آخرها. ثمّ حمل بعدها الآية الّتي في الأعراف ﴿قُلْ يَاءَيُّهَا النَّاسُ اِنِّى رَسُولُ اللهِ اِلَيْكُمْ جَمِيعًا ـ إلى قوله ـ تَـهْتَدُونَ﴾[٦] فأسلم عليها طوائف من أهل المدينة، و له قصّة.

---

١ ـ الأنفال /٣٣.
٢ ـ التّوبة /١٢٨.
٣ ـ الرّعد /٣١.
٤ ـ الحجّ /٥٢ ـ ٥٥، و انظر الجامع لأحكام القرآن للقُرطُبيّ ٢: ٨٠ و ما بعدها.
٥ ـ الماعون /٤.
٦ ـ الأعراف /١٥٨.

ما حُمِل من المدينة إلى مكّة

من ذلك الأنفال الّتي في البقرة ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾[١] الآية، وذلك حين أورد عبدالله بن جَحش كتاب مُسْلِمِي مكّة علـى رسـول الله ﷺ، بأنّ المشـركين عيّرونا قتلَ ابن الحَضْرميّ و أخذ الأموال و الأُسارىٰ في الشّهرالحرام فكتبت بذلك عبدالله بن جَحْش إلى مُسلمي مكّة: إن عيّروكم فعيّروهم بما صنعوا بكم[٢].

ثمّ حملت آية الرِّبا من المدينة إلى مكّة في حضور ثقيف و بني المُغيرة إلى عَتّاب بن أسِيد عامل رسول الله ﷺ على مكّة، فقرأ عَتّاب عليهم: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا الله وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾[٣] فأقرّوا بتحريمه، و تابوا و أخذوا رؤُوس الأموال، ثمّ حملت مع الآيات من أوّل سورة براءة من المدينة إلى مكّة، قرأهُنّ عليّ بن أبي طالب ؑ يوم النّحر على النّاس، و في ترتيبها قصّة[٤].

ثمّ حُمِلت من المدينة إلى مكّة الآية الّتي في النّساء: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ ـ إلى قوله ـ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[٥] فلا تعاقبهم على تخلّفهم عن الهجرة. فلمّا بعث رسول الله ﷺ بها إلى مُسلمي مكّة، قال جُنْدُع بن ضَمرة اللّيثيّ ثمّ الجُندُعيّ لبنيه ـ و كان شيخًا كبيرًا: ألستُ من السمتضعفين و أنّي لا أهتدي إلى الطّريق؟ فحمله بنوه على سريره متوجّهًا إلى المدينة، فمات بالتَّنْعيم[٦] فبلغ أصحاب رسول الله ﷺ موتُه، فقالوا: لو

---

١ ـ البقرة /٢١٧.

٢ ـ انظر تفسير ابن جَرير الطَّبَريّ ٤: ٢٩٩ ـ ٣١٥، و تفسير القُرطُبيّ ٣: ٤٢ ـ ٤٣.

٣ ـ البقرة /٢٧٨.

٤ ـ انظر تفسير القُرطُبيّ ٣: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

٥ ـ النّساء /٩٨ ـ ٩٩.

٦ ـ التَّنعيم: موضع على طريق المدينة يحرم منه المكّيّون بالعُمرة. (ياقوت)

لحق بنا لكان أكملَ لأجره، فأنزل الله تعالى[1]: ﴿وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا اِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ـإلى قوله ـ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[2].

ما حُمِل من المدينة إلى الحَبشة

هي ستّ آيات، بَعث رسول الله ﷺ إلى جعفر بن أبي طالب في خصومة الرّهبان والقسّيسين ﴿يَا اَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا اِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ﴾[3] فقرأها جعفر بن أبي طالب عليهم عند النّجاشيّ، فلمّا بلغ قوله: ﴿مَا كَانَ اِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاَ نَصْرَانِيًّا﴾.[4] قال النّجاشيّ: صدقوا، ما كانت اليهودية و النّصرانيّة إلاّ من بعده ثمّ قرأ جعفر: ﴿اِنَّ اَوْلَى النَّاسِ بِاِبْرٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾[5] الآية، قال النّجاشيّ: اللّهمّ إنّي وليٌّ لأولياء إبراهيم، و قال: صدقوا والمسيح، ثمّ أسلم النّجاشيُّ و أسلموا. (١: ١٨٧ ـ ٢٠٥)

---

١ ـ أنظر تفسير القُرطُبيّ ٥: ٣٤٩.

٢ ـ النّساء /١٠٠.

٣ ـ آل عمران /٦٤.

٤ ـ آل عمران /٦٧.

٥ ـ آل عمران /٦٨.

الفصل التّاسع

نصّ الفيروزابادي (م: ٨١٧) في «بصائر ذوي التّمييز»

[بعد ذكر ترتيب السّور على طبق ما نقله الماوَرْديّ والنّيسابوريّ كما تقدّم قال:]

فيما لا بدّ من معرفته في نزول القرآن

إعلم أنّ نزول آيات القرآن و أسبابه، و ترتيب نزول السُّور المكّيّة و المدنيّة، من أشرف علوم القرآن.

[ثمّ ذكر معرفة المكّيّ و المدنيّ و مواضع نزول الآيات مانزل بمكّة و حكمه مدنيّ وبالعكس، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]

و أمّا ابتداء سورة الحجّ فنزلت في غزوة بني المُصْطلق.

و قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [1] نزلت في بعض الغَزوات، لمّا قال ﷺ: مَن يحرسني اللّيلة؟ فنزلت الآية.

و في سورة القصص ﴿اِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ اَحْبَبْتَ﴾ [2] نزلت باللّيل و هو في لحاف عائشة رضي الله عنها.

[ثمّ ذكر الآيات المدنيّة في السُّور المكّيّة و بالعكس، و ذكر أيضًا ماحُمل من مكّة إلى المدينة و بالعكس، بحسب ما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]

وأمّا الآيات المجملة فهي مثل قوله في سورة يونس: ﴿وَ لَقَدْ اَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [3]، و في سورة هود: ﴿ذٰلِكَ مِنْ اَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [4] و في

---

١ ـ البقرة /٦٧.

٢ ـ القصص /٥٦.

٣ ـ يونس /١٣.

٤ ـ هود /١٠٠.

سورة الحجّ: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اِنّى رَسُولُ اللهِ اِلَيْكُمْ جَميعًا﴾[٢] و قوله: ﴿وَ تُوبُوا اِلَى اللهِ جَميعًا اَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وأمّا الآيات المفسَّرة فمثل قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً اَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾[٤]، و قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[٥]، و ﴿قَدْ اَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٦] و ﴿يَاءَيُّهَا الَّذينَ اٰمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾[٧]. ومن وجه آخر ﴿قُلْ هُوَ اللهُ اَحَدٌ * اَللهُ الصَّمَدُ﴾ تفسيره ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ و قوله: ﴿اِنَّ الْاِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ تفسيره ﴿وَ اِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَ اِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٨].

وأمّا الآيات المرموزة فمثل (طه)، قيل: هو الرّجل بلغة عَكٍّ، و قيل: معناه طُوبى وهاوية، و قيل: معناه طاهر يا هادي. و قوله: (يس)، قيل: معناه يا إنسان، و قيل يا سيّد البشر، وقيل: يا سَنِيّ القَدْر. **وعلى هذا القياس جميع حروف التّهجّي المذكورة في أوائل السّور.**

وقال عُرْوَة بن الزُّبَير: كلّ سورة فيها ضَرْب المثال و ذكر القرون الماضية فهي مكّيّة، و كلّ سورة تتضمَّن الفرائض و الأحكام و الحدود فهي مدنيّة. و كلّ عبارة في القرآن بمعنى التّوحيد و ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكّة و ﴿يَاءَيُّهَا الَّذينَ اٰمَنُوا﴾ خطاب لأهل المدينة. و ﴿قُل﴾ خطاب للنّبيّ ﷺ. (١: ١٠٠)

و أمّا ترتيب نزول السّور فاعتمدنا على ما نقله الماوَرْديّ و أبوالقاسم النّيسابوريّ في تفسيرهما. و لنبتدىء بالسّور المكّية. **[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة كماتقدّم عن صاحب كتاب «المباني»، فقال:]**

فهذه جملة مانزل بمكّة من القرآن، و مانزل بالمدينة. و لم نذكر الفاتحة؛ لأنّه مختلَف فيها؛ قيل: أُنزلت بمكّة، و قيل: بالمدينة، و قيل: بكلٍّ مرّة. (١: ٩٧)

---

١ ـ الحج /٧٧.
٢ ـ الأعراف /١٥٨.
٣ ـ النّور /٣١.
٤ ـ يس /١٣.
٥ ـ التّوبة /١١٢.
٦ ـ المؤمنون /١.
٧ ـ الحجّ /٧٧.
٨ ـ المعارج /١٩ ـ ٢١.

الفصل العاشر

نصّ السُّيوطيّ (م: ٩١١) في «الإتقان في علوم القرآن»

في معرفة المكيّ و المدنيّ

أفرده بالتّصنيف جماعة، منهم مكّيّ و العزّ الدِّيْرينيّ. و من فوائد معرفة ذلك العلم بالمتأخّر، فيكون ناسخًا أو مخصّصًا على رأي من يرى تأخير المخصّص.

[ثمّ ذكر قول أبي القاسم الحسن بن محمّد النّيسابوريّ عن كتابه: «التّنبيه على فضل علوم القرآن» كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]

قلت: و قد أشبعت الكلام على هذه الأوجه، فمنها ما أفردته بنوع و منها ما تكلّمت عليه في ضمن بعض الأنواع.

و قال ابن العَربيّ في كتابه «النّاسخ و المنسوخ»: الّذي علمناه على الجُملة من القرآن أنّ منه مكّيًّا و مدنيًّا، و سفريًّا و حضريًّا، و ليليًّا و نهاريًّا، و سمائيًّا و أرضيًّا، و ما نزل بين السّماء و الأرض، و مانزل تحت الأرض في الغار.

و قال ابن النّقيب في مقدّمة تفسيره: المنزل من القرآن على أربعة أقسام: مكّيّ ومدنيّ، و ما بعضه مكّي و بعضه مدنيّ، و ما ليس بمكّيّ و لا مدنيّ. اعلم أنّ للنّاس في المكّي و المَدنيّ اصطلاحات ثلاثة:

أشهرُها ـ أنّ المكّيّ مانزل قبل الهجرة، و المدنيّ مانزل بعدها، سواء نزل بمكّة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجّة الوداع، أم بسفرٍ من الأسفار.

أخرج عُثمان بن سَعْد الرّازيّ بسنده إلى يحيى بن سَلاّم، قال: ما نزل بمكّة و ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النّبيّ ﷺ المدينة فهو من المكّي، و مانزل على النّبيّ ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنيّ، و هذا أثرٌ لطيف يؤخذ منه أنّ مانزل في سفر

الهجرة مكّيٌّ اصطلاحًا.

الثّاني ـ أنّ المكّيّ مانزل بمكّة و لو بعد الهجرة، و المدنيّ مانزل بالمدينة. و على هذا تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يُطلق عليه مكّيّ و لا مدنيّ. و قد أخرج الطَّبَرانيّ في «الكبير» من طريق الوليد بن مُسلم عن عُفَيْر بن مَعْدان، عن ابن عامر عن أبي أُمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكّة، والمدينة، و الشّام» قال الوليد: يعني بيت المَقْدِس. و قال الشّيخ عماد الدّين بن كثير: بل تفسيره بتبوك أحسن.

قلت: يدخل في مكّة ضواحيها، كالمنزّل بمنىً و عرفات و الحُدَيبيّة، و في المدينة ضواحيها، كالمنزّل ببدر و أُحُد و سَلْع.

الثّالث: أنّ المكّيّ ما وقع خطابًا لأهل مكّة، والمدنيّ ما وقع خطابًا لأهل المدينة، و حُمِل على هذا قول ابن مسعود الآتي. **[ثمّ ذكر قول القاضي أبي بكر، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]**

وقد أخرج البُخاريّ عن ابن مسعود أنّه قال: و الّذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى و إلاّ و أنا أعلم فيمن نزلت، و أين نزلت.

و قال أيُّوب: سأل رجل عِكْرِمة عن آية من القرآن، فقال: نزلت في سَفْح ذلك الجَبل «أشار إلى سَلْع»[1]، أخرجه أبو نُعَيم في «الحلية».

وقد ورد عن ابن عبّاس و غيره عدّ المكّيّ و المدنيّ، و أنا أسوق ماوقع لي من ذلك، ثمّ أُعقّبه بتحرير ما اختُلف فيه.

قال ابن سعد في« الطّبقات»: أنبأنا الواقِديّ، حدّثني قُدامة بن موسى عن أبي سَلَمة الحَضْرَميّ، سمعت ابن عبّاس قال: سألت أُبيّ بن كَعْب عمّا نزل من القرآن بالمدينة؟ فقال: نزل بها سبع و عشرون سورة، و سائرها بمكّة.

وقال أبو جعفر النَّحّاس في كتابه «النّاسخ و المنسوخ»: حدّثني يموت بن المزرّع، حدّثنا أبوحاتم سَهْل بن محمّد السِّجستانيّ، أنبأنا أبو عُبَيْدة مَعْمَر بن المثنىّ، حدّثنا يُونُس بن حَبيب، سمعت أبا عمرو بن العَلاء يقول: سألت مجاهدًا عن تلخيص آي القرآن،

١ ـ سَلْع: جبل بسوق المدينة.

المدنيّ من المكّيّ، فقال: سألت ابن عبّاس عن ذلك، فقال:

سورة الأنعام نزلت بمكّة جملةً واحدةً، فهي مكّيّة، إلاّ ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ﴾ [١] إلى تمام الآيات الثّلاث، و ما تقدّم من السّور مدنيّات، و نزلت بمكّة سورة الأعراف و يونس و هود و يوسف و الرّعد و إبراهيم و الحِجر و النّحل، سوى ثلاث آيات من آخرها، فإنّهن نزلن بين مكّة و المدينة في منصرفه من أُحُد و سورة بني إسرائيل و الكهف و مريم و طه و الأنبياء و الحجّ، سوى ثلاث آيات ﴿هٰذَانِ خَصْمَانِ...﴾ [٢] إلى تمام الآيات الثّلاث، فإنّهنّ نزلن بالمدينة. وسورة المؤمنون و الفرقان و سورة الشّعراء، سوى خمس آيات من آخرها نزلن بالمدينة ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ...﴾ [٣] إلى آخرها. و سورة النّمل و القصص و العنكبوت و الرّوم و لقمان، سوى ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿وَ لَوْ اَنَّ مَا فِى الْاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اَقْلَامٌ...﴾ [٤] إلى تمام الآيات و سورة السّجدة، سوى ثلاث آيات ﴿اَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَ فَاسِقًا...﴾ [٥] إلى تمام الآيات الثّلاث و سورة سبأ وفاطر و يس و الصّافّات و ص و الزُّمر، سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حَمْزة ﴿قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ اَسْرَفُوا...﴾ [٦] إلى تمام الثّلاث آيات و الحواميم السّبع و ق والذّاريات و الطّور و النّجم و القمر و الرّحمن و الواقعة و الصّفّ و التّغابن، إلاّ آيات من آخرها نزلن بالمدينة. و الملك و ن و الحاقّة و سأل و سورة نوح و الجنّ و المزّمّل، إلاّ آيتين ﴿اِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ اَنَّكَ تَقُومُ...﴾ [٧] و المدّثّر إلى آخر القرآن، إلاّ اِذَا زُلْزِلَتْ، وَ اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ، و قُلْ هُوَ اللهُ اَحَدٌ، و قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، و قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فإنّهنّ مدنيّات. ونزل بالمدينة؛ سورة الأنفال و براءة و النّور و الأحزاب و سورة محمّد و الفتح و الحُجُرات والحديد و ما بعدها إلى التّحريم.

هكذا أخرجه بَطولة، و إسناده جيّد، رجاله كلّهم ثقات من علماء العربيّة المشهورين. و قال البَيْهقيّ في «دلائل النّبوّة»: أنبأنا أبو عبدالله الحافظ، أخبرنا أبو محمّد

---

١ ـ الأنعام /١٥١ ـ ١٥٣.
٢ ـ الحجّ / ١٩ ـ ٢١.
٣ ـ الشُّعراء /٢٢٤.
٤ ـ لقمان /٢٧.
٥ ـ السّجدة /١٨.
٦ ـ الزّمر /٥٣.
٧ ـ المزّمّل /٢٠.

بن زياد العدل، حدّثنا محمّد بن إسحاق، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّورَقيّ، حدّثنا أحمد بن نصر بن مالك الخُزاعيّ، حدّثنا عليّ بن الحسين بن واقِد عن أبيه، حدَّثني يزيد النّحويّ عن عِكرِمة و الحسن بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكّة... **[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة فراجع الجدول،الرّقم ١٣ في آخر هذا الجزء]**.

قال: و قد أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عَبيد الصَّفار، حـدّثنا محمّد بن الفضْل، حدّثنا إسماعيل بن عبد الله بن زُرارَة الرَّقيّ، حدّثنا عـبدالعـزيز بـن الرّحمان القُرشيّ، حدّثنا خصيف عن مجاهد، عن ابن عبّاس، أنّه قال: إنّ أوّل ما أنزل الله على نبيّه من القرآن ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فذكر معنى هذاالحديث، و ذكر السّور الّتي سقطت من الرّواية الأُولى في ذكر مانزل بمكّة، و قال: و للحديث شاهد في تفسير مُقاتِل و غيره مع المرسل الصّحيح الّذي تقدّم.

و قال ابن الضُّرَيْس في «فضائل القرآن»: حدّثنا محمّد بن عبدالله بن أبـي جـعفر الرّازيّ، أنبأنا عمرو بن هارون، حدّثنا عُثمان بن عَطاء الخراسانيّ عن أبـيه، عـن ابـن عبّاس، قال: كانت إذا أُنزلت فاتحة الكتاب بمكّة كتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، فكان ما أنزل من القرآن... **[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة كما تقدّم مثله عن صاحب المباني فراجع الجدول، الرّقم ٧ في آخر هذا الجزء]**.

وقال أبو عُبَيْد في «فضائل القرآن»: حدّثنا عبدالله بن صالح و معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طَلْحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، و آل عمران، و النّساء، و المائدة، والأنفال، و التّوبة، و الحجّ، والنّور، و الأحزاب، والَّذِينَ كَـفَرُوا، و الفـتح، و الحـديد، و المجادِلة، و الحشر، و الممتحنة، و الحواريّين ـ يريد الصّفّ ـ و التّغابُن، وَ يَاأَيُّهَا النَّبيّ اِذَا طَلَّقْتُمْ النّساءَ، و يَاأَيُّهَاالنَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ، و الفجر، و الّيل، و اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْر، وَلَمْ يَكُنْ، وَ اِذَا زُلْزِلَت، و إذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ، و سائر ذلك بمكّة.

وقال أبوبكر بن الأنباريّ: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدّثنا حَجّاج بـن مِنْهال، نبّأنا هِشام عن قَتادة، قال: نزل في المـدينة مـن القـرآن: البـقرة، و آل عـمران، والنّساء، و المائدة، و براءة، و الرّعد، والنّحل، و الحجّ، و النّور، و الأحـزاب، و مـحمّد،

والفتح، و الحُجُرات، و الحديد، و الرّحمٰن، و المُجادِلة، و الحَشْر، و الممتحنة، والصّفّ، والجُمُعة، و المنافقون، و التّغابُن، و الطّلاق، و يَاءَيُّهَا النّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ، إلى رأس العشر، و إِذَا زُلْزِلَت، و إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ، و سائر القرآن نزل بمكّة.

و قال أبو الحسن بن الحَصّار في كتابه «النّاسخ و المنسوخ»: المدنيّ باتّفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة، و ما عدا ذلك مكّيّ باتّفاق. ثمّ نظم في ذلك أبياتًا، فقال:

يا سائلي عن كتاب الله مجتهدًا ... و عن ترتُّب ما يُتْلىٰ من السُّوَرِ
و كيف جاء بها المُختار من مُضَرٍ ... صلّى الإله على المختار من مُضَرِ
و ما تقدّم منها قبل هجرته ... و ما تأخّر في بدْوٍ و في حَضَرِ
ليعلم النّسخ و التّخصيص مجتهدٌ ... يؤيّد الحُكْم بالتّاريخ وَالنَّظَرِ
تعارض النّقل في أُمّ الكتاب وقد ... تُؤوِّلَتِ الحِجْر تنبيهًا لمعتَبِر
أُمّ القرآن و في أُمّ القرىٰ نَزلتْ ... ما كان للخمس قبل الحمد من أثَرِ[1]
و بعد هِجْرةِ خير النّاس قد نَزلت ... عشرون من سور القرآن في عَشَرِ
فأربعٌ من طُوال السّبع أوّلها ... و خامس الخمس في الأنفال ذي العِبَرِ
و توبة الله إن عُدّتْ فسادسةٌ ... و سورة النّور و الأحزاب ذِي الذكّرِ
و سورة لنبيّ الله محكمةٌ ... و الفتحُ و الحُجُرات الغرّ في غُررِ
ثمّ الحديدُ ويتلوها مُجادلةٌ ... والحشر ثمّ امتحان الله للبَشَرِ
و سورةٌ فضحَ الله النِّفاقَ بها ... و سورة الجُمُع[2] تذكارٌ لمُدَّكِرِ
وللطّلاق و للتّحريم حكمُهُما ... و النّصر و الفتح تنبيهًا على العُمُرِ
هذا الّذي اتّفقتْ فيه الرُّواة له ... و قد تعارضت الأخبار في أُخَرِ

---

١ ـ في حاشية الأصل بعد هذا البيت:

لو كان ذاك لكان النَّسْخُ أوّلَها ... و لم يقل بتصريح النّسخ من بَشَرِ

قال ورد هذا البيت في «التّحبير»، فانظر لماذا أسقط هنا، و قد بيّنت معنى هذا البيت لهامش «التّحبير» فراجعه.

٢ ـ أراد بها سورة الجُمُعة، فحذفت التّاء لضرورة النّظم. فلا يقال: إنّ مراده بسورة الجمع سورة التّغابُن: لقوله تعالى فيها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ فيخالف هذا مايأتي بعد النّظم من جعلهاالتّغابُن من المختلف فيه، القول: ثمّ التّغابُن و التّطفيف.

فالرّعد مختَلفٌ فيها متى نزلتْ و أكثر النّاس قالوا: الرّعد كالقمَرِ
و مثلها سورة الرّحمن شاهدُها ممّا تضمّن قول الجنّ في الخَبرِ
و سورةٌ للحوارِيِّين قد عُلِمتْ ثمّ التَّغابُن و التَّطفيف ذو النُّذُرِ
وليله القدر قد خُصَّت بملَّتنا و لم يكن بعدها الزّلزال فاعتَبرِ
و قل هو الله من أوصاف خالقنا وعُوذتان تردّ البأس بالقدرِ
و ذا الّذي اختلفتْ فيهِ الرّواة له و ربّما استُثنيتْ آيٌ من السُّوَرِ
و ما سوى ذاك مَكّيٌّ تَنَزُّلُهُ فلا تكن من خلاف النّاس في حَصَرِ
فليس كلُّ خلاف جاء معتَبرًا إلاّ خلافٌ له حظٌّ من النَّظَرِ

وقال الدُّرَيْنيّ رحمه الله:

و ما نزلت «كَلاَّ» بيثرب فاعلمنْ و لم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

و حكمة ذلك أنّ نصفه الأخير نزل أكثره بمكّة، و أكثرها جبابرة، فتكرّرت فيه على وجه التّهديد و التَّعنيف لهم و الإنكار عليهم، بخلاف النّصف الأوّل، و ما نزل منه في اليهود لم يحتجّ إلى إيرادها فيه؛ لذلّتهم و ضعفِهم، ذكره العَمّانيّ.

تنبيه: قد تبيّن بما ذكرناه من الأوجه الّتي ذكرها ابن حبيب المكّيّ و المدنيّ، و ما اختُلف فيه، و ترتيب نزول ذلك، و الآيات المدنيّات في السُّورة المكّية، و الآيات المكّيّات في السُّور المدنيّة، و بقي أوجهٌ تتعلّق بهذا النّوع ذكر هو أمثلتها فنذكره.

مثال مانزل بمكّة و حكمهُ مدنيّ: ﴿يَاءَيُّهَاالنَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَ اُنْثىٰ...﴾[1] الآية، نزل بمكّة يوم الفتح، و هي مدنيّة، لأنّها نزلت بعد الهجرة. وقوله: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] كذلك.

قلت: وكذا قوله: ﴿اِنَّ اللهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوا الْاَمَانَاتِ اِلى اَهْلِهَا...﴾[3] في آيات أُخر.

ومثال مانزل بالمدينة و حكمه مكّيّ: سورة الممتحنة، فإنّها نزلت بالمدينة مخاطبة

١ ـ الحُجُرات /١٣. ٢ ـ المائدة /٢.
٣ ـ النّساء /٥٨.

لأهل مكّة. و قوله في النّحل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾[١] إلى آخرها، نزل بالمدينة مخاطبًا به أهل مكّة. و صدْر (بَرَاءةٌ) نزل بالمدينة خطابًا لمشركي أهل مكّة.

ومثال ما يشبه تنزيل المدنيّ في السّور المكّيّة: قوله في النّجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْاِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ اِلاَّ اللَّمَمَ﴾[٢]، فإنّ الفواحش: كلّ ذنب فيه حَدّ، و الكبائر: كلّ ذنب عاقبة النّار، و اللَّمَم: ما بين الحدّين من الذّنوب و لم يكن بمكّة حدّ و لانحوه.

و مثال ما يشبه تنزيل مكّة في السّور المدنيّة: قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ و قوله في الأنفال: ﴿وَ اِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ...﴾[٣] الآية.

و مثال ما حُمِل من مكّة إلى المدينة: سورة يوسف و الإخلاص.

قلت: و (سَبِّح)، كما تقدّم في حديث البُخاريّ

و مثال ما حُمِل من المدينة إلى مكّة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[٤]، و آية الرّبا، و صدر (بَرَاءَةٌ)، و قوله: ﴿اِنَّ الَّذِينَ تَوَفّٰيهُمُ الْمَلٰئِكَةُ ظَالِمِى اَنْفُسِهِمْ...﴾[٥] الآيات.

و مثال ما حُمِل إلى الحبشة: ﴿قُلْ يَا اَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا اِلٰى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾[٦] الآيات.

قلت: صحّ حملها إلى الرّوم.

و ينبغي أن يمثّل لِمَا حُمِل إلى الحَبَشَة بسورة مريم، فقد صحّ أنّ جعفربن أبي طالب قرأها على النَّجاشيّ، و أخرجه أحمد في مسنده.

و أمّا ما نزل بالجُحْفة و الطّائف و بيت المَقْدِس و الحُدَيْبيّة فسيأتي في النّوع الّذي يلي هذا، و يُضمّ إليه ما نزل بمنى و عرفات و عَسْفان و تَبُوك و بَدْر و أُحُد و حِراء و حَمراء الأسد. (١: ٣٦ ـ ٧٢)

فرع: أخرج الواحِديّ من طريق الحسين بن واقِد، قال: سمعتُ عليّ بن الحسين يقول:... [و ذكر كما تقدّم عنه في أوّل مانزل، ثمّ قال:]

و في «شرح البُخاريّ» لابن حَجَر: اتّفقوا على أنّ سورة البقرة أوّل سورة أُنزلت

---

١ ـ النّحل /٤١.
٢ ـ النّجم /٣٢.
٣ ـ الأنفال /٣٢.
٤ ـ البقرة /٢١٧.
٥ ـ النّساء /٩٧.
٦ ـ آل عمران /٦٤.

بالمدينة. و في دعوى الاتّفاق نظر؛ لقول عليّ بن الحسين المذكور.

و في «تفسير النَّسَفيّ» عن الواقِديّ: إنّ أوّل سورة نزلت بالمدينة سورة القَدر.

و قال أبوبكر محمّد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور: حدّثنيّ أبو العبّاس عُبيد الله محمّد بن أعيَن البَغْداديّ، حدّثنا حَسَّان بن إبراهيم الكَرمانيّ، حدّثنا أُميّة الأزديّ عن جابر بن زيد، قال:... **[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدينة، فراجع الجدول، ١٠ في آخر هذا الجزء، ثمّ قال:]**

قلت: هذا سياق غريب، و في هذا التّرتيب نظر، و جابر بن زيد من عُلماء التّابعين بالقرآن. **[ثمّ استشهد بشعر الجَعْبَريّ في ترتيب النّزول و ذكر أيضًا عقيبه فصلاً في تحرير السّور المختلف فيها، و إن شئتَ فراجع] (١: ٩٦ ـ ٩٨)**

قال البَيْهقيّ في «الدّلائل»: في بعض السّور الّتي نزلت بمكّة آيات نزلت بالمدينة فأُلحقت بها. و كذا قال ابن الحَصَّار، و كلّ نوع من المكّيّ و المدنيّ منه آيات مستثناة؛ قال: إلاّ أنّ من النّاس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النّقل.

في ذكر ما استثني من المكّي و المدنيّ

[بعد ذكر قول ابن حَجَر، كما تقدّم عنه، قال:]

قلت: وها أنا أذكر ما وقفتُ على استثنائه من النّوعين مستوعبًا ما رأيته من ذلك على الاصطلاح الأوّل دون الثّاني، و أشير إلى أدلّة الاستثناء لأجل قول ابن الحَصَّار السّابق، و لا أذكر الأدلّة بلفظها اختصارًا و إحالة على كتابنا «أسباب النّزول».

الفاتحة؛ تقدّم قولٌ أنّ نصفها نزل بالمدينة، والظّاهر أنّه النّصف الثّاني، ولادليل لهذا القول.

البقرة؛ استُثنِي منها آيتان ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾[1] و ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدٰيهُمْ﴾[2].

الأنعام؛ قال ابنُ الحَصَّار: استُثني منها تسع آيات، و لا يصحّ به نقل، خصوصًا قد ورد أنّها نزلت جملةً.

---

١ ـ البقرة /١٠٩.

٢ ـ البقرة /٢٧٢.

قلت: قد صحّ النّقل عن ابن عبّاس باستثناء ﴿قُلْ تَعَالَوْا...﴾[١] الآيات الثّلاث كما تقدّم، و البواقي ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٢].

لما أخرجه ابن أبي حاتم أنّها نزلت في مالك بن الصّيف، وقولُه: ﴿وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا...﴾[٣] الآيتين، نَزَلَتَا في مُسَيْلَمة، وقوله: ﴿الَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾[٤]، و قوله: ﴿وَالَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ اَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[٥].

و أخرج أبو الشّيخ عن الكَلْبيّ، قال: نزلت الأنعام كلّها بمكّة إلاّ آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود، و هو الّذي قال: ﴿مَا اَنْزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[٦].

و قال الفِرْيابيّ: حدّثنا سُفيان عن لَيْث، عن بِشْر، قال: الأنعام مكّيّة إلاّ ﴿قُلْ تَعَالَوْا اَتلُ﴾ و الآية الّتي بعدَها.

الأعراف؛ أخرج أبو الشّيخ بن حَيَّان عن قَتَادة، قال: الأعراف مكّيّة إلاّ آية: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾[٧]، و قال غيره: من هنا إلى ﴿وَ اِذْ اَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى اٰدَمَ...﴾[٨] مدنيّ.

الأنفال؛ استثني منها: ﴿وَ اِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[٩] الآية ؛ قال مُقاتل: نزلت بمكّة.

قلت: يردّه ماصحّ ابن عبّاس أنّ هذه الآية بعينها نزلت بالمدينة، كما أخرجناه في «أسباب النّزول»، و استثني بعضهم قوله: ﴿يَاۤاَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ...﴾[١٠] الآية، و صحّحه ابن العربيّ و غيره.

قلت: يؤيّده ما أخرجه البَزّار عن ابن عبّاس أنّها نزلت لمّا أسلم عمر.

براءة؛ قال ابن الفَرَس: مدنيّة إلاّ آيتين: ﴿لَقَدْ جَاۤءَكُمْ رَسُولٌ...﴾[١١] إلى آخرها.

قلت: غريب، كيف و قد ورد أنّها آخر ما نزل! و استثني بعضهم: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾[١٢] الآية؛ لما ورد أنّها نزلت في قوله عليه الصّلاة و السّلام لأبي طالب: «لأستغفرنّ لك مالَم أُنْهَ عنك».

---

١ ـ الأنعام /١٥١ ـ ١٥٣.
٢ ـ الأنعام /٩١.
٣ ـ الأنعام /٢١ ـ ٢٢.
٤ ـ الأنعام /٢٠.
٥ ـ الأنعام /١١٤.
٦ ـ الأنعام /٩١.
٧ ـ الأنعام /١٦٣.
٨ ـ الأنعام /١٧٢.
٩ ـ الأنفال /٣٠.
١٠ ـ الأنفال /٦٤.
١١ ـ التّوبة /١٢٨ ـ ١٢٩.
١٢ ـ التّوبة /١١٣.

يونس؛ استثني منها: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾[١] الآيتين. و قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ...﴾[٢] الآية. قيل: نزلت في اليهود، و قيل: من أوّلها إلى رأس أربعين مكّيّ و الباقي مدنيّ حكَاه ابن الفَرَس و السَّخاويّ في «جمال القُرّاء».

هود؛ استثني منها ثلاث آيات: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ...﴾[٣]، ﴿اَفَمَنْ كَانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾[٤]، ﴿وَ اَقِمَ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ...﴾[٥].

قلت: دليل الثّالثة ما صحّ من عدّة طرق أنّها نزلت بالمدينة في حقّ أبي اليُسْر.

يوسف؛ استثني منها ثلاث آيات من أوّلها، حكاه أبو حَيَّان، و هو واهٍ جدًّا لا يلتفت إليه.

الرّعد؛ أخرج أبو الشّيخ عن قَتادة، قال: سورة الرّعد مدنيّة إلاّ آية، قوله: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ...﴾[٦] و على القول بأنّها مكّيّة يستثنى قوله: ﴿اَللهُ يَعْلَمُ ـ إلى قوله ـ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[٧] كما تقدّم و الآية آخرها، فقد أخرج ابن مَرْدُوَيْه عن جُنْدَب، قال: جاء عبدالله بن سَلاَّم حتّى أخذ بِعُضَادتي باب المسجد، قال: أنشدكم بالله أيّ قوم، تعلمون أنّي الّذي أُنزلت فيه: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٨]؟ قالوا: اللّهمّ نعم.

إبراهيم؛ أخرج أبو الشّيخ عن قَتادة، قال: سورة إبراهيم مكّيّة غير آيتين مدنيّتين ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا ـ إلى ـ وَ بِئْسَ الْقَرَارُ...﴾[٩].

الحِجْر؛ استثنىٰ بعضهم منها: ﴿وَلَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا...﴾ الآية.[١٠]

قلت: و ينبغي استثناء قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ...﴾[١١] الآية، لِمَا أخرجه التِّرمِذيّ و غيره في سبب نزولها، و أنّها في صفوف الصّلاة.

النَّحل؛ تقدّم عن ابن عبّاس أنّه استثنىٰ آخرها، و سيأتي في السّفريّ ما يؤيّده. أخرج أبو الشّيخ عن الشَّعبيّ، قال نزلت النَّحل كُلّها بمكّة إلاّ هؤلاء الآيات: ﴿وَ اِنْ

---

١ ـ يونس /٩٤ ـ ٩٥.
٢ ـ يونس /٤٠.
٣ ـ هود /١٢ ـ ١٤.
٤ ـ هود /١٧.
٥ ـ هود /١١٤.
٦ ـ الرّعد /٣١.
٧ ـ الرّعد / ٨ ـ ١٣.
٨ ـ الرّعد /٤٣.
٩ ـ إبراهيم /٢٨ ـ ٢٩.
١٠ ـ الحِجْر /٨٧.
١١ ـ الحِجْر /٢٤.

عَاقَبْتُمْ...﴾[١] إلى آخرها.

و أخرج عن قَتادة، قال: سورة النّحل من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا...﴾[٢] إلى آخرها مدنيّ، و ما قبلها إلى آخر السّورة مكّيّ، و سيأتي في أوّل مانزل عن جابر بن زيد أنّ النّحل نزل منها بمكّة أربعون، و باقيها بالمدينة. و يردّ ذلك ما أخرجه أحمد عن عُثمان بن أبي العاص في نزول: ﴿اِنَّ اللهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْاِحْسَانِ﴾[٣] و سيأتي في نوع التّرتيب.

الإسراء؛ استثني منها:﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾[٤] الآية؛ لما أخرج البُخاريّ عن ابن مسعود أنّها نزلت بالمدينة في جواب سؤال اليهود عن الرّوح. استثني منها أيضًا: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ـ إلى قوله ـ اِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٥]، وقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ﴾[٦] الآية، وقوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا...﴾[٧] الآية، و ﴿اِنَّ الَّذِينَ اُتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾[٨]؛ لما أخرجناه في «أسباب النّزول».

الكهف؛ استثني من أوّلها إلى ﴿جُرُزًا﴾[٩]، و قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾[١٠] الآية و ﴿اِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا...﴾[١١] إلى آخر السّورة.

مريم؛ استثني منها آية السّجدة، و قوله: ﴿وَ اِنْ مِنْكُمْ اِلاَّ وَارِدُهَا﴾[١٢].

طه؛ استثني منها: ﴿فَاصْبِرْ عَلٰى مَا يَقُولُونَ...﴾[١٣] الآية.

قلت: ينبغي أن يستثنىٰ آية أُخرى، فقد أخرج البَزّار و أبو يعلى عن أبي رافع، قال: أضاف النّبيّ ﷺ ضيفًا، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقًا إلى هلال رجب، فقال: لا، إلاّ برَهْن، فأتيت النّبيّ ﷺ فأخبرته، فقال: «أما والله إنّي لأمينٌ في السّماء أمين في الأرض»، فلم أخرج من عنده حتّى نزلت هذه الآية: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ اِلٰى مَا مَتَّعْنَا بِهِ

---

١ ـ النّحل /١٢٦.
٢ ـ النّحل /٤١.
٣ ـ و النّحل /٩٠.
٤ ـ الإسراء /٨٥.
٥ ـ الإسراء /٧٣ ـ ٨١.
٦ ـ الإسراء /٨٨.
٧ ـ الإسراء /٦٠.
٨ ـ الإسراء /١٠٧.
٩ ـ الكهف /١ ـ ٨.
١٠ ـ الكهف /٢٨.
١١ ـ الكهف /١٠٧.
١٢ ـ مريم /٧١.
١٣ ـ طه /١٣٠.

اَزْوَاجًا مِنهُم﴾[١].

الأنبياء؛ استثني منها: ﴿اَفَلاَ يَرَوْنَ اَنَّا نَاْتِى الْاَرْضَ...﴾[٢] الآية.

الحجّ؛ تقدّم ما يُستثنىٰ منها.

المؤمنون، استثني منها: ﴿حَتّٰى اِذَآ اَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم ـ إلى قوله ـ مُبْلِسُونَ﴾[٣].

الفرقان؛ استثني منها: ﴿وَالَّذِينَ لاَيَدْعُونَ ـ إلى ـ رَحِيمًا﴾[٤].

الشُّعراء؛ استثنى ابن عبّاس منها: ﴿والشُّعراء﴾[٥] إلى آخرها كما تقدّم. زاد غيره قوله: ﴿اَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ اٰيَةً اَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰٓؤُا بَنِى اِسْرَآئِيلَ﴾[٦]، حكاه ابن الفَرَس.

القصص؛ استثني منها: ﴿اَلَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ـ إلى قوله ـ الْجَاهِلِينَ﴾[٧]، فقد أخرج الطَّبَرانيّ عن ابن عبّاس أنّها نزلت هي و آخر الحديد في أصحاب النّجاشيّ الّذين قدموا وشهدوا وقعة أُحُد، وقوله: ﴿اِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ...﴾[٨] الآية؛ لما سيأتي.

العنكبوت؛ استثني من أوّلها إلى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[٩] لما أخرجه ابن جَرير في سبب نزولها.

قلت: و يضمّ إليه: ﴿وَ كَاَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ...﴾[١٠] لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها.

لُقمان؛ استثني منها ابن عبّاس: ﴿وَلَوْ اَنَّ مَا فِى الْاَرْضِ...﴾[١١] الآيات الثّلاث كما تقدّم.

السّجدة؛ استثني منها ابن عبّاس: ﴿اَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا...﴾[١٢] الآيات الثّلاث كما تقدّم، وزاد غيره ﴿تَتَجَافىٰ جُنُوبُهُمْ...﴾[١٣]، و يدلّ له ما أخرجه البزّار عن بلال، قال: كنّا نجلس في المسجد، و ناس من الصّحابة يصلّون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت.

سبأ؛ استثني منها: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ اُوتُوا الْعِلْمَ...﴾[١٤] الآية. وروى التِّرمِذيّ عن فَرْوة بن نُسَيْك المراديّ، قال: أتيتُ النّبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألا أُقاتل من أدبر من قَومي...

---

١ ـ طه /١٣١.
٢ ـ الأنبياء /٤٤.
٣ ـ المؤمنون /٦٤ ـ ٧٧.
٤ ـ الفرقان /٦٨ ـ ٧٠.
٥ ـ الشُّعراء /٢٢٤ ـ ٢٢٧.
٦ ـ الشّعراء /١٩٧.
٧ ـ القَصَص /٥٢ ـ ٥٥.
٨ ـ القصص /٨٥.
٩ ـ العنكبوت /١١.
١٠ ـ العنكبوت /٦٠.
١١ ـ لُقمان /٢٧ ـ ٢٩.
١٢ ـ السّجدة /١٨ ـ ٢٠.
١٣ ـ السّجدة /١٦.
١٤ ـ سبأ /٦.

الحديث، و فيه: «و أُنزل في سبأ ما أُنزل». فقال رجل: يا رسول الله. و ما سبأ؟... الحديث.

قال ابنُ الحَصَّار: هذا يدلُّ على أنّ هذه القصّة مدنيّة؛ لأنّ مهاجرة فَرْوَة بعد إسلام ثقيف سنة تسع.

قال: و يحتمل أن يكون قوله: «أُنزل» حكاية عمّا تقدّم نزوله قبل هجرته .

يس؛ استثني منها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتىٰ...﴾ [١] الآية؛ لِمَا أخرجه التِّرمِذيّ و الحاكم عن أبي سَعيد، قال: كانت بنو سَلَمة في ناحية المدينة، فأرادوا النّقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية، قال النّبيّ ﷺ: «إنّ آثار كم تُكتب»، فلم ينتقلوا. واستثنى بعضهم: ﴿وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ اَنفِقُوا...﴾ [٢] الآية، قيل: نزلت في المنافقين.

الزُّمَر؛ استثني منها: ﴿قُلْ يَا عِبَادِىَ ...﴾ [٣] الآيات الثّلاث كما تقدّم عن ابن عبّاس.

و أخرج الطَّبَرانيّ من وجه آخر عنه: أنّها في نزلت في وحشيّ قاتل حَـمزة، وزاد بعضهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾ [٤] الآية، ذكره السَّخاويّ في «جمال القُرّاء»، وزاد غيره: ﴿اَللهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾ [٥] الآية، و حكاه ابن الجزَريّ.

غافر، استثني منها: ﴿اِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٦] فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية و غيره، أنّها نزلت في اليهود لَمّا ذكروا الدَّجّال، و أوضحته في «أسباب النّزول».

الشّورىٰ؛ استثني منها: ﴿اَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ ـ إلى قوله ـ بَصِيرٌ﴾ [٧].

قلت: بدلالة ما أخرجه الطَّبَرانيّ و الحاكم في سبب نزولها، فإنّها نزلت في الأنصار. وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ [٨] الآية، نزلت في أصحاب الصُّفّة. و استثنىٰ بعضهم: ﴿وَالَّـذِينَ اِذَا اَصَابَهُمُ الْبَغْىُ ـ إلى قوله ـ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [٩] حكاه ابن الغَرْس.

الزُّخْرُف؛ استثني منها: ﴿وَسْئَلْ مَنْ اَرْسَلْنَا...﴾ [١٠] الآية، قيل: نزلت بالمدينة، و قيل في السّماء.

---

١ ـ يس /١٢.
٢ ـ يس /٤٧.
٣ ـ الزُّمَر /٥٣ ـ ٥٥.
٤ ـ الزُّمَر /١٠.
٥ ـ الزُّمَر /٢٣.
٦ ـ غافر /٥٦، ٥٧.
٧ ـ الشّورى /٢٤ ـ ٢٧.
٨ ـ الشّورى /٢٧.
٩ ـ الشّورى /٣٩ ـ ٤١.
١٠ ـ الزُّخرُف /٤٥.

الجاثية؛ استثني منها: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا...﴾ [١] الآية، حكاه في «جمال القُرّاء» عن قَتادة.

الأحقاف؛ استثني منها: **﴿قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ...﴾** [٢] الآية، فقد أخرج الطَّبَرانيّ بسند صحيح عن عَوْف بن مالك الأشجَعيّ أنّها نزلت بالمدينة في قصّة إسلام عبدالله بن سَلاَّم، وله طرق أُخرى، لكن أخرج ابن أبي حاتم عن مَسْروق، قال أُنزلت هذه الآية بمكّة، إنّما كان إسلامُ ابن سَلاَّم بالمدينة، و إنّما كانت خصومةً خاصم بها محمّدًا.

و أخرج ﷺ عن الشَّعبيّ، قال: ليس بعبدالله بن سَلاَّم، و هذه الآية مكّيّة و استثنىٰ بعضهم: **﴿وَ وَصَّيْنَا الْاِنْسَانَ﴾** [٣] الآيات الأربع، و قوله: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ اُولُوا الْعَزْمِ...﴾** [٤] الآية، حكاه في «جمال القُرّاء».

ق؛ استثني منها: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ ـ إلى ـ لُغُوبٍ﴾** [٥] فقد أخرج الحاكم و غيره أنّها نزلت في اليهود.

النّجم؛ استثني منها: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ـ** [٦] **إلى ـ اتَّقَى﴾** و قيل: **﴿اَفَرَاَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى...﴾** [٧] الآيات التّسع.

القمر؛ استثني منها: **﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ...﴾** [٨] الآية، هو مردود؛ لما سيأتي في النّوع الثّاني عشر و قيل: **﴿اِنَّ الْمُتَّقِينَ...﴾** [٩] الآيتين.

الرَّحمٰن؛ استثني منها: **﴿يَسْئَلُهُ﴾** [١٠] حكاه في «جَمَال القُرّاء».

الواقعة؛ استثني منها: **﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْاَوَّلِينَ * وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْاٰخِرِينَ﴾** [١١]

و قوله: ﴿فَلاَ اُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ـ إلى ـ تُكَذِّبُونَ﴾ [١٢] لما أخرجه مسلم في سبب نزولها.

الحديد؛ يستثني منها على القول بأنّها مكّيّة آخرها.

المجادلة؛ استثني منها: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلاَثَةٍ...﴾ [١٣] الآية، حكاه ابن الغَرْس و

---

١ ـ الجاثية /١٤.
٢ ـ الأحقاف /١٠.
٣ ـ الأحقاف /١٥.
٤ ـ الأحقاف /٣٥.
٥ ـ ق /٣٨.
٦ ـ النّجم /٣٢.
٧ ـ النّجم /٣٣ و ما بعدها.
٨ ـ القمر /٤٠.
٩ ـ القمر /٥٤ ـ ٥٥.
١٠ ـ الرّحمٰن /٢٩.
١١ ـ الواقعة /٣٩ ـ ٤٠.
١٢ ـ الواقعة /٧٥ ـ ٨٢.
١٣ ـ المجادلة /٧.

غيره.

التّغابُن؛ يستثني منها على أنّها مكّيّة آخرُها؛ لما أخرجه التِّرمِذيّ و الحاكم في سبب نزولها.

التّحريم؛ تقدّم عن قَتادة أنّ المدنيّ منها إلى رأس العشر، و الباقي مكّي.

تبارك؛ أخرجَ جُوَيْبِر في تفسيره عن الضَّحّاك، عن ابن عبّاس، قال: أُنزلت الملك في أهل مكّة إلاّ ثلاث آيات.

ن؛ استثني منها: **﴿إنّا بَلَوْنَاهُمْ ـ إلى ـ يَعْلَمُونَ﴾** [١] و من **﴿فَاصْبِرْ ـ إلى ـ الصَّالِحِينَ﴾** [٢] فإنّه مدنيّ حكاه السَّخاويّ في «جمال القُرّاء».

المزّمّل؛ استثني منها: **﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ...﴾** [٣] الآيتين، حكاه الأصبهانيّ، **وقوله**: **﴿إنَّ رَبَّك يَعْلَمُ...﴾** [٤] إلى آخر السّورة، حكاه ابن الغَرْس و يردّه ما أخرجه الحاكم عن عائشة أنّه نزل بعد نزول صدر السّورة بسنة، و ذلك حين فرض قيام اللّيل في أوّل الإسلام قبل فرض الصّلوات الخمس.

الإنسان؛ استثني منها: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾** [٥].

المرسلات؛ استثني منها: **﴿وَإذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَيَرْكَعُونَ﴾** [٦] حكاه ابن الغَرْس و غيره.

المطفّفين؛ قيل: مكّيّة إلاّ ستّ آيات من أوّلها.

البلد؛ قيل مدنيّة إلاّ أربع آيات من أوّلها.

اللّيل؛ قيل مكّيّة إلاّ أوّلها.

أرَأيْتَ؛ ثلاث آيات من أوّلها بمكّة، و الباقي المدينة.

ضوابط في المكّيّ و المدنيّ

أخرج الحاكم في مستدركه و البَيْهَقيّ في «الدّلائل» و البَزّار في مسنده من طريق الأعمش عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة، عن عبدالله، قال: ما كان **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾** أُنزل

---

١ ـ ن /١٧ ـ ٣٣.
٢ ـ ن /٤٨ ـ ٥٠.
٣ ـ المزّمّل /١٠ ـ ١١.
٤ ـ المزّمّل /٢٠.
٥ ـ الإنسان /٢٤.
٦ ـ المرسلات /٤٨.

بالمدينة، و ما كان ﴿يَاءَيُّهَاالنَّاسُ﴾ فبمكّة.

و أخرجه أبو عُبَيْد في «الفضائل» عن عَلْقَمة مرسلاً.

و أخرج عن مَيْمون بن مِهران، قال: ما كان في القرآن ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِى ءَادَمَ﴾ فإنّه مكّيّ، و ما كان ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإنّه مدنيّ.

قال ابن عطيّة و ابن الغَرْس و غيرهما: هو في ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صحيح، و أمّا ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقد يأتي في المدنيّ.

و قال ابنُ الحَصَّار: قد اعتنى المتشاغلون بالنّسخ بهذا الحديث، و اعتمدوه على ضعفه، و قد اتّفق النّاس على أنّ (النّساء) مدنيّة و أوّلها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ و على أنّ (الْحجّ) مكّيّة، و فيها: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾[1].

و قال غيره: هذا القول إن أُخِذ على إطلاقه فيه نظر، فإنّ سورة البقرة مدنيّة، و فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[2]، ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ﴾[3]، و سورة النّساء مدنيّة، و أوّلها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾.

و قال مكّيّ: هذا إنّما هو في الأكثر و ليس بعامّ، وفي كثير من السّور المكّيّة: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

و قال غيرُه: الأقرب حملُه على أنّه خطاب المقصود به ـ أو جلّ المقصود به ـ أهل مكّة أو المدينة.

و قال القاضي: إن كان الرّجوع في هذا إلى النّقل فمسلّم، و إن كان السّبب فيه حصول المؤمنين المدينة على الكثرة دون مكّة فضعيف؛ إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتهم و باسمهم و جنسهم، و يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها، نقله الإمام فخر الدّين في تفسيره.

و أخرج البَيْهَقيّ في «الدّلائل» من طريق يُونس بن بُكَير، عن هِشام بن عُرْوَة، عن

١ ـ الحجّ /٧٧. ٢ ـ البقرة /٢١.
٣ ـ البقرة /١٦٨.

أبيه، قال: كلّ شيءٍ نزل من القرآن فيه ذكر الأُمم و القرون فإنّما نزل بمكّة، و ما كان من الفرائض و السُّنَن فإنّما نزل بالمدينة. **[ثمّ ذكر قول الجَعْبَريّ، كما تقدّم عن الزّركشيّ فقال:]**.

و قال مكّيّ: كلّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنيّة، زاد غيره: سوى العنكبوت. و في كامل الهُذَليّ: كلّ سورة فيها سَجْدة فهي مكّيّة... (١: ٣٦ ـ ٦٩)

الفصل الحادي عشر

نصّ القَسْطَلانيّ (م: ٩٢٣) في «لطائف الإشارات لفنون القراءات»

[ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة]

وقد كان نزوله كلّه بمكّة و المدينة خاصّة، و نزل منه كثير في غير الحرمين؛ حيث كان ﷺ في سفر حجّ أو غزو، لكنّ الاصطلاح أنّ كلّ مانزل قبل الهجرة فهو مكّيّ، ومانزل بعد الهجرة فهو مدنيّ، سواء أُنزل في البلد حال الإقامة، أو[١] في غيرها السّفر.

وقد اعتنى بعضهم ببيان مانزل من الآيات المدنيّة و المكّيّة، ففي «الدّلائل» للبَيْهقيّ عن عِكرِمة والحسن بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكّة:... **[ثمّ ذكر ترتيب السُّور المكّيّة و المدنيّة، كما تقدّم تفصيلها عن السّيوطيّ، فقال:]**

وفي بعض السّور الّتي نزلت بمكّة آيات نزلت بالمدينة، فألحقت بها، يأتي بيان ما تيسّر منها أوّل كلّ سورة من هذا المجموع إن شاء الله تعالى... **[ثمّ ذكر رواية ابن الضُّرَيس في «فضائل القرآن» و رواية مُسلم عن أنس كما تقدّم عن ابن حَجَر، فقال:]**

و عن زين العابدين «أوّل سورة نزلت بالمدينة وَيْلٌ لِلمُطَفِّفِينَ» و عن عِكرِمة: البقرة.

و عن هِشام بن عُرْوَة، عن أبيه: كلّ شيءٍ نزل على رسول الله ﷺ من القرآن فيه ذكر الأُمم والقرون، و ما يُثَبَّت به الرّسول فإنّما نزل بمكّة، و ما كان من الفرائض و السّنن فإنّما نزل بالمدينة. و عن عَلْقَمَة، عن عبدالله، قال: ما كان ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين اٰمَنُوا﴾ نزل بالمدينة،

---

١ ـ كان الأولى أن يأتي هنا بـ (أم) المعادلة لهمزة الاستفهام بدلاً من (أو)، لكن هكذا في جميع النّسخ، و قد أشار ابن هِشام في كتابه: «مغني اللّبيب» عند حديثه عن همزة الاستفهام إلى أنّ بعض المؤلّفين و الكتاب يخطئون في هذا الاستعمال، و الصّواب ماورد به نصّ القرآن ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا اَجَزِعْنَا اَمْ صَبَرْنَا﴾ إبراهيم /٢١.

وما كان ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فبمكّة[١] و يقال إنّ مُصحف عليّ عليه السلام كان على ترتيب النّزول، أوّله: اِقْرَأْ، ثمّ المدّثّر، ثمّ نٓ وَالْقَلَم، ثمّ المزّمّل، ثمّ تَبَّتْ، ثمّ التَّكوير، ثمّ سَبِّح و هكذا إلى آخر المكّيّ ثمّ المدنيّ. و أوّل سورة أعْلَن بها صلى الله عليه و آله سورة وَالنَّجم.

و أمّا ترتيب المُصْحَف على ما هو عليه الآن فقال القاضي أبوبكر ابن الباقِلاّنيّ يحتمل أن يكون النّبيّ صلى الله عليه و آله هو الّذي أمر بترتيبه هكذا، و يحتمل أن يكون من اجتهاد الصَّحابة. و رجّح الأوّل بأنّه صلى الله عليه و آله كان يعارض به جبريل في كلّ سنة، فالّذي يظهر أنّه عارضه به، هكذا على التّرتيب، و بهذا جزم ابن الأنباريّ.

و فيه نظر، بل الّذي يظهر أنّه كان يعارضه به على ترتيب النّزول، نعم، ترتيب بعض السّور على بعض أو معظمها لايمتنع أن يكون توقيفًا.

و قد رَوى الإمام أحمد وابن أبي داود و الطَّبَرانيّ من طريق عَبيدَة بن عمرو السَّلمانيّ أنّ الّذي جمع عليه عُثمان النّاس موافق للعَرْضَة الأخيرة.

و من طريق محمّد بن سيرين قال: كان جبريل يعارض النّبيّ صلى الله عليه و آله بالقرآن... الحديث وفي آخره: فيرون أنّ قراءتنا أحدث القراءات عهدًا بالعَرضة الأخيرة. (ص:٢٦)

١ ـ ليس هذا القول بإطلاق، فقد نزل بالمدينة: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ و نزل بمكّة: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين اٰمَنُوا﴾ و قد ذكرنا عن السّيوطيّ تفصيلاً (م).

الفصل الثّاني عشر

نصّ القاسميّ (م: ١٣٣٢) في تفسيره: «محاسن التّأويل»

في أنّ المدنيّ من السّور منزّل في الفهم على المكّيّ

قال الشّاطِبيّ: المدنيّ من السّور ينبغي أن يكون منزّلاً في الفهم على المكّيّ، وكذلك المكّيّ بعضه مع بعض، و المدنيّ بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التّنزيل، وإلاّ لم يصحّ. والدّليل على ذلك أنّ معنى الخطاب المدنيّ في الغالب مبنيّ على المكّيّ. كما أنّ المتأخّر من كلّ واحد منهما مبنيّ على متقدّمه، دلّ على ذلك الاستقراء. و ذلك إنّما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل مالم يفصّل، أو تكميل مالم يظهر تكميله. و أوّل شاهد على هذا أصل الشّريعة: فإنّها جاءت متمّمة لمكارم الأخلاق، و مُصْلحة لما أُفسِد قبلُ من ملّة إبراهيمعليه السلام. ويليه تنزيل سورة الأنعام، فإنّها نزلت مبيّنة لقواعد العقائد و أُصول الدّين. و قد خرّج العلماء منها قواعد التّوحيد الّتي صنّف فيها المتكلّمون من أوّل إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة، هذا ما قالوا. و إذا نظرت بالنّظر المسوق في هذا الكتاب تبيّن به قرب بيانُ القواعد الشّرعيّة الكلّيّة الّتي إذا انخرم منها كلّيّ واحد انخرم نظام الشّريعة، أو نقص منها أصل كلّيّ.

ثمّ لمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة كان من أوّل مانزل عليه سورة البقرة، و هي الّتي قرّرت قواعد التّقوىٰ المبنيّة على قواعد سورة الأنعام، فإنّها بيّنت من أقسام أفعال المكلّفين جملتها، و إن تَبَيَّن في غيرها تفاصيل لها، كالعبادات الّتي هي قواعد الإسلام.

والعادات من أصل المأكول و المشروب و غيرهما، و المعاملات من البيوع و الأنكحة و ما داربها، و الجنايات من أحكام الدّماء و ما يليها. و أيضًا فإنّ حفظ الدّين فيها و حـفظ النّفس و العقل و النّسل و المال مضمّن فيها، و ما خرج عن المقرّر فيها فبحكم التّكميل، فغيرها من السُّور المدنيّة المتأخّرة عنها مبنيّ عليها، كما غير الأنعام من المكّي المتأخّر عنها مبنيًّا عليها. و إذا تنزَّلتَ إلى سائر السّور بعضها مع بعض في التّرتيب وجدتها كذلك حذو القذّة بالقذّة. فلا يَغِيبَنَّ على النّاظر في الكتاب هذا المعنى، فإنّه من أسـرار عـلوم التّفسير، و على حسب المعرفة به تحصل له المعرفة بكلام ربّه سبحانه. (١:١٥٠)

الفصل الثّالث عشر

نصّ رشيد رضا (م: ١٣٥٤) في تفسيره: «المنار»

سورة الفاتحة

هذه السُّورة مكّية، و آياتها سبع. و الفرق بين السّور المكّيّة و المدنيّة هو أنّ المكيّة أكثر إيجازًا؛ لأنّ المخاطبين بها هم أبلغ العرب و أفصحهم، و على الإيجاز مدار البلاغة عندهم، ثمّ إنّ معظمها تنبيهات وزواجر و بيان لأُصول الدّين بالإجمال. و قد قلت في مقدّمة الطّبعة الثّانية لمجلّد المنار الأوّل في أُسلوب السّور المكّية ما نصّه:

إنّ أكثر السُّور المكّية لا سيّما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تصخّ الجنان، و تصدع الوجدان، و تفزع القلوب إلى استشعار الخوف، و تدعّ العقول إلى إطالة الفكر في الخطبَين الغائب و العتيد، و الخطرَين القريب و البعيد، وهما عذاب الدّنيا بالإبادة و الاستئصال، أو الفتح الذّاهب بالاستقلال، و عذاب الآخرة، و هو أشدّ و أقوى، و أنكى و أخزى، بكلّ من هذا و ذاك أنذرت السُّور المكيّة أُولئك المخاطبين إذا أصرّوا على شركهم، و لم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم و إفكهم، و يأخذوا بتلك الأُصول المجملة الّتي هي الحنيفيّة السّمحة السّهلة، و ليست بالشّئ الّذي ينكره العقل، أو يستثقله الطّبع، و إنّما ذلك تقليد الآباء و الأجداد، يصرف النّاس عن سبيل الهدى و الرّشاد.

راجع تلك السُّور العزيزة، و لا سيّما قصار المفصّل منها: كالحاقّة ما الحاقّة، والقارعة ما القارعة، و إذا وقعت الواقعة، و إذا الشّمس كُوّرت، و إذا السّماء انْفطرت، و إذَا السّماء انشقّتْ ،وإذا زُلزلت الأرض زِلزالَها، والذّارياتِ ذَرْوًا، والمُرْسلات عُرْفًا، والنّازعات غَرْقًا.

تلك السّور الّتي كانت بنذرها، و فهم القوم لبلاغتها و عبرها، تفزعهم من سماع القرآن حتّى يفرّوا من الدّاعيﷺ من مكان إلى مكان ﴿كَاَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ

قَسْوَرَةٍ﴾ [١] ﴿اَلاَ اِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ اَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾ [٢] ثمّ إلى السّور المكّية الطُّوال، فلانجدها تخرج في الأوامر و النّواهي عن حدّ الإجمال، كقوله عَزَّوجَلَ: ﴿وَ قَضَىٰ رَبُّكَ اَنْ لاَ تَعْبُدُوا اِلاَّ اِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ اِحْسَانًا﴾ [٣] إلى ٣٧ منها، و قوله بعد إباحة الزّينة و إنكار تحريم الطّيّبات من الرّزق: ﴿قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَالْاِثْمَ وَ الْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ اَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَاَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٤].

و أمّا السّور المدنيّة ففي أُسلوبها شيء من الإسهاب، و لا سيّما في مخاطبة أهل الكتاب، لأنّهم أقلّ بلاغة و فهمًا من العرب الأُصلاء، و لا سيّما قُرَيْش، و ما فيها من الكلام في أُصول الدّين أكثره محاجّة لهم ـ لأهل الكتاب ـ ونعى عليهم، و إثبات لتحريفهم ما نزل إليهم، و ابتداعهم فيه و إعراضهم عن هدايته، و نسيانهم حظًّا ممّا ذكّروا به، و دعوة لهم إلى التّوحيد الخالص توحيد الأُلُوهيّة و الرُّبوبيّة، و بيان لكون الإسلام الّذي جاء به القرآن هودين جميع الأنبياء عليهم السلام.

و في هذه السُّور المدنيّة أيضًا بيان لما لابدّ منه من الأحكام العمليّة في العبادات والمعاملات الشّخصيّة و المدنيّة و السّياسيّة و الحربيّة، و لأُصول الحكومة الإسلاميّة والتّشريع فيها، كما تراه في طوال المفصّل منها كالبقرة و آل عمران و النّساء والمائدة... [**ثم ذكر اختلاف العلماء في المكّيّ و المدنيّ كما تقدّم عن الزّرقانيّ و غيره، فقال:**]

فالسُّور المكّيّة، هي الّتي نزلت في أوّل الإسلام لأجل الدّعوة إليه، و لبيان أساس الدّين و كلّيّاته من الإيمان بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النّبيّين، و من ترك الشّرور و المعاصي و المنكرات المعروفة للنّاس بعقولهم و فطرتهم، و فعل الخيرات والمعروف بحسب الرّأي و الاجتهاد الموكول إلى القلوب و الضّمائر.

و السّور المدنيّة هي الّتي نزلت بعد الهجرة و كثرة المسلمين، و تكون جماعتهم ببيان الأحكام التّفصيليّة كما قلنا آنفًا، و سترىٰ ذلك مفصّلاً في القسمين تفصيلاً. **(١: ٣٢ ـ ٣٣)**

---

١ ـ المدّثّر ٥٠ ـ ٥١.
٢ ـ هود /٥.
٣ ـ الإسراء /٢٣.
٤ ـ الأعراف /٣٣.

(سورة البقرة)

جميعها مدنيّة بالإجماع، منها آية نزلت على ما قيل في حجّة الوداع، وروي أنّها آخر آي القرآن نزولاً و هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[1] و معظمها نزل في أوّل الهجرة. و هي أطول جميع سور القرآن، فآياتها مائتان و ثمانون و سبع آيات أو ستّ، وعليه عدّ المصاحف المشهورة الآن و لا حاجة إلى بيان التّناسب بينها و بين الفاتحة، و إن كان التّناسب ظاهرًا، فإنّها لم توضع بعدها لأجله، و إنّما وضعت في أوّل القرآن بعد فاتحته ـ الّتي كانت فاتحته بمالها من الخصائص الّتي بيّناها في تفسيرها ـ لأنّها أطول سورة، و تليها بقية السّبع الطُّوال بتقديم المدنيّ منها على المكّيّ، لا الطّولىٰ فالطّولىٰ، فإنّ الأنعام أطول من المائدة و هي بعدها، و الأعراف أطول من الأنعام و قد أخّرت عنها، و قدّمت الأنفال على التّوبة وهي أقصر منها، و كلتاهما مدنيّتان، و إنّما روعي الطُّول في ترتيب سورالقرآن في الجملة لافي كلّ الأفراد، وروعي التّناسب في ترتيب ذلك، ويراه القارىء في محلّه من كلّ منها. ثمّ مزج المدنيّ بالمكّي في سائر السّور؛ لأنّ اختلاف **أُسلوبيهما ومسائلهما أدنى إلى تنشيط القارىء، وأنأىٰ به عن المَلَل منالتّلاوة، وهذا من خصائص القرآن...** (١:١٠٥)

١ ـ البقرة /٢٨١.

الفصل الرّابع عشر

نصّ أبي عبدالله الزّنجانيّ (م: ١٣٦٠) في «تاريخ القرآن»

تاريخ نزول السّور

اعتمدت في ذلك على كتاب «نظم الدّرر و تناسق الآيات و السُّور» لمؤلّفه إبراهيم بن عمر البقاعيّ طبع مصر، و على كتاب «الفهرست» لابنالنَّديم طبع مصر، و كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبدالكافي كما ذكر، ونقل عنه الأُستاذ نُولْدِكِه Noldeke فـي كتابه «تاريخ القرآن des checfte der Qeran»، و قال: إنّ كتاب أبي القاسم موجود في مكتبة (cod lugd 674 Warn). **[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة، فراجـع الجـدول، الرّقم ١١ في آخر هذا الجزء].**

ترتيب نزول القرآن في مكّة و المدينه

على النّظم الّذي ذكره ابن النَّديم بإسناده عن محمّد بن نُعمان بن بَشير نذكر قوله؛ لأنّه سند قديم يعتمد عليه، و لأنّ بين ماذكره من التّرتيب و التّرتيب المذكور في كتاب إبراهيم بن عمرالبَقاعيّ، و كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبدالكافي كما نقله الأُستاذ «نُولْدِكِه Noldeke» عنه اختلاف يسير، قال: أوّل ما نزل من القرآن على النّبيّ ﷺ في مكّة هو ... **[ثم ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة كما سيجيء عن ابن النّديم الجدول، الرّقم ٣ في آخر هذا الجزء].**

قد علم ممّا سبق أنّ القرآن كتب في عهد النّبيّ ﷺ، بين يديه في جـرائـد النّـخل والأكتاف و الحرير. خرّج الحاكم بسنده على شرط الشّيخين عن زيد بن ثابت ؛ قال: كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلّف القرآن من الرّقاع. و كان هذا التّأليف عبارة عن ترتيب الآيات

حسب إرشاد النّبيّ ﷺ إلى مواضعها، و لكنّ الصُّحُف المكتوبة كانت متفرقّة، و لأجل ذلك أمر النّبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام بجمعه، و حذّر عن تضييعه، كما يدلّ عليه رواية عليّ بن إبراهيم القمّيّ. و كان القرآن محفوظًا في صُدُور الرّجال، و حفظته جماعة من الصّحابة كلّه حسب ما سمعوه من النّبيّ ﷺ و قتل في وقعة بئر معونة في (سنة ٤ هـ) جماعة تقرب عدّتهم من سبعين رجلاً، يقال لهم: القُرّاء. (٢٧ ـ ٣٥)

رأي بعض علماء الإفرنج في تاريخ سُور القرآن

أهمّ ما ألّفه الإفرنج في تاريخ القرآن هو الكتاب الّذي ألّفه الأُستاذ (نُولْدِكِه Theodor _ Noldeke) باللُّغة الألمانيّة.

فيه أبحاث تحليليّة قيّمة، كما أنّ فيه ما يؤاخذ عليه عالم محقّق كنُولْدِكِه[1] Noldeke؛ حيث لم يستوف البحث و الفكر فيه حقّه.

بحث في كتابه: عن «تاريخ القرآن» من نواحٍ شتّى بما يشهد بتضلّعه و اطّلاعه الواسع، كما بحث عن حقيقه الوحي و النّبوّة، و شخصيّة النّبيّ ﷺ، و نزول القرآن و تاريخ نزول السُّور، مكّيّها و مدنيّها.

فآثرنا إيراد خلاصة بحثه في تاريخ السُّور ـ و إن كان قد أخذ عن نفس المصادر العربيّة الّتي أخذنا نحن عنها ـ لما فيه من فائدة.

سلك في كشف تاريخ السُّور مسلكًا قويمًا يهدي إلى الحقّ أحيانًا، فإنّه جعل الحروب و الغزوات الحادثة في زمن النّبيّ ﷺ، و عُلم تاريخها بالتّحقيق كحرب بَدر والخَندق و صُلح الحُدَيْبيّة و أشباهها من المدارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها، و جعل أيضًا اختلاف لهجة القرآن و أُسلوبه الخطابيّ دليلاً آخر لتاريخ آياته.

فيقول: إنّ الغالب في الخطابات الواردة في الآيات بلفظ: (يَاءَيُّهَا النَّاسُ) والشّدّة في الإنذار نزلت في أوّل النّبوّة و قلّة عدد المسلمين. و الخطابات بلفظ: (يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وآيات الرّحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين و المؤمنين.

---

١ ـ انظر الطّبعة الثّانية من كتابه تاريخ القرآن ١: ٤ و ٢٤.

و هو يرتاب في بحثه التّحليليّ في الرّوايات و الأحاديث و أقوال المفسّرين في تاريخ القرآن.

و في عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره و يرشده إلى كشف تاريخ السُّور و الآيات و نُظمها أحيانًا.

أخذ ترتيب السُّور عن كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبد الكافي من رجال القرن الخامس الّذي ذكرنا ترتيبه وكلامه، و لكنّه قسّمه إلى قسمين: القسم المكّيّ و القسم المدنيّ، وهو يضع سورة العلق مثلاً ـ و هي أوّل مانزل على ماروواه المحدّثون ـ في أوّل القرآن، و سورة القلم ـ و هي الّتي تليها في النّزول ـ بعدها، و هكذا.

ترتيب القسم المكّي على رأي نُولْدِكِه

٩٦/ ٦٨/ ٧٣/ ٧٤/ ١١١/ ٨١/ ٨٧/ ٩٢/ ٨٩/ ٩٣/ ٩٤/ ١٠٣/ ١٠٠/ ١٠٨/ ١٠٢/ ١٠٧/ ١٠٩/ ١٠٥/ ١١٣/ ١١٤/ ١١٢/ ٥٣/ ٨٠/ ٩٧/ ٩١/ ٨٥/ ٩٥/ ١٠٦/ ١٠١/ ٧٥/ ١٠٤/ ٧٧/ ٥٠/ ٩٠/ ٨٦/ ٥٤/ ٣٨/ ٧/ ٧٢/ ٣٦/ ٢٥/ ٣٥/ ١٩/ ٢٠/ ٥٦/ ٢٦/ ٢٧/ ٢٨/ ١٧/ ١٠/ ١١/ ١٢/ ١٥/ ٦/ ٣٧/ ٣١/ ٣٤/ ٣٩/ ٤٠/ ٤١/ ٤٢/ ٤٣/ ٤٤/ ٤٥/ ٤٦/ ٥١/ ٨٨/ ١٨/ ١٦/ ٧١/ ١٤/ ٢١/ ٢٣/ ٣٢/ ٥٢/ ٦٧/ ٦٩/ ٧٠/ ٧٨/ ٧٩/ ٨٢/ ٨٤/ ٣٠/ ٢٩/ ٨٣.

ترتيب القسم المدنيّ على رأي نُولْدِكِه

٢/ ٨/ ٣/ ٣٣/ ٦٠/ ٤/ ٩٩/ ٥٧/ ٤٧/ ١٣/ ٥٥/ ٧٦/ ٦٥/ ٩٨/ ٥٩/ ١١٠/ ٢٤/ ٢٢/ ٦٣/ ٥٨/ ٤٩/ ٦٦/ ٦٢/ ٦٤/ ٦١/ ٤٨/ ٥/ ٩.[١] (٧٠ ـ ٧١)

ترتيب السُّور في مُصحف عليّ عليه السلام

واخترنا ذكر ترتيب السُّور في مصاحف بعض كبار الصَّحابة و التّابعين عن المدارك المعتبرة القديمة لما له مساس بتاريخ القرآن و فهم إنّ ترتيبه كان باجتهاد منهم.

---

١ ـ ١: ٥٨ تاريخ القرآن نُولْدِكِه (Noldeke)

فقد قال ابن النّديم في الفهرست: قال ابن المُناديٰ: حدّثني الحسن بن العبّاس قال ...
[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

و سقط ذكر ترتيب السُّور عن أصل النّسخة المطبوعة في (ليپسك Leipzig) من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٢ و لكن ذكر اليَعقوبيّ في الجزء الثّاني من تاريخه.

و قال: وروى بعضهم: أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه (يعني القرآن) لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله و أتى به يحمله على جمل فقال: هذا القرآن جمعته ؛ و كان قد جزّأه سبعة أجزاء:... **[و ذكر كما تقدّم عن اليعقوبيّ]**.

ترتيب سُور القرآن في مُصحَف أُبيّ بن كعب (م: ٢٠)

قال ابن النّديم: قال الفضل بن شاذان أخبرنا الثّقة من أصحابنا. قال: كان تأليف السُّور في قراءة أُبيّ بن كعب... **[و ذكر كما تقدّم عنه]**.

ترتيب سُور القرآن في مُصحَف عبدالله بن مسعود (م: ٣٢أ و ٣٣)

روى ابن النّديم عن الفَضْل بن شَاذان إنّه قال: وجدت في مُصحَف عبدالله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا التّرتيب... [و ذكر كما تقدّم عنه].

ترتيب السُّور في مُصحَف عبدالله بن عبّاس (م: ٦٨)

نجد في التّاريخ و الحديث للصّحابي الجليل ابن عبّاس رضي الله عنه الّذي تَخَصَّص في تفسير القرآن صلة خاصّة بعليّ عليه السلام فما يذكر عنه في القرآن له مزيّة كبيرة.

ذكر ابن طاوُوس في كتاب سعد السّعود أنّه اشتهر بين أهل الإسلام أنّ ابن عبّاس كان تلميذ عليّ عليه السلام. و ذكر محمّد بن عمر الرّازيّ في كتاب الأربعين أنّ ابن عبّاس رئيس المفسّرين كان تلميذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام فآثرنا نقل ترتيب مُصحفه كما ذكر الشَّهرستانيّ في مقدّمة تفسيره و هو سند أمين... **[و ذكر كما تقدّم عنه في قسم النّزول]**.

ترتيب السُّور في مُصحف الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام (م:١٤٨)

[بعد ذكر ترتيب السّور نقلاً عن الشّهرستانيّ كما سيأتي في الجداول الرّقم ٩، فقال:]

اختلاف ترتيب السُّور في مصاحف هؤلاء الصَّحابة يشير إلى أنّ ترتيبها كان باجتهاد الصّحابة و الجامعين بخلاف وضع الآيات و ترتيبها؛ فإنّه كان بإشارة النّبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ قد ظهر من الرّوايات أنّ القرآن كتب بين يدي النّبيّ صلى الله عليه وآله بقطع من العُسُب و اللّخاف والأكتاف و جرائد النّخل، و هذه الأشياء كانت متفرّقة منفصلاً بعضها عن بعض و لم تكن كالورق أو الأديم الّذي كتب عليه المُصْحَف في الجمع الثّاني و الثّالث فلابدّ أنّ الجامعين وضعوا علامة تميزُ المقدّم من المؤخّر كما نحن نجعل العلامة الفاصلة بالأعداد أو بالحروف الأبجديّة في هذا الزّمان.

فيعلم أنّه ذكر محمّد بن عبدالكريم الشّهرستانيّ في مقدّمة تفسيره (مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار) نقلاً عن كتاب «الاستغناء» عن سَعيد بن جُبَير. و عن يحيى بن الحارث الدّيناريّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى﴾[1] قال هي السّبع الطُّوال: البقرة، وآل عمران، و النّساء ـ و المائدة، و الأنعام، والأعراف، و يونس، و يسمّى السّابعة. و في الآية ـ يضم الرّواية إليها ـ دلالة واضحة. أنّ هذه السُّور السّبع كانت منظّمة منسّقة الآيات بإرشاد النّبيّ صلى الله عليه وآله حتّى أُشير إليها في الآية. (٤٧ ـ ٥٧)

١ ـ الحِجر /٨٧.

الفصل الخامس عشر

نصّ الزُّرقانيّ (مُعاصرٌ) في «مناهل العرفان»

المكّيّ و المدنيّ من القرآن الكريم

١ـ الاصطلاحات في معنى المكّيّ و المدنيّ

للعلماء في معنى المكّي و المدنيّ ثلاثة اصطلاحات؛

الاصطلاح الأوّل: أنّ المكّي بمكّة و لو بعد الهجرة، و المدنيّ مانزل بالمدينة. ويدخل في مكّة ضواحيها، كالمنزل على النّبيّ ﷺ بمنى و عرفات والحُديبيّة و يدخل في المدينة ضواحيها أيضًا، كالمنزل عليه في بدر وأُحد.

و هذا التّقسيم لوحظ فيه مكان النّزول كماترىٰ، لكن يرد عليه أنّه غير ضابط ولاحاصر ؛لأنّه لا يشمل ما نزل بغير مكّة و المدينة و ضواحيها كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لاَ تَّبَعُوكَ﴾ [1] الخ، فإنّها نزلت بتَبُوك، و قوله سبحانه: ﴿وَسْئَلْ مَنْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [2] الخ، فإنّها نزلت ببيت المَقْدِس ليلة الإسراء. و لا ريب أنّ عدم الضّبط في التّقسيم يترك واسطةً لاتدخل فيما يُذكر من الأقسام، و ذلك عَيْبٌ يخلُّ بالمقصود الأوّل من التّقسيم، و هو الضّبط و الحصر.

الاصطلاح الثّاني: أنّ المكّيّ ماوقع خطابًا لأهل مكّة، والمدنيّ ماوقع خطابًا لأهل المدينة و عليه يحمل قول من قال: إنّ ما صدّر في القرآن بلفظ: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مكّيّ، وما صدّر فيه بلفظ: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ فهو مدنيّ؛ لأنّ الكُفر كان غالبًا على أهل مكّة، فخوطبوا ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ و إن كان غيرهم داخلاً فيهم، و لأنّ الإيمان كان غالبًا

---

١ ـ التّوبة /٤٢.

٢ ـ الزّخرف /٤٥.

على أهل المدينة، فخوطبوا ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، و إن كان غيرهم داخلاً فيهم أيضًا. والحق بعضهم صيغة: ﴿يَابَنِى ءَادَمَ﴾ بصيغة: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ أخرج أبو عُبَيْد في «فضائل القرآن» عن مَيْمون بن مِهْران، قال: ما كان في القرآن﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَابَنِى ءَادَمَ﴾ فإنّه مكّيّ، و ما كان ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فإنّه مدنيّ. و هذا التّقسيم لوحظ فيه المخاطبون كما ترى، لكن يرد عليه أمران:

أحدهما ـ ماورد على سابقه من أنّه غيرُ ضابطٍ و لاحاصر، فإنّ في القرآن مانزل غير مصدَّر بأحدهما، نحو قوله سبحانه في فاتحة سورة الأحزاب: ﴿يَاءَيُّهَا النَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللهَ وَلاَ تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ﴾[1] الخ، و نحو قوله سبحانه في فاتحة سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ﴾[2] الخ.

ثانيهما ـ أنّ هذا التّقسيم غير مطَّرد في جميع موارد الصّيغتين المذكورتين، بل إنّ هناك آياتٍ مدنيّةً صُدِّرت بصيغة: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهناك آيات مكّية صُدّرت بصيغة: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. مثال الأُولى سورة النّساء، فإنّها مدنيّة، و أوّلها ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، و كذلك سورة البقرة مدنيّة، وفيها﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، و مثال الثّانية سورة الحجّ فإنّها مكّيّة مع أنّ في أواخرها ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا﴾[3] الخ.

وقال بعضهم: فيه نظر... **[و ذكر كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]**

أقول: و لكن صحّة الكلام في ذاته لا تُسَوِّغُ صحَّة التّقسيم، فإنّ من شأن التّقسيم السّليم أن يكون ضابطًا حاصرًا، و أن يكون مطَّردًا. و قيد الغالبيّة المراد لا يحقِّقُ الضّبط والحصر، وإنّ حقَّق الاطّراد، فيبقى التّقسيم مَعيبًا. على أنّهم قالوا: المراد لايدفع الإيراد.

الاصطلاح الثّالث: و هو المشهور أنّ المكّيّ ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة و إن كان نزوله بغير مكّة، و المدنيّ مانزل بعد هذه الهجرة و إن كان نزوله بمكّة.

وهذا التّقسيم كما ترى لُوحظ فيه زمن النّزول، و هو تقسيم صحيحٌ سليم؛ لأنّه ضابطٌ حاصر و مُطَّرِدٌ لايختلف بخلاف سابقيه، و لذلك اعتمده العلماء و اشتهر بينهم. وعليه

---

١ ـ الأحزاب /١.
٢ ـ المنافقون /١.
٣ ـ الحجّ /٧٧.

فآية: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [1] مدنيّة، مع أنّهانزلت يوم الجمعة بعرفة في حجّة الوداع. و كذلك آية: ﴿إِنَّ اللهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوا الْاَمَانَاتِ إِلىٰ اَهْلِهَا﴾ [2] فإنّها مدنيّة، مع أنّهانزلت بمكّة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم. وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصّلاة و السّلام، كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر، فإنّها مدنيّة لامكّيّة على هذا الاصطلاح المشهور.

فائدة العلم بالمكّيّ و المدنيّ

من فوائد العلم بالمكّيّ و المدنيّ تمييز النّاسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضع واحد، و كان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفًا للحكم في غيرها، ثمّ عُرف أنّ بعضها مكّيّ و بعضها مدنيّ، فإنّنا نحكم بأنّ المدنيّ منها ناسخ للمكّيّ نظرًا إلى تأخّر المدنيّ عن المكّيّ.

ومن فوائده أيضًا معرفة تاريخ التّشريع و تدرُّجه الحكيم بوجهٍ عامّ، و ذلك يترتّب عليه الإيمان بسموّ السّياسة الإسلاميّة في تربية الشّعوب و الأفراد. و سيستقبلك في هذا المبحث فروقٌ بين المكّيّ و المدنيّ، تُلاحظ فيها جلال هذه الحكمة.

ومن فوائده أيضًا الثّقة بهذا القرآن و بوصوله إلينا سالمًا من التّغيير و التّحريف. ويدلّ على ذلك اهتمام المسلمين به كلّ هذا الاهتمام حتّى ليعرفون و يتناقلون مانزل منه قبل الهجرة و مانزل بعدها، و مانزل بالحضر و مانزل بالسّفر، و مانزل بالنّهار و مانزل باللّيل، ومانزل بالشّتاء و مانزل بالصّيف، و مانزل بالأرض و مانزل بالسّماء، إلى غير ذلك. فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا و يتركوا أحدًا يمسُّه و يَعْبثُ به، و هم المتحمّسون لحراسته وحمايته و الإحاطة بكلّ ما يتّصل به، أو يَحْتَفُّ بنزوله إلى هذا الحدّ.

الطّريق الموصلة إلى معرفة المكّيّ و المدنيّ

لاسبيل إلى معرفة المكّيّ و المدنيّ إلاّ بما ورد عن الصَّحابة و التّابعين في ذلك ؛لأنّه

---

١ ـ المائدة /٣.

٢ ـ النّساء /٥٨.

لم يرد عن النّبيّ ﷺ بيانٌ للمكّيّ و المدنيّ، و ذلك لأنّ المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، كيف و هم يشاهدون الوحي و التّنزيل، و يشهدون مكانه و زمانه وأسباب نزوله عِيانًا، وليس بعد العِيان بيان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: و الله الّذي لا إلهَ غيرُه، ما نزلت سورةٌ من كتاب اللهِ إلاّ وأنا أعْلَمُ أين نزلت؟ و لانزلت آيةٌ من كتاب الله إلاّ وَ أنَا أعلمُ فيما نزلت؟ و لوْ أعلم أنّ أحدًا أعلمُ مِنّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركِبت إليه و قال أيّوب: سأل رجلٌ عِكرِمة عن آيةٍ من القرآن، فقال: نزلت في سَفح ذلك الجبل، و أشار إلى سَلْع.

و لعلّ هذا التّوجيه الّذي ذكرته أولى ممّا ذكره القاضي أبوبكر...[و ذكر كما تقدّم عن الزّركشيّ].

الضّوابط الّتي يعرف بها المكّيّ و المدنيّ

قد عرفنا فيما مضى أنّ مَرَدَّ العلم بالمكّيّ و المدنيّ هو السّماع عن طريق الصَّحابة والتّابعين، بَيْد أنّ هناك علامات و ضوابط يعرف بها المكّيّ و المدنيّ.

و هاك ضوابط المكيّ:

١ـ كلّ سورة فيها لفظ (كَلاَّ) فهي مكّيّة، و قد ذُكر هذا اللّفظ في القرآن ثلاثًا و ثلاثين مرّة، في خمس عشرة سورة، كلّها في النّصف الأخير من القرآن. قال الدُّرينيّ:

و ما نَـزلت (كَـلاَّ) بـيثرب فَـاعلَمَن ... ولَم تَأتِ فيالقرآن في نِصْفِه الأعْلىٰ

[ثمّ ذكر قول النُّعمانيّ كما تقدّم عن السُّيوطيّ].

٢ـ كلّ سورة فيها سجدة فهي مكّيّة لا مدنيّة.

٣ـ كلّ سورة في أوّلها حروف التّهَجّي فهي مكّيّة، سوى سورة البقرة و آل عمران فإنّهما مدنيّتان بالإجماع، و في الرّعد خلاف.

٤ـ كلّ سورة فيها قصص الأنبياء و الأُمم السّابقة فهي مكّيّة سوى البقرة.

٥ـ كلّ سورة فيها قصّة آدم و إبليس فهي مكّيّة سوى البقرة أيضًا.

٦ـ كلّ سورة فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ و ليس فيها: ﴿يَاءَيُّهَاالَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ فهي مكّيّة، ولكنّه ورد على هذا ما تقدّم بين يديك من سورة الحجّ.

٧ـ كلّ سورة من المفصّل فهي مكّيّة؛ أخرج الطَّبَرانيّ عن ابن مَسْعود، قال: نزل المفصّل بمكّة، فمكثنا حِجَجًا نقرأه و لا ينزل غيره. لكن يرد على هذا أنّ بعض سور المفصّل مدنيّ نزل بعد الهجرة اتّفاقًا كسورة النّصر، فإنّها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة، بل قيل: إنّها آخر مانزل، كما سبق في مبحث أوّل مانزل و آخر مانزل. فالأولى أن يُحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصّل، لا على جميع سور المفصّل. و المفصّل على وِزان معظّم، هو السّور الأخيرة من القرآن الكريم مُبتدأةً من سورة الحجرات على الأصحّ، و سميّت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السّور بعضها و بعض من أجل قصرها، وقيل: سُمّيت بذلك لقلّة المنسوخ فيها، فقوله: (قَوْلٌ فَصْلٌ) لا نسخ فيه ولا نقض.

أمّا ضوابط المدنيّ فكما يأتي

١ـ كلّ سورة فيها الحدود و الفرائض فهي مدنيّة.

٢ـ كلّ سورة فيها إذنٌ بالجهاد و بيان لأحكام الجهاد فهي مدنيّة.

٣ـ كلّ سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنيّة ما عدا سورة العنكبوت. و التّحقيق أنّ سورة العنكبوت مكّيّة، ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأُولى منها فإنّها مدنيّة، و هي الّتي ذكر فيها المنافقون.

[ثمّ ذكر في تعيين السّور المكّيّة و المدنيّة نقلاً عن السّيوطي، كما تقدّم عنه]

أنواع السّور المكّية والمدنيّة

قد تكون السّورة كلّها مكّيّة، و قد تكون كلّها مدنيّة، و قد تكون السّورة مكّيّة ما عدا آيات منها، و قد تكون مدنيّة ما عدا آيات منها، فتلك أربعة أنواع.

مثال النّوع الأوّل سورة المدّثّر، فإنّها كلّها مكّيّة. و مثال الثّاني سورة آل عمران، فإنّها كلّها مدنيّة و مثال الثّالث سورة الأعراف، فإنّها مكّيّة ما عدا آية: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى

﴿كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[1]، قاله قَتادة، و استثنىٰ غيره هذه الآية المذكورة و ما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿وَ اِذْ اَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى اٰدَمَ﴾[2]، و قال: إنّ تلك الآيات مدنيّة. ومثال النّوع الرّابع سورة الحجّ، فإنّها مدنيّة ما عدا أربع آيات منها، تبتدىء بقوله سبحانه: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِىٍّ اِلاَّ اِذَا تَمَنّٰى ـ إلى ـ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[3].

واعلم أنّ وصف السّورة بأنّها مكّيّة أو مدنيّة يكون تبعًا لما يغلب فيها، أو تبعًا لفاتحتها، فقد ورد أنّه إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة مثلاً كُتبت مكّيّة، ثمّ يزيد الله فيها مايشاء و لعلّ الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكّيّ و المدنيّ أن يقال: إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كُتبت مكّية، و إذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كُتبت مدنيّة، ثمّ يذكر المستثنى من تلك السّور إن كان هناك استثناء، فيقال: سورة كذا مكّيّة إلاّ آية كذا، فإنّها مدنيّة، أو سورة كذا مدنيّة إلاّ آية كذا، فإنّها مكّيّة أو نحو ذلك، كما تراه في كثير من المصاحف عنوانًا للسّورة.

وقد بذل العلماء هِمّة جبّارةً في استقصاء حال مانزل من السُّور و الآيات... **[ثمّ ذكر قول النّيسابوريّ و السّيوطيّ كما تقدّم عن الزّركشيّ و السُّيوطيّ].**

وُجُوهٌ تتعلّق بالمكّيّ و المدنيّ

نَبّه السّيوطيّ عند كلامه في هذا المبحث إلى أنّ هناك وجوهًا في المكّيّ و المدنيّ، منها ما تستطيع أن تفهمه ممّا قصصناه عليك آنفًا، ومنها ما يشبه تنزيل المدنيّ في السّور المكّيّة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْاِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ اِلاَّ اللَّمَمَ﴾[4]، قال السّيوطيّ في توجيهه ما نصّه: فإنّ الفواحش كلّ ذنب فيه حدٌّ، و الكبائر: كلّ ذنب عاقبته النّار، و اللَّمَمَ: ما بين الحدَّين من الذّنوب، و لم يكن بمكّة حَدٌّ و لانحوه. لكن فيه نظر من وجهين؛

أحدهما ـ أنّ تفسير الفواحش بما ذكر غير متّفق عليه، بل فسَّرها غيره بأنّها الكبائر مطلقًا، وفسّرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بحدٍّ، و فسّرها السّيوطيّ نفسه في

---

١ ـ الأعراف /١٦٣.
٢ ـ الأعراف /١٧٢.
٣ ـ الحج /٥٢ ـ ٥٥.
٤ ـ النّجم /٣٢.

سورة الأنعام بأنّها الكبائر.

و ثانيهما ـ أنّ بعضهم يستثني هذه الآية من سورةالنّجم المكّيّة، و ينصُّ على أنّها مدنيّة.

و منها: ما يشبه تنزيل المكّيّ في السُّور المدنيّة، نحو سورة ﴿وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، و كقوله سبحانه في سورة الأنفال المدنيّة: ﴿وَاِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [1] إلخ.

و في هذا نظر أيضًا، فإنّ المعروف أنّ سورة (وَالْعَادِيَاتِ) من السّور المكّيّة كما سبق، و أنّ آية ﴿وَ اِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ﴾ الخ، منصوصٌ على أنّها نزلت بمكّة، كما نقل السُّيُوطيّ نفسه عن مَقاتِل، و قال إنّها مُسْتَثْناةٌ من سورة الأنفال المدنيّة. بل نصّ بعضهم على أنّ هذه الآية مع آيتين قبلها و أربع بعدها كلّها مكّيات مستثنيات من سورة الأنفال المدنيّة.

و منها: ما حُمِلَ من مكّة إلى المدينة، نحو سورة يوسف و سورة الإخلاص و سورة سبّح.

و منها: ما حُمِلَ من المدينة إلى مكّة، نحو آية الرّبا في سورة البقرة المدنيّة، و صدر سورة التّوبة المدنيّة.

و منها: ما حُمِلَ إلى الحبشه نحو سورة مريم، فقد صحَّ أنّ جعفر بن أبي طالب قرأها على النّجاشيّ.

و منها: ما حُمِلَ إلى الرّوم، كقوله سبحانه و تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا اَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا اِلٰى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ﴾ [2] الآية.

و أنت خبير بأنّ الاصطلاح المشهور في المكّيّ و المدنيّ ينتظم كلّ مانزل سواءً أكان بمكّة و المدينة أم بغيرهما كالجُحفة و الطّائف و بيت المَقْدِس و الحُدَيْبية و مِنىٰ و عَرَفات و عُسْفَان و تَبُوك و بَدْر و أُحدٍ و حِراء و حَمْراء الأسدو تفصيل ذلك يخرج بنا إلى حدّ الإطالة، فناهيك ما ذكرنا، و اللّبيب تكفيه الإشارة.

فروق أُخرى بين المكّيّ و المدنيّ

توجد فروق أُخرى بين المكّيّ و المدنيّ غير ما قدّمناه في ضوابطهما، و هذه الفروق فيها دقّة عن تلك ؛ لتعلّقها في مجموعها بأُمور معنويّة و بلاغيّة. ثمّ إنّ أعداء الإسلام قد

---

١ ـ الأنفال /٣٢.

٢ ـ آل عمران /٦٤.

صاغوا عن طريق بعضها شُبهات سَدّدوا سهامها إلى القرآن الكريم، لذلك أفردناها بعنوان توطئةً لنقض تلك الشُّبهات، و قبل الرّمْي يُراش السَّهْمُ.

و نذكر من خواصّ القسم المكّيّ أنّه قد كثر فيه ما يأتي:

أوّلاً ـ أنّه حَمل حملةً شفواء على الشّرك و الوثنيّة، و على الشُّبهات الّتي تذرّع بها أهل مكّة للإصرار على الشّرك و الوثنيّة، ودخل عليهم من كلّ باب، و أتاهم بكلّ دليل، وحاكمهم إلى الحسّ، و ضرب لهم أبلغ الأمثال، حتّى انتهى بهم إلى أنّ تلك الآلهة المزيّفة لاتقدر أن تخلق مجتمعةً أقلّ نوع من الذّباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شَرّ عادية الذّباب، و قال:﴿ يَاءَيُّهَاالنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا اِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ اِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَيَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ﴾.[1]

و لمّا عاندوا واحتجُّوا بما كان عليه آباؤهم، نَعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذّلّة للأحجار و الأصنام، و سفّه أحلامهم و أحلام آبائهم الّذين أهملوا النّظر في أنفسهم و في آيات الله في الآفاق، و قبّح إليهم الجمود على هذا التّقليد الأعلى للآباء و الأجداد ﴿اَوَلَوْ كَانَ اٰبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾[2]. و ناقشهم كذلك في عقائدهم الضّالّة الّتي نَجَمت عن تلك الوثنيّة من جُحود الإلٰهيّات و النّبوّات، و إنكار البعث و المسؤوليّة و الجزاء.

ثانيًا ـ أنّه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحقّ، وعلى ما في الكون من أعلام الرّشد، نَوّع لهم في الأدلّة، و تفنّن في الأساليب، و قاضاهم إلى الأوّليات و المشاهدات، ثمّ قادهم من وراء ذلك قيادةً راشدةً حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في أُلوهيّته و ربوبيّته، والإيمان بالبعث و مسئوليّته، و الجزاء العادل و دقّته، ثمّ التّسليم بالوحي و بكلّ ما جاء به الوحي من هدى الله في الإلٰهيّات و النّبوّات و السّمعيات في العقائد على سواء.

ثالثًا ـ أنّه تحدَّث عن عادتهم القبيحة كالقتل و سفك الدّماء، و وأْد البنات، واستباحة الأعراض، و أكل مال الأيتام. فلفَت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار و ما زال

١ ـ الحجّ /٧٣.
٢ ـ البقرة /١٧٠.

بهم حتّى طَهَّرهم منها، و نجَح في إبعادهم عنها.

رابعًا ـ أنّه شرح لهم أُصول الأخلاق و حقوق الاجتماع شرحًا عجيبًا كَـرّه إليـهم الكفر و الفسوق و العصيان، وفوضى الجهل، و جفاء الطّبع، و قذارة القلب و خشونة اللّفظ وحبّب إليهم الايمان و الطّاعة و النّظام و العلم و المحبّة و الرّحمة والإخلاص و احترام الغير و برّ الوالدين و إكرام الجارّ و طهاره القلوب و نظافة الألسنة إلى غير ذلك.

خامسًا ـ أنّه قصَّ عليهم من أنباء الرّسل و أُممهم السّابقة مافيه أبلغ المواعظ وأنفع والإحسان، **مهما طالت الأيّام و امتدَّ الزّمان، ماداموا قائمين بنصرة الحقّ و تأييد العبر، من تقرير سُنَنه تعالى الكونيّة في إهلاك أهل الكفر و الطّغيان، و انتصار أهل الايمان الايمان.**

سادسًا ـ أنّه سلك مع أهل مكّة سبيل الإيجاز في خطابه، حتّى جاءت السُّور المكّيّة قصيرة الآيات صغيرة السُّور ؛ لأنّهم كانوا أهل فصاحة و لَسن، صناعتهم الكلام، و همّهم البيان، فيناسبهم الايجاز و الإقلال دون الإسهاب و الإطناب.

كما أنّ قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التّدرُّج و الارتقاء في تـربية الأفراد، و أن يقدّم الأهمّ على المهمّ. ولاريب أنّ العقائد و الأخلاق و العادات أهمُّ مـن ضروب العبادات و دقائق المعاملات؛ لأنّ الأُولى كالأُصول بالنّسبة للثّانية، لذلك كثر في القسم المكّيّ التّحدُّث عنها و العناية بها، كما علمت في الخواصّ الماضية جَـريًا سُـنّة التّدرُّج من ناحية، و تقديمًا للأهمّ على المهمّ من ناحية أُخرى.

أمّا خواصّ القسم المدنيّ فنذكر منها أنّه قد كثر فيه مايأتي:

أوّلاً ـ التّحدُّث عن دقائق التّشريع و تفاصيل الأحكام و أنواع القوانـين المـدنيّة والجنائيّة و الحربيّة و الاجتماعيّة و الدّوليّة و الحقوق الشّخصيّة، وسائر ضروب العبادات والمعاملات. انظر ـ إن شئت ـ في سورة البقرة و النّساء و المائدة و الأنفال و القتال والفتح والحُجُرات و نحوها.

ثانيًا ـ دعوة أهل الكتاب من يهود و نصارى إلى الإسلام، ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، و بيان جناياتهم على الحقّ، و تحريفهم لكـتب الله، و مـحاكـمتهم إلى العـقل والتّاريخ. اِقرأ ـ إن شئت ـ سورة البقرة و آل عمران و المائدة و الفتح و نحوها.

ثالثًا ـ سلوك الإطناب و التّطويل في آيـاته و سـوره، و ذلك لأنّ أهـل المـدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكّة في الذّكاء و الألمعيّة و طول الباع في بـاحات الفـصاحة والبيان، فيناسبهم الشّرح و الإيضاح، و ذلك يستتبع كثيرًا من البسط و الإسـهاب؛ لأنّ دستور البلاغة لا يقوم إلاّ على رعاية مقتضيات الأحـوال، و خـطاب الأغـبياء بـغير مايُخاطب به الأذكياء، ﴿وَلاَ يُنَـبِّـئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.[1] (١:١٨٥ ـ ١٩٧)

[ثمّ ذكر نقض الشّبهات المهمّة الّتي أُثيرت حول هذا الموضوع بالتّفصيل و إن شئت فراجع]

١ ـ فاطر /١٤.

الفصل السّادس عشر

نصّ عزَّة دَرْوَزَة (معاصرٌ) في كتابه: [تاريخ] القرآن المجيد

تميُّز الأُسلوب المكّيّ و الأُسلوب المدنيّ

نستطرد فنقول: إنّ أُسلوب القرآن يساعد بنطاق ضيّق على التّمييز بين السّور المكّيّة والسّور المدنيّة، بل الآيات المكّيّة و الآيات المدنيّة أيضًا. فالسُّور المكّية:

أوّلاً ـ تنحو في الأغلب نحو التّسجيع و التّوازن.

ثانيًا ـ تتكشّف فيها الدّعوة إلى الله، و إثبات استحقاقه وحده للخضوع و العبادة، ومحاربة الشّرك و كلّ ما يتّصل به، و تعنيف الكُفّار و تقريعهم بسببه.

ثالثًا ـ أنّ أُسلوبها المتّصل بالدّعوة إلى المكارم الاجتماعيّة و الرّوحيّة و الإنسانيّة وبالتّحذير من الآثام و الفواحش أُسلوب دعوة و حضّ و تشويق و تنديد و تنويه.

رابعًا ـ أنّ القصص و مشاهد الآخرة و الحديث عن الملائكة و الجنّ، و حكاية أقوال الكُفّار وجدلهم و افتراءاتهم، و نسبهم المختلفة للنّبيّ قد كثرت و تكرّرت.

خامسًا ـ إنّ وحدة الموضوع في السُّور الطّويلة و المتوسّطة فضلاً عن القصيرة ملموحة في كلّ سورة منها تقريبًا.

سادسًا ـ إنّ تلاحق الفصول و السّياق جدلاً و حكايةً و إنذارًا و تبشيرًا و وعدًا و وعيدًا و تدعيمًا و تمثيلاً و تذكيرًا وقصصًا و تطمينًا و توجيهًا و تلقينًا و برهنةً، ملموح كذلك في كلّ سورة منها تقريبًا و في السُّور المكّيّة تبرز مبادىء الدّعوة القرآنيّة قويّة واضحة، و تبرز خصوصيّات القرآن و مميّزاته الأُسلوبيّة و الموضوعيّة بالنّسبة إلى الكُتُب السّماويّة الأُخرى قويّة واضحة كذلك. و من مميّزات الأُسلوب المكّيّ اللّهجة الخطابيّة والقويّة النّافذة إلى الأعماق، و القارعة للأسماع و القلوب، واللّهجة التّي يذكر بها اليهود

خاصّة؛ حيث خلت من التّقريع و التّعنيف و الجدل و الأخذ و الردّ، و تلك الصّور الجحوديّة و الإزعاجيّة و التّشكيكيّة و الدّسّيّة الواردة عنهم في القرآن المدنيّ، و اللّهجة المحبّبة الاستشهاديّة الّتي يذكّر بها الكُتّابيّون و أُولو العلم كأنّما هم حزب المسليمن والدّعوة النّبويّة و الأُسلوب المكّيّ يغلب فيه وصايا الصّبر و التّطمين و التّسكين، و عدم المبالاة بمواقف الكفّار، كما أنّه خلا من الحضّ على الجهاد و وقائع الجهاد، و خلا كذلك من ذكر المنافقين و مواقفهم و دسائسهم و الحملات القاصمة عليهم. و واضح أنّ هذا كلّه متّصل بظروف العهد المكّيّ من السّيرة النّبويّة ممّا نبّهنا عليه في سياق التّفسير.

أمّا القرآن المدنيّ فالسّجع فيه قليل بل نادر، و طول نفس الآيات غالب، و نقل فيه فصول القصص و وصف مشاهد الآخرة و الجنّ و الملائكة و الجدل،و وصف مشاهد الكون. أو تقصر، و يكتفي من ذلك بالتّذكير و الإشارات الخاطفة، و تصطبغ فيه المبادىء و التّكاليف التّعبّديّة و الأخلاقيّة و الإجتماعيّة و القضائيّة و السّلوكيّة بصبغة التّقنين والتّقعيد، و فيه تشريع الجهاد و وقائعه و ظروفها، و فيه إبطال عادات و تقاليد قديمة، وإقرار عادات و تقاليد قديمة أُخرىٰ مع الإصلاح و التّهذيب، و إنشاء عادات و تقاليد جديدة في سبيل الإصلاح الأخلاقيّ و الاجتماعيّ، و فيه صور النّفاق و المنافقين ومواقفهم، و لهجته عن اليهود لهجة شديدة فى الدّعوة و التّعنيف و التّنديد، وفيه صور عن مواقفهم و أحوالهم، و فيه الاستفتاءات و الأسئلة القضائيّة و الاجتماعيّة والأخلاقيّة والأُسرويّة و أجوبتها التّشريعيّة. و واضح أنّ هذا كلّه متّسق أيضًا مع ظروف العهد المدنيّ من السّيرة النّبويّة ممّا نبّهنا عليه في سياق التّفسير كذلك.

وعلى ضوء هذه المميّزات، و مع استلهام المضمون و السّياق أمكننا ترجيح مكّيّة سور الرّعد والحجّ و الرّحمن و الإنسان و الزّلزلة الّتي يذكر مصحف «قُدُور أُوغْلي» وغيره مدنيّتها، و أمكننا كذلك ترجيح مكّيّة و مدنيّة السُّور القصيرة الأُخرى الّتي اختلفت الرّوايات فيها، و ترجيح احتمال تقدّم بعض السُّور المتأخّرة، وتأخّر بعض السّور المتقدّمة، وترجيح مكّيّة آيات ذكرت الرّوايات أنّها مدنيّة في سور مكّية و مدنيّة آيات ذكرت الرّوايات أنّها مكّيّة في سور مدنيّة ممّا نبهّنا عليه في سياق التّفسيرالكامل.

(١٢٤ـ١٢٦)

كتابة ترتيب نزول السُّور القرآنيّة

كتابة ترتيب نزول السّور وصفاتها وعدّ آياتها و أرقامها و فواصلها.

إنّ بعض المصاحف تذكر في فواصل السُّور:

١ـ ترتيب نزول كلّ سورة، أي أنّ السُّورة قد نزلت بعد السّورة الفلانيّة.

٢ـ وصفة كلّ سورة، أي مكّية أو مدنيّة.

٣ـ و عدد آيات كلّ سورةٍ.

٤ـ و رقم الآيات المدنيّة في سورة المكّيّة، و رقم الآيات المكيّة في السّورة المدنيّة، إذا كانت السّورة احتوت آيات مكّيّة و مدنيّة معًا.

٥ـ و رقم كلّ آية بعد كتابتها في السّورة، في حين أنّ بعض المصاحف لاتذكر شيئًا من هذا و تكتفي بذكر اسم السّورة، و إنّ بعضها تذكر بعض هذه الأُمور دون بعض، و أنّ بين المصاحف الّتي تذكر هذه الأُمور جميعها أو بعضها اختلافًا في ما تذكره، حيث يذكر بعضها سورة ما مكّيّة، بينما يذكرها بعضها مدنيّة. و حيث يكون عدد آيات السّورة في مصحَف أقلّ أو أكثر منه في مصحف آخر، و حيث يكون عدد الآيات المكّيّة و الآيات المدنيّة في السّور المدنيّة و المكّيّة و أرقامها في مُصحف مغايرة لعددها و أرقامها في مُصحَف آخر، و حيث توضع فاصلة و راء آية ما في بعضها، بينما لاتكون مفصولة في بعضها، وحيث تكون الفواصل بين الآيات في بعضها صمّاء، بينما تكون في بعضها تحمل رقم الآية المتسلسل.

فالواضح من كلّ ذلك أنّ هذه الأُمور ـ عدا فصل الآيات بفاصلة ما ـ هو عمل تنظيميّ متأخرّ، و ليس له أصل في المُصحَف العُثمانيّ.

وقد استَثْنينا فصل الآيات بفاصلة ما ؛ لأنّنا نعتقد أنّ المُصحَف العُثمانيّ لم يسرد الآيات سردًا دون فصل بينها، و لأنّ الآية هي الوحدة القرآنيّة الصُّغرى المستقلّة، و قد أُشير إليها في القرآن نصًّا كذلك، كما جاء مثلاً في آية: ﴿وَ اِذَا بَدَّلْنَا اٰيَةً مَكَانَ اٰيَةٍ وَ اللهُ اَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾[1].

---

١ ـ النّحل /١٠١.

فلا يعقل إلاّ أن توضع فواصل بين الآيات. و لعلّ الفاصلة الّتي كانت تفصل بين الآيات في المُصحف العُثمانيّ هي نقطة صمّاء.

و هناك اختلاف في عدد آيات كثير من السّور، و قد ذكر السُّيوطيّ في «الإتقان» أنّ المتّفق على عدد آياته أربعون سورة فقط و مع أنّ هناك حديثًا أورده ابن العَربيّ عن النّبيّ عليه السلام و نقله السُّيوطيّ، يفيد أنّ الفاتحة سبع آيات، و الملك ثلاثون آية، فإنّ هذا لم يمنع الخلاف على عدد آيات هاتين السّورتين أيضًا. وقد قال بعض العلماء: إنّ سبب اختلاف السّلف في عدد الآيات أنّ النّبيّ عليه السلام كان يقف على بعض كلمات من الآيات، فيحسب السّامع أنّه يقف على آخر الآية. على أنّ ممّا يرد أن يكون ليس في تمييز بعض الفواصل في المُصحف العُثمانيّ، فكان هذا الخلاف في المصاحف الّتي نسخت عنه وتدُووِلَت. و ننبّه على أنّ الخلاف في عدد الآيات ليس كبيرًا، و كلّ ما تناوله دار في نطاق ضيّق من نقص آية أو آيتين في بعض السّور، أو زيادة آية أو آيتين في بعض آخر، مثل وصل بعضهم كلمات «طٰسٓمٓ» و «طسٓ» في سور الشّعراء و النّمل و القصص، و «الٓمٓ» في سورة العنكبوت و غيرها، و «الٓر» في سورة يونس و غيرها، و «حمٓ» في سورة فصّلت وغيرها، و عدّها موصولة مع ما بعدها أومفصولة عنه فتكون آية عند عدّها موصولة، ولاتكون كذلك عند من عدّها مفصولة، و مثل عدّ البَسْمَلَة آية في سورة الفاتحة وعدم عدّها، وعدّ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لاَ الضَّالِّينَ﴾ في سورة الفاتحة آية عند بعضهم، أو آيتين عند بعض آخر.

ونقول في صدد ترتيب نزول السّور: إنّنا اطّلعنا على عدّة ترتيبات، منها ترتيب المُصحف الّذي اعتمدناه، و نعني مُصحف «قُدُور أُوغْلي»، و منها ترتيب للسّيوطيّ استند فيه إلى ما اعتمده من الرّوايات، و منها ترتيب في تفسير الخازن و آخر في تفسير الطَّبْرِسيّ، و ثلاثة أُخرى أوردها السّيوطي في «الإتقان» منسوبة إلى الحسن و عِكرِمة وابن عبّاس و جابر. و بين هذه التّرتيبات تخالف يسير أو كبير، مع التّنبيه على أنّ مضامين بعض السّور المكّية و المدنيّة تسوّغ التّوقّف في ترتيبها الوارد في هذه التّرتيبات، و تحمل على القول إنّها لا تمثّل الحقيقة تمثيلاً صادقًا، و إنّه ليس هناك ترتيب يثبت على

النّقد و التّمحيص بكامله، أو يستند إلى أسناد وثيقة متّصلة بالعهد النّبويّ. فهناك روايات عديدة مختلفة في صفات بعض السّور، و بينما يسلك بعضهم سورًا في سلك السّور المكّيّة أو بالعكس، مثل سور الرّعد و الحجّ و الرّحمٰن و الإنسان والزّلزلة و الفلق والنّاس و الإخلاص و الكوثر و قريش و العصر و العاديات و القدر و المطفّفون، و الفاتحة الّتي تسلكها بعض الرّوايات في السّلك المدنيّ، بينما تسلكها روايات أُخرى في السّلك المكّيّ، و مثل سور الحديد و الصّف والتّغابُن و البيّنة الّتي تسلكها بعض الرّوايات في السّلك المكّيّ، بينما تسلكها روايات أُخرى في السّلك المدنيّ. و فضلاً عن ذلك فإنّ في القول بترتيب نزول سورالقرآن تجوّزًا خاصّة بالنّسبة لبعض السُّور المدنيّة؛ حيث تلهم مضامينها أنّ بعض فصول سور متقدّمة في روايات التّرتيب قد نزلت بعد بعض فصول سورة متأخّرة فيه، و أنّ فصول هذه السُّور قد ألّفت تأليفًا متأخّرًا عن نزولها وقتًا ما، ممّا ذكرنا بعض نماذجه و نبّهنا عليه في بحث سابق. **و كلّ ما يمكن أن يقال في مثل هذه السُّور: إنّ وضعها في ترتيب النّزول كسور تامّة بعد سور تامّة حقيقة أو رواية إنّما جاء من أنّ فصلها الأوّل أو فصولها الأُولى قد نزلت بعد الفصل الأوّل أو الفصول الأُولى من السّورة الّتي قبلها.**

ولقد أجمعت الرّوايات مثلاً على أنّ سور العلق و القلم و المزّمّل و المدّثّر هي أوائل السّور نزولاً على اختلاف في الأوّلية بينهما. و عند التّدفيق تراءىٰ لنا أنّ هذه الرّوايات محلّ نظر، فالآيات الأُولى من سورة القلم احتوت آية: ﴿اِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِ اٰيَاتُنَا قَالَ اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ﴾ [1] و الآيات الأُولى من سورة المزّمّل احتوت آية: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْاٰنَ تَرْتِيلاً﴾ [2] و الآيات الأُولى من سورة المدّثّر احتوت آية: ﴿اِنَّ هٰذَا اِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [3] و الآيات الّتي أعقبت الآيات الخمس الأُولى من سورة العلق احتوت آيات فيها وصف لموقف بعض الطّغاة من دعوة النّبيّ و صلاته، و بالإضافة إلى حكاية السُّور الثّلاث الأُولى مواقف بعض الكافرين و المكذّبين و جدلهم و مكابرتهم، و إلى حملات عليهم فيها بسبب ذلك. فهذا كلّه يلهم بقوّة أنّه ينبغي أن يكون قد نزل قبل هذه السُّور و بعد آيات سورة العلق الخمس

١ ـ القلم /١٥.
٢ ـ المزّمّل /٤.
٣ ـ المدّثّر /٢٥.

الأُولى على الأقلّ قرآن يصحّ أن يرتّل، و أن يقال عنه أساطير الأوّلين، و قول البشر، و فيه دعوة و إنذار عامّان، و قد تلي على النّاس ودعوا إلى الله بِهِ، فوقف الكفّار منه موقف الجاهد المعاند، فنزلت بقيّة سورة العلق و السُّور الثّلاث الأُخرى تحكي مواقفهم و تردّ عليهم. ومن أجل هذا ضمنّا أن تكون سور الفاتحة و الأعلى و الشّمس و العصر و اللّيل و أمثالها ممّا لا يحتوي إلاّ الدّعوة و الإنذار و الأهداف بصورة عامّة، هي السّابقة بالنّزول بعد آيات العلق الخمس الأُولى، إن لم يكن هناك قرآن نزل ثمّ رفع يحتوي ذلك، و يمكن إيراد أمثلة متعدّدة أُخرى كثيرة أيضًا. (١٢٠ ـ ١٢٤)

و نصّه أيضًا في «التّفسير الحديث»

[و بعد ذكره لطريقة تبويب كتابه، اقتطعنا نبذة من هذا الكتاب و هي تخصّ بحثنا]

ولقد رأينا أن نجعل ترتيب التّفسير وفق ترتيب نزول السّورة؛ بحيث تكون أُولى السّور المفسّرة سورة العلق ثمّ القلم ثمّ المزّمّل، إلى أن تنتهي السُّور المكيّة ثمّ سورة البقرة فسورة الأنفال إلى أن تنتهي السّور المدنيّة؛ لأنّنا رأينا هذا يتّسق مع المنهج الّذي اعتقدنا أنّه الأفضل لفهم القرآن و خدمته، إذ بذلك يمكن متابعة السّيرة النّبوية زمنًا بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار التّنزيل و مراحله بشكل أوضح و أدقّ، و بهذا و ذاك يندمج القارىء **في جوّ نزول القرآن و جوّ ظروفه و مناسباته و مداه و مفهوماته، و تتجلّى له حكمته التّنزيل.**

وقد قلّبنا وجوه الرّأي حول هذه الطّريقة، و تساءلنا عمّا إذا كان فيها مساس بقُدسيّة المُصحف المتداول، فانتهى بنا الرّأي إلى القرار عليها ؛ لأنّ التّفسير ليس مُصْحفًا للتّلاوة من جهة، و هو عمل فنّي أو علميّ من جهة ثانية، و لأنّ تفسير كلّ سورة يصحّ أن يكون عملاً مستقلاً بذاته، لا صلة له بترتيب المُصْحَف، و ليس من شأنه أن يمسّ قُدسيّة ترتيبه من جهة ثالثة.

ولقد أُثر عن عُلماء أعلام قدماء و محدّثين تفسيرات لوحدات و سور قرآنيّة، دون وحدات و سور كما أُثر عن عليّ بن أبي طالبعليه السلام أنّه كتب مُصحفًا وفق نزول القرآن، ولم نر نقدًا أو إنكارًا لهذا و ذاك، ممّا جعلنا نرى السّير على هذه الطّريقة سائغًا. لاسيّما

والقصد منه هو خدمة القرآن بطريقة تكون أكثر نفعًا، و ليس هو الإنحراف و الشّذوذ، والله أعلم بالنّيات، ولكلّ امرىء مانوىٰ. و مع ذلك فقد رأينا أن نستوثق من صحّة ما ذهبنا إليه، فاستفتينا سماحة «الشّيخ أبي اليُسر عابدين» مفتي سورية و «الشّيخ عبد الفتّاح أبا غدّة» الّذي كان من المرشّحين لإفتاء مدينة حلب، فتلقّينا منهما جوابًا مؤيّدًا؛ حيث قال الأوّل في جوابه: إنّ التّأليف و التّصنيف تابع لأغراض المؤلّفين حسبما يعرض لهم من أشكال؛ لإظهار الفوائد الّتي يطلّعون عليها، و ليس التّفسير بقرآن يُتلى حتّى يراعى فيه ترتيب الآيات و السّور، فقد يعنّ للمفسّر أن يفسّر آية ثمّ يترك ما بجانبها لظهور معناها، و قد يفسّر سورة ثمّ يترك ما بعدها اعتمادًا على فهم التّالي. و لا مانع من تأليف تفسير على الشّكل المذكور، والله أعلم و حيث قال الثّاني: إنّ شبهة المنع لهذه الطّريقة آتية من جهة أنّها طريقة تخالف ما عليه المُصْحَف الشّريف اليوم من التّرتيب المجمع عليه و المتواتر إلى الأُمّة نقله جيلاً بعد جيل. و دفع هذه الشّبهة أنّ المنع يثبت فيما لو كان هذا الصّنيع مسلوكًا من أجل أن يكون هذا التّرتيب مُصحَفًا للتّلاوة، أي ليتلو النّاس القرآن على النّحو الّذي سلكتموه. أمّا و إنّ الغرض للمفسّر و القارىء معًا غير هذا فلا مانع من سلوكه إطلاقًا. ويستأنس لسواغية هذه الطّريقة بما سلكه أجلّة من علماء الأُمّة المشهود لهم بالإمامة والقدوة من المتقدّمين في تأليفهم، و لم يعلم أنّ أحدًا أنكر عليهم ما صنعوا. و يحضرني منهم الآن الإمام ابن قُتَيْبة المتوفّى سنة (٢٧٦) للهجرة، فقد مشى في تفسير ما فسّره في كتابه المطبوع «تأويل مشكل القرآن» على غير ترتيب النّزول و على غير التّرتيب المتلوّ الآن. يبدوا هذا جليًّا في الصُّحُف (٢٤٠ ـ ٣٣٩). على أنّ القول بالمنع تبعًا لهذه النّظرة الضّيّقة ينبغي أن يشمل ما سلكه الشّيخ جلال الدّين المُحلّىٰ، ثمّ جلال الدّين السّيوطي في تفسيرهما المعروف بتفسير «الجلالين»؛ إذ قد بدأ الأوّل بالتّفسير من آخر القرآن الكريم و هو صاعد إلى سورة الكهف، ثمّ مات فأتمّ الجلال السّيوطيّ من حيث وقف سلفه إلى أوّل القرآن الكريم.

فهما لم يراعيا في مسلكهما هذا البدء على ترتيب القرآن من أوّله إلى آخره. كذلك ينبغي أن يشمل ما صنعه الشّيخ عبدالوهّاب النّجار في كتابه «قصص الأنبياء»، و الشّيخ

محمّد أحمد العَدَويّ في كتابه «دعوة الرّسل إلى الله». فهما أيضًا لم يراعيا في موضوعات كتابيهما ترتيب المُصحف المتلوّ اليوم، بل راعيا اعتبارًا آخر. وكذلك ينبغي أن يتناول المنع كتابكم الدّستور القرآنيّ في شؤون الحياة، فقد سلكتم فيه نحو طريقتكم في التّفسير من جمع طائفة من الآيات الكريمة في صعيد واحدة، ثمّ تفسيرها و بيان ما تلهمه من المعاني الكريمة.

فإن قيل: إنّ هناك فارقًا بين صنيعكم في الدّستور و صنيعكم في التّفسير؛ لأنّ الأوّل يمكن أن يجعل من باب التّأليف على اعتبار وحدة الموضوع الّتي ينظر فيها إلى مدلول الآيات فحسب، في حين أنّ النّظر في الثّاني متّجه إلى مراعاة النّزول فحسب.

فالجواب: فليجعل هذا أيضًا من باب وحدة الموضوع بين السّورة و السّورة من حيث زمن نزولها سابقةً أولاحقةً. و للعلماء أقوال في صدد ترتيب السّور، و ما إذا كان توقيفيًّا أو اجتهاديًّا. فقد ذكر السّيوطيّ في كتابه: «الإتقان» أنّ جمهور العلماء على الثّاني، منهم مالك و القاضي أبوبكر في أحد قوليه.

و ممّا استدلّ به على ذلك اختلاف مصاحف السّلف في ترتيب السُّور ـ و الكلام للسّيوطيّ ـ فمنهم من رتّبها على النّزول وهو مُصحف عليّ، كان أوّله: (اِقْرَاْ ثمّ المدّثر ثمّ نون ثمّ المزّمّل ثم تبّت ثمّ التّكوير، و هكذا إلى آخر المكّيّ و المدنيّ. و كان أوّل مُصحَف ابن مسعود البقرة ثمّ النّساء ثمّ آل عمران، و كذا مُصحَف أُبيّ و غيره. ثمّ ساق السّيوطيّ رحمه‌الله بعد نحو صفحتين صورة عن التّرتيب الّذي في مُصحَف أُبيّ بن كعب ومُصْحَف عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما. و قد قال شيخ الإسلام تقيّ الدّين أحمد بن تيميّة: إنّ ترتيب السّور بالاجتهاد لا بالنّص في قول جمهور العلماء من الحنابِلة والمالِكيّة و الشّافعيّة، فيجوز قراءة هذه قبل هذه، و كذا في الكتابة. و لهذا تنوّعت مصاحف الصّحابة في كتابتها، نعني لما اتّفقوا على المُصْحَف في زمن عُثمان صار هذا ممّا سنّه الخلفاء الرّاشدون، و قد دلّ الحديث على أنّ لهم سنّة يجب اتّباعها. و واضح كلّ الوضوح أنّ محلّ اتّباع هذه السّنّة الّتي يجب اتّباعها إنّما هو في كتابة المُصْحَف الّذي يكون للتّلاوة لا في كتابة تفسير و شرح لمعانى الآيات و السّور الكريمة. فإنّ ذلك غير داخل في موضوع

اختلاف العلماء أو اتّفاقهم إطلاقًا، بل هم فيما روي متّفقون على سواغيته وجوازه، ولله تعالى أعلم.

وقد استخرنا الله بعد أن تلقّينا هذين الجوابين من الأُستاذين الجليلين، و عزمنا على السّير في الطّريقة المذكورة؛ لما لها من فوائد عظيمة دون أن يكون لها مساس بقُدسيّة ترتيب المُصْحَف.

ولقد أورد السّيوطيّ في كتاب «الإتقان»[1] ترتيبات نزول للسّور المكّية و السّور المدنيّة منسوبة إلى جابر بن زيد و الحسن و عِكْرِمة و ابن عبّاس، و ترتيبًا رابعًا لم يذكر صاحبه. و لقد اطّلعنا في مقدّمة: «تفسير الخازن» على ترتيب، و في مقدّمة تفسير «مجمع البيان» على ترتيب آخر، و في المُصْحَف الّذي كتبه الخطّاط الشّهير بـ«قُدُور أُوغلي» ـ والّذي طبع بتصريح-من وزارة الدّاخليّة المصريّة و إذن مشيخة المقارىء المصريّة من قبل عبدالحميد أحمد حنفيّ ـ ترتيب آخر أُشير إليه في رؤوس السُّور و بين هذه التّرتيبات السّبعة بعض التّخالف من ناحية التّقديم و التّأخير و المدنيّ و المكّيّ، على أنّ من الحقّ أن نقول: إنّه ليس في الإمكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السُّور القرآنيّة جيعها، كما أنّه ليس هناك ترتيب يثبت بكامله على النّقد أو يستند إلى أسانيد قويّة و وثيقة. و زيادة على هذا فإنّ في القول بترتيب السّور حسب نزولها شيئًا من التّجوّز، فهناك سور عديدة مكّيّة ومدنيّة يبدو من مضامينها أنّ فصولها لم تنزل مرّةً واحدةً أو متلاحقةً، بل نزلت بعض فصولها أوّلاً ثمّ نزلت بعض فصول سور أُخرى، ثمّ نزلت بقيّة فصولها في فترات، و أنّ بعض فصول سور متقدّمة في التّرتيب قد نزلت بعد فصول سور متأخّرة فيه أو بالعكس، وأنّ فصول هذه السّور قد أُلّفت بعد تمام نزول فصولها، و أنّ ترتيبها في النّزول قد تأثّر بفصلها أو فصولها الأُولى، و أنّ بعض السُّور المتقدّمة في التّرتيب أولى أن تكون متأخّرة أو بالعكس، أو بعض ما روي مدنيّة من السُّور أولى أن يكون مكّيًّا أو بالعكس، ممّا سوف ننبّه إليه في سياق تفسير كلّ سورة إن شاء الله.

و مع ذلك فإنّ هذا لا يعني أنّ التّرتيبات المستندة إلى روايات قديمة أو المنسوبة إلى

١ ـ انظر الجزء الأوّل (من مطبعة عبد الرّازق) ص: ١٠. بعدها.

أعلام الصّحابة و التّابعين غير صحيحة كلّها، أو أنّها لا يصحّ التّعويل عليها. فالقسم الأعظم من السُّور المكّية نزل دفعةً واحدةً أو فصولاً متلاحقةً، و لم تبدأ سورة جديدة حتّى تكون السّورة الّتي قبلها قد تمّت. و مضامين سور عديدة مكّيّة و مدنيّة تلهم أنّ كثيرًا ممّا رُوي في ترتيب النّزول صحيح أو قريب من الصّحّة، و كلّ ما يعنيه أنّ فيها ما يدعوا إلى التّوقّف، و أنّ الأمر يظلّ في حدود المقاربه والتّرجيح. و لهذا لم يكن ما يمكن أن يوجّه من مآخذ إلى ترتيب نزول السّور ليغيّرما قرّ رأينا عليه ؛ لأنّنا رأيناه على كلّ حال يظلّ مفيدًا في تحقيق ما استهدفناه و المنهج الّذي ترسّمناه، و خاصّة بالنّسبة إلى فائدة تتبّع صور التّنزيل القرآنيّ مرحلة فمرحلة، و الاستشعار بجوّ هذه الصّور؛ حيث يكون ذلك أدعى إلى تفهّم القرآن و حكمة التّنزيل.

و قد اعتمدنا التّرتيب الّذي جاء في مُصْحَف الخطّاط «قُدور أُوغلي» المذكور قبل؛ لأنّه ذكر فيه أنّه طبع تحت إشراف لجنة خاصّة من ذوي العلم و الوقوف، حيث يتبادر إلى الذّهن أن يكون أُشير إلى ترتيب فيه (السّورة كذا نزلت بعد السّورة كذا) بعد اطّلاع اللّجنة على مختلف الرّوايات و التّرجيح بينها. و لقد جاء في تعريف المُصْحَف «إنّه كتب و ضبط علىٰ ما يوافق رواية حَفْص بن سُليمان بن المغيرة الأسديّ الكوفيّ لقراءة عاصم بن أبي النُّجود الكوفيّ التّابعيّ عن أبي عبدالرّحمان عبدالله بن حبيب السُّلَميّ عن عُثمان بن عَفّان و عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت و أُبيّ بن كَعب، عن النّبيّ ﷺ، و أخذ هجاؤه ممّا رواه علماء الرّسم عن المصاحف الّتي بعث بها عُثمان بن عَفّان إلى البَصْرة والكوفة و الشّام ومكّة، والمُصْحَف الّذي جعله لأهل المدينة، و المُصحف الّذي اختصّ به نفسه، و عدّ المصاحف المنتسخة عنها. أمّا الأحرف اليسيرة الّتي اختلفت فيها أهجية تلك المصاحف فاتّبع فيها الهجاء الغالب مع مراعاة قراءة القارىء الّذي يكتب المُصحف لبيان قراءته ومراعاة القواعد الّتي استنبطها علماء الرّسم من الأهجية المختلفة على حسب ما رواه الشّيخان أبو عمرو الدّانيّ و أبو سُلَيْمان بن نَجاح، مع ترجيح الثّاني عند الاختلاف. والعمدة في ذلك على ما حقّقه الأُستاذ محمّد بن محمّد الأُمويّ الشَّرِيشيّ المشهور بالخَرّاز في منظومته (مورد الظّمآن)، و ما قرّرة شارحها المحقّق الشّيخ عبد الواحد بن

عاشر الأنصاريّ الأندَلُسيّ. و أخذت طريقة ضبطه ممّا قرّره علماء الضّبط على حسب ماورد في كتاب «الطّراز على ضبط الخرّاز» للإمـام التّـنّـيسيّ، مـع إبـدال عـلامات الأندَلُسيّين و المغاربة بعلامات الخليل بن أحمد و أتباعه من المشارقة. و اتّبعت في عدّ آياته طريقة الكوفيّين عن أبي عبد الرّحمان عبدالله بن حبيب السُّلَميّ، عن عليّ بن أبي طالب على حسب ما ورد في كتاب «ناظمة الزّهَر» للإمام الشّاطبيّ و شرحها لأبي عُبَيْد رضوان المَخلّلاتيّ، و كتاب أبي القاسم عمر بن عبد الكافي، و كتاب «تحقيق البـيان» للأُستاذ الشّيخ محمّد المتولّي شيخ القرّاء بالدّيار المصريّة سابقًا. و أخذ بيان مكّيّة و مدنيّة من الكتب المذكورة و كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبدالكافي، و كتب القراءات والتّفسير على خلاف في بعضها. وهذا هو ترتيب نزول السُّور على حسب مـاورد فـي مطالع سور هذا المُصحف... **[راجع الجدول الرّقم ١٣ في آخر هذا الجزء]**.

ولقد رأينا مع ذلك أن نخالف ترتيب هذا المُصحف بعض الشّيء، فسور العلق والقلم والمزّمّل و المدّثّر الّتي وردت فيه كالسُّور الأُولى و الثّانية و الثّالثة والرّابعة بالتّوالي ليست كذلك إلاّ بالنّسبة لمطالعها فقط على أحسن تقدير؛ حيث إنّ ما يأتي بعد هذه المـطالع لايمكن أن يكون نزل إلاّ بعد نزول سور و فصول غيرها، على ما سوف نشرحه في سياق تفسيرها، في حين أنّ هناك رواية معزوّة إلى ابن عبّاس و مُجاهد تذكر أنّ سورة الفاتحة الّتي تأتي الخامسة في ترتيب النّزول هي أوّل ما نزل من القرآن. و هناك حديث أخرجه البَيْهَقّي والواحِديّ ووصف رجاله بالثّقات عن شُرَحْبيل عن النّـبيّ ﷺ أنّ الفـاتحة أوّل مانزل من القرآن و لمّا كان هناك أحاديث صحيحة منها حديث رواه البخاريّ عن عاشة رضي الله عنها سنورده في سياق سورة العلق تـذكر أنّ آيـات سـورة العـلق الخـمس الأُولىٰ هي أُولى آيات القرآن نزولاً، فيمكن أن تحمل رواية أوّليّة سورة الفاتحة على أنّها أُولى السّور التّامة نزولاً بعد مطلع سورة العلق و مطالع السّور الثّلاث التّالية لها في التّرتيب والفاتحة، بالإضافة إلى ذلك هي فاتحة المُصْحَف، و الواجب تلاوتها في كلّ ركعة صلاة، ولذلك رأينا أن تكون فاتحة التّفسير أيضًا.

وهناك أربع سور ذكر المُصْحَف الّذي اعتمدناه أنّها مدنيّة، و هي الزّلزلة و الإنسان والرّحمن و الرّعد، في حين أنّ مضمونها و أُسلوبها مشابهان للسُّور المكّيّة دون السّـور

المدنيّة، و أنّ هناك روايات تذكر أنّها مكّيّة، و لذلك فسّرناها في عداد السُّور المكّيّة.

وهناك سور يمكن أن يلهم مضمونها أنّهانزلت قبل سور متقدّمة عليها في التّرتيب أو بعد سور متأخّرة عنها، فلم نشأ الإخلال بترتيبها، و اكتفينا بالتّنبيه إلى ذلك في مقدّمة كلّ سورة منها. (١:٨ـ١٦)

تعليق على روايات الآيات المدنيّة في السُّور المكّية

وبمناسبة ذكر رواية مدنيّة الآيات المذكورة لأوّل مرّةٍ نقول: إنّ هناك روايات عديدة عن وجود آيات مدنيّة في السُّور المكّيّة. و المُصحف الّذي اعتمدنا عليه يروي مدنيّة (١٤٧) آية في (٣٤) سورة مكّيّة، و هناك روايات تزيد في عدد الآيات، و أُخرى تنقص منها.

والمتدبّر في الآيات يرى طابع العهد المكّيّ و صوره و أحداثه بارزًا على معظمها، كما يرى انسجام معظمها انسجامًا تامًّا في السّياق والمضمون بل و النّظم مع ما قبلها و ما بعدها، ولا يستبين الحكمة في وضعها لو كانت مدنيّة حقًّا بحيث يسوّغ الشّكّ و التّوقّف في صحّة الرّوايات الّتي تروي مدنيّتها و تروي أسباب نزولها في المدنيّه، إلاّ إذا فرض أن تكون حكمة التّنزيل اقتضت تدعيم السّياق المكّيّ بها، و هو فرض لا يمكن أن تطمئنّ النّفس به. و من الجدير بالذّكر أنّ معظم الرّوايات ليست أحاديث نبويّة أو صحابيّة موثّقة و مسندة على أُسلوب توثيق الأحاديث و إسنادها. و ممّا يرد على البال تعليلاً لها أنّ الآيات المكّيّة ذكرت أو استشهد بها بمناسبة بعض أحداث جرت في المدينة، وكان بعضهم قد نسيها، فالتبس عليهم الأمر وظنّوها آيات مدنيّة.

والكلام ينطبق كما قلنا على معظم الآيات، و هناك بضع آيات في بعض السُّور المكّية تستثنىٰ من ذلك؛ حيث يسوّغ طابعها و مضمونها الجزم بصحّة رواية مدنيّتها، و قد وضعت في السّياق المناسب لمضمونها على ماسوف نشرحه في مناسباتها. (١:٥٥)

الفصل السّابع عشر

نصّ الشَّعرانيّ (م: ١٣٩٣) في مقدّمة «تفسير منهج الصّادقين»

[ترتيب سور القرآن]

إنّ سور القرآن ليست مرتّبةً بحسب نزولها، فنراها تبدأ بالفاتحة تتبعها السُّور الطُّوال، ثمّ تنتهي بالسُّور القصار. ومن يبغي ترتيبها بحسب النّزول فعليه أن يرجع إلى سيرة النّبي و أحاديثه. كما أنّ الآيات في السُّور لم تكن مرتّبةً بحسب النّزول أيضًا، و لا يمكن ترتيبها طبق الأحاديث النّبويّة، كما أنّ ترتيبها ليس بحاجة ماسّة إلاّ عند معرفة النّاسخ من المنسوخ في بضعة مواضع عرفت بالتّواتُر. و لا يخفى أيضًا أنّ ترتيب الآيات **في السُّور كان من فعل النّبيّ صلى الله عليه وآله بأمر من الله تعالى، فلا يتأتّىٰ لأحد الاعتراض على النّبيّ صلى الله عليه وآله.**

وجاء في مجمع البيان» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[1]: **هذه آخر آية نزلت من القرآن، وقال جبرائيل: ضعها في رأس الثّمانين و المائتين من البقرة.**

وعلماء السّيرة و الحديث متّفقون على أنّ سورة البقرة و سائر السُّور كانت مرتّبةً في عهد النّبيّ صلى الله عليه وآله، و كان لكلّ سورة اسم ؛ إذ كان النّبيّ يأمر بقراءة سورة كاملة في الصّلاة، أو يبيّن ثواب السّور، أو يتحدّىٰ من ينكر دينه بأن يأتي بسورة مثل سور القرآن، أو يأمر بوضع الآيات النّازلة المتأخّرة، في موضع كذا من سورة كذا، و كان المسلمون يدركون مَرْماه؛ لأنّهم مطّلعون على السُّور.

وقد نُقِل عن سعد بن عبدالله الأشعريّ قوله بأنّ عدم ترتيب القرآن بحسب النّزول يدلّ على تصرّف المسلمين فيه. فإن صحّ نسبة هذا القول إليه فهو على غير صواب؛ لأنّ

---

١ ـ البقرة /٢٨١.

المؤلّف حُرٌّ في ترتيب فصول كتابه بأيّ نحو كان. فقد ألّف الحاج الملاّ هادي السّبزواريّ رحمه الله، المنطق قبل الفلسفة بزمان طويل في منظومته المشهورة، كما أفصح هو عن ذلك في كتابه المشهور، و الحال أنّ الفلسفة ينبغي أن تقدّم على المنطق. وكذا فعلنا نحن؛ إذلم نراعِ في تدوين مواضعينا في الرّسائل والكتب تاريخ الاستنباط والضّبط، و يحدث أحيانًا أن أضع لأسباب خاصّة موضوعًا كتبته قبل عشر سنوات في فصول أخيرة، و أُقدّم أحيانًا فكرة عنّت لي قبل يوم واحد، و هذا ما يدركه كلّ من اشتغل في التّأليف و التّصنيف

ولذا نستبعد أن يكون هذا القول قد صدر من سعد بن عبدالله؛ لأنّه مؤلّف يدرك هذه الحقيقة.

(١٧:١)

الفصل الثّامن عشر

نصّ الشّيخ أبي زُهْرة (م: ١٣٩٤) في كتابه: «المعجزة الكبرىٰ»

المكّيّ و المدني

كان نزول القرآن منجّمًا سببًا في أنّ بعضه نزل بمكّة و بعضه نزل بالمدينة، فكان منه المكّيّ و منه المدنيّ، فالمكّيّ ما نزل قبل الهجرة، و المدنيّ ما نزل بعد الهجرة، فما نزل بعد الهجرة و لو بمكّة يسمّى مدنيًّا، و ما نزل قبل الهجرة يسمّى مكّيًّا، فالتّقسيم زمانيّ و ليس بمكانيّ، ليست العبرة بمكان النّزول، إنّما العبرة فيه بزمانه.

و الآيات المكّيّة فيها بيان العقيدة الإسلاميّة، و بطلان عبادة الأوثان، و مجادلة المشركين، و الدّعوة إلى التّوحيد، و مخاطبة العرب، و فيها قصص الأنبياء الّذين جاءوا إلى بلاد العرب، و لهم آثار في أجزائها تنادي بما صنع أقوامهم، و ما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب و من خسف، جعل عالي ديارهم سافلها، و من ريح صَرصَرٍ عاتيةٍ.

ولم يكن في الآيات المكّيّة أحكام للمعاملات، و إن كان فيها إشارات إلى محرّمات كالخمر و الرّبا، فقد قال تعالى مشيرًا إلى أنّ الخمر أمر غير حسن: ﴿وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْاَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. فإنّ هذا النّصّ الكريم يشير إلى أنّ الخمر ليست أمرًا حسنًا؛لأنّه سبحانه و تعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن، و لا يقابل الحسن إلاّ القبيح، أوعلى الأقلّ الأمر غير الحسن.

ولقد جاء أيضًا في سورة الرّوم ما يشير إلى أنّ الرّبا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى ﴿وَ مَا اٰتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِى اَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَاللهِ وَ مَا اٰتَيْتُم مِنْ زَكوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ

---

١ ـ النّحل /٦٧.

فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[١].

إنّ عدم وجود أحكام للمعاملات في مكّة سببه أنّ الدّولة الّتي كانت قائمة كانت دولة شرك، و إنّ من المستحيل أن تنفّذ أحكام المعاملات الإسلاميّة في ظلّها، و كان الإتّجاه الأوّل إلى إخراجها من الشّرك و إدخالها في التّوحيد أوّلاً، ثمّ من بعد ذلك تكون الدّولة الإسلاميّة المنفّذة، و لكنّ المحرّمات كانت ثابتة من أوّل تشريع الإسلام، و إن كان مسكوتًا عنها. فلم تكن موضع إباحة، بل كانت موضع سكوت و عفو حتّى ينزل التّشريع بتحريمها تحريمًا قاطعًا، فما كانت الخمر مباحة، و لكن كان مسكوتًا عنها، أو كانت في مرتبة العفو كما يقول علماء الأُصول، حتّى إذا كان المنع الصّريح في المدينة، كان معه العقاب، و هكذا كلّ ما كان مسكوتًا عنه لم يكن موضع إباحة.

و لمّا انتقل النّبيّ ﷺ إلى المدينة كان التّنظيم الكامل للمعاملات ؛لأنّه وجدت دولة إسلاميّة فاضلة، تنظّم العلاقات بين النّاس، و تقوم على تنفيذها و القضاء بها، فنظّم التّعامل، و ابتدأ بأعلى أنواع التّعاون بين النّاس، و هو الإخاء الّذي آخى فيه النّبيّ ﷺ بين المهاجرين و الأنصار، بعضهم مع بعض، و المهاجرين بعضهم مع بعض. و شرّعت النّظم الاجتماعيّة، و المعاملات الإنسانيّة، من أحكام للبيوع و المزارعات، و تحريم للرّبويّات و غيرها، و فرضيّة الصّدقات و تنظيمها، و إعطاء الفقير حقّه، و التّنظيم الاجتماعيّ الكامل، و شرّعت الزّواجر الاجتماعيّة من حدود و قصاص، و سنّت الأحكام الفاصلة بين الحقوق، و فتح باب الجهاد، ووضعت نظم الحرب، و قامت العلاقات الدّوليّة على أُسس متينة محكمة، و يراعىٰ فيها حقّ العدوّ، كما يلاحظ حقّ الوليّ على سواء ؛ لأنّ المبادىء المدنيّة في الإسلام قامت على إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه من غير بخس ولاشطط، و لا مجاوزة للحدّ و لا اعتداء.

و يلاحظ أنّ مبادىء العدالة جاءت مع وجود الشّريعة الإسلاميّة، و قد دعا إليها القرآن الكريم في مكّة و المدينة؛ لأنّ العدالة حقّ ابتدائيّ لا يختلف في دولة عن دولة، فهو يتعلّق بالنّفس الإنسانيّة في ذاتها.

---

١ ـ الرّوم /٣٩.

فالأمر بالعدالة و الإحسان، والوفاه بالعهد جاء في سورة النّحل، و هي مكّية عند نظر الأكثرين؛ لأنّ الله تعالى يقول فيها و هو أحكم القائلين: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَائِ ذِي الْقُرْبىٰ وَ يَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ـ إِلىٰ قوله ـ اَرْبىٰ مِنْ اُمَّةٍ﴾[1].

ولقد أحصى القُرْطُبيّ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» السُّور المدنيّة، فقال: عن قَتادة: نزل بالمدينة من القرآن البقرة و آل عمران و... [و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]

و يلاحظ أنّه جعل سورة النّحل من السُّور المدنيّة، و لكنّ المذكور في المصاحف الّتي بين أيدينا أنّها مكّيّة، و لعلّ فيها روايتين. (ص: ٢٤ ـ ٢٦)

و نصّه أيضًا في «المكّية و نظريّة العقد في الشّريعة الإسلاميّة»

القرآن الكريم هو معجزة النّبيّ ﷺ الكُبرى، نزل به الرّوح الأمين على النّبيّ ﷺ في ثلاثة و عشرين عامًا منجّمًا، تنزل عليه الآية أو الآيات لما يناسبها من موضع لدعاية، أو مقام لهداية، أو أحداث اجتماعيّة، لتكون تلك الأحداث مبيّنة لمَرماها، و ليكون النّاس على بيّنة من حكمة الشّريعة فيها، و ليكون المؤمنون أكثر إقبالاً عليها، إذ تنزل وقت الحاجة إليها. و كثيرًا ما كانت تنزل الآية بعد تكرار السّؤال في موضوعها، فيكون معناها متمكّنًا في النّفس فضل تمكّن.

و في القرآن سور مكّيّة و أُخرى مدنيّة، فالمكّيّة ما نزلت بمكّة، و المدنيّة ما نزلت بالمدينة، و السُّور المكّيّة تتصدّى في أكثر ما تتصدّى له لبيان الأُصول الأُولى للإسلام، فتبيّن العقيدة الإسلاميّة، و أساس الوحدانيّة، و تجادل المشركين، ثمّ تبيّن بعض العبادات الّتي تؤكّد عقيدة التّوحيد و تثبيتها في القلوب، و لا تتصدّىٰ إلاّ قليلاً لبيان الشّرائع الّتي تنظّم المدينة و الأُسرة، و تربط الجماعة الإنسانيّة بأواصر من المودّة و الرّحمة و حكمة ذلك جليّة واضحة، فإنّ المسلمين الأوّلين كانوا مستضعفين في الأرض يسامون الخسف، و يلاقون الحتف، و هم يلاحون المشركين، و يناضلونهم بسهام من الحجج لإثبات

١ ـ الآيات / ٩٠ ـ ٩٣.

التّوحيد و بطلان الشّرك، و تنزيه النّفس عن بوائق الجاهليّة و أدران الوثنيّة، و لم تكن قد تكوّنت منهم وحدة اجتماعيّة تستقلّ بشئون نفسها، و يشرع لها من النّظم ما تسير عليه و تحكم به، حتّى إذا هاجر النّبيّ إلى المدينة، و كان من المسلمين جماعة مستقلّة بأُمورها، لها وحدة جامعة، و شوكة وقوّة نزلت الآيات القرآنيّة المنظّمة لهذا الاجتماع الرّابطة بين آحاده، فكانت لهذا السّور المدنيّة مشتملة على الشّرائع و الأحكام، لتتكوّن بها من هذه الجماعة المدينة الفاضلة الّتي كانت أُمنيّة المصلحين و المفكّرين، لذلك نقول: إنّ أكثر شرائع القرآن كانت بالمدينة؛ لأنّ أكثر آيات الأحكام نزل بالمدينة.

و ليست التّفرقة بين المكّيّ و المدنيّ من سُور القرآن الكريم معناها أنّهما قسمان متقابلان أو نوعان متغايران، بل إنّهما يكوّنان وحدة متلاقية متناسبة الأجزاء، و أنّ المكّيّ أصل ينبني عليه المدنيّ، أو المكّيّ ابتداء و نهايته المدنيّ، و لقد قال الشّاطِبيّ في موافقاته[1]: إنّ المدنيّ من السّور ينبغي أن يكون منزّلاً في الفهم على المكّي... **[و ذكر كما تقدّم عن القاسِميّ ثمّ قال:]**.

و كأنّ الشّاطِبيّ يرمي بهذا القول إلى تقرير حقيقة ثابتة، و هي أنّ القرآن مترابط الأجزاء، بعضه آخذ بحجز بعضه إلى غاية واحدة، وهو متماسك بعُروة واحدة، هي إصلاح النّاس في معاشهم، و إقامة بنيانهم على دعامة من الفضيلة والرّحمة، و هو في هذا يسير سير التّدرّج و التّنقّل من المألوف إلى غيره، ولا يصار إلى الثّانيّ حتّى تستأنس النّفس به و تسكن إليه.

و لقد يبدو بادي الرّأي أنّ القرآن الكريم غير متّصل الأجزاء اتّصالاً منطقيًّا، كما يبدو في الكتُب الّتي يؤلّفها النّاس، ولكن من المؤكّد الّذي لاريب فيه عند الّذين يفقهون ما ينبغي للمصلح أن يسلكه أنّ القرآن مرتّب مسلسل من النّاحية الإجتماعيّة الإصلاحيّة، فهو قد عالج نفوس العرب من شماسها، طبّ لها بما أخرجها عن شكاسها، وكانت الآيات تنزل في المناسبات مصلحة أو معالجة عندما يجدي العلاج، و هي تعطي للمدرك الأريب صورة المصلح كأنّه الطّبيب البارع، يحمل المبضع عندما يشتدّ ألم

١ ـ الموافقات ٣: ٢٤٥.

القرحة، و يهون بجواره ألم البضع[١] فالآيات القرآنيّة مترابطة من حيث إصلاحها، تـنزل الآية لإصلاح حال قد حان حينه و جاء إبّانه، و هي تسير في هذا بخطوات متلاحقة كلّ خطوة متمّمة لسابقتها، و ممهّدة للاحقها. حتّى إذ تمّ نزوله كملت الشّريعة، وكان بـين يدي النّاس وحدة كاملة فيها إصلاح للنّاس، فيها هداهم، و فيها أُصول لأكمل الشّرائع، ولقد صدق الله تعالى؛ إذ يقول في آخر آية نزلت: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ دِينًا﴾[٢] (٧ـ٩)

---

١ ـ والمثال الحيّ لذلك آيات الخمر، نبّه أوّلاً في وفق إلى إثمها، ثمّ نهى عن قربان الصّلاة و الشّخص سكران، حتّى إذا أنسوا بالامتناع، و أرهف إحساسهم، فأدركوا مسلوبها، حتّى لقد قال قائلهم: اللّهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، نزل النّهي القاطع: ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الاَنْصَابُ وَ الاَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾ إلخ.

٢ ـ المائدة /٣.

الفصل التّاسع عشر

نصّ العلاّمة الطّباطبائي (م: ١٤٠٢) في «تفسير الميزان»

ترتيب السُّور نزولاً

[بعد أن حكى رواية ابن عبّاس نقلاً عن السّيوطيّ حسب ما تقدّم عن المباني قال:]

وقد سقطت من الرّواية سورة فاتحة الكتاب، و ربّما قيل: أنّها نزلت مرّتين، مـرّةً بمكّة و مرّةً بالمدينة.

ونقل فيه عن البَيْهقيّ في «دلائل النّبوّة» أنّه روى بإسناده عن عِكرِمة و الحسن بن أبي الحسن، قالا: أنزل الله من القرآن بمكّة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك﴾ وساقا الحديث نحو حديث عطاء السّابق عن ابن عبّاس، **إلاّ أنّه قد سقط منه الفاتحة و الأعراف و كهيعص ممّا نزل بمكّة.**

و أيضًا ذكر فيه حمَ الدُّخان قبل السّجدة، ثمّ إذا السَّمَاءُ انشَقَّتْ قـبل اِذَا السَّـماءُ انْفَطَرَتْ، ثمّ وَيْلٌ لِلمُطَفِّفين قبل البقرة، ممّا نزل بالمدينة، ثمّ آل عمران قبل الأنفال، ثـمّ المائدة قبل الممتحنة.

ثمّ روى البَيْهَقيّ بإسناده عن مُجاهِد، عن ابن عَبّاس أنّه قال: إنّ أوّل ما أنزل الله على نبيّه من القرآن: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ الحديث. و هو مطابق لحديث عِكرِمة في التّرتيب، و قد ذكرت فيه السّور الّتي سقطت من حديث عِكرِمة فيما نزل بمكّة.

و فيه عن كتاب «النّاسخ و المنسوخ» لابن‌حَصّار أنّ المدنيّ باتّفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، و ما عدا ذلك مكّيّ باتّفاق، انتهى.

والّذي اتّفقوا عليه من المدنيّات البقرة و آل عمران والنّساء و المـائدة و الأنـفال والتّوبة و النّور و الأحزاب و سورة محمّد و الفتح و الحُـجُرات و الحـديد و المـجادِلة والحَشْر و المُمتحنة و المنافقون و الجُمُعة و الطّلاق و التّحريم و النّصر.

وما اختلفوا في مكّيّته و مدنيّته سورة الرَّعد و الرّحمن و الجنّ و الصّف و التّغابُن والمطفّفين و القدر و البيّنة و الزّلزال والتّوحيد و المعوّذتان.

وللعلم بمكّيّة السّور و مدنيّتها ثمّ ترتيب نزولها أثر هامّ في الأبحاث المتعلّقة بالدّعوة النّبويّه و سيرها الرّوحيّ و السّياسيّ والمدنيّ في زمنه ﷺ و تحليل سيرته الشّريفة، و الرّوايات ـ كماترى ـ لا تصلح أن تنهض حجّة معتمدًا عليها في إثبات شيء من ذلك، على أنّ فيما بينهما من التّعارض ما يسقطها عن الاعتبار.

فالطّريق المتعيّن لهذا الغرض هو التّدبّر في سياق الآيات، والاستمداد بما يتحصّل من القرائن و الأمارات الدّاخليّة و الخارجيّة، و على ذلك نجري في هذا الكتاب، و الله المستعان. **(١٣: ٢٣٣)**

و نصّه في كتابه: «القرآن في الإسلام»

ترتيب نزول السّور

لاشكّ أنّ السّور و الآيات القرآنيّة لم تثبت في القرآن على ترتيب نزولها على الرّسول ﷺ و علماء الإسلام الماضون، و خاصّة أهل السّنّة منهم، كانوا يعتمدون في ترتيب السُّور و الآيات على ما جاء في الأثر، و من جملة الآثار المذكورة بهذا الشّأن حديث مرويّ عن ابن عبّاس أنّه قال: إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة... **[ثمّ ذكر ترتيب السُّور حسب ما تقدّم عن صاحب المباني في الرّواية الثّانية]**

نظرة في الحديث و الأحاديث الأُخرى

يحدّد الحديث المنقول عن ابن عبّاس عدد السُّور القرآنيّة في (١١٣) سورة كما رأيت، و لم يذكر سورة الفاتحة من ضمنها.

و في حديث رواه البَيْهَقيّ عن عِكرِمة يحدّد عدد السُّور في (١١١) سورة، و لم يذكر فيه سورة الفاتحة و الأعراف و الشّورى، كما أنّه رَوى حديثًا آخر عن ابن عبّاس ذكر فيه (١١٤) سورة، إلاّ أنّ الرّوايتين اعتبرتا ـ أوّلاً ـ سورة المطفّفين من السُّور المدنيّة، بخلاف

الحديث السّابق الّذي ذكر سورة المطفّفين أنّها مكّيّة. اختلف ـ ثانيًا ـ ترتيب السّور فيها مع ما ذكرناه سابقًا.

وروي حديث آخر عن عليّ بن أبي طَلْحة يقول فيه: نزلت بالمدينة سورة البقرة وآل عمران... **[و ذكر كما تقدّم عن السُّيُوطيّ، ثمّ قال:]**

الظّاهر أنّ هذا الحديث يريد التّفرقة و التّمييز بين السّورة المكّيّة و المدنيّة من دون النّظر إلى ترتيب النّزول؛ لأنّ سورتي المائدة والتّوبة بلا شكّ تقعان في التّرتيب بعد ما هو مذكور بكثير، و قد عدّد سورة الفَجر و اللَّيل و القدر من السُّور المدنيّة، بينما الأحاديث السّابقة عدّتها من السّور المكّيّة، كما أنّه جعل سورة الرّعد و الرّحمن و الإنسان و الجُمُعة والحُجُرات مكّيّة، و هي مدنيّة في الأحاديث السّابقة.

وفي حديث عن قَتادة أنّه قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]**

هذاالحديث يخالف الأحاديث السّابقة و خاصّة ـ حديث آخر مرويّ عن قَتادة نفسه ـ في سورة المطفّفين و الإنسان وَلَمْ يَكُن.

والّذي يمكن أن يقال في هذه الأحاديث: إنّه لايمكن الإعتماد عليها بوجه من الوجوه؛لأنّه ليس لها قيمة الأحاديث الدّينيّة و لاقيمة النّقول التّاريخيّة. أمّا أنّهاليس لها قيمة الأحاديث الدّينيّة فلأنّها لم يتّصل سندها بالنّبيّ ﷺ، و لم يعلم أنّ ابن عبّاس مثلاً تعلّم التّرتيب من النّبيّ أو من إنسان آخر أو هو اجتهاديّ نظريّ. و أمّا من الوجهة التّاريخية فلأنّ ابن عبّاس مثلاً أدرك مدّة قصيرة من حياة الرّسول، فلم يكن معه دائمًا حتّى يشاهد كيفيّة نزول كلّ السّور و الآيات، فلو لم يكن اجتهد في هذا التّرتيب فلابدّ أنّه نقله من إنسان آخر لم نعلم شخصه، فهذا نقل تاريخيّ لم يذكر فيه المصدر، فليس له قيمة في سوق التّحقيق.

و على فرض صحّة هذه الأحاديث و استقامتها فهي من قبيل الخبر الواحد، و قد ثبت في أُصول الفقه أنّ الخبر الواحد غير حجّة في ما عدا الفقه.

فإذاً الطّريقة الوحيدة لمعرفة المكّيّ و المدنيّ هو التّدبّر في الآيات، و النّظر في مدى

موافقتها لما جَرى قبل الهجرة أو بعدها هذه الطّريقة مفيدة إلى حدّما للتّمييز بين المكّيّ والمدنيّ، فإنّ مضامين سورة الإنسان و العاديات و المطفّفين تشهد بأنّها مدنيّة بالرّغم من أنّها ذكرت في بعض الأحاديث على أنّها مكّيّة. (١٦٤ ـ ١٦٥)

كيف نزلت الآيات؟

لم تنزل سور القرآن و آياته دفعةً واحدةً. و بالإضافة إلى اتّضاح الموضوع من التّاريخ الّذي يشهد بالنّزول طيلة ثلاث و عشرين سنة، فإنّ الآيات نفسها شاهدة على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1]

و في القرآن النّاسخ و المنسوخ بلاشكّ، و فيه أيضًا آيات تدلّ على قصص و أحداث لايمكن جمعها في زمن واحد لنذهب إلى وحدة زمن النّزول.

و الآيات و السّور القرآنيّة لم تنزل قطعًا على التّرتيب الّذي نقرأه في القرآن اليوم، بأن تكون أوّلاً سورة الفاتحة ثمّ سورة البقرة ثمّ سورة آل عمران ثمّ سورة النّساء وهكذا؛لأنّه بالإضافة إلى الشّواهد التّاريخيّة على ذلك فإنّ مضامين الآيات نفسها تشهد عليه، لأنّ بعض السّور و الآيات لها مضامين تناسب أوائل زمن البعثة، و هي واقعة في أواخر القرآن كسورة العلق والنّون، و بعضها تناسب ما بعد الهجرة و أواخر عصر الرّسول، وهي واقعة في أوائل القرآن كسورة البقرة و آل عمران و النّساء و الأنفال و التّوبة.

إنّ اختلاف مضامين السّور و الآيات و ارتباطها الكامل بالأحداث و الحوادث الّتي وقعت طيله أيّام الدّعوة يفرض علينا القول بأنّ القرآن نزل في ثلاث و عشرين سنة عصر الدّعوة النّبويّة.

فمثلاً الآيات الّتي تدعو المشركين إلى الإسلام و نبذ عبادة الأوثان تناسب مع عصر قبل هجرة الرّسول من مكّة؛ حيث ابتلي الرّسول بالوثنيّين. و أمّا آيات القتال و آيات الأحكام فقد نزلت في المدينة المنورّة؛ حيث أخذ الإسلام ينتشر، و أصبحت المدينة تشكّل حكومة إسلاميّة كُبرى.

---

١ ـ الإسراء /١٠٦.

بعد البحث السّابق [أقسام الآيات و السّور القرآنيّة]

بناء على بحث السّابق تنقسم الآيات و السّور القرآنيّة إلى أقسام حسب اختلاف محل النّزول و زمانه و أسبابه و شروطه، و هي:

١ـ بعض السُّور و الآيات مكّيّة و بعضها مدنيّة، فإنّ مانزل قبل هجرة الرّسول من مكّة يعتبر مكّيًّا، وهو القسم الأكبر من السُّور و على الأخصّ السُّور القصيرة، و ما نزل بعد هجرة الرّسول يسمّى مدنيًّا، و لو كان نزولها خارج المدينة، و حتّى لو كان في مكّة نفسها.

٢ـ بعض السّور و الآيات نزلت في السّفر و بعضها في الحضر، و هكذا تنقسم إلى مانزل باللّيل أو النّهار، أو مانزل في الحرب أو في السّلم، أو مانزل في الأرض أو في السّماء، أو ما نزل بين النّاس أو في حال الانفراد. و سنبحث عن فائدة معرفة هذه الأقسام في فصل «أسباب النّزول».

٣ـ نزلت بعض السُّور مكرّرًا كما يقال في سورة الفاتحة؛ حيث نزلت في مكّة والمدينة، كما أنّ بعض الآيات نزلت مكرّرًا كآية: ﴿فَبِاَىِّ الاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ حيث تكرّرت في سورة الرّحمٰن ثلاثون مرّةً، و آية: ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَةً وَمَا كَانَ اَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَ اِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[١] حيث كرّرت في سورة الشّعراء ثمان مرّات. و قد تكرّرت بعض الآيات في أكثر من سورة واحدة كآية: ﴿وَ يَقُولُونَ مَتٰى هٰذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢] حيث كرّرت في ستّ سور مختلفة.

و هكذا نجد جملة خاصّة هي آية كامله في مكان و جزء آية في مكان آخر، نحو ﴿اَللهُ لاَ اِلٰهَ اِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾[٣]، فجعلت في أوّل سورة آل عمران آية كاملة، و في سورة البقرة جزء من آيةالكرسيّ. و لكن مع هذا كلّه أكثر السُّور والآيات نزلت مرّةً واحدةً فقط.

و علّة هذا الاختلاف هي اختلاف ما يقتضيه البيان، ففي موضع يقتضي تكرار الجملة للتّنبيه مثلاً، و في موضع لا يقتضي ذلك.

---

١ ـ الشُّعراء /١٣٩، ١٤٠.

٢ ـ يونس ٤٨، الأنبياء /٣٨، النّمل /٧١، سبأ /٢٩، يٰس /٤٨، الملك /٢٥.

٣ ـ البقرة /٢٥٥.

و يشبه هذا الاختلاف الاختلاف الموجود بين السّور و الآيات في الطّول و القصر، فإلى جانب سورة الكوثر أقصر السّور نجد سورة البقرة أطولها، كما نرىٰ آية «مُدْهَامَّتَانِ»أقصر آية إلى جانب آية الدّين ـ و هي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة ـ أطول آية في القرآن.

كلّ هذه الاختلافات لمقتضيات بيانيّة، و ربّما نجدها آيتين متّصلتين أيضًا، كالآيتين (٢٠) و (٢١) من سورة المدّثّر مثلاً، فإنّ الأُولى جملةً واحدةً، و الثّانية أكثر من خمس عشرة جملة.

و من وجوه الاختلاف أيضًا ما نجده عند المقارنة بين السُّور و الآيات في الإيجاز والإطناب، كما يتبيّن ذلك عند مقابلة أمثال سورة الفجر و سورة اللّيل بأمثال سورة البقرة والمائدة، و الغالب في السّور المكّيّة الإيجاز، كما أنّ الغالب في السّور المدنيّة الإطناب.

ومن هذا القبيل ما يقال بأنّ أوّل مانزل على الرّسول ﷺ هو سورة العلق أو خمس آيات الأُولى منها بالقياس إلى آخر مانزل عليه ﷺ و هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[1] (١٥١ ـ ١٥٤)

١ ـ البقرة /٢٨١.

الفصل العشرون

نصّ الخِضْريّ (معاصر) في «تاريخ التّشريع الإسلاميّ»

التّشريع في حياة رسول الله ﷺ الكتاب و السّنّة

الكتاب هوالقرآن و هو أجلّ من أن يعرف. أُنزل على محمّد ﷺ مُنجَّمًا من ليلة السّابع عشر من رمضان للسّنة الحادية و الأربعين من ميلاده حيث أُوحي إليه من غار حِـراء الّذي كان يتحنَّث فيه: أوّل آية و هي: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[1] إلى تاسع ذي الحجّة يوم الحجّ الأكبر للسّنة العاشرة من الهجرة و الثّالثة و السّتيّن من ميلاده، حيث أُوحي إليه بآخر آية و هي: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِينًا﴾[2] فالمّدة بين مبتدء التّنزيل و مختتمه اثنتان و عشرون سنة و شهران و اثنان و عشرون يومًا. [إلى أن قال:]

و عهد نزول القرآن ينقسم إلى مدّتين متمايزتين

الأُولى ـ مدّة مقامه ﷺ بمكّة، و هي اثنتا عشرة سنة و خمسة أشهر و ثلاثة عشر يومًا من ١٧ رمضان سنة ٤١ إلى أوّل ربيع الأوّل سنة ٥٤ من ميلاده، و مانزل من القرآن فيه يقال له المكّيّ.

الثّانية ـ ما بعد الهجرة و هي تسع سنوات و تسعة أيّام من أوّل ربيع الأوّل سنة ٥٤ إلى تاسع ذي الحجّة سنة ٦٣ من ميلاده و سنة عشر من الهجرة، و مانزل من القرآن فيها يقال له المدنيّ، و مكّيّ القرآن نحو ١٩/٣٠ منه، و مدنيُّه نحو ١١/٣٠ منه.

---

١ ـ العلق /١ ـ ٥.

٢ ـ المائدة /٣.

و السُّور المدنيّة هي:

(١)البقرة (٢)آل عمران (٣)النّساء (٤)المائدة (٥)الأنفال (٦)التّوبة (٧)النّور (٨)الأحزاب (٩)القتال (١٠)الفتح (١١)الحُجُرات (١٢)الحديد (١٣)المجادلة (١٤)الحشر (١٥) الممتحنة (١٦)الصّفّ (١٧)الجمعة (١٨)المنافقون (١٩) التّغابُن (٢٠)الطّلاق (٢١) التّحريم (٢٢)إذا جاء نصر الله. و ما عدا ما ذكر فهو مكّيّ.

و مجموع القرآن أربع عشرة و مائة سورة أوّلها الفاتحة و آخرها النّاس...

مميّزات المكّي و المدنيّ

قدّمنا أنّ لنزول القرآن مدّتين: ما قبل الهجرة، و ما بعدها، و لكلّ من المكيّ و المدنيّ مميّزات متى عرفها المتعلّم أمكنه التّمييز بينهما، منها:

أوّلاً ـ أنّ آيات المكيّ على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنيّة. و شاهد ذلك أنّ السّور المدنيّة تزيد قليلاً على $\frac{11}{30}$ من القرآن، و عدد آياتها ١٤٥٦ أي أنّها تزيد قليلاً على ربع مجموع آياته. ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزءُ (قد سمع) كلّه مدنيّ و عدد آياته ١٣٧، و جزءُ (تبارك) مكّيّ و عدد آياته ٤٣١، و جزءُ (عمّ) مكّيّ و عدد آياته ٥٧٠.

و من ذلك الأنفال و الشّعراءُ كلتاهما نصف جزء من القرآن لكنّ الأُولى المدنيّة عدد آياتها ٧٥، و الثّانية المكّيّة عدد آياتها ٢٢٧. وهذاالمميّز أغلبيّ، فقد يوجد في بعض الآيات المكّيّة طول و أكثره في السّور الطّوال.

ثانيًا ـ خطاب الجمهور في الآيات المدنيّة يغلب أن يكون بقوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ و قلّما يرد بقوله ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾، و أمّا خطابه في الآيات المكّيّة فبالعكس، و لمنر في السّور المكّيّة ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ أمّا في السّور المدنيّة فورد ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ سبع مرّات ١ـ ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ٢ـ ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْاَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ كلتاهما بالبقرة. ٣ـ ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ٤ـ ﴿اِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم اَيُّهَا النَّاسُ﴾ ٥ـ ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ٦ـ ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بالنّساء ٧ـ ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ اُنْثىٰ﴾: بالحُجُرات.

ثالثًا ـ آيات المكيّ ليس فيها شيءٌ من التّشريع التّفصيليّ، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى المقصد الأوّل من الدّين و هو توحيد الله سبحانه و تعالى و إقامه البراهين على

وجوده و التّحذير من عذابه ووصف يوم الدّين و أهواله و نعيمه و الحَثّ على مكارم الأخلاق الّتي بعث رسول الله ﷺ ليكمّلها ثمّ ضرب الأمثال بما أصاب الأُمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها.

أمّا التّشريع التّفصيليّ فمعظمه وارد في الآيات المدنيّة. و القرآن الكريم ينتظم في ثلاثة أُمور:

الأوّل ـ ما يتعلّق بالإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر. وهذا مباحث علم الكلام أو أُصول الدّين.

الثّاني ـ ما يتعلّق بأفعال القلوب و الملكات من الحَثّ على مكارم الأخلاق و هذه مباحث علم الأخلاق.

الثّالث ـ ما يتعلّق بأفعال الجوارح من الأوامر و النّواهي و التّخييرات و هذه مباحث الفقهاء.

أساس التّشريع الإسلاميّ في القرآن

أعلن القرآن أنّه إنّما أُنزل لإصلاح أحوال النّاس و لذلك وردت الأوامر و النّواهي ﴿يَاْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهٰـهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[1].

و قد رُوعي في التّشريع ثلاثة أساس:

الأوّل ـ عدم الحرج. **الثّاني** ـ تقليل التّكاليف. **الثّالث** ـ التّدريج في التّشريع.

عدم الحرج

الحرج في لغة العرب الضّيق. و الأدلّة على أنّ هذه الشّريعة مؤسّسة على رفع الحرج كثيرة كقوله تعالى في وصف الرّسول ﷺ: ﴿وَ يَضَعُ عَنْهُمْ اِصْرَهُمْ وَالْاَغْلَالَ الَّتى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[2]. وقوله فيما علّمنا أن ندعوه به: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا اِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا* رَبَّنَا وَ لاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[3] و في الحديث: قال الله تعالى «قد فعلت» و

١ ـ الأعراف /١٥٧.
٢ ـ الأعراف /١٥٧.
٣ ـ البقرة /٢٨٦.

كقوله تعالى: ﴿لاَيُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَا﴾[١] و قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَيُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣] و قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ اَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الاِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾[٤] وقوله ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥] و في الحديث «بعثت بالحنيفيّة السّمحة» و في شمائلهﷺ «ما خيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا» إلى غير ذلك من الآيات و الأحاديث. و قد عدّه الفقهاءُ أصلاً من الأُصول الّتي اعتبرها الشّارع و استنبطوا به أحكامًا كثيرة و هو من الأُصول المقطوع بها. و من أجله شُرِّعت الرُّخَص كالفطر للمسافر، و إباحة ما حرم عند الضّرورة و التّيمّم.

تقليل التّكاليف

هو نتيجة لازمة لعدم الحرج، لأنّ في كثرة التّكاليف إحراجا. والّذي يشتغل بالقرآن ليرى مافيه من الأوامر و النّواهي يقتنع بصحّة هذا الأصل إذ يراها قليلة يمكن العلم بها فى قليل من الزّمن و يسهل العمل بها و ليست كثيرة التّفاصيل حتّى لا ينشأ من كثرتها إخراج الّذين يريدون الاعتصام بكتاب الله المتين. و ممّا يدلّ على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاَ تَسْئَلُوا عَنْ اَشْيَاءَ اِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ اِنْ تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْاٰنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَاَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ اَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾[٦] و هذه المسائل الّتي نهوا عنها أشياء عفا الله عنها أي سكت عن تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها و لولم يسألوا عنها لكانت عفوًا متروكًا لهم الخيار في فعلها أو الكفّ عنها، و من ذلك قوله عليه السّلام و قد سئل عن الحجّ: أفي كلّ عامٍ؟ فقال: «لو قلت نعم لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك مَن كان قبلكم بكثرة مسائلهم و اختلافهم على أنبيائهم» و يدلّ على هذا التّأويل قولهﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيءٍ لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته» و قولهﷺ: «إنّ الله فرض فرائض فلا تضيعوها و حَدّ حدودًا فلا تعتدوها و حرّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت

١ ـ البقرة /٢٨٦.
٢ ـ البقرة /١٨٥.
٣ ـ الحج /٧٨.
٤ ـ النّساء /٢٨.
٥ ـ المائدة /٦.
٦ ـ المائدة /١٠١ ـ ١٠٢.

عن أشياء رحمةً لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها».

التّدريج في التّشريع

جاء النّبيّ ﷺ والعرب قد استحكمت فيهم عادات منها ما هو صالح للبقاء و لاضرر منه على تكوين الأمّة، و منها ما هو ضارّ يريد الشّارع إبعادهم عنه. فاقتضت حكمته أن يتدرّج بهم شيئًا فشيئًا لبيان حكمه و إكمال دينه. و المتأمّل لايرى في الآخر إبطالاً للأوّل و يظهر ذلك من المثال الآتي: سئل رسول الله ﷺ عن الخمر و الميسر و هما من العادات المستحكمة عندهم، فأجابهم بلسان القرآن في سورة البقرة ﴿فِيهِمَا اِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ اِثْمُهُمَا اَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[1] ولم يصرّح بطلب الكفّ عنهما و إن كان يفهمه من هذه الآية، فقيه النّفس العالم بسرّ التّشريع، لأنّ ما كثر إثمه حرم فعله، إذ لايوجد فى الأفعال ما هو شرّ محض، فالمدار في التّحليل غلبة الخير على الشّر، ثمّ صرّح بنهيهم عن الصّلاة و هم سكارىٰ حتّى يعلموا ما يقولون فقال الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاتَقْرَبُوا الصَّلٰوةَ وَاَنْتُمْ سُكَارىٰ حَتّٰى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[2]، و ليس في هذا النّهى إبطال للأوّل بل هو مؤكّد له. ثمّ قال مصرّحًا بالنّهي بتًّا للحكم فقال الله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْاَنْصَابُ وَ الْاَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ـ إلى أن قال: ـ فَهَلْ اَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[3].

و على أصل التّدريج في التّشريع وجد أصل آخر و هو الإجمال ثمّ التّفصيل، و يرى هذا واضحًا من المقارنة بين التّشريع المكّيّ والمدنيّ فالتّشريع المكّيّ مجمل قلّما يتعرّض القرآن فيه لأحكام تفصيليّة. أمّا التّشريع المدنيّ فقد تعرّض القرآن فيه لكثير من التّفصيلات التّشريعيّة بالنّسبة للمكّيّ، و لا سيّما فيما يتعلّق بالمعاملات المدنيّة، و لذلك نرى أنّ معظم الآيات الّتي تستنبط منها الأحكام مدنيّة، و ليس في المكّيّ إلاّ الأحكام الّتي تحمى العقيدة كتحريم مالم يذكر عليه اسم الله من الذّبائح. (ص: ۷ ـ ۱۹)

---

۱ ـ البقرة /۲۱۹.
۲ ـ النّساء /۴۳.
۳ ـ المائدة /۹۰ ـ ۹۱.

الفصل الحادي و العشرون

نصّ الأُشَيْقِرْ (معاصر) في «لَمحات من تاريخ القرآن»

القرآن المكّيّ و القرآن المدنيّ

لاشكّ و أنّه لم يقتصر نزول القرآن الكريم على مكان واحد و لابلد واحد، فهناك آيات نزلت في مكّة المكرّمة و أُخرى نزلت في المدينة، و غيرها هبطت في الجُحفة والطّائف و الحُدَيْبيّةو خُم و غيرها من الأماكن.

و في سبيل دراسة و فهم و شرح هذه الآيات للنّاس و تلمّس أمكنة نزولها و أسبابها و أغراضها، و تاريخ الحوادث الّتي عرض لها القرآن وضعت، أو بقول آخر وجدت هناك قواعد و ضوابط مختلفة تشبه تلك الّتي نجدها في اللّغة العربيّة، ودعت إلى تقسيم الجُمل والأفعال إلى عدّة أقسام، أو تلك الّتي نراها في عالم الكيمياء، ودعت لتقسيم المعادن إلى فلزّات و غير فلزّات (لافلزّات)، و الموادّ إلى صلبة وسائلة و غازية.

و كلّ هذه التّقسيمات الآنفة و غيرها إنّما وجدت من أجل سهوله دراستها و تفهّمها و بأقلّ ما يمكن من العناء و الجهد.

و هكذا الحال في آيات القرآن الكريم حَذْوَ القِذّة بالقِذّة، حيث وجدت فيه آيات مكّيّة و مدنيّة و ناسخ و منسوخ و محكم و متشابه و مطلق و مقيّد و عامّ و خاصّ الخ، سنشير إلى بعضها في هذا الفصل و الفصول التّالية.

فيلزم والحالة هذه على المفسّر للقرآن أو الشّارح له و الخائض فيه أن يلمّ بكلّ هذه الأُمور و الأحوال بتقسيماتها و تشعّباتها و فروعها، و يستوعبها عن كثب، و يفهم أغراضها و مقاصدها قبل أن يشرع في كتابته عن القرآن، أو أن يبدأ في تدوين شيء عنه.

إنّ عدم التّقيّد حرفيًّا بكلّ هذا سيؤدّي بالمرء لأن ينحرف عن الحقيقة، و يخبط في

الأحكام خبط عشواء، و سيوقعه في التّناقضات والبعد عن الحقّ والصّواب. و كمثل بسيط على هذا الانحراف و الشّطط و البعد عن الحقّ و الواقع و خلط الآيات المكّيّة في المدنيّة ـ قَبل أن نأتي على تفاصيلها ـ هو قول من يقول بنسبة هذه الآية و هي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ اٰمَنُوا اَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا اُولِى قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُمْ اَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

أجل، نسبة و إلصاق هذه الآية من سورة التّوبة، والّتي هي سورة المدنيّة نزلت في السّنة الثّامنة من الهجرة، تعدّ من أواخر مانزل من القرآن ـ كما مرّ سابقًا[2] ـ نسبتها إلى أبي طالب ـ عمّ الرّسول ﷺ، و ادّعاه أنّها نزلت حال وفاته و استغفار الرّسول نفسه له.

و سنعرف الآن مدىٰ بُعد هذه النّسبة و هذا الزّعم عن الحقيقة إذا ما علّمنا بأنّ وفاة أبي طالب كانت قبل الهجرة بثلاث سنوات أو أكثر، و أنّ بين وفاته و بين نزول هذه الآية أكثر من إحدىٰ عشرة سنة.

هذا بالإضافة إلى الدّلائل القاطعة الّتي تشير إلى إيمان أبي طالب، و أنّه قد تظاهر بوجه قُريش بعدم إسلامه كمؤمن آل فرعون، و ذلك لحكمة بالغة، و هي المحافظة على الرّسول و عدم السّماح للقُرشيّين بالقضاء عليه و على الدّعوة الجديدة النّامية.

و مصداق كلّ ذلك تجلّى واضحًا بعد وفاته؛ حيث بات موقف الرّسول ﷺ و أصحابه قلقًا و ضعيفًا، ممّا دعاه للتّفكير بالهجرة إلى المدينة بعد أن مات في مكّة النّاصر له ﷺ والمعين الممثّل في عمّه أبي طالب رحمه الله.

ولذا و لكلّ مامرّ من كلام و بيان حرص أقطاب أهل البيت و الصّحابة و التّابعين والفقهاء على دراسة موضوعيّة، و كشف أوجه التّمييز و الفروق بين المكّيّ من الآيات والمدنيّ، و النّاسخ منها و المنسوخ، و المحكم من المتشابه الخ...، فضلاً عن تلمّس أسباب النّزول و خصائص و مميّزات كلّ منها.

وكلّ هذا العمل و السّعي هو لأجل إلمام واستيعاب عموم المسلمين للآيات

---

١ ـ التّوبة /١١٣.

٢ ـ راجع باب «أوّل ما نزل و آخر مانزل» في هذا الكتاب، الفصل الثّالث و الثّلاثون.

الكريمة، و حتّى لايقعوا في الأخطاء و التّناقضات، كتلك الّتي وجدناها في قصّة أبي طالب أو في غيرها من الأحكام.

قلنا: في مطلع هذا الفصل بأنّ آيات القرآن لم تنزل كلّها في مكّة أو في المدينة المنوّرة، بل نزلت أيضًا في أماكن أُخرى، و أنّ أوّل ما نزل من القرآن و آخر مانزل منه نزلا في خارج مكّة و المدينة في حراء و غدير خمّ على التّوالي.

و إذا كانت كافّة الآيات الكريمة لم تنزل في مكّة أو في المدينة فلا يمكن هنا تجاهل الحقيقة والواقع، و هو أنّ الغالبيّة العظمى منها نزلت فيهما.

كما و لايمكن بعد ذلك تناسيّ أو تجاهل وجود حدث دُوَليّ هامّ، و لحظة حاسمة وخطيرة، و نقطة تحوّل هامّة يقف فاصلاً بين عهدَين و وضعَين، هما وضع حالة و طبيعة عمل الرّسولﷺ و أصحابه، و أُسلوب الدّعوة في مكّة المكرّمة و في المدينة المنوّرة، ألا و هي الهجرة النّبويّة الشّريفة[1] الّتي هي في الواقع و الحقيقة أهمّ يوم في حياة الرّسولﷺ و في تاريخ الإسلام أيضًا.

فقد كان الرّسول والمسلمون قبل الهجرة في كنف عدوّ جبّار لايرحم و لاتَلين له قناة يتربّص بهم الدّوائر، و يحصي عليهم أنفاسهم، و لا يملك المسلمون إزاءه إلاّ المسالمة والاختفاء و التّرقّب و انتظار الفرج...

ولكن بعد الهجرة المباركة اتّسع مجال الدّعوة، و لاح في الأُفق الأمل و الرّجاء وأصبح المسلمون في المدينة هم أسياد الموقف عن طريق تضاعف أنصارهم و أشياعهم، وأخذوا في العمل لبناء الدّولة الجديدة و تثبيت أركانها و دعائمها.

وقد تدرّجوا في التّقدّم و التّضامن و القوّة، حتّى أصبحوا في موضع و درجة لم يجد المكّيّون بدًّا إزائه إلاّ الخضوع له و تسليم مفاتيح بلدهم و هم صاغرون.

لكلّ هذا كان أمرًا طبيعيًّا أن تتجاوب الآيات المنزلة على الرّسولﷺ، و تتّفق مع سير هذه الأحداث و تطوّرها من مكّة إلى المدينة المنوّرة.

---

١ ـ أحببنا في هذا الموضع الإشارة إلى سبب اتّخاذ المسلمين للهجرة النّبويّه دون المولد أو المبعث أو غير ذلك تاريخًا لهم و ابتدأوا من عنده... [و لا موضوع صِلة و إن شئت فراجع]

فما ينزل في الأُولى ـ مكّة ـ و حالة المسلمين يرثى لها، و الدّعـوة لا تـزال فـي منطلقها و بدايتها يختلف عن الآيات المنزلة في الثّانية، حيث تنفّس المسـلمون فـيها الصّعداء، و أخذوا في بناء أُمّة و بعث دولة ستمتدّ حدودها في بحر سنين معدودة إلى كلّ ما كان معروفًا من المعمورة، فيرتفع للإسلام علم في أقصى الشّرق، وعلم في أقصى الغرب.

ومن خلال كلّ هذا أمكن دراسة كافّة الآيات المنزلة و أغـراضـها، فأمكـن لذلك تصنيف و ترتيب هذه الآيات إلى نوعين و شكلين، دعي أحدهما المكّيّ، بينما سـمّي الآخر بالمدنيّ، كما أمكن تبيان خصائص كلّ منهما و ميزاته، و سيرد ذكرهما بعد قليل وبشيء من الإسهاب.

هذا و أنّ سبب تسمية الآيات بالمكّيّة و المدنيّة و تحديدها الدّقيق لم يتّفق عليه بين جموع الفقهاء و المؤرّخين، بل تشعّبت و افترقت إلى اتّجاهات ثلاثة، و إن كان الرّأي والقول الأوّل هو المفضّل و المعمول به بين غالبيّة هؤلاء الفقهاء و المؤرّخين السّاحقة.

أمّا هذه الاتّجاهات الثّلاثة في سبب و علّة تسمية الآيات بالمكّيّة و المدنيّة فهي ما نشير إليها أدناه و على التّوالي:

١ـ إنّ المشهور بين النّاس و المتعارف ما بينهم هو أنّ المكّيّ مانزل قـبل الهـجرة المباركة، سواء نزل في مكّة أو في خارج مكّة، و هي المدّة التّي امتدّت إلى(١٣) سـنة كاملة أو (١٢) سنة و (٥) أشهر و (١٣) يومًا على وجه الحصر، و تكوّن الآيات المكّيّة ٦٣٪ من القرآن.

وإنّ المدنيّ من القرآن هو مانزل بعدها بعد الهجرة، سواء نزل في المدينه ذاتـها أو مكّة أو الجُفة أو غدير خمّ، و تساوي ٣٧٪ من القرآن، و هو مجموع (٢٣) سورة.

و على هذا القول ـ كما نوّهنا آنفًا ـ تسير الغالبيّة من المسلمين و به نأخذ، و هـو المعوّل عليه في مطالع السّور في كافّة المصاحف الموجودة في أيـدي المسـلمين مـن أنّهاسورة مكّيّة أو مدنيّة، فالسّورة المكّيّة إذا نزل أوّلها في مكّة قبل الهجرة و إن تخلّلتها آيات مدنيّة، والمدنيّة إذا نزل أوّلها بعد الهجرة بالمدينة و إن تخلّلتها آيات مكّيّة.

٢ـ وقيل: إنّ المكّيّ مانزل بمكّة و ضواحيها و لو بعد الهجرة، أمّا المدنيّ من القرآن

فهو مانزل بالمدينة و أطرافها، و أمّا نزل بين المدينتين فينسب إلى أقربهما مسافة.

٣ـ وقيل أخيرًا: إنّالمكّيّ هو ماجاء لأهل مكّة، بينما المدنيّ ماوقع خطابًا لأهل المدينة، و هذا قول ضعيف؛ لأنّ آياتالقرآن غير متخصّصة لسُكّان مدينة خاصّة ليصحّ هذا التّمييز.

هذا وبعد أنّ عرفنا آنفًا سبب و علّة تقسيم الآيات إلى مكّيّة و مدنيّة، و المعيار الّذي يؤخذ به و يعمل في هذا التّقسيم، علينا الآن أن ننتقل إلى الموضوع الآخر، و هو بيان خصائص و ميزات كلّ من هذه الآيات، و أوجه الفرق بين كلّ من الآيات المكّيّة و المدنيّة فيما إذا كان هناك فروق تذكر.

قيل: في هذا الصّدد: إنّ الفروق و المميّزات بين الآيات المكّيّة و المدنيّة هي ما يلي:

١ـ إنّ النّاظر إلى الآيات المكّيّة يراها بصورة عامّة قصار الحجم، و ذات حرارة في التّعبير، و تجانس في الصّوت بالتزامها بنغمات موسيقيّة معيّنة، بخلاف الآيات المدنيّة الّتي تكون عمومًا طويلة، و ذات أُسلوب تشريعيّ هادىء.

ودليل القصر و الطّول هو أنّ السُّور المدنيّة الّتي تزيد على ٣٧٪ من القرآن بقليل يبلغ مجموع آياتها (١٤٥٦) آية، أي أقلّ من ربع القرآن[١]، و هذه الميزة هي الغالبة في هذه الآيات و إن كان لها شذوذ و استثناءات قليلة.

٢ـ إنّ خطاب الله سبحانه للجمهور في الآيات المدنيّة يغلب عليه قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾، و هذا وضع طبيعيّ إذا ما علمنا بأنّ غالبيّة النّاس في البيئة الحجازيّة في العهد المدنيّ قد تحوّلت إلى الإسلام أو هي في الطّريق إليه.

أمّا السّور المكّيّة فلا نشاهد فيها قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾، بل تطالعنا عوضها قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾. و كلّما ورد في الآيات المدنيّة من قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ لا يتجاوز السّبعة مرّات فقط.

و سبب ورود ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ في الآيات المكّيّة هو أنّ عدد المسلمين في العهد المكّي كان يعدّ على الأصابع، و لمّا كانت الآيات تهبط لتخاطب الأكثريّة وهم الكفّار

١ ـ تاريخ التّشريع الإسلاميّ ـ الشّيخ محمّد الخِضْريّ.

لتمهّد لهم طريق الايمان و الإسلام، كان أمرًا طبيعيًّا أن تخاطبهم بلفظ النّاس، و هذا اللّفظ يستوعب الكفّار، كما يستوعب و يسع في نفس الوقت المسلمين في المخاطبة.

٣ـ ليس في معظم الآيات المكّيّة آية تفصيلات للتّشريعات والقوانين، بل هي تدعو دَوْمًا للتّمسّك بالأخلاق الكريمة، و الاستقامة على الخير و نبذ عبادة الأوثان، ثمّ الإيمان بالبعث بعد الموت و الحساب في يوم الجزاء، بسبب أنّ الإسلام لم يزل حينئذ غضًّا طريًّا، و أنّ الحاجة المُلِحَّة كانت تدعو أوّلاً لتصحيح الاعتقاد عن طريق انتزاع عقيدة الشّرك، و تثبيت عقيدة التّوحيد، و إقامة مختلف الأدلّة و البراهين على إثباتها، فضلاً عن تحذير العصاة والكافرين بعذاب أليم و عقاب جسيم عند الموت.

أمّا التّشريع التّفصيليّ كالمعاملات والقوانين الاجتماعيّة و الدُّوَليّة و الحدود والفرائض و تفاصيها فتحفل بها الآيات المدنيّة، بسبب أنّ سلطان الإسلام قد استتبّ على أطراف البلاد، كما و أخذت أنواره و أشعتّه تتّجه إلى خارج الجزيرة العربيّة، و هذا يتطلّب بيان الأحكام التّفصيليّة في تنظيم المجتمع، و تسيير دفّته إلى شاطىء السّلامة، فضلاً عن كشف أنواع الرّوابط الّتي تنظم العائلة و الفرد.

و من عَبَر كلّ هذا يمكن أن يقال بأنّ الآيات المكّيّة عالجت شؤون الدّعوة بوصفها تعبيرًا عن عقيدة، بينما الآيات المدنيّة عالجتها بوصفها تعبيرًا عن عقيدة مجسّدة في دولة و مجتمع.

هذا و ليس كلّ ما ذكرناه آنفًا هي كلّ الخصائص و المعايير و الفوارق القائمة بين المكّيّ من الآيات و المدنيّ منها، بل سعى القُرّاء و المفسّرون في البحث عن معايير أُخرى في الآيات الكريمة يمكن تمييز المكّيّ منها عن المدنيّ.

و قد أمكن لهم بعد حين من إحصاء و استخراج الفروق الأُخرى التّالية، و هي: ... [و ذكر كما تقدّم نحوه عن الزُّرقانيّ في بحثه: «الضّوابط الّتي يعرف به المكّى و المدنيّ»].

(ص ١١١ ـ ١١٩)

الفصل الثّاني والعشرون

نصّ الدّكتور صُبحي الصّالح (م: ١٤٠٧) في: «مباحث في علوم القرآن»

علم المكّي و المدنيّ

أمّا العلم بالمكّيّ و المدنيّ فلا غنى له عن تناول القرآن كلّه سورًا و آيـات، فكـلّ سورة فيه إمّا مكّيّة أو مدنيّة، و قد تستثنى من السّورة المكّيّة آيات مدنيّة، ومن السّورة المدنيّة آيات مكّيّة، كما أنّ كلّ آية في القرآن معروفة الهويّة واضحة السّيرة، فإذا اختلطت بغير زمرتها أخضعها العلماء الثّقات لمقاييسهم النّقديّة الدّقـيقة حـتّى قـطعوا أو كـادوا يقطعون بأنّها تنتمي إلى النّوازل المكّيّة أو المدنيّة.

كان العلم بالمكّيّ و المدنيّ إذن خليقًا بالعناية البالغة الّتي أُحيط بها، و جديرًا أن يعدّ بحقّ منطلق العلماء لا ستيفاء البحث في مراحل الدّعـوة الإسـلاميّة، و التّـعرّف عـلى خطواتها الحكيمة المتدرّجة مع الأحداث و الظّروف، و التّطلّع إلى مدىٰ تجاوبها مع البيئة العربيّة في مكّة و المدينة، و في البادية و الحاضرة، و الوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين و المشركين و أهل الكتاب. و وفاء هذا العلم بتلك المعارف الواسـعة جعل بحوثه أشتاتًا و ألوانًا، فهو في آن واحد ترتيب زمانيّ، و تحديد مكانيّ، و تبويب موضوعيّ، و تعيين شخصيّ. و يخيّل إلينا أنّ هذه الألوان المتباينة جـميعًا قـد طـافت بأذهان العلماء حين تردّدوا في تقسيم المكّيّ و المدنيّ على أساس من المكان أو الزّمان أو الأشخاص. فمن قال: المكّيّ ما نزل بمكّة ولو بعد الهجرة، و المدنيّ ما نزل بالمدينة، لاحظ المكان، و من قال: المكّيّ ما وقع خطابًا لأهل مكّة، و المدنيّ ما وقع خطابًا لأهل المدينة، راعىٰ أشخاص المخاطبين، و من آثر الأخذ بالاصطلاح المشهور: المكّيّ ما نزل قبل هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة، و إن كان نزوله بغير مكّة، و المدنيّ مانزل بعد هـذه

الهجرة و إن كان نزوله بمكّة، عُني بالتّرتيب الزّمنيّ في مراحل الدّعوة الإسلاميّة. و نحن إذ نأخذ بهذا التّعريف الأخير لانكتم القارئ ما نلمحه من تحقّق عناصر الزّمان و المكان والأشخاص في الاصطلاحات الثّلاثة على السّواء[١]، بل نلمح فيها أيضًا عنصرًا رابعًا لا يخفى على ذي بصر، و هو عنصر الموضوع.

هذه سورة (الممتحنة) من مطلعها إلى ختامها[٢] نزلت بالمدينة إذا لاحظنا المكان، وكان نزولها بعد الهجرة إذا اعتبرنا الزّمان، ووقعت خطابًا لأهل مكّة إذا أردنا الأشخاص، واشتملت على توجيه اجتماعيّ محّص قلوب المؤمنين إذا رغبنا بمعرفته موضوعها. لذلك أدرجها العلماء في باب مانزل بالمدينة و حكمه مكّيّ»[٣].

و ذلك قوله تعالى: **﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ اُنْثىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**[٤]، نزل بمكّة إذا التمسنا المكان، و يوم الفتح بعد الهجرة إن تحرّينا الزّمان، والغاية منه الدّعوة إلى التّعارف و تذكير الإنسانيّة بوحدة أصلها إن عَنَيْنا الموضوع، وهو ـ إن راعينا الأشخاص ـ خطاب لأهل مكّة و المدينة على السّواء، فما سمّاه العلماء مكّيًّا على الإطلاق، ولا مدنيًّا على التّعيين، بل أدرجوه في باب «مانزل بمكّة و حكمه مدنيّ»[٥].

على أنّنا لم نتردّد في تفضيل التّقسيم الزّمنيّ للمكّيّ و المدنيّ؛ لأنّنا نواجه موضوعًا وثيق الصّلة بالتّاريخ، فليس لنا أن نختار في مثله التّبويب المكانيّ ما دمنا نرمي إلى تحديد مانزل بمكّة أو بالمدينة ابتداءً و وسطًا و ختامًا، فإنّ هذه الأطوار المتعاقبة تفرض أن يكون اختيار التّرتيب الزّمنيّ أمرًا بديهيًّا لامجال لتّردّد فيه. أمّا تعيين الأشخاص واستخراج الموضوعات فأمران ثانويّان يقعان موقعهما المناسب من التّرتيب الزّمنيّ المترادف ترادف الوقائع و الأحداث.

وبهذا المنهج التّاريخيّ الزّمنيّ الّذي لا يتغاضى عن الآفاق النّفسيّة و الأطوار الاجتماعيّة، و لا يتجاهل أثر البيئة في الحياةو الأحياء، أخذ المحقّقون من علمائنا،

---

١ ـ انظر هذه الاصطلاحات الثّلاثة في البُرهان ١: ١٨٧ و الإتقان ١: ١٣ ـ ١٤.

٢ ـ انظر تفصيل قصّتها في سيرة الرّسول لابن هِشام: ١٦ ـ١٧ و قد نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعَة حين دفع كتابه إلى قُريش يخبرها بمسير النّبي إلى مكّة.

٣ ـ البرهان ١: ١٩٥.

٤ ـ الحُجُرات /١٣.

٥ ـ البُرهان ١: ١٩٥.

وشدّدوا في مأخذهم به حتّى منعوا الجاهل بمراحل الدّعوة الإسلاميّة أن يتصدّى لكتاب الله مفسّرًا لآياته أو خائضًا فيه... [ثمّ ذكر قول النّيسابوريّ كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال].

و يعنينا من قول أبي القاسم النّيسابوريّ هنا أنّه التفت التفاتةً صريحة إلى تقسيم القرآن كلّه ستّ مراحل زمنيّة: ثلاث في مكّة بداية و توسّطًا و ختامًا، و ثلاث بعدها في المدينة بداية و توسّطًا و ختامًا. فما جنح إليه بعض المستشرقين من ترتيب القرآن على أسباب النّزول، وتقسيمه إلى مراحل ستّ أو أربع[1] ـ كما سنرى بعد قليل ـ لاضرر فيه لذاته؛ إذ أباح الخوض في مثله علماؤنا الأعلام، و إنّما يتجسّد الضّرر فيه حين يتجافى هذا التّرتيب عن الرّوايات الصّحيحة، و يأخذ بالرّأي المرتجل الفطير.

ولو أتممنا عبارة أبي القاسم النّيسابوريّ لألفيناه فيها ـ بعد التزامه المنهج التّاريخيّ الزّمنيّ ـ لا يلبث أن يلحق بهذا المنهج نفسه جزئيّات تبدو في نظرنا صغيرة يسيرة، ولكنّها في نظره هامّة جليلة؛ إذ يجعل العلم بها فريضة على كلّ من يعني بتفسير كتاب الله المجيد، فعلى المفسّر المحقّق أن يعرف كذلك ما نزل بمكّة في أهل المدينة، و ما نزل بالمدينة في أهل مكّة، ثمّ ما يشبه نزول المكّيّ في المدنيّ، و ما يشبه نزول المدنيّ في المكّيّ، ثمّ ما نزل بالجُحْفة[2]، و ما نزل ببيت المَقْدِس، و ما نزل بالطّائف، و ما نزل بالحُدَيبيّة، ثمّ ما نزل ليلاً، وما نزل نهارًا، و ما نزل مشيّعًا، و ما نزل مفردًا، ثمّ الآيات المدنيّات في السّور المكّية، و الآيات المكّية في السّور المدنيّة، ثمّ ما حُمل من مكّة إلى المدينة، و ما حُمل من المدينة إلى مكّة، و ما حُمل من المدينة إلى أرض الحَبَشة، ثمّ ما نزل مجملاً، و ما نزل مفسّرًا، و ما نزل مرموزًا، ثمّ ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مكّي، و بعضهم مدنيّ، **هذه خمسة و عشرون وجهًا من لم يعرفها و يميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله تعالى**[3].

---

١ ـ نشير بهذا إلى محاولة مُوير ترتيب القرآن إلى ستّ مراحل: خمس في مكّة و السّادسة في المدينة، و محاولة ويل الّتي قسّم بها القرآن أربع مراحل: ثلاث في مكّة و الرّابعة في المدينة، و أخذ بها كلّ من نُولدْكِه و شفالي و بل ورود ويل، و بلاشير، و سنفصّل أمر هذه المراحل في هذا البحث نفسه.

٢ ـ الجُحْفة: قرية على طريق المدينة، من مكّة على أربع مراحل.

٣ ـ البرهان ١: ١٩٢.

و نحن نعترف بأنّه ليس في وسعنا أن نعرض هنا تفصيلاً لتلك الملابسات كافّة، فإنّ بحث كلّ منها على حدة يستغرق مجلّدًا بأكمله، وهيهات له أن يكون وافيًا بالمقصود، شافيًا للغليل، فحسبنا ـ للدّلالة على ماعاناه العلماء في تتبّع مراحل الوحي ـ أن نشير إجمالاً إلى بعض الرّوايات الّتي لم يكتف أصحابها بوصف مانزل في مكّة أو في المدينة، قبل الهجرة أو بعدها، بل بلغت عنايتهم بهذا الكتاب الكريم أقصى ما يبلغه الباحثون من التّحرّي و التّدقيق، فلم يَفُتْهُم ذكر أبسط التّفصيلات و أصغر الجزئيّات.

لاحظوا مثلاً بصورة عامّة أنّ أكثر القرآن نزل نهارًا، ثمّ استرعىٰ انتباههم أنّ هذه القاعدة لم تُتَّبَع في بعض الحالات الجزئيّة، فسورة مريم أُنزلت ليلاً ؛ روى الطّبرانيّ عن أبي مريم الغَسَّانيّ، قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: وُلِدت لي اللّيلة جارية، فقال: «واللّيلة **أُنزلت عليّ سورة مريم، سمّها مريم**[1]». و **أوّل سورة الفتح نزل ليلاً، ففي البخاريّ من حديث عمر: «لقد نزلت عليّ اللّيلة سورة هي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشّمس»، فقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾** الحديث[2]. و أوّل سورة الحجّ: **﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾**[3] نزل ليلاً في غزوة بني المصطلق، وهم حيٌّ من خزاعة، والنّاس يسيرون[4].

و يوشك أحدنا ـ إذا جعل الرّوايات الصّحيحة عُمدتَه ـ أن يستحضر النّازل القرآنيّ في أيّ جزء من اللّيل كان، في وسطه أم أوّله أم آخره، و إنّي لأتمثّل هذه اللّحظة رسولالله ﷺ في الرّكعة الأخيرة من صلاة الصّبح حين نزل عليه ـ كما في الصّحيح ـ قوله تعالى: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْاَمْرِ شَيْءٌ﴾**[5].

ثمّ أتمثّله صلوات الله عليه في خيمة من أدَم، و قد بات نفرٌ من أصحابه على باب الخيمة يحرسونه، فلمّا أن كان بعد هزيع من اللّيل أنزل الله عليه **﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**[6]. و أتمثّله أخيرًا عند السّيّدة أُمّ سَلَمَة أُمّ المؤمنين و قد بقي من اللّيل ثلثه[7] حين نزلت عليه آية الثّلاثة الّذين خُلّفوا[8].

١ ـ الإتقان ١: ٣٥.
٢ ـ صحيح البُخاريّ ٦: ١٣٥.
٣ ـ الحجّ /١.
٤ ـ البُرهان ١: ١٩٨.
٥ ـ آل عمران /١٢٨، و انظر الإتقان ١: ٣٦.
٦ ـ المائدة /٦٧.
٧ ـ كما في صحيح مُسلم عن أنس، الإتقان ١: ٣٨.
٨ ـ التّوبة /١١٨.

و لقد تكون اللّيلة شاتية، و يكون البرد فيها شديدًا، فلا يفوت الرّاوي أن يصفها لنا إرهاصًا لذكر الآيات الّتي نزلت في هذا الجوّ المكفهرّ، فما من جزئيّة مهما تكن تافهة في نظرنا الآن إلاّ و هي على لسان الرّاوي شيء له قيمته الدّينيّة و الاجتماعيّة، فليصوّرها تصويرًا واقعيًّا أمينًا، و لا ينقصنّ منها، و لايزيدنّ عليها. أُولئك هم النّاس يتفرّقون عن رسول‌الله ﷺ ليلة الأحزاب إلاّ اثني عشر رجلاً، فيخاطب عليه السلام الصّحابيّ الجليل حُـذَيفة قائلاً: «قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب»، فيجيبه حُذَيْفة: والّذي بعثك بالحقّ ما قمت لك إلاّ حياء من البرد! فأنزل الله: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين اٰمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ اِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [1].

ونجد في المقابل أنّ الآيات النّازلة في غزوة تبوك إنّما كانت في شدّة الحرّ، و أنّ رجلاً من المنافقين قال يؤمئذ: لا تنفِروا في الحرّ، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ اَشَدُّ حَرًّا﴾ [2].

و إذا كان أكثر القرآن نزل في الحَضَر فإنّ تنقّل الرّسول ﷺ في سبيل الدّعوة جعله يتلقّى الوحي أحيانًا في بعض أسفاره، تثبيتًا لفؤاده، و تأييدًا لجهاده، و كثيرًا ما يعبّر الرّواة عن هذا بمثل قولهم: نزلت الآية أو الآيات على النّبيّ ﷺ في «مسير» له و يغلب عليهم تعيين هذا المسير، و تحديد السّفر و مكانه و زمانه. و في الصّحيح عن عمر أنّ قوله تعالى: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [3]، نزل عشيّة عرفة يوم الجمعة عام حجّة الوداع. و في **«دلائل» البَيْهَقيّ أنّ خاتمة سورة النّحل نزلت بأُحُد و النّبيّ ﷺ واقف على حَمْزة حين استُشهد** [4].

و لقد كانت حياة الرّسول ﷺ سلسلة من الجهاد المتواصل، فكثر نزول الوحي عليه في مغازيه، ففي بدر عقب الواقعة نزل أوّل الأنفال [5]، و في عُمرة الحُدَيْبيّة نزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِاَنْ تَاْتُوا الْبُيُوتَ مَن ظُهُورِهَا وَ لٰكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقىٰ﴾ [6]، و في تبوك نزل قوله تعالى: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْاَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَ اِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاٰفَكَ اِلاَّ قَلِيلاً﴾ [7] و قد تتبّع

---

١ ـ الأحزاب /٩، والحديث أخرجه البَيْهقيّ في «دلائل النّبوة» انظر الإتقان ١: ٣٧.

٢ ـ التّوبة /٨١، و انظر الإتقان ١: ٣١.

٣ ـ المائدة /٣، وانظر الإتقان ١: ٣١.

٤ ـ الإتقان ١: ٣٢.

٥ ـ الإتقان ١:٣٢.

٦ ـ البقرة /١٨٩، وانظر الإتقان ١:٣٠ ويرى بعضهم أنّها نزلت في غزوة الفتح أو في حجّة الوداع.

٧ ـ الإسراء ٧٦، وانظر الإتقان ١:٣٢.

السّيوطيّ عددًا من الأمثلة الأُخرى، تراجع في موضعها من «الإتقان»[١].

و ليلة الإسراء و المعراج ليست إلاّ ليلة في حساب الزّمان، و لكنّها جزء من الأزل البعيد العميق في علم الله، فمن القرآن آيات نزلت في تلك اللّيلة القُدسيّة، و لئن صحّ أنّ قوله تعالى: **﴿وَسْئَلْ مَنْ اَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا اَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ اٰلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾**[٢]، نزل ببيت المَقْدِس عندما أسرى الله بعبده ليلاً[٣]، فإنّ الآيتين من آخر سورة البقرة نزلتا ـ كما يقول ابن العربيّ ـ في الفضاء بين السّماء و الأرض[٤]، حين رأىٰ محمّد من آيات ربّه الكُبرىٰ ساعة المعراج.

و هذا الاستقصاء في تحرّي ما عسى أن يبدو لبعضهم غير ذي بال لم يكن له في نفوس الرُّواة و العلماء إلاّ تفسير واحد، إنّه صدق الرّواية و إمكان الثّقه بها إلى أبعد حدّ فيما يتعلّق بتحديد المكّيّ و المدنيّ في كتاب الله.

و على هذا الأساس من الدّقّة و الاستقصاء فرّق العلماء بين ما يشبه تنزيل المدينة في السّور المكّية، و ما يشبه تنزيل مكّة في السّور المدنيّة[٥]، و غرضهم من التّعبير «بالتّشبيه» واضح، فإنّهم يلاحظون الطّابع العامّ لكلّ سورة، ثمّ ما يشبه هذا الطّابع شبهًا قريبًا يكاد يُلحقه به، فإذا وجدتَ في سورة هود المكّيّة مثل قوله تعالى: **﴿وَ اَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ...﴾**[٦] فليس من الضّروريّ أن تعتبرها مدنيّة و إن أشبهت التّنزيل المدنيّ. و إذا تلوت في سورة الأنفال المدنيّة مثل قوله تعالى: **﴿وَ اِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّماءِ اَوِئْتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾**[٧]، فليس لك أن تحكم بأنّها مكّية و لو كان فيها من التّنزيل المكّيّ ظلال و سِمات.

و كثيرًا ما يصرف وجه الشّبه القريب بين المكّيّ و المدنيّ الباحثين المتسرّعين عن

---

١ ـ الإتقان ٣٠ ـ ٣٤.
٢ ـ الزُّخْرُف /٤٥.
٣ ـ البُرهان ١: ١٩٧.
٤ ـ الإتقان ١: ٣٨.
٥ ـ انظر البُرهان ١: ١٩٦.
٦ ـ في تفسير القُرطُبيّ ٩: ١١٠ ـ ١١١ أنّهانزلت في رجل من الأنصار يسمّى أبا اليُسر بن عمرو و في البُرهان ١:١٩٦ أنّها نزلت في أبي مقبل الحسين بن عمر بن قَيْس و المرأة الّتي اشترت منه التّمر، فراودها، و الآية في سورة هود: ١١٤.
٧ ـ الأنفال/ ٣٢، وانظر البرهان ١: ١٩٧.

تتبُّع مرحلة دقيقة خطيرة في تاريخ الدّعوة الإسلاميّة، حين تستدعي ظروف معيّنة حمل النّازل القرآنيّ من مكان إلى مكان. و لكنّ العلماء الثّقات وافَوْنا بذلك كلّه، فلكلّ آية في القرآن تاريخها، بل لكلّ لفظة فيه سيرتها و ترجمتها، فمن شيخ المفسّرين الطّبريّ علمنا أنّ قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[١]، حُمل من المدينة إلى مكّة[٢]، و من القُرْطُبيّ، علمنا أنّ قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰـوا﴾[٣]، حُمل مع الآيات من أوّل سورة براءة من المدينة إلى مكّة، ثم قرأها عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم النّحر على النّاس[٤].

و حين نجد علماءنا يبذلون هذا الجهد المشكور في تحرّي الرّوايات وضبطها ليرتّبوا السُّور القرآنيّة تبعًا لتطوّرات الدّعوة و أدقّ جزئيّاتها، لا نملك أنفسنا من الدَّهْشَة والذُّهول إذ نسمع المستشرقين يدعون بالويل و الثّبور على الرُّواة و الرّوايات، و يرتابون في إمكان ترتيب القرآن اعتمادًا على سيرة الرّسول[٥].

ومن الغريب حقًّا أن يظنّ المستشرقون أنّ في وسعهم ترتيب القرآن زمنيًّا و هم يجحدون كلّ أثر للرّواية الصّحيحة في هذا التّرتيب. و لو كانوا يتشدّدون في الرّوايات فلا يقبلون منها إلاّ المسندة الصّحيحة لهان الأمر، فإنّ علماء الإسلام أنفسهم كانوا ـ و لا يزالون ـ يرفضون الأخذ بالرّوايات الضّعيفة في المكّيّ و المدنيّ و غيرهما من الموضوعات الّتي تلقى الضّياء ساطعًا على تتبّع مراحل الوحي القرآنيّ، و ترتيب سوره وآياته، و تدرّج تعاليمه و إرشاداته.

على أنّ بين المستشرقين من حاول أن يبحث هذا الموضوع على صعيد لا يختلف كثيرًا عن صعيدنا، كالأُستاذ «غريم» الّذي اعتمد على الرّوايات و الأسانيد الإسلاميّة في ترتيب سور القرآن[٦] و يؤخذ عليه مع ذلك أمران: أمّا أحدهما فعدم تمحيصه صحيح تلك

---

١ ـ البقرة /٢١٧.

٢ ـ تفسير الطّبريّ ٢: ٢٠١ ـ ٢٠٦ و انظر البُرهان ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

٣ ـ البقرة /٢٧٨.

٤ ـ تفسير القُرطُبيّ ٣: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

٥ ـ انظر على سبيل المثال: Blaahere , Intro. cor .252.

٦ ـ انظر منهجه في الاعتماد على الرّوايات في كتابه:

الرّوايات و سقيمها، وعجزه كسائر المستشرقين عن هذا التّمحيص، و لذلك لم يبال بترتيب القرآن على أساس واهٍ من الأسانيد الضّعيفة أحيانًا و الباطلة أُخرى. و أمّا الآخر فهو تخليّه عن المنهج الّذي اشترطه على نفسه من احترام الرّوايات ليصدر في نهاية المطاف ـ في مواطن مختلفة ـ عن رأي المستشرق نُولدْكِه في وصف المراحل المتعاقبة على الوحي القرآنيّ[١].

والواقع أنّ المستشرق نُولدْكِه كان مقتنعًا بضرورة ترتيب القرآن زمنيًّا على غير الطّريقة الإسلاميّة و قد رسم لنفسه منهجًا جديدًا تأثّر به كثيرون، فأصبح موضوع هذا التّرتيب يشتغل أذهان المستشرقين جميعًا، و يعلّقون عليه أخطر النّتائج في عالم الدّراسات القرآنيّة.

و قد ظهرت في أُوروبة في منتصف القرن التّاسع عشر محاولات لترتيب سور القرآن و دراسة مراحله التّاريخيّة، منها محاولة «وِ ليَمْ مُويِر» الّذي قسّم المراحل القرآنيّة إلى ستٍّ: خمس في مكّة و سادستها في المدينة[٢]. و اعتمد فيها ـ إلى حدّ غير قليل ـ على سيرة الرّسول ﷺ و أسانيدها بعد دراستها دراسة نقديّة حشد لها الكثير من معلوماته التّاريخيّة[٣]، و لكنّه وقع ـ مع ذلك ـ في أخطاء عديدة و أخذ بروايات واهية، و المقارنة في هذا المجال بينه و بين «غريم» ستظلّ ممكنة ميسورة.

و منها محاولة «ويل» الّتي بدأها سنة (١٨٤٤) و لم تتّخذ صورتها النّهائيّة إلاّ سنة (١٨٧٢)، و لا يقيم فيها وزنًا للرّوايات و الأسانيد الإسلاميّة[٤]، لذلك كانت في نظر بلاشير

→ H. Grimme , Mohammed , 2e partie (Munster. 1895):

cf. Blachere, Intro , 250.

١ ـ انظر بعض مواطن تلاقيه مع نُولدْكِه في Geachichte des qorans, 73

٢ ـ و يمكن دراسة هذه المحاولة في كتابين من تأليف مُويِر أحدهما:

Life of Mahomet (London , 1858 - 61)

و قد طبع هذا الكتاب طبعة مزيدة منقّحة سنة (١٩٢٣) في أدنبورغ Edinburgh بإشراف T. H. Weir

والثّاني: The Coran . its composition and Teaching (London. 1878)

٣ ـ Cf. Blach, Intro . cor . 248

٤ ـ و ذلك في كتاب: G.Weil , Historisch - Kritische

«الطّريقة الوحيدة المثمرة حقًّا»[١]. و كانت من قبله في نظر «نُولدْكِه» نقطه الانطلاق في إجْراء محاولة لترتيب القرآن، فبها أخذ و على كثير من أسّسها بنيٰ دراسته.

و كان «ويل» قد قسّم المراحل القرآنيّة إلى أربع: ثلاث في مكّة و رابعة في المدينة، فتابعه على ذلك «نُولدْكِه» سنة (١٨٦٠) عندما ظهر كتابه عن «تاريخ القرآن»[٢] للمرّة الأولى، مع إجراء بعض التّعديلات الطّفيفة في محتويات كلّ مرحلة على حدة، ثمّ تابعه مرّةً ثانية مع نظائر هذه التّعديلات عندما شاركه «شفالي» في نشر الكتاب منقّحًا مزيدًا.

و قد تأثّر بهذه الطّريقة كلّ من «بل»[٣] «ورودويل»[٤] و «بلاشير»[٥]، و تظلّ ترجمة بلاشير للقرآن في نظرنا أدقّ التّرجمات، للرّوح العلميّ الّذي يسودها، لا يغضّ من قيمتها إلاّ التّرتيب الزّمنيّ للسّور القرآنيّة بطريقة يعترف «بلاشير» نفسه بأنّها لاتخلو من تعسّف في إطلاق الأحكام[٦]، دعا إليه ما يعتقده من أنّ القرآن وحده نقطة الانطلاق في تعاقب المراحل الإسلاميّة، و ترتيب السّور، و تدرّج التّعاليم، و أنّ سيرة الرّسول ﷺ و الأخبار الّتي يرويها الصّحابة عنه لايمكن أن تستقلّ وحدها بإيضاح شيءٍ سكت عنه القرآن، و إنّما تكمّل تكميلاً ثانويًّا ماجاء في نصّ القرآن[٧].

أمّا نحن فلانرتاب قطّ ـ بعد الّذي عرضناه من تشدّد علمائنا في استقصاء كلّ ما يتعلّق بالمكّيّ و المدنيّ ـ في أنّ الرّواية الصّحيحة هي الطّريقة الوحيدة إلى ترتيب القرآن أمثل ترتيب زمنيّ و أصلحه و أدقّه. و الرّوايات في هذا المجال لم ترد إلاّ عن الصّحابة الّذين شاهدوا مكان الوحي و عرفوا زمانه، أو التّابعين الّذين سمعوا وصف ذلك و تفصيله

→ Einleitung in Koran (Bielefeld , 1844; 2e ed. Leipzig, 1872)

١ ـ انظر Blanch , Intro . cor , 251

٢ ـ و هو كتابه المشهور الّذي كثيرًا ما رجعنا إليه في مباحثنا هذه: Geschichte des Qorans.

٣ ـ R. Bell , the Qur'an. Translated With a critical re . arrangement of the Surahs (Edinburgh, 1937 sq.)

٤ ـ A.Rodwell. the Koran. Translation with the suras arranged in. chronological order London 1861.

٥ ـ Blachere . Le corrn, Traduction selon un essai de reclassement des sourates, paris 1949 - 51.

٦ ـ انظر Blach ., Intro, cor., 254

٧ ـ Id., ibid., 253

من الصّحابة. و أمّا رسول الله ﷺ فلم يرد عنه شيء من هذا القبيل؛ لأنّه ﷺ كما يقول القاضي أبوبكر في «الانتصار»: لم يؤمر به، و لم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأُمّة[١].

و لاريب أنّ كثيرًا من الصّحابة كانوا على علم كامل بالمكّيّ والمدنيّ، به استطاعوا أن يستقصوا تلك الجزئيّات الدّقيقة الّتي حفلت بها كتب التّفسير بالمأثور و المؤلّفات الكثيرة في علوم القرآن، و قد أشرنا إلى جملة صالحة منها على سبيل التّمثيل والاستشهاد. و في وسعنا أن نكوّن فكرة عن غزارة علم الصّحابة في هذه الموضوعات من خلال قول ابن مسعود: «والّذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلاّ و أنا أعلم فيمن نزلت، و أين نزلت».[٢] و لكنّ ابن مسعود ـ مهما نصف من سعة علمه ـ ليس الرّجل الوحيد الّذي أقسم هذا القسم منفردًا به من بين سائر الصّحابة، فقد أقسم نحوًا من قسمه عليّ أيضًا، و قد كان بين الصّحابة بلاريب من أُتيح له أن يشهد ما شهد هذان الصّحابيان الجليلان، و ربّما رأى بعضهم أكثر ممّا رأياه، بل نحن لا نستبعد أن يكون بين مجاهيل الصّحابة من يكمل برواية تحملها شيئًا فات علماء الصّحابة و مشاهيرهم[٣].

لذلك لم يكن الاعتماد على الرّواية الصّحيحة متنافيًا مع إعمال الفكر و الاجتهاد، ولا سيّما في الموضوعات الّتي لاتكون فيها الرّواية نصًّا صريحًا، و لهذا الاجتهاد صور وأشكال متنوّعة في مبحث المكّيّ و المدنيّ. فقد يقع الاختلاف في مكّيّة بعض السُّور أو مدنيّتها، و في استثناء آيات مكّيّة من سورة مدنيّة أو آيات مدنيّة من سورة مكّيّة، و في ترتيب منازل بمكّة أو المدينة، و في الخصائص الأُسلوبيّة أو الموضوعيّة لكلّ من المكّيّ، و المدنيّ ثمّ لا يُفصَل في الاختلاف إلاّ بضرب ممن الاجتهاد.

فإذا زعم النّحّاس أنّ سورة النّساء مكّيّة... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ ثمّ قال:]**

و إذا كان في كلّ من المكّيّ والمدنيّ آيات مستثناة، فمن العلماء من اعتمد في استثنائها على الاجتهاد دون النّقل[٤]. و لا يعارض هذا ما ورد عن ابن عبّاس: كانت إذا

١ ـ البرهان ١: ١٩١، و انظر الإتقان ١: ١٤. ٢ ـ الإتقان ١: ١٤.

٣ ـ راجع ما ذكرناه في فصل «علم أسباب النّزول» عن علم الصّحابه بهذه القضايا.

٤ ـ الإتقان ١: ٢٣.

نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ماشاء؛ لأنّ إلحاق المكّيّ بالمدنيّ أو المدنيّ بالمكّيّ يُعرَف وجه الحكمة فيه حينئذ عن طريق الاجتهاد، مثاله سورة الإسراء، فهي مكّيّة، إلاّ أنّهم استثنوا منها: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ﴾[١]، فرجّحوا أنّها آية مدنيّة، نزلت في وفد ثقيف، أتوا النّبيّ ﷺ فسألوه شططًا، و قالوا: متّعنا بآلهتنا حتّى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها و أسلمنا، و حرّمنا وادينا كما حرّمت مكّة حتّى تعرف العرب فضلنا عليهم[٢].

و يعيّن العلماء ـ تبعًا للرّوايات والأسانيد ـ السّور المكّيّة و السّور المدنيّة[٣]، ثمّ يرتّبونها حسب تعاقبها في النّزول، و إذا هم يتردّدون في أوّل مانزل و آخره[٤]، و يصل بهم الأمر إلى الاختلاف في سورة الفاتحة الّتي يرتّلها المسلمون في كلّ ركعة من ركعات الصّلاة، فيرىٰ بعضهم أنّها مكّيّة و آخرون أنّهامدنيّة[٥]، و يُؤثِر فريق ثالث القول بنزولها مرّتين[٦]، ثمّ يرجّح بعضهم أنّها أوّل ما نزل بمكّة، فهي إذن أوّل مانزل على الإطلاق[٧]، ويرجّح آخرون أنّ عددًا من السّور كان أسبق منها في النّزول، ففي مثل هذه المواطن يتنافس العلماء في إيراد الحجج و البراهين، و هي حجج إلى الاجتهاد أقرب منها إلى النّقل، فهذا عالم كالواحِديّ يستبعد مثلاً أن يقوم الرّسول ﷺ خلال بضع عشرة سنة بمكّة يؤديّ الصّلاة من غير الفاتحة[٨]! و الواحِديّ ـ كما نعلم ـ لم يقم دراسته لأسباب النّزول في كتابه المشهور إلاّ على الرّوايات و الأسانيد، لكنّ باب الاجتهاد والاستنباط مفتوح دائمًا على مصراعَيه حتّى عند أصحاب النّقل و النّص!

والمستشرق «بلاشير» بدلاً من أن يرىٰ تفكير الواحِديّ هنا محاولةً للاجتهاد والاستنباط، يستشعر فيه ضربًا من استسلام اليائس الّذي انقطع كلّ رجاء عنده في

---

١ ـ الإسراء /٧٣. ٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ٩:٢٩٩.

٣ ـ و قد نظّم ابن الحَصّار في «النّاسخ والمنسوخ» أبياتًا في ذلك... [راجع نصّ السّيوطي في الفصل العاشر]

٤ ـ انظر على سبيل المثال البُرهان ١: ١٩٣ ـ ١٩٤ والزّركشيّ يردّ إلى القسم المدنيّ أكثر السّور المختلف فيها، فيكون عدد السّور المكيّة عنده خمسًا و ثمانين، بينما تكون السّور المدنيّة تسعًا و عشرين.

٥ ـ قال ابن عبّاس و الضَّحّاك و مُقاتِل و عَطاء: إنّها مكّية، و قال مُجاهِد: مدنيّة، و البُرهان ١: ١٩٤.

٦ ـ البُرهان ١: ٢٩. ٧ ـ الإتقان ١: ١٨ و قارن بالبُرهان ١: ٢٠٧.

٨ ـ أسباب النّزول: ١٣.

معالجة الموضوع، فاعترف بجهله، و وجد السّلامة في هذا الاعتراف![1]. و لا نرىٰ «بلاشير» في هذا إلاّ مغاليًا، فليس من شأن العلماء أن يقطعوا جازمين في أمر خطير كالّذي يتعلّق بترتيب الوحي القرآنيّ، و إنّما حسبُهم أن يحاولوا ـ كما صنع الواحِديّ ـ ترجيح شيءٍ على شيءٍ، و الجهل لا يعالج دائمًا بالقطعيّ من الأُمور، فالتّرجيح وحده كافٍ لتحصيل العلم و المعرفة. و ليست غايتنا هنا الدّفاع عن الواحِديّ، بل التّنبيه على أنّ كثيرًا من جزئيّات المكّيّ والمدنيّ انتهىٰ به العلم إلينا عن طريق الاجتهاد، و أنّ العقل كالنّقل، والقياس كالسّماع، في ثبوت العلم بالشّيء. و قد لاحظ الجَعْبَريّ هذا حين قال: لمعرفة المكّيّ و المدنيّ طريقان: سماعيّ و قياسيّ[2]، و عرّف السّماعيّ بأنّه ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، ثمّ أنشأ يذكر أمثلة و شواهد على القياسيّ. و إذا قارنّا أمثلته بأمثلة العلماء الّذين مارسوا القرآن و تذوّقوا فنونه و أساليبه استنبطنا من مجموعها ضابطًا قياسيًّا نستطيع به أن نميّز السّور المكّية و المدنيّة، و نتعرّف إلى طابع كلّ منها و خصائصه، وسنرىٰ أنّ هذا الضّابط قلّما يتخلّف عند التّطبيق، فمن خصائص السُّور المكّيّة تبعًا لهذا الضّابط ... **[ثمّ ذكر خصائص السُّور المكّيّة كما تقدّم عن الزُّرقانيّ، ثمّ قال:]**

وهذه الخصائص السّتّ ـ إذا حُفظ ما استثني منها جانبًا ـ أمارات قطعيّة لا تتخلّف. هناك أمارات غالبة رُجّح امتياز القسم المكّيّ بها. فممّا يكثر في السُّور المكّيّة و يشيع:

١ـ قصر الآيات و السُّور و إيجازها، و حرارة تعبيرها، و تجانسها الصّوتي.

٢ـ الدّعوة إلى أُصول الإيمان بالله و اليوم الآخر، و تصوير الجنّة و النّار.

٣ـ الدّعوة إلى التّمسّك بالأخلاق الكريمة، و الاستقامة على الخير.

٤ـ مجادلة المشركين ـ و تسفية أحلامهم.

٥ـ كثرة القسم جريًا على أساليب العرب[3].

و أمّا السُّور المدنيّة فمن خصائصها القطعيّة:

---

١ ـ انظر Blachere, Intro. cor ., 263

٢ ـ البُرهان ١: ١٨٩ و الإتقان ١: ٢٩.

٣ ـ و لبروكلمان Brockelmann في دائرة المعارف الإسلاميّة آراء طريفة حول هذه الأمارات الغالبة، أكثرها صحيح من ناحية الدّراسة الأُسلوبيّة.

انظر: Encyclopedie de I'Ialam, art Arabie, 411 a

[ثمّ ذكر خصائص السّور المكّيّة كما تقدّم عن الزُّرقانيّ، فقال:]

و من الأمارات الغالبة[١] الّتي يرجّح امتياز القسم المدنيّ بها:

١ـ طول أكثر سوره و بعض آياته و إطنابها، و أُسلوبها التّشريعيّ الهادي.

٢ـ تفصيل البراهين و الأدلّة على الحقائق الدّينيّة.

و هذه الخصائص الموضوعيّة و الأُسلوبيّة، سواء أكانت قطعيّة، أم أغلبيّة، تصوّر الخطىٰ الحكيمة المتدرّجة الّتي كان يخطوها الإسلام في تشريعه، فخطاب أهل المدينة لا يمكن أن يكون مماثلاً لخطاب أهل مكّة؛ لأنّ البيئة الجديدة في المدينة أصبحت تستدعي التّفصيل في التّشريع و في بناء المجتمع الجديد. فكان لابدّ أن يطنب القرآن بعد الإيجاز، و يفصّل بعد الإجمال، يراعي حال المخاطبين في كلّ آياته و سوره.

كان في مكّة قوم طُغاة معاندون، يضطهدون رسول الله والمؤمنين، فناسب أن ينزل على الرّسول في مكّة مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[٣] و قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا اِنَّمَا سُكِّرَتْ اَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾[٤]. و هكذا كثر في مكّة نزول الآيات الّتي تقرع المشركين، و تشتدّ في تسفية أحلامهم، و تسلّي الرّسول و المؤمنين وتعلّمهم السّماحة و الصّفح الجميل. أمّا المدينة فكان فيها بعد الهجرة ثلاثة أصناف من النّاس: المؤمنين من مهاجرين و أنصار، ثمّ المنافقون، ثمّ اليهود. فأمّا اليهود فجادلهم القرآن و دعاهم إلى كلمة سواء، و أمّا المنافقون ففضحهم و كشف مساوءهم، و أمّا المؤمنون فشجّعهم ـ من ناحية ـ على المضيّ في الصّراط المستقيم، وشرع لهم ـ من ناحية ثانية ـ ما يتعلّق بالسّلم و الحرب، و بحياة الفرد و المجموع، و بالسّياسة والاقتصاد. هذه الزّكاة مثلاً لامعنى لفرضها في مكّة والقوم فقراء مضطهدون. و تلك صلاة الخوف الّتي لاتكون إلاّ في الحرب لايمكن أن تشرّع في مكّة؛ لأنّ المؤمنين لم يؤذن لهم بالقتال إلاّ

---

١ ـ و آراء بلاشير ـ في هذا الموضوع ـ لا تخلو من طرافة لولا أنّه يرمي من ورائها إلى غاية لاتتّفق و روح الدّعوة الإسلاميّة. انظر: (Blachere . coran, Traduction , 2e vol , 722 - 28)

٢ ـ الأنعام /٣٣.

٣ ـ الأنعام /٣٤.

٤ ـ الحجر /١٤ ـ ١٥.

في المدينة، و قد خلت السُّور المكّيّة خلوًّا تامًّا من ذكر الجهاد و كلّ ما يتعلّق بالحرب.

ولو أخذنا برأي أبي القاسم النّيسابوريّ الّذي التزم المنهج التّاريخيّ الزّمنيّ في ترتيب المكّيّ و المدنيّ لكان علينا ـ تطبيقًا له و تأثّرًا به ـ أن نقسّم كلاًّ من السُّور المكّيّة والسُّور المدنيّة إلى ثلاث مراحل: ابتدائيّة، و متوسّطة، و ختاميّة، و لانتجشّم كبير عناءٍ في تعيين هاتيك المراحل إذا عوّلنا على أصحّ الأسانيد، و أخذنا بمقاييس النّقّاد المحدّثين وتردّدنا في القسم المدنيّ سوف يكون يسيرًا، بل لايكاد يكون شيئًا مذكورًا؛ إذا انتشر في المدينة الإسلام، و حفظ القرآن، و كثر القرّاء الكاتبون، و تيسّرت وسائل النّسخ والنّقل و الرّواية والتّفقّه في الدّين. أمّا القسم المكّيّ فقد كان منطق الأحداث نفسه يقتضي وقوع التّردّد في تصوير مراحله، و لا سيّما في أوائله، لأنّ الإسلام بدأ بمكّة غريبًا، ولم يؤمن برسول الله ﷺ في أعوام الوحي الأُولى إلاّ نفر قليل، فلم يتيسّر لغير السّابقين الأوّلين منهم تقصّي أطوار التّنزيل، و تحرّي أوائلها على وجه التّحديد.

بيد أنّنا إن ندع جانبًا مااختلف العلماء المحقّقون في ترتيبه الزّمنيّ، و عجزوا فيه عن تعيين السّابق و المسبوق، لايتعذّر علينا أن نضع أيدينا على زمر متشابهة، و فصائل متماثلة، تبرز فيها ملامح صريحة نجزم معها بأنّها مرحلة أُولى أو متوسّطة أو نهائيّة في مكّة أو في المدينة.

فمن السُّور الّتي اتّفق المؤرّخون و المفسّرون على أنّهامن أوائل الوحي، أو أنّها بعبارتناالحديثة من المرحلة المكّيّة الأُولى: العلق، والمدّثّر، و التّكوير، و الأعلى، واللّيل، والشّرح، والعاديات، والتّكاثُر، و النّجم.

و من المرحلة المتوسّطة في مكّة: عَبَس، و التّين، و القارعة، و القيامة، و المرسلات، و البلد، و الحِجْر.

و من المرحلة الختاميّة في مكّة: الصّافات، والزُّخرف، و الدُّخان، و الذّاريات، والكهف، و إبراهيم، و السَّجدة.

و هذه الزُّمَر الثّلاث ـ و إن بدت سمات المكيّ و اضحة عليها ـ تتفاوت تفاوتًا يسيرًا فكرة و أُسلوبًا، حتّى لتبدو كلّ زُمرة منها، بل كلّ سورة منها وحدة فكريّة إيقاعيّة قائمة

بذاتها. و ما سنلمحه في تحليلنا الخاطف لها لايعدو الإيماء إلى أبرز ما يتمثّل في ألفاظها و فواصلها، والعقائد الّتي انطوت عليها آياتها المعجزات...(١٦٧ ـ ١٨٦)

[ثمّ ذكر فحوى كلّ سورة من تلك السّور المتقدّمة نعطف عن ذكرها احترازًا عن التّطويل، و إن شئت فراجعها].

الفصل الثّالث و العشرون

نصّ الشّيخ الصَّعيديّ (مُعاصرٌ) في «مجلّة رسالة الإسلام»

نظرة جَديدَة في مكّيّ السُّور و مدنيّها

ـ ١ ـ

المشهور بين العلماء أنّ سور القرآن الكريم على ثلاثة أقسام: قسم مكّيّ، و قسم مدنيّ، و قسم بعضه مكّي و بعضه مدنيّ. و إنّي أرىٰ أنّهاقسمان فقط لا ثلاثة أقسام: مكيّ خالص، و مدنيّ خالص و أنّهاليس فيها ما بعضه مكّيّ و بعضه مدنيّ؛ لأنّ كلّ سورة من سور القرآن جاءت مناسبة لزمن نزولها، و لكلّ من القسم المكّيّ و القسم المدنيّ مميّزاته، فلايكون من المناسب لارتباط آيات سوره وضع بعض ممّا نزل منهما في الآخر، و لا سيّما وضع المكّيّ في المدنيّ؛لأنّه يقتضي أن تبقىٰ آية أو آيتان أو أكثر من ذلك متروكة سنين طويلة من غير أن تلحق بسورة، ثمّ تستمرّ متروكة إلى أن تنزل سورة بعد هذه المدّة الطّويلة فتلحق بها، فإنّها لا تلحق بها إلاّ إذا كانت مناسبة لها، و حينئذ لايكون هناك حاجة لتقديم نزولها عليها، بل يكون المقبول في بداهة العقل تأخير نزولها إلى نزول السّورة الّتي تلحق بها و هذا إجمال لا نكتفي به في ذلك، و سيكون له تفصيل تؤخذ فيه كلّ سورة مكّيّة قيل: إنّ فيها آيات مدنيّة، و تؤخذ فيه كلّ سورة مدنيّة، قيل: إنّ فيها آيات مكّيّة، لننظر في هذا على ذلك الأساس السّابق، و نعرف مقدار ما يصل إليه رأينا السّابق فيه، فإذا أمكن توجيهها عليه كان هو الرّأي الرّاجح، و لم يكن هناك داع إلى إقحام بعض كلّ من المكّيّ و المدنيّ في الآخر مع اختلاف مميّزاتهما على ما سبق.

و هذا إذا جرينا على أنّ آيات كلّ سورة مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا يجعلها كأنّها جملةً واحدةً، منسّقة المعاني، منتظمة المباني، فإذا جرينا على ما يذهب إليه بعض

المفسّرين من أنّه لا ارتباط بين آيات السّور القرآنيّة، كان الاستبعاد أظهر في القسم الثّالث السّابق، و هو السّور الّتي بعضها مكّيّ و بعضها مدنيّ؛لأنّه إذا لم يكن هناك ارتباط بين آيات السّور لم تكن هنا سورة مكّيّة ممتنعة على ما يوضع من الآيات المكّيّة في **السّور المدنيّة، و كذلك الأمر في عكس ذلك، فلايكون هناك حاجة لوضع أحدهما فى الآخر.**

و لكن يجب قبل أن نأخذ في التّفصيل السّابق أن نذكر ـ أوّلاً ـ خلافهم في حقيقة كلّ من المكّيّ و المدنيّ من السُّور؛ لأنّ هذا الخلاف يفيدنا كثيرًا في هذا التّفصيل.

و للعلماء في المكّيّ و المدنيّ من السّور اصطلاحات ثلاثة...**[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]**

و يجب أن نذكر قبل هذا التّفصيل ـ ثانيًا ـ أنّه يرجع في معرفة المكّيّ و المدنيّ من السُّور إلى حفظ الصّحابة و التّابعين؛لأنّه لم يرد عن النّبيّ ﷺ في ذلك قول،لأنّه لم يؤمر، ولم يجعل الله تعالى علم ذلك من فرائض الأُمّة، و إن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة النّاسخ من المنسوخ؛ لأنّ مانزل من ذلك بمكّة يكون متقدّمًا، و مانزل بالمدينة يكون متأخّرًا، على ما هو الأشهر من الاصطلاحات الثّلاثة السّابقة، و المتأخّر هو الّذي ينسخ المتقدّم؛ لأنّ معرفة هذا قد يكون بغير نصّ الرّسول ﷺ، أي بالاجتهاد في سياق الآيات و حظّها من مميّزات المكّيّ و المدنيّ، و حينئذ لايكون النّص عليه واجبًا.

و يجب أن نذكر قبل هذا التّفصيل ـ ثالثًا ـ أنّ لهم ضوابط في معرفة المكّيّ و المدنيّ من السّور، و أنّهم مختلفون في هذه الضّوابط، و أنّهاقائمة على اجتهادهم، و لم يرد فيها نصّ يقطع الخلاف فيها بينهم، فأخرج الحاكم في مستدركه، و البَيْهَقيّ في الدّلائل، و البَزّار في مسنده عن عَلْقَمة، عن عبدالله، قال: ما كان ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ أُنزل بالمدينة، و ما كان ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ أُنزل بمكّة. و قيل: ماكان في القرآن ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِى اٰدَمَ﴾ فإنّه مكّيّ، و ماكان ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين اٰمَنُوا﴾ فإنّه مدنيّ.

قال ابن عَطيّة و غيره: هو في ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين اٰمَنُوا﴾ صحيح، و أمّا ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقد يأتي في المدنيّ، كما في سورة النّساء، فإنّها مدنيّة، و أوّلها ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾، و كذلك

البقرة مدنيّة، و فيها ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[١]، ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ﴾[٢] وكذلك في كثير من السُّور المكّيّة ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين ءَامَنُوا﴾ فلا يكون صحيحًا أيضًا.

و أخرج البَيْهَقيّ في «الدّلائل» عن هِشام بن عُرْوَة، عن أبيه: كلّ شيء نزل من القرآن في ذكر الأُمم و القرون فإنّما نزل بمكّة، و ما كان من الفرائض و السّنن فإنّما نزل بالمدينة، إلى غير هذا من الضّوابط الّتي لا تطّرد مثل الضّابط الأوّل، و لا تميّز المكّيّ من المدنيّ تمييزًا قاطعًا.

و لهذا كلّه كثر اختلافهم فيما هو مكّيّ و ما هو مدنيّ من السُّور، فرُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: سألت أُبيّ بن كعب عمّا نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل بها سبع و عشرون سورة، و سائرها بمكّه و قال أبو الحسن بن الحَصّار في كتابه «النّاسخ و المنسوخ»: المدنيّ باتّفاق عشرون سورة، و المختلف فيه اثنتا عشرة سورة، و ما عدا ذلك مكّيّ باتّفاق.

و قد عقد السُّيوطيّ في «الإتقان» فصلاً في تحرير السّور المختلف فيها، فـذكرها على التّرتيب الآتي ... **[و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]**

فعدّد السّور المختلف فيها على هذا اثنتان و ثلاثون سورة، وهذا يـخالف القـول السّابق: إنّ المدنيّ باتّفاق عشرون سورة، و المختلف فيه اثنتنا عشرة سورة، و ما عدا ذلك مكّيّ باتّفاق و لعلّ هناك أقوالاً أُخرى في ذلك غير هذين القولين، و سبب كـثرة هـذه الأقوال ما سبق من أنّه لا يوجد نصّ قاطع في ذلك، و إنّما يرجع الأمر فيه إلى اجـتهاد العلماء. و هم يبنونه على ضوابط مختلفة في التّمييز بين المكّيّ و المدنيّ، و قد سبق أنّ كلّ ما وضعوه من هذه الضّوابط غير مُطَّرد، و حينئذ لا يصحّ التّعويل عليها في هذا التّمييز.

و لاشكّ أنّ اختلافهم و عدم تعويلهم على نصّ قاطع، بل على ضوابط غير مطّردة يسوّغ لنا أن نجتهد بعدهم فيما اختلفوا فيه، و أن نحاول في وسط اختلافهم الوصول إلى ما نراه من تقسيم السُّور إلى قسمين فقط: مكّيّ خالص، و مدنيّ خالص، حتّى لايكون هناك قسم ثالث بعضه مكّيّ و بعضه مدنيّ؛ لما سبق من الأسباب الّتي تدعو إلى عـدم قبوله، و أهمّها أنّ ما يقع من المدنيّ في المكّيّ وبالعكس يبدو ناشزًا فيهما، خارجًا على

---

١ ـ البقرة /٢١.

٢ ـ البقرة /١٦٨.

سياقه، غير ملائم لزمنه، و قد يتّخذ منه أعداء الإسلام مطعنا في القرآن، فإذا وردت مثلاً آية مدنيّة في سورة مكّيّة كآية الرّعد الّتي قيل: إنّ المراد بقوله تعالى فيها: ﴿وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1] عبدالله بن سَلاّم، قالوا: إنّ هذا خطأ؛ لأنّ السّورة مكّيّة، و عبدالله لم يسلم إلاّ بعد الهجرة، فإذا قيل لهم: إنّ هذه الآية مدنيّة، لم يكن كافيًا لإقناعهم، و لايكون موقفنا معهم كموقفنا إذا قلنا: إنّ الآية مكّيّة كسورتها، ﴿وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وَرَقَة بن نَوْفَل من أهل مكّة أو غيره. **(العدد: ٣ ـ ٤، السّنة: ١٣٨٠، الصّفحة: ٣٥٦)**

ـ ٢ ـ

لم يبق بعد تمهيد ما سبق إلاّ أن نأخذ في تفصيل ما أجملناه، و ننظر في كلّ سورة قيل: إنّها تجمع بين المكّيّ و المدنيّ، و لانريد أن نشعّب القول في ذلك تشعيبًا، و لا أن نستقصي كلّ ما قاله فيه المفسّرون؛ لئلاّ يؤدّي بنا هذا إلى أن نطوّل فيه تطويلاً مملًّا، و قد آثرنا لهذا أن نقتصر على ما ورد في أوّل كلّ سورة في المُصْحَف من الإشارة إلى ما ورد من الآيات المكيّة فيما هو مدنيّ، و من الآيات المدنيّة فيما هو مكّيّ، و قد نجاوز هذا قليلاً إذا اقتضى المقام منّا أن نجاوزه، و سنرتّب الكلام في هذا على ترتيب تلك السُّور في المُصْحَف، لنأخذها في هذا التّرتيب سورة بعد سورة.

١ـ سورة الفاتحة: هذه السّورة أنسب السُّور لوضعها من القرآن موضع المقدّمة له، كما أنّهاأنسب السُّور للقراءة في الصّلاة، فهي إمّا أن تكون نزلت بمكّة مع تشريع الصّلاة لكونها ركنًا من أركانها، و إمّا أن تكون نزلت بالمدينة عند قرب تكامل القرآن لتكـون مقدّمة له، و لا معنى للقول بأنّها نزلت مرّتين بمكّة و المدينة جمعًا بين القـولين[2]؛ لأنّ الجمع بين القولين ليس بواجب، و لايصحّ منّا أن نقبله على حساب التّاريخ ؛لأنّه يكون حينئذ غير صحيح.

٢ـ سورة البقرة: قيل: إنّها مدنيّة إلاّ الآية: ٢٨١ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾ فنزلت بمنى في حجّة الوداع، فإذا رجعنا إلى ما

---

١ ـ الرّعد /٤٣.

٢ ـ يشبه أن يكون القول بأنّ نصفها الأوّل نزل بمكّة و الثّاني بالمدينة جمعًا بين القولين أيضًا.

سبق لم نجد مثل هذا قيل في سورة البقرة كما قيل في غيرها، و حينئذ لايكـون هـذا الاستثناء محلّ اتّفاق بينهم، وليس في الآية مايدلّ على مكان نزولها، ولو سلّم أنّهانزلت بمنى في حجّةالوداع فإنّها تكون مدنيّة أيضًا، على ما هوالأشهر فيالمكّيّ والمدنيّ كما سبق .

٣ـ سورة النّساء: هي مدنيّة إلاّ الآية: ٥٨ ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوا الْاَمَانَاتِ اِلىٰ اَهْلِهَا﴾ فإنّها نزلت بمكّة عام الفتح في مفتاح الكعبة، وهي في هذا كالآية السّابقة في البقرة سواء بسواء؛ لأنّها نزلت بعد الهجرة مثلها، فلايؤثّر نزولها بمكّة في كونها مدنيّة[١].

٤ـ سورة المائدة: هي مدنيّة إلاّ الآية:٣ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ فـنزلت بعرفات في حجّة الوداع، و شأنها في هذا مثل شأن آية البقرة أيضاً، و هذا إلى أنّه ليس فِي الآية ما يعيّن زمن نزولها.

٥ـ سورة الأنعام: هي مكّيّة إلاّ الآيات: ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ فمدنيّة، فأمّا الآية(٢٠) فهي: ﴿اَلَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ اَبْنَاءَهُمْ﴾ ولاسبب لجعلها مدنيّة عند من ذهب إليه إلاّ حمل مافيها على مسلمي أهل الكتاب بعد الهجرة، مثل عبدالله بن سَلاّم و غيره ممّن أسلم من يهود المدينة، و حملها عليهم غـير متعيّن؛لأنّه يمكن حملها على وَرَقَة بن نَوْفَل و غيره ممّن كان عندهم علم بالكتاب من أهل مكّة، و هذا إلى أنّ المشهور في سورة الأنعام أنّها نزلت جملةً بمكّة، و هذا ظاهر في أنّ جميع آياتها مكّيّة، و هذا يقال في الآيات الآتية أيضًا.

وأمّا الآية: ٢٣ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ اِلاَّ اَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فهي متّصلة بما قبلها و ما بعدها اتّصالاً يبعد معه تأخّر نزولها عنهما.

وأمّا الآية: ٩١ ﴿وَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ اِذْ قَالُوا مَا اَنْزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ اَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسىٰ ـ إلى ـ يَلْعَبُونَ﴾.

فسبب جعلها مدنيّة دعوى بعضهم أنّ المحاورة فيها مع بعض يهود المدينة و يبعده قوله: ﴿مَا اَنْزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنّ هذا لايصحّ أنّ يقوله اليهود المعترفون بـنبوّة موسى و غيره من رسلهم ولو على سبيل العناد، لأنّ العناد في مثله لا يصحّ أن يقع منهم، و

١ ـ و هذا إلى أنّ الأمانات فيها مطلقة غير مقيّد بمفتاح الكعبة و غيره.

إنّما يصحّ أن يقع من مشركي قُريش و نحوهم و على هذا يكون قوله بعده: ﴿قُلْ مَنْ اَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسىٰ﴾ إلزامًا لهم ؛لأنّه كان من المشاهير الذّائعة عندهم على أنّه كان خاصًّا باليهود، و لهذا كانوا يقولون: ﴿لَوْ اَنَّا اُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا اَهْدىٰ مِنْهُمْ﴾[1]، والخطاب في قوله بعده: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ للمشركين أيضًا، و إن كان جعلها قراطيس من اليهود لامنهم؛ لأنّ اعترافهم بالتّوراة على ما سبق يسوّغ إضافة هذا إليهم، فقد جاء فيها البشارة بالنّبيّ ﷺ و اعترافهم بها يوجب عليهم الإيمان به، فإذا لم يؤمنوا به فقد جعلوها قراطيس أيضًا، و ممّا يؤيّد أنّ الخطاب في هذا لمشركي قُريش قوله بعده: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا اَنْتُمْ وَ لاَ اٰبَاؤُكُمْ﴾ لأنّ الخطاب فيه لهم قطعًا.

و أمّا الآية ٩٣ ﴿وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا اَوْ قَالَ اُوحِىَ اِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ اِلَيْهِ شَىْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَاُنْزِلُ مِثْلَ مَا اَنْزَلَ اللهُ﴾ ، فليس فيها مثل ما في الآية السّابقة ممّا يصحّ الاعتماد عليه في جعلها مدنيّة، فلايكون هناك وجه لجعلها مدنيّة لامكّيّة مثل باقي آيات السّورة.

و أمّا الآية: ١١٤ ﴿اَفَغَيْرَ اللهِ اَبْتَغِى حَكَمًا وَ هُوَ الَّذِى اَنْزَلَ اِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ اَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ فالمراد ﴿بِالَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيها وَرَقَة بن نَوْفَل و نحوه من أهل مكّة، لا عبدالله بن سَلاّم و نحوه من أهل المدينة، و بهذا تكون مكّيّة لا مدنيّة.

و أمّا الآية: ١٤١ ﴿وَهُوَ الَّذِى اَنْشَاَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا اُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ اِذَا اَثْمَرَ وَاٰتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لاَ تُسْرِفُوا اِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، فمن جعلها مدنيّة استند إلى قوله فيها: ﴿وَاٰتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ لأنّه حقّ الزّكاة، و قد وجبت الزّكاة في المدينة لا في مكّة، وكان الحصاد أيضًا في المدينة لا في مكّة؛ لأنّها في وادٍ غير ذِى زرع، و قد أجاب من ذهب إلى أنّها مكّيّة عن هذا بأنّ وجوب الزّكاة في المدينة لا يمنع وجوبها في مكّة أيضًا، ولعلّ الّذي حصل في المدينة تفصيل أحكامها، و بيان أنصبتها، و بأنّه يجوز أن يكون ما في الآية غير حقّ الزّكاة، و قد قال مجاهد: إذا حصدت فحضرت المساكين فاطرح لهم منه، وإذا دسته و

١ ـ الأنعام /١٥٧.

ذرّيّته فاطرح لهم منه، و إذا كربلته[١] فاطرح لهم منه، و إذا عرفت كيله فأعزل زكاته، و قيل: إنّ هذا كان قبل وجوب الزّكاة، فلمّا وجبت نسخ بها، و كان لبعض أهل مكّة زرع في الطّائف و الأودية المجاورة لهم.

وأمّا الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ ﴿قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات، فلعلّ السّبب في جعلها مدنيّة ما سبق في سورة المطفّفين من السّور المختلف في أنّها مكّيّة أو مدنيّة، و أنّ من ذهب إلى أنّهامدنيّة اعتمد على أنّ أهل المدينة كانوا يطفّفون الكيل والميزان فنزلت فيهم، و الاعتماد على هذا ضعيف، لأنّ التّطفيف عيب منتشر في كلّ القُرىٰ والمُدُن لغلبة الطّمع على النّفوس، ولا يختصّ بأهل المدينة وحدهم.

٦ـ **سورة الأعراف**: مكّيّة إلاّ من آية ١٦٣ إلى غاية آية: ١٧٠ فمدنيّة، و هي تبتدىء بقوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ و الآيات بعدها في قصّة هذه القرية، و عقاب الله لها على اعتدائها في السّبت، و هي من قصص بني إسرائيل المذكورة في هذه السّورة قبل هذه الآيات، و هي خاتمة قصصها فيها، فيجب أن تكون مكّيّة مثلها، و لهذا لم تذكر سورة الأعراف فيما سبق من السُّور المختلف في أنّها مكّيّة أو مدنيّة.

٧ـ **سورة الأنفال**: مدنيّة إلاّ الآيات (٣٠ـ ٣٦) فمكّيّة، و تبتدىء بقوله تعالى: ﴿وَ اِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ اَوْ يَقتُلُوكَ اَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآيات و هي معطوفة على قوله قبلها: ﴿وَاذْكُرُوا اِذْ اَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْاَرْضِ﴾ فيذكّرهم بعد انتصارهم على المشركين في بدر بأحوالهم معهم في مكّة قبل هجرتهم منها، ليعرفوا فضله عليهم في هذا النّصر بعد ما كان من قتلهم و استضعافهم و تآمر المشركين و تعنّتهم عليهم في مكّة، و بهذا تكون الآيات مدنيّة متمشّية مع سياق السّورة، و لامعنى لجعلها مكّيّة بعد قوله في بدئها: ﴿وَاِذْ يَمْكُرُ﴾ ؛ لأنّه صريح في نزولها في المدينة،لأنّه معمول لاذكر مقدّرة.

٨ـ **سورة التّوبة**: مدنيّة إلاّ الآيتين الأخيرتين فمكّيّتان، و هما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ﴾ الآيتين، وهما بعد كلام كثير مع المنافقين من أهل المدينة، وكانوا عربًا مثل مشركي مكّة، فيصحّ أن يكون الخطاب لأُولئك المنافقين أو للعرب

١ ـ كربلته: الكربلة: تهذيب الحنطة و تنقيتها.

جميعًا؛لأنّه ﷺ منهم أيضًا، و ممّا يؤيّد هذا ما ذهب إليه أُبيّ بن كعب و الحسن و سعيد بن جُبَيْر أنّ الآيتين آخر مانزل من القرآن.

٩ـ **سورة يونس:** مكّيّة إلاّ الآيات (٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦) فمدنيّة، فأمّا الآية: ٤٠ **﴿وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ اَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾**، فهي جارية على سياق ما قبلها و مابعدها من الآيات. و لا شيء فيها يمنع كونها مكّيّة مثلها؛ لما سبق أنّ الأمر في هذا مرجعه إلى الاجتهاد، و أمّا الآيات (٩٤ ـ ٩٦) فتبتدىء بقوله تعالى: **﴿فَاِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا اَنْزَلْنَا اِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾** و من ذهب إلى أنّها مدنيّة فهم أنّ المراد بمن يقرأون الكتاب من قبله عبدالله بن سَلاّم و نحوه ممّن أسلم من يهود المدينة، وهذا غير متعيّن فيها، بل الأُولى حمله على وَرَقَة بن نَوْفَل و نحوه من أهل مكّة، و حينئذ تكون الآيات الثّلاث مكّية لا مدنيّة مثل باقي السُّورة.

(العدد: ٥٠، السّنة: ١٣٨١، الصّفحة: ١٨٥)

ـ ٣ ـ

وصلت فيما سبق إلى إثبات رأيي فيما قبل سورة هود أنّ السّور إمّا مكّيّة خالصة، وإمّا مدنيّة خالصة، و سأمضي هنا في إثباته في سورة هود و ما بعدها.

١٠ـ **سورة هود:** مكّية إلاّ الآيات (١٢، ١٧، ١١٤) فمدنيّة، فأمّا الآية: ١٢ **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ مَا يُوحىٰ اِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ اَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ اُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾** الآية، فهي في مشركي مكّة، و لا وجه لجعلها مدنيّة.

و أمّا الآية: ١٧ **﴿اَفَمَنْ كَانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسىٰ اِمَامًا وَ رَحْمَةً اُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** الآية، فمن جعلها مدنيّة حمل قوله: **﴿اَفَمَنْ كَانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾** على عبدالله بن سَلاّم و نحوه ممّن أسلم من يهود المدينة، و قد سبق في مثله أنّه يمكن حمله على وَرَقَة بن نَوْفَل و نحوه من أهل مكّة، و بهذا تكون الآية مكّيّة مثل ما قبلها و ما بعدها من الآيات.

و أمّا الآية: ١١٤ **﴿وَ اَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَ زُلَفًا مِنَ الَّيْلِ﴾**، فشأنها شأن الآية:١٢ سواء بسواء.

١١ـ **يوسف**: مكّيّة إلاّ الآيات (١، ٢، ٣، ٧) فمدنيّة، فأمّا الآيات: ١ ـ ٣ ﴿الٓر تِلْكَ اٰيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الآيات، فلا وجه لجعلها مدنيّة؛ لأنّ طابعها مكّيّ لامدنيّ، و كذلك الآية:٧ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَ اِخْوَتِهِ اٰيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾؛ لأنّها متمشّية مع سياقها، و لا معنى لجعلها مدنيّة في وسطه، و قد قيل: إنّ السّائل فيها حبر من أحبار اليهود بالمدينة بعد الهجرة، وهو ضعيف ؛ لأنّ المعني لمن يريد أن يسأل من مشركي مكّة.

١٢ـ **سورة الرّعد**: قال الأصمّ: مدنيّة بالإجماع سوى آية ٣١: ﴿وَ لَوْ اَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ و دعواه الإجماع غير صحيحة؛لأنّه قيل: إنّها مكّيّة سوىٰ قوله تعالى: ﴿وَلاَيَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ و قوله: ﴿وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، و هو الرّاجح عندي بلا استثناء فأمّا الآية الأُولى: ٣١ ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ اَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾، فسبب جعلها مدنيّة عند بعضهم حمله القارعة على ماكان يصيبهم من سرايا المسلمين بعد هجرتهم. و الأولى حملها على ماكان يصيبهم من البلايا و الحروب بسبب تفرّقهم وانقسامهم إلى قبائل متعادية متخاصمة، و لامنجاة لهم من هذا إلاّ بدين يجمعهم و مثل هذه الآية في هذه السّورة الآية: ٤١ ﴿اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّا نَاْتِى الْاَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ اَطْرَافِهَا﴾، فقد قيل: إنّ المراد بها أرض مكّة ينقصها المسلمون من أطرافها بعد هجرتهم منها، والحقّ عندي أنّ المراد بها أرض العرب ينقصها دولتا فارس و الرّوم من أطرافها، و هو تحذير لمشركي قُريش و غيرهم من مشركي العرب من استمرارهم على تفرّقهم ؛لأنّه هو الّذي يمكن للدّولتين منهم، ولا ينقذهم من هذا إلاّ دين يجمع كلمتهم.

و أمّا الآية الثّانية: ٤٣ ﴿قُلْ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، فلا يتعيّن فيها أن يكون من عنده علم الكتاب عبدالله بن سَلاّم على ما سبق في نظيره.

١٣ـ **سورة إبراهيم**: مكّية إلاّ آيتي (٢٨،٢٩) فمدنيّتان، و الآيتان هما قوله تعالى: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ الآيتين، وهم أهل مكّة، أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن، و جعل في السّعة، فكفروا به، و جعلوا له شركاء من أصنامهم، و هذا ظاهر في أنّهما مكّيتان لامدنيّتان.

١٤ـ **سورة الحِجر**: مكّيّة إلاّ آية (٨٧) فمدنيّة، و هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اٰتَيْنَاكَ سَبْعًا

مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْاٰنَ الْعَظِيمَ﴾، و من ذهب إلى أنّها مدنيّة حمل السّبع المثاني على السّبع الطُّوال، و فيها سور مدنيّة كما سبق، فتكون الآية مدنيّة أيضًا، و لكن أرجح الأقوال في السّبع المثاني أنّها سورة الفاتحة؛ لأنّها سبع آيات، و قيل: إنّها القرآن كلّه، و على هذا تكون الآية مكّيّة مثل باقي آيات السّورة.

١٥ـ **سورة النّحل**: قيل إنّها مكّية غير ثلاث آيات في آخرها، و حكى الأصمّ عن بعضهم أنّها كلّها مدنيّة، و قال آخرون: من أوّلها إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] مدنيّ، و ما سواه فمكيّ، و عن قَتادة بالعكس. و لا وجه لهذا الاضطراب عندي، و إنّي أرى أنّ طابعها مكّيّ من أوّلها إلى آخرها، و سأثبت في الآيات الّتي يظنّ فيها خلاف هذا أنّها مكّية.

و **أوّلها** ـ قوله تعالى في الآية: ٤١ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ الآية، فحمل من ذهب إلى أنّها مدنيّة الهجرة فيها إلى هجرة المدينة، و يجب عندي حملها على هجرة الحبشة؛ لتكون الآية مكّيّة على سياق السّورة.

و **ثانيها** ـ الآيات: ٩١ ـ ٩٦ ﴿وَ اَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ اِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الآيات، فحمل العهد فيها من ظنّ أنّها مدنيّة على عهد الهُدنة بين المسلمين و غيرهم بعد شَرْع القتال في المدينة، والحقّ عندي أنّ هذا العهد لا يتعيّن في عهد الهُدنة؛ لأنّ هناك عهودًا كثيرة في جميع المعاملات يجب الوفاء بها، و حينئذ تكون هذه الآيات مكّيّة أيضًا.

و **ثالثها** ـ قوله تعالى في الآية: ١١٠ ﴿ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا﴾ الآية، و قد سبق أنّ الهجرة هنا هجرة الحبشة لاهجرة المدينة، و كذلك الجهاد في الآية هو الجهاد بالمال و بالصّبر على أذى المشركين في مكّة، و لا يتعيّن أن يكون الجهاد بالقتال الّذي شُرّع بعد الهجرة إلى المدينة.

و **رابعها**: الآيات: ١٢٦ ـ ١٢٨ ﴿وَ اِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآيات، قيل إنّها نزلت في غزوة أُحد حينما مثّل المشركون بحمزة، فقال النّبيّ ﷺ: والله لأُمثّلنّ بسبعين منهم، والحقّ عندي أنّ العقاب في الآية عامّ يشمل الضّرب و الشّتم و نحوهما ممّا كان قبل شَرْع القتال في المدينة، فالمقصود من الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزّيادة من

١ ـ النّحل / ٤٠.

الظّالم، كما قال ابن سيرين: إن أخذ منك رجل شيئًا فخذ منه مثله، و حينئذ تكون الآيات مكّية لامدنيّة.

١٦ـ **سورة الإسراء:** مكّيّة إلاّ الآيـات (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧)، و الآيـات (٧٣ ـ ٨٠) فمدنيّة، و سأثبت أنّ هذه الآيات مكّيّة أيضًا مثل باقي آيات السّورة.

فأمّا الآيات (٢٦، ٣٢، ٣٣) فقد وردت في جملة وصايا ابتدأت بالآية: ٢٣ ﴿وَقَضىٰ رَبُّكَ اَلاَّ تَعْبُدُوا اِلاَّ اِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ اِحْسَانًا﴾، وانتهت بالآية ٣٩ ﴿ذٰلِكَ مِمَّا اَوْحىٰ اِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، و **سياق هذه الوصايا واحد، فلا وجه لجعل بعضها مدنيًّا و بعضها مكّيًّا.**

و أمّا الآيات (٧٣ ـ ٨٠) فنبتدىء بقوله تعالى: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ إلى أن يقول: ﴿وَ اِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْاَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ والخطاب في هذا كلّه لمشركي قريش و ما كان من شأنهم بعد بسببها لشدّة إنكارهم لها، و حينئذ يكون سياقها مكّيًّا أيضًا، و هو ما ذهب إليه كثير من المفسّرين.

١٧ـ **سورة الكهف:** مكّيّة إلاّ الآية (٢٨) و الآيات (٨٣ ـ ١٠١) فمدنيّة، و عن قَتادة أنّها مكّيّة من غير استثناء، و هذا هو الأرجح عندي.

فأمّا الآية: ٢٨ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية، فإنّها نزلت في شأن قُريش حين قال أكابرهم للنّبيّ ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك **فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الّذين آمنوا بك، و حينئذ تكون هذه الآية مكّيّة لا مدنيّة.**

و أمّا الآيات: ٨٣ ـ ١٠١ ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ﴾ الآيات، فهي في قصّة ذي القرنين، و السّائلون فيها هم مشركوا قُريش، كما هـو مشـهور، و حـينئذ تكـون هـذه الآيات مكّية أيضًا.

١٨ـ **سورة مريم:** مكّيّة إلاّ الآيتين (٥٨ ـ ٧١) فمدنيّتان، فأمّا الآية: ٥٨ ﴿اُولٰـئِكَ الَّذِينَ اَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، فهي واردة بعد قصص أنبياء سابقين عليها، فتكون هذه الآية مكّيّة مثل الآيات السّابقة عليها في هؤلاء الأنبياء.

وأمّا الآية: ٧١ ﴿وَاِنْ مِنْكُمْ اِلاَّ وَارِدُهَا﴾ الآية، فالضّمير في ﴿وَارِدُهَا﴾ يعود على النّار في الآيات قبلها، وحينئذ تكون متّصلة بها كلّ الاتّصال، ولا يكون فيها شيء يشعر بأنّها مدنيّة.

١٩ـ **سورة طٰهٰ**: مكّيّة إلاّ الآيتين (١٣٠، ١٣١) فمدنيّتان، و هما قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ اِلىٰ مَا متَّعْنَا بِهِ اَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ الآيتين، والضّمير في (مِنْهُمْ) عائد إلى المذكورين في قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ و هم مشركوا قُريش، فتكون هذه الآية مكّيّة أيضًا وفاقًا لسياقها.

٢٠ـ **سورة الحجّ**: و استثنى بعضهم: الآيات (٥٢ ـ ٥٤)؛ لأنّها نزلت بين مكّة والمدينة، و قد سبق أنّ المكان لا شأن له في تمييز المكّيّ من المدنيّ، و إنّما الشّأن في هذا لما نزل قبل الهجرة إلى المدينة و بعدها. و قيل: إنّها مدنيّة إلاّ الآيات (١٩ ـ ٢٤) و هي ﴿هٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ﴾ الآيات، و الإشارة فيه (هٰذَانِ) إلى أهل الأديان السّتّة في قوله: ﴿اِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية، فتكون هذه الآيات مكّيّة مثله، و لهذا لم تستثنَ في القول الأوّل مع ما استثني فيه.

٢١ـ **سورة الفرقان**: مكّيّة إلاّ الآيات (٦٨ ـ ٧٠) فمدنيّة، و هذه الآيات تبتدىء بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ اِلٰهًا اٰخَرَ﴾ الآيات، و هي معطوفة على قوله في الآية: ٦٣ ﴿وَ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْاَرْضِ هَوْنًا﴾ الآية، و كلّها سياق واحد مكّيّ، و لا معنى لجعل بعضه مكّيًّا و بعضه مدنيًّا.

٢٢ـ **سورة الشُّعراء**: مكّيّة إلاّ الآية (١٩٧) و الآيات (٢٢٤ ـ ٢٢٧) فمدنيّة، فأمّا الآية: ١٩٧ ﴿اَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ اٰيَةً اَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰؤُا بَنِى اِسْرَائِيلَ﴾، فمن ذهب إلى أنّها مدنيّة حمل ﴿عُلَمٰؤُا بَنِى اِسْرَائِيلَ﴾ على من آمن به منهم بعد الهجرة مثل عبدالله بن سَلاّم، و لكنّ الآية ليس فيها إيمانهم به، و إنّما فيها علمهم ما جاء فيه، أي من التّوحيد و نحوه، و بطلان عبادة الأصنام، و حينئذ لا يكون في الآية ما يجعلها مدنيّة لا مكّيّة؛ لأنّ الاحتجاج بعلمهم بهذا يصحّ مع كونها مكّيّة لا مدنيّة.

و أمّا الآيات: ٢٢٤ـ ٢٢٧ ﴿و الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنَ﴾ إلى أن قال: ﴿اِلاَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فمن جعلها مدنيّة حمل الّذين استثنوا من الشُّعراء على عبدالله بن رَواحة وحَسّان بن ثابت و كَعب بن زُهَيْر، و كان إسلامهم بعد الهجرة، و لايتعيّن عندي حمل هذا عليهم ؛ لأنّ هذه الآيات وردت ردًّا على قول مشركي قُرَيْش: لم لايجوز أن

يكون القرآن من تنزيل الشّياطين على محمّد كتنزيلهم الشّعر على الشُّعراء؟ فأُجيب بالفرق بين ما يدعو إليه في القرآن، و ما يدعون إليه في الشّعر، و لابدّ أنّ هذا الجواب نزل بمكّة عقب قولهم ؛لأنّه لا يصحّ تركه هذه المدّة الطّويلة من غير جواب، و هذا الاستثناء لابدّ منه، و لو لم يؤمن بعضهم بالفعل ؛لأنّه لا يصحّ ذمّ الشّعر و الشُّعراء على الإطلاق في مقام التّشريع، لأنّ من الشّعر ما يقال في الحكم و نحوها، و هو شعر صالح يجب استثناؤه من ذلك الذّمّ، و حينئذ تكون هذه الآيات مكّيّة أيضًا.

٢٣ـ **سورة القصص**: مكّيّة إلاّ الآيات (٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٨٥) فمدنيّة، فأمّا الآيات (٥٢، ٥٥) فتبتدىء بقوله تعالى: ﴿اَلَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات، فمن جعلها مدنيّة حملها على عبدالله بن سَلاّم و نحوه من يهود المدينة، و قد سبق أنّ هذا ليس بمتعيّن؛ لأنّها يجوز حملها على ورقة بن نَوْفَل و نحوه من أهل مكّة، و أزيد هنا أن مشركي قُرَيْش كانوا يبعثون قبل الهجرة إلى هؤلاء اليهود يستفتونهم في محمّد، فكان بعضهم يفتيهم بأنّه يجد نعته في توراتهم، فيمكن حمل هذه الآية وما سبق من نظائرها عليهم.

و أمّا الآية ٨٥: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ لَرَادُّكَ اِلىٰ مَعَادٍ﴾ الآية فليس فيها ما يدلّ على أنّها مدنيّة إلاّ حمل المعاد على مكّة، أي لرادّك إليها بعد هجرتك منها بفتحها، و هذا ليس بتعيّن في الآية؛ لأنّ كثيرًا من المفسّرين ذهب إلى أنّ المراد بالمعاد القيامة، وهو المناسب لسياق ما قبله و ما بعده، فيكون مكّيًا مثله.

٢٤ـ **سورة العنكبوت**: مكّيّة، و قيل مدنيّة، و قيل: نزلت من أوّلها إلى رأس عشر آيات بمكّة، و باقيها بالمدينة، و قيل بعكس هذا، و هذا اضطراب كثير، سببه أنّ في السّورة طابعًا من المدنيّ، و طابعًا من المكّيّ، و سبب جمعها بين الطّابعين أنّها نزلت بعد أن هاجر بعض المسلمين إلى المدينة، و كان النّبيّ ﷺ لا يزال بمكّة، فكان يحثّ من لم يهاجر على الهجرة و ما يكون بعدها من جهاد في سبيل الله، و قد استجاب له المسلمون إلاّ قليلاً منهم صعبت عليه الهجرة و الجهاد، و هم المنافقون الّذين ورد ذكرهم في أوّل السّورة، و هم منافقو مكّة لا منافقو المدينة، و لهذا أختار ما ذهب إليه بعضهم من أنّ السّورة كلّها مكّيّة.

فأمّا الآيات الأُولى منها فتبتدىء بقوله تعالى: ﴿الٓم * اَحَسِبَ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوا اَنْ يَقُولُوا اٰمَنَّا وَ هُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ أي يختبرون بالهجرة و الجهاد، ثمّ مضى الكلام في هذا و فيمن

صعب عليه من أُولئك المنافقين، و في بيان أنّ هذا كان سبيل من قبلهم من أتباع الرّسل، وكان هذا سببًا في الانتقال منه إلى ذكر قصص بعضهم تفصيلاً بعد الإشارة إليه إجمالاً.

ثمّ جاء بعد هذا في الآية: ٤٦ ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا اَهْلَ الْكِتَابِ اِلاَّ بالَّتِى هِىَ اَحْسَنُ﴾ الآية طابع مدنيّ؛ لأنّ الإسلام كان قد انتشر بالمدينة، و فيها يهود قبل أن يهاجر النّبيّ ﷺ إليها، فهي توصية لمن أسلم من أهل المدينة و من هاجر قبله.

ثمّ عاد التّرغيب في الهجرة بقوله في الآية ٥٦: ﴿يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّ اَرْضِى وَاسِعَةٌ فَاِيَّاىَ فَاعْبُدُونَ﴾ و مضى الكلام فيه إلى آخر السّورة.

٢٥ـ سورة الرّوم: مكّيّة إلاّ الآية(١٧) فمدنيّة، و هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ﴾ و ليس فيها شيء يقتضي جعلها مدنيّة دون ما قبلها و ما بعدها من الآيات، و حينئذ تكون مكّيّة أيضًا.

٢٦ـ سورة لقمان: مكّيّة إلاّ الآيات (٢٧ ـ ٢٩) فمدنيّة. و قيل: إنّها مكّيّة إلاّ الآية (٤) ﴿اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ﴾ الآية؛ لأنّ الصّلاة و الزّكاة نزلتا بالمدينة، و لاشكّ أنّ هذا غير صحيح في الصّلاة؛ لأنّها نزلت بمكّة، و أمّا الزّكاة فقد سبق أنّها كانت واجبة فيها أيضًا أو مندوبة على الأقلّ، فيكون الّذي نزل بالمدينة فرضها، أو تفصيل أحكامها.

(العدد: ٥١ ـ ٥٢، العام: ١٣٨٢: ٣٢٢)

الفصل الرّابع والعشرون

نصّ الخَطيب (معاصر) في «التّفسير القرآني للقرآن»

﴿وَاِذَا بَدَّلْنَا اٰيَةً مَكَانَ اٰيَةٍ وَاللهُ اَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ...﴾ النّحل: ١٠١

[عقّب المؤلّف بعد ذكر أقوال المفسّرين في تفسير هذه الآية و نقدها بقوله:]

و إذن فما تأويل هذه الآية؟ و ماالمراد بالتّبديل لآية مكان آية؟

الجواب ـ والله أعلم ـ أنّ المراد بتبديل آية مكان آية هنا هو ما كان يحدث في ترتيب الآيات في السّور، ووضع الآية بمكانها من السّورة، كما أمر الله سبحانه و تعالى. وذلك أنّ آيات كثيرة كانت ممّا نزل بالمدينة و قد وضعت في سورة مكّيّة، كما أنّ آيات ممّا كان قد نزل بمكّة أُلحقت بالقرآن المدنيّ.

وهذا الّذي حدث بين القرآن المكّيّ و المدنيّ، من تبادل الأمكنة للآيات بينهما، قد حدث في القرآن المكّيّ والمدنيّ كلّ على حِدة، فكانت السّورة المكّيّة مثلاً تنزّل علىٰ فترات متباعدة، فتنزّل فاتحتها، ثمّ تنزّل بعد ذلك آيات آيات حتّى يتمّ بناءها.

و على هذا، فإنّ تبديل آية مكان آية هو وضع آية نزلت حديثًا بمكانها الّذي يأمر الله سبحانه و تعالى أن توضع فيه بين آيات سبقتها بزمنٍ قد يكون عدّة سنين.

فقد اتّفق علماء القرآن على أنّ آيات نزلت بمكّة، ثمّ حين نزل من القرآن في المدينة ما يناسبها أخذت مكانها فيه. و هذا يعني أنّها نقلت من مكانها في السُّورة المكّيّة إلى مكانها الّذي كانت تنتظره أو كان ينتظرها في السّورة المدنيّة.

و من أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وَ اَنْتَ فِيهِم﴾[١] فهذه الآية مكّيّة باتّفاق، و قد وضعت في سورة الأنفال، و هي مدنيّة باتّفاق أيضًا.

و هذا يعني أنّ الآية من هذه الآيات كانت تأخذ مكانها مؤقّتًا في السّورة المكّيّة، حتّى إذا نزلت سورتها المدنيّة أخذت مكانها الّذي لها في تلك السّورة.

و من هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ...﴾ إلى آخر السّورة،[٢] و هاتان الآيتان مكّيّتان، و قد وضعتا بمكانهما فمن آخر التّوبة، و هي مدنيّة.

و هكذا كان الشّأن في السُّور المكّيّة، فإنّها كانت تستقبل جديدًا من الآيات المدنيّة، و تأخذ مكانها المناسب لها بين آيات السّورة حيث يأمر الله، و ذلك كثير في القرآن الكريم، و قلّ أن تخلو سورة مكّيّة من دخول آية أو آياتٍ مدنيّة على بنائها.

فهذا التّدبير السّماويّ لبناء القرآن الكريم، و ترتيب الآيات في السُّور اقتضى أن تأخذ بعض الآيات أمكنة ثابته دائمة بدلاً من أمكنتها الموقوته الّتي كانت تأخذها بين آيات أُخرى غير تلك الآيات الّتي استقرّت آخر الأمر معها.

و لاشكّ أنّ كثيرًا من المشركين و المنافقين و مرضَى القلوب ـ كانوا ينظرون إلى هذا التّبديل و التّغيير الّذي كان يؤذِنُ النّبيّ أصحابَه وكُتّاب الوحي به ـ كانوا ينظرون إليه نظر اتّهام للنّبيّ بأنّه إنّما يعيد بناء قرآنه، و يغيّر و يبدّل فيه، و يصلح من أمره مايراه غير مستقيم عنده، شأنه في هذا شأن الشّاعر، ينشىء القصيدة، ثمّ يجري عليها من التّعديل والتّبديل ما يبدوله حتّى تستقيم لنظره، و تقع موقع الرّضا من نفسه، هكذا فكّروا و قدّروا.

و إذن، فما محمّد و القرآن الّذي معه ـ والّذي يجري عليه هذه التّسوية بالتّبديل والتّغيير في بنائه ـ إلاّ واحدًا من هؤلاء الشُّعراء الّذين يجوّدون شعرهم، و يسوّون وجوهه، فيكون لهم من ذلك تلك القصائد المعروفة بالحوليّات الّتي يعيش الشّاعر معها حولاً كاملاً، يعالج ما فيها من عِوَج حتّى تستقيم له.

و إذن، فما دعوى محمّد بأنّ هذا القرآن من عندالله إلاّ محضُ كذب وافتراء.

هكذا كان يقول المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض في النّبيّ الكريم حين كانوا

---

١ ـ الأنفال /٣٣.

٢ ـ التّوبة /١٢٨ ـ ١٢٩.

يَرَوْنه يصنع هذا الصّنيع في ترتيب الآيات القرآنيّة في سورها حسب الوحي السّماويّ الّذي يتلقّاه من ربّه.

و قد ردّ الله سبحانه و تعالى على هؤلاء السّفهاء بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]

و روح القدس هو جبريل عليه السلام، و هو السّفير بين الله سبحانه و تعالى و بين النّبيّ الكريم بهذا القرآن الكريم.

و قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليربط على قلوبهم، و يقوّي عزائمهم، ويثبّت أقدامهم على طريق الإيمان، بما ينزّل عليهم من آياتٍ تؤنس وحشتهم، و تكشف لهم عن العاقبة المسعدة الّتي ينتهي إليها صراعهم مع قُوى البغي و العدوان.

فالثّابت من تاريخ القرآن ـ كما قلنا ـ أنّ آياتٍ كثيرة نزلت، ثمّ لم تأخذ مكانها في السُّور الّتي هي منها إلاّ بعد زمن امتدّ بضع سنين.

فهذه الآيات الّتي سبقت سُورها إنّما كانت للتّعجيل ببُشريّات للنّبيّ و للمؤمنين معه.

فسورة الأنفال مثلاً ـ و هي مدنيّة باتّفاق ـ قد ضمّ إليها سبع آيات كانت قد نزلت بمكّة، وهي قوله. تعالى:﴿وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ اَوْ يَقْتُلُوكَ اَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُاللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ...﴾[2].

ففي ظِلّ هذه الآيات استروح النّبيّ والمؤمنون ـ و هم في مكّة ـ أرواحَ الأمل والرّجاء، و من تلقاء هذه الآيات استقبل النّبيّ و المؤمنون بشائر النّصر لهذا الدِّين الّذي تَلَقّى على يد المشركين ألوانًا من الكيد و المكر، و ضروبًا من السّفاهة و الجهل.

لقد كانت تلك الآيات، و كثيرٌ غيرها، هي الزّاد الّذي يتزوّد به النّبيّ و المؤمنون أثناء تلك الرّحلة القاسية الّتي قطعها النّبيّ و المؤمنون معه في شِعاب مكّة و دروبِها من أوّل البعثة إلى أن أذن الله سبحانه و تعالى له بالهجرة.

وبهذا الزّاد تقوّى النّبيّ و المؤمنون معه على حمل هذا العبء الثّقيل خلال تلك الرّحلة المضنّية القاسية، و هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ

١ ـ النّحل /١٠٢.
٢ ـ الأنفال /٣٠ ـ ٣٦.

بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾[١]. و قد اختُصّ الّذين آمنوا بالذّكر هنا؛ لأنّهم كانوا في حاجةٍ ماسّة إلى هذا الزّاد، ليثبتوا مواقفهم، و ليصبروا على هذا البلاء الّذي كانوا فيه، انتظارًا لهذا الوعد الكريم الّذي وعدهم الله سبحانه و تعالى به فيما سيأخذ به المشركين من خزي وخِذلان كما يقول سبحانه: ﴿اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا اِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[٢]. و لم يذكر النّبيّ الكريم هنا؛لأنّه صلوات الله و سلامه عليه محفوف دائمًا بألطاف ربّه، و على يقين راسخ من نصرالله، فهو صلوات الله و سلامه عليه، يحمل في كيانه من قُوَى الحقّ و الإيمان مالا تنال منه الدّنيا كلّها لواجتمع أهلها على حربه و الكيدله. و في هذا يقول صلوات الله و سلامه عليه لعمّه أبي طالب: «والله ياعمّ، لو وضعوا الشّمس في يميني و القمر في يساري على أنّ أترك هذا الأمر أو أُهلَك دونه ما تركتُه».

وهذه الظّاهرة في القرآن الكريم، من تبادل الآيات أماكنها خلال الفترة الّتي نزل فيها، تقابلها ظاهرة أُخرى، و هي نزول القرآن منجّمًا خلال ثلاث و عشرين سنة؛ حيث لم ينزل جملةً واحدةً، وإنّما نزل آيةً آيةً، و آياتٍ آياتٍ، حتّى كمُل و تَمّ بناؤه على الصّورة الّتي أراده عليها سبحانه و تعالى، كما تلقّاه النّبيّ الكريم من جبريل في العَرْضة الأخيرة الّتي كانت بينهما، بعد أن تمّ نزول القرآن قُبَيل وفاة النّبيّ بزمن قليل.

فهناك إذن عمليّتان قام عليهما بناء القرآن الكريم، و هما:

أوّلاً ـ نزوله منجّمًا، أي مفرّقًا.

ثانيًا ـ نزوله غير مرتّب الآيات في السُّور.

وقد كشف الله سبحانه و تعالى عن السّبب الّذي من أجله كان بناء القرآن على هذاالأُسلوب.

أمّا عن نزول القرآن مفرّقًا فالله سبحانه و تعالى يقول ردًّا على المشركين الّذين أنكروا أن يجئ القرآن على هذا الأُسلوب: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاَنُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً

---

١ ـ النّحل /١٠٢.

٢ ـ الأنفال /٣٦.

وَاحِدَةً...﴾[١].

فتثبيت فؤاد النّبيّ هو من بعض ما في نزول القرآن على تلك الصّورة من حكمة.

و أمّا عن نزول القرآن غير مرتّب الآي فقد رأينا أنّ من حكمته تثبيت قلوب المؤمنين، بما تحمل إليهم الآيات الّتي تسبق سورها من بُشرَيات، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَ اِذَا بَدَّلْنَا اٰيَةً مَكَانَ اٰيَةٍ وَاللهُ اَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا اِنَّمَا اَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لاَيَعْلَمُونَ﴾. الآيتين[٢].

ففي هذا التّدبير من نزول القرآن الكريم غير مرتّب الآي، في هذا ما يسمح بنزول بعض الآيات متقدّمة زمنًا على سورها الّتي ستلتقي بها، و تأخذ مكانها فيها بعد أن يتمّ نزول القرآن كلّه.

و في هذه الآيات الّتي كانت تنزل متقدّمة زمنًا على سورها تثبيت لقلوب المؤمنين، و هدىً لهم، و بُشرى بالمستقبل المسعد الّذي ينتظر الإسلام و ينتظرهم معه...[٣]

(٧: ٣٦٣ ـ ٣٦٨)

(سورة الأحزاب) مناسبتها لما قبلها

مع أنّ هذه السّورة مدنيّة، و مع أنّ السّورة الّتيقبلها (السّجدة) مكيّة، و مع الفاصل الزّمنيّ الممتدّ بينهما، فقد اتّصلت السّورتان بعضها ببعض، و التقىٰ ختام السّابقة منهما ببدء التّالية، حتّى لكأنّهما سورة واحدة، و هذا ممّا يدلّ على أنّ ترتيب السُّور في المُصْحَف توقيفيّ كترتيب الآيات في السُّور، و هذا يعني أنّ الصّورة الّتي نزل عليها القرآن تختلف جمعًا و ترتيبًا ـ و إن لم تختلف مادّةً و موضوعًا ـ عن الصّورة الّتي انتظم عليها نظام القرآن، بعد أن تمّ نزوله في العَرْضَة الأخيرة الّتي كانت بين جبريل و بين النّبيّ صلوات الله و سلامه عليهما، على ما سنرى ذلك عند تفسير السّورة.

و هنا يلقانا أمر نحبُّ أن نقف عنده و ننظر فيه و في الآثار الّتي تنجم عنه.

---

١ ـ الفرقان /٣٢ ـ ٣٣. ٢ ـ النّحل /١٠١ ـ ١٠٢.

٣ ـ ذكر المؤلّف مثل هذا النّص في كتاب آخر باسم «من قضايا القرآن».

فتنة التّرتيب النّزوليّ للقرآن

فهناك دعوة جديدة محمومة بدأت تظهر في آفاق مختلفة في محيط العالم الإسلاميّ، و في خارج هذا المحيط، تدعوا إلى إعادة نظم القرآن و جمعه على حسب ترتيب نزوله، بمعنى أن يكون المُصْحَف القرآنيّ المقترح مبتدئًا بأوّل آية تلقّاها النّبيّ الكريم وحيًا من ربّه، ثمّ الآية الّتي تليها، و هكذا آية آية، و آيات آيات، حتّى آخر آية نزلت على النّبيّ.

و هذا أمر يبدو في ظاهره أنّه دراسة من الدّراسات الّتي تخدم القرآن مثل تلك الدّراسات الّتي قامت حول الكتاب الكريم، كأسباب النّزول، و النّاسخ و المنسوخ، والمكّيّ والمدنيّ، و النّهاريّ و اللّيليّ، و مانزل ببيت المَقْدِس ومانزل بالطّائف، و مانزل بالسّفر، و مانزل بالحضر، إلى غير ذلك من تلك الدّراسات الكثيرة الّتي تدور في فلك القرآن، و لا تمسّ الصّميم منه.

و من هنا كان خطر هذه الدّعوة، الّتي قد ينخدع لها كثير من المسلمين، و الّتي ربّما اندفع في تيارها بعض العلماء عن نيّة حسنة و مقصد سليم؛ إذ كان الأمر في ظاهره دراسةً في كتاب الله و فتحًا جديدًا، يعدّ كشفًا من كشوف العلم الحديث في دراسة القرآن. و يبدو الخطر الّذي يتهدّد القرآن من الفتنة ماثلاً من وجوه:

فأوّلاً ـ استحالة ضبط صورة القرآن على حسب التّرتيب النّزوليّ لآياته؛ حيث لم يُعرف التّرتيب النّزوليّ إلاّ لعدد محدود من آيات القرآن، لا تمثّل إلاّ أقلّ القليل منه، قد لاتتجاوز بضع آيات، أو عشرات من الآيات على أكثر تقدير. و حتّى هذا القليل الّذي يقال: إنّه معروف التّرتيب، لم يقع الإجماع بين العلماء عليه، و حتّى أنّهم لم يتّفقوا على أوّل ما نزل به الوحي، كما لم يتّفقوا على آخر ما نزل به فبينما يقول أكثرهم: إنّ أوّل ما تلقّى النّبيّ من وحي هو قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ـ إلى قوله ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

بينما يقول أكثرهم هذه ـ يقول بعضهم ـ كما في صحيح مُسلم ـ إنّ أوّل مانزل من القرآن الفاتحة، ثمّ نزل بعدها المدّثّر، ثمّ الآيات الثّلاث الأُولى من سورة نوح.

و بينما يقول أكثر العلماء: إنّ آخر القرآن نزولاً هو قوله تعالى: ﴿اَلْيَومَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَ اَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْاِسْلاَمَ دِينًا﴾ [١]

إذ يقول آخرون: إنّ آخر مانزل من القرآن هو: ﴿اِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ و يقول غيرهم: إنّ آخر القرآن نزولاً هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللهِ﴾ [٢] و في البخاريّ: أنّ آخر القرآن نزولاً: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ﴾ [٣].

فإذا كان المسلمون لم يتّفقوا على أوّل آيات نزلت من القرآن، كما لم يتّفقوا على آخر مانزل منه، فكيف يقع اتّفاقهم فيما وراء ذلك؟ و المعروف أنّ أوائل الأُمور و أواخر أكثرُ إلفاتًا للنّاس و أشدًّا لا نتباههم، و إيقاضًا لمشاعرهم و تعلّقًا بذاكرتهم من غيرها.

ثانيًا ـ لو سارت هذه الفتنة إلى غايتها، و سُلّم لأصحابها أن يمضوا بها كما يشاءون ـ و مع افتراض النّية الحسنة فيهم ـ فإنّ الّذي سيحدث من هذا هو أن تتغيّر صورة القرآن تغيّرًا كبيرًا، لا يصبح معه القرآن قرآنًا، بل سيكون هناك عشرات، بل مئات و أُلوف من المصاحف الّتي تسمّى قرآنًا، و الّتي لايلتقي واحد منها مع آخر، و كلّ ما فيها أنّها آيات القرآن انفرط عقدها، و تناثرت آياتها، كما تتناثر أجزاء آلة من الآلات الميكانيكيّة أو الكهربيّة، ثمّ تتناولها أيدي أطفال، يجمعونها و يفرّقونها كما يشاءون.

ونضرب لهذا مثلاً من القرآن، لصورة من تلك الصّور الّتي يمكن أن تجيء عليها سورة كسورة العلق مثلاً، و هي الّتي يكاد يتّفق العلماء على أنّ الآيات الأُولى منها كانت أوّل مانزل من الوحي، و هي قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ ـ إلى قوله تعالى ـ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. ثمّ نصل هذه الآيات بما قيل: إنّه كان أوّل ما تلقّاه النّبيّ بعدها من آيات، و هي قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ ـ إلى ـ فَاصْبِرْ﴾، ثمّ لنصل بها ما كان تاليًا لها في النّزول، و هي الآيات الثّلاث من أوّل سورة نوح. و نقرأ هذا القرآن:

﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ـ إلى ـ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [٤] ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَاَنْذِرْ ـ إلى ـ فَاصْبِرْ﴾ [٥] ﴿اِنَّا اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلَى قَوْمِهِ اَنْ اَنْذِرْ قَوْمَكَ ـ إلى ـ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٦].

---

١ ـ المائدة /٣.
٢ ـ البقرة /٢٨١.
٣ ـ النّساء /١٧٦.
٤ ـ العلق /١ ـ ٥.
٥ ـ المدّثّر /١ ـ ٧.
٦ ـ نوح /١ ـ ٤.

هذه صورة أو سورة ممّا يمكن أن يقرأ عليه القرآن، لو أُخذ بالتّرتيب النّزوليّ، الّذي تدعو إليه تلك الفتنة، و ذلك على قول واحد من تلك الأقوال الكثيرة المختلفة في هذا التّرتيب، فكيف لو أُخذ بكلّ قول؟ ثمّ كيف لو أُخذ بالأقوال المختلفة كلّها في القرآن كلّه في ترتيب نزوله؟ إنّه ـ و الأمر كذلك ـ لاتكاد تجتمع آية؛ حيث لاتلتقي رواية على رواية، و لا يتّفق قول مع قول. و بهذا يكون أيّ ترتيب لآيات القرآن صالحًا لأن يُقبل [و] أيّ دعوىٰ تدّعي أنّه التّرتيب الّذي نزل عليه، و تستوي في هذا جميع الدّعاوي الّتي تدّعي؛ إذ كانت كلّها ترجع إلى غير مستند صحيح يعوّل عليه. و من هنا يتّسع المجال للكيد، و تنفسح السّبيل للأهواء، و إذاً الّذي في أيدي المسلمين أعداد لاتحصى من كتاب الله، حتّى ليكاد يكون لكلّ مسلم قرآن يقرأه على التّرتيب الّذي يراه.

وانظر ماذا يكون وراء هذا من بلاء و فتنة؟ فمثلاً إذا قرأ قارىء آية، ثمّ أتبعها أُخرى، وجد مئات و أُلوفًا من الخلاف عليه، هذا يقول: إنّ الآية التّالية هي كذا، و ذاك يقول: إنّها هكذا، و ثالث، و رابع... إلى مئات المقولات و أُلوفها. و حسب المسلمين من هذا فرقة و شتاتًا، مع أنّ هذا أقلّ مايرد عليهم من شرور هذه الفتنة، إذاكان هذا الخلاف في غير آيات الأحكام، أمّا إذا وقع ذلك في آيات الأحكام ـ و هو واقع لا محالة ـ فهيهات أن تقوم للمسلمين شريعة، أو ينتظم لهم له رأي في حكم من أحكام دينهم.

وخذ مثلاً لهذا الآيات الواردة في الخَمر أو الرّبا، و الّتي روعي في نزولها أخذ المسلمين بالرّفق و الحكمة في تحريم هذين المنكرين، فجاء الحكم في تحريمهما متدرّجًا، من التّنزّه و التّعفّف، إلى الكراهيّة، ثمّ إلى التّحريم.

إنّ لقائل أن يقول: إنّ آيات الخَمر نزلت على هذا التّرتيب:

﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الاَنْصَابُ وَ الاَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلٰوةَ وَ اَنْتُمْ سُكَارىٰ ـ إلى قوله ـ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾**[2]. **﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا اِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ اِثْمُهُمَا**

---

١ ـ المائدة /٩٠.

٢ ـ النّساء /٤٣.

اَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ـ إلى قوله: ـ اِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [١].

و إنّ لقائل هذا القول لمنطقًا ؛ أنّ له أن يقول ؛ إنّ آيات الخمر نزلت جملةً واحدةً، جمعت أطراف الأمر كلّه و على هذا يكون النّظر في حرمة الخمر و حِلّه. ثمّ إنّ له أن يقول ـ و إنّ لقوله لمنطقًا ـ: إنّ الخمر ليس حرامًا حرمة مطلقة إلاّ أن يسكر منه شاربه، ثمّ يصلّي و هو سكران.

و يقال هذا كذلك في الرّبا، على اعتبار أنّ آخر الآيات نزولاً هي قوله تعالى: **﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاَتَاْكُلُوا الرِّبٰوا اَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾** [٢]، فالرّبا لايكون على هذا الاعتبار حرامًا إلاّ إذا كان أضعافًا مضاعفة.

و هكذا يمكن أن تعرض أحكام الشّريعة كلّها على آيات القرآن، و تستدار لها الآيات على أيّ وجه يقيمه النّاس عليه.

و **ثالثًا** ـ لو سُلّم جدلاً بإمكان ترتيب القرآن ترتيبًا زمنيًّا بحسب نزوله ـ و هو أمر مستحيل استحالة مطلقة ـ فما جدوى هذا؟ و ماذا يعود على دارسي القرآن منه؟.

لقد أشرنا إلى بعض الأخطار المزلزلة الّتي تهدّد الإسلام ـ شريعة و عقيدة ـ من هذا الفتنة، فهل وراء هذه المجازفة شيء من الخير، يقوم إلى جوار هذه الشّرور العظيمة النّاجمة منها؟ إنّ كلّ شرّ يقوم إلى جواره بعض الخير الّذي قد يجعل للشّرّ وجهًا يُحتمل عليه و يبرِّر الأخذ به فهل في هذا الشّرّ أيّة لمحة من لمحات الخير؟.

و الّذي نقطع به أنّ هذا العمل شرّ محض، و إن زيّن أهلُه ظاهره بهذا الطّلاء الزّائف تحت شعار الدّراسة التّاريخيّة للقرآن على نحو الدّراسة الجغرافيّة، أو الدّراسة النّفسيّة، أو غير ذلك من الدّراسات الّتي تضاف إلى القرآن، و تدور في فلكه دون أن تمسّ الصّميم منه.

ولانقف طويلاً في مواجهة هذه الفتنة، و لانمعن النّظر كثيرًا في وجهها الكئيب المشئوم، و ننظر في كتاب الله الّذي في أيدينا نظرًا مباشرًا، على ماتركه فينا مَن أُنزل إليه هذا الكتاب (صلوات الله و سلامه عليه) فهذا هو القرآن الّذي أمرنا بالتّعبّد به تلاوة، والعمل بأحكامه و آدابه على ما نتلوه عليه. فهذا هو قرآننا، و هذا هو ديننا الّذي نتلقّاه من

---

١ ـ البقرة /٢١٩ ـ ٢٢٠. ٢ ـ آل عمران /١٣٠.

كتابنا و إنّ أيّة تلاوة تقوم على غير هذا الوجه، هي كلام لاقرآن، و هذا الوجه هي كلام لا قرآن، و إنّ أيّة شريعة تقوم على غير هذه التّلاوة ليست من شريعة الإسلام، ولا من دين الله، سواء التقت مع شريعة الله أو لم تلتق معها، وسواء أوافقت دين الإسلام أو خالفته.

نقول: هذا و نحن على علم و على إيمان بأنّ القرآن الكريم نزل منجّمًا و لم ينزل جملةً واحدةً، و أنّه كان في مرحلة نزوله على ترتيب غير هذا التّرتيب الّذى انتهى إليه بعد أن تمّ نزوله.

فهناك دوران قام عليهما بناء القرآن الكريم: دور الدّعوة ثمّ الدّور الّذي تلاها، و لكلّ من الدّورين أُسلوبه وغايته.

القرآن في دور الدّعوة

و نزول القرآن في دور الدّعوة قام على أُسلوب خاصّ، من حيث تنجيم النّزول وترتيبه معًا.

فمن حيث التّنجيم، لم ينزل القرآن جملةً واحدةً، بل نزل آية آية، و آيات آيات، حسب مقتضيات الدّعوة و مستلزمات أحداثها. و قد بيّن الله سبحانه و تعالى الحكمة في هذا، فقال تعالى: **﴿وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾**[1] كما زاد ذلك بيانًا في قوله سبحانه: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً...﴾**[2].

و من حيث ترتيب النّزول، فقد نزل القرآن لغاية تحقّق أمرين؛

أوّلهما ـ اقتلاع الشّرك الّذي كان قد استولى على الحياة الإنسانيّة كلّها، و اغتال مواطن الإيمان في كلّ بقعة منها ؛ ليقيم في الأرض مكانًا للإيمان بالله، حتّى يعتدل ميزان الإنسانيّة، و يكون لها نهار يدرو في فلكها، مع هذا اللّيل الطّويل الّذي تعيش فيه.

و **ثانيهما ـ** إقامة شريعة في تلك المواطن الّتي قام فيها الإيمان، حتّى تثبت أُصوله، **و تطّلع ثمراته، فيكون منها زاد طيّب لأهل الإيمان يعيشون فيه و تطيب لهم و للنّاس الحياة معه.**

---

١ ـ الإسراء /١٠٦.   ٢ ـ الفرقان /٣٢ ـ ٣٣.

و لتحقيق الأمر الأوّل كانت معركة الإسلام الأُولى منحصرة في ميدان الشّرك، و من هنا كانت آياته الّتي تنزل في هذه المرحلة من مراحل الدّعوة جندًا مرسلة من الله، تدكّ معاقل الشّرك، و تهدم حصونه، و تفتح للعقول والقلوب الطّريق إلى الله.

و قد استغرقت هذه المرحلة الجزء الأكبر من الدّعوة الإسلاميّة و في إقامة الحجج على وجود الله، و كشف البراهين على وحدانيّته، و ماله سبحانه من صفات الكمال والجلال، ثمّ في فضح الشّرك، و تعرية آلهة المشركين من كلّ ما ألقوه عليهم من أوهام و ضلالات.

و في أثناه هذا الدّور كانت تتنزّل بعض الآيات في الدّعوة إلى مكارم الأخلاق، وفي إقامة مشاعر النّاس على الأُخوّة الإنسانيّة و على الصّبر و الرّفق و الإحسان، إلى غير ذلك ممّا يليق بمن يعرف الله و يؤمن به، و يدخل في زمرة عباده الّذين يبتغون مرضاته، ويرجون رحمته.

فلمّا انكسرت شوكة الشّرك، و أوشكت دولته أن تدول، أخذت آيات الله تتنزّل بأحكام الشّريعة الّتي تقوم عليها الحياة الرّوحية والمادّيّة لهذا المجتمع الّذي آمن بالله، وأجلى الشّرك من موطنه، فكان ماينزل من آيات الله في هذا الدّور يكاد يكون مقصورًا على بناء أحكام الشّريعة، من عبادات و معاملات و حدود و من سلم و حرب و غنائم، وغير ذلك ممّا ينتظمه قانون الشّريعة الإسلاميّة.

وكان من مقتضيات حكمة الشّريعة القائمة على اليسر و رفع الحرج، أن جاءت كثير من أحكام الشّريعة متدرّجة في تكاليفها من السّهل إلى الصّعب؛ لأنّها كانت تتعامل مع أُناس قطعوا شطرًا كبيرًا من حياتهم في الجاهليّة، و رسب في نفوسهم، و اختلط بمشاعرهم كثير من ضلاتها. فكان ممّا اقتضته الحكمة الإلٰهيّة أخذ هؤلاء الّذين لقيهم الإسلام على أوّل دعوته بالرّفق والتّلطّف، حتّى يألفوا هذا الدّين، و يتعقّلوا أحكامه، ويأخذوا أنفسهم بها و لو أُخذوا بغير هذا الأُسلوب، لتغيّر موقفهم من الشّريعة، و لما أحدثت فيهم هذه الآثار العظيمة الّتي أُخرجت منهم خير أُمّة أُخرجت للنّاس.

هذا هو الخطّ الّذي قامت عليه سيرة الدّعوة الإسلاميّة، و على هذه المسيرة كانت

تتنزّل آيات الله بالزّاد الّذي تحتاج إليه كلّ مرحلة، حتّى كانت آخر آية نزلت من كتاب الله، كانت الدّعوة قد بلغت غايتها و آتت الثّمر المرجوّ منها، فنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحُ * وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[١]، مؤذنًا بمصافحة السّماء للأرض مصافحة وداع، بعد أن أودعت فيها هذا الزّاد العتيد. ثمّ كانت آية الختام: ﴿اَلْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٢].

القرآن بعد دور الدّعوة

و إلى هنا كان الرّسول قد تلقّى القرآن الكريم كلّه من ربّه، و حفظه في قلبه، كما حفظه كثير من المسلمين معه، كما كان كتّاب الوحي قد استكملوا كتابته.

و السّؤال هنا: على أيّة صورة كان القرآن عند آخر آية نزلت؟ و هل كان على ترتيب النّزول، أم على هذا التّرتيب الّذي هو عليه الآن؟

و الجواب على هذا:

أوّلاً ـ من المقطوع به أنّ القرآن عندما نزلت آخر آية منه لم يكن على هذا التّرتيب الّذي هو عليه الآن، كما أنّه لم يكن على ترتيب النّزول، و ذلك أنّ الرّسول ـ يوحى من ربّه ـ كان خلال العشرين سنة أو تزيد الّتي نزل فيها القرآن، يرتّب الآيات، فيضع ـ بوحي من ربّه ـ آياتٍ مدنيّةً في سور مكّيّة، كما يضع آياتٍ مكّيّة في سور مدنيّة، فكانت عمليّة النّقل هذه تغيّر من صورة السُّور، طولاً و قصرًا، فيُنقل من هذه السّورة آيات إلى تلك، و من تلك إلى أُخرى، و هكذا في اتّصال دائم بدوام نزول القرآن.

و **ثانيًا** ـ بعد أن تَمّ نزول القرآن، و لم تعدّ ثمّة آيات أُخرى يوحَى بها، كان عمل الوحي مع النّبيّ صلوات الله و سلامه عليه هو ترتيب القرآن على هذا التّرتيب الّذي أراده الله سبحانه و تعالى عليه، و هو ما نجده بين دفّتي المصحف كما تركه الرّسول بعد تلك العَرْضَة أو العَرْضتين أو الثّلاث الّتي كانت بين جبريل و بين النّبيّ.

---

١ ـ النّصر /١ ـ ٣.
٢ ـ المائدة /٣.

و **ثالثًا** ـ لم يترك النّبيّ ﷺ هذه الدّنيا و يلحق بالرّفيق الأعلى حتّى كان صحابة رسول الله، و حتّى كان كُتّاب الوحي، قد أخذوا الصّورة الكاملة في تحديد دقيق للقرآن الكريم، **و عرفوا مكان كلّ آية من سورتها، و مبدأ كلّ سورة و ختامها، و ما بين بدئها وختامها.**

و من الموافقات العجيبة الّتي نعدّها نفحة من نفحات القرآن الكريم.

أنّنا نعرض لهذا البحث ـ من غير تدبير ـ في سورة الأحزاب، ففي سورة الأحزاب هذه مقولات تقال و روايات تُروىٰ.

ففي مسند أحمد عن زِرّبن حُبَيش، قال: قال لي أُبيّ بن كعب: كائن (أي كم) تقرأ سورة الأحزاب، أو كائن (أي كم) تَعُدّها؟ قلت: ثلاثًا و سبعين آية فقال (أي أُبيّ): لقد رأيتها و إنّها لتعادل سورة البقرة، و لقد قرأنا فيها: «الشّيخ و الشّيخة إذا زنيا فاجلدو هما ألبتّة نكالاً من الله و الله عزيز حكيم» فرُفع فيما رُفع.

ولقد بُني على هذه الرّواية أنّ قرآنًا كثيرًا نسخ تلاوة، و أنّ قرآنًا آخر نسخ تلاوة ولم ينسخ حكمًا، كهذه الّتي يقال: إنّها كانت آية قرآنيّة «الشّيخ و الشّيخة» و قد عرضنا لموضوع النّسخ في أكثر من موضع، فلا تعرض له هنا.

و إنّما الّذي نقف عنده من هذه الخبر ـ على اعتبار صحّته ـ هو: كيف كانت سورة الأحزاب تعادل سورة البقرة؟ فما تأويل هذا؟ و كيف أصبحت سورة الأحزاب ثلاثًا وسبعين آية بينما سورة البقرة تبلغ مائتين و ستًّا و ثمانين آية؟.

والجواب على هذا أنّ سورة الأحزاب كانت تعدل في طولها أو امتدادها سورة البقرة، و أنّه في العَرْضَة أو العَرضات الّتي كانت بين جبريل و بين النّبيّ أخذت كثير من الآيات في سورة الأحزاب مواضعها من سور القرآن المكّيّ أو المدنيّ، حتّى صارت على هذه الصّورة الّتي هي عليها.

و على هذا فلم يكن قرآن رُفع منها رفع نسخ تلاوةً و حكمًا، بل الّذي كان هو قرآن رفع منها إلى مواضع أُخرى من القرآن، كما حدث ذلك في كثير من آيات القرآن.

و نعود إلى ما كنّا فيه من ترتيب القرآن بعد دور الدّعوة، فنقول: إنّه و قد انتهى دور الدّعوة، و أدّى الرّسول رسالة ربّه، و دالت دولة الشّرك، و دخل النّاس في دين الله أفواجًا، كان لابدّ أن ترتّب آيات الله على هذا التّرتيب الّذي أمر الله به، بعد أن نزلت آخر آية من

القرآن الكريم فقد كان التّرتيب النّزوليّ مقدّرًا بحاجة الدّعوة في مسيرتها من مبدئها إلى ختامها، و موقوتًا بهذا الوقت الّذي يكمل فيه نزول القرآن. فلمّا تمّ نزول القرآن، و ختم الرّسول دعوته، أخذ القرآن هذا التّرتيب السّماويّ الّذي يعيش في ظلّه مجتمع مسلم آمن بالله، و بآيات الله و رسول الله و لم يعدّ من تدبير القرآن أن يواجه النّاس آية آية، أو آيات آيات، أو يلقاهم حالاً بعد حالٍ، و حدثًا إثر حدث، و إنّما الّذي يلقاهم منذ ختام الرّسالة كتاب الله جميعه، كأنّه آية واحدة هي شريعة الله و دستور المسلمين.

لقد كان القرآن في دور الدّعوة يعمل في أكثر من جبهة، فهناك جبهة المشركين، ثمّ جبهة أهل الكتاب و خاصّة اليهود، ثمّ جبهة المنافقين. ثمّ قبل هؤلاء و أُولئك جميعًا جبهةالمؤمنين الّذين يتلقّون هدى السّماء، و ينشّئون في حجر الإسلام فكان للقرآن مع كلّ جبهة موقف، و إلى كلّ طائفة قول فلمّا أتمّ القرآن رسالته، لم تعدّ إلاّ جبهة المؤمنين، هي وحدها الّتي يَعنيه أمرُها، و هي الّتي ستصحبه و تعيش في ظلّه جيلاً بعد جيل إلى يرث الله الأرض و من عليها فكان هذا التّرتيب الّذي رُتّب عليه القرآن بأمر الله إلغاء لعنصر الزّمن الّذي يحدّد بدء القرآن و نهايته و مولده و فِطامه، فهو كلام الله القديم أزلاً الخالد أبدًا.

و بعد، فإنّ هذه الفتنة أخطر سلاح يحارب به الإسلام، و يُرمىٰ به في الصّميم منه، وأنّه لو قدّرلها ـ لا قدّر الله ـ أن تجد في المسلمين من يستمع لها، أو يغمض العين عنها، لأتت على الإسلام، ولنالت منه مالم تنله السّيوف و الحراب الّتي و جّهها أعداء الإسلام من يوم أن ظهر الإسلام إلى يوم النّاس هذا فليتنبّه المسلمون إلى هذا الخطر، و ليرصدوا له كلّ مالديهم من إيمان بالله و بكتاب الله، و ليضربوا على الأيدي الّتي تمتدّ إلى كتاب الله بهذه الفتنة بكلّ ما يملكون من أموال و أنفس، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ اِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [1]

(١١: ٦٣٢ ـ ٦٤٤)

[و له جدول في ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة فراجع،الرّقم ١٧ في آخر هذا الجزء].

١ ـ الحج / ٤٠.

الفصل الخامس و العشرون

نصّ الدّكتور العَطّار (معاصر) في «موجز علوم القرآن»

معرفة المكّيّ و المدنيّ

تــواضــع العـلماء عـلى اسـتعمال إصـطلاح المكّـيّ عـلىقسم مـن القـرآنالكـريم، والمدنيّعلىالقسم الآخر مـنه... [ثمّ ذكر أرقام السُّورالمكّيّة والمدنيّة، كماتقدّم عناليعقوبيّ، إلى أن قال:]

مصادر معرفة المكّيّ و المدنيّ

اعتمد أكثر الباحثين في التّمييز بين مكّيّ القرآن و مدنيّه بادئ الأمر على الرّوايات والنّصوص المنقولة الّتي تؤرّخ السّورة أو الآية، أو تشير إلى زمن نزولها أو مكانه، و على الأحداث التّاريخيّة المهمّة الّتي عاصرت النّزول، أو كان النّزول بسببها، و هذا ما سلكه المستشرق الألمانيّ «نولِدْكِه» في بحثه تاريخ القرآن.

ثمّ عكفوا على دراسة ماعرفوا من مكّيّ القرآن و مدنيّه بالطّريقة السّابقة، فاستطاعوا أن يتعرّفوا على خصائص شائعة غالبة في مكّيّ و أُخرى في المدنيّ، تمكّنوا عن طريقها من معرفة و تمييز عدد كبير من السّور و الآيات، و صنّفوها إلى مكّيّ و مدنيّ، و دوّنوها في كتب المصاحف و التّفاسير، و أصبحت هذه الكتب من مصادر معرفة المكّيّ و المدنيّ أيضًا. و بهذا تكوّنت طريقتان لمعرفة المكّيّ و المدنيّ.

الأُولى ـ الطّريقة الاستقرائيّة الّتي تعتمد على النّقل، و قد تسمّى السّماعيّة.

الثّانية ـ الطّريقة الاستنباطيّة الّتي تعتمد على العقل، و قد تسمّى القياسيّة.

فالّذين اتّبعوا طريقة الاستقراء توقّفوا عند الرّوايات و النّصوص و الأحداث الّتي

تشير أو تؤرّخ السّور و الآيات، فيعرف المكّيّ منها و المدنيّ. أمّا الّذين اتّبعوا طريقة الاستنباط فقد استندوا على ما تعرّفوا عليه من خصائص للمكّيّ و المدنيّ من حيث أُسلوب و موضوعات السّور و الآيات، ثمّ مَيَّزوا بينها بناء على اجتهادهم.

و لعلّ أرجح الطّريقتين هو الجمع بين الاستقراء و الاستنباط، فإنّه بهذا الجمع تكون النّتائج أقرب إلى العلم، و أبعد عن الظّن و التّخمين ؛ إذ أنّ الطّريقة الاستقرائيّة عاجزة تقريبًا عن تمييز كثير من السُّور و الآيات المكّيّة، لفقد انها الأحداث المهمّة، و النّصوص الّتي تعوّل عليها في التّمييز. كما أنّ الطّريقة الاستنباطيّة طريقة قياسيّة أو تخمينيّة، فالخصائص المستنبطة إنّما هي غالبة، و ليست قطعيّة خاصّة بالمكّيّ أو بالمدنيّ، لذا رجح لدينا الجمع بين السّماع و القياس في التّمييز.

أُسس التّمييز بين المكّيّ و المدنيّ

حاول العلماء اعتبار أساس فاصل يتميّز بين المكّيّ و المدنيّ من القرآن، فمنهم من جعل الخطاب الوارد في الآيات هو الأساس في التّمييز، و منهم من جعل من مكان الرّسول ﷺ هو الأساس، و الرّهط الثّالث اعتمد هجرة الرّسول أساسًا. **[ثمّ ذكر شرح تلك الأُسس كما تقدّم نحوه عن الزُّرقَانيّ و الأُشَيْقِر و آخرين، فقال:]**

مناقشة الاتّجاهات الثّلاثة

لابدّ من بيان أنّ لفظ مكّيّ أو مدنيّ ليس لفظًا شرعيًّا، و ليس من فرائض الأُمّة الّتي حدّدها الإسلام و وضع له مفهومًا، ليدور النّقّاش و التّرجيح بين مذاهب العلماء على أساسه، بل هو ماتواضع عليه الباحثون، و سلكوا الاتّجاهات الثّلاثة السّابقة للتّمييز بين المكّيّ و المدنيّ.

غير أنّا لانستطيع تصويب الأساس الشّخصيّ؛ لأنّ الخطاب حين يرد ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ لا يراد به أهل مكّة ليكون خطابًا لهم فحسب، و حين يرد ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِين اٰمَنُوا﴾ أو **﴿يَا اَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أو ﴿مِنَ الْاَعْرَابِ مُنَافِقُونَ...﴾ لايراد به أهل المدينه من المسلمين و أهل الكتاب والمنافقين فحسب، بل يبقىالعامّ على عمومه يشمل تطبيقاته في كلّ زمانٍ و مكانٍ.**

هذا من جهة، و من جهة أُخرى ليس كلّ الآيات و السُّور فيها خطاب ليكون أُسلوب الخطاب أساسًا للتّمييز. و من جهة ثالثة فإنّ في السّور المكّيّة خطاب: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ كما في سورة الحجّ: ٧٧، و في السّور المدنيّة ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ كما في سورة البقرة: ٢١.

و إنّ الأساس المكانيّ يرد عليه أنّه حتّى لو أدخلنا مانزل بعرفات و منى و الحُدَيْبيّة ضمن الآيات المكّيّة، و مانزل ببدر و أُحد و سَلْع ضمن الآيات المدنيّة، تبقىٰ لدينا آيات **لامكّيّة و لامدنيّة بحسب الأساس المكانيّ، نظير الآيات الّتي نزلت على النّبيّ صلّی الله علیه و آله في إسرائه.**

أمّا الأساس الزّمانيّ الّذي جعل الهجرة فيصلاً بين المكّيّ و المدنيّ، فإنّه يشمل الآيات و السُّور جميعها؛ إذ ما من آية أو سورة إلاّ و نزلت إمّا قبل الهجرة و إمّا بعدها، فما نزل قبل الهجرة فهو مكّيّ، و مانزل بعد الهجرة فهو مدنيّ بهذا الاعتبار.

التّرجيح بين الاتّجاهات الثّلاثة

يبدو أنّه لامجال للتّردّد في ترجيح الأساس الزّمانيّ و جعل الهجرة حدًّا فاصلاً لتقسيم السُّور و الآيات إلى مكّيّ و مدنيّ؛ لما أوردناه على الاتّجاهين الآخرين من نقد، ولمّا امتاز هذا الأساس من الدّقّة و الشّمول، كما أنّ هذا الأساس يوضّح بجلاء مراحل دعوة الرّسول صلّی الله علیه و آله.

فلم تكن الهجرة النّبويّة حدثًا عابرًا في حياة الرّسالة الغرّاء و الدّعوة المباركة، بل هي حدّ فيصل بين مرحلتين من حياتها؛ الأُولى: مرحلة التّغيير و الكفاح العقائديّ ومقاومة الشّرك و الوثنيّة، و تكوين القاعدة الملتزمة من المؤمنين و التصاقها بالقيادة النّبويّة، و الثّانية، مرحلة الحكم و القضاء و الإدارة ضمن دولة ذات سيادة و سلطان.

و من خلال معرفة المكّيّ و المدنيّ نستطيع مواكبة تطوّر سير الدّعوة، و إدراك الأُصول العامّة لنظريّة التّغيير الاجتماعيّ على أساس الفكر الإسلاميّ طِبقًا لعمل الرّسول صلّی الله علیه و آله في مكّة و المدينة، و بحسب مانزل من مكّيّ القرآن و مدنيّه[1].

١ ـ لا يفوتنا أنّ نذكر أنّ فترة الوحي المكّيّ استقرقت ثلاث عشرة سنة تقريبًا، نزل خلالها ثلثا القرآن، إنّ فترة الوحي المدنيّ استقرقت عشر سنوات تقريبًا نزل خلالها ثلث القرآن.

و أمّا ما يقال من قدرة الأساس الزّمانيّ (الهجرة) على التّمييز بين النّاسخ و المنسوخ من الآيات ففيه نظر ؛ إذ أنّ الآية المنسوخة و النّاسخة لو فرضنا نزولهما قبل الهجرة فهما مكّيّتان، و لامجال ـ بحسب هذا الأساس ـ لمعرفة السّابقة لتكون منسوخة، و اللّاحقة لتكون ناسخة. و كذلك لو فرضنا نزولها بعد الهجرة فهما مدنيّتان، و لامجال ـ بحسب الأساس أيضًا ـ لمعرفة النّاسخ و المنسوخ منهما. هذا بالإضافة إلى أنّ الرّأي الرّاجح أنّ النّسخ في القرآن لم يقع إلاّ في مجالين[١]؛ ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُم صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ اَطْهَرُ فَاِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢] و هي آية لم يعمل بها إلاّ الإمام عليّ عليه السلام ثمّ نسخت. و قد نسختها الآية ﴿ءَاَشْفَقْتُمْ اَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَاتٍ فَاِذْلَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَاَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا الزَّكٰواةَ وَ اَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣] و هاتان آيتان في سورة المجادلة الّتي آياتها مدنيّة كلّها.

و المجال الثّاني: قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ اِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ اِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا اَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ﴾[٤] وقد نسختها الآية الّتي تليها ﴿اَلْئٰنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ اَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَاِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ اِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ اَلْفٌ يَغْلِبُوا اَلْفَيْنِ بِاِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٥] و السّورة كلّها مدنيّة.

خصائص المكّيّ و المدنيّ

ليست الخصائص الّتي سنذكرها، لا سيّما الأُسلوبيّة منها، و الّتي تميّز ـ بصورة عامّة ـ الآيات و السُّور المكّيّة عن المدنيّة هي من الدّقّة و الضّبط؛ بحيث تشمل جميع آيات القرآن الكريم و سوره، بل هي تؤدّي دور التّرجيح، فتقوّي أحد الاحتمالين على آخر في الآيات و السُّور الّتي لم يرد بشأنها نصّ صحيح متنًا و سندًا، و الّتي لم ترتبط بواقعة أو حادثة تاريخيّة مشهورة تشخّص هويّتها.

---

١ ـ انظر التّشريع الجنائيّ الإسلاميّ ـ عبد القادر عودة، تعليق السّيد إسماعيل الصّدر، ١: ٣١١.

٢ ـ المجادلة /١٢.

٣ ـ المجادلة /١٣.

٤ ـ الأنفال /٦٥.

٥ ـ الأنفال /٦٦.

فمن الممكن جدًّا أن تنزل سورة مدنيّة و هي تحمل بـعض خـصائص الأُسـلوب الشّائع في السُّور المكّيّة، أو تنزل سورة مكّيّة و هي تحمل بعض خـصائص الأُسـلوب الشّائع في السُّور المدنيّة. لذلك لامجال للتّعويل على الظّنّ، و لا يصحّ و سم السّورة أو الآية بسِمَة المكّيّ أو المدنيّ بلاعلم. غير أنّ هناك من الخصائص الموضوعيّة ماقد يؤدّي إلى القطع بسِمَة الآية أو السّورة دون تردّد أو شكّ، كالآيات المشرّعة لأحكام الحـرب وقواعد القانون الدُّوليّ و الحقوق السّياسيّة و نحوها، ممّا تدلّ بموضوعها دلالة محدّدة أنّهامن سور و آيات المدينة، والّتي نزلت بعد قيام الدّولة هناك.

كما توجد بعض الخصائص الأُسلوبيّة ما تقوّي ترجيح احتمال على آخر، كالقوّة الفيّاضة في البيان و الأُسلوب الخطابيّ، و قصر الآيات الّتي تمتاز بها الآيـات المكّـيّة الدّاعية إلى تركيز العقيدة و الدّعوة إلى التّوحيد في حين يشيع ـ على الغالب ـ في القسم المدنيّ الهدوء و التّرسّل و التّفصيل و الطّول و الدّعوة إلى التّكاليف الشّرعيّة.

و يمكن إيجاز الخصائص الأُسلوبيّة و الموضوعيّة الشّائعة في المكّيّ، و الأُخرى الشّائعة في القسم المدنيّ فيما يلي ... **[ثمّ ذكر الخصائص الشّائعة في أغلب القسم المكّيّ والمدنيّ كما تقدّم نحوه عن صُبحي الصّالح والزُّرقانيّ فقال:]**.

تنبيهات ضروريّة

الأوّل ـ أنّ هذه الخصائص، في حالة انطباقها على عموم سورة من السُّور، فلا يعني ذلك أنّ كلّ آياتها مكّيّة أو مدنيّة؛ إذ قد تستثني من السُّورة المدنيّة آيات مكّيّة[1] و مـن السّور المكّيّة آيات مدنيّة[2].

الثّاني ـ أنّ بعض الآيات أو السّور قد تكون مدنيّة، و لكن تـنطبق عـليها بـعض الخصائص الأُسلوبيّة الشّائعة في القسم المكّيّ، مثاله سورة البقرة، و هي مدنيّة، و فيها قوله تعالى: **﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ...﴾** آية /٢١، و كذلك فيها **﴿يَاءَيُّهَا**

---

١ ـ فسورة التّوبة مدنيّة، بينما الآيتان الأخيرتان مكّيّتان. سورة البقرة مدنيّة في قول الجميع إلاّ آية، و هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُون فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يَظْلِمُون﴾ آية/ ٢٨١، فإنّها نزلت يوم النّحر في حجّة الوداع بمنى.

٢ ـ فسورة الزُّمَر مكّيّة بينما آياتها (٢٥، ٥٣، ٥٤) مدنيّة.

النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْاَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾ آية /١٦٨. و سورة النّساء مدنيّة أيضًا و فيها قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ...﴾ آية /١ و فيها: ﴿إِنْ يَشَاْ يُذْهِبْكُمْ اَيُّهَا النَّاسُ وَ يَاْتِ بِاٰخَرِينَ...﴾ آية /١٣٣.

الثّالث ـ أنّ بعض الخصائص الشّائعة في القسم المدنيّ نجدها في السّور المكّيّة مثالها سورة الحجّ، و هي مكّيّة، و فيها قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا...﴾ آية /٧٧.

الرّابع ـ أنّ امتياز السُّور و الآيات المكّيّة بالقصر و الإيجاز، و القسم المدنيّ بالطّول و الإسهاب لا يعني أنّ جميع المكّيّ على هذا النّحو، و جميع المدنيّ بهذه السّمة، فسورة النّصر ـ مثلاً ـ و هي ثلاث آيات، و الزّلزلة ثمان آيات، و البيّنة ثمان آيات و هي سور مدنيّة، في حين أنّ الأنعام و الأعراف مكّيّة إلاّ بعض آياتهما، وهما من السُّور الطُّوال.

الخامس ـ أنّ هذه الخصائص لا يمكن اتّخاذها مثار شبهات لاتّهام القرآن بالتّأثّر بالبيئة، و من ثمّ التّدليل على شبهة (بشريّة القرآن)، بل أنّ هذه الفوارق الغالبة في القسم المكّيّ و المدنيّ، الأُسلوبيّة منها و الموضوعيّة، كانت مراعاة لظروف الدّعوة الإسلاميّة الّتي لم تألُ جهدًا باتّخاذ كلّ الوسائل الفعّالة المشروعة و المؤثّرة؛ لضمان انتشارها و تأثيرها في البيئة الّتي تحلّ فيها، و بالتّالي فهي من مقتضيات حكمة الله تعالى ﴿... اَلَّذِى اَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ اِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1] (ص: ١٣٧ ـ ١٤٥)

---

١ ـ النّمل /٨٨.

الفصل السّادس والعشرون

نصّ الشّيخ معرفة (معاصرٌ) في كتابه: «التّمهيد في علوم القرآن»

المكّيّ و المدنيّ

لمعرفة المكّيّ من المدنيّ ـ سواء أكانت سورة أم آية ـ فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النّزول، و تمدّ المفسّر و الفقيه في تعيين اتّجاه الآية، و في مجال معرفة النّاسخ من المنسوخ، و الخاصّ من العامّ، و القيد من الإطلاق و ما أشبه و من ثمّ حاول العلماء جهدهم في تعيين المكّيّات من المدنيّات، و وقع إجماعهم على قسم كبير، واختلفوا في البقيّة كما استثنوا آيات مدنيّة في سور مكّيّة أو بالعكس، و لذلك تفصيل طريف يأتي.

و الملاك في تعيين المكّيّ و المدنيّ مختلف حسب اختلاف الآراء و الأنظار في ذلك، و فيما يلى ثلاث نظريّات جاءت مشهورة؛

الأوّل ـ اعتبار ذلك بهجرة النّبيّ صلّى الله عليه و آله و وصوله إلى المدينة المنوّرة، فما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطّريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكّيّ، و مانزل بعد ذلك فهو مدنيّ.

و الملاك على هذا الاعتبار ملاك زمنيّ، فما نزل قبل وقت الهجرة، و لو في غير مكّة فهو مكّيّ و ما نزل بعد الهجرة و لو في غير المدينة، حتّى ولو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجّة الوداع، فهو مدنيّ باعتبار نزوله بعد الهجرة و على هذا الاصطلاح فجميع الآيات النّازلة في الحروب و في أسفاره صلّى الله عليه و آله بما أنّها نزلت بعد الهجرة، كلّها مدنيّات. **[ثمّ ذكر قول يحيى بن سَلاّم، كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:]**

الثّاني ـ مانزل بمكّة و حواليها ـ و لو بعد الهجرة ـ فهو مكّيّ، و مانزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ و مانزل خارج البلدين، بعيدًا عنهما فهو لامكّي و لا مدنيّ، كقوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ اَرْسَلْنَاكَ فِى اُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا اُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ وَ هُمْ

يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبّى لاَ اِلٰهَ اِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ اِلَيْهِ مَتَابِ﴾[١]. قيل: نزلت بالحُدَيبيّة حينما صالح النّبيّ عليه السلام مشركي قُريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: اكتب ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال سُهيل بن عَمرو و سائر المشركين: ما نعرف الرّحمان إلاّ صاحب اليَمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب، فنزلت الآية[٢] و هكذا آية الأنفال [٣]، نزلت في بدر عندما اختصم المسلمون في تقسيم الغنائم، [٤] لا مكّيّة و لامدنيّة على هذا الاصطلاح.

الثّالث ـ ما كان خطابًا لأهل مكّة فهو مكّيّ، و ما كان خطابًا لأهل المدينة فهو مدنيّ. وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلام ابن مسعود: كلّ شيءٍ نزل فيه ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكّة، و كلّ شيءٍ نزل ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ فهو بالمدينة[٥]؛ قال الزّركشيّ: لأنّ الغالب على أهل مكّة الكفر، و غالب على أهل المدينة الإيمان[٦].

وهذا الاختلاف في تحديد المكّيّ و المدنيّ أوجب اختلافًا في كثير من آيات وسور أنّها مكّيّة أم مدنيّة[٧] غير أنّ المعتمد من هذه المصطلحات هو الأوّل، و هو المشهور الّذي جرى عليه أكثريّة أهل العلم[٨]، و كان تحديدنا الآتي في نظم السّور حسب ترتيب نزولها معتمدًا على هذا الاصطلاح.

نعم، الطّريق إلى معرفة مواقع النّزول أنّها كانت بمكّة أو بالمدينة أو بغير هما، قليل جدًّا؛ لأنّ الأوائل لم يعيروا هذه النّاحية المهمّة اهتمامًا معتدًّا به، سوى ما ذكروه في عرض الكلام استطرادًا، و هي استفادة ضئيلة للغاية، و من ثمّ يجب لمعرفة ذلك ملاحظة شواهد و قرائن من لفظ الآية أو استفادة من لهجة الكلام خطابًا مع نوعيّة موقف الموجّه إليهم، أكان في حرب أم في سلم، وعد أم وعيد، إرشاد أو تكليف؟ فيما إذا أوجب ذلك علمًا أوحلًّا لمشكلة في لفظ الآية، كما في قوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ اَوِ اعْتَمَرَ فَلاَجُنَاحَ عَلَيْهِ اَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٩]، فإنّ مشكلة دلالتها على مطلق التّرخيص دون الإلزام و الإيجاب تنحلّ

---

١ ـ الرّعد /٣٠.
٢ ـ مجمع البيان ٦/ ٢٩٣.
٣ ـ الأنفال /١.
٤ ـ راجع السّيرة لابن هِشام ٢: ٣٢٢.
٥ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٨.
٦ ـ البرهان ١: ١٨٧.
٧ ـ كما في آية الأمانات من سورة النّساء: ٥٨، زعمها النَّحّاس مكّية ؛ لرواية ابن جُرَيج، راجع مجمع البيان ٣: ٦٣.
٨ ـ راجع البُرهان للزّركشيّ ١: ١٨٧ و الإتقان ١: ٩.
٩ ـ البقرة /١٥٨.

بما أثر في سبب نزولها[١]، الأمر الّذي يوجب الثّقة بصحّة الأثر، مع غض النّظر عن ملاحظة السّند، و من ثمّ فهي مدنيّة. **[ثمّ ذكر قول الجَعْبَريّ و القاضي أبي بكر و الزّركشيّ، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]**

ترتيب النّزول

اعتمدنا في هذا العرض علىٰ عدّة روايات متّفق عليها، وثق بها العلماء أكثريًّا، وعمدتها رواية ابن عبّاس بطرق و أسانيد اعترف بها أئمّة الفنّ[٢]، قال الإمام بدر الدّين الزّركشيّ: و على هذا التّرتيب استقرّت الرّواية من الثّقات[٣] و قد أخذناها الأصل الأوّل في هذا العرض، و أكملنا ما سقط منها على رواية جابر بن زيد و غيره، و كذا نصوص تاريخيّة معتمدة[٤]. نعم، كان بينها بعض الاختلاف، إمّا للاختلاف في تحديد المكّيّ والمدنيّ، أوفي عدد المكيّات من المدنيّات، و من ثمّ جاء اختلافهم في نيّف و ثلاثين سورة أنّها مكّيّات أم مدنيّات.

والنّظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السُّور، فالسّورة إذا نزلت من أوّلها بضع آيات، ثمّ نزلت أُخرى، و بعدها اكتملت الأُولى، كانت الأُولى متقدّمة على الثّانية في ترتيب النّزول حسب هذا المصطلح.

و إليك قائمة السُّور المكّيّة، و عددها ستّ و ثمانون سورة، متقدّمة على السُّور المدنيّة، و عددها ثمان و عشرون سورة. مع غضّ النّظر عن سور مختلف فيها، و سنتكلّم عن ذلك في فصل قادم.[٥] (١: ٩٩ ـ ١٠٣)

[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة فراجع الجدول،الرّقم ١٥ و١٦ (نصّ عَزَّة دَرْوَزَة و أبوعبدالله الزّنجانيّ في آخر هذا الجزء]

---

١ ـ كان المسلمون يتحرّجون السّعي بين الصّفا و الْمَرْوَة، زعمًا أنّهاعادة جاهليّة تكريمًا بمقام أساف و نائلة، فنزلت الآية دفعًا لهذا الوهم. راجع مجمع البيان ١:٢٤٠.

٢ ـ راجع مجمع البيان ١٠: ٤٠٥ ـ ٤٠٦ و الإتقان ١: ١٠ ـ ١١ و ١:٢٥.

٣ ـ البُرهان لبدر الدّين الزّركشيّ ١: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٤ ـ راجع الفهرست لابن النّديم: ٢٨، و تاريخ ابن واضح اليعقوبيّ ٢: ٢٨.

٥ ـ أعرضنا عن ذكرها للاختصار، و من أراد الاطّلاع عليها فليراجع نفس المصدر: التّمهيد ١: ١١٤ (م).

الفصل السّابع و العشرون

نصّ أبي شهبة (مُعاصرٌ) في «المدخل لدراسة القرآن»

المكّيّ و المدني

معرفة المكّيّ من المباحث المهمّة الّتي يحتاج إليها المفسّر لكتاب الله، و من نصب نفسه للاجتهاد و الفتيا و القضاء؛ كي يمكنهم التّوصّل إلى الحقّ و الصّواب... **[ثمّ ذكر قول النّيسابوريّ، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]**

قال السّيوطي: و قد أشبعت الكلام على هذه الأوجه، فمنها ما أفردته بنوع، و منها ما تكلّمت عليه في ضمن بعض الأنواع.

و قد أفرد المكّيّ و المدنيّ بعض العلماء كمكّيّ و العزّ الدُّرَيْنيّ، و ليس من شأننا في هذا البحث تتبّع الجزئيّات و استقراء السُّور و الآيات المكّيّة و المدنيّة، فذلك بالتّأليف المستقلّ ألصق، و إنّما قصدنا ذكر أحكام كلّيّة، و سمات و خصائص للمكّيّ و المدنيّ، ومعارف متّصلة بهما من شأنها أن تنير الطّريق لدارسي القرآن، وردّ الشُّبَه الّتي أوردها على المكّيّ و المدنيّ بعض المبشّرين و المستشرقين و متابعيهم من الكُتّاب المعاصرين.

[ثمّ ذكر فوائد العلم بالمكّيّ و المدنيّ، و الطّريق إلى معرفتهما و تعريفهما، كما تقدّم عن الزُّرقانيّ، فقال:]

قال الإمام الرّازيّ في تفسيره[1] تعقيبًا على هذا الاصطلاح الأخير: قال القاضي: إن كان الرّجوع في هذا إلى النّقل فمسلّم، و إن كان السّبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكّة فضعيف؛ إذ يجوز أن يخاطب المؤمنين بصفتهم و باسم جنسهم، و يؤمر

---

١ ـ ١: ٣٠٢.

من ليس بمؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها و الازدياد منها، فالخطاب في الجميع ممكن.

فإن قال قائل: إنّ مراد هؤلاء بمقالتهم هذه أنّ الغالب و الكثير كذلك. **قلنا:** إنّ ذلك لا يفيد في التّقاسيم و التّعاريف، إذ مبناها على الضّبط و الانحصار و الاضطراب.

أنواع السُّور المكّيّة و المدنيّة

القرآن الكريم على أربعة أنواع؛ ١ـ مكّيّ خالص. ٢ـ مدنيّ خالص. ٣ـ مكّيّ بعضه مدنيّ. ٤ـ مدنيّ بعضه مكّيّ.

أمّا المكّيّ الخالص فمثل سورة اِقراء و المدّثّر و القيامة.

و أمّا المدنيّ الخالص فمثل سورة البقرة و آل عمران و النّساء و المائدة.

و أمّا المكّيّ الّذي بعضه مدنيّ فمثل سورة الأعراف، فإنّها مكّيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية[١]، إلى خمس آيات أو ثمان بعدها، فإنّها مدنيّة. و مثل سورة الإسراء، فإنّها مكّيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ الآية[٢] فإنّها مدنيّة كما يدلّ على ذلك ماروواه البُخاريّ في صحيحه عن ابن مسعود، و قد تقدّم في «أسباب النّزول و مثل سورة هود، فإنّها مكّيّة إلى قوله تعالى: ﴿وَ اَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَ زُلَفًا مِنَ الَّيْلِ﴾ الآية[٣]، فقد صحّ أنّهانزلت بالمدينة في قصّة أبي اليُسر.

و أمّا المدنيّ الّذي بعضه مكّيّ فمثل سورة الأنفال، فإنّها مدنيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿وَ اِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية[٤]، فقد روي عن مَقاتِل أنّها مكّيّة، و استثني أيضًا قوله تعالى: ﴿وَ اِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ اٰيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا﴾ إلى غاية آية(٣٦) فمكّيّات[٥]. و قد روي عن ابن عبّاس أنّ آية ﴿وَ اِذْ يَمْكُرُ﴾ نزلت على النّبيّ ﷺ بعد قدومه المدينة تذكيرًا له بنعمة الله عليه، فهي مدنيّة.

و مثل سورة براءة، فهي مدنيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ اٰمَنُوا اَنْ يَسْتَغْفِرُوا

١ ـ الأعراف /١٦٣.
٢ ـ الإسراء /٨٥.
٣ ـ هود /١١٤.
٤ ـ الأنفال /٣٠.
٥ ـ أسباب النّزول (للسّيوطيّ) ١: ٧٧ على هامش الجلالين، الإتقان ١: ١٥.

لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَو كانُوا اُولِى قُربىٰ﴾ الآية[١]، فالصّحيح أنّها نزلت في قول النّبيّ لعمّه أبي طالب: «لأستغفرَنّ لك مالم أنه عنك»[٢].

و الّذي يظهر أنّ اعتمادهم في وصف السّورة بكونها مكّيّة أو مدنيّة إنّما يكون تبعًا لما يغلب فيها، أو تبعًا لفاتحها، فقد ورد عن ابن عبّاس: أنّه إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت مكّيّه، ثمّ يزيد الله فيها ما شاء. **[ثمّ ذكر قول البَيْهَقيّ و ابن الحَصّار كما تقدّم عن السُّيوطيّ، وذكر عقيبه أيضاً قول ابن حَجَر كما تقدّم عنه]**.

و ترتيب الآيات القرآنيّة ليس على حسب نزولها و ترتيبها الزّمنيّ إنّما يرجع إلى المناسبات الّتي تقوم على ارتباط المعاني و تماسكها، ووحدة الفكرة أو نجاحها، فلا عجب إذاً أن يكون في بعض السُّور المكّيّة آيات مدنيّة أو العكس.

و ليس أدلّ على هذا من أنّ بعض الآيات وضعت بجانب بعض الآيات الأُخرى مع وجود فاصل زمنيّ بينهما نحو بضع سنين، كما قدّمنا في «أسباب النّزول».

المكّيّ و المدنيّ من السّور

قد اختلف العلماء في بيان المكّيّ و المدنيّ من السُّور على أقوال كثيرة ذكرها السّيوطيّ في إتقانه[٣]، و من السُّور ما اتّفق العلماء على مكّيّتها أو مدنيّتها، و منها ما اختلفوا في كونه مكيًّا أو مدنيًّا و لا يهولنّك تشعّب الاختلاف في هذا، فمردّ معرفة المكّيّ والمدنيّ إلى الأحوال و القرائن و الملابسات، و مثل هذه مّما تختلف فيها الأنظار، و تتنوّع الاستنتاجات. و لعلّ أوفق هذه الأقوال و أقربها إلى الصّواب ما ذكره أبو الحسن بن الحَصّار؛ قال: إنّ المدنيّ باتّفاق عشرون سورة... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]**

أقول: إنّ بعض ماذكره ابن الحَصّار غير مسلّم؛ لأنّ على رأيه تكون سوة الحجّ مكّيّة باتّفاق، مع أنّه روي عن ابن عبّاس و قَتادة و غيرهما أنّها مدنيّة، و هو الأرجح، و ليس من المستساغ أن نعتبر أنّ هذا الخلاف كلاخلاف، إلاّ إذا سِرنا على مَنهجه...

---

١ ـ التّوبة /١١٣.

٢ ـ أسباب النّزول ١: ٢١، هامش.

٣ ـ ١: ٩ ـ ١٤.

المكّيّ و المدنيّ على ترتيب النّزول

و كما عنى العلماء ببيان المكّيّ و المدنيّ من السُّور عنوا أيضًا بترتيب السُّور المكّيّة و المدنيّة على حسب النّزول، فقد أخرج ابن الضُّرَيْس في «فضائل القرآن» رواية عن ابن عبّاس في هذا التّرتيب[1]، و قد سقط من هذه الرّواية فاتحة الكتاب فيما نزل بمكّة، كما أخرج أبوبكر محمّد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور رواية عن جابر بن زيد[2]، و جابر بن زيد من علماء التّابعين بالقرآن، و قد اعتمد البُرهان الجَعْبَريّ على هذا الأثر في قصيدته الّتي سمّاها تقريب المأمول في ترتيب النّزول، و تكاد تـتّفق الرّوايـتان فـيما ذكرناه من ترتيب، و لم تفترقا إلاّ في القليل.

و ممّا يؤخذ على هاتين الرّوايتين أنّهما اتّفقتا على أنّ أوّل مانزل: اِقْرَاْ، ثمّ ن وَالْقَلَم ثمّ يَاۤاَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ثمّ يَاۤاَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ... و هو يخالف ما حقّقناه سابقًا من أنّ أوّل ما نزل بعد صدر سورة اقرأ هو صدر سورة المدّثّر، وكان ذلك بعد فترة الوحي. و لعلّ النّظرة الفاحصة في أوائل ن والمزّمّل و المدّثّر تهدينا إلى أنّ المدّثّر هي الأنسب بالتّقديم عن أختَيها؛ إذ قد اشتمل صدرها على الأمر بالإنذار، وهو الأليق بالتّقديم. ولعلّ هذا النّقد الّذي ذكرته هو ما أشار إليه الإمام السُّيوطيّ؛ حيث قال بعد أن ذكر رواية جابر بن زيد: هذا سياق غريب، وفي هذا التّرتيب نظر.

[ثمّ ذكر ضوابط المكّيّ و المدنيّ و مميّزاتهما، و نقض شُبهات حول هذا الموضوع، كما تقدّم عن الزُّرقانيّ] (ص:٢١٩ ـ ٢٢٧)

---

١ ـ انظر الإتقان ١:١١.

٢ ـ المرجع السّابق :٢٥.

الفصل الثّامن و العشرون

نصّ الدُّكتور حجّتي (معاصرٌ) في «مختصر تاريخ القرآن الكريم»

فائدة معرفة المكّيّ و المدنيّ

إنّ للتّمييز بين المكّيّ والمدنيّ من الآيات و السُّور في تاريخ القرآن أهميّته، و لذلك أفرد بعض العلماء كتبًا خاصّة بهذا الموضوع. و من فوائد معرفة المكّيّ و المدنيّ مواكبة خطوات الإسلام على طريق الدّعوة متواكبة مع الظّروف و الأوضاع و البيئات المختلفة.

[ثمّ ذكر قول السّيوطيّ في فوائد معرفتهما، كما تقدّم عنه].

التّمييز بين المكّيّ و المدنيّ

تعمّق العلماء في دراسة سبل التّمييز بين المكّيّ و المدنيّ، واختلفوا في معايير هذا التّمييز، فمنهم من قال: إنّ المعيار زمانيّ، و منهم من قال: إنّه مكانيّ، و منهم من أقام المعيار على أساس الأشخاص، و من هنا تعدّدت نظريّاتهم في معرفة المكّيّ و المدنيّ، وهذه أهمّ النّظريات... **[ثمّ وضّح المعايير الثّلاثة، كما تقدّم نحوه عن السُّيوطيّ، فقال:]**

و ثمّة نظريّات أُخرى تقيم معيار التّمييز بين المكّيّ و المدنيّ على أساس الحكم والموضوع[1].

الخصائص العامّة للسُّور و الآيات المكّيّة

وضع العلماء مقاييس و ضوابط لمعرفة الآيات و السُّور المكّيّة، و مع أنّها يمكن أن تكون عامّة فهي مقيّدة إلى حدّ ما في التّشخيص. و قد ذكروا لمعرفة المكّيّ ستّ

---

١ ـ البّرهان ١: ١٥٩.

خصائص... [و ذكر كما تقدّم عن الزُّرقانيّ].

أُسلوب السّور و الآيات المكّيّة

هناك علائم غالبيّة مرجّحة لتشخيص المكّيّ، منها:

١ـ قصر الآيات و السّور، و حرارة التّعبير فيها، و رويّها المتجانس.

٢ـ الدّعوة إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر، و الحديث عن الجنّة و النّار.

٣ـ الدّعوة إلى التّمسّك بالأخلاق الفاضلة، و الاستقامة على طريق الصّلاح.

٤ـ مجادلة المشركين و تسخيف أفكارهم.

٥ـ كثرة القسم انسجامًا مع أساليب المخاطبات عند العرب.

الخصائص العامّة للآيات و السُّور المدنيّة

١ـ كلّ سورة فيها أمرٌ بالجهاد أو ذكر له و بيان لأحكامه فمدنيّة.

٢ـ كلّ سورة فيها أحكام الحدود و الفرائض و الحقوق و القوانين المدنيّة والاجتماعيّة و السّياسيّة بشكل تفصيليّ فمدنيّة[1].

٣ـ كلّ سورة فيها ذكر للمنافقين فهي مدنيّة، عدا سورة العنكبوت فهي مكّيّة[2] مع اشتمالها على ذكر المنافقين.

٤ـ مجادلة أهل الكتاب و دعوتهم إلى نبذ التّعصّب و الغلّو[3]

أُسلوب السُّور و الآيات المدنيّة

١ـ طول السُّور و بعض الآيات، و لحنها الهادىء، و كثرة التّفاصيل القانونيّة فيها.

٢ـ التّفصيل في البراهين و الأدلّة المتعلّقة بالحقائق الدّينيّة.

و سنذكر عند حديثنا عن المصاحف مزيدًا من التّفصيل حول هذا الموضوع، و نختم هذا الفصل بنقل قول ابن الحَصّار الّذي ذكره في كتابه «النّاسخ و المنسوخ» و هو يقول: المدنيّ باتّفاق عشرون سورة، و المختلف فيه إثنتا عشرة سورة، و ما عدا ذلك مكّيّ باتّفاق. **(ص: ٤١ ـ ٤٤)**

---

١ ـ مباحث في علوم القرآن للدّكتور صبحيّ الصّالح: ١٨٣ و الإتقان ١: ٢٩.

٢ ـ البُرهان ١: ١٨٨.

٣ ـ و هذا ما نراه في سور البقرة، آل عمران، النّساء، المائدة و التّوبة.

الفصل التّاسع و العشرون

نصّ السّيد الحكيم (مُعاصرٌ) في «علوم القرآن»

المكيّ و المدنيّ

ينقسم البحث حول المكّيّ و المدنيّ من القرآن إلى ثلاثة بحوث:

أوّلاً ـ معنى المكّيّ و المدنيّ

يقسّم القرآن في عرف العلماء التّفسير إلى مكّيّ و مدنيّ، فبعض آياته مكّيّة و بعض آياته مدنيّة و توجد في التّفسير اتّجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح؛ **[ثمّ شرح هذه الاتّجاهات الثّلاثة كما تقدّم عن الزُّرقانيّ و غيره، فقال:]**

التّرجيح بين الاتّجاهات الثّلاثة

و إذا أردنا أن نقارن بين هذه الاتّجاهات الثّلاثة لنختار واحدًا منها فيجب أن نطرح منذ البدء الاتّجاه الثّالث؛ لأنّه يقوم على أساس خاطىء، و هو الاعتقاد بأنّ من الآيات ما يكون خطابًا لأهل مكّة خاصّة، و منها ما يكون خطابًا لأهل المدينة. و ليس هذا بصحيح، فإنّ الخطابات القرآنيّة عامّة، و انطباقها حين نزولها على أهل مكّة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطابًا لهم خاصّة، أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعيّ بهم، بل هي عامّة مادام اللّفظ فيها عامًّا.

والواقع أنّ لفظ المكّيّ و المدنيّ ليس لفظًا شرعيًّا حدّد النّبيّ مفهومه؛ لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، و إنّما هو مجرّد اصطلاح تواضع عليه علماء التّفسير، و ما ريب في أنّ كلّ أحد له الحقّ في أن يصطلح كما يشاء و لانريد هنا أن نخطّىء الاتّجاه الأوّل أو الاتّجاه الثّاني مادام لا يعبّر كلّ منهما إلاّ عن اصطلاح من حقّ أصحاب ذلك الاتّجاه أن

يضعوه، و لكنّا نرى أنّ وضع مصطلح المكّيّ و المدنيّ على أساس التّرتيب الزّمنيّ، كما يقرّره الاتّجاه الأوّل أنفع و أفيد للدّراسات القرآنيّة لأنّ التّمييز من ناحية زمنيّة بين ما أُنزل من القرآن قبل الهجرة، و ما أُنزل بعدها أكثر أهميّة للبحوث القرآنيّة من التّمييز على أساس المكان بين ما أُنزل على النّبيّ في مكّة و ما أُنزل عليه في المدينة، فكان جعل الزّمن أساسًا للتّمييز بين المكّيّ و المدنيّ و استخدام هذا المصطلح لتحديد النّاحية الزّمنيّة أوفق بالهدف.

و تتجلّى أهميّة التّمييز الزّمنيّ المكانيّ في نقطتين؛

إحداهما ـ فقهيّة، أي أنّها ترتبط بعلم الفقه و معرفة الأحكام الشّرعيّة، و هي أنّ تقسيم الآيات على أساس الزّمن إلى مكّيّة و مدنيّة، و تحديد مانزل قبل الهجرة و مانزل بعد الهجرة يساعدنا على معرفة النّاسخ و المنسوخ ؛ لأنّ النّاسخ متأخّر بطبيعيّته على المنسوخ زمانًا، فإذا وجدنا حكمين ينسخ أحدهما الآخر استطعنا أن نعرف النّاسخ عن طريق التّوقيت الزّمنيّ، فيكون المدنيّ منهما ناسخًا للمكّيّ؛ لأجل تأخّره عنه زمانًا.

و الأُخرى ـ هي أنّ التّقسيم للآيات إلى مكّيّة و مدنيّة يجعلنا نتعرّف على مراحل الدّعوة الّتي مرّ بها الإسلام على يد النّبيّ، فإنّ الهجرة المباركة ليست مجرّد حادث عابر في حياة الدّعوة، و إنّما هي حدّ فاصل بين مرحلتين من عمر الدّعوة، و هما مرحلة العمل الفرديّ، و مرحلة العمل ضمن دولة. و لئن كان بالإمكان تقسيم كلّ من هاتين المرحلتين بدورها أيضًا فمن الواضح على أيّ حال أنّ التّقسيم الرّئيسيّ هو التّقسيم على أساس الهجرة، فإذا ميّزنا بين الآيات النّازلة قبل الهجرة، ومانزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطوّرات الدّعوة و الخصائص العامّة الّتي تجلّت فيها خلال كلّ من المرحلتين.

و أمّا مجرّد أخذ مكان النّزول بعين الاعتبار، و إهمال عامل الزّمن فهو لايمدّنا بفكرة مفصّلة عن هاتين المرحلتين، و يجعلنا نخلط بينهما، كما يحرمنا من تمييز النّاسخ عن المنسوخ من النّاحية الفقهيّة.

فلهذا كلّه نؤثّر الاتّجاه الأوّل في تفسير المكّيّ و المدنيّ، و على هذا الأساس سوف نستعمل هذين المصطلحين.

ثانيًا ـ طريقة معرفة المكّيّ والمدنيّ

بدأ المفسّرون عند محاولة التّمييز بين المكّيّ و المدنيّ بالاعتماد على الرّوايات والنّصوص التّاريخيّة الّتي تؤرّخ السّورة أو الآية، و تشير إلى نزولها قبل الهجرة أو بعدها، وعن طريق تلك الرّوايات و النّصوص الّتيّ تتّبعها المفسّرون و استوعبوها استطاعوا أن يعرفوا عددًا كبيرًا من السُّور و الآيات المكّيّة و المدنيّة و يميّزوا بينها.

وبعد أن توفّرت لهم المعرفة بذلك اتّجه كثير من المفسّرين الّذين عنوا بمعرفة المكّيّ و المدنيّ إلى دراسة مقارنة لتلك الآيات و السُّور المكّيّة و المدنيّة الّتي اكتشفوا تأريخها عن طريق النّصوص، و خرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامّة في السّور و الآيات المكّيّة، و خصائص عامّة أُخرى في المدنيّ من الآيات و السّور، فجعلوا من تلك الخصائص العامّة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات و السُّور الّتي لم يؤثّر توقيتها الزّمنيّ في الرّوايات و النّصوص، فما كان منها يتّفق مع الخصائص العامّة للآيات والسُّور المكّيّة حكموا بأنّه مكّيّ، و ما كان أقرب إلى الخصائص العامّة للمدنيّ و أكثر انسجامًا معها أدرجوه ضمن المدنيّ من الآيات بالسُّور.

و هذه الخصائص العامّة الّتي حدّدت المكّيّ و المدنيّ بعضها يرتبط بأُسلوب الآية والسُّورة، كقولهم: إنّ قصر الآيات و السُّور و تجانسها الصّوتيّ من خصائص القسم المكّيّ وبعضها يرتبط بموضوع النّصّ القرآنيّ، كقولهم مثلاً: إنّ مجادلة المشركين و تَسْفيه أحلامهم من خصائص السُّور المكّيّة.

و يمكن تلخيص ما ذكروه من الخصائص الأُسلوبيّة و الموضوعيّة للقسم المكّيّ فيما يأتي ... **[ثمّ ذكر خصائص السُّور المكّيّة والمدنيّة، وكما تقدّم عن الزُّرقانيّ و صُبحي الصّالح و الدّكتور العَطّار]**.

موقفنا من هذه الخصائص

و ما من ريب أنّ هذه المقاييس المستمدّة من تلك الخصائص العامّة تلقي ضوء على الموضوع، و قد تؤدّي إلى ترجيح لأحد الاحتمالين على الآخر في السُّور الّتي لم يرد نصّ بأنّها مكّيّة أو مدنيّة، فإذا كانت إحدى هذه السُّور تتّفق مثلاً مع السّور في أُسلوبها

وإيجازها و تجانسها الصّوتيّ، و تنديدها بالمشركين، و تَسْفيه أحلامهم، فالأرجح أن تكون سورة مكّيّة ؛ لاشتمالها على هذه الخصائص العامّة للسّورة المكّيّة.

و لكنّ الاعتماد على تلك المقاييس إنّما يجوز إذا أدّت إلى العلم، و لايجوز الأخذ بها لمجرّد الظّنّ ففي المثال المتقدّم حين نجد سورة تتّفق مع السُّور المكّيّة في أُسلوبها وإيجازها لا نستطيع أن نقول بأنّها مكّيّة لأجل ذلك؛ إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنيّة وهي تحمل بعض خصائص الأُسلوب الشّائع في القسم المكّيّ، صحيح أنّه يغلب على الظّنّ أنّ السّورة مكّيّة لقصرها و إيجازها، و لكن الأخذ بالظّنّ لايجوز؛لأنّه قول من دون علم.

و أمّا إذا أدّت تلك المقاييس إلى الاطمئنان و التّأكّد من تاريخ السُّورة، و أنّها مكّيّة أو مدنيّة فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذلك و مثاله النُّصوص القرآنيّة الّتي تشتمل على تشريعات للحرب و الدّولة مثلاً، فإنّ هذه الخصيصة الموضوعيّة تدلّ على أنّ النّصّ مدنيّ؛ لأنّ طبيعة الدّعوة في المرحلة الأُولى الّتي عاشتها قبل الهجرة لاتنسجم إطلاقًا مع التّشريعات الدّوليّة، فنعرف من أجل هذا أنّ النّصّ مدنيّ نزل في المرحلة الثّانية من الدّعوة، أي في عصر الدّولة.

ثالثًا ـ الشُّبهات المثارة حول المكّيّ و المدنيّ

لقد كان موضوع المكّيّ و المدنيّ من جملة الموضوعات القرآنيّة الّتي أُثيرت حولها الشّبهة و الجدل، و تنطلق الشّبهة هنا من أساس، هي أنّ الفروق و الميزات الّتي تلاحظ بين القسم المكّيّ من القرآن الكريم و القسم المدنيّ منه تدعو في نظر بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأنّ القرآن قد خضع لظروف بشريّة مختلفة اجتماعيّة و شخصيّة، تركت آثارها على أُسلوب القرآن و طريقة عرضه و على مادّته و الموضوعات الّتي عني بها.

و يجدر بنا قبل أن ندخل في الحديث عن الشُّبهات و مناقشتها أن نلاحظ الأمرين التّاليين؛ لما لهما من تأثير في فهم البحث و معرفة نتائجة:

الأوّل ـ أنّه لابدّ لنا أن نفرّق منذ البدء بين فكرة تأثّر القرآن الكريم و انفعاله بالظّروف الموضوعيّة من البيئة و غيرها بمعنى انطباعه بها، و بين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظّروف بقصد تأثيره فيها و تطويرها لصالح الدّعوة، فإنّ الفكرة الأُولى تعني في الحقيقة

بشريّة القرآن؛ حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش و جزء من البيئة الاجتماعيّة يتأثّر بها كما يؤثّر فيها، بخلاف الفكرة الثّانية، فإنّها لاتغني شيئًا من ذلك؛ لأنّ طبيعة الموقف القرآنيّ الّذي يستهدف التّغيير و طبيعة الأهداف و الغايات الّتي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة، حيث تحدّد الغاية و الهدف طبيعة الأُسلوب الّذي يجب سلوكه للوصول إليها.

فهناك فرق بين أن تفرض الظّروف و الواقع نفسها على الرّسالة، و بين أن تفرض الأهداف و الغايات الّتي ترمي الرّسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع أُسلوبًا و منهجًا للرّسالة؛ لأنّ الهدف و الغاية ليساشيئين منفصلين عن الرّسالة، ليكون تأثيرهما عليها تأثيرًا مفروضًا من الخارج.

فنحن في الوقت الّذي نرفض فيه الفكرة الأُولى بالنّسبة إلى القرآن نجد أنفسنا لاتأبى التّمسّك بالفكرة الثّانية في تفسير الظّواهر القرآنيّة المختلفة، سواءً مايرتبط منها بالأُسلوب القُرآنيّ، أو الموضوع و المادّة المعروضة فيه.

الثّاني ـ أنّ تفسير وجود الظّاهرة القرآنيّة لابدّ أن يعتبر هو المصدر الأساس في جميع الأحكام الّتي تصدر على محتوى القرآن و أُسلوب العَرْض فيه. فقد تكون النّقطة الواحدة في القرآن الكريم سببًا في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للاختلاف في تفسير أصل وجود القرآن. وسوف نورد بعض الأمثلة لهذا الاختلاف في الحكم عندما نذكر من شروط في المفسّر للقرآن أن يكون ذا ذهنيّة إسلاميّة.

و من أجل ذلك فنحن لانسوّغ لأنفسنا أن نقبل حكمًا ما في تفسير نقطة حول القرآن الكريم، لمجرّد انسجام هذا الحكم مع تلك النّقطة، بل لابدّ لنا أن ننظر أيضًا ـ بشكل مسبق ـ إلى مَدى انسجام الحكم مع التّفسير الصّحيح، لوجود الظّاهرة القرآنيّة نفسها.

إنّ الظّاهرة القرآنيّة كما سنشرحه في البحوث القادمة ليست نتاجًا شخصيًّا لمحمّد صلى الله عليه و آله، و بالتّالي ليست نتاجًا بشريًّا مطلقًا، و إنّما هي نتاج إلهيّ مرتبط بالسّماء. و على هذا الأساس يمكننا أن نجزم بشكل مسبق ببطلان جميع الشّبهات الّتي تثار حول المكّيّ والمدنيّ، لأنّها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكّيّ و المدنيّ على

أساس أنّ القرآن الكريم نتاج بشريّ.

و بالأحرىٰ يجب أن يقال: إنّ شبهات المكّيّ و المدنيّ ترتبط في الحقيقة بالشُّبهات الّتي أُثيرت حول الوحي ارتباطًا موضوعيًّا؛ لأنّها ترتبط بفكرة إنكار الوحي، ولذا فسوف نناقش هذه الشُّبهات بعد التّحدّث عنها؛ لإيضاح بطلانها من ناحية، و تقديم التّفسير الصّحيح للفرق بين المكّيّ و المدنيّ بعد ذلك من ناحية ثانية. [**ثمّ ذكر الشّبهات حول المكّيّ و المدنيّ الّتي لا يحتاج ذكرها هنا، و إن شئت فراجع**].

الفروق الحقيقيّة بين المكّيّ و المدنيّ

و لم نجد في الشُّبهات الّتي تناولناها، و لا نجد في غيرها ما يمكنه أن يصمد أمام النّقد العلميّ أو الدّرس الموضوعيّ، و من كلّ ذلك يجدر بنا أن نقدّم تفسيرًا منطقيًّا لظاهرة الفرق بين القسم المكّيّ و القسم المدنيّ، و إن كنّا قد ألمحنا إلى جانب من هذا التّفسير عندما تناولنا الشُّبهات بالنّقد و المناقشة.

و يحسن بنا أن نذكر الفروق الحقيقيّة الّتي امتازبها المكّيّ عن المدنيّ، سواء ما يتعلّق بالأُسلوب أو بالموضوع الّذي تناوله القرآن. ثمّ نفسّر هذه الفروق علىٰ أساس الفكرة الّتي أشرنا إليها في صدر البحث، والّتي تقول: إنّ هذه الفروق كان نتيجة لمراعات ظروف الدّعوة و الأهداف الّتي تسعى إلى تحقيقها؛ لأنّ الهدف و الغاية يلقيان ـ في كثير من الأحيان ـ بظلّهما على طريق العرض و المادّة المعروضة.

و تلخّص هذه الفروق و الخصائص الّتي يمتاز بها المكّيّ عن المدنيّ غالبًا بالأُمور التّالية:[١]

١ـ إنّ المكّيّ عالج بشكل أساسيّ مبادىء الشّرك و الوثنيّة و أُسسها النّفسيّة والفكريّة و مؤدّاها الأخلاقيّ و الاجتماعيّ.

٢ـ و قد أُكدّ على ما في الكون من بدائع الخلقة و عجائب التّكوين، الأمر الّذي يشهد بوجود الخالق المدبّر لها، كما أكّد على عالم الغيب و البعث و الجزاء و الوحي و النّبوّات، وشرح مايرتبط بذلك من أدلّة و براهين، كما خاطب الوجدان الإنسانيّ، و ما أودعه الله

---

١ ـ سبق أن أشرنا إلى هذه الميزات و غيرها عند البحث عن المكّيّ و المدنيّ.

فيه من عقل و حكمة و شعور.

٣ـ و إلى جانب ذلك تحدّث عن الأخلاق بمفاهيمها العامّة، مع ملاحظة الجانب التّطبيقيّ منها، و حذّر من الانحراف فيها كالكفر و العصيان و الجهل و العدوان و سفك الدّماء ووأد البنات و استباحة الأعراض و أكل أموال اليتامى إلى غير ذلك و عرض إلى جانب ذلك الوجه الصّحيح للأخلاق، كالإيمان بالله و الطّاعة له و العلم و المحبّة و الرّحمة و العفو والصّبر و الإخلاص و احترام الآخرين و برّ الوالدين و إكرام الجارّ و نظافة اللّسان و الصّدق في المعاملة و التّوكّل على الله و غير ذلك.

٤ـ و قد تحدّث عن قصص الأنبياء و الرّسل و المواقف المختلفة الّتي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم و أُممهم، و ما يستنبط من ذلك من العبر و المواعظ.

٥ـ أنّه سلك طريق الإيقاع الصّوتيّ و الإيجاز في الخطاب، سواء في الآيات أوالسّور، **و يكاد أن يكون المدنيّ بخلاف ذلك على الغالب و إن كان قد امتاز بالأمرين التّاليين.**

١ـ دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام مع مناقشتهم، و بيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقّة الّتي أُنزلت على أنبيائهم.

٢ـ بيان التّفصيلات في التّشريع و النّظام، و معالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الإنسانيّ.

التّفسير الصّحيح للفرق بين المكّيّ و المدنيّ

و حين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكّيّ و المدنيّ من خلال هذه الخصائص و الميزات نجد:

أوّلاً ـ إنّ هذه الفروق لاتشكّل حدًّا فاصلاً بيم هذين القسمين في القرآن الكريم، و إنّما هي طابع عام لكلّ من القسمين، و إلاّ فنحن نلاحظ أنّ كلاًّ من القسمين تناول بعض أو كلّ الجوانب الأُخرىٰ للقسم الثّاني بشكل أو بآخر انسجاماً مع الأُسلوب القرآنيّ العام، الّذي تميّز بمزج الأفكار و المفاهيم ليوجد منها هذا التّرتيب الفريد المؤثّر في عمليّة التّغيير كما أسلفنا.

ثانياً ـ أنّ الدّعوة الإسلاميّة بدأت في مكّة و عاشت فيها ثلاث عشرة سنة، و هذه الفترة منسوبة إلى زمن نزول القرآن، تعتبر في الحقيقة فترة إرساء أُسس العقيدة الإسلاميّة بجوانبها المختلفة، سواءً ما يتعلّق بالجانب الإلهيّ أو الغيبيّ أو الأخلاقيّ أو الإجتماعيّ، وسواءً ما يتعلّق بالجانب الإيجابيّ، كعرض مفاهيمها عن الكون و الحياة و الأخلاق والمجتمع، أو ما يتعلّق بالجانب السّلبيّ، كمناقشة الأفكار الكافرة الّتي كانت الّتي كانت تسود المجتمع آنذاك.

و هذه الحقيقة تفرض ـ بطبيعة الحال ـ أن يكون القسم المكّيّ أكثر شمولاً و اتّساعًا من جانب، و أن يكون مرتبطًا بمادّته و موضوعاته بالأُسُس و الرّكائز للرّسالة الجديدة من جانب آخر. و هذا هو الّذي يفسّر لنا غلبة المكّيّ على المدنيّ من النّاحية الكمّيّة، مع أنّ الفترة المدنيّة تبدو ـ تاريخيًّا ـ و كأنّها ذاخرة بالأحداث الجِسام، و المجتمع المدنيّ أكثر تعقيدًا و مشاكل. كما أنّ هذا بنفسه بالإضافة إلى الفكرة الّتي أشرنا إليها، و هي مراعاة الظّروف الّتي تسير بها الدّعوة، يفسّرلناهذه الخصائص والميزات الّتي غلبت على المكّيّ من جانب و المدنيّ من جانب آخر.

ثالثاً ـ إنّ عمليّة التّغيير الاجتماعي كانت بحاجة ـ على أساس الفكرة الّتي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل ـ إلى أن تهتّم بمراعاة الظّروف و طبيعة المجتمع الّتي تتناوله عمليّة التّغيير، و تركز على القضايا الفكريّة و السّياسيّة و الاجتماعيّة، و الأمراض الأخلاقيّة الّتي يعيشها ذلك المجتمع، حتّى يتحقّق هذا التّغيير بشكل مناسب. و بذلك يمكن تفسير الخصائص السّابقة الّتي أشرنا إليها في الفرق بين المكيّ و المدنيّ.

فأمّا بالنّسبة إلى الخصيصة الأُولى نلاحظ أنّ المجتمع المكّيّ كان مجتمعًا يتّسم بطابع الوثنيّة في الجانب العقيديّ، بالإضافة إلى أنّ إيضاح الموقف تجاهها يشكّل نقطة أساسيّة في القاعدة للرّسالة الجديدة؛ لأنّها تتبنّى التّوحيد الخالص كأساس لكلّ جوانبها و تفصيلاتها الأُخرى. فكان من الطّبيعيّ التّاكيد على فكرة رفض الشّرك والوثنيّة، والدّخول في مناقشة طويلة معها بشتّى الأساليب و الطّرق.

وبالنّسبة إلى الخصيصة الثّانية نلاحظ أنّ المجتمع المكّيّ لم يكن يؤمن بفكرة الإله

الواحد، كما لا يؤمن بعوالم الغيب و البعث و الجزاء و الوحي و غير ذلك، و هذه الأفكار من القواعد الأساسيّة للرّسالة و العقيدة الإسلاميّة، بالإضافة إلى أنّ مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الأُصول جميعها فكان من الضّروريّ أن يؤكّد القسم المكّيّ على ذلك انسجامًا مع طبيعة المرحلة المكّيّة الّتي تعتبر مرحلة متقدّمة، كما أنّ بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثّانية في غنى عن بيانها مرّةً أُخرىٰ.

و بالنّسبة إلى الخصيصة الثّالثة فلعلّ التّأكيد على الأخلاق في القسم المكّيّ دون المدنيّ كان بسبب العوامل الثّلاثة التّالية:

أ ـ أنّ الأخلاق تعتبر قاعدة النّظام الاجتماعيّ، فالتّأكيد عليها يعني في الحقيقة إرساء لقائدة النّظام الاجتماعيّ الّذي يستهدفه القرآن.

ب ـ كما أنّ الدّعوة كانت بحاجة ـ من أجل نجاحها ـ إلى استثارة العواطف الإنسانيّة الخيّرة ؛ ليكون نفوذها في المجتمع و تأثيرها في الأفراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف و الأخلاق هي أساس الحقيقيّ لكلّ هذه العواطف، و هي الرّصيد الّذي يمدّها بالحياة و النّموّ.

ج ـ أنّ المجتمع المدنيّ كان يمارس الأخلاق من خلال التّطبيق الّذي كان يباشره الرّسول محمّد صلّى الله عليه و آله بنفسه، فلم يكن بحاجة كبيرة إلى التّأكيد على المفاهيم الأخلاقيّة، على العكس من المجتمع المكّيّ الّذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد، و كان يمارس التّطبيق فيه الأخلاق الجاهليّة.

وبالنّسبة إلى الخصيصة الرّابعة نجد القصص تتناول من حيث الموضوع أكثر النّواحي الّتي عالجها القرآن الكريم، من العقيدة بالإله الواحد و عالم الغيب والوحي والأخلاق و البعث و الجزاء بالإضافة إلى أنّها تصوّر المراحل المتعدّدة للدّعوة، والمواقف المختلفة منها، و القوانين الاجتماعيّة الّتي تتحكّم فيها و في نتائجها، والمصير الّذي يواجهه أعداؤها، و إلى جانب ذلك تعتبر القصّة في القرآن أحد أسباب الإعجاز فيه، وأحد الأدلّة على ارتباطه بالسّماء.

وكلّ هذه الأُمور لها صلة وثيقة بالظّروف الّتي كانت تمرّ بها الدّعوة في مكّة، ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدّعوة و أهدافها الرّئيسيّة.

ومع كلّ هذا لم يهمل القسم المدنيّ القصّة مطلقة، بل تناولها بالشّكل الّذي ينسجم مع طبيعة المرحلة الّتي تمرّ بها، كما سوف نتعرّف على ذلك عند دراستنا للقصّة.

وبالنّسبة إلى الخصيصة الخامسة فقد كان لها ارتباط وثيق بجوانب مرحليّة وإعجازيّة؛ لأنّ المرحلة كانت تفرض كسر طوق الأفكار الجاهليّة الّذي كان مضروبًا على المجتمع، فكان لهذا الأُسلوب الصّاعق الحادّ تأثير فعّال في تذليل الصّعوبات، وتحطيم معنويّات المقاومة العنيفة.

وحين يتحدّى القرآن الكريم العرب في أن يأتوا بسورة منه يكون الإيجاز في السّورة أبلغ في إيضاح الإعجاز القرآنيّ، و أعمق تأثيرًا، و أبعد مدى.

و قد كانت المعركة إلى ذلك كلّه في أوّلها معركة شعارات و توطيد مفاهيم عامّة عن الكون و الحياة، و الإيجاز و القصر ينسجم مع واقع المعركة و إطارها أكثر من الدّخول في تفصيلات واسعة، و لهذا نشاهد السُّور القصيرة تُمثِّل المرحلة الأُولى تقريبًا من مراحل القسم المكّيّ.

و هذه الملاحظات لم تكن تتوفّر في مجتمع المدينة بعد أن أصبح الإسلام هو الحاكم المسيطر على المجتمع، و بعد أن أصبحت مسألة الوحيّ و الاتّصال بالسّماء مسألة واضحة، و بعد أن جاء دور آخر للمعركة يفرض أُسلوبًا آخر في العرض و البيان.

و من هذا الدّرس لخصائص و مميّزات القسم المكّيّ تتّضح مبرّرات خصائص القسم المدنيّ من الدّخول في تفصيلات الأحكام الشّرعيّة و الأنظمة الاجتماعيّة، أو مناقشة أهل الكتاب في عقائدهم و انحرافاتهم؛ حيث فرضت ظروف الحكم في المدينة، و الحاجة إلى تنظيم العلاقات بين النّاس إلى بيان هذه التّفصيلات في الأنظمة. كما أنّ المعركة في المدينة انتقلت من الأُصول و الأُسُس العامّة للعقيدة إلى جوانب تفصيليّة منها ترتبط بحدودها و أشكالها، و بالعمل على تقويم الانحراف الّذي وضعه أهل الكتاب فيها.

و بهذا نفسّر الفرق بين المكّيّ و المدنيّ بالشّكل الّذي ينسجم مع فكرتنا عن القرآن، و فكرتنا عن مراعاته للظّروف من أجل تحقيق أهدافه و غاياته. **(ص: ٤٣ ـ ٦٥)**

الفصل الثّلاثون

نصّ الأبياريّ (معاصرٌ) في «الموسوعة القرآنيّة»

نزول الوحي

قد تقدّم أنّ ابتداء نزول الوحي كان في السّابع عشر من رمضان، من السّنة الحادية والأربعين من ميلاد الرّسول، و أنّ قوله تعالى: ﴿اِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللهِ وَ مَا اَنْزَلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ[1]﴾ يُشير إلى ذلك، فالتقاء الجمعين ـ أعني المسلمين والمشركين ببدر ـ كان في السّابع عشر من رمضان من السّنة الثّانية للهجرة، و في مثلها من السّنة الحادية و الأربعين من مَولده كان ابتداء نزول الفرقان، ينضمّ إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ هُدىً لِلنَّاسِ و بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَ الْفُرْقَانِ﴾[2].

والصّحيح أنّ أوّل ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾[3]، ثمّ كانت فترة الوحي الّتي أشرنا إليها من قبل و الّتي مكثت سنين ثلاثًا و بعدها أخذ القرآن ينزل على الرّسول منجّمًا، فنزلت: ن و القلم، ثمّ المزّمّل، ثمّ: المدّثّر، إلى غير ذلك ممّا نزل مُقَامَه ﷺ بمكّة مُنذ بُعث الى أن هاجر، و كان ذلك اثنتي عشرة سنة و خمسة أشهر و ثلاثة عشر يومًا، أي منذ اليوم السّابع عشر من رمضان من سنة إحدى و أربعين من مولده إلى اليوم الأوّل من شهر ربيع الأوّل من سنة أربع و خمسين من مولده.

و قد ذكر ابن النّديم بإسناده عن محمّد بن نُعمان بن بَشير السُّور على ترتيب نزولها المكّيّ و المدنيّ، و قد عرض لهذا أيضًا البِقاعيّ إبراهيم بن عمر (٨٨٥ ﻫ) في كتابه: «نظم الدُّرر في تناسب الآي و السُّور» غير أنّ بين ما ساق ابن النّديم و بين ما ساق البِقاعيّ خلافًا.

---

١ ـ الأنفال /٤١.

٢ ـ البقرة /١٨٥.

٣ ـ العلق /١.

و ثمّة جداول تنظّم ترتيب ابن النّديم المكّيّ ثمّ المدنيّ، كما تنظّم ترتيب البِقاعيّ المكّيّ و المدنيّ، و من المساقين نستطيع أن نتبيّن هذا الخلاف:... **[ثمّ ذكر ترتيب السّور عنهما، كما سيجيء عن ابن النّديم في قسم الجداول،الرّقم ٤ و ٥.]**.

عدد المكّيّ و المدنيّ

والمتّفق عليه، و عليه المُصحَف الّذي بين أيدبنا، أنّ المدنيّ من سور القرآن ثمان وعشرون سورة هي... **[و ذكر كما تقدّم عن عزّة دَرْوَزَة، ثمّ قال:]**

و ما بعد هذه السّور الثّماني و العشرين فهو مَكّيّ، أعني نزل بمكّة و ما حواليها. أمّا على رأي من يقول: إنّ المراد بالمكّيّ هو ما جاء خطابًا لأهل مكّة، و أنّ المدنيّ هو ما جاء خطابًا لأهل المدينة، فالأمر يختلف. و إذا عرفنا أنّ سور القرآن عددها أربع عشرة و مائة سورة، كان مانزل بمكّة هو ستّ و ثمانون سورة.

و إذا شئت مزيدًا من الحصر فعدد آيات السُّور المدنيّة الثّماني و العشرين هو ثلاث وعشرون و ستّمائة و ألف آية (١٦٢٣)، و عدد آيات السُّور المكّيّة السّتّ و الثّمانين هو ثلاث عشرة و ستّمائة و أربعة آلاف آية (٤٦١٣)، فيكون مجموع آي القرآن مدنيّة ومكّيّة ستًّا و ثلاثين و مائتين و ستّة آلاف (٦٣٢٦)، و هذا هو المعتدّبه.

و أنت بهذا تجد أنّ أكثر القرآن نزل بمكّة قبل الهجرة، و أنّ السُّور المدنيّة تكاد تعدل الثّلث من مجموع السُّور المكّيّة، تزيد على الثّلث قليلاً، و أنّ مجموع آيات السُّور المدنيّة **يكاد يعدل الثّلث من مجموع آيات السُّور المكّية، ينقص عن الثّلث قليلاً [إلى أن قال:]**

ترتيب الآيات

و كما كان ضبط الآيات بفواصلها توقيفيًّا كذلك كان وضعها في مواضعها توقيفيًّا، دليل ذلك الآية: ﴿**وَاتَّقُوا يَومًا تُرْجَعُون فِيهِ اِلَى الله**﴾ البقرة: ٢٨١، كانت آخر مانزل، فوضعها النّبيّ عن وحي من ربّه بين آيتي الرّبا و الدَّين من سورة البقرة، و هكذا كان الأمر في سائر الآيات. **[ثمّ ذكر ترتيب السّور المكّيّة و المدنيّة و استثنائات الآيات فيهما كما سيجيءُ نحوه عن الزّنجانيّ في الجدول الرّقم ١٥]**.

ترتيب السّور

أمّا عن ترتيب السُّور، فمن السّلف من يقول: إنّه توقيفيّ، و يستدلّ على ذلك بورود الحواميم مرتّبة و لاءً، و كذا الطّواسين، على حين لم ترتّب المسبّحات و لاءً، بل جاءت مفصولاً بين سورها، و فُصّل بين «طسم» الشّعراء و «طسم» القصص بـ «طس»، مع أنّهاأقصر منها، و لوكان التّرتيب اجتهاداً لذكرت المسبّحات و لاءً و أخّرت «طس» عن «القصص».

كما يجعلون فيما نقله الشّهرستانيّ محمّد بن عبد الكريم في تفسيره «مفاتيح الأسرار و مصابيح الأبرار» الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى﴾ هي السّبع الطُّوال: البقرة، و آل عمران، والنّساء، و المائدة، و الأنعام، و الأعراف، و يونس، دليلاً على أنّ هذا التّرتيب كان بتوقيف من النّبيّ ﷺ.

والّذين يقولون: إنّ ترتيب السُّور اجتهاديّ يستدلّون على ذلك بورود السّور مختلفة التّرتيب في المصاحف الخمسة الّتي أُثرت عن خمسة من كبار الصّحابة، هم عليّ بن أبي طالب، و أُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، و عبدالله بن عبّاس، و أبو عبدالله جعفر بن محمّد الصّادق.[1]

أمّا عن مُصحف عليّ فيُعزى إليه أنّه رأى من النّاس طِيَرَةً عند وفاة النّبي ﷺ، فأقسم ألاّ يضع على ظهره رداءه حتّى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيّام حتّى جمع القرآن، فكان أوّل مُصْحَف جمع فيه القرآن من قلبه...

و أمّا عن مُصْحَف أُبيّ فيقول ابن النّديم: قال الفضلُ بن شاذان: أخبرنا الثّقة من أصحابنا، قال: كان تأليف السُّور في قراءة أُبيّ بن كعب بالبصرة في قَرية يقال لها: قَرية الأنصار، على رأس فرسخين،عند محمّد بن عبد الملك الأنصاريّ، أخرج إلينا مُصحفًا، وقال: هو مُصْحَف أُبيّ رويناه عن آبائنا فنظرتُ فيه فاستخرجت أوائل السُّور و خواتم الرُّسل و عدد الآي. ثمّ مضى يذكر السُّور مرتّبةً كما جاء في هذا المُصْحَف.

---

١ ـ ماذكره سهو لأنّ أبو عبدالله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام ليس صحابيًّا بل هو سادس أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وُلد عام: ٥٨ هـ توفّي عام: ١٤٨هـ

و أمّا عن مُصْحَف عبدالله بن مسعود فينقل ابن النَّديم عن الفضل بن شاذان أيضًا، فيقول: قال وجدتُ في مُصحف عبدالله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا التّرتيب ثمّ يسوق ابن النّديم هذا التّرتيب.

ثمّ يقول ابن النّديم: قال ابن شاذان: قال ابن سيرين: و كان عبدالله بن مسعود لا يكتب المُعوّذتين في مُصْحَفه، و لا فاتحة الكتاب.

ثمّ يقول ابن النَّديم: رأيت عدّة مصاحف ذكر نُسّاخها أنّها مُصْحَف ابن مسعود، ليس فيها مُصْحَفان متّفقان، و أكثرها في رِقّ كثير النّسخ. و قد رأيت مُصْحَفًا قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة الكتاب.

و أمّا عن مُصْحَف عبدالله بن عبّاس (٦٨ ه) و كان رأس المفسّرين، فقد ذكر الشَّهرستانيّ محمّد بن عبدالكريم (٥٤٨ ه) هذا التّرتيب في مقدّمة تفسيره «مفاتيح الأسرار و مصابيح الأبرار».

و أمّا عن مُصْحَف الإمام أبي عبدالله جعفر الصّادق بن محمّد الباقر بن زين العابدين بن الحسين (١٤٨ ه) فقد ذكره الشّهرستانيّ أيضًا في مقدّمة تفسيره «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار»... **[و ذكر كما تقدّم عنه]. (١: ٣٢٦ ـ ٣٤٠)**

الفصل الحادي و الثّلاثون

نصّ السّيد ميرمحمّديّ (معاصرٌ) في كتابه: «بحوث في تاريخ القرآن و علومه»

المكّيّ و المدنيّ في القرآن

فائدة هذا البحث

يمكن تلخيصها بالنّقاط التّالية

الأُولى ـ أنّ المعروف بين المسلمين هو أنّ في كتاب الله ناسخًا و منسوخًا، بل لقد قال بعض المحقّقين: إنّ نسخ الحكم دون التّلاوة هو المشهور بين العلماء و المفسّرين،[1] ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ اٰيَةٍ اَوْ نُنْسِهَا نَاْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا اَوْ مِثْلِهَا...﴾[2].

و ما رواه سُلَيْم بن قَيْس عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «إنّ أمر النّبيّ مثل القرآن، منه ناسخ و منسوخ و خاصّ و عامٌّ»[3].

و حيث أنّه لابدّ من تأخّر النّاسخ عن المنسوخ، فإنّ ذلك يتوقّف إلى حدّ بعيد على بحثنا هذا، و معرفة أنّ أيّ الآيتين مكّيّة متقدّمة، و الأُخرى مدنيّة متأخّرة؛ لتكون هذه ناسخة لتلك، فيما لولم يمكن الجمع بينهما.

الثّانية ـ قد يحتاج ظهور الكلام ـ أيّ كلام ـ وضعًا أو عُرفًا إلى معرفة القرائن المفهمة، كالعلم بمكان الصّدور و زمانه، و معرفة المخاطب ـ بالفتح ـ بهذا الكلام، و الجوّ الّذي ورد فيه، فإذا عرف كلّ ذلك ينعقد للكلام ظهور في المعنى المقصود منه.

---

١ ـ البيان في تفسير القرآن: ١٩٦.

٢ ـ البقرة /١٠٦.

٣ ـ كتاى سُليْم بن قيس ط النّجف: /٨٥.

و لعلّ القرآن الكريم لايشذّ عن هذه الضّابطة، فكثيرًا ما يكون العلم بكون الآية مكّيّة أو مدنيّة، و بأنّها نزلت قبل الهجرة أو بعدها قرينة مبيّنة للمعنى المقصود، و يكون ذلك معينًا للمفسّر على فهم المراد من كلام الله تعالى. **[ثمّ ذكر قول النّيسابوريّ دليلاً على قوله، كما تقدّم عن الزّركشيّ]**.

الثّالثة ـ معرفة تواريخ الوقائع و الأحكام على وجه الإجمال، ممّا يفيد في معرفة صحّة و فساد بعض المنقولات غير المسؤولة من بعض المؤرّخين المأجورين أو المغفّلين أو المتعصّبين. فمعرفة المكّيّ و المدنيّ تدلّ على أنّ ما ذكر في المكّيّ كان قد وقع قبل الهجرة، و ما في المدنيّ وقع بعدها.

الرّابعة ـ قال الزُّرقانيّ: و من فوائده أيضًا الثّقة بهذا القرآن... **[و ذكر كما تقدّم عنه]**.

المراد من المكّيّ و المدنيّ

قال في «الإتقان»: اعلم أنّ للنّاس في المكّيّ و المدنيّ اصطلاحات ثلاثة... **[و ذكر كما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ قال:]**.

و أمّا نحن فنختار الاصطلاح الأوّل، و نسير في بحثنا على وفقه؛لأنّه مضافًا إلى شهرته هو تعريف جامع لايشذّ عنه أيّ من الموارد، و ذلك لأنّ التّقسيم على هذا الاصطلاح يكون من قبيل الحصر العقليّ الدّائر بين النّفي و الإثبات دون أن يكون هناك واسطة، بخلاف التّعريفين: الثّاني و الثّالث، فإنّهما غير شاملين لبعض السّور كسورة الفتح مثلاً، فإنّها بتمامها أو بعضها نزلت بين مكّة و المدينة عند رجوع النّبيّ ﷺ من الحُدَيبيّة، فالاصطلاح الثّاني إذن لايشملها؛ لأنّها لم تنزل في مكّة و لا في المدينة.

و أمّا على الاصطلاح الثّالث فلأنّها غير مصدّرة بيا أيّها النّاس؛ لتكون مكّيّة، و لا بيا أيّها الّذين آمنوا ؛ لتكون مدنيّة، و أمّا على المختار فهي مدنيّة؛ لنزولها بعد الهجرة.

ضوابط تعيين المكّيّ و المدنيّ

ووجهات النّظر في ذلك متعدّدة، و نذكر منها

الأُولى ـ قال القاضي أبوبكر في الإنتصار... **[و ذكر كما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ أحسن**

قول الزُّرقانيّ في المقام كما تقدّم عنه، فقال:].

ثمّ إنّه ربّما نجد في كتب الإماميّة بعض الرّوايات عن أئمّة أهل البيت ـ و إن كانت قليلة و ربّما ضعيفة سندًا ـ يستفاد منها. أو نصّ فيها على أنّ هذه السّورة أو الآية مكّيّة أو مدنيّة، مثل:

١ـ ما رواه العيّاشيّ عن أبي جعفرعليه‌السلام قال: قال عليّ بن أبي طالبعليه‌السلام: «نزلت سورة المائدة قبل أن يقبض النّبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بشهرين أو ثلاثة»[١].

٢ـ و ماروواه في الكافي عن محمّد بن سالم، عن أبي جعفرعليه‌السلام و فيه: «ثمّ بعث الله محمّدًا صلى‌الله‌عليه‌وآله و هو بمكّة عشر سنين. فلم يمت في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إله إلاّ الله، و أنّ محمّدًا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إلاّ أدخله الله الجنّة بإقراره، و هو إيمان التّصديق»، إلى أن قالعليه‌السلام: و تصديق ذلك أنّ الله (عَزَّوجَلَّ) أنزل عليه في سورة بني إسرائيل بمكّة **﴿وَقَضىٰ رَبُّكَ اَلاَّ تَعْبُدُوا اِلاَّ اِيَّاهُ...﴾**[٢]. ثمّ بعد أنّ عدّدعليه‌السلام بعض ما أنزله الله في مكّة قال: «فلمّا أذن الله لمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله في الخروج من مكّة إلى المدينة بني الإسلام على خمس»، إلى أن قال: «وأُنزل في المدينة في بيان القاتل»، و عدّد بعض ما أُنزل في المدينة، ثمّ قال: «وأُنزل بالمدينة **﴿اَلزَّانِى لاَ يَنْكِحُ اِلاَّ زَانِيَةً إلخ...﴾**[٣] و نزل بالمدينة: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾**،[٤]، و سورة النّور نزلت بعد سورة النّساء» الحديث[٥].

٣ـ ما رواه الأمين الطَّبْرِسيّ عن عليّ بن إبراهيم أنّ أباه حدّثه عن عليّ بن مَيْمون، عن أبي عبداللهعليه‌السلام قال: «كان عند فاطمة شَعير فجعلوه عصيدة، فلمّا أنضجوها و وضعوها بين أيديهم جاء مسكين، فقال المسكين: رحمكم الله. فقام عليّعليه‌السلام فأعطاه ثلثها»[٦] و في هذا دلالة على أنّ السّورة مدنيّة كما نقل عن ابن عبّاس.

الثّانية ـ [ثمّ ذكر رواية الحاكم و البَيْهَقيّ و البَزّاز و رواية مَيْمون بن مِهْران، كما تقدّم عن السُّيوطيّ، فقال:] و لكن هذا الكلام لايصحّ على إطلاقه لأُمور؛

---

١ ـ تفسير العيّاشيّ، سورة المائدة.
٢ ـ الإسراء /٢٣.
٣ ـ النّور /٣.
٤ ـ النّور /٤.
٥ ـ أُصول الكافيّ لثقة الإسلام الكُلَيْنيّ ط قديم: ٣٢٠.
٦ ـ تفسير مجمع البيان سورة (الإنسان).

أوّلاً ـ فلقد راجعت «المعجم المفهرس «ألفاظ القرآن الكريم»، فرأيت أنّ كلّ ما كان فيه: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ قد كُتب في قباله أنّه مكيّ و كلّ ما كان فيه: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ قد كتب في قباله أنّه مدنيّ، إلاّ في موارد، و هي الآيات التّالية:

١ـ ﴿يَاءَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [1]

٢ـ ﴿يَاءَيُّها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [2].

٣ـ ﴿يَاءَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ [3].

٤ـ ﴿يَاءَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ [4].

٥ـ ﴿يَاءَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [5].

فإنّ هذه الآيات جميعًا قد كتب في قبالها أنّهامدنيّة، و وقعت في السُّور المدنيّة، ولكنّهم لم يستثنوها في المُصْحَف الأميريّ، و لكن ما كان فيه ﴿يَا بَنِى اٰدَمَ﴾ قد كتب في المعجم الفهرس أنّه مكّيّ.

و **ثانيًا** ـ أنّ هذه الضّابطة على فرض صحّتها غير مطّردة في جميع القرآن، فهي أخصّ من المدّعى، فإنّها لا تبيّن لنا حال الآيات ـ و هي كثيرة ـ الّتي ليس فيها: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ و لا ﴿يَابَنِى اٰدَمَ﴾ و لا ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾، فنحتاج في تمييزها إلى ضوابط وعلامات أُخرى.

و **ثالثًا** ـ أنّ كلّ تلك العلامات المذكورة إنّما جعلت بعد أن فهمنا المكّيّ و المدنيّ من الآثار المنقولة عن الأصحاب كابن عبّاس و غيره، و بعبارة أُخرى بعد أن ميّزنا المكّيّ عن المدنيّ من السُّور و لا حظناها فوجدنا المكّيّ منها يشتمل على ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ﴾ و ﴿يَا بَنِى اٰدَمَ﴾، و ليس فيه ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾ و المدنيّ بالعكس.

وعليه فمعرفة أنّ المكّيّ فيه هذه الجملة دون تلك، و المدنيّ بعكسه متوقّف على النّقل و الآثار، لا إنّنا إذا رأينا كلمة ﴿يَا بَنِى اٰدَمَ﴾ مثلاً عرفنا أنّ السّورة مكّيّة مباشرة.

---

١ ـ البقرة /٢١.
٢ ـ النّساء /١.
٣ ـ النّساء /١٧٠.
٤ ـ النّساء /١٧٤.
٥ ـ الحجّ /١.

ولعلّ هذا القائل تخيّل أنّ قلّة المسلمين في مكّة لا تناسب توجيه الخطاب إليهم، بل المناسب الخطاب للأكثر، و لكنّ كثرتهم في المدينة أوجبت صحّة توجيه الخطاب إليهم بـ ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا﴾.

ولكن هذا مجرّد تخيّل و حدس لايوجب الاطمئنان، بل الاطمئنان حاصل بخلافه، و ذلك لأنّ خطابات القرآن ليس على نحو القضيّة الخارجيّة.

و إنّما هي على نحو القضيّة الحقيقيّة الّتي لا يفرق فيها بين كثرة الموجودين و قلّتهم. بل كلّ من دخل تحت عنوان الخطاب، ولو بعد سنين يكون مشمولاً له نعم، ربّما يقال: إنّ الخطاب المشتمل على بعض الأحكام كالجهاد و نحوه، ممّا يحتاج إلى القدرة و التّمكّن المفقود عند مسلمي مكّة لايكون توجيهه إليهم مناسبًا.

الثّالثة: ماقيل من أنّ فيه أحكامًا فرعيّة فهو مدنيّ. و هذه العلامة و إن كانت صادقة بنحو جزئيّ، إلاّ أنّها أيضًا لايمكن الاعتماد عليها؛ لأنّها أخصّ من المدّعىٰ؛ إذ أنّ ثبوت أنّ هذه الآية مدنيّة لايلزمه ثبوت كون تلك مدنيّة.

هذا بالإضافة إلى أنّنا نجد في السُّور المكّيّة أحكامًا فرعيّة كالسُّور المدنيّة. و إن كانت بالنّسبة إليها قليلة. فنجد أنّ: قوله تعالى: ﴿وَ اَنْ اَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَاتَّقُوهُ﴾[١]. و قوله ﴿لاتَقْتُلُوا اَوْلاَدَكُمْ مِنْ اِمْلاَقٍ﴾[٢]. و قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ﴾[٣]. وقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ اِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[٤]. و قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ اِلاَّ بِالَّتِى هِيَ اَحَسَنُ﴾[٥]. و قوله ﴿اَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾[٦].

نجد أنّ كلّ هذه الآيات المتضمّنة لأحكام فرعيّة قد وردت في سورة الأنعام و هي مكّيّة. كما أنّ: قوله تعالى: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى اَخْرَجَ لِعِبادِهِ﴾،[٧]. و قوله: ﴿قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ﴾[٨].

قد ورد في سورة الأعراف و هي مكّيّة، و أيضًا فإنّ: قوله ﴿قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ اٰمَنُوا

١ ـ الأنعام /٧٢.
٢ ـ الأنعام /١٥١.
٣ ـ الأنعام /١٥١.
٤ ـ الإسراء /٣٣.
٥ ـ الأنعام /١٥٢.
٦ ـ الأنعام /١٥٢.
٧ ـ الأعراف /٣٢.
٨ ـ الأعراف /٣٣.

يُقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾،[١] قد ورد في سورة إبراهيم و هي مكّيّة. و ورد في سورة الإسراء المكّية؛ قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ و في سورة المؤمنون المكّيّة: قوله: ﴿اَلَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢] و أمر النّاس بالسّجود في سورة النّجم و هي مكّيّة. و أمّا سوى ذلك من السُّور المكّيةفلم أجد فيه ما يدلّ على أحكام فرعيّة في هذه العجالة.

الرّابعة ـ ما قيل من أنّ ما فيه كلمة ﴿كَلَّا﴾ فهو مكّيّ. و هذا حقّ كما يظهر لمن لاحظ «المعجم الفهرس»، فإنّه قد كتب أمام كلّ الآيات المتضمّنة لكلمة (كَلَّا) أنّها مكّيّة.

و لكن قد ذكرنا أنّ ذلك لم يعلم إلاّ بعد تمييز المكّيّ عن المدنيّ بالنّقل عن ابن عبّاس و غيره، و لولا ذلك لم يستطيع أحد أن يفهم، و لا جاز له أن يميّز بين المكّيّ والمدنيّ بوجود (كَلَّا) و عدم وجودها هذا عدا عن أنّ ذلك لو صحّ كونه مميّزًا فإنّما يقتضي تعيّن بعض الآيات، و يبقى الباقي بحاجة إلى مميّز آخر.

و عليه فإنّنا نخلص من كلّ ما تقدّم إلى أنّ القول الحقّ هو أنّ تمييز المكّيّ عن المدنيّ يحتاج إلى الأثر و النّقل، و أنّ ما سواه ممّا ذكر ضابطًا و مميّزًا لا يصلح لذلك.

هل هناك آيات مدنيّة في سورة مكّيّة أو بالعكس؟

بقي أن نشير هنا إلى أنّ من البعيد جدًّا وجود آيات مكّيّة في سورة مدنيّة، و كذلك العكس، بناء على الإصطلاح المشهور في المكّيّ و المدنيّ.

و لست أدري لماذا إذاً نزلت آية في مكّة لسبب اقتضى نزولها ـ لماذا ـ لا تجعل هذه الآية جزء لسورة مكّيّة نزلت في ظروف مشابهة؟ و لماذا ينتظر الشّهور و الأعوام حتّى يسافر النّبيّ صلّى الله عليه وآله المدينة، ثمّ تجعل حينئذ جزء لسورة مدنيّة؟

و لماذا يصرف النّظر عن الجمع بين مانزل في عصر واحد و محيط واحد و مكان واحد إلى الخلط و التّشريك بين آيات نزلت في ظروف و أجواء مختلفة؟.

هذا بالإضافة إلى أنّ القائل بذلك ـ أي بوجود آيات مدنيّة في سور مكّيّة و بالعكس. لم يتمسّك لإثبات وجهة نظره بشيء مأثور، و لا وصل إليه دليل لا من الرّسول صلّى الله عليه وآله ولا من

---

١ ـ إبراهيم /٣١.

٢ ـ المؤمنون /٢.

الأئمّة عليهم السلام، بل إنّما استند إلى مجرّد اجتهادات ظنّية، ممّا يشجعنا على القول بأنّه لادليل على هذا الاستثناء و لا حجّة عليه.

و من الموارد الّتي قيل فيها بوجود آيات مدنيّة في سورة مكّيّة سورة الرّعد، فإنّها على ما نقله مجاهد عن ابن عبّاس مكّيّة كلّها. و لكن استثنىٰ الكَـلْبيّ و مُـقاتِل الآيـة الأخيرة منها. و هي قوله تعالى: ﴿وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1]؛ حيث أنّهم يقولون: إنّ هذه الآية قد نزلت في عبدالله بن سَلاّم، و هو إنّما أسلم بعد الهجرة، فلا يمكن أن تكون هذه الآية المقصود بها عبدالله بن سَلاّم مكّيّة.

و لكنّ الحقيقة أنّ هذا توهّم محض، فإنّه من الممكن جدًّا أن يكون المقصود بالآية غير عبدالله بن سَلاّم، ممّن أسلم في مكّة المكرّمة، و تكون السّورة كلّها مكّيّة ؛ قال الشّيخ عبدالمتعال الصّعيديّ: هذا و أمثاله ممّا يتّخذ... **[و ذكر كما تقدّم عنه، فقال:]**

و في «الدّر المنثور» عن سعيد بن منصور و ابن جَرير و ابن المُنذر و ابن أبي حاتم والنّحّاس أنّ سعيد بن جُبَيْر أنكر نزول هذه الآية في ابن سَلاّم. و قال الشَّعبيّ: ما نزل في ابن سَلاّم شيء من القرآن. وثمّة روايات أُخرى أخرجها في الدّرّ المنثور ٤: ٦٩ تبعد نزول هذه الآية في عبدالله بن سَلاّم المذكور.

المأثور في تميز المكّيّ و المدنيّ

قد تقدّم بعض ما نقل عن أئمّتنا في بيان بعض الموارد، و ننقل هنا ما نقل عن بعض الأصحاب، فنقول:

روي في «الإتقان» عن «فضائل القرآن» لابن ضُرَيْس بسند ذكره عن ابن عبّاس ؛ قال: كانت إذا نزلت فاتحة... **[و ذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]**

و هذا الحديث كما تراه قد سقطت منه سورة الفاتحة، مع أنّها أوّل سورة نزلت بمكّة على ما نقل في «الإتقان» عن «الكشّاف» عن أكثر المفسّرين.[2] و نقل أيضًا عن جابر بن

---

١ ـ الرّعد /٤٣.

٢ ـ الإتقان النّوع الأوّل: ٢٥.

زيد أنّ أوّل مانزل بمكّة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثمّ ﴿يَاءَيُّهَاالْمُدَّثِّرُ﴾ ثمّ الفاتحة الخ.

و لاتفوتنا هنا الإشارة إلى أنّ الأمين الطَّبْرِسيّ قد روى حديث ابن عبّاس الآنف في مجمع البيان[١]، لكنّه «ره» قد اشتبه و عدّ سورة القمر و سورة اقتربت سورتين، مع أنّهما واحدة.

و يمكن ذلك الاشتباه من النّاسخ، يؤيّده قوله فيما بعد: و هي خمس و ثمانون سورة، فإنّه لو فرض تعدّد السّورة عنده بتعدّد الاسمين لصار عدد السُّور عنده ستًّا وثمانين سورة، كما أنّ ابن النَّديم قد أورد رواية ابن عبّاس المذكورة في فهرسته، فلتراجع[٢].

نظرة في المصاحف المطبوعة اليوم

ثمّ لايخفي أنّ المصاحف المطبوعة متفاوتة بالنّسبة إلى ما روي عن ابن عبّاس، فنلاحظ:

أ ـ إنّ القرآن الّذي أعدّه عبد الوَدُود يوسف و طبع بموافقة دارالإفتاء ووزارة الإعلام السّوريّة بتاريخ ١٩٧٥/٨/١٠ قد وافق رواية ابن عبّاس الآنفة، حتّى في عدم استثناء بعض الآيات، فعَنْون السّورة كلّها بمكيّة أو مدنيّة من دون أن يستثني شيئًا.

ب ـ إنّ المُصحف المطبوع في ايران بخطّ طاهر خوشنويس، و قوبل مع القرآن السّلطانيّ[٣] قد وافق رواية ابن عبّاس، إلاّ في موارد هي:

١ـ سورة الحمد: فإنّها لم ترد في الرّواية، و لكن جاء في المُصحف السّلطانيّ أنّها مكّيّة.

٢ـ سورة الرّحمٰن: مدنيّة في الرّواية، مكّيّة في السّلطانيّ.

٣ـ سورة التّحريم: مدنيّة في الرّواية، مكّيّة في السّلطانيّ.

٤ـ سورة النّاس: مكّيّة في الرّواية، مدنيّة في السّلطانيّ.

ج ـ إنّ المُصْحَف الّذي طبع في القاهرة بخطّ «قُدُرغَه لي»، و قوبل بالمُصْحَف الأميريّ الّذي أقرّته اللَّجنة المعيّنة من قبل «فؤاد الأوّل» ملك مصر في وقته، تحت إشراف مشيخة الأزهر، هذا المُصحف قد وافق رواية ابن عبّاس، إلاّ أنّه قد استثني فيه بعض الآيات، مثلاً كتبوا في المُصحف: سورة البقرة مدنيّة، إلاّ آية (٢٨١) فمكّيّة، لكنّا قلنا: إنّ

---

١ ـ ١٠: ٤٠٥. ٢ ـ الفهرست: ٤٥.

٣ ـ كتب القرآن السُّلطانيّ في عصر السّلطان سُلَيْم بعد فتحه مصر، و كان قد استقدم جميع الخطّاطين و الفنّانين والرّسّامين إلى عاصمته فكتبوه (التّمهيد في علوم القرآن ١: ٣٥٦).

هذا الإستثناء لا دليل عليه، إلاّ رواية عن ابن عبّاس تقول: إنّها نزلت بمنى قبل وفاة النّبيّ ﷺ بواحد و ثمانين يومًا، و لكنّها معارضة بما يدلّ على خلاف ذلك[1].

ولو سلّم فقد قلنا: إنّ المقياس المشهور و المنصور هو تسمية مانزل قبل الهجرة مكّيًّا، و مانزل بعدها مدنيًّا، لا مانزل في مكّة و المدينة كما تقدّم، فهي مدنيّة على هذا القول الأصحّ.

د ـ وثمّة مُصْحَف مطبوع في تركيا لسنة ١٣٤٢ ه بإشراف لجنة، و هو أيضًا لم تستثنَ فيه آيات أصلاً. و هذا لعلّه هو طريقة أكثر المصاحف المطبوعة كما يظهر لمن لاحظها.

فتحصّل أنّ (٨٦) سورة معها سورة الفاتحة كلّها مكّيّة، و (٢٨) سورة كلّها مدنيّة من دون استثناء، و أنّ المراد بالمكّيّ ما أنزله الله قبل الهجرة، و بالمدنيّ ما أنزله الله بعدها، وهو الإصطلاح المعروف و المشهور. **(٣٢٥ ـ ٣٣٩)**

---

١ ـ راجع الدّرّ المنثور ١: ٣٧٠.

الفصل الثّاني و الثّلاثون

نصّ الدّكتور الصّغير (مُعاصرٌ) في دراسات قرآنيّة (تاريخ القرآن)

المكّيّ و المدنيّ

كان نتيجة هذا التدرّج في النّزول أن استوعب نزول القرآن الكريم حياة النّبيّ ﷺ في الرّسالة، و كانت رسالته قد اتّخذت مرحلتين: مرحلة الفترة المكّيّة قبل الهجرة، ومرحلة الفترة المدنيّة بعد الهجرة و في الضّوء اقتضى أن ينقسم القرآن الكريم إلى مرحلتين تبعًا لمرحلتي الرّسالة؛ لاستمراره بالنّزول فيهما، و هما المرحلة المكّيّة، والمرحلة المدنيّة، و هو تقسيم روعي فيه النّظر إلى الزّمان و المكان، و للباحثين فيه ثلاثة اصطلاحات: **[ثمّ ذكر في بيان اصطلاحات الثّلاثة، كما تقدّم عن الزّركشيّ و السّيوطيّ وصبحي الصّالح و العطّار و غيرهم فقال:]**

والحق أنّ علمائنا القدامىٰ قد عنوا في هذا الجانب عناية فائقة، تتناسب مع جلال القرآن و عظمته، واعتبروا علم نزول القرآن زمانيًّا و مكانيًّا من أشرف علوم القرآن، حتّى ذهبوا إلى من لم يعرف مواطن النّزول و أماكنه و أزمنته، و يميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله. **[ثمّ ذكر قول محمّد بن حبيب النّيسابوريّ حول نزول القرآن بأمكنة مختلفة وحكمها، كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:]**

و الحق أنّ ابن حبيب النّيسابوريّ قد نبّه إلى جزئيّات و حيثيّات مهمّة، مضافًا إلى تقسيمة المكّيّ و مثله المدنيّ إلى مراحل أوّليّة و وسطيّة و نهائيّة، و هي تقديرات تعني بالتّاريخ الدّقيق لنزول سور القرآن و آياته، و كأنّه بهذا قد فتح الطّريق أمام المستشرقين للخوض في هذه التّفصيلات في محاولة لترتيب القرآن زمنيًّا، ووصف كلّ ما يتعلّق بمراحل نزول الوحي القرآنيّ، و قد علّقوا على ذلك أهميّته كُبرى، و كان المستشرق

الألماني الأُستاذ تيُوردنُولِدْكِه (١٨٣٦ م ـ ١٩٣٠ م) من أبرز المقتنعين في هذا المنهج وضرورة استقصائه، و قد أخضع في ضوئه الحوادث الهامشيّة في الحروب و المغازيّ والمراسلات و الوقائع لاستنتاجاته العلميّة.

و قد سلك في كشف تأريخ السّور مسلكًا قويمًا يهدي إلى الحقّ أحيانًا، فإنّه جعل الحروب و الغزوات الحادثة في زمن النّبيّ صلّى الله عليه وآله و علم تأريخها كحرب بدر و الخندق وصُلح الحُدَيْبيّة و أشباهها من المدارك لفهم تأريخ مانزل من القرآن، و جعل اختلاف لهجة القرآن و أُسلوبه الخطابيّ دليلاً آخر لتأريخ آياته، وهو يرتاب في بحثه التّحليليّ في الرّوايات و الأحاديث و أقوال المفسّرين في تأريخ القرآن، و في عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره، و يرشده إلى تأريخ السّور و الآيات و نظمها أحيانًا.[١] و قد ظهرت في أُوربا في منتصف القرن التّاسع عشر محاولات لترتيب سُور القرآن، و دراسة مراحلة التّأريخيّة... **[و ذكر كما تقدّم عن صُبحي الصّالح ثمّ قال:]**

إلاّ أنّ هؤلاء جميعًا قد رفضوا الأثر والرّوايات في تأريخ النّزول، ممّا خالفوا به مصدرًا رئيسيًّا من مصادر التّعيين في ترتيب النّزول، و ذلك عن طريق الجمع بين الرّوايات و غربلتها و الأخذ بأوثقها.

و قد أورد ابن حَجَر عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه جمع القرآن على ترتيب النّزول عقب موت النّبي صلّى الله عليه وآله و خرّجه ابن أبي داود.[٢] وأيّد وجود ذلك صاحب الميزان و تحدّث عن خصوصيّاته.[٣]

وقد أثبت في كتاب «المباني لنظم المعانيّ» جدول لهذا التّرتيب الزّمنيّ.[٤] إلاّ أنّه يختلف عن ترتيبه فيما ورد بأصل النّسخة المطبوعة في ليبسك (١٨٧١ ـ ١٨٧٢ م) ولمّا أثبته الزّنجانيّ في تقسيمه لجمع الإمام عليّ عليه السلام للمُصحف في سبعة أجزاء.[٥]

وإذا صحّت هذه الرّواية فقد فاتنا تأريخ دقيق عن النّزول يستند إلى أعظم رواية قد

---

١ ـ ظ: المؤلف، المستشرقون و الدّراسات القرآنيّة: ٨٨ و مابعدها.

٢ ـ الإتقان ١: ٢٠٢، تأريخ القرآن:٤٨.

٣ ـ القرآن في الإسلام: ١٣٤ ـ ١٣٨.

٤ ـ مقدّمتان في علوم القرآن: ١٤.

٥ ـ تأريخ القرآن: ٦٩ و ما بعدها.

شاهد عصر التّنزيل و صاحب مسيرته، و بذلك يكون الإمام عليّ عليه السلام أوّل من حقّق في تثبيت نزول القرآن تأريخيًّا. و ليس أمامنا طريق إلى تعيين تأريخ النّزول إلاّ من جهتين؛

الأُولى ـ الرّواية الصّحيحة الثّابتة المرفوعة إلى النّبيّ صلّى الله عليه و آله أو أهل البيت عليهم السلام أو الصّحابة رضي الله عنهم الّذين شاهدوا قرائن الأحوال، و تتّبعوا مسيرة الوحي من بدايته إلى نهايته، و قد كان جزء من ذلك متوافرًا فيما نلمسه من روايات و آثار في كتب التّفسير و علوم القرآن، من نصوص يوردها الأثبات و يتناقلها الثّقات، و إن كان بعضها لا يخلو من تضارب، أمّا رسول الله صلّى الله عليه و آله فقد أنّه لم يؤمر به، و لم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأُمّة.[1]

الثّانية ـ الاستنباط الاجتهاديّ القائم على أساس إعمال الفكر، و دراسة الأحداث، و معرفة أسباب النّزول، والمقارنه بين الآيات نفسها و اعتبار القرائن الحاليّة والمقاليّة، والسّياق و النّظم، و وحدة السّورة الموضوعيّة، وما ماثل ذلك أدلّة تقريبيّة على ذلك، لا سيّما فيما لانصّ عليه، فتتعيّن معرفته عن طريق الأدلّة و البراهين و المرجّحات، فيؤخذ بأقواها حجّة، و أبرمها دليلاً، و هذا مانشاهده في شأن الآيات و السُّور المختلف بنزولها الزّمانيّ أو المكانيّ.

و قد استأنس العلماء و المحقّقون بعلائم و إمارات و خصائص، تتميّز بها كلّ من السُّور المكّيّة و المدنيّة، ففرّقوا بينها على أساس هذا الفهم و النّظر في ذلك، كضوابط قابلة للانطباق في أكثر تجاربها، إلاّ أنّهاليست حتميّة، و لكنّها إمارات غالبة؛ لتوافر استثناءات في بعضها. [**ثمّ ذكر ضوابط معرفة السّور المكّيّة و المدنيّة كما تقدّم نحوه عن العطّار، فقال:**]

والحقّ أنّ هذه الضّوابط يمكن اعتبارها ضوابط استقرائيّة للأعمّ الأغلب فيما وقف عليه العلماء من كتاب الله، و قد يضاف إليها بعض الضّوابط الأُخرى ناظرة في الأُسلوب أو العرض أو الموضوع، أو القصر أو الطُّول، أو الشّدة أو اللّين، يستضاء بها ويسترشد إلى تمييز المكّيّ من المدنيّ و بالعكس.

وسواء أكانت هذه الضّوابط نقليّه أم اجتهاديّة فإنّ لها اسثناءات في حدود، و تماثلاً بين القسيمين في بعض الوجوه. و عليه فلا طريق لنا إلى القطع بالمكّيّ أو المدنيّ، إلاّ

١ ـ البُرهان ١: ١٩١.

الرّواية الصّحيحة الثّابتة، أو الأحداث التّاريخيّة المتناولة لها سورةٌ ما، و تقتضي التّعيين الزّمانيّ أو التّحديد المكانيّ، أو معرفة أسباب النّزول بأشخاصه و أماكنه و وقائعه، لا دواعيه و مماثلاته و لوازمه، و بذلك يكون التّدوين التّأريخيّ لقسمي القرآن مكّيّه ومدنيّه، أمثل ترتيبًا و أكثر صحّةً.

على أنّ تلك الضّوابط ـ و لا ننكر أهميّتها ـ تشير إلى خصائص قيّمة في مسيرة الوحي القرآنيّ من الإجمال إلى التّفصيل، و من العموميّات إلى الجزئيّات، و من الإشارة إلى التّصريح، و هي بالأخير تنبّه إلى الإيمان بالمرحليّة الزّمانيّة و المكانيّة في التّشريع والقوانين والأنظمة، و تبرهن على تطوّر أساليب الرّسالة و مقتضياتها.

و بديهيّ أنّ النّزول إمّا أن يكون ابتدائيًّا، أو على أثر سؤال أو حادث أو استفتاء، فما كان منه ابتدائيًّا فيمكن اعتباره الأصل الأوّليّ في الدّين، و الأساس في أركان التّشريع العامّة، و حجر الزّاوية في تنظيم العالم من قبل الله تفضّلاً منه و تحنّنًا و رحمةً و ما جاء عقب واقعة فإمّا أن يكون حكمًا جديدًا لا عهد لهم به، أو نبأ مجهولاً عند السّائلين، أو تفضيلاً في حدود و فرائض أجملت من ذي قبل، و فيه تتجلّى حكمة التّشريع و بواعث الحكم، و عنه نشأ علم أسباب النّزول، و العلم بالسّبب يورث العلم بالمسبّب، و استفيد منه إنسانيّة القرآن، و عالميّة دعوته، و شموليّة أحكامه؛ لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، و يعرف به النّاسخ من المنسوخ في بعض الحالات، و فيه تعيين تأريخيّ للأحداث، و تقويم عامّ للمشكلات، و طريقه الأمثل هو النّقل الصّحيح القطعيّ.

قال الواحِديّ: لا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلاّ بالرّواية و السّماع ممّن شاهدوا التّنزيل، ووقفوا على الأسباب، و بحثوا عن علمها.[1]

و يجب الحذر التّحرّز تجاه أسباب النّزول، فلا تؤخذ على علاّتها، بل يجب عرضها على القرآن نفسه، فما وافق القرآن أخذ به، و ما عارض القرآن طرح، فهناك التّناقض الكثير في بعض الرّوايات، و هناك القصص الخرافيّ في جانب منه، و هناك الإسرائيليّات المطوّلة الّتي لا يحتملها النّصّ القرآنيّ، بل و هناك مالا يوحى بالسّبب فيسمّى سببًا، و قد

---

١ ـ الإتقان ١: ٨٩.

يطلق في هذا الضّوء السّبب على اللّازم و المتعلّق و هو غير السّبب، وقد يطلق السّبب على ما يعتبر من باب الجرى و قبيل الانطباق و ليسا من الأسباب.

و لو سلّمت أسباب النّزول من هذه الثّغرات لكانت خير منار لتتبّع كثير من تأريخيّة النّزول على أتمّ وجه و أفضل سبيل للكشف عن كثير الحالات النّفسيّة و القابليّات العقليّة الّتي عليها القوم.

إنّ هذا الجانب غنيّ ببحوث القدامىٰ، فقد أفاض به كلّ من الواحِديّ و الزّركشي والسّيوطيّ و أضرابهم، و نقلوا فيه آراء السّلف، و لسنا بحاجة إلى نقدها ولاإلى سردها.[1] والحقّ أنّ تعيين أسباب النّزول يعين كثيرًا على معرفة المكّيّ من المدنيّ في وجه من الوجوه، لارتباطه بالأحداث و التّأريخ و الأشخاص، و لكن أغلب ذلك في الآيات لا في السّور، و الرّوايات فيه متضاربة و متعارضة.

و تأريخيّة النّزول تقتضي أن نعطي تقسيمًا للسّور المكّيّة و السّور المدنيّة، و قد سبق أن أفضنا أن لا سبيل لذلك إلاّ الرّواية الثّابتة، و أنّي لنا ذلك؟ فهناك اختلاف كثير في النّقول بهذا الجانب، و ذكر جميع التّفصيلات تطويل بغير طائل، و لكنّنا سنلقي بالمسؤوليّة على الزّركشيّ فنثبت ما أثبته.

[ثمّ ذكر ترتيب السُّور المكّيّة و المدنيّة نقلاً عن الزّركشيّ كما تقدّم عنه، فقال:]

ولعلّ من المفيد حقًّا أن نضع جدولاً بحسب ترتيب السُّور القرآنيّة في المُصْحَف الشّريف، نشير فيه إلى رقم السّورة من المُصحف، ثمّ نذكر اسمها المشهور، ثمّ نكتب عدد آياتها، ثمّ نشير إلى مكان النّزول، ثمّ نتتبّع تأريخ النّزول معتمدين بذلك على ترتيب المُصْحَف الإمام، و محقّقين في المعلومات المدوّنة على أوثق المصادر و أثبتها، و من ثمّ نعقّب في الهامش بالآيات المستثناة من السّور مكّيّة و مدنيّة إعتمادًا على الرّوايات القائلة بذلك.[2]

---

١ ـ ظ: تفصيل ذلك في كلّ من أسباب النّزول، البّرهان ١: ٢٢ ـ ٣٣، الإتقان ١: ٨٢ ـ ٩٨.

٢ ـ يقارن ذلك في كلّ من جامع البيان، مجمع البيان، الإتقان ١: ٢٥ ـ ٣٧، مقدّمتان في علوم القرآن: ٨ ـ ١٦، تأريخ القرآن: ٤٩ (للزّنجانيّ) القرآن المجيد: ٤٤ (للشّر قاويّ)

على أنّ ما نقدّمه من عرض قد لا يجد قبولاً عند بعض الباحثين، لا سيّما في استثناء الآيات المكّيّة من السُّور المدنيّة، و الآيات المدنيّة من السُّور المكّيّة، فقد ناقش صاحب الميزان في أغلب ذلك، و اعتبار السّياق لا يساعد على جملة منها، بل و لا أدلّةٍ نظميّة عليه، و طريقته في تعيين ذلك تعتمد النّظم و السّياق أوّلاً و أساسًا.[١] ومهما يكن من أمر، فهو يتّفق معنا في الأصل المشار إليه كما في التّرتيب التّالي: (٤٩ ـ ٥٩)

ترتيب سور القرآن العدديّ و المكاني و الزّماني ...

[و ذكر كما سيجيء نحوه عن الزّنجانيّ الجدول الرّقم ١٥].

١ ـ ظ: الطّباطبائيّ ـ الميزان في أجزائه كافّة.

جداول السّور المكّيّة و المدنيّة
و ترتيب نزولها



جدول الرّقم ١

ترتيب السّور عند اليعقوبيّ برواية أبي صالح عن ابن عبّاس

ترتيب السّور المكّيّة

التّسلسل	أسماء السُّور	التّسلسل	أسماء السُّور
١	اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ	١٨	اَلَمْ تَرَ...
٢	نٓ وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ	١٩	وَالنَّجْمِ اِذَا هَوىٰ
٣	وَالضُّحىٰ	٢٠	عَبَسَ وَ تَوَلّىٰ
٤	يَاءَيُّهَا المُزَّمِّلُ	٢١	اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ
٥	يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّر	٢٢	وَالشَّمْسِ
٦	فَاتحَة الْكِتَاب	٢٣	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
٧	تبَّت	٢٤	وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ
٨	اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ	٢٥	لاِيلاَفِ قُرَيْش
٩	سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الاَعْلىٰ	٢٦	القَارِعَة
١٠	وَالَّيْلِ اِذَا يَغْشى	٢٧	لَا اُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَة
١١	وَالْفَجْرِ	٢٨	وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ
١٢	اَلَمْ نَشْرَح لَكَ صَدْرَكَ	٢٩	وَالْمُرْسَلاَتِ عُرفًا
١٣	اَلرَّحْمٰن	٣٠	قٓ وَالْقُرآن المَجيد
١٤	وَالْعَصْرِ	٣١	لَا اُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ
١٥	اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر	٣٢	وَالطَّارِقِ
١٦	اَلْهيٰكُمُ التَّكَاثُرُ	٣٣	اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
١٧	اَرَاَيْتَ الَّذِى...	٣٤	صٓ وَالْقُراٰن

التّسلسل	أسماء السُّور	التّسلسل	أسماء السُّور
٣٥	الأعراف	٥٨	تنزيل الزُّمَر
٣٦	الجنّ	٥٩	حمٓ الدّخان
٣٧	يسٓ	٦٠	حمٓ الشّريعة
٣٨	تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ	٦١	الأحقَاف
٣٩	حَمْد الملائكة	٦٢	وَالذَّارِيَاتِ
٤٠	مَريم	٦٣	هَلْ اَتيٰكَ
٤١	طٓه	٦٤	الكَهف
٤٢	طسٓمٓ الشّعراء	٦٥	النَّحْل
٤٣	طسٓ النّمل	٦٦	نُوح
٤٤	طسٓمٓ القَصَص	٦٧	ابراهيم
٤٥	بَنى إسرائيل	٦٨	اِقْتَربَ لِلنَّاسِ
٤٦	يُونس	٦٩	قَدْ اَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ
٤٧	هُود	٧٠	الرَّعد
٤٨	يُوسُف	٧١	والطّور
٤٩	الحِجْر	٧٢	المُلك
٥٠	الأنعام	٧٣	الحَاقَّة
٥١	الصَّافَات	٧٤	سَئَلَ سَائِل
٥٢	لُقمان	٧٥	عَمَّ يَتَسَائَلُونَ
٥٣	حمٓ المؤمن	٧٦	وَالنَّازِعَاتِ
٥٤	حمٓ السّجدة	٧٧	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ
٥٥	حمٓ عسقٓ	٧٨	الرُّوم
٥٦	الزُّخْرُف	٧٩	العَنْكَبُوت
٥٧	حمد سبأ		

ترتيب السّور المدنيّة

التّسلسل	أسماء السُّور	التّسلسل	أسماء السُّور
١	وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ	١٧	الجُمُعة
٢	البقرة	١٨	تنزيل السّجدة
٣	الأنفال	١٩	المؤمن
٤	آل عمران	٢٠	إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ
٥	الحشر	٢١	المجادلة
٦	الأحزاب	٢٢	الحُجُرات
٧	النّور	٢٣	التّحريم
٨	الممتحنة	٢٤	التّغابُن
٩	إِنَّا فَتَحْنَا	٢٥	الصَّف
١٠	النّساء	٢٦	المائدة
١١	الحجّ	٢٧	البراءة
١٢	الحديد	٢٨	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ
١٣	محمّد(ص)	٢٩	الواقعة
١٤	الإنسان	٣٠	والعاديات
١٥	الطّلاق	٣١و٣٢	المعوّذتان جميعًا
١٦	لم يكن		

جدول الرّقم ٢

[أجزاء القرآن و ترتيب سوره في مُصْحَف امام عليّ عليه السلام برواية اليعقوبيّ]

وروى بعضهم: أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه لمّا قُبض رسول الله و أتى به يحمله على جملٍ، فقال عليه السلام: هذا القرآن قد جمعته، و كان قد جزّأه سبعة أجزاء [فهو مايلي في جداول]:

الجزءالأوّل	الجزءالثّاني	الجزءالثّالث	الجزءالرّابع
١ـ البقرة	١ـ آل عمران	١ـ النّساء	١ـ المائدة
٢ـ يوسف	٢ـ هود	٢ـ النّحل	٢ـ يونس
٣ـ العنكبوت	٣ـ الحج	٣ـ المؤمنون	٣ـ مريم
٤ـ الرّوم	٤ـ الحِجْر	٤ـ يسٓ	٤ـ طسٓمٓ الشّعراء
٥ـ لُقمان	٥ـ الأحزاب	٥ـ حمٓعٓسٓقٓ	٥ـ الزُّخرُف
٦ـ حمٓ السّجدة	٦ـ الدّخان	٦ـ الواقعه	٦ـ الحجرات
٧ـ الذّاريات	٧ـ الرّحمن	٧ـ تبارك الملك	٧ـ قٓ...
٨ـ هل أتى	٨ـ الحاقّة	٨ـ المدّثّر	٨ـ اقتربت السّاعة
٩ـ	٩ـ سأل سائل	٩ـ أرأيت	٩ـ الممتحنة
المٓ تنزيل السجدة	١٠ـ عبس وتولّى	١٠ـ تبّت	١٠ـ والسّماء والطّارق
١٠ـ النّازعات	١١ـ والشّمس	١١ـ قل هوالله احد	١١ـ لاأُقسم...
١١ـ إذاالشّمس كُوّرت	١٢ـ إنّا أنزلناه	١٢ـ والعصر	١٢ـ ألَم نشرح
١٢ـ إذاالسّماءانفطرت	١٣ـ إذازُلزِلت	١٣ـ القارعة	١٣ـ والعاديات
١٣ـ إذاالسّماءُ انشقّت	١٤ـ هُمَزة	١٤ـ البروج	١٤ـ الكوثر
١٤ـ الأعلى	١٥ـ ألَم تَرَ	١٥ـ وَالتّين	١٥ـ الكافرون
١٥ـ لم يكن	١٦ـ لإيلاف قريش	١٦ـ طسٓ النّمل	

فذلك جزء البقرة	فذلك جزء آل عمران	فذلك جزء النّساء	فذاك جزء المائدة
ثمانمائة و ستّ و ثمانون آية و هو خمس عشرة سورة	ثمانمائة و ستّ و ثمانون آية و هو ستّ عشر سورة	ثمانمائة وستّ وثمانون آية، و هو ستّ عشرة سورة	ثمانمائة و ستّ و ثمانون آية و هو خمس عشرة سورة

الجزء الخامس	الجزء السّادس	الجزء السّابع
١ـ الأنعام	١ـ الأعراف	١ـ الأنفال
٢ـ سُبحان	٢ـ ابراهيم	٢ـ براءة
٣ـ اقترب	٣ـ الكهف	٣ـ طه
٤ـ الفرقان	٤ـ النّور	٤ـ الملائكة
٥ـ موسى فرعون	٥ـ صٓ	٥ـ الصّافات
٦ـ حمٓ المؤمن	٦ـ الزّمر	٦ـ الأحقاف
٧ـ المجادلة	٧ـ الشّريعة	٧ـ الفتح
٨ـ الحَشْر	٨ـ الّذين كفروا	٨ـ الطّور
٩ـ الجُمُعة	٩ـ الحديد	٩ـ النّجم
١٠ـ المنافقون	١٠ـ المُزّمِّل	١٠ـ الصّف
١١ـ نٓ و القلم	١١ـ لاأُقسم...	١١ـ التّغابُن
١٢ـ إنّاأرسلنانوحًا	١٢ـ عمّ يتسائلون	١٢ـ الطّلاق
١٣ـ قُل أُوحي	١٣ـ الغاشية	١٣ـ المُطفِّفين
١٤ـ المرسلات	١٤ـ والفجر	١٤و ١٥ـ المعوّذتين
١٥ـ والضُّحى	١٥ـ والّيل اذا يغشى	
١٦ـ الَهيكم	١٦ـ اذا جاء نصرالله	

فذلك جزء الأنعام	فذلك جزء الأعراف	فذلك جزء الأنفال
ثمانمائة و ستّ و ثمانون آية و هو ستّ عشرة سورة [٣]	ثمانمائة ستّ و ثمانون آية و هو ستّ عشرة سورة [٤]	ثمانمائة و ستّ و ثمانون آية، و هو خمس عشرة سورة

(١٣٦ـ١٣٥:٢)

جدول الرّقم ٣

ترتيب السّور عند ابن النّديم برواية الزُّهريّ عن حَمْد بن نُعمان

نزول القرآن بمكّة

التّسلسُل	أسماء السُّور	التسلسُل	أسماء السُّور
١	اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ إلى قوله: مَالَمْ يَعْلَمْ.	١٥	الْهيٰكُمُ
٢	نٓ وَ الْقَلَمَ	١٦	اَرَاَيْتَ الَّذِى
٣	يَاءَ يُّهَا المزّمّل، و آخرها بطريق مكّة	١٧	قُلْ يَاءَيُّهَا الْكَافِرُونَ
٤	المدّثّر	١٨	اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِاَصْحَابِ الْفِيلِ
٥	عن مجاهد: نزلت تبّت يَدَا اَبِي لَهَب	١٩	قُلْ هُوَاللهُ اَحَدُ
٦	اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت	٢٠	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ
٧	سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الاَعْلٰى	٢١	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٨	اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ	٢٢	وَالنَّجْم.
٩	وَالْعَصْرِ	٢٣	عَبَسَ وَ تَوَلّٰى
١٠	وَالْفَجْرِ	٢٤	اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ
١١	والضُّحى	٢٥	وَالشَّمسِ وَ ضُحٰيهَا
١٢	وَالّيل	٢٦	وَالسَّماءِ ذَاتِ الْبُرُوج
١٣	وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا	٢٧	وَالتِّينِ و الزَّيْتُونِ
١٤	اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوثَر	٢٨	لايلافِ قُرَيْش

٢٩	الْقَارِعَة	٥٣	الصَّافات
٣٠	لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ	٥٤	لقمان، آخرها مدنيّ
٣١	وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة	٥٥	قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ
٣٢	المرسلات	٥٦	سبأ
٣٣	قٓ وَالْقُرْاٰنِ	٥٧	الأنبياء
٣٤	لاأُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ	٥٨	الزُّمَر
٣٥	الرَّحمن	٥٩	حمٓ المؤمن
٣٦	قُلْ أُوحِيَ	٦٠	حمٓ السّجدة
٣٧	يسٓ	٦١	حمٓعٓسٓقٓ
٣٨	المٓصٓ	٦٢	حمٓ الزُّخرُف
٣٩	تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ	٦٣	حمٓ الدّخان
٤٠	الملائكة	٦٤	حمٓ الشّريعة
٤١	اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ	٦٥	حمٓ الأحقاف، فيها آي مدنيّة
٤٢	مَرْيَم	٦٦	والذَّارِيَاتِ
٤٣	طٰهٰ	٦٧	هَلْ أَتٰيكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ
٤٤	إذَا وَقَعَت	٦٨	الكهف، آخرها مدنيّ
٤٥	طسٓمٓ الشّعراء	٦٩	الأنعام، فيها آي مدنيّة
٤٦	طسٓ	٧٠	النّحل، آخرها مدنيّ
٤٧	طسٓمٓ الآخرة	٧١	نوح
٤٨	بني إسرائيل	٧٢	ابراهيم
٤٩	هود	٧٣	السّجدة
٥٠	يوسف	٧٤	الطّور
٥١	يونس	٧٥	تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ
٥٢	الحِجْر	٧٦	الحاقّة

٧٧	سَأَلَ سَائِلٌ	٨٢	الرّوم
٧٨	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ	٨٣	العنكبوت
٧٩	النّازعات	٨٤	وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، وَ يُقال: إنّها مدنيّة
٨٠	إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ	٨٥	اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ
٨١	إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ	٨٦	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ

نزول القرآن بالمدينة

٨٧	البقرة	١٠١	إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ
٨٨	الأنفال	١٠٢	النّور
٨٩	الأعراف	١٠٣	الحجّ
٩٠	آل عمران	١٠٤	المنافقون
٩١	الممتحنة	١٠٥	المجادلة
٩٢	النّساء	١٠٦	الحُجُرات
٩٣	إِذَا زُلْزِلَت	١٠٧	يَاءَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ
٩٤	الحديد	١٠٨	الجُمُعة
٩٥	الّذينَ كَفَرُوا	١٠٩	التّغابُن
٩٦	الرّعد	١١٠	الحواريّين
٩٧	هَلْ أتَى علَى الْإِنْسَانِ الرّعد	١١١	الفتح
٩٨	يَاءَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء	١١٢	المائدة
٩٩	لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا	١١٣	التّوبة
١٠٠	الحشر		

جدول الرّقم ٤

ترتيب القرآن عند ابن النّديم في مُصْحَف عبدالله بن مسعود برواية ابن شاذان

قال الفضل بن شاذان وجدت في مُصْحَف عبدالله بن مسعود تأليف سُورالقرآن على هذا التّرتيب:

التّسلسل	الأسماء	التّسلسل	الأسماء	التّسلسل	الأسماء
١	البقرة	١٥	الشُّعراء	٢٩	الملائكة
٢	النّساء	١٦	الصّافات	٣٠	ابراهيم
٣	آل‌عمران	١٧	الأحزاب	٣١	صٓ
٤	آلمٓصٓ	١٨	القَصَص	٣٢	الّذين‌كفروا
٥	الأنعام	١٩	النّور	٣٣	القمر
٦	المائدة	٢٠	الأنفال	٣٤	الزُّمَر
٧	يونس	٢١	مريم	٣٥	الحواميم‌المسبّحات
٨	بَراءة	٢٢	العَنكبوت	٣٦	حمٓ‌المؤمن
٩	النّحل	٢٣	الرّوم	٣٧	حمٓ‌الزُّخرُف
١٠	هُود	٢٤	يسٓ	٣٨	السّجدة
١١	يُوسف	٢٥	الفرقان	٣٩	الأحقاف
١٢	بني‌اسرائيل	٢٦	الحجّ	٤٠	الجاثية
١٣	الأنبياء	٢٧	الرّعد	٤١	الدُّخان
١٤	المؤمنون	٢٨	سبأ	٤٢	انّافتحنا

التّسلسل	الأسماء
٤٣	الحديد
٤٤	سبّح
٤٥	الحشر
٤٦	تنزيل
٤٧	السّجدة
٤٨	ق
٤٩	الطّلاق
٥٠	الحجرات
٥١	تبارك الّذي بيده الملك
٥٢	التّغابُن
٥٣	المنافقون
٥٤	الجُمُعة
٥٥	الحواريُّون
٥٦	قل أُوحي
٥٧	انّا ارسلنا نوحًا
٥٨	المُجادلة
٥٩	المُمتحنة
٦٠	ياءيّها النّبيُّ لِمَ تُحَرّم
٦١	الرّحمن
٦٢	النّجم
٦٣	الذّاريات
٦٤	الطّور
٦٥	اقتربت السّاعة

التّسلسل	الأسماء
٦٦	الحاقّة
٦٧	اذا وقعت
٦٨	نٓ والقلم
٦٩	النّازعات
٧٠	سَاَل سائل
٧١	المُدّثّر
٧٢	المُزّمّل
٧٣	المُطفّفين
٧٤	عَبَسَ
٧٥	الدّهر
٧٦	القيامة
٧٧	المرسلات
٧٨	عَمَّ يتساءَلُون
٧٩	التّكوير
٨٠	الانفطار
٨١	هل أتيك حديث الغاشية
٨٢	سبّح اسم ربّك الأعلىٰ
٨٣	والّيل إذا يغشىٰ
٨٤	الفَجر
٨٥	البُروج
٨٦	انشقّت
٨٧	اقرا باسم ربّك
٨٨	لاأُقسم بهذا البلد

التّسلسل	الأسماء
٨٩	والضّحىٰ
٩٠	المنشرح
٩١	والسّماء والطّارق
٩٢	والعاديات
٩٣	اَراَيت
٩٤	القارعة
٩٥	لم يكن الّذين كفروا
٩٦	وَالشّمس وضحٰيها
٩٧	التّين
٩٨	ويلٌ لكلّ همزة
٩٩	الفيل
١٠٠	لايلاف قريش
١٠١	التّكاثر
١٠٢	انّا انزلناه
١٠٣	والعَصر
١٠٤	اذا جآء نصر الله
١٠٥	الكوثر
١٠٦	الكافرون
١٠٧	المسد (تبّت)
١٠٨	قل هو الله احدٌ

فذلك مأة و عشر سور[1]

و في رواية أُخرى الطّور قبل الذّاريات، قال أبو[2] شاذان قال ابن سيرين و كان عبدالله بن مسعود لا يكتب المُعوّذتين في مُصحفه و لافاتحة الكتاب وروى الفضل بإسناده عن الأعمش قال في قوله في قراءة عبدالله حمٓسٓقٓ قال محمّد بن إسحاق رأيت عدّة مَصاحف ذكر نُسّاخها أنّهامُصحَف ابن مسعود ليس فيها مُصْحَفين متفّقين و أكثرها في رقٍّ كثير النّسخ و قد رأيت مُصحَفًا قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة الكتاب و الفضل بن شاذان أحد الأئمّة في القرآن و الرّوايات فلذلك ذكرنا ماقاله دون ما شَهِدناه.

١ ـ كذا في الفهرست و هو لا يوافق العدد المذكور في الجدول.

٢ ـ كذا في الأصل. والظّاهر: ابن شاذان.

جدول الرّقم ٥

ترتيب القرآن عند ابن النّديم في مُصحف أُبيّ بن كعب برواية ابن شاذان

قال الفَضْل بن شاذان: أخبرنا الثّقة من أصحابنا قال كان تأليف السُّور في قراءة أُبيّ بن كعب بالبَصْرة في قرية يقال لها قرية الأنصار على رأس فرسخين عند محمّد بن عبدالملك الأنصاريّ أخرج إلينا مُصحفًا و قال هو مُصحَف أُبيّ رويناه عن آبائنا فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السُّور و خواتيم السُّور و عدد الآي فأوّله فاتحة الكتاب....

١	فاتحة الكتاب
٢	البقرة
٣	النّساء
٤	آل عمران
٥	الأنعام
٦	الأعراف
٧	المائدة[1]
٨	الأنفال
٩	التّوبة
١٠	هُود
١١	مريم
١٢	الشُّعراء
١٣	الحجّ
١٤	يُوسِفُ
١٥	الكهف
١٦	النّحل
١٧	الأحزاب
١٨	بني اسرائيل
١٩	الزُّمَر
٢٠	حمّ تنزيل
٢١	طٰهٰ
٢٢	الأنبياء
٢٣	النُّور
٢٤	المُؤمنون
٢٥	حمّ المؤمن
٢٦	الرّعد
٢٧	طسٓمٓ
٢٨	القصص
٢٩	طسٓ
٣٠	سُليمان
٣١	الصّافّات
٣٢	داود
٣٣	صٓ
٣٤	يسٓ
٣٥	أصحاب الحجر
٣٦	حمٓ عٓسٓقٓ
٣٧	الرّوم
٣٨	الزُّخْرُف

١ ـ الّذي التبسته يونس

٣٩	حمٓ السّجدة
٤٠	ابراهيم
٤١	الملائكة
٤٢	الفتح
٤٣	محمّد(ص)
٤٤	الحديد
٤٥	الظّهار
٤٦	تَبارك
٤٧	الفُرقان
٤٨	المٓ تنزيل
٤٩	نُوح
٥٠	الأحقاف
٥١	قٓ
٥٢	الرَّحمن
٥٣	الواقعة
٥٤	الجنّ
٥٥	النّجم
٥٦	نٓ
٥٧	الحاقّة
٥٨	الحشر
٥٩	الممتحنة
٦٠	المُرسلات
٦١	عَمَّ يتساءلون
٦٢	الإنسان

٦٣	لاأُقسمُ
٦٤	كُوِّرت
٦٥	النّازعٰات
٦٦	عَبَسَ
٦٧	المُطفّفين
٦٨	إذاالسّماءانشقّت
٦٩	التّين
٧٠	اقرأباسم ربِّك
٧١	الحُجُرات
٧٢	المُنافقون
٧٣	الجُمُعة
٧٤	النّبيّ(ص)
٧٥	الفجر
٧٦	المُلْك
٧٧	والّيل إذا يغشىٰ
٧٨	إذاالسّماءانفطرت
٧٩	والشّمس وضُحيٰها
٨٠	والسّماءذات البروج
٨١	الطّارق
٨٢	سبّح اسم ربّك الأعلىٰ
٨٣	الغاشية
٨٤	عَبَسَ
٨٥	الصّفّ
٨٦	الضُّحىٰ

٨٧	المٓ نشرح
٨٨	القارعة
٨٩	التّكاثر
٩٠	الخلع
٩١	الجيد
٩٢	اللّهم ايّاك نعبد[١]
٩٣	اذازُلزلت
٩٤	العاديات
٩٥	أصحاب الفيل
٩٦	التّين
٩٧	الكوثر
٩٨	القدر
٩٩	الكافرون
١٠٠	النَّصر
١٠١	اَبِى لهب
١٠٢	قُريش
١٠٣	الصَّمد
١٠٤	الفلق
١٠٥	النّاس

١ ـ و آخرها بالكفّار ملحق اللّمز

فذلك مائة و ستّ عشرة سُورة.[١]

قال إلى هاهنا أصبتُ في مُصحَف أُبيّ بن كعب، و جميع آي القرآن في قول أُبيّ بن كعب ستّة آلاف آية و مائتان و عشر آيات، و جميع عدد سُور القرآن في قول عطاء بن يَسار مائة و أربع عشرة سُورة و آياته ستّة آلاف و مائة و سبعون آية، و كلماته سبعة وسبعون ألفا و أربعمائة و تسعة و ثلاثون كلمة، و حروفه ثلثمائة ألف حرف و ثلاثة وعشرون ألفًا و خمسة عشر حرفًا.

و في قول عاصم الجَحْدَريّ: مائة و ثلاثة عشر سورة و جميع آيات القرآن في قول يحيى بن الحارث الذّمارِيّ ستّة آلاف و مائتان و ستّة و عشرون آية، و حروفه ثلثمائة ألف حرف واحد و عشرون ألف حرف و خمسمائة و ثلاثون حرفًا.

١ ـ كذا في الفهرست و هو لايوافق العدد المذكور في الجدول.

جدول الرّقم ٦

ترتيب السّور عند صاحب «المباني» برواية أبي صالح عن ابن عبّاس

أوّل شيءٍ نزل بمكّة

١	اِقْرَأْ	١٩	وَالنَّجْمِ
٢	نٓ وَالْقَلَمِ	٢٠	عَبَسَ وَ تَوَلّٰى
٣	وَالضُّحىٰ	٢١	اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ
٤	يَاءَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ	٢٢	الحجّ
٥	يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ	٢٣	وَالشَّمْس
٦	تَبَّت يَدَا	٢٤	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
٧	اِذَا الشّمسُ كُوِّرَتْ	٢٥	وَالتِّين و الزَّيْتُونِ
٨	الأعلى	٢٦	لايلافِ
٩	والَّيْلِ اِذَا يَغشَىٰ	٢٧	القارعة
١٠	وَالْفجْر	٢٨	القيٰمة
١١	اَلَمْ نَشْرَحْ	٢٩	هُمَزة
١٢	وَالْعَصْر	٣٠	وَالْمُرْسَلاَتِ
١٣	اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ	٣١	قٓ
١٤	اَلهيٰكُمُ التَّكَاثُر	٣٢	البلد
١٥	اَرَاَيْتَ الَّذى	٣٣	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ
١٦	اَلَمْ تَرَ	٣٤	اِقْتَرَبَت السَّاعَةُ
١٧	قُلْ يَاءَيُّهَا الْكَافِرونَ	٣٥	صٓ
١٨	قُلْ هُوَاللّٰهُ اَحَدُ	٣٦	الأعراف

٣٧	قُل أُوحِيَ
٣٨	يسٓ وَالْقُرانِ
٣٩	الفُرقان
٤٠	الملائكة
٤١	مَريم
٤٢	سورة موسى
٤٣	الشُّعراء
٤٤	النَّمل
٤٥	القصص
٤٦	بني اسرائيل
٤٧	يونس
٤٨	هود
٤٩	يوسف
٥٠	الحِجر
٥١	الأنعام
٥٢	الصَّافَّات
٥٣	لُقمان
٥٤	سبأ
٥٥	الغرف (تنزيل ـ الزُّمَر)
٥٦	حمٓ المؤمن
٥٧	حمٓ السّجدة
٥٨	عسٓقٓ
٥٩	الزُّخرُف
٦٠	الدّخان
٦١	الجاثيه

٦٢	الأحقاف
٦٣	الذّاريات
٦٤	هَلْ اَتيكَ
٦٥	الكهف
٦٦	النّحل
٦٧	نوح
٦٨	ابراهيم
٦٩	اقتربت[١]
٧٠	الأنبياء
٧١	المؤمنون
٧٢	آلمٓ السّجدة
٧٣	الرّعد
٧٤	الطّور
٧٥	تبارك المُلك
٧٦	الحاقّة
٧٧	سَاَلَ سَائِلٌ
٧٨	عَمَّ يَتَسَائَلُونَ
٧٩	النّازعات
٨٠	اِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ
٨١	اِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ
٨٢	الرّوم
٨٣	العنكبوت

١ ـ كذا في الأصل، والمراد سورة الرّحمن.

أوّل شيءٍ نزل بالمدينة:

١	وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ
٢	البقرة
٣	الأنفال
٤	آل عمران
٥	الأحزاب
٦	الممتحنة
٧	النّساء
٨	إذَا زُلزِلَت
٩	الحديد
١٠	سورة محمّد(ص)
١١	هَلْ أتَى عَلَى الإنْسَانِ
١٢	الطّلاق
١٣	سورة لم يكن
١٤	الحشر
١٥	إذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ
١٦	إذَاجَاءَكَ المُنَافِقُونَ
١٧	النّور
١٨	المجادلة
١٩	الحُجُرات
٢٠	لم تحرِّم
٢١	الجُمُعة
٢٢	التَّغابُن
٢٣	الصّف
٢٤	الفتح
٢٥	المائدة
٢٦	التّوبة[١]

١ ـ و هي آخر القرآن أو سورة المائدة.

جدول الرّقم ٧

ترتيب السّور عند صاحب «المباني» برواية عثمان بن عطاء عن ابن عبّاس

ما أُنزل بمكّة

١	اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك
٢	نٓ وَالْقَلَمِ
٣	المزّمّل
٤	المدّثّر
٥	تبَّت
٦	اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ
٧	سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ
٨	وَالَّيْلِ اِذَا يَغْشَى
٩	وَالْفَجْر
١٠	وَالضُّحَى
١١	اَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْرِ
١٣	وَالْعَادِيَاتِ
١٤	اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ
١٥	اَلهيكمُ
١٦	اَرَاَيْتَ
١٧	الكافرون
١٨	اَلَمْ تَرَ
١٩	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ
٢٠	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٢١	قُلْ هُوَاللهُ اَحَدٌ
٢٢	وَالنَّجْمِ
٢٣	عَبَسَ
٢٤	اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ
٢٥	وَالشَّمْس
٢٦	البُرُوج
٢٧	التّين
٢٨	لايلاَفِ
٢٩	القارعة
٣٠	القيٰمة
٣١	الهُمَزَة
٣٢	والْمُرْسَلاَتِ
٣٣	قٓ
٣٤	البَلَدَ
٣٥	الطّارق
٣٦	اِقْتَرَبَت السَّاعَةُ
٣٧	صٓ
٣٨	الأعراف

۳۹	قُلْ أُوحِيَ
٤٠	يسٓ
٤١	الفرقان
٤٢	الملائكة
٤٣	كٓهيعصٓ
٤٤	طٰهٰ
٤٥	إِذَا وَقَعَتِ
٤٦	الشّعراء
٤٧	النّمل
٤٨	القصص
٤٩	بنى اسرائيل
٥٠	يونس
٥١	هود
٥٢	يوسف
٥٣	الحِجر
٥٤	الأنعام
٥٥	الصّافّات
٥٦	لقمان
٥٧	سبأ
٥٨	الزُّمَر
٥٩	حمٓ المؤمن
٦٠	حمٓ السّجدة
٦١	حمٓ عسق
٦٢	حمٓ الزُّخرُف
٦٣	حمٓ الدّخان

٦٤	حمٓ الجاثية
٦٥	حمٓ الأحقاف
٦٦	الذّاريات
٦٧	الغاشية
٦٨	الكهف
٦٩	النّحل
٧٠	نوح
٧١	ابراهيم
٧٢	الأنبياء
٧٣	المؤمنون
٧٤	المٓ تنزيل
٧٥	الطّور
٧٦	المُلْك
٧٧	الحاقّة
٧٨	ذى المعارج
٧٩	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ
٨٠	النّازعات
٨١	انفطرت
٨٢	انشقّت
٨٣	الرّوم
٨٤	العنكبوت
٨٥	المطفّفين

فهذه ما أُنزلت بمكّة، و هي خمس و ثمانون سورة.

وما أُنزل بالمدينة

١	البقرة
٢	الأنفال
٣	آل عمران
٤	الأحزاب
٥	الممتحنة
٦	النّساء
٧	اِذَا زُلْزِلَت
٨	الحديد
٩	محمّد(ص)
١٠	الرّعد
١١	الرّحمن
١٢	هَلْ اَتٰى

١٣	الطّلاق
١٤	لَمْ يَكُن
١٥	الحشر
١٦	اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ
١٧	النّور
١٨	الحجّ
١٩	المنافقون
٢٠	المجادلة
٢١	الحُجُرات
٢٢	لِمَ تُحَرِّمُ
٢٣	الجُمُعة
٢٤	التَّغَابُن

فجميع سورالقرآن مائة و ثلاث عشرة سورة.[١]

---

١ ـ و لكن لم يذكر سوى مائة و تسع سور، و سقط منه أربع سُوَر، هي: سورة الصّف و الفتح و المـائدة و التّوبة(م)

جدول الرّقم ٨

ترتيب السّور عند صاحب «المباني» برواية عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله

ما أُنزل بمكّة

١	الفاتحة
٢	اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
٣	نٓ وَالْقَلَمِ
٤	يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ
٥	ياءَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ
٦	اِذَا الشَّمْس
٧	سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ
٨	والَّيْلِ
٩	وَالْفَجْرِ
١٠	وَالضُّحَىٰ
١١	اَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْر
١٣	وَالْعَادِيَات
١٤	الكوثَر
١٥	اَلْهٰيكُم
١٦	اَرَاَيْتَ
١٧	الكافِرون
١٨	اَلَمْ تَرَ

١٩	الفَلَق
٢٠	النَّاس
٢١	الإخلاص
٢٢	عَبَسَ
٢٣	اِنَّااَنْزَلْنَاهُ
٢٤	وَالشَّمْسِ
٢٥	البُرُوج
٢٦	والتِّينِ
٢٧	لاِيْلاَفِ
٢٨	القَارِعَة
٢٩	القيٰمة
٣٠	هُمَزَة
٣١	المُرسلات
٣٢	قٓ
٣٣	البَلَد
٣٤	الطَّلاق
٣٥	السَّاعَة
٣٦	صٓ

٣٧	المٓص
٣٨	قُلْ أُوحِيَ
٣٩	يسٓ
٤٠	الفرقان
٤١	المَلائكَة
٤٢	كهيعٓص
٤٣	طه
٤٤	الواقِعَة
٤٥	الشُّعراء
٤٦	النَّمل
٤٧	القَصَص
٤٨	سُبحَان
٤٩	يونُس
٥٠	هُود
٥١	يُوسُف
٥٢	الحِجْر
٥٣	الأنعام
٥٤	الصَّافَّات

٥٥	لُقمان
٥٦	سبأ
٥٧	الزُّمَر
٥٨	الحواميمات
٥٩	وَالذّاريات
٦٠	الغَاشية
٦١	الكَهْف
٦٢	النَّمل

٦٣	اِنّا اَرْسَلْنَاكَ
٦٤	ابْراهيم
٦٥	الأنبياء
٦٦	المُؤْمِنُون
٦٧	آلم السَّجْده
٦٨	والطُّور
٦٩	المُلْك
٧٠	الحَاقّة

٧١	سَاَلَ سَائِلٌ
٧٢	عَمَّ يَتَسَائَلُون
٧٣	النّازعات
٧٤	انْفطَرَتْ
٧٥	الرُّوم
٧٦	العَنكبوت
٧٧	المُطَفِّفين
٧٨	انْشَقَّتْ

و ما أُنزل بالمدينة

١	البَقَرة
٢	الأنفال
٣	آل عمران
٤	الأَحزاب
٥	الممتحنة
٦	النِّسَاء
٧	اِذَا زُلْزِلَتِ
٨	اَلحَديد
٩	مُحَمَّد(ص)
١٠	الرَّعْد
١١	الرَّحمٰن
١٢	هَلْ اَتٰى
١٣	الطَّلاق
١٤	لَمْ يَكُن
١٥	الحَشْر
١٦	اِذَا جَآءَ نَصْرُاللهِ

١٧	النُّور
١٨	الحَجّ
١٩	المنافِقون
٢٠	المجادله
٢١	الحُجُرات
٢٢	التَّحْريم
٢٣	الجُمُعَة
٢٤	التَّغابُن
٢٥	الفَتْح
٢٦	المَائِدة
٢٧	التَّوبة
٢٨	النَّجم [١]

١ ـ لايوجد في هذا الجدول سورة الصّف و لا سورة المسد.

جدول الرّقم ٩

ترتيب السّور عند الشّهرستاني بروايات مختلفة كمايلي

التّسلسل	العدد	مُقاتل عن رجالة	مُقاتل عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه	عن ابن عباس	ابن واقد	عن الصّادق عليه السلام
١	ا	اِقرأ	اِقْرَأْ	اِقرا	اِقْرا	اِقْرآ
٢	ب	نٓ	نٓ	نٓ	نٓ	نٓ
٣	ج	والضّحى	المزّمّل	والضّحى	المزّمل	المزّمل
٤	د	المزّمّل	المدّثّر	المزمّل	المدّثر	المدّثر
٥	ه	المدّثّر	تبّت	المدّثّر	تبّت	تبّت
٦	و	تبّت	كُوِّرت	الفاتحة	كُوِّرت	كُوِّرت
٧	ز	كُوِّرت	الأعلى	تبّت	الأعلى	الأعلى
٨	ح	الأعلى	والّيل	كُوِّرت	والّيل	والّيل
٩	ط	والّيل	والفجر	الأعلى	والفجر	والفجر
١٠	ى	والفجر	والضّحى	واللّيل	والضّحى	والضّحى
١١	يا	اَلَم نشرح	اَلَم نشرح	والفجر	اَلَم نشرح	اَلَم نشرح
١٢	يب	الرّحمن	والعصر	اَلَم نشرح	والعصر	والعصر
١٣	يج	الكوثر	الكوثر	الرّحمن	والعاديات	والعاديات
١٤	يد	التّكاثر	الدّين	والعصر	الكوثر	الكوثر
١٥	يه	الدّين	الكافرون	الكوثر	التّكاثر	التّكاثر
١٦	يو	الفيل	الفيل	التّكاثر	الدّين	الدّين
١٧	يز	الكافرون	الإخلاص	الدّين	الكافرون	الكافرون
١٨	يح	الإخلاص	التّكاثر	الفيل	الفيل	الفيل
١٩	يط	والنّجم	والنّجم	الكافرون	الفلق	الفلق
٢٠	ک	الأعمى	الأعمى	الإخلاص	النّاس	النّاس

التّسلسل	العدد	مُقاتل عن رجالة	مُقاتل عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه	عن ابن عباس	ابن واقد	عن الصّادق عليه السلام
٢١	كا	والشّمس	قريش	والنّجم	الإخلاص	الإخلاص
٢٢	كب	البروج	القارعة	الأعمى	والنّجم	والنّجم
٢٣	كج	التّين	القيٰمة	القدر	الأعمى	الأعمى
٢٤	كد	قريش	الهُمَزَة	والشّمس	القدر	القدر
٢٥	كه	القارعة	والمرسلات	البروج	والشّمس	والشّمس
٢٦	كو	القيٰمة	قٓ	والتّين	البروج	البروج
٢٧	كز	الهُمزة	الطّارق	قريش	والتّين	والتّين
٢٨	كح	والمرسلات	القمر	القارعة	قريش	قريش
٢٩	كط	قٓ	صٓ	القيٰمة	القارعة	القارعة
٣٠	ل	البلد	الجنّ	الهُمزة	القيٰمة	القيٰمة
٣١	لا	الطّارق	يٓس	والمرسلات	الهُمزة	الهُمزة
٣٢	لب	القمر	الفرقان	قٓ	والمرسلات	المرسلات
٣٣	لج	صٓ	الملائكة	البلَد	قٓ	قٓ
٣٤	لد	الأعراف	مريم	الطّارق	البلد	البلد
٣٥	له	الجنّ	طٰه	القمر	الطّارق	الطّارق
٣٦	لو	يسٓ	الواقعة	صٓ	القمر	القمر
٣٧	لز	الفرقان	الشّعراء	الأعراف	صٓ	صٓ
٣٨	لح	الملائكة	النّمل	الجن	الأعراف	الأعراف
٣٩	لط	مريم	القَصَص	يسٓ	الجنّ	الجنّ
٤٠	م	طٰه	هود	الفرقان	يسٓ	يسٓ
٤١	ما	الشّعراء	يوسف	الملائكة	الفرقان	الفرقان
٤٢	مب	النّمل	الحجّ	مريم	الملائكة	الملائكة
٤٣	مج	القَصَص	الأنعام	طٰه	مريم	مريم
٤٤	مد	بني اسرائيل	والصّافّات	الشّعراء	طٰه	طٰه
٤٥	مه	يونس	لقمان	النّمل	الواقعة	الواقعة
٤٦	مو	هود	سبأ	القَصَص	الشّعراء	الشّعراء
٤٧	مز	يوسف	الرّوم	بني اسرائيل	النّمل	النّمل
٤٨	مح	الحِجر	القدر	يونس	القَصَص	القَصَص

التّسلسل	العدد	مُقاتل عن رجالة	مُقاتل عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه	عن ابن عبّاس	ابن واقد	عن الصّادق عليه السلام
٤٩	مط	الأنعام	والشّمس	هود	بني اسرائيل	بني اسرائيل
٥٠	ن	والصّافّات	البروج	يوسف	يونس	يونس
٥١	نا	لقمان	والتّين	الحِجر	هود	هود
٥٢	نب	سبأ	المؤمن	الأنعام	يوسف	يوسف
٥٣	نج	الٓمٓ السّجدة	حمٓ السّجدة	والصّافّات	الحِجْر	الحِجْر
٥٤	ند	حمٓ المؤمن	الدّخان	لقمان	الأنعام	الأنعام
٥٥	نه	حمٓ السّجدة	حمٓ عٓسٓقٓ	سبأ	والصّافّات	والصّافّات
٥٦	نو	حمٓ عٓسٓقٓ	الجاثية	الزُّمَر	لقمان	لقمان
٥٧	نز	الزُّخْرُف	الأحقاف	المؤمن	سبأ	سبأ
٥٨	نح	الدّخان	الكهف	حمٓ السّجدة	الزُّمَر	الزُّمَر
٥٩	نط	الجاثية	الٓمٓ السّجدة	حمٓ عٓسٓقٓ	المؤمن	المؤمن
٦٠	س	الأحقاف	الأنبياء	الزُّخرُف	حمٓ السّجدة	حمٓ السّجدة
٦١	سا	الذّاريات	النّحل	الدّخان	حمٓ عٓسٓقٓ	حمٓ عسق
٦٢	سب	الغاشية	نوح	الجاثية	الزُّخرُف	الزُّخرُف
٦٣	سج	الكهف	إبراهيم	الأحقاف	الدّخان	الدّخان
٦٤	سد	النّحل	هُود	والذّاريات	الجاثية	الجاثية
٦٥	سه	نوح	المُلْك	الغاشية	الأحقاف	الأحقاف
٦٦	سو	ابراهيم	الحاقّة	الكهف	والذّاريات	والذّاريات
٦٧	سز	النّبأ	المعارج	النّحل	الغاشية	الغاشية
٦٨	سح	المؤمن	النّبأ	نوح	الكهف	الكهف
٦٩	سط	الرّعد	والنّازعات	ابراهيم	النّحل	النّحل
٧٠	ع	الطّور	والذّاريات	الأنبياء	نوح	نوح
٧١	عا	المُلْك	انشقّت	المؤمنون	ابراهيم	إبراهيم
٧٢	عب	الحاقّة	انفطرت	الرّعد	الأنبياء	الأنبياء
٧٣	عج	المعارج	الزُّمَر	الطّور	المؤمنون	المؤمنون
٧٤	عد	النّبأ	العنكبوت	المُلْك	آلٓمٓ السّجدة	آلٓمٓ السّجدة
٧٥	عه	والنّازعات	يونس	الحاقّة	الطّور	هود
٧٦	عو	انفطرت	الحِجر	المعارج	المُلْك	المُلْك

التّسلسل	العدد	مُقاتل عن رجالة	مُقاتل عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه	عن ابن عبّاس	ابن واقد	عن الصّادق عليه السلام
٧٧	عز	انشقّت	المؤمنون	النّبأ	الحاقّة	الحاقّة
٧٨	عح	الرّوم	المطفّفون	والنّازعات	المعارج	المعارج
٧٩	عط	العنكبوت	الأنفال	انفطرت	النّبأ	النّبأ
٨٠	ف	الإنسان	البقرة	انشقّت	والنّازعات	والنّازعات
٨١	فا	الزُّمَر	آل عمران	الرّوم	انفطرت	انفطرت
٨٢	فب	الواقعة	النّساء	العنكبوت	انشقّت	انشقّت
٨٣	فج	المطفّفون	المائدة	المطفّفون	الرّوم	الرّوم
٨٤	فد	الفاتحة	الأحزاب	البقرة	العنكبوت	العنكبوت
٨٥	فه	البقرة	الممتحنة	الأنفال	المطفّفون	المطفّفون
٨٦	فو	الأنفال	الحديد	آل عمران	البقرة	البقرة
٨٧	فز	آل عمران	محمّد(ص)	الحشر	الأنفال	الأنفال
٨٨	فح	الحشر	الرّعد	الأحزاب	آل عمران	آل عمران
٨٩	فط	الأحزاب	الرّحمن	النّور	الأحزاب	الأحزاب
٩٠	ص	النّور	الإنسان	الممتحنة	الممتحنة	الممتحنة
٩١	صا	الصّمد	الطّلاق	الفتح	النّساء	النّساء
٩٢	صب	الفتح	لم يكن	النّساء	اذازُلزِلت	إذازُلزِلت
٩٣	صج	النّساء	الشّمس	اذازُلزِلَت	الحديد	الحديد
٩٤	صد	اذازُلزِلَت	اذا زُلزِلت	الحجّ	محمّد(ص)	محمّد(ص)
٩٥	صه	والعصر	النّصر	الحديد	الرّعد	الرّعد
٩٦	صو	الحجّ	النّور	محمّد(ص)	الرّحمن	الرّحمن
٩٧	صز	الحديد	المنافقون	الإنسان	الإنسان	الإنسان
٩٨	صح	محمّد(ص)	المجادلة	الطّلاق	الطّلاق	الطّلاق
٩٩	صط	الطّلاق	الحُجُرات	لم يكن	لم يكن	لم يكن
١٠٠	ق	القدر	المتحرّم	الجُمُعة	الحشر	الحشر
١٠١	قا	لم يكن	الجُمُعة	الٓمٓ السّجدة	النّصر	النّصر
١٠٢	قب	الجُمُعة	الصّفّ	المنافقون	النّور	النّور
١٠٣	قج	المنافقون	التّوبة	المجادلة	الحجّ	الحجّ
١٠٤	قد	المجادلة	الفلق	الحُجُرات	المنافقون	المنافقون

التسلسل	العدد	مُقاتل عن رجالة	مُقاتل عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه	عن ابن عبّاس	ابن واقد	عن الصّادق عليه السلام
١٠٥	قه	الحُجُرات	النّاس	المتحرّم	المجادلة	المجادلة
١٠٦	قط	المتحرّم	الفتح	التّغابن	الحُجُرات	الحجرات
١٠٧	قز	التّغابن	القارعة	الصّفّ	المتحرّم	المتحرّم
١٠٨	قح	الصّفّ	والعاديات	المائدة	الصّفّ	الصّفّ
١٠٩	قط	المائدة	الأعراف	التّوبة	الجُمُعة	الجُمُعة
١١٠	قي	التّوبة	بني اسرائيل	النّصر	التّغابن	التّغابن
١١١	قيا	النّصر	الغاشية [١]	الواقعة	الفتح	الفتح
١١٢	قيب	العاديات		والعاديات	التّوبة	التّوبة
١١٣	قيج	الفلق		الفلق	المائدة [٢]	المائدة [٣]
١١٤	قيد	النّاس		النّاس		

١ ـ سقط منه والزُّخرُف و التّغابن و البلد.

٢ ـ سقط منه الفاتحة لاخلاف بينهما إلاّ في هذه السّورة.

٣ ـ لم يذكر الفاتحة قال هي: و البقرة في كراسة مفردة و الجملة حرفًا (كذا) و المعوّذتان على الحاشية.

جدول الرّقم ١٠

ترتيب السّور عند ابن طاووس

السّور الّتي نزلت كلّها بمكّة فهي تسع و أربعون سورة و هي[١]:

١	يوسف
٢	الأنبياء
٣	النّمل
٤	الرّوم
٥	سبأ
٦	فاطر
٧	الصّافّات
٨	صٓ
٩	حمٓ السّجدة
١٠	الدُّخان
١١	الذّاريات
١٢	الطّور
١٣	المُلْك
١٤	الحاقّة
١٥	القلم
١٦	المعارج

١٧	نوح
١٨	الجنّ
١٩	المدّثّر
٢٠	القيٰمة
٢١	المُرسلات
٢٢	الصّافّات
٢٣	النّازعات
٢٤	عَبَسَ
٢٥	العشار
٢٦	الانفطار
٢٧	الانشقاق
٢٨	البُروج
٢٩	الطّارق
٣٠	الأعلى
٣١	الغاشية
٣٢	والفَجْر

٣٣	والشّمس
٣٤	واللّيل
٣٥	والضّحىٰ
٣٦	اَلَم نَشْرَح
٣٧	والتّين
٣٨	العلق
٣٩	القدر
٤٠	العاديات
٤١	والقارعة
٤٢	التّكاثر
٤٣	والعصر
٤٤	الهُمَزة
٤٥	الفيل
٤٦	قُريش
٤٧	الكوثر
٤٨	والكافرون

١ ـ و لكنّ إحصاءُها طبق نصّه ٤٨ سورة، إذا كرّر سورة الصّافات فيه.

السّور الّتي نزلت بمكّة إلاّ آيات منها نزلت بالمدينة فهي تسع و عشرون سورة و هي:[١]

١	الأنعام	إلاّ ستّ آيات
٢	هود	إلاّ آية
٣	الحِجْر	إلاّ آية
٤	النّحل	إلاّ خمس آيات
٥	بني اسرائيل	إلاّ خمس آيات
٦	الكهف	إلاّ آية
٧	مريم	إلاّ آية
٨	طٰهٰ	إلاّ آية
٩	المؤمنون	إلاّ أربع عشرة آية
١٠	الفرقان	إلاّ ثلاث آيات
١١	الشّعراء	إلاّ أربع آيات
١٢	القَصَص	إلاّ آية
١٣	لقمان	إلاّ آيتين
١٤	السّجدة	إلاّ ثلاث آيات
١٥	يسٓ	إلاّ آية
١٦	الزّمر	إلاّ ثلاث آيات
١٧	حمٓ المؤمن	إلاّ آيتين
١٨	الزُّخرُف	إلاّ آية
١٩	عَبَسَ	إلاّ سبع آيات
٢٠	الجاثية	إلاّ آية
٢١	الأحقاف	إلاّ ستّ آيات
٢٢	قٓ	إلاّ آية
٢٣	النّجم	إلاّ تسع آيات
٢٤	القمر	إلاّ آيتين
٢٥	الواقعة	إلاّ أربع آيات
٢٦	المطفّفين	إلاّ ستّ آيات

١ ـ ولكن إحصاءها طبق نصّه ستّ و عشرون سورة.

و أمّا السّور الّتي نزلت كلّها بالمدينة فهي اثنتا عشرة سورة، و هي:

١	آل عمران	٧	الحَشر
٢	التّوبة	٨	الجُمُعة
٣	النّور	٩	المنافقون
٤	الأحزاب	١٠	الطّلاق
٥	القتال	١١	التّحريم
٦	الحُجُرات	١٢	النّصر

و أمّا السّور الّتي نزلت بالمدينة إلاّ آيات منها نزلت بمكّة و هي ثمان سور:

١	البقرة إلاّ خمس آيات	٥	الفتح إلاّ ثلاث آيات
٢	النّساء إلاّ آيتين	٦	المُجادلة إلاّ آية
٣	المائدة إلاّ آية	٧	المودّة إلاّ آية
٤	الأنفال إلاّ آيتين	٨	التّغابُن إلاّ ثلاث آيات

جدول الرّقم ١١

ترتيب السّور عند الخازن

مانزل من القرآن بمكّة

١	اِقرَأْ باسم ربّك
٢	ن وَالقَلَمِ
٣	ياءَيُّها المُزَمِّلُ
٤	يَاءَيُّهَا المُدَّثِّر
٥	تبّت يَدَا اَبي لَهَب
٦	اِذَا الشّمسُ كوِّرت
٧	سبّح اسْم ربّك الأعلى
٨	والّيْلِ إذَا يَغْشَى
٩	وَالْفَجْرِ
١٠	وَالضُّحَى
١١	اَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْرِ
١٣	وَالْعَادِيَاتِ
١٤	اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ
١٥	اَلْهيٰكمُ التَّكَاثُر
١٦	اَرَاَيْتَ الَّذى
١٧	قُل يَاءَيُّها الكَافرُون
١٨	الفيل

١٩	قُلْ هُوَاللهُ اَحَدُ
٢٠	وَالنَّجم
٢١	عَبَس
٢٢	القدر
٢٣	البُروج
٢٤	التّين
٢٥	لايلاف قُريش
٢٦	القارعة
٢٧	القيٰمة
٢٨	الهُمزة
٢٩	المُرسلات
٣٠	قٓ
٣١	البَلَد
٣٢	الطَّارق
٣٣	اقْتَرَبَتِ السَّاعة
٣٤	صٓ
٣٥	الأعراف
٣٦	الجنّ

٣٧	يسٓ
٣٨	الفُرقان
٣٩	فاطِر
٤٠	مريم
٤١	طٰهٰ
٤٢	الواقعة
٤٣	الشّعراء
٤٤	النّمل
٤٥	القَصَص
٤٦	بني اسرائيل
٤٧	يُونس
٤٨	هود
٤٩	يوسف
٥٠	الحِجر
٥١	الأنعام
٥٢	وَالصّافّات
٥٣	لقمان
٥٤	سبأ
٥٥	الزُّمر
٥٦	المؤمن
٥٧	السّجدة
٥٨	حمٓ عٓسٓقٓ
٥٩	الزُّخرُف
٦٠	الدُّخان

٦١	الجاثية
٦٢	الأحقاف
٦٣	الذّاريات
٦٤	الغاشية
٦٥	الكهف
٦٦	النّحل
٦٧	نوح
٦٨	ابراهيم
٦٩	قَدْ اَفْلَحَ المؤمِنُونَ
٧٠	تنزيل السّجدة
٧١	الطّور
٧٢	المُلْك
٧٣	الحاقّة
٧٤	سَاَلَ سَائِلٌ
٧٥	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ
٧٦	النّازعات
٧٧	إذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَت
٧٨	إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ
٧٩	الرّوم
٨٠	العَنْكَبُوت

مانزل بالمدينة

١	البقرة	١٦	الفلق
٢	الأنفال	١٧	النّاس
٣	آل عمران	١٨	اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ
٤	الأحزاب	١٩	الفتح
٥	المُمْتَحنة	٢٠	الحجّ
٦	النّساء	٢١	اِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُون
٧	اِذَا زُلزِلَتِ	٢٢	المجادلة
٨	الحديد	٢٣	الحُجُرات
٩	مُحمّد(ص)	٢٤	التّحريم
١٠	الرّعد	٢٥	الصّفّ
١١	الرّحمٰن	٢٦	الجُمُعة
١٢	هَلْ اَتىٰ	٢٧	التّغابُن
١٣	الطّلاق	٢٨	التّوبة
١٤	لَمْ يَكُن	٢٩	المائدة
١٥	الحَشْر		

جدول الرّقم ١٢

ترتيب السّور عند السّيوطي برواية يزيد النّحويّ عن عِكرِمة و الحسن[١]

ما أنزل الله من القرآن بمكّة

١	اِقرَاْ بِاسم رَبِّك
٢	نٓ والقلم
٣	المزّمّل
٤	المدّثّر
٥	تبّت يَدَا اَبى لَهَبٍ
٦	اِذَا الشّمسُ كُوِّرَتْ
٧	سَبِّح اسْمَ رَبِّك الاَعْلىٰ
٨	وَالَّيْلِ اِذَا يَغْشىٰ
٩	وَالْفَجْرِ
١٠	والضُّحىٰ
١١	اَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْر
١٣	وَالْعَادِيَاتِ
١٤	الكَوثَر
١٥	الهٰيكُمُ التَّكاثُرُ
١٦	اَرَاَيْتَ
١٧	قُلْ يَاءَيُّهَا الكَافِرُونَ
١٨	أصحاب الفيل
١٩	الفلق
٢٠	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٢١	قُلْ هُوَاللهُ اَحَدٌ
٢٢	وَالنَّجْمِ
٢٣	عَبَسَ
٢٤	اِنَّا اَنْزَلْنَاه
٢٥	وَالشَّمْسِ وَ ضُحيٰهَا
٢٦	وَالسَّماء ذَاتِ البُرُوجِ
٢٧	والتّين و الزَّيتُون
٢٨	لاِيلاٰفِ قُريش
٢٩	القارعة
٣٠	لاٰ اُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيٰمَة
٣١	الهُمَزة
٣٢	المُرسلات
٣٣	قٓ
٣٤	لاٰ اُقسِم بِهٰذَا الْبَلَدِ
٣٥	وَالسَّماءِ وَ الطَّارِق
٣٦	اقتَرَبَتِ السَّاعَة
٣٧	صٓ

١ ـ أي الحسن بن أبي الحسن.

٣٨	الجنّ
٣٩	يٰس
٤٠	الفرقان
٤١	الملائكة
٤٢	طٰهٰ
٤٣	الواقعة
٤٤	طٰسٓم
٤٥	طٰسٓ
٤٦	طٰسٓمٓ
٤٧	بني اسرائيل
٤٨	التّاسعة[1]
٤٩	هود
٥٠	يوسف
٥١	أصحاب الحِجْر
٥٢	الأنعام
٥٣	الصّافّات
٥٤	لقمان
٥٥	سبأ
٥٦	الزُّمَر
٥٧	حٰمٓ المؤمن
٥٨	حٰمٓ الدّخان
٥٩	حٰمٓ السّجدة
٦٠	حٰمٓ عٓسٓقٓ
٦١	حٰمٓ الزُّخرُف
٦٢	الجاثية
٦٣	الأحقاف

٦٤	الذّاريات
٦٥	الغاشية
٦٦	أصحاب الكهف
٦٧	النّحل
٦٨	نوح
٦٩	ابراهيم
٧٠	الأنبياء
٧١	المؤمنون
٧٢	الم السّجدة
٧٣	الطّور
٧٤	تبارك
٧٥	الحاقّة
٧٦	سأل
٧٧	عمّ يتسائلون
٧٨	النّازعات
٧٩	إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ
٨٠	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ
٨١	الرّوم
٨٢	العنكبوت

١ ـ يُريد بها سورة يونس.

و ما نزل بالمدينة

١	وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ
٢	البقرة
٣	آل عمران
٤	الأنفال
٥	الأحزاب
٦	المائدة
٧	الممتحنة
٨	النّساء
٩	إِذَا زُلْزِلَتْ
١٠	الحديد
١١	محمّد(ص)
١٢	الرّعد
١٣	الرّحمن
١٤	هَلْ اَتى عَلَى الاِنسانِ
١٥	الطّلاق

١٦	لم يكن
١٧	الحشر
١٨	اِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ
١٩	النّور
٢٠	الحجّ
٢١	المنافقون
٢٢	المجادلة
٢٣	الحُجُرات
٢٤	يَاءَيُّهَا النَّبىّ لِمَ تُحَرِّمُ
٢٥	الصّفّ
٢٦	الجُمُعَة
٢٧	التّغابُن
٢٨	الفتح
٢٩	براءة[١]

١ ـ البيهقيّ: و قد سقط من هذه الرّواية، الفاتحة و الأعراف و كهيعص فيما نزل بمكّة.

جدول الرّقم ١٣

ترتيب السّور عند السّيوطيّ برواية أُميّة الأزديّ عن جابربن يزيد

ماأنزل الله من القرآن بمكّة

١	اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّك
٢	نٓ وَالْقَلَم
٣	يَاءَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ
٤	يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ
٥	الفاتحة
٦	تبَّتْ يَدَا أبي لهب
٧	اِذَا الشَّمسُ كُوِّرَتْ
٨	سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْاَعْلىٰ
٩	وَالَّيْلِ اِذَا يَغْشىٰ
١٠	وَالْفَجْر
١١	وَالضُّحىٰ
١٢	اَلَمْ نَشْرَحْ
١٣	وَالْعَصْرِ
١٤	وَالْعَادِيَاتِ
١٥	الكوثر
١٦	اَلْهٰيكُم
١٧	اَرَاَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ
١٨	الكافرون
١٩	اَلَمْ تَرَ كَيْفَ
٢٠	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ
٢١	قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٢٢	قُلْ هُوَاللهُ اَحَدٌ
٢٣	النَّجم
٢٤	عَبَس
٢٥	اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ
٢٦	وَالشَّمْسِ وَ ضُحيٰهَا
٢٧	البروج
٢٨	والتّين
٢٩	لايْلاَفِ
٣٠	القارِعَة
٣١	القيٰمة
٣٢	وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ
٣٣	والمرسلات
٣٤	قٓ
٣٥	البلد
٣٦	الطّارق

٣٧	اقتربت السّاعة
٣٨	صٓ
٣٩	الأعراف
٤٠	الجنّ
٤١	يسٓ
٤٢	الفرقان
٤٣	الملائكة
٤٤	كٓهيٰعٓصٓ
٤٥	طٰه
٤٦	الواقعة
٤٧	الشّعراء
٤٨	طٰسٓ سليمان
٤٩	طٰسٓم القَصَص
٥٠	بني اسرائيل
٥١	التّاسعة (يونس)
٥٢	هود
٥٣	يوسف
٥٤	الحِجر
٥٥	الأنعام
٥٦	الصّافّات
٥٧	لقمان
٥٨	سبأ
٥٩	الزُّمَر
٦٠	حمٓ المؤمن
٦١	حمٓ السّجدة
٦٢	حمٓ الزُّخرُف

٦٣	حمٓ الدّخان
٦٤	حمٓ الجاثية
٦٥	حمٓ الأحقاف
٦٦	الذّاريات
٦٧	الغاشية
٦٨	الكَهف
٦٩	حمٓ عٓسٓق
٧٠	تنزيل السّجدة
٧١	الأنبياء
٧٢	النَّحل[١]
٧٣	اِنّٰا اَرْسَلْنَا نُوحًا
٧٤	الطُّور
٧٥	المؤمِنون
٧٦	تبارك
٧٧	الحاقّة
٧٨	سأل
٧٩	عمَّ يَتَسَائَلُونَ
٨٠	والنّازِعات
٨١	اِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ
٨٢	اِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ
٨٣	الرّوم
٨٤	العنكبوت
٨٥	وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

١ ـ أربعين آية و بقيتها بالمدينة.

و أمّا ما أُنزل بالمدينة

١	البقرة	١٠	المُنافقون
٢	آل عمران	١١	المُجادلة
٣	الأنفال	١٢	التّحريم
٤	الأحزاب	١٣	الجُمُعة
٥	المائدة	١٤	التّغابُن
٦	المُمتحنة	١٥	سَبَّح الحواريّين
٧	إِذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ	١٦	الفتح
٨	الحجّ	١٧	التَّوبة (خاتمة القرآن)
٩	البقرة		

جدول الرّقم ١٤

[أسامى السّور المكيّة و المدنيّة بحسب سنوات نزولها]

عند الحسينيّ المولويّ في «كشف الآيات»ص:٤٨٦

[سميّت لكلّ مجموعة من سورالقرآن الّتي نزلت خلال سنة واحدة من سنوات نزول القرآن ـ سواءً منها النّازلة في ١٣ سنة في مكّة أو ١٠ سنوات في المدينة ـ باسم خاصٍّ، وفقًا لاسم أوّل سورة أو وفقًا لمضمون بارز فيها، كما في الجدول التّالي:]

١ـ أسما السّور المكيّة

سنةالنّزول	اسم المجموعة	عددالسّور	أسماء السّور المنزلة
السّنةالأُولى	الافتتاحيّة	٢٦ سورة	١ـالفاتحة ٢ـالنّاس ٣ـالفلق ٤ـالاخلاص ٥ـتبّت (المَسَد) ٦ـالنّصر ٧ـالكافرون ٨ـالكوثر ٩ـالماعون ١٠ـقريش ١١ـالفيل ١٢ـالهُمَزة ١٣ـوالعصر ١٤ـالتّكاثر ١٥ـالقارعة ١٦ـوالعاديات ١٧ـالزّلزال ١٨ـالعلق ١٩ـالتّين ٢٠ـالانشراح ٢١ـوالضّحى ٢٢ـواللّيل ٢٣ـوالشّمس ٢٤ـالبلد ٢٥ـالفجر ٢٦ـالغاشية
السّنةالثّانيّة	الاستعلائيّة	١٣ سورة	١ـالأعلى ٢ـالطّارق ٣ـالبروج ٤ـالانشقاق ٥ـالتّطفيف ٦ـالانفطار ٧ـالتّكوير ٨ـعَبَسَ ٩ـوالنّازعات ١٠ـالنّبأ ١١ـالمرسلات ١٢ـالدّهر ١٣ـالقيٰمة

سنةالنّزول	اسم‌المجموعة	عددالسّور	أسماء السّور المنزلة
السّنةالثالثّة	الدّثاريّة	٨ سورة	١ـالمدّثّر ٢ـالمزمّل ٣ـالجنّ ٤ـنوح ٥ـالمعارج ٦ـالحاقّة ٧ـالقلم ٨ـالمُلك
السّنةالرّابعة	الواقعيّة	٧ سورة	١ـالواقعة ٢ـالرّحمٰن ٣ـالقمر ٤ـالنّجم ٥ـالطّور ٦ـالذّاريات ٧ـق
السّنةالخامسة	الاحقافيّة	٤ سورة	١ـالأحقاف ٢ـالجاثية ٣ـالدّخان ٤ـالزُّخرُف
السّنةالسّتّة	الشّوارئيّة	٤ سورة	١ـالشّورى ٢ـفُصِّلت ٣ـالمؤمن ٤ـالزُّمَر
السّنةالسّابعة	الدّاوديّة	٥ سورة	١ـص ٢ـالصّافات ٣ـيٓس ٤ـالفاطر ٥ـسبأ
السّنةالثّامنة	اللّاميّة	٤ سورة	١ـالسّجدة ٢ـلُقمان ٣ـالرّوم ٤ـالعنكبوت
السّنةالتّاسعة	الطّائيّة	٣ سورة	١ـالقَصَص ٢ـالنّحل ٣ـالشّعراء
السّنةالعاشرة	الفرقانيّة	٣ سورة	١ـالفرقان ٢ـالمؤمنون ٣ـالأنبياء
السّنةالحاديةعشرة	السّامريّة	٤ سورة	١ـطٰه ٢ـمريم ٣ـالكهف ٤ـالإسراء
السّنةالثّانيةعشرة	النّحليّة	٥ سورة	١ـالنّحل ٢ـالحِجر ٣ـابراهيم ٤ـالرّعد ٥ـيوسف
السّنةالثالثةعشرة	الهوديّة	٤ سورة	١ـهود ٢ـيونس ٣ـالأعراف ٤ـالأنعام

٢ـأسماء السّور المدنيّ

سنةالنّزول	اسم‌المجموعة	عددالسّور	أسماء السّور المنزلة
السّنةالأولى	الهجريّة	٤ سورة	١ـالقدر ٢ـالتّغابُن ٣ـالمنافقون ٤ـالجُمُعَة
السّنةالثّانية	البدريّة	٣ سورة	١ـالبيّنة ٢ـالصّفّ ٣ـالحديد
السّنةالثالثة	الأحُديّة	٢ سورة	١ـمحمّد ٢ـالمجادلة
السّنةالرّابعة	النّظيريّة	٢ سورة	١ـالحشر ٢ـالممتحنة
السّنةالخامسة	الخندقيّة	٢ سورة	١ـالحُجُرات ٢ـالحجّ
السّنةالسادسة	الحُديبيّة	٢ سورة	١ـالنّساء ٢ـالنّور
السّنةالسابعة	الخيبريّة	٣ سورة	١ـالطّلاق ٢ـالتّحريم ٣ـ الأحزاب
السّنةالثّامنة	الفتحيّة	٢ سورة	١ـالفتح ٢ـالأنفال
السّنةالتّاسعة	التّبوكيّة	٢ سورة	١ـالتّوبة ٢ـالبقرة
السّنةالعاشرة	الوداعيّة	٢ سورة	١ـآل‌عمران ٢ـالمائدة

جدول الرّقم ١٥

ترتيب السّور عند أبي عبدالله الزّنجانيّ

تاريخ نزول السّور

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
١	الحمد	... ...	نزلت بعد المدّثّر
٢		البقرة، إلاّ آية ٢٨١ فنزلت بمنىً في حجّة الوداع	أوّل سورة نزلت بالمدينة ... ...
٣	... ...	آل عمران	بعد الأنفال ...
٤	... ...	النّساء	بعد الممتحنة ...
٥	... ...	المائدة، إلاّ آية ٣ فنزلت بعرفات في حجّة الوداع	بعد الفتح ... ...
٦	الأنعام، إلاّ الآيات: ٢٠ و٢٣ و٩١ و٩٣ و١١٤ و١٤١ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣ فمدنيّة	... ...	بعد الحِجر ... ...
٧	الأعراف، إلاّ من آية: ١٦٣ إلى غاية آية: ١٧٠ فمدنيّة	... ...	بعد صٓ ... ...
٨		الأنفال، إلاّ من آية: ٣٠ إلى غاية آية: ٣٦ فمكّيّة	بعد البقرة

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
٩		التّوبة، إلاّ الآيتين الأخيرتين فمكّيّتان	بعد المائدة
١٠	يونس، إلاّ الآيات: ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنيّة		بعد الإسراء
١١	هود، إلاّ الآيات: ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنيّة		بعد يونس
١٢	يوسف، الاّ الآيات: ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنيّة		بعد هود
١٣		الرّعد	بعد محمّد
١٤	ابراهيم، إلاّ آيتي: ٢٨ و ٢٩ فمدنيّتان		بعد نوح
١٥	الحِجر، إلاّ آية ٨٧ فمدنيّة		بعد يُوسُف
١٦	النّحل، إلاّ الآيات الثّلاث الأخيرة		بعد الكهف
١٧	الإسراء، إلاّ الآيات: ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و من آية: ٧٣ إلى غاية آية: ٨٠ فمدنيّة		بعد القَصَص
١٨	الكهف، إلاّ آية: ٢٨ و من آية: ٨٣إلى غاية آية: ١٠١ فمدنيّة		بعد الغاشية
١٩	مريم، إلاّ آيتي: ٥٨ و ٧١ فمدنيّتان		بعدفاطر
٢٠	طه، إلاّ آيتي: ١٣٠ و ١٣١ فمدنيّتان		بعد مريم

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
٢١	الأنبياء		بعد ابراهيم
٢٢		الحجّ، إلاّ الآيـات: ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ فبين مكّة و المدينة	بعد النّور
٢٣	المؤمنون		بعد الأنبياء
٢٤		النّور	بعد الحشر
٢٥	الفُرقان، إلاّ الآيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنيّة		بعد يسٓ
٢٦	الشُّعراء، إلاّ آية: ١٩٧ و من ٢٢٤ إلى آخـر السّـورة فمدنيّة		بعد الواقعة
٢٧	النّمل		بعد الشّعراء
٢٨	القَصَص، إلاّ من آيـة: ٥٢ إلى غاية آية: ٥٥ فمدنيّة. و آيـة: ٨٥ فـبالجُحفة أثـناء الهجرة		بعد النّمل
٢٩	العنكبوت، إلاّ مـن آيـة: ١ إلى ١١ فمدنيّة		بعد الرُّوم
٣٠	الرّوم، إلاّ آية: ١٧ فمدنيّة		بعد الأنشقاق
٣١	لُـقمان، إلاّ الآيـات: ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنيّة		بعد الصّافّات
٣٢	السّجدة، إلاّ مـن آيـة: ١٦ إلى غاية آية: ٢٠ فمدنيّة		بعد المؤمنون
٣٣		الأحزاب	بعد آل عمران
٣٤	سبأ، إلاّ آية: ٦ فمدنيّة		بعد لقمان
٣٥	فاطر		بعد الفرقان

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
٣٦	يسٓ، إلاّ آية: ٤٥ فمدنيّة		بعد الجنّ
٣٧	الصّافّات		بعد الأنعام
٣٨	صٓ		بعد القمر
٣٩	الزُّمَر إلاّ الآيات: ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ فمدنيّة		بعد سبأ
٤٠	غافر، إلاّ آيتي: ٥٦ و ٥٧ فمدنيّتان		بعد الزُّمَر
٤١	فصّلت		بعد غافر
٤٢	الشّورى، إلاّ الآيات: ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و٢٧ فمدنيّة		بعد فصّلت
٤٣	الزُّخْرُف، إلاّ آية: ٥٤ فمدنيّة		بعد الشّورى
٤٤	الدّخان		بعد الزُّخرُف
٤٥	الجاثية، إلاّ آية: ١٤ فمدنيّة		بعد الدّخان
٤٦	الأحقاف، إلاّ الآيات: ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنيّة		بعد الجاثية
٤٧		محمّد (ص)، إلاّ آية: ١٣ فنزلت في الطّريق أثناء الهجرة	بعد الحديد
٤٨		الفتح، نزلت في الطّريق عند الانصراف من الحُدَيْبيّة	بعد الجُمُعة
٤٩		الحُجُرات	بعد المُجادلة
٥٠	قٓ، إلاّ آية: ٣٨ فمدنيّة		بعد المرسلات

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
٥١	الذّاريات		بعد الأحقاف
٥٢	الطّور		بعد السَّجدة
٥٣	النّجم، إلاّ آية: ٣٢ فمدنيّة		بعد الإخلاص
٥٤	القمر، إلاّ الآيات: ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمدنيّة		بعد الطّارق
٥٥		الرّحمن	بعد الرّعد
٥٦	الواقعة، إلاّ آيتي: ٨١ و ٨٢ فمدنيّتان		بعد طٰهٰ
٥٧		الحديد	بعد الزّلزلة
٥٨		المجادلة	بعد المنافقون
٥٩		الحشر	بعد البيّنة
٦٠		الممتحنة	بعد الأحزاب
٦١		الصَّفّ	بعد التّغابُن
٦٢		الجُمُعة	بعد الصَّفّ
٦٣		المنافقون	بعد الحجّ
٦٤		التّغابُن	بعد التّحريم
٦٥		الطّلاق	بعد الإنسان
٦٦		التّحريم	بعد الحُجُرات
٦٧	المُلك		بعد الطّور
٦٨	القلم، إلاّ من آية: ١٧ إلى غاية آية: ٣٣، و من آية: ٤٨ إلى غاية آية: ٥٠ فمدنيّة		بعد العَلَق
٦٩	الحاقّة		بعد المُلك

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
٧٠	المعارج		بعد الحاقّة
٧١	نوح		بعد النّحل
٧٢	الجنّ		بعد الأعراف
٧٣	المزّمّل، إلاّ الآيـات: ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنيّة		بعد القلم
٧٤	المدّثّر		بعد المزّمّل
٧٥	القيٰمة		بعد القارعة
٧٦		الإنسان	بعد الرّحمن
٧٧	المُـرسلات، إلاّ آيـة:٤٨ فمدنيّة		بعد الهُمَزة
٧٨	النّبأ		بعد المعارج
٧٩	النّازعات		بعد النّبأ
٨٠	عبس		بعد النّجم
٨١	التّكوير		بعد المَسد
٨٢	الانفطار		بعد النّازعات
٨٣	المطفّفين، و هي آخر سورة نزلت بمكّة		بعد العَنكبوت
٨٤	الانشقاق		بعد الانفطار
٨٥	البُروج		بعد الشّمس
٨٦	الطّارق		بعد البلد
٨٧	الأعلى		بعد التّكوير
٨٨	الغاشية		بعد الذّاريات
٨٩	الفجر		بعد الّيل
٩٠	البلد		بعد قٓ

العدد	السّور المكّيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
٩١	الشّمس		بعد القدر
٩٢	الّيل		بعد الأعلى
٩٣	الضُّحىٰ		بعد الفجر
٩٤	اَلَمْ نَشْرَح		بعد الضُّحىٰ
٩٥	التّين		بعد البُروج
٩٦	العلق، و هي أوّل مانزل من القرآن		
٩٧	القدر		بعد عَبَس
٩٨		البيّنة	بعد الطّلاق
٩٩		الزّلزلة	بعد النّساء
١٠٠	العاديات		بعد العصر
١٠١	القارعة		بعد قُريش
١٠٢	التّكاثر		بعد الكوثر
١٠٣	العصر		بعد اَلَمْ نَشْرَح
١٠٤	الهُمَزة		بعد القيّمة
١٠٥	الفيل		بعد الكافرون
١٠٦	قريش		بعد التّين
١٠٧	الماعون، الثّلاث الآيات الأوّل، و البقية مدنيّة		بعد التّكاثر
١٠٨	الكوثر		بعد العاديات
١٠٩	الكافرون		بعد الماعون
١١٠		النّصر، نزلت بمنىٰ في حجّة الوداع، فتعدّ مدنيّة	و هي آخر ما نزل من السُّور
١١١	المَسد		بعد الفاتحة
١١٢	الإخلاص		بعد النّاس
١١٣	الفلق		بعد الفيل
١١٤	النّاس		بعد الفلق

جدول الرّقم ١٦

ترتيب السّور عند عِزَّة دَرْوَزَة بمصادر مختلفة

السّور المكيّة

اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحف	اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحف
العلق	١	٩٦	الإخلاص	٢٢	١١٢
القلم	٢	٦٨	النّجم	٢٣	٥٣
المزّمّل	٣	٧٣	عبس	٢٤	٨٠
المدّثّر	٤	٧٤	القدر	٢٥	٩٧
الفاتحة	٥	١	الشّمس	٢٦	٩١
المسد	٦	١١١	البُروج	٢٧	٨٥
التّكوير	٧	٨١	التّين	٢٨	٩٥
الأعلى	٨	٨٧	قُريش	٢٩	١٠٦
الّيل	٩	٩٢	القارعة	٣٠	١٠١
الفجر	١٠	٨٩	القيٰمة	٣١	٧٥
الضّحى	١١	٩٣	الهُمَزة	٣٢	١٠٤
الشّرح	١٢	٩٤	المرسلات	٣٣	٧٧
العصر	١٣	١٠٣	قٓ	٣٤	٥٠
العاديات	١٤	١٠٠	البلد	٣٥	٩٠
الكوثر	١٥	١٠٨	الطّارق	٣٦	٨٦
التّكاثر	١٦	١٠٢	القمر	٣٧	٥٤
الماعون	١٧	١٠٧	صٓ	٣٨	٣٨
الكافرون	١٨	١٠٩	الأعراف	٣٩	٧
الفيل	١٩	١٠٥	الجنّ	٤٠	٧٢
الفلق	٢٠	١١٣	يسٓ	٤١	٣٦
النّاس	٢١	١١٤	الفُرقان	٤٢	٢٥

اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحف	اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحف
فاطِر	٤٣	٣٥	الجاثية	٦٥	٤٥
مريم	٤٤	١٩	الأحقاف	٦٦	٤٦
طٰهٰ	٤٥	٢٠	الذّاريات	٦٧	٥١
الواقعة	٤٦	٥٦	الغاشية	٦٨	٨٨
الشُّعراء	٤٧	٢٦	الكهف	٦٩	١٨
النّمل	٤٨	٢٧	النَّحل	٧٠	١٦
القَصَص	٤٩	٢٨	نوح	٧١	٧١
الإسراء	٥٠	١٧	ابراهيم	٧٢	١٤
يونس	٥١	١٠	الأنبياء	٧٣	٢١
هود	٥٢	١١	المؤمنون	٧٤	٢٣
يوسف	٥٣	١٢	السّجدة	٧٥	٣٢
الحِجر	٥٤	١٥	الطُّور	٧٦	٥٢
الأنعام	٥٥	٦	المُلْك	٧٧	٦٧
الصّافّات	٥٦	٣٧	الحاقّة	٧٨	٦٩
لقمان	٥٧	٣١	المعارج	٧٩	٧٠
سبأ	٥٨	٣٤	النّبأ	٨٠	٧٨
الزُّمَر	٥٩	٣٩	النّازعات	٨١	٧٩
غافر	٦٠	٤٠	الانفطار	٨٢	٨٢
فُصّلت	٦١	٤١	الانشقاق	٨٣	٨٤
الشّورى	٦٢	٤٢	الرُّوم	٨٤	٣٠
الزُّخرُف	٦٣	٤٣	العنكبوت	٨٥	٢٩
الدُّخان	٦٤	٤٤	المطفِّفون	٨٦	٨٣

السّور المدنية

اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحَف	اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحَف
البقرة	٨٧	٢	الحَشْر	١٠١	٥٩
الأنفال	٨٨	٨	النّور	١٠٢	٢٤
آل عمران	٨٩	٣	الحجّ	١٠٣	٢٢
الأحزاب	٩٠	٣٣	المنافقون	١٠٤	٦٣
الممتحنة	٩١	٦٠	المُجادلة	١٠٥	٥٨
النّساء	٩٢	٤	الحُجُرات	١٠٦	٤٩
الزّلزلة	٩٣	٩٩	التّحريم	١٠٧	٦٦
الحديد	٩٤	٥٧	التّغابُن	١٠٨	٦٤
محمّد(ص)	٩٥	٤٧	الصَّفّ	١٠٩	٦١
الرّعد	٩٦	١٣	الجُمُعة	١١٠	٦٢
الرّحمن	٩٧	٥٥	الفتح	١١١	٤٨
الإنسان	٩٨	٧٦	المائدة	١١٢	٥
الطّلاق	٩٩	٦٥	التّوبة	١١٣	٩
البيّنة	١٠٠	٩٨	النّصر	١١٤	١١٠

جدول الرّقم ١٧

ترتيب السّور عند الخطيب

السّور المكّيّة

التّسلسل	أسماء السُّور
١	اِقْرَأْ باسم ربِّك
٢	نٓ
٣	المزّمّل
٤	المدّثّر
٥	المَسَد
٦	التّكوير
٧	الأعلى
٨	الّيل
٩	الفَجر
١٠	الضُّحىٰ
١١	اَلَمْ نَشْرَح
١٢	العصر
١٣	العاديات
١٤	الكوثر
١٥	التّكاثر
١٦	الماعون
١٧	الكافرون

التّسلسل	أسماء السُّور
١٨	الفيل
١٩	الفلق
٢٠	النّاس
٢١	الإخلاص
٢٢	النّجم
٢٣	عَبَس
٢٤	القدر
٢٥	الشَّمس
٢٦	البُروج
٢٧	التّين
٢٨	قُريش
٢٩	القارعة
٣٠	القيٰمة
٣١	الهُمَزة
٣٢	المرسلات
٣٣	قٓ
٣٤	البلد

التّسلسل	أسماء السُّور
٣٥	الطّارق
٣٦	القمر
٣٧	صٓ
٣٨	الأعراف
٣٩	الجنّ
٤٠	يسٓ
٤١	الفُرقان
٤٢	المعارج
٤٣	مريم
٤٤	طٰهٰ
٤٥	الواقعة
٤٦	الشُّعراء
٤٧	النّمل
٤٨	القَصَص
٤٩	الإسراء
٥٠	يُونس
٥١	هود

التّسلسل	أسماء السُّور
٥٢	يوسف
٥٣	الحِجر
٥٤	الأنعام
٥٥	الصّافّات
٥٦	لُقمان
٥٧	سبأ
٥٨	الزُّمَر
٥٩	المؤمن
٦٠	حمٓ (السّجدة)
٦١	حمٓ عسق
٦٢	الزُّخرُف
٦٣	الدُّخان

التّسلسل	أسماء السُّور
٦٤	الجاثية
٦٥	الأحقاف
٦٦	الذّاريات
٦٧	الغاشية
٦٨	الكهف
٦٩	النَّحل
٧٠	نوح
٧١	ابراهيم
٧٢	الأنبياء
٧٣	المؤمنون
٧٤	الم (السّجدة)
٧٥	الطّور

التّسلسل	أسماء السُّور
٧٦	المُلك
٧٧	الحاقّة
٧٨	المعارج
٧٩	النّبأ
٨٠	النّازعات
٨١	الانفطار
٨٢	الانشقاق
٨٣	الرّوم
٨٤	العنكبوت
٨٥	المطفّفون

السُّور المدنيّة

التّسلسل	أسماء السُّور
٨٦	البقرة
٨٧	الأنفال
٨٨	آل عمران
٨٩	الأحزاب
٩٠	الممتحنة

التّسلسل	أسماء السُّور
٩١	النّساء
٩٢	الزّلزلة
٩٣	الحديد
٩٤	محمّد (ص)
٩٥	الرَّعد

التّسلسل	أسماء السُّور
۹٦	الرَّحمن
۹۷	الإنسان
۹۸	الطّلاق
۹۹	البيّنة
۱۰۰	الحشر
۱۰۱	النّصر
۱۰۲	النّور
۱۰۳	الحجّ
۱۰٤	المنافقون
۱۰٥	المجادلة

التّسلسل	أسماء السُّور
۱۰٦	الحُجُرات
۱۰۷	التّحريم
۱۰۸	الجُمُعة
۱۰۹	التّغابن
۱۱۰	الصّف
۱۱۱	الفتح
۱۱۲	التّوبة
۱۱۳	المائدة
۱۱٤	فاتحةالكتاب[۱]

(۱:۱۳)

۱ ـ اختلف في نزولها بمكّة أو بالمدينة و قيل إنّها نزلت مرّتين: مرّةً بمكّة و مرّةً بالمدينة.

فهرس الموضوعات

الباب الثّاني من القسم الأوّل: كيفيّة نزول الوحي

كيفيّة الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام

استراق السّمع قبل نزول الوحي على النّبيّ صلّى الله عليه و آله

نقض بعض روايات الوحي

الباب الثّالث من القسم الأوّل: بدء الوحي، أوّل و آخر ما نزل

بدء الوحي و كيفيّته

نقض حديث بدء الوحي

أوّل و آخر مانزل من القرآن

نقض الشُّبهة في آية الإكمال

بعثة النّبيّ صلّى الله عليه و آله

سير التّشريع الإسلاميّ

الباب الرّابع من القسم الأوّل: السّور المكّيّة و المدنيّة و ترتيب نزولها

الفرق بين المكّيّ و المدنيّ

أقسام عهد نزول القرآن

التّشريع الإسلاميّ في حياة رسول الله صلّى الله عليه و آله

عدد المكّيّ و المدنيّ و عدد الآيات فيهما

ترتيب السّور في المصاحف

العناوين المتفرّقة

جداول السّور المكّيّة و المدنيّة